عبد الرحمن بن زيد السويداء

وقع وصدى



مدخل

هذه مجموعة أحداث واقعية كان لحدوثها صدى في النفوس، وترتب عليها نتائج معينة في حياة مجموعة من أفراد المجتمع ذكوراً واناثاً، وقد حدثت في أوقات متفاوتة ومتباعدة وهي تعطي صوراً مختلفة لعدة من جوانب الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة قبل مئات السنين وحتى عصر النفط وقد حاولت جهدي في جمعها بهذا الكتاب الذي أسميته «**وَقْعُ وَصَدَى**» لعل القارئ الكريم أن يجد فيه ما يستمزجه فإن وجد ما يروق له فهذا ما كنت أصبو إليه وإن لم يجد فحسبي أنني قدمت ما أستطيع، علماً بأن مادة الكتاب قد أعدت وفسحت للطبع عام ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م وتحت وقع ظروف معينة تأخر ظهور الكتاب حتى هذا الوقت وقد أبقيته على ما كان عليه يومذاك.

١٠ / ٤ / ١٤١١هـ
٢٨ / ١٠ / ١٩٩٠م

عبدالرحمن

١ ـ أعطني هبتي قبل أن تنفد خزينتك [١]

كان الناس في الجزيرة العربية قبل ما يزيد على نصف قرن قد أنهكتهم الحروب ومزقتهم الفتن، وأرهقت كواهلهم الإضطرابات، وأفرغت جيوبهم المنازعات، ودهورت إقتصادهم الشحناء، قبل أن يلم شمل هذه الجزيرة ويوحدها جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه، في نهاية الخمسينيات من القرن الهجرى المنصرم. وإذا علمنا أن قُوَامَ الإقتصاد آنذاك يرتكز على الإنتاج المحلى من حقلى الزراعة والرعى اللذان يمثلان عصب الحياة بالإضافة إلى الحقول الأخرى المساعدة كالتجارة والمهن المختلفة، وأن أساس هذه الركائز يقوم على ماينزله الله من أمطار في موسم الشتاء والربيع، فإذا شح المطر أو عُدِمَ فعنى ذلك حلول الكارثة الإقتصادية ومايترتب عليها من تبعات، عند ذلك يتلفت الناس ليبحثوا عن منهل يردون اليه لريِّ ظمئهم، وملجـأ يفدون اليه لسدرمقهم، ولما كانوا متساوين في المستوى المادى على وجه التقريب، اذاً فلا مناص لهم من التوجه إلى حاكمهم الذى يسمونه «الإمام». أمام المسلمين، ذلك الحاكم الذى يعطف عليهم عطف الأب على أبنائه، رغم قلة ذات اليد عنده، في ذلك الوقت قبل أن يمن الله على البلاد بمردود الثروة النفطية، ولكن رغم ذلك فإنه يجودهم مما يملك، وربما بكل مايملك، عملاً بالقول المأثور «الجود من الموجود» فيوفر الطعام لآلاف الوافدين عليه من كل حدب وصوب على طول إقامتهم عنده بقدر إستطاعته، فيؤمِّنَ لهم الكساء اللازم ويصرف لهم هِبَات من المال تصرف لكل واحد يفد إليه، فيتكرر صرف هذه الهبة لتكون «عادة سنوية» وتتوافد هذه الجموع من مختلف أنحاء المملكة وربما من خارجها وكثير منهم يقابل جلالة الملك في مجلسه المتواضع، ويقول له حاجته أو يشتكى اليه وضعه المادى، فيلقى العطف الأبوى، وتقضى حاجته ثم يغادر العاصمة عائداً إلى بلده، وقد وصف أحد الشعراء العاميين وهو عبدالله القضاعى هذه الوفود بقصيدة منها.

١ خَضَعْ لَهُ البَادِيْ وَرَاعْ الرّسُوْمِي ويَامَا عَلَى قَطْرْ الصَّفَا وَرْدَنْ الغَيِسْ

(١) قصة حيد الغاشم حدثت ١٣٦٥هـ.

٢ ذَوْلـيْ صُـدُوْرٍ قَـاضِيَـاتٍ لـزُوْمِـي وَذَوْلي وُرُوْدٍ كَالـمْحَالِ آلـمَمارِسِ

كما تطرق الشاعر الى العطايا والهبات التى يبذلها الإمام لأولئك الوفود بقوله

٣ يُعْطِي عَطَا مِنْ لاَخَشَى الَفَقْر دَوْمِي مُعْطِيْ آلـمُهَارَ مْرَبَّعَات الفَوَاعِيْس

٤ مِـنْ طَلْعَتُهْ يُمنْاهْ بآلخَيْرِ تُوفِي عَـذْبْ بْـبَرّايْ آلـقَـلْم وَالْقَرَاطِيسْ

وبتجمع هذه الوفود من شمال المملكة وجنوبها، من شرقها وغربها يحصل التعارف والتآلف وهو أحد عناصر الإندماج والإلتحام بين أعضاء هذه الوفود، وملتقى إنتشار الأخبار، من أفواه هؤلاء الركبان سواء ماقدمُوا به من بلادهم، أو ماحملوه معهم من هذا التجمع الكبير وعادوا به إلى بلادهم ليرووه لمستمعيهم، وتجد بين هذه الوفد شيوخ القبائل، وزعماء العشائر، وأمراء القرى، وكل معه مجموعة من رفاقه ممن رغبوا فى مصاحبته، فإذا وصل هذا الموفد تقدم إلى المختص بأستقبال الوفود، ليسجل إسمه مع أفراد جماعته ثم تتخذ الإجراءات اللازمة لصرف الطعام والشراب لهم، ويتم إسكان بعضهم فى بيوت خاصة، والبعض الآخر يُحْضِرُونَ معهم الخيام لسكناهم، وفي اليوم الثانى يجرى الترتيب اللازم حسب برنامج معين لمقابلة الإمام للسلام عليه، وإن كان لأحدهم حاجة أولديه شكوى يمكنه أن يتقدم بها خطيا للإمام، ويشرحها له شفهيا، وتُقْضَىَ حاجته فى الحال بالأمر على الموظف المختص بقضاء مثل هذه الحاجات، ومن بين هذه الوفود تقدم سعد الى الإمام، مفيداً بأنه قد رَكبَهْ الدَّيْنُ، وتراكم على كاهله، حتى كاد أن يقصم ظهره، وسبب هذه الديون مايقدمه لِقِرَى ضيوفه، ومايقوم به من إلتزامات نحو الآخرين، وقد بَلغَتْ ديونه حداً كبيراً فى قياس ذلك الزمن، وعند ذلك طلب أن تكون مقابلته للإمام فى آخر الوفد حتى يتمكن من عرض موضوعه عليه، فكان له ماأراد، وعندما قابله قال له: السلام عليكم ورحمه الله وبركاته «ياالإمام أطال الله عمرك» أنا فلان الفلانى قد ركبنى الدين حتى أثقل عاتقى، وقد نفد كل مالي، ورهنت ممتلكاتى للتُّجاَّر، وأصبح ذِلُّ الدَّيْنِ يطاردنى أينما توجهت، وحيثما حللت، فهو يلازمنى ملازمة ظلِّي، فاستحييت من الناس بل أكاد استحي من نفسي!!

أعانك الله ياولدي!! وما سبب دينك هذا؟

سبب تراكم الدَّين علي أمد الله فى عمرك هو وجودي على طريق ممدود، بقرب عــدٍّ موورود، تغشى مكانى الوفود، فللضيوف حقهم، وعلي القيام بواجبهم، مع ماتعرفون عن الوضع السائد هذه الأيام من الجدب وشح الموارد.

وكم تقدر الديون التى عليك ياولدى؟

إنها كثيرة، كثيرة جداً، إنها تقارب مائه جنيه!!؟حقاً إنه مبلغ كبير، ولكن تستاهل للساعدة ياولدي، مادامت الديون قد كثرت عليك لهذا السبب، فما عليك الا أن تُحصْي جميع الديون التى بذمتك وتأتيني بها غداً فى مثل هذا الوقت.

أطال الله عمرك يا أبا تركى!!، ومتعنا بحياتك سنين وسنين! و يودع سعد الإمام و ينصرف من عنده على أمل العودة اليه فى الغد وعندما وصل إلى مقر إقامته وهو لايكاد يصدق ماسمعه من الإمام و يسأل نفسه، أحقا ستتحطم عنه تلك الأغلال التى يرسف فى ثقلها أحقا ستمزق عنه تلك الأوراق الخشنة من تلك الدفاتر الصفراء التى كبله بها التجار؟ وهل يعود إلى بلده مرفوع الرأس لايتناجى الهامسون بسيرته عندما يقبل عليهم؟ وهل يسلم من شروط فلان القاسية التى يمليها عليه، و يصفده بها كلما أتى اليه محتاجاً بعض النقود، أو بعض الطعام لتقديمه لضيوف حَلُّوا بداره؟ هذه التساؤلات قد خطرت بباله فور وصوله إلى خيمته، ولذلك إنتحى جانبا فى رواق الخيمة بعيداً قليلا عن صحبه الذين بدأ وايشاغلونه بالأسئله عما جرى له فى موقفه مع الإمام، فتركهم و بدأ يجمع ماعليه من المبالغ، يتذكرها وأصحابها واحداً بعد الآخر، آه فلان يريد منى عشرة جنيهات، وفلان أربعة، وفلان ستة أما فلان فيريد ثمانين ريالاً فضيًّا آه.. حقا إنها تساوى جنيهين فقط إنه مبلغ زهيد لايساوى ما أُلَاقيه منه من غليظ القول، ولكن صاحب الحق سلطان، هاه!! نجمع الجنيهان مع بعضها، بحيث نحول الريالات الى جنيهات حتى يكون الحساب صحيحاً حسبما تفوهت به للإمام، وبعد التحويل والجمع وصل مجموع المبلغ إلى ثمانين جنيها ذهبياً، وبعد الإنتهاء من إحصائها، عاد الى رفاقه وهو لايزال شارد الذهن لأن المبالغ التى

أحصاها لم تبلغ الرقم الذى أفضى به للإمام فما هو موقفه؟ أيقف أمام عبدالعزيز ليقول له إن ديونى لم تبلغ المائة جنيه التى قلت لك بالأمس؟ وفى هذا مافيه من احراج بالنسبة له!! أم يضيف مبالغ لاأساس لها ليصل إلى الرقم المطلوب؟ وهذا مالا تسمح به نفسه، و بينما هو فى تساؤلاته هذه، غارقاً فى تفكيره لَكَدَهُ أحد أصحابه برأس عصا الخيزران قائلاً: ياسُعَيد، مالك سارح فى التفكير وكأنك لست عندنا؟ هل شغلتك الدراهم عنا؟ أتحسب لشئ لم يأت بعد؟

آه.. لقد آلمتنى وكدت أن تشق جنبى فى خيزانتك!؟ ماحسبتك غشيماً لهذا الحد!؟

أريد أن تشاركنا الحديث، ويمكن أن يهديك الله وتعطينا مما يعطيك الإمام، يقولها ويغمز، و يتبعها بإبتسامة إستهزاء على سبيل المداعبة.

إن الذى يُقَصِّرُ عنكم أيها الرفاق معدوم البركة ولكن «عسى بحمْلَها تَثُوْر»؟

بالله عليك ياسعد أخبرنا بما يشغل بالك؟ لعلنا نشاركك فى الحل!؟

أيها الرفاق، إننى الآن فى حيرة من أمرى، إننى حقا قد وقعت فى مشكلة!؟

وما هى مشكلتك؟

لقد تفوهت للإمام أمس أن عليَّ من الدين حوالى مائة جنيه ذهبي ولما عددت ديونى الفعلية لم تبلغ سوى ثمانين جنيها، فماذا أقول له؟

إن الإمام أطاله الله عمره كثير الخير، ولن يدقق فى مثل هذه الأمور، فإن الثمانين تقارب المئة، ولاسيا إنك لم تحدد، وإنما قلت حوالى المئة.

إن المسألة بسيطه، أنا أطالبك بمبلغ عشرين جنيها، فإذا ظهرت لك فاعطنيها، ولا تقع فى حيرة من أمرك!! يقول هذا وهو يقهقه في ضحكه مدوية.

«إهِبْ»!! ماأطمعك!؟ أتريدنى أن أكذب؟ لا والله لن يكون ولو أدى ذلك إلى حرمانى من المبلغ كاملاً.

أَصَدَّقْتَ مزاحي؟لا إنني أريد حل مشكلتك المزعومة.

لا وفاطر السموات والأرض لن أقول الا الحق، سأقول له إنني أخبرتكم «ياطويل العمر» أن ديوني تقارب المائة جنيه، وعندما أحصيتها وجدتها ثمانين جنيها فقط، فأي مبلغ أعطاني إياه قبلته وفيه البركة.

من قصد الصدق لم يخب مقصده، وأنني أتوخى من الإمام الكرم، ولن يقصر معك!؟ وعندما أصبح الصباح أخذ سعد الورقة التي سجل فيها المبالغ المطلوبة منه وأسماء أصحابها، وذهب إلى القصر، وعندما قابل الإمام قاله له:

أطال الله عمرك «يامحفوظ» أنا فلان لقد أخبرتكم بالأمس أن ديوني تقارب المائة جنية، وعندما أحصيتها البارحة وجدتها ثمانين جنيها فقط بموجب هذا البيان.

الأمام مبتسماً، الثمانين أخت المئة!! و يتناول جلالته الورقة التي بها إحصاء الدين و يكتب عليها يصرف له و يضع المبلغ رقماً ثم يناولها صاحبها و يقول له : إذهب بها الى شلهوب.

و ينطلق الرجل إلى المسئول عن الناحية المالية، وعندما وصل إليه ناوله الورقة المحتوية على الأمر.

أسعد الله صباحكم، هذا الأمر من الإمام لصرف مايحتويه لي.

يحدق بالرقم تغمره الدهشه!! و يسأل، كم المبلغ الذي لك؟

: لا أدري، ولكنني سمعته يذكر المئة!؟ المهم تصرف لي مافي هذه الورقه.

: وأنا سمعتك بالأمس تذكر ذلك، فسوف أراجع الإمام قبل أن أصرفها لك، فعد اليَّ غداً!؟

: لن أذهب من عندك حتى «تُسَنِّعَني»(١) أو تعطيني ورقتي لأعود بها للإمام!!

: إذا إنتظرني هنا وسوف أعود إليك بعد قليل، و يرتدي شلهوب عباءته المطرزة بالخيوط المذهبة ، و يدخل على الإمام و يعرض عليه الأمر، و يبين له أنه كتب للرجل ألف جنيه بدلاً من المئة.

(١) تقضي حاجتي.

: الإمام وهو يبتسم «رزقكم في السماء وماتوعدون» إصرفها له.
: أطال الله عمركم، إن هذا المبلغ كبير جداً، إنه سَيَهُزُّ الخزينة وسيؤثر عليها!؟.
: قلت لك إصرفه له، «فوالله لن يكون هذا القلم أكرم[1] منى»!؟.
: سمعاً وطاعة، ويعود إلى مكتبه، وينقد للرجل صاحب الطلب مبلغ ألف جنيه من الذهب، وهو يقول له؛ هذا رزق رزقك الله به من أريحية عبدالعزيز.
: بعد أن قبض الكيس الذى به المبلغ كاد أن تنهار قواه من شدة وقع المفاجأة، فيمسكه أحد الحضور، ويجلسه فى مكانه والمبلغ فى حجره لفترة من الزمن، حتى إستعاد التحكم فى أعصابه من جديد، وعاد إلى مقر صحبه يكاد يطير من شدة الفرح، كان يحلم بمئة جنيه، ففاضت أريحية الإمام له بعشرة أضعافها، كان يرسف فى أغلال الديون، وبين لحظة وأخرى أزاح عنه هذا الكابوس ذلك الكف الكريم، وعندما عاد إلى رفاقه، فتح صرة الكيس، وأعطى كل واحد منهم عشرة جنيهات وهو يردد قائلاً:

يجود علينا الخيرون بمالهم ... ونحن بمال الخيرين نجود

* * *

وتناقل الركبان أخبار هذه المكرمة الملكية التى تساوى فى وقتنا الحاضر عشرات الملايين، وأصحبت حديث المنتديات والتجمعات فى العاصمة، وكل يتمنى لو يحصل له مثلما حصل لسعد، لكن الأرزاق قسمة ونصيب، وعلى مقدار نياتكم ترزقون، وتتابعت الوفود، فغصت المساحات الشاسعة الواقعة بين البساتين وخلف أسوار العاصمة الدفاعية بالخيام الممتلئة بالبشر، وحولها الإبل، ونشطت الحركة التجارية فى أسواق المدينة من بيع وشراء لمختلف السلع الإستهلاكية والكماليات، والهدايا، وحتى الصرافة المتمثلة فى تغيير قطع العملة بأجزائها الصغرى المصنوعة من الفضة والنيكل وكذا الذهب بالفضة والعكس، إنتعشت هى الأخرى وزاد نشاطها بسبب مايصرف لهذه الوفود من هبات من النقدين الذهب والفضة، أما الكساوى كـا «البشوت» والملابس الجاهزة وغير الجاهزة، والأطعمة كالأرز والدقيق، والقهوة والهيل، والسكر والشاى، واللحوم على هيئة ذبائح حية، هذه

(١) من شيم الملك عبدالعزيز ج ٣ ص٧٦.

الأرزاق تصرف لكل مجموعة مايكفيهم لمدة أسبوع على طول إقامتهم وبهذا فقد بعثت الحيوية فى السوق التجارية، كما نشطت تجارة الإبل، نظراً لإحتياج هذه الوفود، إمَّا إلى استبدال مَطِيِّهم، أو شراء ماهو أسمن وأقوى منها مما يُجْلَبُ لهذه السوق من القبائل المجاورة، أو ماقد تشتريه الحكومة من حرائر الهجن، يهديه الملك إلى رؤساء الوفود، أو ماقد تشتريه الحكومة للذبح فى ضيافتها، كل هذه الأغراض عززت الحركة في هذا السوق وزادت فى إزدهارها، بالإضافة إلى مايجلب للعاصمة من الهدايا، والسلع التى قد يأتى بها التجار مع هذه الوفود من مختلف أقطار المملكة، وفى وسط هذا الخضم المتلاطم من البشر قدم الوفد الذى من بين أفراده «حُمَيْد» ذلك الإنسان المرح الذي يمتاز بخفة الظل، وسرعة البديهة، وقوة الحافظة للأخبار، والقصص، والملح والنوادر، التى يُسَلِّي بها السمار فى حلقاتهم، وما إن قدم ورأى هذه الجموع المتراصة من البشر، حتى فكر أن يتخذ من هذا الوضع ذريعة ليصل إلى هدفه وينهى مهمته فى أقصر وقت، ولاسيما أن الإمام يعرفه تمام المعرفة، وطالما روى فى مجلسه بعض الملح والنوادر، التى تناسب المقام، فى أوقات يكون فيها الإمام خارج نطاق العمل الرسمى، ولما وصل الوفد واستراح أفراده وجدوا من أخبار الأقاليم ماشد إنتباههم، من أنباء هبات الإمام التى جاد بها لهؤلاء الوافدين ما أدهشهم، فقال عبدالكريم لزميلة مسعود ما أكثر الأموال التى ينفقها الإمام على رعيته.؟

: هذا حاكم، والحكام هذه عاداتهم، ألم تعرف عن أخبار الخلفاء الأمويين والعباسين وغيرهم؟

: هناك إختلاف شاسع بين هذا وبينهم، أولئك مقدار هباتهم قليله، وعلى أناس معينين كالشعراء والأدباء، وقليل غيرهم من قاصديهم من رعيتهم أما هذا فإن هباته قد عمت معظم الناس، وليست مقصورة على أحد دون أحد كل من أناخ مطيته قُبَالَةَ هذا القصر، أوفى مجرى هذه البطحاء فسوف ينال نصيبه من الهبات والعطايا.

: إذا لديك معلومات لأباس بها، بعد أن حسبتك تجهل ذلك!؟

: وهل أحد يجهل الشمس فى ضحاها؟ وفوق ما ينفقه الإمام على الوافدين اليه فى

مقر إقامته، فهناك الصدقات التى ترسل إلى الفقراء والمساكين من سكان القرى والبوادى، لتوزع عليهم الهبات من النقود، والأطعمة والملابس، فتصل عطاياه إلى المحتاجين فى بيوتهم، على سيارات قد إشترتها الحكومة أواستأجرتها وأرسلتها فى قوافل إلى القرى والهجر، ومضارب البادية، تحمل الأرزاق والصدقات.

: على ذكر السيارات فقد أفزعت قوافلها كثيراً من الناس الذين لم يسبق لهم أن رأوها، وتحلقوا حول كل سيارة بقصد الفرجة من بعيد، ثم بدأوا يقتربون منها شيئاً فشيئاً، حتى جسروا عليها يُلَمِّسُونهَا بأيديهم، بدهشة واستغراب، وصدقنى أن بعض الناس وخاصة الصغار قد بقوا عندها طيلة ذلك اليوم بدون أكل أو شرب، وهم يُلَمِّسُوْنَها بأيديهم ويحملقون فى بعض أجزائها، يتساءلون عن كنه هذا الجزء، وعن وظيفة ذاك، و يلتفون حولها، يطلون من تحتها، وعن يمينها وشمالها، وأصبحت لهم فرجة نادرة، لقد أطلقوا على الواحدة منها إسم «تِنْبِيْلْ(١)» وعلى العموم فقد ذهل الناس عن الصدقات التى تحملها تلك القوافل من السيارات عندما رأوها تعمل وتحدث ذالك الصوت الرتيب المدوى، وتنفث دخان العادم من أنبوبتها الخلفية، ناهيك عن فوانيسها المضيئة ليلاً وصوت المنبه الذى يفزع البعض، وتجفل منه المواشى.

: لقد ذهبت بنا بعيداً عن موضوعنا، ألم تسمع بتلك الهبة السخية التى وهبها الإمام لذلك الجواد المسمى «سعد» والذى أثقله الدين فلجأ إلى الإمام ليساعده على وفاء دينه، أتدرى كم أعطاه؟ لا والله!! ولكن يمكن أنه قد أعطاه نصف دينه، أو قل ثلاثة أرباع دينه، وإذا غلبت الروم فقد يسدد عنه كامل دينه!؟.

: لا، إذ «شَبْحَكْ قَرِيْبْ» لقد أعطاه عَشرةَ أضعاف قيمة دينه!!؟

: يشهق، هنيئاً،!! وأطال الله عمر الإمام الواهب، وكم يبلغ دينه؟

: دينه مائة جنيه، فأعطاه الإمام ألف جنيه عداً ونقداً!!

: يمسك رأسه بكلتا يديه، الف جنيه!!؟ دفعة واحدة؟ وماذا عمل بها؟ إنها خزينة بكاملها لقد أصبح أثرى رجل فى الدنيا!؟ وفى هذه اللحظة قدم حميد، فوجد رفاقه بقرب دلال القهوة يرتشفون منها، وسمع آخر الحديث، فطلب إعادته من الراوى، فأعاده عليه و بدأ يولول، وأمسك على بطنه وهو يقول، مداعبا أصحابه،

(١) مشتقة من الإسم الأجنبي «أوتوميبل».

لقد مغصتني أمعائي، إنني أخشى ألا نجد غداً في خزينة الإمام قرشاً واحداً يعطينا إياه «خرجية»(١) فيرد عليه أحد الحاضرين فأل الله ولافألك!! أتتنبأ لنا بالإفلاس،؟ إن خير الله كثير، ويدوى الضحك، ولكن حميداً يتحفز وكأنه يريد إعداد خطة معينة لموضوع يعتلج في نفسه، وفي الصباح ذهب الوفد إلى القصر الملكي لمقابلة الإمام كالمعتاد مع بقية أعضاء الوفود، وعند وصولهم الى القصر إستاذن لهم الموظف المختص بتقديم الوفود على الإمام، فأذن لهم وبدأو بالسلام على جلالته واحداً بعد الآخر، وبعد الإنتهاء من السلام، والجلوس مع جلالته لتبادل أطراف الحديث يسألهم عن أحوالهم، وعن البلاد التي جاءوا منها، ويعرض عليهم أي مساعدة يمكنه أن يقدمها لهم أو أي مشكلة يحلها أو يساهم بحلها، قال حميد الذي كان على معرفة تامة بالإمام:

: في نبرة لاتخلوا من الدعاية أطال الله عمرك ياأبا تركي!، أريد منك شيئاً واحداً، أن تعطيني هبتي قبل أن ينفد مافي خزينتك!؟.

: يبتسم الإمام ويهز رأسه، ويجيبه بنفس الأسلوب، ومايدريك أنها نفدت ياحميد!؟.

: أطال الله عمركم، إن هذه الأمم المجتمعة، لوشربت من ماء بحر لجب لنفد ماءه، ألا تعلم أن هذه البطحاء قد اكتظت بالبشر،؟ فوالله «ياطويل العمر» إنهم قد غطوا من «مُغَرَّزَات(٢) إلى «أبومَخْروق» ومن الشميسي إلى «ظَهَرَة العَوْد» كل هذه المساحة ليس لك بها موطئ قدم!؟ وكلهم يريدون أعطياتهم!! «تُكْفَى يا أباتركي(٣)» أدركنا أعطينا «خراجينا» قبل أن تنفد الفلوس!؟

: يبتسم مرة أخرى وهو يقول، الخير كثير ياحميد!! البركة عندالله، اللهم بارك لنا فيما أعطيتنا ! إذهب إلى شلهوب وقله له «يَمْكِنُكَ» ويعطيك «خرجيتك» قبل إن ينتهي كل شيئ ياحُمَيِّد !! يقولها وهو يبتسم ويهز رأسه وتقاطرت الوفود للسلام على الإمام، أما حميد وصحبه فقد انتهى دورهم، وذهبوا إلى المسئول عن النواحي الماليه شلهوب وعندما وصل إليه.

---

(١) هبـــــة.

(٢) جبيلات ومعالم أصبحت الآن داخل مدينة الرياض.

(٣) للحث والاستنجاد.

: السلام عليكم، أسعد الله صباحكم ياشلهوب، يسلم عليك الإمام و يقول لك بأن تعطينا «خرجيتنا» الآن قبل أن تنفد الفلوس!؟

: وعليكم السلام، يبتسم وهو يقول : ليتك بكرت قليلا ، فقد نفد كل مالدي الآن!! على قدومك، ولم يعد عندى قرشاً واحداً، يقولها بلهجة الجد مع غمز بعينه لم يره حميد .

: هذا الذى أخافنى، ومن خاف من علة قتلته»!؟ أما قلت لكم أيها الرفاق أنه لن يبقى بالخزينة شيئ؟

: يشير إلى رفاق حميد بأن ينصرفوا و يعودوا إليه بعد قليل بينما شاغل حميدا بالمحادثة، والإعتذار له بعدم وجود مبالغ لديه الآن، ثم قال له، خيرك الله بين أمرين، إما أن تجلس خارج هذا الباب حتى يأتينا دفعة من المال نعطيك منها، أو أن تلحق برفاقك الذين غادروا المكان، وتعود إلينا فى الغد أو مابعده!! يقول ذلك فى لهجة تختلط فيها نبراث الجد، مع صوت لايخلو من سلاسة المزاح.

: حميد يلتفت فلم ير من رفاقه أحداً، أين أنتم أذهبكم الله ذهاب الملح بالماء، لقد «صرتم عوين المُجَاهِدِيْن» وإذا كان رفاقى قد ذهبوا فلن أبرح هذا المكان حتى تسملنى أعطيتى «من البِرّ والإ تمطر»!؟ يقولها بلهجة لاتخلو من المداعبة.

: الأحسن لك أن تلحق برفاقك قبل أن يأتيك العلم الثانى!؟.

: أتهددنى!! وأنا قد أتيتك بأمر من الإمام، أطال الله عمره؟ شلهوب: لم يأتك التهديد بعد، إنما تدرى ماهو العلم الذى ينتظرك؟

: صحيح، صحيح، أنا قد فهمت أننى مخطئ، يمكن أن يكون العلم الذى تخبئه لي، أن تمديديك إلى أحدى هذه السلال، وتأخذلى حفنة أو حفنتين وفوقها لُهْوَة من تلك الجنيهات التى يخطف بريقها الأبصار، أو تنثر بحضنى مايملؤه من هذه الريالات الفضية الرنانة!؟

: إهبْ !! ماأطعمك!؟ «شره على الحفنات واللهى»!؟ إذا حصل لك عدد من الدريهمات فذلك خير و بركة!! إن وجدنا لك شيئاً!؟

: يقول المثل «الله من الرزق، والله من قطاعته«؟؟ يقولها بلهجة لاتخلو من السأم.

: أبشر بالخير، ناد صحبك، الخير واجد الفضل لله ثم لأبى تركى، ويخرج كيساً ملآنا

بـالـنـقـود، و يـعـطـى حـمـيـد ورفاقه كل واحد منهم ماخصص له من الإمام، وتغمز الإبتسامات وجوه الجميع وانصرفوا فطلب شلهوب من حميد أن يأتيه فى منزله مساء ذلك اليوم ليستأنس بأحاديثه، وملحه، وطرائفه، وهكذا إستمرت هذه الهبات التى جـادت بهـا أريحـيـة الإمـام عـبـدالعزيز طيب الله ثراه الأولئك الوافدين إليه بحيث أصبـحـت بـشـكـل سنوى كل عام يأتى صاحبها و يستلمها من بيت المال وتسمى «عادة» أو «خرجية» وبعد ذلك أدرك جلالته مقدار العناء والمشقة التى يتكبـدها صـاحـب الهـبـة فى الحضور إلى العاصمة لإستلامها، فأمر بأن تحال الهبات للفروع المـالـيـة فـى كـافة المناطق بأنحاء المملكة وماعلى صاحب الهبة سوى مراجعة الفرع المالى بمنطقته وإستلام مايخصه مع مدار السنة، دون عناء أو تعب، وبعد أن إنتقل جـلالـتـه رحـمـه الله إلى جوار ربه حافظ أبناؤه الغر الميامين الأوفياء، على تنفيذ ما أمر بـه كـنـوع مـن الـوفـاء لوالدهم، ولم يكتفوا بذلك بل ضاعفوا هذه الهبات تبعاً لمتطلبات مستوى المعيشة، حتى أصبح بعضها وقد زيد إلى عشرة أضعاف ماكانت عـلـيه وزاد البعض الآخر إلى خمسين ومائة ضعف، وهى مستمرة تصرف لأصحابها حتى الوقت الحاضر.

٭ ٭ ٭ ٭ ٭

٢ - رب ضارة نافعة

القهوة العربية هى مقدمة إكرام الضيف، وتعتبر الواجهة الأمامية لعادة الكرم العربي، ولها أهمية كبيرة فى قلب الجزيرة العربية، بين الناس سواء الحضر المقيمين فى المدن والقرى، أو العرب الرحل الذين يتنقلون بمضارب بيوتهم من مكان إلى آخر على مدار السنة، ولم تكن القهوة بحبوبها الخضراء الضاربة الى الصفرة، وبهارها «الهيل» ذو الأجراس الخضراء، والقرنفل ذو المسامير الشقراء، والزعفران بزهره الأحمر الضارب الى الشقرة، متوفر بكميات كبيرة لدى كل فرد، وذلك تمشيا مع الوضع الإقتصادى العام، وحسب إمكانيات الأفراد المادية، غير أنه لايكاد يخلو بيت من القهوة وبهارها، ثم هناك النقطه الثانية وهى الأوانى التى تعمل بها القهوة، وأعنى «الدلال والمحماسة، والنجر، والفناجين» فهى بدورها لا تتوافر لدى كل شخص فى ذلك الوقت أى منذ حوالى قرنين من الزمان وحتى عهد قريب، إذ ربما لا توجد سوى عند عدد قليل من عِلْيَةِ القوم، وذلك لما يترتب على تواجدها من التزامات أخرى، إذ ليس المعضلة فى شرائها والحصول عليها بأى ثمن، ولكن العائق هو ماتتطلبه من خلفيات مادية، فالمعروف أن الإنسان الذى يقتنـى «المعاميل» وهى أوانى صنع القهوة المشار اليها، لابد أن يقوم بالواجب نحوها، وأول ذلك أن يكون من ذوى البشاشة وطلاقة الجبين وهذه متوفرة لدى الغالبية العظمى إن طبعاً وان تطبعاً، بالإضافة الى المقدرة على توفير حب القهوة على مدار السنة، مع توفير القِرىَ والدفء للضيوف وطراق الليل الذين يأوون اليه على اختلاف مكانتهم الإجتماعية، مع وجود المكان المناسب للضيوف سواء فى البيوت المبنية أو بيوت الشعر المنصوبة، مع مراعات الإعتبار السائد وهو أن الرجل إذا وفر الدلال و بدأ فيها من الصعب عليه جداً أن يهجرها و يوقف إستعمالها لما فى ذلك من المعيبة عليه، لهذه الأسباب وغيرها نجد الذين يقتنون «المعاميل» نسبتهم قليلة، وهذه الأواني وإن كانت ملكالهم إلا أنهم لايمنون بها أو يمنعون أحداً فى أن يعمل بها قهوة لضيوفه الذين يحضرهم من بيته الى بيت صاحب الأوانى، وذلك بعد أن يحضر معه حب القهوة والهيل من بيته، و يدعو

ضيفه لتناول القهوة فى بيت صاحب «المعاميل» أما طعام الضيوف وشرابهم وإيوائهم ودفئهم فيتم فى بيته ومن هذا المنطلق نرى «خَلَفاً» يدنف الى بيت أخيه «مُقْبِلْ» صاحب الدلال عندما ضافه ضيف فرحب به و بش فى وجهه، و بعد أن حط الضيف عن رحله وأوثق عقالها، وإذا بخلف قد أخذ ملء كفه من حب القهوة النبئ وصرها فى أحد أردان ثوبه الطويل، وأخذ غرزة من أجراس الهيل وحزمه فى الردن الثانى، ثم أومأ لضيفه مشيراً بدعوته للانتقال الى بيت أخيه مقبل على بعد عشرات الخطوات لتناول القهوة هناك، فلم يمانع الضيف من دعوة المضيف كما هو المعتاد فى مجتمع البساطه والإخاء ولم يكن مقبلُ حاضراً ساعتها، فوصل الإثنان إلى مكان القهوة «الرُّفَّةُ» من بيت الشعر، فأوقد خلف النار وكان الوقت ضحى فى يوم ربيعى رائع، شمسه صافيه ساطعة الامن من قزح من السحاب المتراكض يداعبها أحيانا ويحجب وجهها أحياناً أخرى، وفى جو الربيع لايكره الناس القرب من النار، وما أن رأى الرجال فى الحي أن الدخان يرتفع فى المقهى توافدوا اليه من هنا وهناك ليروا من القادم فيأخذوا أخباره، و يستأنسوا بارتشاف القهوة معاً، وحتى الصبية الصغار حضر بعض منهم بقرب الرجال من بينهم «فَرْحَانْ» الأبن الوحيد لخلف من بين أخواته الإناث الثلاث، وما أن تَحَلَّق الرجال حول القهوة للإستمتاع بدفء النار، واستنشاق رائحة القهوة العبقة التى بدأ خلف يقلبها بالمحماسة على جمر النار بإتقان جيد، و يستمعون الى أخبار الضيف، ولما سحقها بالنجر ووضعها بالدلة لغليها، وإذا بصاحب البيت «مقبل» قد حضر وسلم على القوم ونظر الى أخيه شزراً، وفى سَوْرَةِ من الغضب وبحركات «هستيرية» لايعلم سببها خطف الدلال وكفأها على النار بقهوتها، حيث إنطفأت النار، وارتفع الغبار الرمادى بوجوه الحاضرين قائلاً:

: ياخلف، الذي يريد أن يكون رجلاً وكريماً يقرى ضيوفه و يقدم لهم القهوة عليه أن يشترى دلالاً لنفسه.

: ينفض الرماد عن وجهه ولحيته، وهو يقول: أعوذ بالله من نزغات الشيطان، أعوذ بالله من الشيطان وحضرته.

: لا تعوذ من أبليس وهو فى رأسك!.

: إنّا لله وإنّا اليه راجعون، ماشميتنى «ياأخوك ولاشيمت ضيفى؟» ولاَوقَّرت الحضور

من جاعتك؟ من فعلتك المشينة؟.

: علمتك بالعلم «الذابل»[1] الصادق لا ترد ولا كلمة.

: الحضور بصوت واحد، أنت مخطئ يامقبل، وتتابعت العبارات منهم «أنت مخطئ وقاطع الجادة» أنت اخطأت بحق أخيك، أنت أخطأت بحق الضيف، ماهذه من عادات العرب، ولامن الشيمة والأخلاق العربية، ماالذى دهاك يامقبل؟ هل جننت؟ ليست هذه من عاداتك؟ عهدناك على غير هذه الفعلة.

وبينا الحناجر تردد هذه الجمل وتمر بسمع الصبى الصغير الذى لم يبلغ العاشرة من عمره، والذى وقف مشدوها أمام هذا المنظر المفزع لاينبس بكلمة واحدة، وعيناه مشدودتان الى والده وهو لايزال ينفض الغبار الرمادى عن وجهه ولحيته مثل بقية الحضور ولم ينظر اليه أحد، مثله مثل الصبية الذين التفوا حول المكان عندما سمعوا لغط الرجال، لكن الصبى حدق في الجميع جيداً يستقرئ الإجابة على وجوهم، ونظر الى وجه عمه شرزاً، وعندما هم بالإنصراف لاحظ أحد الرجال الواقفين الى جانبه إصفرار لون وجهه، وجحوظ عينيه، فلفت أنظار الحاضرين اليه، وعندما رأى فرحان الأنظار تتجه اليه إستعاد وضعه الطبيعى فناداه أبوه:

: مابك يافرحان؟ هذا أمر بسيط لايعدو كونه مزاحا من عمك مقبل!!.

: بئس المزاح هذا !! إن ما حدث ليس مزاحا وانما هو الإهانه بعينها بشهود الحاضرين، ألست تسمع كلامهم وتعى مايقولون يأابى؟.

: هذا الأمر لايهمك ولايعنيك ولاتعرف أبعاده!!.

: هداك الله يأأبى، بقدر معرفتى للأمور فإن هذا الأمر لايجب السكوت عليه والتغاضى عنه أبدا واذا كنت قد تحملت الإهانه من أخيك الأكبر منك سنا فى هذا الموقف فإننى لا أتحمله من أجل «شنون» دلال كالغربان.

: بس ... بس ... أسكت والحق ببهمك، قالها خلف بغضب ونهر ولده وأمره بالانصراف.

: سمعاً وطاعة يأأبى، ووجه الكلام الى عمه سأذكرك بهذا الموقف. وانصرف، وخيمت على الجميع سحابة من الكآبة والسكون لفترة ثم انصرف البعض وأخذ

(١) الذابل ــ الناضج الصحيح.

خلف بيد ضيفه واتجه به الى البيت ليتناولا طعام الغداء وهو يحاول بكل جهده أن يتناسى ماحدث، وأن يسلّي ضيفه بأخبار وأحاديث أخرى بعيدة عن الموضوع، وأصبح ماحدث ذلك الصباح حديث أهل الحى رجالاً ونساءاً وكل يبحث عن السر الكامن وراء تصرف «مقبل» نحو أخيه خلف ولاسيما أن مثل هذه الفعله تعتبر معيبة على مقبل أكثر مما هى على أخيه وتهامس الشفاه بمختلف الإفتراضات والإحتمالات، ولم يعثر أحد على السبب الحقيقى وراء هذه الفعله، وحتى حالة الجو في ذلك اليوم كأن الأمر يعنيها فبعد أن كان الجور رَبيعيًّا هادئاً، هبت رياح غربية عاتية تسفى الرمال من مكان الى آخر وتطمس الأثر على خد الأرض.

هذا ماكان من أهل الحى ومايحيط بهم، أما فرحان فكان له شأن آخر. فبرغم صغر سنه نسبيا دون العاشرة وهو أكبر أخواته وبكر أبيه، فإنه يحمل بين حناياه قلباً حياً، فقد ظل صدى الحادثة يعتلج فى صدره ويتفاعل، ويفور الدم فى عروقه كلما تخيل المنظر، وهو يرعى قطيعا من البهم، حتى توصل الى قراره النهائى، وهو ألا يرى وجوه القوم بمن فيهم والديه مرة ثانية إلا فى حالة أخرى، وقد هداه حدسه أن يغتنم فرصة هبوب تلك الرياح التى تخفي معالم أثره، فأحضر البهم الى قرب البيوت، يحدوه صفير الرياح فيتراكض حينا ويلتئم حينا آخر فى ذرى بعض الأشجار حتى أوصله الى البيوت حيث لاذ بذراها، وهنا دنف بسرعة فائقة خفية الى بيتهم دون أن يراه أحد فأخذ. شُكْوَةً(١) صغيرة كانت معلقة مليئة باللبن، وحملها على كتفه وأخذ عصاه وانطلق دون أن يراه أو يحس به أحد، حيث أن بعض الناس قابعون فى بيوتهم التى تهزها الرياح هزاً عنيفاً وتكاد أن تقتلعها من أوتادها وأعمدتها والبعض الآخر ذهب مسرعاً لتفقد مواشيه، وامتطي فرحان قدميه هائماً على وجهه مع اتجاه الرياح، وكأنه يقول لها خذينى وأحملينى الى مكان أستطيع فيه تحقيق رد كرامتى المرغمة بالتراب، واياك أن تبقى لي على أثر، أطمسيه وعَفِّى عليه بدقيق الرمل، لئلا يعثر أحد فى الإهتداء الى أى وجهة ضربت.

وغربت الشمس وسقطت أشعتها من خلف تلك الصفحة الذهبية المتأججة، ومع إجتذابها لذيل غلالتها البرونزية سلت معها عنفوان الرياح المدمرة منذ وقت

(١) القربة الصغيرة.

الظهر فخدرت الريح، وبدأ كل شئ يعود الى وضعه الطبيعى، وغمزت النجوم فى صفحة السماء الزرقاء فى بصيص يتسم بالحياء والخفر، نظراً لما يكسو السماء من بقايا غبار الرياح التى سكنت لتوها، وفرغ الناس لتفقد مواشيهم بعد تلك العاصفة، ولم يفقد أحد من مواشيه شيئاً، مع أن الرعاة قد تعبوا في ذلك اليوم، وامتلأت عيونهم بحبات الرمل المتطايرة بفعل الرياح ثم آذتهم الأغنام وخاصة الماعز منها بكثرة التفافها عليهم للبحث عن الذرى وركضها مسرعة نحو الأشجار الكبيرة طلبا لذلك، وسرعة اتجاهها صوب البيوت قبل الموعد المحدد لرواحها، لكن ماتم افتقاده تلك الليلة هو أعز وأغلى من المواشى عند أهله وذويه إنه فرحان. فبعد أن حضر جميع الرعاة ولم يتخلف منهم أحد سألت الأم سعدى.

: ياخلف أين فرحان؟ إننى لم أره عاد الليلية؟

: عهدى به عندما ذهب لرعى البهم ضحى هذا اليوم.

: «واويل عينك ياسعدى»!! البهم من العصر وهو بحجر البيت!!

: لماذا لم تخبريني بذلك ... أخزاك الله يافرحان مروح بالبهم وهو لم يشبع؟

: ماهمك سوى حلالك ... ولدى أهم من كل شئ «إنهج» واسأل عنه الرعيان والنزل؟

: يغادر المكان ويلقى مجموعة من الرجال، فيبادرهم بقوله: «ياللحواة(١) الغانمة ماشفتوا فرحان اليوم»؟

: لا، والله لم نره اليوم.

: مابك مالي أرى صوتك مرتجفا؟ أنه سيأتى بعد حين لايزال الوقت مبكراً على عودته وكل واحد منا يتأخر فى العادة الى منتصف الليل ولا أحد يسأل عنه حتى يعود.

: هنيئاً لكم! لايوجد عندكم «خبلة» مثلما عندى، أقلقتنى فلم أسترح، ويظل خلف ينتقل من مجموعة الى أخرى يتوجس الأخبار عن ولده الوحيد، ولم يجد عنه خبراً وكلما غادر مجموعة منهم تهامسوا بكلمات لاتخلوا من الإستخفاف بخلف، وحان موعد صلاة العشاء وأديت الصلاة جماعة وعاد خلف الى بيته.

: وسأل: ألم يأت فرحان حتى الآن؟

(١) كناية عن أصحاب اللحى الكريمة.

: هنيئاً لك بقلبك البارد القاسي!! الآن أنتظر الأخبار من عندك وتسألني عن عودته؟ ولم تتمالك نفسها فصاحت بأعلى صوتها «واحلولاه ياولدي»[1] آه ضاع... ضاع ... ضاع..

: تعوذي من الشيطان، ولدك سيحضر إن شاء الله ... «إجعلي الرخاء من بالك».

: إستفزع بالجماعة وابحثوا عنه قبل أن يضويه الليل وتأكله السباع، إن كان نائما في ذرى شجرة وقت العاصفة، أو أن يصحو من نومه في ظلمة الليل فيحصل لعقله شيئاً أسرعوا ... أسرعوا، واولداه.

تجمع الرجال على صوت صياح سعدى لإستطلاع الخبر وعند حضورهم علموا بالموضوع وتفرقوا في جماعات للبحث عن الصبي المفقود وضربوا في نواحي الأرض كل مضرب على ضوء القمر الخافت حيث القمر في اليوم الثامن من الشهر مائلاً الى المغيب وتبدو الأرض على ضوء القمر الباهت بعد رياح ذلك اليوم كصفحة الزجاج المستوية، إلا مايشبه البثور فيها من شجيرات العشب المدفونة بالرمل في خدود الرياض وعلى حواف الأودية، وتجاعيد الرمل الناعم بقرب الشجر الكبير وفي صفحات المنعطفات، أما آثار المواشي والبشر فليس لها وجود أبداً بعد الرياح التي سحبت أذ يالها على الأرض قبل ساعات قليله، وضربت الجماعات التي تبحث عن الغلام جميع الإتجاهات ترفعها الربا والحزون وتخفضها الوهاد والأودية وهم يطوحون بأصواتهم «يافرحان» وتنساب تلك الأصوات من مجموعة الى أخرى دون أن يسمعوا رداً من فرحان بالإجابة ولم يعثروا له على موطئ قدم يدلهم على الوجهة التي طرقها وبعد مرور حوالي الساعتين على بدء البحث كمع القمر في حافة الأفق يلثمها مختفيا خلفها بدلال وحياء وكأنه يقول لأولئك القوم اسمحوا لي أن أختفي عنكم قبل أن تجدوا فرحان، ولاتظنوه بخلاً مني بهذا الضوء الذى طالما اسعفت به غيركم عبر آلاف السنين، ولكن المواعيد لها إحترامها عندي، فاذاً تصبحون على خير وعسى أن تجدوا الغلام!! وهنا أطبق الليل بردائه الدامس، فلا يرى في صفحة السماء الزرقاء سوى النجوم المتلألئة لكن ضوءها غير كاف لرؤية الأثر أو العثور على الضائع، ولايوجد أي وسيلة للإضاءة يمكن بواسطتها الكشف على صفحة الأرض، ورغم ذلك فقد استمر الرجال بالبحث المضني، واشتركت معهم النساء قرب البيوت

(١) ياليت ولدي لديَّ

حتى بزغت أشرطة الفجر الفضية مطلة من الشرق دون أن يعثر أحد على علامة تدل أو توحى بمكان وجود الغلام. وعاد الناس وقد أخذ منهم الجهد والإعياء مأخذه وارتمى كل منهم فى فراشه مجهداً وربما اختار أرضا لينة واضطجع عليها ليغط فى نوم عميق بعد تعب ليلة كاملة من الركض والسير على الأقدام على غير هدى، لكن عينا واحدة بقيت لم يطرقها النوم..، أنها عين والدته سعدى التى ظلت طوال ليلتها تركض هنا وهناك ترقب هذا المرتفع وترمى بالأصوات بين الحين والآخر، وتهوى الى ذلك المنخفض باحثة من مهجتها الضائعة، وفلذة كبدها المفقوده ولم يستقر لها قرار طوال الليل، حتى اذا اصبح الصباح طالت خطاها وأبعدت دائرة بحثها حول مضارب النزل، فلم تر فى عينيها المقطبتين من البكاء على صفحة الأرض التى مسحتها الرياح حتى أصبحت ملساء صافية سوى آثار «الرواميس» وهى الدويبات والزواحف التى تدب عليها خلال الليل، أما ولدها فلم تعثر له على أىّ أثر وعندما اكملت دائرتها التى يقارب قطرها حوالى خمسة أكيال، وهى تأمل أن تجد الأثر فى كل متر تقبل عليه أمامها، فلما وصلت الى نقطة بدايتها ولم تجد بغيتها خرت على الأرض مغمى عليها، وكادت أن تفارق الحياة من شدة البكاء والنشيج عندما أدركها مجموعة من الباحثين الذين نقلوها الى بيتها وهى لا تشعر بالوجود واستمر البحث طوال ذلك اليوم على ظهور الركائب حيث خطوا كامل المساحة المتوقع أن يقطعها غلام لتوّه قد تخطى الثامنة من عمره، وعادوا خائبين واستمر البحث فى اليوم الثانى والثالث على التوالى دون فائدة تذكر، وهنا أيقن الجميع أن الغلام أصبح فى عداد المفقودين، فإمّا أن يكون قد أختطف من قبل أيد غريبة أو أن يكون قد أكلته السباع، وبقى السؤال الذى ينتظر الإجابه وهو أين ذهب فرحان؟.

أما فرحان فإنه قد صمم على إتخاذ قراره الحاسم أثناء وجوده بين قطيع من البهيمات المتراقصات العابثات، فقرر أن يكون أو لايكون، ولذلك أخذ من اللبن مايستطيع حمله، ويذهب عنه حدة العطش ويكبح عنه جماح الجوع حتى يصل الى المكان الذي يجد فيه لقدمه موطئا يستطيع منه الوقوف على قدميه معاً، وامتطى قدميه الحافيتين ولم يتسلح بشئ سوى بعصا صغيرة يحمى بها نفسه من الدواب ويذود بها عن عمره ضد السباع، وأخذ مسيره فى إتجاه الريح شرقا، ولم تغرب شمس ذلك

اليوم حتى اصبح على مسافة كافية لايصل اليه أحد من الباحثين عنه، وهنا استراح في ذرى شجرة ونام قسطا كافيا أزال عنه كابوس الإجهاد، وعند الصباح تنبه مبكراً وشرب قليلا من اللبن وشد الحزام على بطنه وسار في الإتجاه الذى سلكه بالأمس وعند المساء الثانى رأى بيوت شعر قريبة منه فاتاهم مع غروب الشمس وضاف أقرب البيوت اليه من النزل فاكرموه ونام عندهم ليلته تلك، وعندما سألوه من أين هو وأين يريد؟ أخبرهم أنه من قبيلة كذا قريبة الصلة من قبيلته التى تشبه لهجة كلامهم لهجة قبيلته، وذلك لإخفاء شخصيته، ولثقته أنهم يعرفون لهجة القبيلة التى نسب نفسه الى أحد أفخاذها، فلذلك أعطاهم معلومات مقاربة ولكنها بعيدة عن الواقع لئلا يعلم أحد بهويته، أما غرضه فادعى أنه يبحث عن أغنام ضائعة لهم، وبدأ ينتقل من مكان الى آخر معطيا نفس المعلومات لمضارب الأعراب الذين يمر بهم حتى جعل بينه وبين مضارب قبيلته مسافة عشرة أيام على ظهور الأبل، وهنا وضع عصا الترحال، عندئذ نزل عند أحد المضارب لمدة ثلاثة أيام مخبراً إياهم أنه يبحث عن عمل، وأنه يتقن رعى الغنم وصادف أن هناك رجلا بحاجة الى راع لغنمه، فدعاه للعمل عنده يسرح بغنمه ويعطيه عن خدمة سنة كاملة شاة من أطيب الغنم أو «رِخْلَتين»[1] من البهم يختار أيها شاء، بالإضافة إلى أكله وشربه وملابسه، فاختار الرِخلتين، وبدأ الغلام في عمله عند ذلك الرجل مخفيا نفسه مغيراً اسمه إلى «صالح» ولولا معرفتهم بلهجته أنه يعود الى أحد فروع القبيلة الفلانية لما عرف أحد من أين هو؟، واطمأن الرجل وأهله الى الغلام، ورغبوا في عمله وأحبوه جميعاً وطغى اسم هذه القبلية على إسمه، وذلك لما لمسوه منه من الجد والإخلاص والمثابرة على العناية بمواشيهم وكأنه صاحب الغنم نفسه، وربما كان أحرص من المالك أحيانا وبعد مرور سنة على خدمته عندهم رغبوه أكثر مما حدا بالرجل إلى أن يعطيه بدل الرخلتين نعجتين بسن ثَنِيَّة، وفى العام الثانى جعلها أربعاً وتوالدت تلك الأغنام ونمت وتصرف ببعضها فباع واشترى وبدل وأستبدل حتى أصبحت في مدة ثمان سنوات تزيد على المئة رأس، فباع جزء منها واشترى به إبلا ووضعها مع أبل «مُعَزِّبِه» صاحب المواشي وفى هذه الفترة أحبه جميع النزل رغم صغر سنه لما يجدونه فيه من البشاشة والمروءة وكرم الاخلاق ولين الجانب والتفانى والإخلاص فى عمله لمن ولاه أمره، حتى

(١) الرخلة انثى بهم الضأن.

أصبح البعض يحسدون صاحب العمل على وجوده عنده وعندما شارف على سن الرشد بدأت علامات الفتوة تبرز عليه، حتى تهامس السمار بإشاعة تقول أن «غناماً» سوف يزوجه أكبر بناته، وربما كان ذلك صحيحاً لوتقدم الفتي لخطبتها ولكنه لم يفعل، نظرا لما يشغل باله من الأمور الأخرى التى تلهيه عن الزواج، واستمر بخدمته وإخلاصة لغنام حتى أكمل عنده اثنتا عشرة سنة كاملة، وفى هذه الأثناء أصبح عنده من الغنم مايقارب مئتى رأس ومن الإبل مايزيد على الثلاثين وهى ثروة طائله فى حساب ذلك الزمن بالإضافة إلى مبالغ من الجنيهات الذهبية والنقود الفضية التى تجعله يتمكن من العودة الى أهله وهنا قرر العودة الى والديه فاختار من بين أغنامه مائة بين جذعة وثنية، وباع مازاد سنها عن ذلك كما إختار من الإبل ثلاثين من فتيانها، وباع الزائد على ذلك، وعندئذ صارح غنام على ماعزم عليه، مما كان له أثر كبير لديه لاسيا وأن صالحاً قد عوضه عن الأخ والولد والصديق، وقد اهتز البيت بعنف عند سماعهم لهذا الخبر، الذى انتشر فى الحى بسرعة فائقه، وكان له وقع مؤثر فى النفوس، لأن ذهاب صالح سيترك فراغاً كبيراً يصعب أن يملأه أحد غيره فيما يتعلق بغَنَّام فى القريب المنظور أما صالح فقد إتخذ كافة التدابير اللازمة لسلامته وأمان وصول المواشي والحملة من مكان انطلاقها حتى مضارب أهله على مسافة خمسه عشر يوماً حسب مسير الحملة البطيئ حيث إستأجر مجموعة من الرجال المسلحين من القبيلة الذين نشأ بين ظهرانيهم بأجور مجزية من المال الذى بين يديه، ثم هبط الى المدينة القريبة من مضاربهم فاشترى له سلاحاً كاملا من بندقية وخنجر وسيف ورمح، واشترى حمل بعير من القهوة وبضع وزنات من الهيل ووزنة من القرنفل وشيئاً من الزعفران ودلالاً ونجراً ومحماسة ومبرادة وفناجين وكل مايلزم للقهوة، كما اشترى بيتا من الشعر من الحجم الكبير ذا الخمسة أعمدة وكذلك خمسة أحمال من «التِّمَّنْ» الأرز العراقى، ومطية عمانية من خيار الهجن وعليها كامل مايلزمها من الشداد والخرج ذا السفائف والعثاكيل والرسن المزكرش، ونقل هذه الأحمال من المدينة الى مضارب أصحابه وحتى يضمن وصوله الى أهله عرف القبائل التى سيمر بأراضيها أثناء عودته الى إهله واتخذ من كل قبيله يطأ بأرضها حليفا من أحد أفرادها وذلك ليكون تحت كفالته حتى يعبر أرض هذه القبيلة دونما يمسه أحد بسوء مقابل إعطائه

ذلك الكفيل مبلغا مجزياً من المال مقابل حمايته له أثناء مروره في أرض قومه، كل هذه الترتيبات إتخذها لضمان بلوغه هدفه دون أن يفقد من ماله شيئا، وذلك تمشيا مع الوضع السائد آنذاك، وحانت ساعة الرحيل وما أصعبها على قلوب من تربطهم أواصر المحبة، والإلفة، ولكنها قد تسر الحاسدين والحاقدين الذين لايخلو مجتمع منهم، والذين يحسدون من أنعم الله عليهم بمال أوجاه، ولاسيما ذوى المكانة العالية بين قومهم، أما غنام وأهل بيته فكانت بالنسبة لهم كارثه، حيث قامت ثروتهم الحيوانية ونمت وازدادت على يديه، وقد أفصح صالح في هذه اللحظة عن اسمه الصحيح «فرحان» وانتسب الى قبيلته الحقيقية، ولمح لغنام عن الأسباب التي جعلته يتخذ هذا المسلك و يستعير إسماً وقبيلة غير إسمه وقبيلته ولكنه وعد غنام أن يزوره بين الحين والآخر وقال له إذا نابتك نائبه الدهر في يوم من الأيام فلا تنس أن لك صديقا اسمه فرحان ومتى جاءتنى منك أدنى أشارة أو طرق سمعي طرف خبر فسأبذل الغالي والرخيص في سبيلك، وما أن سار قطيع الاغنام مع راعيها حتى تلاها ذَوْدُ الإبل مع رعاتها وحراسة الذين امتطوا مطيهم يتبع ذلك القافلة المحملة بالمؤن والملابس والهدايا و بيت الشعر والقهوة وأوانيها، وما إن سارت القافلة وكادت تختفي وراء خط الأفق حتى ودع فرحان غناماً وتعانقا طويلا وحبات الدموع تتساقط فوق جبين كل منهم وكلمات العرفان والجميل والوعد بالوفاء تتردد على الشفاه، وودع فرحان الحاضرين، وأمتطى كور مطيته، تاركا قلوبا تتشوق الى بقائه عندهم لاسيما ممن ألفوه وعاشوا معه مدة إثنتا عشرة سنة، وقد تطل اللواحظ من خلف أخبية البيوت وهي ترقب إنطلاق الذلول ترقل بصاحبها وقد ترفع البراقع لمسح حبات اللؤلؤ المتساقطة من تلك الأحداق الحزينة بعد اختفاء المطية من خلف الروابي المحيطة بالنزل، و يستمر فرحان في طريق العودة الى موطن قومه يغذ السير وكله شوق ولهفة الى رؤيا والديه وأخواته اللواتي كن صغاراً عندما غادرهم منذ إثنى عشر عاماً وانقطعت الأخبار بينهم ولم يتصور أن كل شئ تغير بعده. ولم يصادف في طريقه أية صعوبات نظراً للترتيب الذى اتخذه منذ انطلاقته من مكانه بأخذه كفلاءله من القبائل التي يمر بأرضهم ولحسن حظه أن تلك القبائل لاتزيد عن ثلاث، وكلما دخل نطاق قبيلة واعترض القافلة أحد من أفرادها إستقبله الكفيل الذى يمثل هذه القبيلة مناديا

بأعلى صوته «إن هذه القافلة تحت ضماني و بوجهي وأن فلان الفلاني» فلا يتعرض أحد للقافلة بأذى وذلك حسب العرف القبلي السائد والذى يعتبر بمثابة النظام فى الوقت الحاضر، ومتى قطعت القافلة أرض قومه إنتهت مهمته وتسلم حقه الذى تم الاتفاق عليه مع فرحان، و بدأت مهمة الممثل الثانى للقبيلة التى تكون منازلها بمحاذات الأخرى، وهكذا قطع المسافة منذ إنطلاقته من الشرق متجها غربا فى ستة عشر يوماً بلياليها حسب مسير القافلة البطئ، وما إن شارف على منازل قومه حتى أرسل أحد رجاله يتحقق و يتأكد من بيت أبيه وذهب الرسول يتحذى الأخبار من رعاة الشاء يسأل عن بيت خلف ولم يدله عليه أحد منهم، وأخذ واحداً منهم جانبا و بعد تلكؤ بالإجابة حلف الرسول للراعى الأيمان المغلظه أنه لايريد بخلف شراً وإنما قصد به خيراً دون أن يبوح له بسر ما عنده، عند ذلك وصف له الراعى بيت خلف بانه ذلك البيت الصغير المهلهل البارز لوحده عن بيوت النزل على مسافة حوالى ثلاثمائة متر من الجهة الشرقية وعلامته أن عِنَّة البيت فى جهته الغربية تبعد عنه قليلا وهو بيت «مُقَطَّبْ» ليس له «رُفَّة» لجلوس الرجال ومن شرقه «حَجير» بيت صغير جداً لوالدة خلف المُسِنَّةِ، وعاد الرسول الى صاحبه بهذه المعلومات الدقيقة الوافية.

ومن الصدف أن مقبل عم فرحان فى ذلك اليوم كان لديه ضيوف وقد عمل لهم وليمة دعى اليها جميع النزل ومن ضمنهم أخيه خلف وعائلته وقد تجمعت النساء فى بيت مقبل ولم يبق فى بيت خلف سوى زوجته سعدى التى انشغلت ببعض شئونها، واستعد فرحان لبدء المفاجأة وأعد لها عدتها من كل شئ، حتى الحطب المتوفر فى كل مكان أحضر معه منه مايكفيه لأول يوم، ودنا بقافلته من بيت أبيه وأخبر راعي الغنم أن يقهرها بقرب البيت وأوعز الى راعى الإبل أن يبركها و يعقلها غير بعيدة عنهم، وأمر مساعدية بانزال الأحمال عن الإبل و بأقصى سرعة تم نصب البيت المُخَمَّس وهو الذى يقوم على خمسة أعمدة، و بسرعة خاطفه أوقد النار فارتفع لهبها يقذف بكتل كبيرة من الدخان فى الهواء ويجلس بجانبها أحد رجاله ليقوم بحمس القهوة وليضرب النجر ثلاث مرات ليدوى صوته فَيُسْمَعُ من بعيد وأمر فى الحال بنحر أحد الجزر وطبخها بأقصى سرعة ممكنه و بعد إستكمال هذه الترتيبات دنف فرحان الى بيت أبيه مناديا : ياأهل البيت، وترد عليه سيدة قدو خط الشيب ظفائر شعرها

وتغيرت ملامحها عن ذى قبل .فخرجت من الخباء وهى ترد، من الداعى؟ فعند ذلك ناداها «يُمَّهْ»(١) ياأماه وتقدم منها واحتضنها ولف ساعديه من خلف رقبتها و بدأ يقبل عينيها وشفتيها وجبينها، وهو يقول لها أهلا وسهلاً ياأماه أنا ولدك فرحان، ولشدة مفاجأتها حاولت أن تدفعه عن نفسها لترى بعينيها مالا تصدقه من خلال سمعها بأذنيها وما تلمسه بيديها، وغصت الكلمات فى حلقها فلم تستطع نطقا، وهلت دموع المفاجأة والفرح فوق خديها بحيث حجبت النظر وعركت عينيها علها ترى فتجد الخبر اليقين وعند ماركزت نظرها وجدت ذلك الفتى الشاب ذا القامة المربوعة المتمنطق بحزام بندقيته المرصوص بطلقات الذخيرة يتوسطه خنجرة الأبيض اللامع، تتدلى من فوقه عضلات صدره الممتلئة النافرة، والوجه الوسيم يحليه زغب شاربه الأصفر الخفيف الذى بدأ الشعر يكسو مخط شاربه ولحيته و يتدلى على صدره من اليمين والشمال تلك الظفيرتان السودوان الضاربتان الى الشقرة كل واحدة منها ملء قبضة كف اليد، وهتفت السيدة ياربى ياإلهى!! فرحان ... وكأنها تصحو من سبات عميق على إسم فرحان، وترد على نفسها بصوت مسموع ولدى فرحان «لقد غاب عنى منذ زمن بعيد!؟ وأكلته السباع كما يقولون!؟ ثم تعود فتقول ياإلهى !! أحقا هذا أبنى فرحان ذو البنية الضعيفة والجسم النحيل أصبح هكذا؟؟ ياربى ياكريم وقد خرجت الكلمات من شفتيها بصعوبة بالغة وسط غصص العبرات المتتابعة، أصدقنى القول يافتى هل رأيت فرحان وأين هو؟ أين ولدى فرحان...؟ فرحان إنهمرت الدموع من عنيها وتتابعث شهقاتها مما كان له أثر كبير على فرحان نفسه وتمثل هذا الأثر فى تساقط الدموع من عينه وتمالك نفسه وأمسك بأمه ثانية وانحنى عليها يقبلها وهو يردد أنا فرحان ياأمى والله العظيم، وأحمدى الله على «العقلان» صدقينى أننى فرحان وإذا لم تصدقينى فانظرى الى هذه الكيَّة فى مؤخرة رقبتى والتى سبق أن قُلْتِ لى يوماً ما على سبيل المزاح «إنك لو ضعت منى سأعرفك بهذه الكية، وكأن هذه الكلمة قد نبشت ذاكرتها القديمة وأعادتها الى الواقع، فعركت عينيها وقالت : أرينها!! وعندما تحققت من ذلك صرخت صرخة الفرح «يَاحَافِظْ يَا عَقَايِلْ الله» ياحافظ ياعقايل الله إى والله هذا وليدى!! و بصوت لاشعورى وضعت أصابعها فى أذنيها وصاحت بأعلى

(١) اختصار ياأماه.

صوتها، جاء فرحان... جاء فرحان... أبشروا جاء فرحان علها أن تسمع النزل وتعلمهم بالحدث السعيد كل هذا يجرى بلحظات وجيزه.هذا من جانب ومن جانب الرجال المجتمعين بقهوة الشيخ مقبل فإنه ما إن حطت القافلة أحمالها بقرب بيت خلف حتى إشرأبت الأعناق من الحاضرين «بُرِقَّةٍ» بيت الشيخ مقبل، وصار كبار السن وضعيفى النظر يضعون أكفهم بمحاذات حواجبهم علها تكسر حدة ضوء الأفق فتتضح لهم الرؤية ودارت الأسئلة والإستفهامات على ألسنة الجميع كما يلى:

: من هذا؟ وماذا يريد؟

: من الذى نزل بقرب بيت خلف؟

: إنه غريب لايعرف شيمة العرب!!؟

: ربما أن له عذر لانعلمه ...

: إنه لايستحى ولايعرف العادات!!

: ربما أنه سيمضى هذه القيلولة ثم يرحل

: ما أظن أن بيتا بهذا الحجم ستقلع أوتاده بعد قليل!!

: ها... لقد شَبَّ النار!! ها... أنظروا أنظروا... ياخلف؟ «يابوفرحان»!! دخل الى بيتك!!؟ يقاطعه آخر حاد النظر .. يأبا فرحان آه هجم على أهلك!!؟

: ماذا تقول؟ يرد عليه أقول الذى قلت! أدرك زوجتك إنه يقبلها؟؟ ويدوى صدى هذه الكلمات الأخيره في سمع خلف ويجرها يقبلها!؟ وتقع فى سمعه وقعا صعبا.. ويعتزى .. أنا أبوفرحان «لآوالله إلاَّ اَلرَّخَمْ دَخَلْ اَلْبُيُوت»(١) ويأخذ بندقية أخيه المعلقه فى عمود البيت وينطلق الى بيته فى هذه اللحظة يدوى صوت سعدى الفَرِحْ تبشر بقدوم أبنها ويحسبها الجميع تصيح طالبة النجدة ويفزع الجميع حاملين الأسلحة المتوفرة معهم من سيوف ورماح وخناجر وبعضهم مربيته وأخذ بندقيته وكلهم فى صوت واحد «ثَبِّتْ يَاصَيَّاح»(٢) ثبت ياصياح فلما رأت سعدى أن القوم قد قدموا راكضين فزعين خافت أن يقع شئ لم يكن بالحسبان نتيجة خطأ غير مقصود فى تقدير الأمور، فاسرعت راكضة نحو الرجال حيث أدركتهم قبل أن يصلوا البيت وهى تلوح بأردان ثوبها الفضفاض وتصيح فرحة

(١) أضعف الناس انتهك حرمة البيت. (٢) أى حد لنا المفزع ومكان الفزع.

بأعلى صوتها ولدى فرحان، ماهنا الا الخير، «لاأحد يُفَوِّت» ماهنا إلا الخير ولدى فرحان أبشروا جاء ولدى!؟ واخترقت مجموعة من الرجال تسابق الريح متجهة الى النساء فى بيت مقبل بعد أن رشت على القوم الغاز المهدئى للأعصاب الذى نفثته بكلماتها التبشيرية واستغل فرحان هذه الفرصة السانحة فدخل على جدته «صِيْتَهْ» العجوز المسنة والتى قد تجاوزت القرن من الزمان وأصبحت ثقيلة السمع بطيئة الإدراك قصيرة النظر، فانحنى عليها فرحان وسلم عليها وهى تردد ببطء وثقل فى لسانها بصوتها الأبح قليلا من هذا الذى يسلم علي؟ فأجابها أنا فرحان فسألته ببلاهة، ومالذى أفرحك؟ واذا كنت فرحاناً فلماذا تقبلنى وعند ذلك عرف فرحان الحال التى هى فيها فلم تعد تفهم الا ببطء وتحتاج إلى وقت أطول من هذا الوقت الذى سمع فيه أصوال الرجال يقتربون من بيته. أما سعدى فقد وصلت الى بيت مقبل لتخبر النساء هناك بالخبر السار وتبشر أخوات فرحان بقدومه، وعندما سمعت النساء جلبة الرجال ظهرن من البيت ليرقبن إنقضاض الرجال نحو بيت خلف وبدأت نبضات قلوبهن ترجف خوفا من نتائج مايقع وزاد فى إرتياعهن مشاهدة أم فرحان الراكضة قادمة اليهن وكأنها المجنونه تلوح بأردانها وتطوح بأصواتها وعندما سمعن كلامها جيداً سادت موجة من الذهول على وجوه جميع النساء، ورددت الحناجر، فرحان!! فرحان!! وما إن سمع أخوات فرحان، جوزاء، وشعاع، ووضحاء، صوت البشير بقدوم فرحان ذلك الصوت المنطلق من فم والدتهن التى وصلت في هذه اللحظة حتى أحطن بها إحاطه السوار بالمعصم وقلوبهن تكاد تقفز من بين تراقيهن «يُمَّهْ» «يَاهْ» ياأماه أخونا فرحان... فرحان الذى ماغيره؟ أصدقينا يأماه؟ «قولى الحقيقة!! وتصيح سعدى فرحة وتكاد تقفز من شدة الفرح إنها الحقيقة بعينها يابنياتى،! وتعود سعدى وبناتها الثلاث يتسابقن وكأنهن الغزلان الجافلات من صوت طلقه صياد أخطأ صيدته، أما الرجال فبعد أن اخترقت جمعهم سعدى ورشتهم بمفعول كلماتها التبشيرية استمروا فى طريقهم الى بيت خلف وما إن قربوا منه حتى خرج فرحان من بيت جدته وأسرع واستقبلهم بالبشر والترحيب حيث إحتضن أباه وتلاصقت الخدود بالخدود والصدور بأمثالها بين الرجل وابنه ولشدة وقع المفاجأه فى نفس الرجل وعدم تصديقه لما يرى إنهارت قواه فجثم على الأرض بدون إتزان حين أمسكه أحد أقاربه وبدأ فرحان يسلم على

أعمامه الواحد بعد الآخر وكل منهم لايكاد يدق مايرى، ثم عاد إلى أبيه وجثم على ركبتيه أمام أبيه يطمئنه ويهنئه بسلامة العودة، بينما الشيخ يغص بالكلمات إلا ماتخلخل من حنجرته المكتظه بمختلف التعابير ومنها جملة «الحمدلله على العقلان» «السالم معزول» الحمد لله على السلامة ياوليدى» وانكب الرجال يهنئون خلف بسلامة وصول إبنه وتواردت الجمل والكلمات الطافحة بالبشر مثل الحمدلله على السلامة وعسى كل غائب يعود، «جيئة فرحان جيئة السعد» «وعسى كُل سارحة على أهلها رائحة» «هكذا التغرب والا لالزوم»، وبينما إنشغل الرجال مع خلف إذ بأخوات فرحان يتراكضن متسابقان نحو بيت فرحان وتكاد الدهشة تخطف أفئدتهن، فاستقبلهن فرحان داخل الخباء قائلاً : ياأهلا وسهلاً بأخواتي ياأهلا ومرحباً، فبادرته جوزاء قائلة «هَلاَ يَا خَلَفْ مَنْ غَدَالِيْ» وعقدت ذراعيها خلف رقبته وضمته الى صدرها تقبله ولم تترك فرصة لأحد غيرها، ولم تتمكن شعاع سوى أن تأتي من جانبه ولفت ذراعيها فوق ذراعي جوزاء وقالت «هَلاَ يَابَعْدَ آلحيَّ وَالَمْيتْ» وضمت منكبه الى صدرها وبدأت تقبله، والتفت أخته الصغرى وضحا على منكبه الثاني وطوت ذراعيها فوق أذرع أختيها وضمت منكبه على صدرها وهو تقول «هَلاَ يَابَعْدَ عُمْرِى» وأحاطت الأذرع الفضية بعنق فرحان وتشابكت من حوله وبدأت الشفاه النهمة تطبع القبلات على كل موضع من وجهه، شفتيه، خديه، عينيه، صدغيه، جبينه وبدأت الأنوف تشم رائحة ضفائره وكل واحدة تردد الكلمات الحلوة والتعابير الطافحة بالبشر وماهى الا هنيهات حتى عادت الأم سعدى مسرعة ومعها بقية نساء الحي ليسلمن على فرحان ويهنئنه بسلامة الوصول وعند ذلك عَدَّل من هيئته حيث وزن «غترته» وعقاله اللذان قد تغيرا بفعل حركات الفرحة اللاشعورية أثناء سلام أخواته عليه وبدأ يستقبل نساء الحى بالمصافحة وتبادل كلمات التحية والترحاب وكل واحدة منهن تنثنى على أم فرحان تهنئها بعودة إبنها من قلب مخلص إلا واحدة منهن هى «مُرِيْفَةُ» زوجة مقبل فقد دخلت الغيرة إلى قلبها من أول لحظة وقعت عيناها على فرحان ورأت فيه عنفوان الحيوية والشباب وخانها لسانها حيث نبست بجملة فضحت مكنون صدرها حينما قالت وهى تظن ألاَّ أحد يسمعها «ماخُلِفتْ يافرحان

كل ها الغيبة على شان هرس بيت» واندست هذه الجملة في وسط كلمات الترحيب وضحكات الفرح ولم يسمعها أحد سوى فرحان فقد طرقت مسامعه كرأس الحربة، لكنه تمالك نفسه وتجاهلها واستمر على حاله مدركا أنه لايزال تحت الرماد وميض جمر فودع النساء وذهب الى الرجال الذين بدأ خادمه يدير عليهم القهوة العربية منذ قليل من دلاله وفى بيته، وما إن إستأذن الرجال منه ليذهبوا الى بيت عمه لتناول طعام غذائهم حتى حلف عليهم الأيمان المغلظه ألا يذهبوا حتى يأكلوا الجزور التى تطبخ على النار وكاد لحمها أن ينضج وماهى الا فتره وجيزه حتى حمس «القهوجى» طبخة جديده حتى قدمت الصوانى الكبيرة المملوءة «بالتِّمَّنْ» الأرز العراقى وعليه «فقّار» قطع كبيرة من لحم تلك الجزور وعند ذلك قدم الحاضرين الى موائد الطعام قائلاً باسم والده «تفضلوا وسموا لله يحييكم على الميسور واعذرونا عن القصور» و بعد الانتهاء من تناول طعام الغداء أديرت القهوة العربية على الحضور وتقدم فرحان من عمه وانحنى على رأسه وقَبَّلَ جبينه وأنفه وعينيه قائلاً: «بارك الله فيك ياعم هذه من بركات الله ثم من بركاتك» فلولا مافعلت يأبي قبل إثنى عشر عاما لما غبت هذه المدة وعدت الآن والعود أحمد، ولولاك لما تحملت المشاق والسير على الأقدام لمدة خمسة عشر يوماً بلياهن، وتحملت الغربة وفراق الأهل لمدة اثنتى عشرة سنة حصلت فى أثنائها على خير كثير من ربى الذى وفقنى لأعود كما ترى وأشارك فى خدمة عائلتنا، وأساهم معكم جميعا كعضو منكم فى الخير وسندا لكم ضد الشر، وأحقق آمال والدى فى أن يكون له ماللرجال من الدلال «والمعاميل» ومكملات الرجولة المعتبرة، ورُبَّ ضارة نافعة «وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً»، كل هذه الجمل تتابع والقوم شبه مسمرين على الأرض وكأن على رؤوسهم الطير، ماعدا مقبل عم فرحان الذى بدأت الدموع تتناثر من عينيه حتى بللت لحيته وذلك دليل على الندم فيما فعل وتهدجت من حنجرته كلمات تقول «حسبى الله على الشيطان» وعندها تقدم فرحان وانحنى عليه مرة أخرى وقبله على شفتيه ومسح الدموع عن لحيته وهو يقول له مواسيا، أعذرنى ياعم فيما قلت، وهلم نتناول غداءكم الذى أعددتم لضيفكم وانطلق الجميع الى بيت مقبل والبشر يعلو وجوههم والفرحة تغمر أفئدتهم وهم يكبرون فى فرحان هذا التصرف الرجولى الفريد.

٣ - إباء وتصميم[١]

حكمت الظروف القاسية على الصبى شايع باليتم من أبو يه فى سن مبكرة من عمره، حيث فارقت أمه الحياة وهو لم يبلغ السنة الأولى من عمره وعاش بقية سن الرضاعة فى رعاية والده فى ظروف صعبة نظراً لما يعترض عملية الرضاعه من القلة والشح فى مادة اللبن، إلا من أثداء المرضعات أو ضروع الماعز، وما إن اجتاز هذه المرحلة ودرج على الأرض واتزنت خطواته عليها فى الخامسة من عمره حتى إختطفت يد المنية روح والده فانتقل إلى كفالة عمه سالم، بحكم التكافل والتضامن الإجتماعي الذى هو سنه الإسلام، و بتأثير من العادات والتقاليد والأعراف، وهذا العم ليس كغيره من الأعمام، فهو يتصف بالشدة والصلف والقسوة حتى على أقرب الناس اليه أبناؤه الصغار وزوجته و بالتالى إبن أخيه، ولما كانت الحياة قاسية بظروفها بحكم سنوات الشدة التى تمر بها البلاد أحيانا، فلابد من مواصلة الكفاح والصراع المستمر من أجل البقاء، وتحت هذا الإعتبار فإنه مطلوب من كل شخص كبيراً كان أم صغيراً ذكراً أم أنثى أن يعمل بدون كلل ولا ملل للحصول على لقمة العيش وحتى صغار السن مطلوب منهم المشاركة على قدر استطاعتهم، فتراهم يكلفون بأعمال بسيطة تتناسب وأعمارهم فى البيئة التى يعيشون فيها والغالب إما أن تكون البيئة زراعية أو رعو ية أو مهنية، وسالم هذا يعيش فى الوسط الزراعى، ولذلك فإن الأعمال التى يقوم بها الجميع هو مايتعلق بالفلاحة، و يكلف الصبية فى بيئة الفلاحين، بطرد البهائم من أن ترتع فى المزرعة وطرد الطيور الضارة عن العبث بالزرع، وكذلك رعاية مواشى الفلاح، من تسريحها للبر ية فى الصباح وترويحها منها وقت الأصيل، حتى إذا كبر قليلا كُلِّف الصبى بسياق «السَّوَاني» وهي التى تنزف الماء من البئر لسقيا الزرع والفرع، إلى أن يصل إلى سن الشباب فيكلف بأعمال أخرى أصعب منها، ولما كان الغلام ممن قد تجاوز المهمات الصغيرة نوعاما، ووصل إلى مهمة سياق السوانى فى التاسعة من عمره فهو يباشر عمله منذ بزوغ الفجر و يستمر

(١) قصة شائع حمود المديبغ رحمه الله حدثت حوالي ١٣١٥هـ.

يتردد في «المَنْحَاة» التى يبلغ طولها من ٢٥ ــ ٣٠ متراً روحة وجيئة حتى يجن عليه الليل لايستريح إلا فترات قصيرة حينما يريحه عمه لمدة نصف ساعة قبيل أذان الظهر ونصف ساعة قبيل أذان العصر أو عندما تستريح السوانى لتأكل علفها عند أذان الظهر، وطيلة هذه المدة وهو يتردد فى «الجر» المنحاة التى أطلق عليها البعض لقب «قبر الدنيا» نظراً لما تفنية من الجد والعرق والوقت سواء بالنسبة للإبل التى يؤتى بها وعلى ظهورها أكواما من الشحم مكتنزة فى سُنُمِها بارتفاع يقارب المتر ولا تلبث فيه فترة وجيزة إلا وقد مرست «المنحاة» تلك السُّنُم وامتصتها ومع استمرار الوقت يدرب الهزال والخور فيها إن لم يتداركها أصحابها بالعلف النافع أو جلب بديلاً عنها وكذلك بالنسبة للإنسان الذى يستمر يجالد و يتلوى فيها صابراً أو متصابراً يتردد لمدة خمسة عشر ساعة متواصلة يوميا بما يبلغ عشرات الأكيال، وليس المطلوب منه المشى فقط، بل المطلوب منه الإنتباه الى الإبل التى يسوقها ودقة الملاحظة فى العدة المركبة عليها مخافة أن ينقطع شيئا منها أو يؤثر منها شيء على البعير بجرح أو حَرْصٍ فى جلده وكذلك ملاحظة العدة المركبة على البئر، كما أنه يطلب منه أن يكونَ شديد الانتباه لمقدار ماتحمله الدّلاء من الماء وتخرجه من البئر بواسطه حبل «المقاط» فمتى كان الحبل رخواً أصبحت الدلو تُسحُّ الماء من كمها الأمامى فلا تخرج منه إلا قليلاً ومتى كان مكروبا صار الماء يسفح من فوهة الدلو العليا ولايبقى فيها إلا النزر اليسير لذلك فلا بد أن يكون موزونا حتى تُخْرِجَ الدِّلاَء الكمية المطلوبة من الماء، والا «أصبح السياق بدون ماء» كما يقول المثل كل هذه الأشياء مطلوبة من سائق السوانى أو مساعده، وإذا قارنا هذه المهام المنوطة بمن يقوم بهذا العمل مع سن الصبى شائع لأدركنا أنه وأمثاله يستحقونِ التقدير لاسيا أنه لن يأخذ على هذا الجهد أى ميزة أو جائزه اللهم إلا أجراً زهيدا لايتجاوز خمسة ر يالات فى السنة أو مايعادلها من طعام إن كان أجيراً، وإن كان فلاحاً او ممن ينضوى تحت كنفه مثل شائع فليس له إلاّ لقمة العيش البسيطه التى يتناولها وثوب القطن الذي يرتديه، لأن هذه المزرعة ملكه أو ملك ذو يه، بهذه الإطلالة يتضح لنا مدى الجهد المضنى الذي يبذله الفرد فى سبيل لقمة العيش ومقدار الصبر والتحمل الذى يجالد تحت وطأته، أضف إلى ذلك ناحية مهمة وهى الناحية النفسية التى لها أكبر الأثر فى انعكاساتها على جهد الفرد، فمتى كان رب العمل من النوع اللطيف ذو القلب الرحيم الذى يقدر مايقوم به

أجيره أو عامله من جهد فيشد من عزيمته بالكلمات المنشطة التى تبعث فيه الحيوية والأمل وتشعره بان «عمه» صاحب العمل مرتاح عن عمله، أو أن يداعبه ببعض الكلمات المرحة التى تدخل البهجة الى نفسه، وتجعله يندفع و يتفانى فى أداء عمله، أما إذا كان صاحب العمل عكس ذلك مثل سالم عم شائع الذى يستعمل أغلظ الكلمات وأشدها تأثيراً على مسامع الصبى، فكلما قدم اليه أو مَرَّ به نَهَرهُ ودحرج عليه من تلك الكلمات والجمل الفَظَّة التى تحطم الصخور النارية، وتفلق الكرة الفولاذية، غير أن جنان شائع رغم طراوته يتحملها فتنزلق من فوقه دون أى آثر، وكلما مر بمسمعه شئي منها أكسبه ذلك قوة وصلابة، ومع أن زوجة عمه موضي تعطف عليه وتدافع عنه وتقف بجانبه فى كثير من الأحيان ضد عنفوان عمه وسَوْرَات غضبه لكن جهدها لايساوى شيئا بالنسبة لبركان ثائر، واستمر الصبى على هذا الوضع إلى أن حانت ساعة الصفر، ولما كان العراق من مراكز التموين الرئيسية للجزيرة العربية حيث يُحْضِرُونَ منه «التِّمَّنْ» الأرز العراقى بأنواعه من بغداد والبصرة وسوق الشيوخ وكربلاء فى بعض الأوقات و يشترون الكماليات الأخرى من تلك المدن، هؤلاء التجار أو الذين يجلبون منتجاتهم إلى العراق و يقايضون بها بمواد غذائية أو منتجات أخرى يسمون «آلحَدْرَةْ» كثيراً مايترددون على تلك المدن، فقد أكثروا من الحديث عن بغداد ومافيها من مباهج الحياة، ورغد العيش، ولين المهجع، ومع إنتقال هذه القصص من شخص لآخر أثناء مجالس السمر بالليل يمازجها أحيانا شئ من نسيج الخيال، فقد تصور شائع بغداد جنة الله على أرضه وطفح به الخيال إلى تصور مالا يكون، مما دفعه إلى نظم قصيدة باللهجة الشعبية في تلك الليلة وإن كانت القصيدة بسيطه فى بنيتها إلاّ أن لها معنى بعيد الغور يقول مطلعها:

لا واهنى اللى نحر جسر بغداد ألبس جديد وكل يوم بعيدي

وكما مر بنا فإن سائق السوانى يشعر بالتعب ويجثم على صدره الضجر، فيحب الترويح عن نفسه بالغناء مع أصوات المحّال ينفس الكبت الذى كاد يخنق أنفاسه، ولذلك يجد فى الغناء بأعلى صوته متنفسا ينفث من خلاله عقد الضجر والنصب المتراكمة فى صدره، ولهذا فإن شائعاً سلك هذا الطريق، وما إن أحس بالتعب فى

ضحى ذلك اليوم المشمس حتى رفع صوته بقصيدته التى قالها ليلة البارحة:

٥ لاواهنى اللى نحر جسر بغداد   ألبس جديد وكل يوم بعيدى

ولسوء أو لحسن طالعه فإن هذا البيت قد انصب بكامله فى أذن عمه الذى كاد أن يصل إليه، وعندما سمعه إمتقع لون وجهه واحمرت عيناه، وكشر فى وجهه فوقف على رجل واحدة ومال يثقل جسمه مع صفعه قوية أودعها خد الغلام شائع الذى تدحرج على أثرها كالكرة من صدر المنحاة إلى آخرها، وتعفر وجهه وامتلأ فمه وعينيه بالتراب وسماد الإبل، وكانت زوجة عمه موضى واقفة تطعم الإبل علفها، فصاحت بأعلى صوتها وركضت نحو الغلام ترفعه من الأرض، وتواسيه وتمسح التراب عن فمه وعينيه بطرف خمارها وأخرجته من المنحاة متجهة به إلى مجرى ساقى الماء وهو فى شبه غيبوبة، وعندما رشت الماء على وجهه تريد غسله إنتبه الصبى من مفعول اللطمة، فتولى بنفسه غسل وجهه ويديه ونفض التراب والسماد عن ثيابه وتولى سالم سياق الإبل وانصبت موضى على سالم توبخه قائلة:

: أما تخاف الله وترجيه تفعل بشائع هكذا؟

: أنت التى خربت طباعه علينا بتدليلك إياه!!

: هذا غلام يتيم وبذمتنا وتحت مسئوليتنا!!

: يتيم ... يتيم ... أنت دائماً تلجئين إلى هذه الكلمات كل الناس أيتام ولايفعلون مايعمل.

: ياسالم إرحم الصغير فإن من لايَرْحَم لايُرْحَم، وهذا إبن أخيك وعضدك الأيمن، وقد ذقت نفعه من الآن، هاهو كفاك أجيراً بمبلغ من المال ووفر عليك الكثير.

: دعينا من هذه الدندنة ألا تسمعين مايقول وتفهمين معناه؟

: أنه يغنى مثلما يغنى أمثاله من السائقين!!

: أما والله إنك لمغفلة !!إنه يقول كلاماً لايقوله إلا الرجال!! ووقعت الجملة الأخيرة على سمع شائع كالصاعقة وتغلغلت فى أعماق نفسه وسرت في كل ذره من كريات دمه فكبر عند نفسه كثيراً وشعر بفخر يملأ جوانحه فانتفض وتفتحت عيناه وحدق فى عمه الذى إستمر بمحاورته مع زوجته.

: مادام الولد قد قام بعمله خير قيام فهذا دليل الرجولة!! أما أن يتكلم كلام الرجال فهو سيصبح رجلاً في المستقبل وسوف ينفعك في مقتبل عمرك؟
: ينفعني!! لاأريد له نفعاً أبداً.
: ياأُخيّ تعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولاتقسو على أبن أخيك هكذا فالأيام لا تعطى مابغيها، وأرحم من في الأرض يرحمك من في السماء.
: أنه قد أغاضني بالبيت الذي قاله ولن أستريح حتى أسْمِعَهُ الرد عليه.
: هات أرحنا وأرح نفسك.
: يرفع صوته مغنياً على الطريقة المعتادة وعلى قافية بيت شائع.

٦ بغداد يتنصاه شغموم الأولاد   اللى ليا منه تغرب يفيدى

٧ والا إنت خلل جالس عند كداد   وسط الجر من خلف ذيل المعيدى

وهنا جحظت عينا شائع عند سماعه بيت التحدى من عمه ومرت كلمات هذا البيت تكتسح أمامها كل شئ إلا قلب شائع الصامد القوى فإنها إنزلقت من فوقه لتزيده صلابة وتصميا، وهز الغلام رأسه دون أو ينبس بكلمة وطأطأ رأسه قليلا ثم رفعه منتشياً وصمم على ماعزم عليه وأراد أن ينهى هذا الفصل، فأخذ العصا من يد عمه وبدأ يسوق الإبل، وذهب عمه بعد إثارته هذه العاصفة التى ستلوى بمستقبل زرعه، وقد أفرغ مابجعبته من الكلمات الحانقه، واستمرت موضى فى إطعام الإبل وهى تهون على شائع مافعله عمه وتبين له الأخطاء التى يرتكبها عمه إزاءها ولكنها تتحمل ذلك وتصبر على ماهى عليه وتطلب منه أن يحذوا حذوها حتى يفرجها الله له فيكبر و يصير رجلاً يستقل بذاته، هذه الكلمات والجمل تمر على سماع شائع مرور الكرام فلايعيها حيث أنه قد طفح فى تفكيره يتلمس أسلم الطرق التى توصله إلى مأربه.

* * *

ومضت سحابة ذلك اليوم وهو يضرب أخماساً بأسداس ويحاول في تفكيره الغض أن يختار الطريق الأسلم لخروجه من هذا الوضع المزرى الذى يعيشه تحت وطأة هذا

العم الذى لايقدر الأمور، ونظراً لقلة تجاربه في هذه الأمور بسبب حداثة سنه، فقد اختار في البداية طريق الهروب عن عمه، لكن الهروب يعترضه عدة عوائق منها الوجهة التى يؤمها وهو يجهل الطرق والمسالك، وكذلك إمكانية أن يعثر عليه عمه أو تناله حباله فعندئذ ربما يواجه مصيره الأخير على يد عمه ولاسيا إنه بدر منه مايشير إلى ذلك حيث صفعه هذه الصفعه الموجعه بسبب أمنية وردت فى بيت قصيدته، فكيف إذا ترجم هذه الأمنية إلى فعل فلا شك أنه سيواجه ماهو أقسى منها بكثير، والسبب الثالث عدم وجود الزاد والراحلة التى يقطع عليها المسافة الضرورية لنجاته من طائلة عمه، وجاء الليل وخيم السكون على القرية فنام الناس كلهم إلا شائعاً فإنه بقى ساهراً يتململ فوق فراشه الخشن، والأفكار تتصارع فى ذهنه وكلما عَنَّتْ له فكرة تبادر الى عقله مساوئها، وانهرس الليل وهو لم ينم ولم يصل إلى قرار معين، ومع هدوء آخر الليل وسكونه وصفائه إهتدى إلى الفكرة السليمة التى قد تفى بغرضه، هذه الفكرة البدء بالخطوة الأولى، فسافة عشرة آلاف ميل تبدأ بخطوة واحدة كما يقول المثل، وأولى هذه الخطوات أن يجمع الزاد الكافى لإيصاله إلى هدفه، وثانيها الإتجاه إلى بغداد نقطه التحدى بينه و بين عمه مهما كلفه الأمر، وثالثها الذهاب مع بائعى الأغنام الذين يذهبون بأغنامهم ومواشيهم من وسط نجد إلى العراق والشام مختفيا عن أنظار عمه بأى طريقة كانت، وحينما وصل إلى بداية رسم الخطه إستراح تفكيره وهدأت أعصابه، وهنا سرق النوم جفنيه فغط فى نوم عميق لم يقطعه إلا صوت عمه يوقظه بنهراته المعهودة قبل أذان الفجر لكى يقوم بالشد على السوانى وسياقها حسب البرنامج اليومى المعتاد، فنهض مسرعاً وكله حيوية ونشاط، وكأنه نام الليل كله، رغم أنه لم ينم منه إلا سويعات قصيرة، وبدأ بعمله وهو يستعيد نقاط الحل الذى توصل اليه الليلة البارحة و يفحص كل نقطه و يبلورها بذهنه فيجدها صائبه، ومن هذا سيبدأ بالخطوة الأولى وهى جمع الزاد، ويجب أن يحيط خطته بسرية تامة لايعلم بها حتى أقرب الناس إليه وهى موضى زوجة عمه مخافة أن تزل بكلمة عن غير قصد فينكشف أمره، وكان المعتاد أن تأتى إليه موضى فى الصباح الباكر مع طلوع الشمس بطعام الإفطار «لِيَفُكّ به ريقه»، وهو عبارة عن عصيدة من القمح أو الشعير وربما الذرة أو الدخن حسب المتوفر لديهم، تأتى بهذه العصيدة ساخنة وتغطيه

إيـاهـا وتـأخـذ فـى سياق الإبل عنه لمدة ربع ساعة حتى يأكلها ثم يستلم عمله لتبدأ هى بـإطـعـام الإبـل عـلفها وهى أن تضع اللقمة فى فم البعير أثناء استوائه بالمنحاة» بحيث يـمضـغـهـا وهو يمشى، وجلس شائع يلتهم تلك العصيدة الساخنة بِشَرَه وشهية لم تـعهدها فيه من قبل حيث إنتهى منها فى نصف المدة التى يستغرقها فى العادة ولحس أصـابـعـه منهـا، وأثـنـاء ذلك وقـع نظره على كيس من القماش الأبيض قد أحضرته مـوضى معها عندما لفت به إناء الطعام مخافة أن يبرد، ولهذا الكيس أهمية كبيرة عند شـائـع فـأخـذه ووضـعه فوق رأسه وكأنه يريد منه الدفء، ثم ذهب ليغسل يديه بعد الأكـل مـن الساقى وفى حركة مقصودة أخفى الكيس مدعيا أمام موضى أنه طار من عـلـى رأسه وسقـط فـى البئر، فقالت له : المسألة بسيطه ولكن لايعلم عمك بالأمر، واسـتـأنـف عـمـلـه وعليه علامات النشاط التى لم تعهدها فيه وعندما إنصرفت أخرج الـكـيـس من مخبئه وقرر أن يخفيه فى مكان معين تحت نظره فى النهار، أما فى الليل فـإنه لايخاف عـلـيـه مـن أحـد، ولـمـا كـان جدار المنحاه مبنى من اللبن وبعضه غير مـتـمـاسـك تماماً إذ يمكن أن ينزع اللبنه وأختها ويعيدها إلى مكانها متى شاء، فقد نـزع لـبـنـتين من الجدار وحفر ورائهما حفرة فى جال الأرض المرتفع ووضع الكيس فيه وأعاد اللبنتين ووضع فوقهما هِرْسُ «عِدْل» من نسيج الصوف كان مرميا بالقرب من الموضع ودَلّى طـرفـه على تلك اللبنتين على سبيل التمويه وإخفاء معالم مافعل تماماً، إسـتـمـر بـعـمله وعند أذان الظهر تحضر له مُوضى غداءه وهو عبارة عن تميرات قد لا تـتـجـاوز نقله كف اليد فيأكلها بحيث تكفيه حتى وجبة العشاء فى الليل، ومن هذا الـيـوم بـدأ الخطوة الأولى، فأكل نصف التميرات التى أحضرتها عمته وادخر النصف الـبـاقى فى جيب ثوبه ونفسه تتوق الى إمتصاص حتى نواها، وهو يكبح جماح معدته ويقنعها بما نالت وأن يبقى تلك التميرات المدخرة ليوم يكون فيها أشد جوعاً ذلك اليوم الأسـود المـقـبـل عليه، وعندما ذهبت عمته أخذ التميرات ووضعها في الكيس المخبأ ثم أعـاده وأحكـم عـلـيـه اللبن وقـلـبه مطمئن أنه بدأ فى ترجمة فكرته الطازجة إلى واقع مـلـمـوس واستمر على هذا المنوال لمدة شهر ونصف، حتى إذا تفقد الكيس وجد فيه مـايـقـارب ثـلاثـة أصـواع مـن التـمـر أى مـايقارب عشرة كيلو جرام وهنا توفرت لديه الـركـيـزه الأولى التى يحتاج إلى إستكمالها بوعاء الماء حيث لايصلح طعام بدون ماء،

وهنـا دخل إلى البيت حيث يوجد عدد من القرب المرفوعة بعد فصل الصيف فاختار شُكْوَة منها وأخذها دون أن يعلـم به أحد وغمسها بالماء حتى لانت فعبأها بالماء ليجربها إن كان بها ثقوب يخرج الماء منها، فوجدها سليمة فأفرغ ماءها وطواها طية صغيرة ووضعها مع كيسة التمر لتَحَيُّنِ فرصة الإنطلاق متى سنحت.

* * *

وفي ظهر ذلك اليوم الربيعي المعتدل ورد على ساقي البئر الذى يسوق عليه قطيع كثير من الغنم لتشرب وليأخذ أصحابها حاجتهم من الماء، وعندما سألهم من أين أتواو عن وجهتهم التى يقصدونها أخبروه أنهم «عُقَيْلَاتْ» أي التجار الذين يشترون الأغنام والإبل والخيل من مواطنها فى نجد و يبعونها فى بلاد الهلال الخصيب ومصر، وعندما سألهم عن وجهتهم أخبروه أنهم متجهون إلى كربلاء أو بغداد بالعراق، وهنا إرتفعت دقات قلبه من الفرح مما ظهر جليا على محياه وذهب أصحاب الشاء فى طريقهم ولم يُلْقُوْا بالاً لهذا الغلام لصغر سنه، لأن أسئلته تقرع أسماعهم من كل من صادفهم فى طريقهم وهى تبدأ بمن أنتم؟ وماذا معكم؟ ومن أين أتيتم؟ وأين تقصدون؟ وتجرى عليها الإجابة فى حينها، غير أن هذه المعلومات تهم شائع كثيراً وتقع من نفسه موقعا مرموقا وما إن إنصرفوا من عنده حتى أسرع الى قربته وغمسها فى قعر الماء حتى تلين ليمكن تعبئتها، فهذه فرصته الذهبية التى يجب أن يستغلها، وبعد صلاة العصر لمس القربة جوف الماء وإذا هى لينة طرية كالحرير، فتركها ومرت عليه سويعات الاصيل وكأن الدقيقة بيوم كامل، هذه السويعات التى سينطلق فيها بادئا تنفيذ قراره، ولما أيقن أن عمه قد اشتغل بتفجير الماء فى الزرع بأقصى المزرعة ولايمكنه العودة إلا بعد صلاة المغرب، وأن عمته قد إنشغلت هى الأخرى بتجهيز العشاء، مع العلم أن مزرعتهم تقع فى ناحية منزوية من البلد، والناس عند غروب الشمس كل منشغل بعمله لايلتفت لأحد، وقبيل غروب الشمس بنصف ساعة، أخذ قربته وعبأها بالماء وعلقها على منكبه الأيسر وأخذ كيس التمر وعلقه على كتفه الأيمن وتَقَنَّعَ عباءته فوقها واخذ عصاه وترك الإبل واقفه فى المنحاة وانطلق راكضا نحو بئر عميقه غزيرة الماء قريبة من مزرعتهم مهجورة منذ أمد بعيد وذلك للتموية أنه سقط فى البئر،

فينشغلون بذلك حتى يختفى عن أنظارهم، وعندما وصل البئر اختار اساس جدار يمتد بعيداًعن البئر فمشى من فوقه بخفة حتى لا يبين له أثر، و بدأ يقفز بخفه ويختار ألارض الصلبة ضاربا وجهة أصحاب الأغنام الذين مروا به بعد ظهر هذا اليوم حتى أدركهم وهم لايرونه فى الليل وبحيث يأمن على نفسه من خطر السباع، واستمروا يمشون وهو يباريهم، وفى حوالى «الساعة التاسعة مساءاً» أمرحوا، وأراحت أغنامهم فنام بمحاذاتهم دون أن يشعروا به.



غسق الليل أضفى ستاره على آخر أشرطة الشمس الذهبية ووقف الماء عن سالم وهو يحسب أن الجابية قد أوقفت عنه كالمعتاد وأقبل يمشى متثاقل الخطى متجها نحو منزله الواقع فى أحد جوانب المزرعة، وعندما إنتهت موضي من تجهيز العشاء أقبلت «بجذعتها» وهى إناء نحاس يحمل به الماء على الرأس و يستوعب حوالى ٦٠ لتراً لتملأها من الماء للإغتسال به، وعندما وصلت البئر وجدت الإبل واقفة فى المنحاة وليس عندها أحد، وأطلت على الجابية فوجدتها خالية من الماء تماماً، وإذا الساقى قد توقف عنه الماء منذ مدة فنادت بأعلى صوتها ياشائع ... ياشائع ... فلم يجبها وهنا ظنت أن شائعاً قد سقط في البئر، فوضعت أصابعها فى أذنيها وصاحت بأعلى صوتها ثلاث أو أربع مرات طالبة النجده، فجاء سالم مسرعاً مابك؟ مابك؟ فقالت : الولد .. الولد .. أظنه سقط فى القليب؟ ولم يلبثوا قليلا حتى تجمع الناس فزعين على أصوات الإستغاثة التى إنطلقت من حنجرة موضي، و بدأت جلبة الرجال ولغطهم حول البئر، وكانت تلك الليلة شديدة الظلمة حيث القمر محاقا، وتضاربت الآراء عن مصير الغلام، وفزع الناس بإحضار الإضاءة البدائية كالسرج والشموع النفطيه، وبحثوا عمن يجيد السباحة فى جمة البئر ليغوص إلى أعماقها، عَلَّهُ يجد الغلام، فى مقر البئر، ونزل السباحون مع أشطان البئر وأمضوا ليلتهم تلك يغوصون فى أعماق جمة البئر ويخرجون دون أية نتيجة، حتى تعبوا طول الليل، واقترح أحدهم أن يُبْدَأ بسياق الأبل علها تنزف من هذه الجمة لكى تخفف من كمية الماء ليتمكنوا من البحث فى الصباح الباكر، وعند الصباح عثر الناس على أثر الغلام وهو يركض

متجها إلى البئر الغزيرة المهجورة المجاورة وتفقدوا الأثر فلم يجدوه قد خرج عنها، فاتجه البحث إلى هناك، والتأم الناس من جديد على البئر الثانية ولما كانت تحتاج الى تركيب أدوات حتى يتمكنوا من«صَلّ»الرجال الباحثين فى أعماق جمتها للبحث عن جثه الغلام المفقود، فقد أسرع الناس الى إحضار شئ من الخشب والحبال وبدأوا يجهزون قائمة على البئر وأخذ ذلك منهم وقتاً طويلا، وعندما استكملوا ذلك قبيل الظهر نزل السباحون إلى الماء وجدوا الماء صارياً أخضراً نظراً لطول ركوده مما سبب له رائحة كريهة تكاد تخنقهم، ولكن الواجب يحتم عليهم فى البقاء والبحث عن جثه الغلام رغم هذه المعضلة، أما المعضله الثانية فهى وجود قطع من أخشاب الأثل وشرائح من «شطبان» جذوع النخل، وخصلاً من أغصان الشجر قد ألقى بها الصبية العابثون فى البئر على مدى السنين الماضية، وبوجودها بالماء تخثرت هذه الأجسام وأنتفخت ونتجت عنها هذه الروائح بالإضافة إلى ماقد يسقط فى البئر من الحشرات والزواحف التى لاتلبث أن تموت وتتعفن تاركة هذه الروائح الكريهة وهذه العوائق التى وقفت فى وجه السباحين قللت من حركة البحث، إذ لايأمن السباح أن يعوم فى هذه الجمة الغزيرة أن يخدش رأسه جذع نخلة أو ساق أثلة فيحدث له شقا فى رأسه يحتاج معه إلى إسعاف وهذا ماحدث بالفعل لأحد السباحين مما إضطرهم أن يخرجوه من البئر فى حالة يرثى لها فبدأ السباحون يبحثون على حذر، وفى جو سئ يدعو للإختناق من الروائح المشار اليها، ورغم ذلك فقد إستمر البحث حتى بعد صلاة العصر عندما أظلم البئر ولم يعثروا على أى أثر يدل على وجود الجثه فيه، وعند ذلك إقترح أحد الناس أن يتركو البحث عن الجثه لليوم التالى علها أن كانت راسبة فى قعر البئر أن تطفح فى أعلاه متى انتفخت فى اليوم الثالث، نزلوا إلى البئر فلم يروا شيئا وفى اليوم الرابع والخامس عند ذلك، إقتنع الجميع أن جثة الغلام ربما صادفت أثناء سقوطها بعض قطع الأخشاب التى أمسكتها فى قعر جمة البئر ولذلك لم تطفح عند إنتفاخها، وعزوا سالماً بإبن أخيه وطويت صحيفته لديهم وأوقف البحث عنه، وقد ندم سالم على مافعل إزاء إبن أخيه ساعة لاينفع الندم.

* * *

أما شائع فلم يحدث له ماتوهموه، وإنما إنطلق على قدميه الحافيتين يسابق الريح ويلوذ بستار ظلام الليل الذى أظفى سُدُلَهُ على الكون حتى إذا كان بالقرب من غنم التاجرين وعلى بعد حوالى مئة متر منها إحتضن شجرة رِمْثٍ كبيرة قد سفت عليها الرياح من ناعم الرمل ماغطى ثلثى أغصانها، وبعصاه حفر له مكانا فى جثوة هذه الشجرة وتوسد معصمه وإحتضن «زهابه» متاعه ووضع قربته بجانب رأسه ونام بعد أن إطمأن إلى أن التاجرين قد عزما على الإمراح، وبينما الناس فى تلك الليلة لم يناموا باحثين عن جثته فى أعماق البئر، هاهو منزو فى «دُحْمُول» حفرة تعمل بالأرض لطلب الدفء يغط بنوم عميق، ولما بزغت ذوائب الفجر الذهبية تيقظ دون أن يتحرك من مخبئه فقام أصحاب الأغنام بإشعال النار، وعملا القهوة وتناولاها مع من معها من المساعدين، ومع إطلالة قرص الشمس على الأرض درجوا بالأغنام مستأنفين سيرهم وعندما إبعدوا عنه بمسافة كيلين لحق بهم واستمر على هذه المسافة طيلة النهار دون أن يلاحظاه إلاَّ أنه زول يلوح بعيداً عنهم على سمت خط الأفق ولم يستنكروا ذلك لأنهم يسيرون بين قرى ومزارع والأزوال لاتخطئها أبصارهم، وعندما خيم الليل وهجدوا فى مراحهم جاء بقرب الغنم وفعل مثلما فعل ليلة البارحة، فنام على مسافة كافية وأمتص من تميراته مايسد رمقه بعد إن أتبعها بنزر قليل من ماء قربته وشد حزام بطنه، هكذا فعل الغلام فى ثلاث ليال متتاليه دون أن يلفت إنتباه أهل الغنم أنه يسير معهم وفى صباح اليوم الثالث قال أحد أصحاب الغنم وهو خليف.

: مِذْوَدْ هل لاحظت ما رأيت؟
: لقد سبقتنى إلى هذا السؤال الذى يعتلج فى نفسى منذ أمس، نعم إننى أرى هذا الزول يتابعنا فيسرى مسرانا ويجرى مجرانا منذ أول أمس، وكنت أظنه من أهل تلك المزارع التى مررنا بها لكن نفس الزول لم يتغير.؟
: تُرَىَ من هو؟ وعسى ألا يكون قد بيت لناشراً؟
: الله يديم ستره، لكنى لا أظن ذلك؟
: عسى ألا يكون قد أرسِلَ إلينا من جهة ما، يتابعنا ويترصد أخبارنا فيعطيها أولاً بأول للجهة التى أرسلته؟

: على كل حال لنتركه اليوم فلربما كان قاصداً إحدى القرى التى أمامنا، فإن إستمر معنا غداً فسوف نصل اليه ونتحقق من أمره ونكشف سره.

: «أفا عليك»!! أننتظر هكذا؟؟ فلنتغداه قبل أن يتعشانا؟ لنصله الآن ونطلع على أمره. وتجهز الإثنان بكامل أسلحتها وإتجها إلى الغلام وعندما إقتربا منه، إتضح لها أنه صغير السن أعزل من السلاح وليس هنالك مايدعو للخوف منه، وفى هيئة رثة، هذا المنظر أدخل العطف إلى قلب مذود فطلب أن يقابله هو فوافق خليف على ذلك وعندما وصلاه سلما عليه من بعيد ورد عليهما السلام.

: من أنت ياغلام؟

: أنا شائع.

: إنتسب؟

: أتريد أن تصاهرنى حتى تسأل عن نسبى؟

: من أين أتيت؟

: من أرض الله الواسعة.

: أين تريد إذاً؟

: أريد السير على قدمي فوق هذه الأرض.

: أصدقنا القول ياغلام.

: ماقلت لكم إلا الصدق، ولاشئ غيره.

: ولكننا نراك منذ يومين تتابعنا، ماهدفك منا؟

: ليس لي أي هدف سوى الإستئناس بقربكم.

: لاقاربتك رحمة السماء.

: تعوذ بالله من الشيطان ياخليف ودعنى أكمل معه، أصدقنا القول ماهدفك منا؟

: لاتخافوا مني فعليكم الله وأمان الله أنه لن ينالكم بسببى إلا الخير ولم أصاحبكم إلا لطلب الإستئناس بقربكم، للأمان على نفسى من خطر السباع،

: أخبرنا من أنت ومن سيتحمل مسئوليتك؟

: أما من أنا فليس ذلك وقته، وأما مسئوليتى فأنا قد تحملت مسئولية نفسى، وقد حملت مائى وزادى على منكبيَّ ومسيرى على أرض الله، ولا أريد منكم أى شئ

سوى ماذكرت لكم آنفا، فن حقى عليكم كرفيق سفر أن تتركونى وشأنى وأعيد تكرارها والله لن ينالكم بسببى أى سوء.

: خيراً إن شاء الله، ولكن لاتنس ماقلت لنا وتعهدت به. وعاد خليف ومذود أدراجهما وأخبرا أصحابهم بذلك واستمر هو على وتيرته سالكا طريقه إلى حيث يذهبون يمشى موازيا لهم أثناء سيرهم حتى إذا باتوا نام بالقرب منهم ويملأ قربته من كل بئر يردون عليها، واستمر فى ذلك خمسة أيام وفى اليوم السادس رق له قلب مذود وأقنع رفاقه بإصطحاب الغلام معهم أثناء سفرهم هذا يطعمونه من زادهم و ينام بزاوية من الخيمة التى ينامون تحتها فى الليل وذهب اليه مذود واستطاع إقناعه فأتى الغلام وساروا معاً، يساعدهم فيما يستطيع عمله من جمع الحطب وإيقاد النار وصب القهوة ورد قطيع الغنم إذا شذ منه شئ، فأعجبتهم خفته وحذقه، فتأسفوا لما أضاعوه من وقت بدون صحبته، وفى اليوم السابع شعر أحد مرافقيهم بمرض ألم به مما جعله لايستطع القيام بمهمته، وطلب منه أن يقوم نيابة عنه بالعمل بمهمته، فدعا شائع وطلب منه أن يقوم نيابة عنه بالعمل الذى كان يقوم به، وهى رعاية قطيع الغنم وحياشتها وسوف يدفع له نصف الأجرة التى أتفق عليها مع أصحاب الغنم ومقدارها ثمانية جنيهات ذهبية، وجرى الإتفاق بين الإثنين بحضور أصحاب الشأن كشاهدين على ذلك، واعتبر شائع هذه أول صفقه تجارية يحصل عليها فى حياته، وكأن الأربعة جنيها الموعود بها تساوى لديه الدنيا بحذافيرها، فارتفعت معنويته وازداد نشاطه، وتضاعفت قوته خَفَّ كابوس العبودية عن كاهله، وأطاح بجلباب الخوف عن ظهره وأبدى حيوية لانظير لها، فأصبح يقوم ببعض الأعمال التى يزاولها الشباب، واستمر مسير القافلة ثمانية وعشرين يوماً حتى وصلوا إلى كربلاء مشيا على الأقدام قاطعين مايقارب ألفاً وخمسمائة كيل.

وعندما شارفت القافلة على مدينة كربلاء، بهرت شائع معالم المدينة وارتفاع مبانيها وضخامتها نسبة إلى المبانى التى وقعت عليها عيناه فى بلده، كما أعجبته أسواقها وحركة البيع والشراء فيها وأصبح مشدوها وكأنه يعيش فى حلم، وقصد أصحاب الأغنام عراقيا رفيقالهم يأوون اليه و يدخلون أغنامهم فى أرض له محاطه بجدار طويل فى مأمن على الأغنام ومتوفر بها الماء حيث يجلبون لها العلف، و يبدأون

ببيعها بأثمان مرضية، وعندما باعوها بالكامل أعطو أجراءهم حقهم ومن ضمنهم شائع واشتروا باقيام أغنامهم بضائع مما خف حمله وغلى ثمنه، ويرون أنه نافق في بلدان نجد، وعندما عزموا على العودة عرضوا على شائع أن يعود معهم وسوف يضاعفون له الأجر، فأبى، رغم المحاولات التي بذلوها معه فودعهم، وطلب من رفيق أصحابه العراقي أن يدله على صاحب قافله أمين يوصله الى بغداد ففعل، وأخذ بقية تميراته وقربته وواصل السير مع القافلة مقابل جنية واحد، وبعد ستة أيام أطل على بغداد الأمنية التي كانت قبل أبعة وثلاثين يوماً حلماً يراود خياله، والآن أصبح ذلك الحلم حقيقة لاغبار عليها وأصبحت تلك الأمنية واقعاً ملموساً، وتمنى من أعماق قلبه لو يمتد طَرْفُ عمه من وسط نجد فيرى شائعاً وقد وقف على جسر بغداد، الذي صافح خده أقسى الصفعات بسببه، وفي ضحى ذلك اليوم الربيعي درجت قدماه على الجسر المكتظ بالناس غادين رائحين، فلم يتمالك نفسه حيث وقف على الجسر بهيئته الرثة ميمماً الى وجهة بلده وتنفس الصعداء ورفع عقيرته وبأعلى صوته غنى البيت الذي سبق أن غناه قبل مايزيد على الشهرين:

لا واهني اللي نحر جسر بغداد … ألبس جديد وكل يوم بعيدي

: وكان أقرب الناس على الجسر رجل قد جاوز الخمسين من عمره فاسترعى إنتباهه ذلك الغلام والإنفعالات المختلفه التي تصارعت على وجهه أثناء قيامه بهذه الحركة والصوت المرافق لها، فأدرك بثاقب حدسه أن وراء الأكمة ماوراءها، فدنا من الغلام وسلم عليه وربت على كتفه وقال له، ماإسمك يابني؟ فقال الغلام إسمي شائع، فرد عليه حسناً يابني وأنا اسمي غازي.

: ثم أستأنف مالك يابني تغني هكذا؟ وأنت تعرف أن هذا الجسْر وضع من أجل المرور عليه لامن أجل الغناء عليه؟

: وجدت شيئاً يثقل صدري ويكتم أنفاسي فأردت أن أفرغه من على هذا الجسر.

: أنت غلام صغير ولم يحن الوقت الذي يثقل صدرك بمثل ماتزعم، يقول غازي هذا وهو يظن أن الغلام به شئ من لواعج الشوق.

: لقد أثقلتني الهموم والمصائب من صغري.

: هموم وأنت في هذه السن!؟
: أجل هموم، و ....، و ... يتلعثم صوته.
: لابد أن لديك أشياء كثيرة تريد أن تقولها وهذا المكان غير لائق للإفصاح عنها فهل تصاحبني إلى ذلك المقهى القريب من الجسر لتخبرني بما عندك لعلي أستطيع مساعدتك في حلها ولاسيا أنه يبدو أنك غريب في بغداد.
: يتردد، ويحملق بوجه الرجل عله يستقرئ شيئاً من النوايا التي يبيتها له، و يتلعثم بالكلمات و يتأنىء بها فلا تخرج من شفته كلمة مفهومه.
: لا تتردد يابني!! لاتخف فأنا أحب مساعدتك، تفضل فالمقهى قريب.
: ينظر إلى المقهى وإذا هو غير بعيد عنهم وهو بين الناس في وضح النهار، فزالت سحابة الشك التي خيمت على تفكيره وأنقشع، كابوس الخوف الذي جثم على صدره فوافق على الذهاب مع غازي إلى نفس المقهى وجلس الإثنان.
: بعد أن طلب فنجانين من القهوة وبدآ بارتشافها قال غازي يابني يجب أن تطمئن اليَّ أولاً وأعاهدك بالله أنني لا أريد لك إلا خيراً فاخبرني عن قصتك لعلي أستطيع مساعدتك؟
: تتصارع الأفكار في ذهنه و يبقى برهة لايرد رأيا ثم يقول : هاه... ماذا أقول؟
: أسألك أن تخبرني بقصتك من أين أتيت؟ ومالغرض من مجيئك؟ وما هو وضعك.
: يعطي معلومات مبهمه، أتيت من نجد، أبحث عن الرزق عن لقمة العيش.
: أبشر بكل ماتريد ياولدي، ماذا تجيد من الأعمال؟
: أعمل في حقل الفلاحة.
: جسناً، حسناً، سأساعدك في إيجاد عمل لك ترتاح فيه.
: أين؟ ولايكاد يتمالك نفسه بين الفرحة بإتاحة فرصة العمل وبين شعور الإطمئنان إلى صدق مايسمع، وبين الخشية من أن يكون ذلك فخاً نصب له بحكم حداثة وجوده في هذا البلد.
: لاحظ هذه الإنفعالات التي تتقاذفه فأراد أن يؤجل تفاصيل هذه الأمور حتى يطمئن اليه أولاً، فقال له يابني لديَّ إبن هو في سنك يعمل بالفلاحه فإن اردت أن تعمل لديَّ معه فذلك خير وإن لم ترد ذلك فسنبحث لك عن شخص آخر.

: لايكاد يصدق ماتسمعه أذناه، لكن عدم الإطمئنان يحول بينه وبين الإجابة الكاملة؛ ولما رأى غازى منه ذلك قاله له.

: أبق يابنى هنا حتى أعود اليك أنا وابنى بعد قليل لتذهبا معا إلى الفلاحة. وغادر المكان وطفح التفكير بشائع الى شتى الإحتمالات ومضت عليه من الوقت حوالي ساعة وهو يطرح من الأفكار ثم يأتى بمفنداتها إلى أن توصل فى النهاية، إلى الموافقة على العمل عند هذا الرجل وأن يلتزم جانب الحذر حتى يتبين له مايرمي اليه، وفى أثناء ذلك حضر غازى ومعه أبنه على وعَرَّف الإثنان على بعضهما وذهب الفلاحان الصغيران إلى المزرعة وبقي الرجل فى بغداد.

* * *

: وما إن وصل شائع وعلي إلى المزرعة حتى وجدا أم علي واسمها رَاوِيَةُ فسألت إبنها من يكون هذا الغلام الذى بصحبته وعندما أخبرها أنه أجير سيعملُ معهم فى المزرعة عندئذ رحبت به وطلبت منه أن يدخل إلى دورة المياه ليغتسل وينظف جسمه، فلبى الطلب وعند ذلك أحضرت له ثوبا من ثياب إبنها على الذى كان يماثله فى الجسم ولما خرج مغتسلاً لبس الثوب كأنه مهيأ له، وأحس بالراحة والإطمئنان فأحضرت لهما زاداً من الأرز العراقى الذى لم يشبع منه شائع من قبل فأكل منه حتى ارتفعت أضلاعه، أكلة لم يسبق أن أكلها منذ أمد بعيد، وهنا أحس وكأنه ولد على الدنيا لتوه لاسيما عندما رأى موقع قدمه لمس شيئا يدل على حسن نية غازى وإنه فعلا يريد له كل خير كما هو ظاهر حتى الآن، فباشر العمل مع على فى المزرعة، وعند المساء عاد غازى من المدينة ومعه ملابس جديدة أحضرها لشائع لأنه رأى رثة هيئته فأراد أن يغيرها فسبقته على ذلك أم على وبعد تناول طعام العشاء إستراحوا فى بهو المنزل الواقع فى جانب حقل النخيل والحمضيات، وتمدد الرجل على قطعة من حصير الخوص كما هى عادة الفلاحين، وكان أفراد العائلة بجانبه وعندهم شائع فبادر غازي شائعاً بالسؤال، هيه!! يابنى ألا ترى أن هذا المكان مناسب لتقص عليَّ قصتك التى لم تستطع سردها علي فى المقهى ضحى هذا اليوم نظراً لكثرة أصوات الناس ولغطهم؟ فقال شائع بلى، هذا المكان مناسب جداً، ولكنى أراك ياعم غازى حريص على معرفة قصتى فما هو

السبب وراء ذلك؟.

: يابني شائع مثلك يعرف أنني يجب أن اعرف معلومات كافية عن إنسان آوتيه في بيتي وسيعمل عندى وسيشاركني في منزلي وحقلي و يصاحب إبني.

: سمعا وطاعة ياعم وإليك قصتي وبدأها منذ الوقت الذى أصبح يدرك فيه كنه الأمور واستمر في سردها والأحداق تتركز على شفتيه تراقبها عند تلفظه بكل كلمة وكأنهم يسمعون بعيونهم، وعندما يصل إلى موقف جرى له فيه إضطهاد أو تعذيب تنطلق الحناجر بكلمات التوبيخ لعمه سالم، وعندما وصل إلى الحادثة الفاصلة التى على أثرها إتخذ القرار الذى أوصلة إلى بغداد قفز اليه غازى وصافحه وقبل جبنية قائلاً: لله دَرُّكَ يابني هذه من علامات الرجوله والإباء والشمم فيمن لايتحمل الضيم، بارك الله فيك الآن أحسست بقدرك عندى وقيمتك في نفسي، وأصبحت أنظر اليك كابني الكبير فارس. وَرَبتت راو ية على كتف شائع قائلة «ماشاء الله حولك عيني» أهلاً وسهلاً بك يابني سأعوضك عن حنان أمك وعطف أبيك إن شاء الله، وصافحه علي بحرارة مرحبا به وقال: سنظل أخوين مع بعض إلى الأبد، وانصرف كل إلى فراشه فرحاً مسروراً بما وفقه الله وهداه إلى هذه العائلة الكريمة التى سيعيش بكنفها وبعد أن تململ من شدة الفرح وكأنه ولد على الدنيا من جديد، وكأن صفحة البؤس قد طواها إلى غير رجعة ولفظها في النهر من على الجسر عندما طوّح بصوته يغني بيت القصيدة التى ختم به تعاسته بالسعادة التى بدأت بوادرها الآن، وأثناء تجواله سابحاً بهذه الخيالات والرؤى غط فى نوم عميق لم يشعر إلا و يد راو ية الحنون توقظه في الصباح لتناول طعام الإفطار وكعادة الفلاحين لايجتمعون إلا على طعام الغداء والعشاء، فقد باشر عمله بالمزرعة التى لم يكن عملها غر يباً عليه مع إختلاف طفيف واستمر في عمله ثلاثة أيام وهو لايصدق ماحدث له وفى اليوم الرابع وعلى طعام الغداء قال له غازى:

: يابني إنني لا أر يد أن تعمل لدينا دون أن تعلم بمقدار الأجر الذى سنعطيك إياه شهر ياً.

: عفواً ياعم!! هكذا قال شائع ثم أستأنف إنني لاأر يد منكم أجراً و يكفيني ماغمر تموني به من العطف والحنان والرعاية التى لم أجدها منذ أن شُقّ بصرى على الحياة.

: أستغفر الله يابني، إن ماتلمسه منا ماهو إلا واجب ديني وإنساني وقومي يتوجب علينا القيام به نظراً لظروفك الخاصة، ولاعلاقة له في أجرك عن العمل الذى تقوم به في مزرعتنا.

: أبداً، أبداً لن أتقاضى منكم أجراً أبداً فلقد عشت ست سنوات أعمل بالمجان عند من لايقدّر عملي، فكيف سأتقاضى أجراً ممن يرعاني هذه الرعاية؟

: يابني أنا أقدر لك عواطفك النبيلة التى إن دلت على شئ فإنما تدل على طيب المحتد، ولكنك ماقدمت من أقصى نجد وقطعت مئات الأكيال على قدميك إلا لطلب الرزق والفائدة، ونحن في نفس الوقت كنا ندفعها لأجير أدنى منك كفاءة وأقل إخلاصاً.

: لقد حلفت أنني لن آخذ منكم أجراً.

: يمكنك التكفير عن يمينك وسأدفع لك مبدئيا ما كنت أدفعه للأجير الذى قبلك وقدره ثلاثة دنانير شهريا بالإضافة إلى الأكل والشرب والملابس إلى حين ننظر في وضعك مرة ثانية.

: اسمع مايقوله غازى وأطعه وستحمد عقبى ذلك هكذا تدخلت راويه وسكت شائع وانتهت فترة الغداء وانصرف كل إلى عمله واستمر شائع عند هذه الأسرة لايأخذ من غازى فلسا واحداً وغازى لايأكل لشائع فلسا أيضا بل يدخر له مايصرفه له شهريا، وما قرره له من زيادة بعد ذلك وبعد مضى عشر سنوات على هذا العمل المخلص الدءوب من شائع وتلك الرعاية والعناية من غازى، حتى عرضت مزرعة بجانب مزرعة غازى للبيع فاستدعى غازى شائع وقال له: ألا تريد شراء هذه المزرعة التى بجانبنا؟ فهى معروضة للبيع فأجابه شائع وكم مطلوب بها؟ فقال غازى يريد بها ألف دينار، فأمسك شائع برأسه وقال: ومن أين لى هذا المبلغ؟ فأجابه غازى إن لك عندى الآن أكثر من هذاالمبلغ ؟ فدهش شائع من هذا الكلام وهو يظن قبل ذلك أن غازي إلتزم بكلمة شائع قبل عشرة سنوات مضت عندما قال له انني حلفت الا آخذ منكم أجراً، لكن غازى إستمر على ماعزم عليه منذ ذلك الحين، فحبذا شائع الفكرة، وفى اليوم الثانى نقدوا لصاحب الفلاحة المبلغ المطلوب وسجلوا المزرعه بإسم شائع واستلمها وأصبح من الملاك بقرب نهر

دجلة، وبجانب مزرعة غازى، وكأن مزرعتها مزرعة واحدة لولا مايفصلها من الأحراش والجدار القصير القائم بينها، واستمر شائع يدير شئون المزرعتين معاً و يصرفها بفطنته وإدارته وخبرته فى حقل الزراعة.

* * *

وبعد بضعة أشهر من شرائه للمزرعة حيث قد قارب تمام العقد الثاني من عمره وقد باع أول غلة من مزرعته فتوفر لديه مبلغاً من المال لابأس به أودعه لدى أم علي، وفى إحدى الأمسيات بينما كان شائع وعلي جالسين بعد تناول طعام العشاء لوحدهما، دارت بينهما حكايات الشباب حتى تطرقوا إلى موضوع الزواج فأخبر علي شائعاً أن والدته قد إختارت له فتاة من أقاربه حيث قد وضعوا اليد عليها، وبعد أيام قليلة سيتقدمون لخطبتها، فعند ذلك بدأ الوجوم على محيا شائع وطفح به تفكيره بعيداً لاينتبه لما يقوله على فأخذته الغيرة وتمنى فى نفسه لوكانت له أماً مثل علي تساعده فى إختيار فتاة أحلامه التى يود الإقتران بها، وهنا ضرب بكف على كف وبدون أن يشعر وقال: أما أنا فقد وقع نظرى على الفتاه التى أعجبتنى وهى على مايبدو تبادلنى نفس الإعجاب، غير أن أمها لاترغب فى ذلك بحكم كونى غريب، وليت والدتك تستطيع إقناع أمها لتقبل بى زوجاً لإبنتها!! فقال على : ومن تكون هذه؟ قال شائع انها مليحه ابنة جارنا سليمان، ولم يشعر الإثنان إلا وأم علي تقطع عليهما حديثهما الشيق قائلة: «مساكم الله بالخير» بماذا تتحدثان؟ وكأنها سمعت طرفا من حديثهما، فقال شائع محاولاً تغير مجرى الحديث نتحدث عن النخيل، ومايحتاج إلى تعديل فى إعذاقه على جذوع الجريد مخافة أن تتكسر القنوان عندما يكبر بُسرها وتصبح ثقيلة لاتحملها العراجين، وقاطعه علي قائلاً: لاياأمّاه، إنما نتحدث عن شئ بعيد عما ذكر شائع، بل نتحدث فى أمور الزواج والخطبة، وسأخبرك بشئ جديد أن شائعاً قد أعجبته مليحة بنت جارنا سليمان، ولكن العقبة الواقفه فى الطريق هى أمها ويريد منك التوسط لدى أمها علّك تقنعيها بالموافقة على زواج شائع منها إذا هو تقدم لخطبتها، هذه الكلمات مرت على أسماع شائع كالصواعق من شدة حيائه من أم علي، فامتقع وجهه وتصبب العرق من جبينه خجلاً ولولا ظلمه الليل التى

سترت التعابير والإنفعالات التى إرتسمت على وجهه لظهر شيئا عجيباً، وتهدجت من حلقه عدة كلمات تقول، لا ... لا، ماأردت ذلك؛ قالها شائع بلهجة مرتجفة، وعندها أدركت الحالة التى هو فيها، فربتت على كتفه قائلة: حسنا بابنى هذه علامة الرجولة، الرجولة الحقة! وأبشر ياشائع فسوف أذهب الآن إلى أم مليحة وأقنعها وآتيك بالخبر اليقين إن كنت أم علي : ولبست عباءتها وذهبت إلى بيت سليمان، فوجدته مع زوجته وأبنائه، وبعد تناول قدح من اللبن طلبت راوية الإنفراد بأم مليحة فجلست معها حوالى الساعة وهى تخطب منها مليحة لشائع وتبين لها محاسن شائع ورجولته، وحياءه، ومروءته، وكرمه، وأمانته، وإخلاصه، وتفانية فى سبيل عمله وحَميَّته وغيرته على من يمت إليه بصلة، وأبرزت له من الصفات ما أقنع أم مليحة بقبوله إن هو تقدم لخطبة إبنتها، وعندما طال بينها الحديث قال سليمان كأنك جئت تخطبين ياأم علي؟ فأجابته على الفور وما جئت إلا لهذا الغرض!! وهنا وجدت الفرصة سانحة بعد تفرق الأطفال ولم يبق سوى أبي سليمان وأم سليمان ففاتحته بالموضوع، فلم تجد منه مايمنع من ذلك ولا سيا وأنه قد عرف شائعاً منذ عشر سنوات ولمس منه من الخلال الحميدة مايجعله لايكره أن يكون زوجاً لإبنته، ولهذه الأسباب وافق مبدئيا إذا وافقت إبنته على ذلك، وهى ولاريب ستوافق مادام أهلها لم يمانعوا وهى كذلك تعرف شائعاً بحكم الجوار وتسمع عنه من الجيران الثناء العطر، وبهذه الحصيلة عادت أم علي تملأ جوانحها الفرحة وأسرعت فى المشى فطفحت عباءتها من فوق رأسها وكأنها مظلة أحد جنود المظلات وقد لثمت قدماه الأرض وبدأ يجمع خيوط مظلته حتى أصبحت فوق رأسه مثل عباءة أم علي عندما شدتها من ملبسها فوق رأسها لتقاوم بها سرعة جريها وتقاوم الرياح المعاكسة لمسيرها، وفور وصولها زَفَّتْ الخبر السار إلى شائع قائلة: أبشر ياشائع يا «... عينى» لقد حصلت على مبتغاك، لقد وافقوا مبدئيا على إعطائك مليحة، ولم يبق إلا أن تذهب غداً انت مع أبي فارس لإتمام الخطبه الرسمية، وسمع أبو فارس طرفا من الحديث واستفسر عن الخبر فأخبرته راوية بالقصة كاملة، فتنهد الصعداء وقال: عجيب ... عجيب !!السيل يجرى من تحتك ياغازى وأنت لاتعلم!!؟ خيراً خيراً إن شاء الله وهذا الأمر من خير ما عملت، وكنت عازماً على مفاتحتك فى هذا الموضوع ولكن سبقتني إليه أم علي،

فقالت راو ية: مدافعة عن شائع: يا أبا علي الموضوع كله وليد ساعة واحدة كنت وقتها غائبا وإلا قد كنا أخذنا رأيك فى الموضوع.

فقال غازى: على بركة الله وحسن توفيقه، وسنذهب غداً إلى جارنا سليمان ونطلب منه يد إبنته لك وأننى مستعد بكل مايلزم لأننى أعتبرك إبنى الثاني، وسوف نرتب الموضوع بحيث يكون زفافك وزفاف علي فى ليلة واحدة، وإلى غد إن شاء الله وتصبحون على خير، وانصرف كل إلى مضجعه، فنام الجميع، وهيهات للنوم أن يطرق جفن شائع هذه الليله و بقى طول ليله تنزعه إنفعالات الفرح عن الفراش، وتطفح به شطحات الخيال فيتصور كامل الترتيبات أمامه، فيغير فيها و يبدل، و يضيف ويحذف، و يستحسن ولايستسيغ، ومع هذا التصور وتحت شمعه باهتة الضوء ترى يديه تتحرك يمينا وشمالاً ترتفع وتنخفض، و ينبر ببعض الكلمات، و يغمغم بأخرى بلهجة غير مفهومه، وهو يرتب أشياء لازالت فى طيات الخيال، ولم يشعر إلا وأشعة الشمس تطل عليه من كُوّة صغيرة فى غرفته فيستيقظ من خيالا ته و يعرك عينيه وكأنه إنتبه من نوم عميق، فينهض و يتوضأ و يصلى الفجر ثم يعود لفراشه و يغط فى نوم عميق، لم تستطع أم على على ايقاظه الا بعد جهد وعناء على غير عادته، فأيقنت أنه ربما تأخر فى نومه، ولم تدر أنه لم ينم إلا لتوه فقام من مضجعه متثاقلاً يجر قدميه، ولم تكن له رغبة فى طعام الإفطار، فذهب إلى عمله فرددت أم علي بصوت منخفض المثل القائل «ماوَجع إلاَّ وَجَعَ اَلضِّرْس وَلاَهَمَّ إلاَّهَمَّ اَلعِرْس» و بعد صلاة الظهر إستدعاه أبوفارس ولبسا أنظف ملابسها وأمره بالعناية بمظهره وترتيب هندامه جيداً ثم ذهبا الى بيت الشيخ سليمان، و بعد تناول القهوة والتمر، تكلما فى الموضوع، وجرت مشاورات صورية بين الأب والأم والبنت أسفرت عن الموافقه النهائية، وضربا موعداً لعقد القران ثم الدَّخْلَةِ يتفق مع موعد قران إبنه علي الذى تحدد فى صباح هذا اليوم على أن يكونا فى يوم واحد، وهكذا عادا بعد نيل مطلبها، وفى اليوم المحدد عملت الترتيبات لعقد القران للشابين على الفتاتين لا يفصل ذلك إلا ساعة واحدة، حيث أحضروا الشيخ للإملاك لعلى ثم انتقلوا إلى بيت سليمان للإملاك لشائع واتفقوا على ليلة الخميس القادم لتكون ليلة الزفاف للإثنين وحيث دنت تلك الليلة جرت الأمور حسب الترتيب المتفق عليه فصار حفلا الزواج فى مكانين متقاربين ومن المستوى

المتوسط الذى تغلب عليه البساطه والسهولة كما هو الحال فى وسط الفلاحين، ولكنه يحمل كل المقومات الأساسية لحفل الزواج وإن كان ينقصه البهرج الزائد الذى يتوفر عادة فى حفلات الأوساط الغنية، وتم الزواج فظفر شائع بالفتاة التى كان يتمناها يوماً من الأيام وذلك بفضل الله تم بفضل هذه الأسرة الكريمة التى آوته ووجهته وأسندت ظهره مكافأة له على جده وإخلاصه وتفانية فى عملهم، وهكذا وجد شائع الدفء والحنان، والعطف فى بيته الريفي البسيط القابع فى جزء من مزرعة النخيل والحمضيات بوجود فتاة أحلامه فيه، فضربت الطمأنينة قبتها على قلبه وملأت السعادة والسرور جوانحه.

* * *

ولما شعر شائع بإكتمال أسباب السعادة لديه، لم ينس الإلتفات إلى من تسبب له بكل ماحدث، إنه عندما تعمق فى التفكير وجد سبب هذا الوضع هو عمه، نعم قسوة عمه، الذى تركه فى قريته بنجد منذ مايزيد على عشر سنوات، إن الشرار الذى لمحه ببصره عند إحتكاك كف عمه بخده فى تلك الصفعة القوية هو الذى ترجم أمنياته الخيالية إلى الواقع الملموس الذى يعيشه الآن، وان كان ذاك العم لم يدر بخلده أصداء فعلته تلك، لكن شائعاً أدركها بثاقب بصيرته، فعند ذلك أراد أن يجازى عمه على فعلته إحسانا، ولما قرب موعد قدوم تجار المواشي والمنتجات الحيوانية «اَلْحَدْرَةْ» الذين يجلبونها من نجد إلى العراق، لستعيضون عنها بالمواد الغذائية والبضائع الأخرى، بدأ يدنف إلى المكان الذي يتواجدون فيه، ويسأل عن أناس معنيين من أهل بلده يعرف أنهم يترددون على بغداد بين الحين والآخر وبعد أن أستمر آكثر من شهر عثر على واحد قيل أنه من أولئك الجماعة وعندما وصل اليه سلّم عليه وسأله من يكون؟ ومـاإسـمه؟ واستغرب المسئول من هذا الشاب الذى يتكلم اللهجة العراقية ويخلطها باللهجة النجدية التى لايتقنها تماماً، مما جعل كلامه خليطا من المجتين، ولذلك لم يعطه الإجابة الشافية، فأخبره عن إسمه الأول وانه من نجد قائلاً:

: أن إسمى سعد، ومن تلك الديار الوقعة جنوبا عنكم، من نجد.:

: أنا أعرف أنك من نجد ومن أهل القرية الفلانية فن تكون منهم؟

: بإستغراب، ومن تعرف منهم؟؟

: يعدد له الأسماء التى يعرفها من القرية والقبائل المحيطة بها.

: من أنت!! أخبرتنى بنسبك فسأبيّنُ لك نسبى؟

: ينتسب فيعرف شائع أهله و ينتسب شائع فيعرف سعد أهله، و يتعانقان و يسلم كل منهما على الآخر بحرارة ويجلسان متكئين على كور المطيه فى تلك الساحة المليئة بالإبل الباركة والتى قدمت من مختلف الجهات و يدور الحديث بينهما.

: يطرق قليلا و يتذكر عله يجد من تلك العائلة من يتسمى بهذا الأسم، ولكنه لم يتوصل إلى نتيجة، ولايذكر منهم سوى غلام ذكر له أنه سقط فى بئر ومات فيه فأصبح قبره منذ مدة تزيد على عشر سنوات، فيعيد السؤال أصدقنى ياشائع من تكون؟.

: ألا تصدق كلامى، أنا فلان بن فلان الفلانى!.

: لم أذكر أحد بهذا الأسم سوى أبن فلان الذى سقط فى البئر فى تلك السنة التى لأاكاد أتذكرها عندما كانوا يبحثون عنه فى بئر الفلان التى أصبحت قبراً له، وغير هذا لا أذكر احداً ثم أنك تتكلم اللهجة العراقية فمن أين جئت ومن أين عرفت جماعتى؟.

: ضحك من كل قلبه بعد أن تأكد أن الخطة التى رسمها عند هروبه قد نجحت وانطلت على القوم، واستأنف قائلاً أنا شائع بلحمه ودمه!؟

: الله يبشرك بالخير، الله يبشرك بالخير، الله لايقطع بذر الأجواد، الحمد لله على السلامة، سلامة يوم تسلم دوم، وكيف أتيت الى هنا؟

: هذا السؤال تحتاج إجابته الى وقت طويل، أخبرنى من معك من الجماعة؟

: يعدد له من معه من الرفاق ومن بينهم واحد ممن كانوا يصفون بغداد عندما كان صبيًا وقد شوقه هذا اليها، وهذا الرجل يتصف بالصدق والأمانة.

: مادام الأمر كذلك فإننى أدعوكم الليلة لتناول طعام العشاء فى منزلي فحياكم الله، أنت وجميع (خوياك) فأبلغهم بذلك وسأحضر إليكم بعد صلاة العصر لآخذكم معى للعشاء، فودع سعداً إلى لقاء فى الموعد المحدد.

: وحضر القوم وزف إليهم سعد البشرى وقص عليهم قصة لقائه بشائع، وتفاوتت

الآراء بين مصدق ومكذب لكن فهداً قطع قول كل خطيب، فقال : أنا أعرفه مثلما أعرف ولدى ان به علامة فارقة وهى كَيَّةٌ خلف حاجبه الأيمن أنا كويته إياها عن مرض ألم بعينه، فإن كان هو فساعرفه واقطع الشك باليقين، وفى الموعد المحدد قدم شائع، ومن بعيد حَدَّقَ به فهد فعرف ملامحه سوى ماطرأ على جسمه من الضخامة والإكتناز، وبدأ يسلم على القوم الواحد بعد الآخر وعندما وصل الدور إلى فهد تحقق من الكَيَّةِ فوجدها، وأشار إلى الرفاق بنظرات عينيه وقسمات وجهه وإشارات رأسه أنه هو ...، وتبادل الجميع السلام وعبارات الإطمئنان على السلامة والصحة وانتقل الجميع على أقدامهم لقرب منزل شائع منهم، بعد أن تركوا مَطِيَّهُمْ فى أماكنها مُعَقَّلَةً وأوصوا أحد رفاقهم بالإنتباه لها إلى حين عودتهم، وعندما دخلوا البيت رحب بهم أجمل ترحيب وبعد أن اتخذوا مجالسهم دارت القهوة العربية وانصبت الأسئلة على شائع كانهمار المطر عن كيفية هروبه وكيف جاء الى هنا؟و ... و ... و... فأتى شائع بالقصة موجزة بمايتناسب والموقف الذى هم فيه، حيث أن القوم بانتظار الطعام وبعد قليل قدمت الصوانى وعليها الخراف الناضجة والأرز العراقي الممتاز الذى طُفِّحَ بالسمن البرى وتعتبر هذه المائدة من أفخر الموائد آنذاك وبعد تناول طعام العشاء، إتخذوا مجالسهم مرة ثانية فأديرت القهوة وتجاذب القوم أطراف الحديث، وسأل شائع عن عمه سالم، وزوجته موضى، فأخبروه أن عمه لايزال على قيد الحياة وفى صحة جيدة، لكن أحواله المادية غير مرضية، أما زوجته فقد إنتقلت الى جوار ربها، فخيمت على وجهه سحابة من الحزن والأسى عند سماعه الخبر، ودعالها بالرحمة والغفران، وقفزت من عينيه الدموع عندما ذكر مواقفها المشرفة معه فى أيام المحنة، ثم تطرق الحديث إلى كافة شئون القرية، وأحوالها وماجرى على الجماعة فى تلك الفتره من الزمن، وبعد مضى جزء من الليل إستأذن القوم للذهاب إلى ركائبهم فأذن لهم على شرط أن يأتوا لتناول طعام الغداء والعشاء كل يوم أثناء إقامتهم فى بغداد، وقدم لكل منهم كسوة أحضرها له، تتكون من ثوب و «زبون» و «شماغ» وفوقها عشرة دنانير ليشتروا بها هدايا لأولادهم، وأمسك رفيقه فهداً وقاله له إذا عزمتم على السفر فأخبرنى قبل ذلك بيومين لأرسل معك حاجة لعمى سالم فرد عليه فهد، إننا

سنغادر بغداد، بعد غد إن شاء الله فإن كان لديك حاجة فجهزها من الآن، وانصرف القوم والسنتهم تلهج بالثناء على شائع ومنهم من لايصدق ماحدث، أن ابن قريبهم فلان سيكون بهذا المستوى، وأن طموحه وعصاميته ستوصله إلى ماوصل اليه.

* * *

وفى اليوم المحدد لسفر القافلة أحضر شائع خمسة جمال بكامل احمالها منها ثلاثة أحمال «تِمَّنْ» أرز عراقى، وواحد منها يتكون حمله من القهوة والهيل والملابس، والخامس عليه قطعتين من فراش القطيفه لقهوة عمه وأشياء أخرى، وعندما أحضرها جمع أرسانها فى حضور الجميع وعقدها فى كف رفيقة الأصيل فهد قائلاً له «هذه أمانة من يدى في يدك لتوصلها إلى يد عمى سالم، وهذه خمسون جنيها ذهبياً معها ليستعين بها على شئون الحياة، وأخبره بما رأيت منى، بأن شائعاً قد وصل إلى جسر بغداد وحقق أمنيته، وذلك بفضل الله وتوفيقه ثم بفعل تلك الصفعة التى تلقاها فاشعلت الشرارة الأولى لإنطلاقته وشحذت همته، وجعلته يتحمل المسئولية رغم صغر سنة آنذاك، فقطع مئات الأكيال مشياً على الأقدام، وأبلغه أننى تواق إلى تقبيل تلك الكف التى تسببت لي فى ذلك، وأتمنى من كل قلبى أن يزورنى ليرى بأم عينيه قبل أن أزوره فى مكانه وأبلغه منى عاطر التحية وانطلق الركب من هذا المكان مودعين بالحفاوة والإكرام، وعند وصولهم إلى سالم وتسليمه ماأرسل له وقع الخبر على مسامعه وقع الصاعقة فكان له ردة فعل عنيفه فى نفسه فأصيب بإنهيار عصبى أودى بحياته بعد فترة قصيرة ولم يتمكن من رؤية شائع وقام بالنيابة عنه أبناؤه بزيارة إبن عمهم بعد ذلك.

٤ - معجزة تتحقق بقدرة الله

مضت فترة زمنية معتمه على الجزيرة العربية، إبان الحكم التركى، وضربت الفوضى أطنابها على نجد بالذات،وعادت الى السيادة القبلية تشبه ما كانت عليه قبل بزوغ فجر الإسلام وأصبحت كل قبيلة تبسط سيادتها على جزء تعتقد أنه أرضها، فتدافع عنه بكل قوتها، وتختلف مساحة هذا الجزء بين قبيلة وأخرى بحسب كبر حجم هذه القبيله أو صغرها وقوتها أوضعفها، ويخضع هذا الوضع لقاعدة القوة والضعف، لايحكمها نظام ولايضبطها قانون، وأصبحت القبيلة لها كامل الحق فى هذا الجزء المكتسب من الأرض تؤوى اليه من تشاء وتمنع عنه من تشاء، وتسمح بالمرور فيه لمن تريد، وتنهب ممتلكات من مرفيه بدون إذن مسبق أو بكفالة أحد أفراد القبيلة، وتستفيد من المرور خلاله بما يدفع من أموال ومكوس مما يشبه الضرائب فى الوقت الحاضر، هذه الحال كانت سائدة فى ذلك الوقت.

وفى تلك الليلة الشاتية أحست عيدة زوجة شعيفان بأول آلام المخاض فكتمت الخبر عن زوجها، ولكنه أحس بكثرة تململها في الفراش الذى يبعد عنه قليلاً. فسألها:ـــ

: عيده، عيده، مابالك لم تنامى؟ هل تشعرين بشىء؟:

: لا، لا، إننى أحس بأرق يلازم جفونى هذه الليلة ولم أستطيع أن أنام.:

: مادام الأمر كذلك فعليك أن تتعوذى بالله من الشيطان الرجيم، تقرئي الفاتحة والمعوذات ليطمئن قلبك وتنامى.

: تحس بمغص وتريد أن تكتمه عن زوجها، ولكن وظائف جسمها الدفاعية تبوح بسرها، حيث يظهر صوت أنّةٍ خفيفة تنساب من أنفها فتقطع آخرها، وتستأنف حديثها بطريقة تتظاهر أنها لاتحس بشئ وذلك لتغطى على الحالة التى هى فيها، ولكن بعد فوات الأوان، لقد عرف زوجها أن لديها سببا آخر يمنعها من النوم.

: عيده يبدو أن لديك سبباً آخر منعك من النوم، فاخبرينى به؟

: بعد تردد وحياء، تعرف المرأة عندما تكون فى شهرها التاسع تحس أحيانا بآلام ووخزات، تزيد وتنقص، تشتد وتهون بين الحين والآخر.
: الله يعين ويُهَوِّنُ كل أمر عسير، وينكمش تحت غطائه بحكم لسعات البرد الذى يتخلل بيت الشعر المضروب فى بطين ذلك الجبل الأشم ويغط فى نوم عميق، ولكنه لايطول فيصحو على نبرات صوت عيده تنبهه.
: شعيفان ياأخَيّ .. إننى أحس بالآلام وقد إزدادت فما رأيك أريد منك أن توصلنى لأمى.
: أمك!!؟ أمك؟ أين نحن وأين أمك؟ أتعلمين مابيننا من المسافة؟
: أعلم ذلك جيداً ولكنى أريد أن أكون بجانب أمى، أنت تذكر تماماً المرة الأولى عندما ولدت لوحدى بالبيت وأشرفت على الهلاك وخسرنا بذلك إبننا الأول، ولاأريد أن تتكر العملية مرة أخرى.
: يطير النوم عن جفونه وينتصب جالسا فيقول: ولكن أين أهلك؟ إن بيننا وبينهم مسافة يومين على الراحلة وليس هناك طريق إلآمن خلال أرض القبيلة الفلانية، وأنت تعلمين مابيننا وبينهم من العداء المستحكم وربما لو ظفروا بنا لَنِلْنَا منهم مايكدر صفونا إن لم يقتلونا؟
: كل هذا أعرفه أيضا، ولكن لي إليك طلب واحد وهو أن توصلنى إلى أمى بأى طريقة وعلى أى وضع، أرجوك لاتتركنى تمر بى التجربة الأولى مرة ثانية.
: ولكن يبدو أن الوقت قد فات الآن تشعرين بآلام المخاض ولايمكننا أن نصل إلى أهلك إلاّ وقد وضعت، ربما كان ذلك فى الطريق لاسيا وإن إرْقَالَ المطية التى سنركبها سيعجل بعملية الولادة.
: إنه قد بقى على ولادتى ثلاثة أيام على مايظهر بمقارنة الآلام التى أحس بها الآن مع مثيلاتها فى المرة الأولى، وفى هذه الفترة يمكننا أن نصل الى أهلنا.
: إذا كنت ترين هذا فابشرى بمن يوصلك أهلك، «وغالي والطلب رخيص» وينهض شعيفان وَيُنُّمر مطيته ويشد عليها ويضع عليها كامل عدتها ويضع حصيرة خلف الشداد لتستريح عليها زوجته، وتقوم عيدة من فراشها وتأخذ «مزودتها»(١) التى تحتوى على ملابسها وأغراضها الخاصة ويعلقها على جنب المطية ويركب

(١) المزودة هى المزادة وعاء من نسيج الصوف المزكرش يقوم مقام الحقيبة فى الوقت الحاضر.

زوجته على الحصيرة خلف الشداد، ويمتطى كور مطيته وتثور بهما من مَبْرِكِها، ومع إنفلاق عمود الفجر تحركت بهما تلك الذلول العمانية متجهين إلى مضارب أهل زوجته، وتنطلق مطيتهم بخطواتها المتباعدة وتطفح بهما لا تكاد مناسمها تلامس الأرض، وعندما ذَرَّ شعاع الشمس يحمل معه الدفء والحنان إلى صحن تلك الأرض المحتاجة اليه بكل ماعليها من إنسان وحيوان ونبات بعد ليلة باردة حتى كانا قد قطعا مسافة لابأس بها، ودخلا ضمن أرض القبيلة المجاورة لهم والتى تناصبهم العداء فقالت له زوجته:

: شعيفان، أرجو أن تُهَوِّنَ من وَخْدِ المطية، لأننى أشعر بأن ذلك يؤلمنى و يز يد من حركة الجنين، بل إجعل سيرها ذَمِيْلاً وذلك أدعى لراحتى.

: ألا تعلمين أننا بأرض «قوم» على خلاف معهم ولو ظفر بنا أحد منهم فسوف يؤذينا، ويجب عليك أن تصبرى وتتحملى، حتى ندخل مع ذلك الرِّ يع(١) وتختفى مطيتنا عن الأنظار، وعند ذلك سأقصر من سير المطية.

: آه .. لو تحس بما أحس به لما قلت هذا القول، ولكن ماعليَّ إلا أن أصبر والشكوى على الله.

: يجب عليك أن تضحى ببعض راحتك فى سبيل المحافظه على حياتنا.

: حسنا ولكن أخشى أن يكون إرْقَالُ المطية ونفضها لي ما يسبب فى سرعة خروج الجنين، أوقد يؤثر على صحته فيخرج ميتا ونخسره كما خسرنا الأول.

: توكلى على الله، وما قُدِّرَ فسيكون وأصبرى فلم يبق إلا القليل من المسافة حتى نصل إلى تلك الهضاب التى نلوذ بها عن أنظار الناس وتكون لنا مأمَناً.

: تجمع قواها وتعض على شفتيها تقاوم نوبات الألم المبرحة التى تلسعها، وتُظْلِمُ الدنيا فى عينيها تارة، وتَصْفَرُّ أخرى ولا تنبس بكلمة، ولايسمع منها سوى أَنَّةٍ عميقة بين الحين والآخر، وأخيراً يجبرها الألم إلى أن تقول له: ياأخَيَّ ياشعيفان إننى لم أستطع صبراً على ما أنافيه فارجوك أن تختار لنا مكانا نستر يح فيه قليلاً.

: ابشرى .. علنا نجد فى تلك الهضبة كهفاً نأوى اليه فنجد فيه الدفء والاختفاء عن الأنظار حتى المساء لنسري فى جنح الليل ونواصل سيرنا حتى نقطع أرض أولئك القوم «القُشْر»

(١) الر يع هو الفراغ الواقع بين جبلين يفصل أحدهما عن الثانى.

وتشق المطية ذلك الرَّيْع شقاً حتى تصل الى عُرْفٍ دَانِقٍ فى بطن الرَّيْع فأوقف شعيفان المطية عنده وسَرَّح نظره عله يجد كهفا يلوذ به فلم يقع نظره على شئ فاجتازاه ودخلا فى تلعة(١) من خلفه وكأنه رأى فى مدخلها لوحاً واقفاً به غار غير بعيد عن الأرض، فقصده وأوقف المطية ونزل عنها فذهب راكضا إلى الكهف ليسبر غوره فوجده مُتَّسِعاً ودافئا، فعاد الى مطيته وأناخها وعقلها وأصعد زوجته ممسكا بيدها إلى الغار وساوى لها أرضيته وفرش لها «ساحة» صوفية كانت معه وأجلسها عليها، وعاد إلى مطيته فأنزل عنها شدادها، وأطلق عقالها وقيدها لترعى من مسيل تلك التلعة تحت مراقبته، وأحضر سلاحه ومتاعه إلى فم الغار، وبدأ يجمع شيئاً من الحطب لإيقاد النار طلباً للدفء وعندما أشعل النار ذهب لرد مطيته مع المسيل فوجهها لتُصْعِدَهُ وذلك لضمان بقائها تحت نظره وعند عودته إلى زوجته وجدها قد إشتد بها الكرب وبدأت سياط الألم تلسع خاصرتها، فبدأ وجهها يَصْفَرُّ تارة ويَحْمَرُّ أخرى، وعندها أيقن أنه جاءها أشد المخاض، وهو بالطبع عديم الخبره بذلك، فلأول مرة يرى المرأة فى هذه الحالة، فصار عنده خليط غريب من العطف والخوف، فهو يعطف عليها مما يراه من الآلام التى تتململ تحتها ويود لو يستطيع تخفيف هذه الآلام عنها بأية طريقة، وهو خائف من نهاية هذا الوضع وماينجم عنه وكيف يتصرف مع الطفل؟ وتحت تأثير صرخات زوجته المؤلمة إرتفعت نبضات قلبه، فبرغم شجاعته المعهودة لملاقات الرجال، لكن قواه قد خارت وبدأت فرائصه ترتعش، وهو يحاول بكل جهده مقاومة ذلك، ويحاول مساعدة زوجته بتحريكها يمينا وشمالاً، وكلما حركها أطلقت صرخة لاشعورية، وعند إنتصاف العملية بدأت الزوجة المسكينة تسبح فى دقائق من الغيبوبة تعود بعدها لإلتقاط أنفاسها من جديد ثم تبدأ بزحرة أخرى فتعود إلى الغيبوبة مرة ثانية، وهكذا بينا الرجل قد ذهل نفسه وبدأت معالم الرَّهْبَةِ فى كل ذرة من جسمه، الرهبة من النهاية لهذا الوضع، خائفا أن تفارق زوجته الحياة على مرأى منه، دون أن يستطيع إنقاذها، وأستمرت على حالتها تلك مايقارب الساعة وعندما غادر الطفل بطنها إلى الدنيا كانت روحها قد غادرت جسدها إلى جوار بارئها، فصعق الرجل وأسرع يحاول إنقاذ حياتها، ولكن قد فات الأوان، بحيث أصبحت

(١) التلعة هى فراغ بين جبلين ينتهى بسد وهى أطول من الخريب واقصر من الريع.

جثة هامدة بين يديه، قد اختطفت يد المنون روحها أمام عينيه، فأصيب بصدمة عنيفة هزته من أعماقه وجعلته في حالة يرثى لها، فتناول الجنين الملقى على الأرض وحمله بعد أن لفه في ثوب أمه الثاني ونظر إليه لايتحرك ولايرمع ولايتنفس وقطع سُرَّته، ورفعه بلفائفه ويحاول تحريكه لعله يتنفس فلم يَرَ منه مايدل على الحياة فوضعه إلى جانب أمه، وعند ذلك كبس اليأس على قلبه بعنف حينما فقد الأثنين معاً، زوجته أعز الناس إليه، وابنه وفلذه كبده، واستعان بالصبر وثاب إلى عقله وبدأ يردد «إنا لله وإنا إليه راجعون، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» بدأت هذه الجمل والآيات تخفف من آثار مصابه الجلل، وفجيعته العظيمة، على مافقد دفعة واحدة في ساعات قصيرة ولما رأى زوجته وأبنه جثتين هامدتين أمامه إستعرض الحلول التى سيتخذها إزاءهم، إما إن ينقلها إلى مضارب قومه وهى على تلك الحالة من آثار الوضع، فإنه لايستطيع لاسيا وأنه لايوجد معه من أوعية الحمل شيئاً، ثم إذا حملها فإنها ستوارى التراب هناك وهذا الكهف وأمثاله قد يتخذ قبراً لكثير من الحالات المماثلة، العامل الثانى هو الخوف على نفسه من الأعداء إن هو تباطأ في المسير بأرضهم، العامل الثالث الحالة النفسية التى هو فيها لاتساعده على نقلها من مكان إلى آخر، فعند ذلك قرر أن يبقيها وجنينها فى نفس الغار بعد أن يسد فه عليها سداً محكماً، وبدأ يجمع الحجارة ليسد فيها فم الكهف حتى أحكم السد عليها تماماً، فصلى عليها ودعى لزوجته بالرحمة والغفران وطلب العوض من الله وانصرف إلى مطيته محطم القلب يُجْهِشُ بالبكاء حينا ويستعين بالصبر والعزاء أحيانا، وأمتطى كور مطيته بعد صلاة الظهر متوجها إلى مضارب أهل زوجته ليخبرهم بما حدث، ولينقل لهم التعازى ويواسيهم فى المصاب الجلل بالنسبة له ولهم على حد سواء، وعندما وصلهم وأخبرهم تبودلت عبارات التعازى راضين بقضاء الله وقدره مصدقين بما نقله إليهم من تفاصيل الحادث وبقى عندهم مدة يومين عاد بعدها إلى مضارب قومه.

* * *

عاد شعيفان إلى بيته بعد غياب أربعة أيام والألم يعصر قلبه لاسيا عندما وصل البيت ورأى بعض مقتنيات زوجته الباقية بعدها من ملابس وغيرها فقرر أن يتصدق بها على المحتاجين من فقراء حيهم، وقرر أيضا ان يغير مكان البيت فضرب أطنابه بمكان آخر عَلَّهُ يهون عليه الأمر وأن يزيل عنه بعض مايذكره بها ولكن هيهات!! هيهات أن تمحى تلك الصورة من مخيلته فصورتها تبرز أمامه فى كل لحظة، وأكثر مايزعجه المنظر الذى شاهده بأم عينيه لإحتضارها مما يجعله لايذوق لذة النوم، وأدرك والده وإخوانه ماهو فيه من المعاناة، والصراعات النفسية مما جعلهم يخشون عليه عاقبة ذلك، فقرروا فى الحال أن يزوجوه بفتاة من بنى عمه اختاروها له لتسليه ولتبعده عن الصورة التى يعيشها، وهى مشهورة بدماثة الخُلُق، ورجاحة العقل، ورحابة الصدر، تحب المزاح والمداعبة، وهكذا تزوجها، ونجحت هذه الفتاة فى إنتشاله من حالة اليأس والمعانات التى هو فيها إلى وضعه الطبيعى السليم عدا ماينتابه أحيانا من سرحان الفكر، ولكن بمدد قصيرة وأوقات متباعدة، ولكن ذلك زال عنه تدريجيا بعد مرور حوالى سنة وأنجاب زوجته الثانية باكورة إنتاجهم صبية حلوة، واستمر شعيفان مع قومه ومضت تلك السنه وبعدها حصل صلح بين هذا الحى وبين جيرانهم الذين كانوا لهم أعداءاً قبل سنتين وأصبح كل جانب منهم يعيشَ فى أرض الجانب الثانى وقد إستفاد شعيفان من دروس الماضى فأصبح يوصل زوجته إلى أهلها أو يحضر لها والدتها قبل الوضع بوقت كاف لتتولى شئون إبنتها فإذا أيقن أن وقت الوضع قد قرب سافر إلى أى جهة وغاب عن الأنظار المدة الكافية لإنتهاء زوجته من الفترة المشئومة لديه ولذلك خشيه تجدد الصورة السابقة فى ذهنه، وهكذا فعل للمرة الثانية عندما رزق بمولود ذكر، ورغم أن زوجته الحالية كانت على جانب من الجمال وتمتاز بعدد من الخصال الحميدة لكنه لايزال يذكر زوجته الأولى عيدة بين الحين والآخر ولاسيا أن أخت زوجته الحالية بنفس الإسم وكلما طرق هذا الإسم مسمعه نبش ذكرى زوجته من ثنايا حافظته، وبذلك بقيت حية بين جوانحه يشنف إسمها أذنية فى كثير من الأوقات رغم مرور مايزيد عن السنتين على وفاتها.

* * *

وفى يوم من أيام الربيع ذهب لبعض شأنه ميمماً صوب الهضاب التى توفيت بها زوجته ولم يستطع مرور ذلك المكان لما يجدده له من الحزن، فتجنب الولوج مع ذلك الربيع الذى سبق أن رِتْعَ فيه، ووصل مضرب عرب فى الهضبة وضاف شيخ النزل بعد صلاة العصر، وكان هذا الفريق قد وصل إلى هذا المكان فى نفس اليوم، وشرع المضيف بعمل القهوة، لضيفه كما هى العادة عند قدوم أى ضيف، وعندما شُبَّتْ النار ودَنْدَنَ «نجر» القهوة إجتمع الرجال عليه لتناول القهوة والتعرف على الضَيِّف القادم ومعرفة أخباره، وأديرت القهوة، ومع طَقْطَقَةِ فناجينها وأصوات إرتشافها دارت الأحاديث بين القوم كل يفرغ مابجعبته من الأخبار والمشاهدات، وإنطباعاته عن هذا المكان الجديد، ورأيه فيه، وإن كان ملائماً لقطينهم مدة طويلة أم أن الكلأ الموجود فيه لايكفى مواشيهم إلا لأيام معدودة، بعدها يحتاجون تغييره إلى مكان آخر، ورغم أن الرواد لم يأتوا حتى الآن، ولكن آراء الحاضرين دارت بين ممتدح لهذا المكان، وبين من يرى عدم الإقتناع، وآخر يرى فى هذه الهضاب القريبة منهم خير عون على توفر المرعى لمواشيهم، وربما وجدت هناك مياه تكفى لورود مواشيهم فى فصل الصيف القادم و يرى فريق آخر أن الرأى الأخير الذى يجب الأخذ به هو حصيلة آراء القوم هو رأى الرواد الثلاثة الذين ركبوا مطيهم منذ الصباح الباكر وذلك لسبر الأرض المحيطة بهم ورغم أن الجميع يعرفون الأرض فهى أرضهم، ولكنهم قد غابوا عنها منذ أكثر من سنتين فهى قفر لم يطرقها أحد نظراً لرحيلهم مع القبائل المحيطة بها إلى شمال الجزيرة بسبب الخصب الذى أصاب تلك البقاع. وحتى الضَيِّف تناوله الحاضرون كالعادة بعدة أسئلة عن الوجهة التى قدم منها وعن مستوى العشب والكلأ الذى شاهده فى طريقه اليهم هل تشبع فيه الغنم؟ أم تتعشى فيه الإبل؟ أو تشبع الإبل فيه؟ وأنواع العشب الذى يكون الغطاء النباتى لتلك الأرض وما إلى ذلك من الأسئلة التى تهم القوم، ومضت سحابة ذلك الأصيل وهم ينتقلون من حديث إلى آخر فى نفس الإطار الذى يهمهم عن المرعى والماء برغم عدم حاجتهم اليه فى الوقت الحاضر لكنهم سيحتاجونه بعد فترة من الزمن، وودعت الشمس الكون ساحبة أذيالها الذهبية، رويداً رويدا حتى لا تفزع من يحب رؤية وجهها، واقتفى أثرها الليل يضفى سُدُلَهُ على القبة الزرقاء، وحان موعد صلاة المغرب فأذن المؤذن وصلى القوم

الصلاة، وعادوا الى أماكنهم ومع أول غَمْزٍ لنجوم السماء ببريقها اللا مع قدم أول واحد من الرواد الذين ذهبوا منذ فجر ذلك اليوم، وعند وصوله أخذ مجلسه، وكأنه مسئول كبير سيعقد مؤتمراً صحفيا، فانهالت عليه الأسئلة من الحاضرين، وهنا بادرهم بقوله: دعوني أرتشف فنجانا من القهوة يجلي عَمَسَ عيوني وبعدها سأوافيكم بما عندى عن الأماكن التى أدلجتها على ظهر مطيتى هذا اليوم فوالله إنها لم تَثْنِ خفها منذ الفجر وحتى الآن، فوجم القوم وأطبق الصمت عليهم حينما أعطوه الفرصة الكافية لذلك وكأنهم ينتظرون أمر سيحكم مصيرهم الآن، وبعد إرتشافه ثلاثة فناجين من القهوة عَرَكَ جبهته وفتح عينه ومسح لحيته واعتدل جالساً، ثم بدأ يصف لهم المكان الذي قطعه هذا اليوم روضاً روضاً وشغية شغية، ووادياً وادياً، وأكمة أكمة، ورابية بعد أخرى، ووهدة وأختها، وريعا ومثيله، وتلعة وشبيهتها، وقاعاً ومافي مستواه، فلم يترك شبراً من الأرض إلا وصفه لهم بنباته وأنواع الأعشاب المتوفرة فيه عشبة عشبة، وأصناف الحشائش النامية فيه ودرجات إرتفاعها عن مستوى الأرض، ومدى ري الأعشاب والحشائش وأنواع الأشجار الكبيرة التى يمكن اللجوء اليها عند الحاجة للإستظلال بفيها، كل هذه المعلومات الهامة بالنسبة لهم يلقيها وهم صامتون لاينبس أحدهم بكلمة، وعند فراغه من الإدلاء بهذه المعلومات إنهالت عليه الأسئله مرة أخرى كل يستفسر عن نوع معين، وكأنهم الصحفيون فى البلاد التى تحترم حرية الكلمة وهو يجيب على أسئلتهم واحداً بعد الآخر حتى أجاب على كل إستفساراتهم، بعد ذلك قدم الرائد الثاني عن جزء معين تم إرساله إليه، وأدلى بنفس المعلومات التى أدلى بها سابقه، لأن القوم يختارون رواد الأرض من ذوى الفطنة والذكاء ومن لهم خبرة بالأرض، والذين يتصفون ببعد فى سبر بواطن الأمور، والصدق والأمانة والواقعية وهذه المؤهلات، الفطرية لاتتوفر فى كل الناس بل فى نسبه معينة منهم ومن هؤلاء يُخْتَارُ. رواد الكلأ للقبيلة أو النزل، وبعد صلاة العشاء الأخير قدم الرائد الثالث وأدلى بما عنده فوصف مشاهداته التى ماكاد يسرد نصفها حتى نادى المُضِيْفُ ضيفه مع الحاضرين لتناول طعام العشاء، فطلبوا من الرائد أن يكمل حديثه بعد العشاء وانتقل الجميع إلى مائدة الطعام، وبعد الإنتهاء من الطعام عادوا إلى مجالسهم لإستكمال الإستماع إلى بقية الحديث، وبعد الإنتهاء من الحديث كان الضيف يستمع

إلى بيانات الرواد الثلاثة دون أن يسأل أيًا منهم لأن ذلك لايعنيه إلا بمقدار الإستفادة التى يسمعها عن الأرض والآراء المختلفة نحوها، وسأل أحد الحاضرين الرائد الأخير، مادامت البقعة التى كلفت بريادتها هى الأقرب ومع ذلك جئت متأخراً فما هو السبب؟ فأجاب دعنى أكمل حديثى، فللحديث بقية عجيبة، وغريبة، ومفزعة،!! وعند ذلك إشرأبَّتْ أعناق القوم وتركزت الأنظار نحوه، وكل قد شد إنتباهه إلى المفاجأة التى سيعلنها فقال: مررت عصر هذا اليوم بريع فى هذه الهضبة ورأيت شيئاً عجيباً؟ الحاضرون: ماذا رأيت؟؟ يجيب رأيت إنسانا يمشى على أربع!!! وتنصب الأسئله عليه من الحاضرين ولا يستطيع الإجابة عليها دفعة واحدة، فيتولى شيخ القوم الأسئلة نيابة عن الحاضرين واسمه زَبْنٌ بينما اسم الرائد مُحَيًّا.

: إنسان يمشى على أربع أوضح لنا ذلك؟ قالها بإستغراب!!

: بينما كنت سائراً فى ريع بهذه الهضبة وقد طفح نظرى اتفقد العشب والمرعى، وحتى أدخل كل تَلْعَةٍ فى هذه الهضبة وبينما أنا كذلك لم أشعر إلا ومطيتى قد جفلت ونصبت مسامعها جيداً وحرنت عن المشى، وعندما صوبت نظرى إلى الجهة التى تنظر إليها المطية، وإذا بذلك الإنسان العارى تماماً أسمر اللون قد أقعى على رجليه ينظر إلي بإستغراب ورهبة، ولم يكن قريبا منى بما فيه الكفاية حتى أعرف ملامحه تماماً فى نفس الوقت كان من جهة الشمس بحيث يغطى الظل ملامح وجهه ولايبين منها شيئاً، وعندما لَكَدْتُ مطيتى أحثها على الإقتراب منه تلكأت وحرنت فلم تطاوعنى، عند ذلك أنختها واتجهت إليه راجلاً، وعندما رآنى إتجهت إليه وقربت منه إنطلق بسرعة خاطفة يركض على يديه ورجليه، ولم أستطع اللحاق به وصعد فى عرف الجبل حيث دخل فى غار هناك محكم سده تماماً إلافتحة ضيقة يخرج منها هذا المخلوق العجيب.

: هل هو كبير أم صغير؟

: إنه صغير «وِزْع» بحدود السنتين الى الثلاث.

: وماذا كان يعمل عندما صادفته؟

: لم أنتبه إليه إلا عندما نبهتنى مطيتى ووقتها كان واقفا وفى فمه غرزة من العشب مضغها وأنا أنظر اليه، وعندما أراد الإنصراف ملأفمه من عشبة الحُمَّيْض الواقفة

بجانبه وهرب، وأظنه كان خارجاً للأكل.

: هل دققت النظر؟ أخشى أن يكون قرداً أو حيوانا آخر؟

: «أفا عليك يابوفلان» لقد حققت النظر فيه إنه لم يكن قرداً ولاحيوانا آخر وإنما إنسان صغير، إنه لايوجد على جلده شعر مثل الحيوانات، لقد رأيته يلمع على الشمس وقد قلبت الشمس لونه أسمراً قاتماً، لقد رأيت شعر رأسه مسبلاً طويلاً، لقد قصصت أثره عندما كان يمشي بتؤدة، إنه أثر أقدام إنسان تماماً مثل أحد أطفالنا.

: وهل أنت متأكد مما تقول؟ أخشى أن يكون قد خيل إليك مع صفرة العصر واقتراب الليل؟

: تظهر علامات الغضب على وجهه وتجحظ عيناه وينتخى «أن اخو فلانه» يعنى ذلك أنكم لم تصدقوا كلامى!؟

: لا .. لا .. يابنى هَوِّنْ عليك ماقصدت ذلك، ولكن أريد أن أتأكد تماماً.

: هذا الكلام الذى أقوله أكيد تماماً «مثل هالشعيرات على حنكك»

: حسنا .. حسنا .. أكمل، وفى أي مكان؟

: هذا الريع الموالى لنا بعده ريع آخر وهو فى الثالث، إذا دخلت الريع وقطعت منه مسافة لابأس بها يأتيك عرف الجبل المطل فى الريع وبعد أن تتعداه على يدك اليمنى هناك تلعة غير طويله فى فها أنف واقف وهناك يوجد غار قد رُدِّمَ فمه وأحكم سده وبه دخل المخلوق.

وكانت الأسئلة تعتلج وتحتك فى صدور الرجال كل يريد أن يسأل ويستفسر ولكن لامجال له، حيث تولى زبن الأسئلة نيابة عنهم وهو شيخ القبيلة ومن الأعراف والعادات والتقاليد العربية أن يحترم الكل رأى رئيسهم ويطيعوا أوامره وينفذوها بكل دقه.

: هل سمعت له صوتا؟

: لم أسمع له من الأصوات إلاصُوَيْتاً مثل نعيق الطير بجرة خفيفة ومَثَّلَ للصوت الذى سمعه وذلك أثناء هروبه واقترابه من فم الكهف.

: ألم تفتح الغار وترى كنه ذلك المخلوق؟

: والله لم أستطع ذلك لأن الوقت كان متأخراً عند قدوم الليل ولم أتجاسر عمل شئ إزاءه.

: خيار مافعلت يابني حسنا، هذه «أرنب محجرة» وسنكتشف سر ذلك في وضح النهار، وأشار زبن إلى الحاضرين بألا يقترب أحد من ذلك المكان أبداً حتى نستقر في المنزل ونذهب إليه سويا بعد يومين أو ثلاثة عندما يستقربنا المقام، إذ ربما يكون هناك أشياء أخرى يترتب عليها حياة أو موت، وأومأت رؤوس الحاضرين معلنة الولاء والسمع والطاع للشيخ.

وانْفَضَّ المجلس وانصرف محيا إلى بيته، وعلى بعد أمتار تَحَلَّقَ الرجال مرة أخرى حوله يمطرونه بأسئلتهم الإستيضاحية عن كامل الصورة حتى صار آخر اسئلتهم فضولية لاطعم لها، وعند ذلك تفرق الجمع وكل قد ذهب إلى بيته ليقص على أهل بيته ماسمع من محيا واصبحت تلك الحادثة حديث أهل الحي تتناقلها الألسن، وتتصورها الخيالات وتخضع لمختلف الإفتراضات والتخمينات، مما حدا ببعض المتشككين أن يتصور ذلك المخلوق غير إنسي، فربما كان من عالم الجن، أو من عالم آخر، هذه القصة وأحداثها المنقولة إنعكست في حالة النوم إلى أحلام مزعجة ومخيفه عند بعض نساء أهل الحي، كل واحدة حسب إستيعابها للقصة ودرجة إنعكاساتها على صفحة اللاشعور لديها، ونام أهل الحي تحت أذيال تلك القصة التي أنستهم شئونهم الخاصة المتعلقة بالمرعى والكلأ.

* * *

هذا ماكان من أهل الحي أما الضيف شعيفان فكان له شأن آخر، إنه ماكاد الرائد يبدأ قصته حتى تَسمَّر على الأرض وركز إنتباهه لكل كلمة يدلي بها لتقع على سمعه كالمطرقة الكبيرة تهز وجدانه، وتجذبه بعنف، حتى أرتفعت دقات قلبه وبدأت ترتعد فرائصه وهو يحاول السيطرة على نفسه، ولكن مقاومته تصمد تارة وتنهار أخرى، ولحسن حظه أن القوم قد شغلهم عنه متابعة القصة كما أن ظلمة الليل قد سترت تعابير وجهه وأخفت دموع عينيه، ولم يتكلم ليتبين ذلك في تهدج صوته، فبقى جامداً في مكانه يقاوم الصراعات والإنفعالات التي تحتدم في صدره حينا و يتابع

القصة أحيانا عندما يبدأ محيا فى الكلام، حتى إذا تفرق القوم أخذ بجانب من «رُفَّةِ» البيت وتظاهر أنه سينام ومد بساطاً صوفيا كان معه، وتدثر في غطاء أحضره إليه زبن صاحب البيت، وتبودلت كلمات توديع النوم تصبح على خير، وأنت على مثله، وانصرف زبن و بقى شعيفان تحت غطائه يتلوى كالأفعوان المحتدم مما يشعر به من الصراعات الداخلية التى تفرض عليه الأسئلة والأجوبة التالية، هل صدق الرجل فيما رواه؟ نعم إنه صادق فقد روى ذلك على مسمع من الرجال بحضور شيخ قبيلته، وهو ذاك الرجل الذى وضعوا فيه الثقة الكاملة لإرتياد مكان مناسب لمواشيهم وقد إشتاط غضباً عندما سأله زبن سؤالاً يوحى بعدم الثقة فى كلامه. واذا كان الموضع صحيحاً فعلاً فهل يحتمل أن يكون ذلك المخلوق هو إبنى؟ يحتمل ذلك، ولكن إحتماله ضعيف جداً، نظراً لأنني عندما تركت زوجتى وأبنها قبل مايزيد على سنتين لم يكن بأى واحد منهما رمق من حياة، لنفرض أنه كان حيا ساعتها من أين يرضع؟ وكيف سيعيش؟ ومن سيرعاه؟ لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، الله قادر على كل شيء، إننى لاأكاد أصدق ما أسمع. و يستعرض المعلومات الواردة فى القصة، إنه حقا المكان الذي تركتهم فيه بالضبط فى مدخل الربيع، بعد العرف المطل فى الربيع، أول تلعة على يدك اليمنى، «الخشم» الواقف في مدخلها، الغار المسدود فيه بإحكام، ذلك الكهف الذى سددته بيدى هاتين بإتقان جيد، و ينفض الغطاء عن جسمه و ينتصب جالساً، إن هذه هى الحقيقة بعينها ولكن كيف؟؟ كيف بقى على قيد الحياة حتى الآن؟ إنها قدرة الله، وليس ذلك على الله بعسير. شعيفان يلفحه الهواء البارد النافذ إليه من فتحات بيت الشعر، فيلتف بالدثار مرة أخرى و يلتصق بالأرض، و يعاوده السؤال، أيمشى على أربع؟ وكيف ذلك لأن هذه من صفات البهائم؟ ربما خدع الراوى بصره فظنه يمشى على أربع!! هاه !! أو ليس الطفل الصغير أول مايبدأ بالحبو على الأرض ثم يدب على يديه ورجليه معاً حتى تشتد رجلاه ثم يبدأ بالوقوف عليها و يدرج الخطوة بعد الأخرى حتى يصبح معتدلاً سو يا، وهذا لم يدرب للوقوف على قدميه فلذلك ربما بقى يمشى على أربع، أو ربما يكون حتى الآن بمستوى «الدِّبِيْ» على الأرض ولم يبلغ مرحلة الوقوف!! لا،! إن له مايقارب الثلاث سنوات والطفل العادى السوى يبدأ خطواته فى سنته الأولى ونصف

وربما سنتين على الأكثر، وهذا له حوالى ثلاث سنوات،!! لايهم ذلك الآن وسيعالج فى المستقبل، حسنا، ولكن هل أتولى أخذه والعناية به؟ أم أتركه لأولئك القوم يتولون أمره؟ لا .. لا .. إنه إبنى لن أترك أحداً يتولاه غيرى مهما كلف ذلك من جهد ومهما ترتب على العناية من أعباء، ولكن كيف الوصول إليه؟ هنا طريقة يمكن بواسطتها القبض عليه وهى أن أكمن له بقرب الكهف وأنتظر خروجه من الغار ومتى خرج وأبعد قليلاً عن المكان سبقته إلى فم الغار فسددت الفتحة التى يدخل منها ومتى عاد يريد الولوج إلى الغار أمسكته، ولكن ربما أفْتَنَ على بِعَضٍّ أو تخميش، أو ربما ضرب، وغير ذلك من الوسائل الدفاعية الفطرية لديه للدفاع عن النفس، وهذا حله بسيط فإننى سأحضر معى هذه «المزودة» وأفرغها مما فيها وأفتح فمها فإن رأيت منه بادرة دفاع كفأت عليه المزودة المفتوحة لإصطياده فيها إصطياداً، حتى أتمكن من شد وثاقه، وإن لم أر منه مايوجب ذلك أمسكته بالطريقة العادية. وجثمان أمه، إن كان باقيا كيف أصنع به؟ سأوصل الطفل إلى أهلى أولاً ثم أعود إلى جثمان أمه فأنقله وأواريه التراب فى المكان المناسب، وعلي بالطفل الحي أولاً، فلربما كانت المرأة حية هى الأخرى؟ الله قادر على كل شئ، لكنى متأكد أنها ميته عندما غادرتها في ذلك الوقت، لقد تواعد القوم على الذهاب إلى المكان بعد يومين، وربما حافه أحد منهم قبل ذلك الوقت فعلي أن أسبقهم ولا أدع لهم فرصة التفرج على رفاة زوجتي. إذا ما العمل؟ ليس هناك خطه سوى أن أظفر بالصبي أولاً وأوصله الى أهلى، ثم أعود مع من يعاوننى على نقل رفات زوجتى ودفنه فى المكان المناسب قبل أن يتفرغ هؤلاء القوم و يذهبوا إلى نفس المكان. هل أسرى هذه الليلة؟ إننى لاأريد إشعار مضيفى بأى شئ يوحى بأن لي علاقة بالموضوع، بإعتبارهم أول من إكتشفوه، وليس لدى مايثبت إنتماؤه إليَّ، ولاأستطيع تركهم يأخذون إبنى بحكم إكتشافهم له، ثم إن الصبى لايمكن أن يخرج إلاّ بعد طلوع الشمس وإنتشار الدفء من ضوئها، فما الذى يعجلني؟ ففى الصباح رباح، أمضى شعيفان طول ليله وهو يجول و يصول فى هذه الأفكار، تتقاذفه الأحاسيس والإنفعالات والرؤى، وكأنه يحث الليل على إحتذاب ستاره الأسود، وحينما أخرج رأسه وأطل ناحية الشرق وإذا عمود الفجر قد تبلج معلنا بدء انتهاء الليل، فقام المضيف زبن وأذن لصلاة الفجر وأيقظ

ضيفة الذى لم يطرق النوم جفنيه رغم أنه تظاهر أنه نائم لحظه إيقاظه، فقام وتوضأ، وأديت صلاة الفجر جماعة، فشب زبن النار كالعادة وعمل القهوة وأديرت على الحاضرين، ودارت معها أحاديث عن أذيال القصة وإنعكاساتها، وقبيل بزوغ الشمس أحضر زبن لبن الصَّبوُح فشرب منه الضيف وتناوله الحاضرون، وعندها إستأذن الضيف مودعاً مضيفه والحاضرين، وبكل هدوء وطمأنينة شد على مطيته وامتطى كورها متجها صوْب المكان الذى يقصده.



وعندما وصل الموقع أناخ مطيته بعيدة عن المكان وعقلها وجاء يمشى على أطراف أنامل قدميه ليلقى نظرة على نفس المكان فأطل عليه من بعد ورأى نفس الكهف الذى سده قبل مايزيد عن عامين على حاله لاينقصه سوى إحدى الأحجار فى جانبه التى ذكرها الرجل ليلة البارحة وهى التى يخرج منها الصبى فعند ذلك عاد إلى راحلته وأخذ المزودة وأفرغ مافيها وجاء بها وكَمُنَ خلف حرف الصخرة ينتظر خروج الصبى لإلتماس الدفء فى أشعه الشمس الساطعة فى ذلك الصباح الربيعى، ومع الإنتظار ومأطول ساعاته؟ إغفاءة خفيفة، وافقت لحظة خروج الصبى من الغار، ولم يبعد لطلب الأكل، بل إن مطلبه فى تلك الساعة هو الدفء، فوقف بالقرب من فم الفتحة مستقبلاً أشعه الشمس، وعند إنتباهة الرجل من ذلك الوسن أطل برأسه صوب الفتحة فرأى الصبى خارج الكهف وركز نظره عليه وإذا هو كما وصفه الرجل، وعندما حاول التحرك نحوه أسرع الطفل داخل الغار، فانتظر شعيفان خروجه مرة ثانية لمدة ساعة فلم يخرج، وأخيراً قرر أن يفتح الكهف فبدأ ينقض الصخر الذى أردم به الغار واحدة بعد الأخرى فماذا رأى؟؟؟

لقد رأى زوجته التي تركها منذ مايزيد عن السنتين لا تزال على الوضع الذى تركها فيه مستلقية على ظهرها، وجسمها قد يبس على حاله وبقى من جسمها حيا نصف صدرها وشق وجهها وثديها ويدها حيا طريا وما بقى من جسمها يابساً على هيئته التى عهدها، وليس هناك من أسباب الحياة سوي قطرات ماء تسقط ببطء من سقف الكهف على فمها فأفزعه المنظ ووقف مبهوتاً متسمراً على جال

الكهف، وعند ذلك أسرع الصبى والتهم ثدى أمه الحي يرضعه أمام عيني والده، حتى إذا دنا منه ليمسكه هرب الصبى إلى أقصى الغار، فأطل الرجل فى وجه زوجته ليتحقق مما يرى، وعندما قرب من وجهها رأى عينها الحية تبحلق فيه وكل نظرتها عتب وتوبيخ وترمى إليه باللمعة الحرى الأخيرة فتطبق بعدها العين إلى الأبد، فلمس الجزء الحى من جسمها وإذا هو حي طرى لم تفارقه الحياة سوى منذ لحظات، فعصفت به دوامة كاد يصعق منها ولم يشعر معها إلا بجال الكهف يصدم جبينه ليرده إلى صوابه، عند ذلك قاوم إنفعالا ته وطبع قبلة الوداع الأخير على خد زوجته الحى وقفزت الدموع من عينيه، ثم دنا من الصبى وكفأ المزودة عليه حتى صاده بها وأخرجه من الغار دون مقاومة تذكر، وجاء بخيط وخزم فم المزودة وأخرج منها رأس الصبى فقط ثم عاد وسد الغار مرة أخرى وحمل الصبى معه وتوجه به إلى مطيته ولاذ بكورها محتضنا الصبى بحجره، حيث بدأ الصبى يبدى مقاومة وحركات «هستيرية» و يطلق معها أصواتا تشبه نعيق الطير وغَذَّ الرجل السير فطوت الذلول الأرض مسرعة الى حيث مضارب أهله، ولم يحن وقت صلاة العصر إلا وهو عندهم، فأسرع إلى بيت أبيه وكان شيخا رزينا، وعلى إنفراد نقل اليه الخبر وطلب منه أن يتولى موضوع الصبى، دون أن يكون هناك أية ضجة على الأقل تلك الليلة، لأنه سيعود مع نسوة هو ومن يثق به من نسائهم ليتولوا إخراج جثمان الزوجة من ذلك الكهف وغسله للأفضلية ودفنه فى مقبرة قريبة منهم، وعند ذلك أشار عليه والده أن يكتم الخبر الآن حتى اذا نام الناس الليلة تتوجه أنت وفلان وفلانة وفلانة وتأتون المكان مع الصباح فرأى شعيفان الصواب فى هذا الرأى، وتولى الشيخ موضوع الصبى فذهب به إلى بيت متطرف لهم فى أقصى النزل وأخذوا ثياباً ومقصا وأدوات خياطة، وعند وصولهم إلى هناك قَطَّبُوا البيت تماماً وأخرجوا الصبى من المزودة بعد أن خاطوا له ثوبا صغيراً ألبسوة إياه، وقصوا شعره الطويل، وقلموا أظافرة وغسلوه جيداً بالماء الدافئ وورق «الشِّنَان» حتى نظف جسمه وألبسوه الثوب بعد جهد جهيد، وماكاد يستقر الثوب على جسمه حتى بدأ بتمزيقه قطعة قطعة، فخاطوا له ثوباً آخر آكثر اتساعاً وأجود خياطة، وعَرّضوا الصبى للبرد قليلا لعله أن يرتاح إذا أحس بدفء الثوب على جسمه فعند ذلك لوحظ عليه هدوء نسبى، ثم أحضروا له حليبا ساخنا وحاولوا أن

يسقوه إياه فلم يقبل، فأعادوا المرة تلوة الأخرى، فلم يفلحوا وأتو بتمرطرى والصقوه بلهاته بأعلى فمه وعندما ماذاق حلاوة التمر بدأ يتلمض ويمضغ وأحس بالعطش والحاجة إلى اللبن، فأتوا بعنز أخفوها عنه وأبانواله ضرعها وحلبوه فى فمه فالتهم شطر الضرع ورضع منه حتى إرتوى وهدأت أعصابه قليلا ثم نام، وتولى الشيخ أمره، بينا ذهب شعيفان إلى الرجل الذى إختاره وعندما وصله قال له: «فلان ياولد أبوى» اليوم ولاغيره، أريد منك مساعدة لم أطلبها من غيرك، فأجابه رفيقه، أبشر أنا ساعدك الأيمن، ماذا تريد؟ فقال شعيفان: أريد أن تشد مطيتك وتأخذ زوجتك، ومعك قربتين كبيرتين من الماء وسنذهب أنا وأنت وعمتى الليلة فى مهمة خاصة، فأجابه كاجابته الأولى، أبشر بسعدك، فتجهزا للذهاب أربعة رجلان وامرأتان، الرجل وزوجته وشعيفان وعمته، وبعد أن هجع الناس إمتطوا تلك الراحلتين ولم يعرف أحد من الركب أين يتجهون سوى شعيفان، وعلى بعد بسيط من المكان أناخوا ركائبهم وناموا قليلاً، وعند الصباح إستانفوا السير وعند ذلك أعلمهم شعيفان بالمهمة التى توجهوا من أجلها، فكان للخبر صدمة عنيفة بالنسبة للسيدات، وقال لهن شعيفان إن مهمتكن تنحصر فى غسلها ولفها بالكفن فقط أما إخراجها من الكهف فسأتولاه أنا، وبدأت الإنفعالات على النساء لكنهن بعد ذلك ثُبْنَ إلى صوابهن واستعدن قوتهن، ولاسيا أنهن نساء مسنات عاقلات مجربات، وعند الوصول إلى الكهف بدأ ينقض الحجارة ودخل إلى الغار ولف الجثمان اليابس وأخرجه وسلمه إلى النساء وقرب لهن الماء والكفن وانتحى هو وصاحبه بعيداً يعملون لها نقالة من أغصان الشجر حتى إذا انتهت المرأتان من غسلها وقد شاهدتا الجزء الرطب من جسم المرأة، نادينها فحضرا ووضعا الجثمان فى النقالة وحملوه على جنب البعير، وعادوا به إلى مضارب قومهم حيث أدوا عليه صلاة العصر جماعة ودفن الجثمان مع مقابر هناك بقرب النزل، وشاع خبر الحالة المعجزة التى حدثت لزوجة شعيفان السابقة وإبنه الذى يعتبر بقاءه وحياته بهذه الصورة آية فى الإعجاز بقدرة الله عز وجل لِيُرىَ خلقه صورة ناطقه من عجائب قدرته فى هذا الطفل، ولاغرو فى ذلك فهو الذى خلقه أول مرة وقد تكفل بحياته ليعيش عبرة لمن إعتبر وتوارد نص الآية الكريمة على السنة الناس سبحان الله العظيم «يحيى العظام وهى رميم» والله قادر على كل شيء.

ولما فرغوا من دفن الجثة عاد شعيفان مع والده وتبادلوا الرأى فيمن يقوم بتربيته هذا الصبى والعناية به لاسيا أنه يحتاج إلى جهد مضنى وأناة، ورحابة صدر وخبرة فى تربية الأطفال، وطرق سليمة لتعليمه إستخدام يديه لغرضها والوقوف على جليه وتعليمه النطق والإستماع والمخاطبه، وتدريبه على الأكل وقضاء الحاجة، حقا إنها مهام صعبة ومتعدده وتحتاج كل مهمة إلى معلم خاص ومن أين لهم من يغطى كل هذا العدد من المهمات، حقا إن الصبى يحتاج إلى مدرسة متكاملة، هذه المادة الخام تحتاج إلى وضعها فى عدة قوالب ليخرج منها شكلا متكاملاً، واستدعي كبار القوم من ذوى الخبرة والتجربة فى تربية الأطفال وتدارسوا الرأى فيما بينهم ليختاروا من يقوم بهذه المهام واتفقوا من حيث المبدأ على أن هذه المهمة يجب أن تسند إلى إحدى السيدات لما تتصف به المرأة من خصال قد لاتتوفر بالرجل كالرفق والحنان، والرحمة، وسعة البال، والصبر وقوة التحمل، ورقة الإحساس حتى عند الغضب، وتأثير عاطفة الأمومة لديها، والخبرة الواسعة فى مجال تربية الطفل وتعليمه كل شئ من تناول رضاعة إلى تناول طعامه، فتدريبه على الجلوس ثم الحبو، «والدبي» فالوقوف والذهاب، وغير ذلك، فالمرأة لها باع طويل فى هذا المجال لايباريها فيه الرجل، وبناء على ذلك فقد تم إستعراض أسماء عدد من السيدات المسنات المتفرغات ممن يتصفن بالخلال المذكوره، وبعد غربلة تلك الأسماء وإختيار من تتوفر فيها أكثر الصفاة المطلوبة، فاختاروا منهن ثلاث سيدات مرتبات بالأولوية حتى إذا إعتذرت واحدة فيكون لها بديلاً وتقرر أن يكون لمن يقوم بهذه المهمة جُعْلاً معلوماً إستعد به والد الطفل،، وبحضور هذه النخبة من الرجال إستدعيت السيدة الأولى وعرض عليها الموضوع ورأت الطفل بعينها فاعتذرت عن هذه المهمة بحجة أن صحتها لاتساعدها على ذلك ثم إستدعيت السيدة الثانية واسمها رَجْوَى وعرضت عليها المهمة مع اعطائها مهلة لاتقل عن سنتين وأن توفر لها إحتياجاتها من الآن وحتى يبدأ الطفل يتصرف وينطق ويمشى مثل الصبيان الآخرين، فرضى والد الطفل وجده بذلك على مسمع من الحضور واستلمت الطفل من ساعتها، وكانت سيدة قد شارفت على نهاية العقد الخامس من عمرها نشيطة مكتنزة، قد عركتها تجارب الحياة وقامت بتربية جيلين

متتالين من الشباب بنيها وبنى بنيها، لاتنقصها الخبرة فى ذلك وكان الطفل ساعتها لايأكل، يهرب من الناس، لايستطيع النظر اليهم، يمزق ملابسه، لايريد شيئا أن يعلو جسمه، لايتكلم وإنما يخرج صوتا يشبه نعيق الطير «يَصْوِيْ» فبدأت الخطوة الأولى وهى أن تعرضه للبرد قليلا حتى إذا إشتهى الدفء رمت عليه ذلك القماش القطنى فيغطى بعض أجزاء جسمه ويحس معه بالدفء فيرغب أن تضفى ذلك القماش على كامل جسمه، وتستمر على هذا مرحلة، ثم تبدأ بشد القماش على جسمه ليكون أكثر دفئاً ويألف ملامسة القماش لجسمه، وبعد مرور حوالى شهرين أصبح لايستنكر لبس الثوب، أما بالنسبة للطعام فبدأت تجوعه حتى يتمنى الشئ الذى يسد به رمقه، فتحضر مجموعة من الصبية وتحضر لهم الطعام أمامها تاركة الصبية يأكلون أمامه، وتدربه بالإشارة فى عملية الأكل، وتأخذ من الطعام وتذيقه إياه، نتفة بعد أخرى، وهكذا تستمر على هذه الطريقة ليأنس الطفل بوجود الآخرين، ويرى كيف يأكلون ليقلدهم وبعد فترة بدأ يتناول الطعام بكلتا يديه فربطت اليد اليسرى وتركت يمناه ليأكل بها شيئا فشيئاً حتى أصبح يأكل مع أقرانه مثله مثلهم، وأثناء ذلك جعلت الأطفال يحدثون أصواتا وكلاماً أثناء وجودهم معه وتطلب اليه بالإشارة أن ينطق مثلهم والتصق الطفل بها لايريد فراقها ومع مرور الوقت أصبح يقلد بعض الأصوات، ثم بعد فترة بدأ ينطق بعض الكلمات التى تدربه على النطق بها، وبعد الفراغ من الطعام تجعل الصبية يلعبون حوله بلعبهم حتى إذا رأت أن لديه الرغبة فى مشاركتهم هذه الألعاب أحضرت له لعبة غريبة جذابة حتى إذا أعجبته ودخلت فى مزاجه إحتضنها لايفرط بها ثم أوعزت لأحد الصبية أن يخطفها من يده فينطلق لإستعادتها ثم يخطفها الطفل الآخر فيستعيدها وأثناء ذلك ينطق ببعض الكلمات ومتى إستعادها بدأ السرور على وجهه وأشرقت الإبتسامة على ثغره ولم يلبث إلأستة أشهر حتى إستطاع أن يتكلم مثل أقرانه واستمرت هذه السيدة الجليلة تدربه على بقية المستلزمات الضرورية حتى إذا اكمل عشرين شهراً وإذا هو يتكلم ويتصرف مثل بقية أطفال أهل الحي عدا بقية نَغْقَةٍ فى صوته لقبوه بسببها «الصَّوَّايْ» فسلمته إلى أهله ليدخل فى مدرسة الحياة التى تربي أمثاله واستمر عند هذه السيدة بمثابة ولدها، حتى كبر وشب على الطوق وتزوج وأنجب وبارك الله فى ذريته حيث نموا شيئاً فشيئاً حتى أصبحوا أعداداً كثيرة.

٥ ـ تنقذ زوجها من موقف حرج [١]

من العادات الحميدة التى يتصف بها العربى إكرام الضيف، ومعنى الضيف هنا كل ضيف، من يُعْرَفُ ومن لايُعرف، أي طارق يطرق البيت فى أى وقت، وربما عمل المضيف علامات وإشارات الضيوف إلى داره، كإشعال النار وغير ذلك من الوسائل المتوفرة، ذلك البيت الذي يحتوى على غرفة القهوة التى لايكاد بابها يُرَدُّ على مدار السنة، وإن رُدَّ فلا يعدو إلا المحافظة عليها من البهائم الهاملة، وهذه الضيافة مطلوب القيام بها على الدوام فى سنى اليسر والعسر على حد سواء، كل وقت حسب المئونه المتوفرة فيه فأحيانا يقدم المضيف لضيوفه، التمر والزبد أو السمن مع القهوة، ثم الخراف والجزر المطبوخة وتحتها الأرز أو الجريش، والهريس، وقرصان البر، وأحيانا أخرى لايجد إلا التمر الجاف أو عصيدة القمح أو الذرة والدخن وسويق الشعير، المهم أن يقدم للضيوف شيئاً مما يجده المضيف وكما يقول المثل «الجود من الموجود» بالإضافة إلى طلاقة الجبين، وانبلاج الإبتسامة على الثغر، وكلمات الترحيب الحلوة التى تكاد أن تغنى عن الزاد، مع الدفء فى أيام الشتاء ولياليه الباردة، وملاطفة الضيف ومؤانسته فى وقت كانت الخيل والإبل والحمير هى وسيلة المواصلات الوحيدة فى الجزيرة العربية وهذه الدواب يحتاج السفر عليها إلى مراحل تطول وتقصر وفى كل مرحلة يحتاج المسافر إلى الراحة والطعام والشراب والدفء، ولايوجد.

من الفنادق والنُّزُلِ مايفى بحاجته سوى هؤلاء الأجواد الذين بسطوا أريحياتهم للغادى والرائح، لايريدون من وراء ذلك إلا الأجر من الله عن كل مايقدمونه للحفاظ على العادات العربية الحميدة، وما اكثر ادلاج الناس آنذاك لقضاء حوائجهم، وربما للقضاء على وقت الفراغ لدى القليل منهم، وفى هذا الوسط نشأ ناصر كريما مضيافاً بقريته التى لاتبعد عن المدينة مركز الإمارة سوى مرحلة واحدة، ومن خلف قريته رمال النفود قليلة الماء والمأوى، لذلك فكثير من الناس القادمين إلى المدينة والخارجين منها يمرون عليه، إما أن يكون الضيف قد قطع رمال النفود

(١) قصة زوجة ناصر البايح الشمرى رحمها الله ١٣٢٤هـ.

وأتى متعبا جائعا عطشانا، فيأخذ فترة إستراحة عنده، وإما أن يكون قادماً على تلك الرمال و يريد الإستعداد لقطعها فيرتاح مرحلة عند ذلك الجواد، وهذا الرجل يكدح في سبيل الله في فلاحته، يبذر الزرع و يسقي الفرع، و يقدم ثمار مايحصد وجنى مايلتقط لأولئك الضيوف راضياً مختاراً، طيبة بها نفسه لايستعيض من الضيف سوى عبارات الدعاء «خلف الله عليكم، وأزادكم الله من فضله» وعند سماعه لها تنسرح أسارير وجهه بالبشر، والثقة بالله أنه سيزيده من فضله، وسيدخر له من الأجر والثواب يوم يلقاه، لقاء ماقدم لعباده المحتاجين وعابرى السبيل، وتأتى السنون بحلاوتها ومرارتها، وما أشد مرارتها على الجواد الكريم المقل، خاصة إذا ضافه أناس من ذوى المكانة فى قومهم ولايستطيع تقديم أى شيْ لهم، لأن الضيوف على درجات، فهناك الضيف العادى غير المعروف فهذا يقدم له ماتيسر من زاد وذبائح، أما شيخ القبيلة أو الرجل المرموق فى المجتمع و يأتى بجانبهم بعض الشعراء، فهؤلاء لهم شأن آخر، يجب أن يقدم للضيف مايليق بمقامه، وماأكبر وقع المصيبة على المضيف إذا ضافه أناس من عليه القوم فى سني العسر التى لا تساعده على القيام بواجبه نحوهم على الوجه الأكمل، وهذا بالفعل ماحدث لناصر، فقد جاءت سنة أكلت الرطب واليابس، وفُقِدَتْ الاقوات من عند الناس إلاّ مانـدر، وأصبحت عصيدت الذره أو الدخن لاتتوفر فى كل حين، فعاش الناس على الأعشاب وقليل من الألبان، بينما التمر لايوجد له ذكر، وأقفر بيت ذلك الجواد سوى من قليل من دقيق الشعير يحرم منه نفسه وأولاده و يقدمه لضيوفه، وقد ينال منه مع أهل بيته بضعة لحسات تسدرمقهم، وفى أصيل ذلك اليوم البارد عندما خرج ناصر من المسجد مصليا صلاة العصر وجد عند بابه أهل عشرين ذلولاً قد أناخوها لتوهم، ولم يضعوا عنها أشدتها بعد، وعند إقترابه منهم قابلهم بالبشر والترحاب كعادته، وسلم عليهم واحداً واحداً، هذه الوجوه التى يعرف أكثرها إنهم فى اكثريتهم يمثلون عِلْيَةِ القوم وشيوخ قبائلهم جمعتهم صدفة أو غاية إجتمعوا لأجلها، فتقدمهم إلى غرفة القهوة مرحبابهم بحرارة وشب النار ليتدفأوا عليها، وأوعز إلى غلامه بحمس القهوة وعملها وصبها للرجال لإزالة التعب والنصب عنهم، وخرج من عندهم ودخل إلى البيت والدنيا مظلمة فى وجهه لايكاد يرى منها طول أنفه، وأتكأ على سارية مِدْمَاكِ الجدار، وقد وضع إبهامه على ناجذه

وسبح في تفكير عميق وهو يتساءل ماذا يفعل لهؤلاء القوم؟ ماذا يقدم لهم الليلة عشاءاً؟ الذبائح يمكن تحصيلها لكن ماذا نضع تحتها؟ عصيدة شعير؟ هي نعمة، ولكنها غير لائقة بأولئك، لماذا؟ لقد أكل الشعير صفوة خلق الله صلى الله عليه وسلم!! ولكن ماذا يقولون عني وقد بلغتهم أخباري؟ ويمكن أن كل واحد منهم قد تمنى في نفسه أن ياتيني يوماً من الأيام ليرى صحة مايسمع عنى!! وشاء الله أن يأتوا دفعة واحدة عشرة شيوخ فى هذا الظرف العصيب؟ ياليتها كانت القاضية، لكن ليقولوا مايقولوا ومايحلواهم فحتى الأمارة التى سيذهبون إليها بنفس المستوى، هاه .. الشكوى على الله إنها السنة العصيبة حكمت علي بذلك، وزَلَّ إبهامه عن ناجذه ودخل إلى أقصى شقه وهو لايشعر سارح فى تفكيره، وبدأ وجهه يتلوى بين إنكماش وانبساط، ينكمش عندما يحاول عصر تفكيره لإيجاد المخرج من هذا الموقف الحرج، و يمتد وعندما يفكر فى وضع ضيوفه أمام الأمر الواقع، ومع اتكائه على المدماك وتحامله عليه دخلت حصاة من الجدار فى جبينه وشقته فخرج من جبينه الدم دون أن يشعر بينما هو على حالته تلك، إذ دخلت زوجته «هيا» وعلى رأسها جذعة الماء قادمة بها من الساقى فصبت الماء ورأته على هذا الوضع الذى يستحق عليه العطف

: ناصر .. ناصر .. مالك هكذا؟ ماهذا الدم؟

: متعجبا، وتسألين، أما ترين بعينيك؟ دم!! هاه

: ماذا أرى؟. لم أرَ شيئاً يستحق ماأنت فيه من السرحان لاشيء لاشيء.

: ألا ترين هؤلاء الضيوف الذين ركابهم عند الباب وهم ملء القهوة؟

: وهل هناك غرابة فى الضيوف عندنا؟

: ضيف ولاكل الضيوف!.

: منهم؟.

: فيهم عشرة من شيوخ قبائلهم وكلهم رفاقنا ولهم مكانتهم وحقهم علينا، إنهم نهار، وضارى، ومشل، وسعدون، عدوان، وحواش، وغضبان، وغازى، وعقاب، وسلطان، ورفاقهم وكل واحد منه له حق مثل هذا الجبل الأ حمر.

: تَدَبَّر أمرك؟

: وكيف أتدبر أمرى ولايوجد أحدهنا يمكن أن أميل عليه و يقضى حاجتى بأى

ثمن، والمدينة بعيدة لن أصلها وأعود منها إلا بعد منتصف الليل، والقوم يريدون عشاء بعد صلاة العشاء على الأكثر.

: وماذا ستفعل؟

: هذا السؤال الذى تحيرنى الإجابة عليه.

: لماذا لا تقدم لهم ماتقدمه للضيوف الآخرين؟ فإن ذوى النفوس الكريمة خير من يقدر ذلك وكلهم قد سمع بيت الهلالى الذى يقول:

قَرٍّ يا أبازيد نشبع ونروى ومر ياأبا زيد بالشلفاح

: أين وجهى الذى سيرحب بهؤلاء الشيوخ على عصيدة شعير.

: وماذا تود أن تقدم لهم؟

: أود أن أقدم لهم أغلى ماأملك حتى لو أدى ذلك إلى رهن أحد أولادى.

: بلهجة الواثق من نفسه، تقول زوجته وهل لديك ذبائح؟

: الذبائح ليست مشكلة، ولكن المعضلة فيما يوضع تحت الذبائح.

: توكل على الله وجهز ذبائحك واترك الباقى علي.

: فى صوت متهدج، وهل صحيح ماتقولين؟

: وهل يصح المزاح فى مثل هذا الموقف؟

: يندفع لاشعوريا ويقبل جبينها قائلاً «اَلآيَا بَعدْحَيِّي وَمَيْتِي هَا(١) الطُّخْمَة».

: تنصرف إلى المطبخ مرددة بينها وبين نفسها «ماإدخرته إلا لهذه وامثالها».

: يرسل اثنين من غلمانه لإحضار ثلاثة خرفان من رجل يثق به ويذبحونها ويحضرونها للمطبخ حيث تعمل فيه «هيا» ومساعداتها ودلف إلى القهوة وهو يردد«مِنْهُنَّ مَنْ تُسْوَى ثَمَانِيْنَ بَكْرَة ومنهن مَاتُسْوىَ عِقَال قُعُوْدْ، وَمِنْهُنَّ جَنَّات تَدَارَجْ انْهُوَرةْ وَمِنْهُنَّ نِيْرَانُ بَلَيَّاً وقُوْد».

ودخل ناصر على ضيوفه باسم المحيا، معنويته مرتفعه، وهو يردد كلمات الترحيب فى نبرات صوته المتدفق بالبشر والسرور وطلب من الغلام صب القهوة مرة ثانية وجلس إلى جانب الدلال يبادل ضيوفه الأحاديث ويسأل كل واحد عن عياله وجماعته وقد أديرت القهوة عدة مرات قبل غروب الشمس، فارتاح الضيوف على صلوا النار، وبدأ تعب السفر ينجاب عن وجوههم تطرده حبات

(١) يجعل كل عصبته من الأحياء والأموات فداء لها، الطخمة رقعة الوجه.

العرق الذى آبَشَّ على صفحات خدودهم، من دفء المكان وتأثير القهوة العربية، وأذن لصلاة المغرب فصلى القوم فى المسجد جماعة ثم عادوا إلى القهوة حيث حسست عدة طبخات قبل صلاة العشاء الأخير التى ماإن صلوها جماعة حتى تقدمهم مضيفهم إلى صوانى الطعام الثلاث الموجود فوق كل واحدة منها خروفاً ناضحاً وتحته «التِّمَّنْ» الأرز العراقى الذى يعتبر سيد المائدة العربية آنذاك حيث لايقدم إلا لإصحاب المكانة النَّيِّرةْ، فرحب بضيوفه واعتذرلهم عن التقصير قائلاً «تفضلوا الله يحيكم، والله إن لكل واحد منكم حقاً مثل هذا الجبل الأحمر، ولكن من بركتكم علينا أن جئتم فى وقت واحد، وهذه الليلة غرة فى جبين الدهر التى جمعت كل هذه الوجوه النيره، تفضلوا الله يحيكم على الميسور وأعذرونا عن التقصير فى حقكم» فرد عليه الجميع بلسان واحد «لم تأت بقصور، أيسر الله عليك وأغناك وجعلك دائما فى المكان» قال تلك الكلمات الترحيبية والسرور يغمر وجهه وانصرف عنهم، وأثناء تناول القوم لطعام العشاء دارت الهمسات بين بعضهم من أين لناصر هذا الزاد؟ إنه التِّمَّنْ الذى لم نره منذ سنتين!! كيف حصل عليه؟ يمكن أن الأجودى قد إدخره منذ وقت طويل، لربما أن لديه مخزونا كثيراً منه؟ لاأظن ذلك فهو رجل مضياف وتأكل الناس ماعنده، ولو أن عنده مثل هذا الجبل لنفد، يمكن أن يكون قد قصد بعض رفاقه التجار فدينه إياه، ولربما تكون لديه زوجة طيبة تدخر الأشياء النادرة لحاجتها فى الأوقات المناسبة، وربما ... وربما ... دارت هذه اللمسات بين القوم دون أن يسمعهم أولئك الصيبة ولايوجد معهم أحد من جماعته، لأنه تركهم فى القهوة ليتقدموا للعشاء بعد الضيوف ومن عادات الكرام حسن تقديرهم للأمور، وخفة الظل عل المضيف، فما إن طعموا وتجمعوا يغسلون أيديهم بعد الأكل حتى تهامسوا مرة ثانية هذا الجواد الكريم قد تكلف وأكرمنا حق الإكرام، وإن بتنا عنده الليلة فسيقوم فى الصباح بعمل مماثل، وهذا فيه كلفة عليه، وأنتم تعرفون عسر الوقت وندرة المئونة، فعلينا أن نستأذن منه الآن بحجة إننا سنسرى ونصبح فى المدينة لأمر مستعجل، حتى إذا بعدنا عنه قليلاً بتنا هناك، فاتفقوا على هذا الرأى، وبعد شرب فنجان قهوة بعد العشاء، إستأذن القوم من مضيفهم تنفيذاً للخطة التى اتفقوا عليها، فأبى عليهم وأصروا على رأيهم فوافق

على مضض، وغادروا المكان مودعين بمثل ماأستقبلوا به من حفاوة وترحيب، متوجهين إلى مقصدهم فى المدينه.

* * *

وبعد أن تعشى الجيران وأهل البيت، وفرقً بقية الطعام على الفقراء والمحتاجين، وانتهت النساء من تنظيف أوانى الطعام، دخل ناصر إلى بيته مرفوع الرأس وكله فخر بزوجته التى أنقذته من هذا المأزق، فهى تساوى عنده الآن الدنيا بحذافيرها، لقد بيضت وجهه عند هؤلاء الشيوخ من رفاقه، عند ذلك وجدها جالسة لتأخذ قسطاً من الراحة بعد إستكمال وليمة الضيوف فاتكأ على سارية المدماك وبادرها بقوله.

: ألبسك الله ثوب الصحة والعافية وبَيَّضَ وجهك ياأم فلان.

: بالله عليك ياأم فلان من أين حصلت على هذا التَّمَّنْ الخضيراوى الذى لم أعهده منذ سنتين؟

: من الله ثم من دارك.

: متسغربا، دارى أنا!! هذا غير صحيح إن دارى لايوجد بها سوى بركة الله وشيئا من قوتنا العادى.

: يعلم الله إنه من دارك!! ولم آت به من بعيد، ولم تمض ليلة إلا شاهدت المكان الموضوع فيه.

: لاأدرى، ربما كان مدفونا تحت الأرض، وإلا كل بيتى أعرفه لايوجد فيه شيئ مما قدمت لنا.

: لقد قضى الله لزومك هذه الليلة، ولاداعى لمعرفة من أين أتى وأقسم لك بالله أنه من دارك.

: جَمّلَ الله حالك على معروفك الذى لن أنساه مدى الدهر، وأكثر الله من أمثالك من بنات الأجاويد، اللواتى يسندن ظهور أزواجهن عند الشدائد، ولكن أسألك بالله أن توضحى لي من أين لك هذا التمن؟ وهذا السرُ بَيْنِى وبَيْنَك لايعلم به أحد.

: مادمت سألتنى بالله عن مصدره فسأقص عليك قصته، أتذكر قبل سنتين عندما وَدَّعَ عندنا فلان عشرين حملاً من التّمن؟

: نعم نعم، أذكر ذلك تماماً، ولكن أين نحن من ذلك الوقت؟.

: عندما جاءوا ليأخذوه، أعطونا منه «طُعْمَةً» حسب العادة ولم نكن بحاجة لها آنذاك فوضعتها فى هذا الكيس وخبأتها فى أسفل«الدَّكّةِ»(١)منذ ذلك الوقت حتى جاءت حاجتها.

: منذ سنتين وهذا التمن تحت موضع قدمى ولم أشعر به؟

: أجل إننى وضعته هناك وتناسيته.

: كم مَرَّ بنا من الأوقات العصيبة؟ وكم ليلة بتنا فيها طاوين؟ والزاد تحتنا ولم نشعر به.

: أوه، ماضرنا أن أمضينا وقتنا، وأكلنا مايسر الله لنا من بقية زاد ضيوفنا.

: وأطفالنا كم ليلة باتوا جائعين قبل أن ينتهى الضيوف من تناول طعام عشائهم؟.

: لم يضرهم ذلك أيضا؟ دَعْنا نعودهم على الصبر، والإيثار على النفس، مثلما نفعل نحن، لقد آثرنا ضيوفنا وقاصدينا على أنفسنا، فادخرت هذا الطعام للحاجة الماسة اليه كتلك التى مرت، وعندما دخلت عليك عصر هذا اليوم متكئا على هذا المدماك يتلَوّى وجهك من شدة ماتشعر به من الحرج أمام ضيوفك، وتتمنى لو تَرْهَن أحد أبنائك بكمية الطعام التى تقدمها لضيوفك «و يقود» وجهك أمام كبار القوم لم أجد بدأ من اللجوء إلى المدَّخر فهذا وقته وتلك حزّته.

: أشهد بالله العظيم أنك أقدر منى على الإحتفاظ بالأشياء لحاجاتها الماسة فعلاً، فأكثر الله من أمثالك فى بيوت الأجواد.

: هذا واجب علىَّ ولا أستحق عليه أى جزاء، فالأساس من أفضالك ولم أزد عليه شيئاً سوى أننى وضعت الأشياء فى موضعها.

: مازحاً، وهل بقى منه شئ الآن يمكن أن تجهز يه لنا الليلة القادمة؟

: ضاحكة ــ هذا سر لن يظفر به أحد وخاصة أنت إذا كنت بهذه العجلة كما يقول المثل «رَبى أرزقنى وعجل».

* * *

هذا ماكان من ناصر وزوجته، أما الضيوف فبعد أن قطعوا نصف المسافة أناخوا مطيهم فى مسيل ذلك الوادى المكتظ بأشجار الطلح وشجيرات الرمث فجمعوا من

(١) الدكة هى جزء من غرفة النوم بمقدار متر ين ونصف تحاط بجدار قصير وتملأ بثمر الطرف أو التبن أو القش و يوضع فوقها الفراش وهى بمثابة السر ير فى الوقت الحاضر.

شجر الرمث ماعملوا به عِنَّةً(١) لتقيمهم البرد، وأوقدوا النار بداخلها وتحلقوا حولها وبدأوا يعملون القهوة عليها، ومع إدارة أول طبخة منها دار الحديث بينهم عن مضيفهم، واستعرضوا وضعه وأثنوا عليه بما هو أهله، وتطرق الحديث إلى مركزه فى هذه القرية القريبة من المدينة مما يجعله يتعرض لكثير من الضيوف الغادين والرائحين من المدينة وإليها، وفى سبيل ذلك فهو يضحى بالغالي والرخيص ويقدم حصيلة زرعة وثمرة نخلــه لهؤلاء الضيوف، وقد يحرم أهله وعياله الطعام ويقدمه لضيوفه مثله مثل الأجواد المنتشرين فى المضارب والقرى والمدن فى الشرق والغرب والشمال والجنوب، ومن هنا سنترجم الأريحية حصيلة هذه الأقوال الى أفعال، فقال أحد الحاضرين إن عندى لناصر ناقتين ثنيتين فانبرى الثاني واستعد بمثلها ثم الثالث والرابع حتى آخر الركب كل قد تبرع لناصر بناقتين بسن ثنية هؤلاء الشيوخ أمَّا مرافقوهم فقد تبرع كل واحد منهم بناقة واحدة، وهكذا تمخضت هذه الجلسه عن حصيلة ثلاثين ناقة لمضيفهم ناصر، فقال أحدهم إذا عدنا فى طريقنا يمره مندوب منا ليرسل معنا واحداً من رجاله لإستلام هذه الإبل فيعودبها، إنه ذو نفس أبية، فلن تقبل شهامته وكرامته أن يقبل جزاءاً على ضيفته، إذ يعتبرها مكافأة على واجب قام به نحوكم، ولكن من الأفضل أن نجمعها له ونرسلها اليه على هيئه إعانة وهديه بعد عودتنا إلى أهلنا، وذلك للإستعانة بها على أعمال فلاحته يسوق بعضها ويبيع البعض ليستعين بها على نوائبه وهكذا إتفق الجميع على هذا الرأى عند وعودتهم إلى أهلهم أحضروا له بالفعل ثلاثين ناقة من خيار الإبل التى تصلح لأعمال الفلاحة وأرسلوها مع مندوب لهم وقالوا له أقرأ ناصر عنا السلام وقل له هذه الإبل من فلان وفلان ورفاقهم وهى هدية لك للاستعانة بها على شئون مزرعتك، فاكرم ناصر الرسول وحمله لهم رسالة شفهية يقدر لهم أريحيتهم الفذة وسيحتفظ لهم بمعروفهم الذى لن ينساه لهم مدى حياته، وتلك الإبل التى فكت عنه خناق ضائقة ماليه يعيشها كانت تساوى لديه آلاف الملايين فى الوقت الحاضر، وحتى فى ذلك الحين فإن ثلاثين ناقة تعنى ثروة طائلة لقد باع ثلثيها وأبقى ثلثها لأعمال فلاحته وهكذا فإن بركة تلك الزوجة الصالحة قد إمتدت جذورها فى الدنيا إلى مسافة بعيدة وفى الآخره سيدخر الله لها أجراً عظيماً.

(١) العنَّة هى شبه غرفة دائريه جدرانها من الشجر ولاسقف لها وتتخذ كذرى للوقاية من الرياح البادرة

وتحضرنى هذه الأبيات عن صاحب القصة من الشعر الشعبي في رواية الوالد:

٨ البيضا للبايح لياحل طاريه أبيض من الغرنوق رخو الجناحى

٩ ماتشوف عمله بالصحن يوم يرميه مثل البعير لياثبا بالمراحى

١٠ كلوا من القُرْعَة ولانيش تاليه واقفوا عنه مثل النسور المطاحى

٦ ـ كتب الله له الحياة (١)

يعانى الإنسان فى الجزيرة العربية المشقة والتعب فى سبيل الحصول على الماء، هذه المادة الضرورية للحياة، نظراً لما تتصف به البلاد من الجفاف فى معظم فصول السنة، اللهم إلا ماينزل الله من أمطار فى فصلى الشتاء والربيع، وتخصب الأرض على أثره، و يكثر الريف وتتوفر المراعى اللازمة للمواشى التى تترتب عليها حياة قطاع كبير من سكان هذه البقعه، وبما أن الإبل تمثل عصب الحياة لجميع طبقات المجتمع فعلى ظهورها ينتقل التموين والمبادلات التجارية وتنزف المياه من الآبار لسقى الزراعة وأشجار النخيل والفواكة والخضروات، وفوق أكوارها ينتقل الإنسان من مكان إلى آخر كما أن المياه الجوفية تمثل المصدر الثانى الثابت على مدار السنة، فهو وإن كان يتغذى من مياه الأمطار والسيول فتزداد الكمية المخزونة منه، وبذلك يبقى هو الأنيس المستمر الذى ينبض بسببه قلب هذا الانسان فهو يستمر معه فى السنين المخصبة وسنين القحط، وإن كان يتأثر فى سنين الجدب نظراً لقلة إمداده بمياه السيول والأمطار، ولصعوبة إخراجه من جوف الأرض، لأن الإبل التى تخرجه قد إعتورها الهزال والضعف، فتتأثر حياة الإنسان بسبب نقص كمية الماء الساقطة من السماء، أو المخرجه من باطن الأرض، وعند ذلك يدب الخمول والوهن فى أنشطته المختلفة، سواء فى حقل الزراعة أو حقل المراعى.

وبالتالى تتأثر الحقول الأخرى، و يستفيد الإنسان من مياه الأمطار والمياه الجوفيه فى حقلى الزراعة والرعى كما مربنا وكذلك الشرب وسقى المواشى فلذلك نجد التجمعات السكانية حول تواجد آبار المياه الجوفية. بحيث تتكون القرى ثم تكبر شيئاً فشيئاً حتى تصير مدنا، وقد تكون آبار موارد للمواشى فيزداد الإستقرار حولها حتى تصبح قرى، وقد تبقى الآبار مناهل غير قابلة للتطور لسبب من الأسباب، فقد تكون مياهها قليلة لا تحتمل أعداداً كبيرة من الناس، وقد تكون مياهها غير صالحة للشرب الآدمى أى مالحة قليلاً أو تشوبها لسعة من المرارة وتقتصر على سقى المواشي، وقد

(١) قصة بَرّاك بن لافي الممزاني وقد حدثت حوالي ١٣٤٥هـ.

تكون الآبار مراكز نزاع بين جهات مختلفه فلذلك تبقى كما هى عليه كل يرد عليها ولكنه أعماقها ولايرد واحداً عن الشرب منها فتبقى مشاعة للجميع، وتقصر أو تطول هذه الآبار فى أعماقها فقد يصل عمقها من خمسة أمتار إلى مائة متر وربما أطول من ذلك فتسمى الطوال، ومايقصر عن خمسة أمتار فيسمى ركيَّةً أو ثَمِيْلَة ، وقد يكون حفر البئر سهلاً حينما تكون تربتة لينة وقد يكون صعباً عندما تكون تربته صلبة أو صخرية، وأحيانا يكون جال البئر قائماً عزيزاً، وقد يكون بين طبقات الأرض طبقة لينة بين طبقتين صلبتين فتكون فجوات وغَيْرآناً فى جال البئر عندما يسقط ترابها فى قاع البئر فيدفنها مما يستدعى حفرها وإخراج التراب المنهال فيها بين الحين والآخر، وهذا الوضع يحدث فى الآبار المعدة للزراعة والمعدة لسقى المواشى على حد سواء، فقد يفاجأ الفلاح وقد إنسلخ جزء من جال البئر ودفن جَمَّتَهُ مما يضطره إلى الإستعانة بجيرانه وأقاربه وربما أُجراءَ من غيرهم لإخراج هذا التراب المنهال فى بئره وقد يصادف أهل المواشى القادمين لإسقاء مواشيهم أن يجدوا البئر المعهودة وقد مسحت كتلة من التراب على جمّها وفى هذه الحال فواشيهم بأمس الحاجة الى الماء، وإلا ماتت أمام أعينهم عطشاً، لاسيما وأنه ربما لايوجد بئر قريبة لإرواء تلك القطعان الكثيرة من الغنم وهذا ما حدث فعلاً للشاب «بَرَّاك» فإنه ماكاد يصل ورفاقه مع قطعانهم إلى البئر الذي طمست جمته ولم يروا منها سوى بصيص قليل من الماء، فاستعد بَرَّاك طائعاً مختاراً أن ينزل إلى قاع البئر البالغ عمقه حوالي خمسة وعشرين متراً، وذلك لتوسيع الجزء الظاهر من الماء حتى يمكن سقى مواشيهم منه، فاعترض عليه إبن عمه «لأفيْ» وقال له:

: لا، لاتنزل يابراك، فإن البئر يبدو أنها خطرة والماء المنظورة قليل جداً لايسقى سَخْلاً واحداً.

: الله يستّر بستره الضافى، وهذا الماء فيه بركة إذا وسعته قليلاً سأخذ الدلو، وإذا لزم الأمر فسأغرف بها حتى تمتلئ ونسقى مواشينا.

: صحيح إن الله هو الساتر، ولكنه يقول، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، كيف ترى هذا البئر قد إنسلخ جزء كبير منه ودفن جمته وتريد أن تنزل فيه، إنظر إن ذلك الجزء يهلهل منه التراب.

: توكلوا على الله «صُلُوتي» فى البئر وسأسقى غنمنا إن شاء الله ولن يصير إلا الخير، وفى هذه الأثناء يحضر إبن عمه الآخر محمد.

: ماذا تعملون وقد تجمعتم حول البئر؟

: هيا أمسك بطرف الرشا، «صُلُوتى»، لأوسع ذلك الجزء الواضح من الماء لنسقى منه مواشينا.

: أنا أعترض على ذلك لأنه خطر على من نزل فيه ولاداعى للنزول اليه.

: وأغنامنا ومواشينا تموت أمامنا عطشاً ونحن لانستطيع عمل شيئ لها.

: فى لهجة غضب «موتة عين جِدّي» ثم يستأنف سندرجها إلى البئر الفلانية ونسقى الذى يبقى منها على قيد الحياة، ولانفرط بأحدنا إذا دفنه هذا البئر.

: أراك يالافى تعترض على نزول براك بالذات!! ربما لأنه قد تزوج حديثا ولم ينجب، وربما لاقدر الله لومات فلن يبق له أحد من الذرية لتخليد إسمه، فدعنى أنا أنزل إلى الماء وإن مت فالحمد لله ورائى أبنائى يحيون ذكرى.

: ليس هذا قصدت، لكن البئر خطرة وكلكم لدَيَّ سواء ولاأريد التفريط بواحد منكم أو أى انسان كان بصرف النظر عن أى إعتبار آخر، فلا ينزلن منكم أحد.

: يمسك بطرف الحبل ويربط به وسطه قائلاً، أنزلونى وإن كان الله مريداً لي موتاً فى هذا البئر فأنتم فى حِلٍّ منى وإن قسم الله لي الحياة والسلامة فأكون قد سقيت مواشيكم.

: يمسك بالحبل الذى ربطه بَرّاك ويحله، وبراك يربط مرة ثانية، وتجمع رعاة الغنم عليهم، فقال لافى بالله عليكم لاتنزلوه للبئر فهى خطرة وَوَجَّه الكلام للرعاة، وعليكم أن تتوجهوا بمواشيكم إلى البئر الفلانية وتسيروا بالقطعان الهوينى، وإن رأيتم شيئا منها قد إستحق الذَّكاة فاذبحوه واحملوه معكم وإن كثر ذلك فاتركوه فى طريقكم المهم ألا تتركوا شيئا يموت حَرجاً حتى تصلوا الماء.

: يعتزى بأخته «أنا أخو فلانه» ويلف الحبل على وسطه ويقول بلهجة المغامر، إن لم تمسكوا بطرف الحبل فسأثب الى البئر وثباً، ويتجه صوب البئر، وعندما رأى القوم عزمه على ذلك أمسكوا بطرف الحبل مكرهين وصلوه إلى داخل البئر، وعند وصول براك إلى قاع البئر ناداهم أن أعطونى دلاءكم. وبدأ يوسع بيديه وأدات

«المنساف». الجزء المتبقى من الجمه حتى توسعت قليلاً وجاءته الدلاء واحدة بعد الأخرى وبدأ يغرف فى كل واحدة حتى تمتلئ فيمتحوها ويسكبوها للأغنام وهكذا استمر حتى إرتوت جميع مواشيهم وملأوا قربهم وأوعيتهم، وكان البئر قد طوى فه منذ مدة طويلة بقطع من الصخور يتراوح طول الواحدة منها بين المتر والمترين بعرض حوالى نصف متر وسماكة مايقارب ثلاثين سنيماً كانت هذه الأحجار متما سكة منذ زمن بعيد، وعندما أرادوا إخراج براك من البئر، أطبق عليه بشكل لم يعرف له مثيل حيث أنهال من كل جانب وأخذ معه فى كل إتجاه مايقارب ثمانية أمتار، وحتى الذين كانوا بقرب فوهته سقطوا فيه ولكن على عمق بسيط، تمكنوا من الخروج منه فى الحال، أما براك فقد بقى بهذه البئر التى أصبحت تشبه خفس قطرة يزيد على عشرين متراً، وكأنها فجوة من الأرض إنفتحت والتهمت البئر ومن فيها وماعليها من عدة وغيرها، كل هذا جرى بمرأى من أبناء عمه الذين لم يستطيعوا ثنية عما عزم عليه.



أسرع النذير الى النَّزْلِ الذى يبعد عن موقع البئر بضعه أكيال وهو يصيح ويستنجد بالقوم ليسرعوا، لإنقاذ حياة براك الذى إنهدم عليه البئر، وفزع القوم وفى مقدمتهم أخواه صايل وذعار أصغرهم وما إن وصلت النجدة إلى الحادث رأوا مالايمكن إنقاذ الرجل المدفون تحته بسهولة، فعاد بعض الشباب مرة ثانية للبيوت وأحضروا كل شيئ يساعد فى عملية الحفر ونقل التراب، وبدأت عملية الحفر وإزاحة التراب ونقله، وكلما نقلوا عشرة زنابيل من فم البئر أنهال بدلا منها ضعفها، ورغم أن الناس قد فزعوا عن بكرة أبيهم رجالاً ونساءاً وشاركوا فى محاولة الإنقاذ إلا أنه مضى ذلك اليوم بكامله ولم يعملوا شيئاً يذكر، وذلك بسبب رداءة جال البئر الهيار، فكلما حفروا منه قليلاً إنهال عليهم بكميات تعادل أضعاف أضعاف ما أخذوه، واستمر العمل إلى بعد صلاة العشاء الأخير دون أية فائدة تذكر، وأخيراً يئس الناس من حياة بَرَّاكْ حيث مضى عليه تحت الأنقاض أكثر من إثنتى عشرة ساعة، فأبلغوا زوجته التى لم يمض على زواجه بها سوى أشهر تعد على أصابع اليد الواحدة أبلغوها

بلبس ثياب الحداد عليه، فما كان من زوجته «شَمَّاء» إلا إرتداء ثياب الحداد نادبة حظها العاثر الذى حرمها من رعاية زوجها ورعايته وقطع عليها الحلم الجميل بإنجاب الأطفال منه الذين طالما اختلفوا على الظفر بأسمائهم، فهى تريد إسم البكر لها إن كان ذكراً وهو يريده له، أما إن كانت أنثى فكل واحد يعطيه لصاحبه، فهو يعدد الأسماء التى سيسمى بها أبناءه الذكور وبناته الإناث، وهى تختار أسمين من الذكور فقط أحدهما إسم أبيها الغالى إلى قلبها والثانى إسم أخيها الذى فقد فى إحدى الغزوات ولم يعد وتريد هذين الإسمين يطرقان أسماعها فى كل حين وبقية الأسماء من نصيب الوالد، وتصل قائمة الأسماء المختارة ذكوراً وإناثاً التى سيغطيها العروسان الى إثنى عشر إسما، هذا الحوار والنقاش يجرى بين الشابين ضمن أحاديث السمر، ويطفح بهما الخيال إلى أبعد من ذلك حيث يتجاوز إنجاب البنين والبنات الى تصور مكانتهم فى المجتمع وذلك بتأثير الوراثة عليهم، فهى تضيف إليهم الخصال الحميدة وتنسب تأثيرها إلى أخوالهم، وهو ينسب هذه الخصال بتأثير أبيهم وأعمامهم، وكيف سيعامل هؤلاء الأبناء أبويهم إنهم أصبحوا شيوخاً عاجزين عن الحركة، هل سيرحمونهم ويعطفون عليهم ويساعدوهم أم سيكونون مثل بعض أبناء هذا الزمن الذين يضرون أكثر مما ينفعون، كل هذه التخيلات تجرى فى حديث شيق فى ثنايا إحاديث السمر التى تجرى بين الإثنين، لم تلبث هذه الخيالات أن عصفت بها هذه الريح الشرسة العاتية وألقت بها ثوباً أسوداً قاتم اللون على أديم شماء الغض فى وقت مبكر من شبابها، وبات الناس ليلتهم يتداولون الرأى عن أنجح الطرق لحفر تلك البئر «الهَبيَّة» وإخراج الجثمان منها قبل أن يتعفن فقرروا الإستعانة بأهل القرية المجاورة لهم والتى تبعد عنهم حوالى عشرين كيلاً، فسرى النذير من ساعته ولما وصل القرية صاح مستنجداً وعندما تجمع الناس حوله أخبرهم بالنبأ وطلب منها الفزعة وإحضار أدوات الحفر التى قد تكون متوفرة عند الحضر بشكل أفضل فاحضروا «المناسيف» والمساحى والزنابيل وأعمدة الحديد ومناقل الخوص، والحبال والخشب والأرشية وغيرها مما يساعد على إزاحة التراب وتبريح فم البئر ثم النزول إلى عمقه، وعند الصباح إنضم إلى ذوى الفقيد وجماعته من فزع من أهل القرية المجاورة لهم ويبلغ عددهم حوالى ثلاثين رجلاً ولهم خبرة فى حفر الآبار، فقد كانوا أدرى بأنواع التربة وطريقة معالجة كل

نوع بحكم تجاربهم الطويلة فى مثل هذا العمل، فلذلك شقوا طريقاً للدواب فى جانب البئر وبدأوا ينقلون التراب بالمناقل على ظهور الدواب ويرمون به بعيداً عن فوهة البئر واستمروا طيلة ذلك اليوم فى هذا العمل، وفى منتصف اليوم الثالث كانوا قد بينوا فوهة البئر فاتضحت لهم كدائرة الخاتم على عمق ثلاثة أمتار تقريباً وعندها ركزوا قامات الخشب ونصبوا عليها البكرات والمحال فى عدة إتجاهات وبدأوا من كل جهة ينزفون من التراب، منهم أناس داخل الفجوة يحشون بالزنابيل وآخرين يمتحسونها، وأولئك ينقلونها وينثرونها بعيداً عن فوهة البئر واستمر هذا العمل المضنى خمسة أيام من طلوع الشمس حتى مغيبها دون توقف حتى تجاوزوا منتصف البئر قليلاً وبينا القوم جالسون بعد صلاة العشاء يرتشفون القهوة بعد إستراحتهم من عناء التعب المضنى الذى إستمر لمدة خمسة أيام متواليه بدون هوادة، إذ قدم إليهم ضيفاً جاء على ضوء النار ورائحة القهوة، وبعد أن رحبوا به جلس بقرب القهوة فرأى الوجوم وآثار التعب على وجوه القوم، فسألهم عما بهم فأخبروه بالحادث، فسألهم منذ كم صار الحادث فأخبروه أنه منذ خمسة أيام مضت، والمطلوب الآن هو إخراج الجثة قبل أن تتعفن، وعند ذلك شهق بصوت منفعل قائلا: «يالوجيه السمحة إن كان البئر قد أنهدم على إنسان فهو لايزال على قيد الحياة»!! وهنا تطاولت الأعناق نحوه وحاولت العيون التهامه، وبلسان واحد سألوه؛ وكيف عرفت ذلك؟ فاجابهم: إننى جئت وارداً هذا البئر الذي سبق أن وردته فوجدته على تلك الحالة، وهنا يئست من الماء، فتوجهت إلى حيث آثار الناس وصوت نباح الكلاب، وعندما أوشكت على مغادرة المكان سمعت صوتا، كطنين الذباب، وأرهفت سمعى له جيداً وإذا هو يخرج من جهة البئر، فقيدت دابتى ودنوت من البئر وتصنّت فلم أسمع شيئاً وجلست مركزاً إنتباهى مصغياً جيداً وبعد حوالى نصف ساعة، طن الصوت مرتين متتاليتن ثم توقف، فإن صدقت حاسة سمعى فالرجل الذى بداخل البئر لايزال حياً. فعليكم أن تسرعوا لإنقاذ حياته، قال هذه الجمل بلهجة الواثق من كلامه، المتأكد مما سمع، كان لكلام هذا الضيف على مسامع القوم الذين أنهكهم التعب منذ خمسة أيام وقعاً مؤثراً، يختلط فيه اليأس بالرجاء، اليأس لأنه لايرجح إحتمال بقاء إنسان على قيد الحياة لمدة خمسة أيام بلياليها تحت الأنقاض دون هواء ولاغذاء، والرجاء الذى يوحى

بقدرة الله على كل شئ، ويمكن أن يكون لهذا الإنسان لقمة باقية فى هذه الحياة لن يغادرها حتى يستوفيها فإذا أتمها إنتقل إلى جوار ربه أو قد يكون له شأن آخر أو فى صلبه ذرية أحياء، وتبادل القوم النظرات على ضوء النار الخافت، والوجوم يخيم عليهم و يغلق أفواههم، يقطع هذا الصمت أخوه الأكبر، صايل الذى سأل الضيف، وهل أنت صادق وواثق مما تقول؟ فأجابه الضيف كل الثقة. فعند ذلك وقف وصاح بأعلى صوته مستنجداً «يالأخوان، يالقرابة، يالأجواد، اليوم ولاغيره، أنقذوا حياة أخى الغالى» ففزع الناس من مكانهم إلى الموقع وأرسلوا إلى أهل القرية الغير بعيدة منهم يستنجدون بهم وعندما وصلوا الى المكان تصنتوا قليلاً فسمعوا الصوت الذى ذكره الرجل، فتأكدوا فعلاً من صحة كلامه، وبدأوا العمل المتفانى رغم ظلمة الليل، فقد أوقدوا النيران حول البئر للإضاءة، وأتوا بالسرج من القرى المجاورة، وإستمر العمل طول الليل حتى الصباح عندما أتتهم النجدة من أهل القرى الذين علموا بالحادث، وفى نهاية اليوم السادس وصلوا إلى قعر البئر، حيث وجدوا بَرَّاك حياً واقفا على قدميه وقد أنجاه الله من الهلاك بسبب صخرة طويلة وغليظه من طى البئر وقفت بحذائه وقد أزاحت عنه بقية الصخور المنهارة عليه، فبقى واقفا بينها وبين جال البئر الذى سلمه الله من الهدم، وكأن بَرَّاك لم يصب بأى أذى ولاحتى بخدش أو جرح بسيط، وعندما أزاحوا الصخرة عنه وقع على الأرض فاقد الشعور من الإعياء بسبب طول الوقوف ولإنقطاع الأوكسجين دفعة واحدة فى رئتيه وجسمه، غير أنه يتنفس طبيعياً فحملوه الى النزل وكلهم تلهج ألسنتهم بالشكر لله العلى القدير الذى أنقذ حياة هذا الشاب من الهلاك بعد مضى ستة أيام بلياليها تحت الأنقاض شاكرين ومقدرين لكل من ساهم فى إنقاذ حياة هذا الإنسان.

* * *

وما إن أخرجوا بَرَّاك من البئر حتى دَوّى صوت البشير فى الحي يبشر الناس بسلامة براك وأنه طيب وسالم من كل أذى، فكان لهذه الجمل التى يطلقها البشير أكبر الأثر فى الحي بصفه عامة وعلى أسماع شهاء بصفة خاصة، التى كادت تطير من الفرح، فما إن سمعت هذه البشارة السارة وتحققت من صحتها حتى طوحت بتلك

الثياب السود بعيداً عنها، تلك الثياب البغيضة لديها والتى جثمت على صدرها حاملة معها الحزن والأسى، واستبدلتها بثوبها الذى تكسوه الشجر والورود والموشاة أكمامه وجيبه بخيوط الحرير «الابريسم» على إختلاف ألوانها وارتدت فوقه ثوب الحرير«الوريسى» الذى أحضره لها براك فى الزواج وخرجت تركض بإتجاه القوم القادمين وكأنها الوردة المتفتحه لإمتصاص الندى ونفث الشذى، وأحضروا براك إلى مضارب الحي وكانت زوجته فى مقدمة المستقبلين ولم تصبر فقد إندفعت نحوه تنزعها الفرحة الغامرة والسرور، تشق صفوف الرجال دون مبالات لتتأكد بنفسها عن صحة الخبر، وكان براك وقتها لايتكلم، لأن أوتار حلقه قد بُحّت وزرد حلقه أثناء الصياح والنداء تحت الانقاض، فأحضروا له شيئا من العسل وخلطوه بقليل من السمن وشيئ من الفلفل الأسود والعقوه إياه لحسة بعد أخرى على فترات يفصل ينها ساعات، وأجروا له حركات فى عضلاته لتمرين أعصابه على الليونه والحركات، بعد تصلب دام ستة أيام أثناء وقوفه فى قعر البئر، ولم تمض ست ساعات حتى أصبح يتحرك و يقوم ويجلس بحركة شبه عادية ونام الحي تلك الليلة هادئين مستبشرين، وتولت زوجته الإشراف عليه والسهر على راحته، حيث بقيت ساهرة لم تنم، تراقبه وكلما فَزَّ من نومه بتأثير الأحلام والكوابيس الباقية فى ذهنه عن الوضع الذى كان فيه هدأت من روعه وطمأنته إلى الحالة التى أصبح فيها، كما أنه يحدث بين الفترة والأخرى بعض التشنجات العضلية التى تعكس رواسب الصورة المتبقية فى مخه عن الحادث، وبقيت زوجته بجانبه وكلما حدثت له حالة من ذلك عصف الخوف بقلبها مثلما يصعف هبوب الرياح بنور الذبالة الموضوعة عند رأسه التى تتلوى تطول وتقصر، تمتد وتكاد تنطفئ ثم تعود إلى وضعها الطبيعى كذلك الحال لقلب شهاء، وبقى على هذه الحالة طول الليل، وفى الصباح كان براك قد أخذ قسطا من الراحة والنوم المتقطع مما أعاد اليه شيئاً من قوته الجمسية وعند حضور إخوته بعد صلاة الصبح أيقظوه واسقوه فنجانا من القهوة عله أن يصحى و ينتبه، ومع إمتداد ضوء الشمس على الأرض ساحت أقدام المهنئين إلى بيت براك من مختلف أنحاء الحي وذلك لتهنئته بالسلامة والحياة الجديدة التى كتبها الله له، وتهنئة إخوانه صائل وذعار على سلامة أخيهم وتوافد القوم إلى نفس المكان رجالاً ونساءاً كباراً وصغاراً وفى هذا التجمع شبه

العائلى دعا صائل الجميع باسمه واسم أخيه ذعار على طعام الغداء عيداً لله سبحانه وتعالى الذى مَنَّ بلطفه وفضله وأنقذ حياة براك من موت محقق ولكنها قدرة الله وصنعته؛ ونحرت الجزر وذبحت الخراف دعى اليها أهل القريتين المجاورتين الذين ساعدوا بمالهم ومعداتهم وعرقهم فى البحث عن براك وإنقاذ حياته وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً فى هذا الحي، ولم يحن وقت الغداء حتى كان براك قد عاد الى وضعه الطبيعي وجلس مع القوم ولم يبق فيه أى أثر للحادث سوى ما أصاب صوته من البح إذ أنه حتى الآن لايستطيع الكلام إلا بصعوبة بالغة وبصوت منخفض لايسمعه إلا القريبين منه وأحيانا يدعم إجاباته على الأسئلة ببعض الإشارات المفهومة للجميع، ومن آداب المجالس الحميدة الموجودة آنذاك، الإصغاء إلى المتحدث وإعطاء كل شخص حرية الأسئلة عما يريدو عليه أن ينتظر دوره ويلقى بسؤاله إلا اذا حدث سؤال مماثل يتضمن نفس الإجابة فيكتفي بها، كما أن لشيخ القبيلة أو كبير العشيرة حق تصدر الجلسة وإبقاء الأسئلة العامة الشاملة التى تتعلق بالموقف ولما كان رئيس العشيرة غائباً فقد تولى مكانه أخ المصاب صائل.

: أخى براك، الحمد لله على السلامة، وهذه رحمه الله ولطفه الذى أنقذك من موت مؤكد، ويستأهل ربى العيد الذى أنقذك مما كنت فيه.

: الله يسلمك ولايعلمنا وجودك، والحمد الله أولاً وأخيراً على السلامة.

: عسى سلامة يوم تُسَلِّمُ دوم، وإن ربى يستحق الحمد والشكر على ماتفضل به علينا من سلامتك، إننى لا أكاد أصدق، أمس مثل هذا الوقت تحت الأنقاض وقد إعتبرناك ضمن الأموات، والآن جالس معنا !! إن ربى يستحق الثناء.

: آه .. ماأحلى الحياة، ما أجمل الحياة بعد الموت، «حلو الحياة وحلو هب الهواله»، إن هناك فرق كبير يفوق كل تصور، ويتعدى كل تخمين بين الحياة والموت أوما فى مستواه، قد يحاول المرء أن يتخيل تلك الحالة، ليقارنها بالحياة ولكنه يقف عاجزاً عند ذلك، إن لحظة من الحياة، إن نسمة يستنشقها الإنسان من الهواء الطبيعى لايساويها أي ثمن، إن جرعة ماء تساوى مثل هذا الجبل ذهباً أصفراً، إن نظرة واحدة إلى هذه الوجوه المضيئة لايقدر لها قيمة.

: كيف وجدت نفسك؟

: آخر عهدى بالناس عندما ملأت الدلو ورفعتها واستندت على جال البئر أنتظر عودتها مرة ثانية، وإذا الدنيا قد أظلمت فى وجهى فى لحظة واحدة وفقدت آخر لمحة للنور أمام عينى وبقيت فى ظلام دامس لا أرى شيئاً.

: هل احسست بإختناق أو غبار أثناء ذلك؟

: لا لم أحس بغبار أبداً، وإنما شعرت لأول وهله بضغط شديد علىَّ حتى أننى لاأكادُ أستطيع التنفس، لكن لم يلبث أن خف ذلك عنى شيئاً فشيئاً، أو أننى تكيفت مع الوضع الجديد، أو هكذا شعرت.

: كيف أمضيت اليوم الأول تحت الأنقاض؟

: لم أدر عن اليوم الأول والثانى، وحتى الآن لم أصدق إننى بقيت ستة أيام فى جوف البئر، وإنما شعرت بالتعب من طول فترة الوقوف وحاولت الجلوس، ولكن المكان الذى أنافيه لايتسع الوقوف وحاولت الجلوس، حيث أن الحجر الطويل قد لاصق جسمى من الأمام، وجال البئر من الخلف، أما من الجانبين فأستطيع مد يَدَيَّ بطولها ولا المس مدى الفجوة التى أنا فيها لكننى مع ذلك لا أستطيع حراكاً.

: هل كنت تعتقد أن صوتك يسمع وأنت فى هذا العمق وفوقك كل هذه الأنقاض؟

: في بادئ الأمر كان صوتى قويا، وكنت أعتقد أنكم تسمعونه، أما بعد أن بح صوتى من كثرة التصويت والصياح فقد يئست من سماعكم له ولكنها صرخات النجدة التى تخرج أحيانا رغماً عنى مع إعتقادى أنها غير مجدية.

: ماهو الدعاء الذى كنت تردده بينك وبين نفسك عندما تتعب من الصياح؟

: كنت أردد آية اليقين مع أدعية واقوال حفظتها، منها «قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فاليتوكل المؤمنون» «صدق الله العظيم» وقدر الله وماشاء فعل، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم، ومن الأدعية «اللهم فالق البحر عن نبيك موسى، ومخرج نبيك يونس من بطن الحوت أخرجنى من هذه الظلمة إن كان لى نصيب فى الحياة، اللهم أخرجنى إن كانت الحياة خيراً لي، وانزعنى إن كان الموت فيه مصلحتى.

: كيف كان أملك فى الحياة؟
: كانت أمنيتى الوحيدة أن استنشق وأملأ رئتي بعبير الهواء الطلق، وأرى نور الكون بعينى هاتين، وأذوق طعم رَيِّق الماء مع حلقى، كان أملى فى الحياة وقتها يرتكز على هذه الأشياء
: شعرت بالرغبة بعد أن أحسست ببخار الماء يملأ الفراغ الذى أنا فيه لاسيما أن الماء تحت قدمى، أما الأكل فلم أشعر بحاجة اليه
: هل سمعت أصواتنا عندما كنا نبحث عنك؟
: كنت أسمع اصواتكم مثل أصوات العصا فير من بعيد، وأسمع حفركم مثل صوت «خرفشة» الجراد داخل الكيس، حتى إتضحت الأصوات عندى شيئاً فشيئاً حينما بدأ تم بضرب الصخرة التى أمامى وعند ذلك شعرت بقرب الفرج.
: ماهو شعورك عندما سمعت الأصوات تقترب منك؟
: كنت أشعر بالفرحة تغمر روحى، والأمل يدب فى كل خلية من أوصالى بأن الله سينقذنى من هذه الظلمة على أيديكم وأن فَرَجَهَ قريب، وأتمنى أن تصلونى قبل أن تغادر روحى مخابئها، وقد حصل ذلك والحمد لله.
: لماذا لم تطع نصيحة لافى فى البداية عندما أصررت على رأيك للنزول بالبئر؟ هذا قضاء الله وقدره ولاشيئ يحول دون ذلك ولله فى ذلك حكمة لانعرفها.
: ماهى أصعب لحظه واجهتك؟
: الحقيقة أننى واجهت لحظتين كانتا أصعب لحظات هذه الفترة، الأولى عندما أطبقت على الدنيا وانتقلت من نور الحياة إلى ظلمة الممات الخانقة بحيث أصبحت لا أرى شيئا فى برهة قصيرة، والثانية عندما أزحتم الصخرة من أمامى واصطدمت بالهواء والنور مرة واحدة حيث فقدت شعورى وإحساسى بالوجود، ولم أستطع الحراك إلى أن نقلتمونى بعيداً عن البئر.
: ماهو أملك الآن فى الحياة؟
: أملى فى الحياة الآن أن أعيش عيشه كريمة وأساهم فى خدمة مجتمعى وعشيرتى بالقدر الذى أستطيعه وأن يرزقنى الله بالذرية الصالحة التى تكون لبنات صالحات فى بناء صرح العشيرة وأن أتمكن من أداء الشكر والثناء لخالقى العظيم الذى

انقذني من تلك المحنة كانت هذه الأسئلة ومافى معناها هي التى تدور فى أذهان القوم وما إن تمت الإجابة عليها حتى جُهِّزَتْ موائد الطعام على صوانى كبيرة تتوجها فقار الجزر وأعضاء الخراف وانتقل الناس إلى هذه الموائد مع عبارات الترحيب، وحمد الله وشكره على إنعامه بإنقاذ حياة براك الذى كاد أن يفارق الحياة، و يشاء الله أن يعود براك إلى وضعه الطبيعى و يرزقه الله بذرية تتكون من بضعة ذكور وعدد من الأناث، و يبارك الله فيهم حتى أصبحوا الآن أعداداً كبيرة يمثلون جزءاً كبيراً من عشيرتهم.

* * *

٧ - أبو الأيتام *

تمر بعض الفترات الشديدة على هذه البلاد، تدب فيها الفوضى، وتطول يد القوى على ساعد الضعيف فتحطمها ليبقى أكتعاً، ثم لايلبث أن تقوى شوكته فيأخذ الثأر من خصمه، وتفنى فى هذه المنازعات زهرة الشباب وصناديد الرجال، ولايبقى فى كثير من الحالات إلا النساء والأطفال، الذين يكونون الضحية وقد يذهبون بدورهم بالتالى أدراج الرياح لعدم وجود من يقوم بأودهم، لاسيا فى سنوات الشدة، وفى هذا الجو فى فجر ذلك اليوم البارد حصلت غارة على عشيرة من العشائر بطلب تأثر قديم لهم، وكان المغيرون من القوة والشدة بحيث اكتسحوا تلك العشيرة إكتساحاً مدمراً، فقتل الرجال بكاملهم، لعدم وجود التكافؤ بين الجانبين، فلم يبق إلا شيخاً كبيراً وإمرأة وطفلاً صغيراً، وسلبوا جميع ممتلكاتهم ولم يتركوا لهم سوى بعض البيوت المتهرئة، وقليلا من الزاد يسد رمق أولئك المنكوبين، من الشيوخ والنساء والأطفال، أما ماتبقى فقد نقلوه على إبل هذه العشيرة وجميع مواشيهم إعتبروها غنيمة، ولقمة سائغة لهم حينما رحلوا عنهم تاركين أولئك المغلوبين على أمرهم لايستطيعون حراكا، وما أن شاع الخبر بين القبائل المحيطة بهم والذين يمتون لهم بصلة القرابة، حتى فزعوا اليهم وأنجدوهم بالطعام والشراب ومستلزمات الحياة الأخرى، رفعوا أمر المنكوبين إلى السلطة المشرفة على البلاد التي ستعيد الحق إلى نصابه ولكنها لاتستطيع إعادة الرجال المقتولين إلى الحياة، اللهم بالإقتصاص من الفاعلين أو الديات للقتلى، وفى هذه الأثناء وجد صبي يتيم ليس له إلا أبيه الذى قتل مع من قتل ولم يبق من أقاربه أحد، فبقى بدون عائل، فى الوقت الذى كان كل شخص قد ضاقت به الأرض ذرعاً، وضاق بمن عنده من الأطفال، فأراد أحد الوافدين إلى العشيرة، الإحسان إلى هذا اليتيم البالغ من العمر بضع سنين، وذلك بإيصاله إلى المدينة عله يجد من يحسن اليه، و يقوم بالعناية به، فأخذه معه على مطيته وعند وصوله الى المدينة تركه فيها، وعندما نزل الصبى فى المدينة ذات المبانى الشامخة والقصور

* قصة عبدالعزيز بن سليمان العريفي وقد حدثت حوالي ١٣٢٨هـ.

الشاهقة، والشوارع الواسعة نوعاما، لكن لايوجد فيها أرصفة للمشاة بل كل الشارع مخصص لمرور الدواب، فى هذه المدينة المكتظة بالحركة بقوافل الإبل المحملة بالأطعمة، من حبوب، وتمور، وملح وضروب التجارة، كالأقمشة والكماليات، ومواد البناء، كالأخشاب وجريد النخل والمصنوعات الأخرى، وأحمال الحطب، كالأرطى، وجذوع الرمث، ومواد الدباغة، كالعرن، وورق الأرطى والعلف كالعرفج والقِبَةْ والغرز، وغيرها وغيرها، مع عربات «الكرو» التى تجرها البغال وتقضى عليها لوازم الناس، تموج هذه القوافل مصعدة ومفيضة مع الشارع الرئيس فى المدينة، وأحيانا تسلك أقصر الطرق كالشوارع الفرعية الموصلة للهدف المنشود، هذه القواقل الكثيرة المحملة بمختلف أنواع المؤن، تغص بها الشوارع الرئيسية والفرعية، وترى المشاة يتجنبون مزاحمة هذه الإبل لئلا ينالهم منها أذى، كالأطفال والشيوخ والمرضى وضعاف البصر، فتراهم يلتصقون بجانب جدار الشارع عند مرور القافلة حتى تتعداهم، وإن كانت أخطار الإبل لاتقارن بأخطار السيارات فى الوقت الحاضر، كما ترى الناس القادمين من أطراف المدينة والمزارع ومن القرى المجاورة وقد إمتطوا ظهور خيولهم وأحيانا الحمير ليقضوا حاجاتهم عليها من حوانيت المدينة، وتعتبر الخيل والحمير وسيلة المواصلات السريعة اليومية فى ذلك الوقت، فى هذه الشوارع المزدحمة لايكون هناك مجال للمشاة للجلوس أو الإستراحة أو تفادى الأخطار إلا على فم باب منزل، أو داخل باب حانوت، ولايجلس فى هذه الأماكن سوى أصحابها رب البيت أو أحد أفراد الأسرة، أو صاحب الحانوت أو من يعرفه، والناس فى المدينة مشغولون بأعمالهم، لاينظر أحد إلاّ إلى عمله ومايعود عليه بالمصلحة، إن كان جمّالاً إنصرف كل تفكيره إلى قافلة إبله لتأمين العلف والماء لها، وتأمين الأحمال التى ينقلها من مكان إلى آخر، وإن كان تاجراً إهتم بعروض تجارته والعمل على تسويقها وبيع أكبر قدر منها فى يومه، وإن كان صاحب مهنه حرص على زبائنه واغتنم الفرصة لبيع أكبر قدر من سلعه المصنوعة وإصلاح الأوانى والسلع التى تحتاج إلى إصلاح وصيانة، وعابر السبيل قد أسرع لقضاء حاجته متسللا بين هذا الزحام دون الإلتفات إلى ماحوله، وأصحاب الحوانيت يتجاذبون الحديث بينهم وكل واحد منهم فى باب دكانه بصوت مرتفع يسمعه جيرانه الآخرون، ومن ينادون على سلع معروضة للبيع يذرعون الشارع روحة وجيئة وهم ينادون «يحرجون» على سلعهم، «كم نقول، كم نقول، والصلاة على

الرسول» بالسلعة الفلانية و يصفونها بالأوصاف التي تدل على جودتها، و يقف الواحد منهم عند صاحب كل حانوت يرغب في شراء شيئ منها، فإن زاد بالسعر دَوَّى صوت «المُحَرِّج» مبيناً مقدار هذه الزيادة وإنتقل الى زبون آخر فتسمع لأصواتهم إيقاعاً معينا ينساب في وسط هذه الجَلَبَة، وسط هذا المكان الذى يضج بالحركة الدءوب، وفي هذا الجو الذى إختلطت فيه رائحة، العطور، والهيل، والقرنفل، والقهوة، والبهارات، والأفاديه، برائحة العرفج وورق الأرطى، مع رائحة أعطان الإبل، ورائحة دخان الكير وغيرها من الروائح التي في مجموعها تكون رائحة مميزة تضمخ أعطاف المدينة آنذاك، في هذا الجو الذى إمتزجت فيه أصوات رغاء الإبل وحنينها مع صهيل الخيل، وأصوات الجمالين وهم يرتبون أحمالهم و يقودون قوافلهم ، وأصوات المنادين على سلعهم «المُحَرِّجِيْنْ» وأحاديث أصحاب الحوانيت مع وقع مطارق الحدادين، وفحيح مناشير النجارين في هذه المعزوفه التي تشنف آذان القادم إلى المدينة.

في هذا الجو نزل الغلام «مُنَوَّخْ» يتيما من الأبوين، أمه التي وافتها المنية في صغره، وأبوه الذى قتل قبل بضعة أيام أمام عينيه، فكانت الدنيا عنده تشبه ظلمه دامسة، فحاول ذلك الرجل الذى لايعرف إسمه إنتشاله من تلك الظلمة الحالكة، ولكنه رماه وسط هذا الخضم الهائج المائج الذى لايستطيع أن يعيش فيه، حتى أفضى به إلى الشارع الرئيسي الذى يموج بالحركة والنشاط، ولم يتمالك الصبي نفسه عند وصول تلك القافلة حتى التصق بجانب سارية باب بارزة لتمر تلك القافلة الكثيرة من الإبل المحملة، وما إن همَّ بالحركة حتى اتته قافلة أخرى وثالثة ورابعة حتى أصبحت تلك السارية خير حماية له من أن تتجشمه قافلة من هذه القوافل فتذهب حياته تحت مناسم الإبل، وفي ظل هذه السارية في صباح ذلك اليوم الشاتي بدأت ترتجف جوانحه وتصطك أسنانه وترتعش فرائصه تحت لسعات البرد القارس التي تتناوله فيها لفحات ذلك الهواء الشمالي القارس، ولم يكن يرتدى سوى طمر ثوب مهلهل تتلاعب شرائح أسفله وكأنها تعزف له لحن الموت، ومكث في ظل هذه السارية حتى كاد الدم أن يتجمد في عروقه وحينما برز الزَّبَدُ على جوانب فمه فمر عليه إثنان من عابرى السبيل ورأياه على هذه الحالة، فقال أحدهما وهو صالح.

: سليمان، إنظر إلى هذا الغلام، مسكين إنه قد «شَربَهْ» البرد إنظر إن فه يزبد من شدة البرد، وليس عليه من الملابس مايقية شره.
: إنه مسكين حقاً، ترى من أين أتى؟ وهل هو من «صبيان» هؤلاء الجمالين؟.
: لاأظن ذلك، لو كان له «مُعَزِّبٌ» لما وقف فى هذا المكان وبهذا الوضع.
: يمكن أن يكون هاربا من أهله، أو ضائع عنهم، أو يتيماً مقطوعاً ليس له أحد يعتنى به فيحتاج إلى من يحسن اليه و «يلفه» و يدفئه ليتقاضى أجره من الله عز وجل، فليت أنى مقيم بهذه المدينة لأفعل ذلك.
: أنا مقيم هنا وسأحتسب به وأخذه معى إذا قضينا لزومك الآن من عند أبى فلان، ولكن أخشى أن يسبقنى إليه أحد فيظفر به و يأخذ أجره.
: من سيراعي لمثل هذا الصبي في هذه المدينة المزدحمة؟ وكل إنسان فيها مشغول بنفسه وشئون حياته!!
: ياسليمان، لايغرنك إزدحام المدينة، ودأب الناس على اعمالهم فيها، فإن فيها من الأجواد، وفاعلى الخير، وقاصدى الإحسان، والكرماء، من سيلتقطون هذا الغلام وأمثاله للإحسان إليهم والتقرب بهم عند الله رجاء ثوابه.
: أنا أصدق ماتقول، ولكن يمكنك بعد إنتهاء عملنا بعد قليل أن تعود اليه وهو لايزال فى مكانه وتأخذه إلى بيتك!! هيًا بنا ننهى عملنا لتعود إليه بسرعة!.
: إننى أخاف أن يسبقنى اليه أحد.
: هيا أسرع معى ومن سيأخذه منك؟
: أخاف أن يسبقنى اليه أبو الأيتام!
: بتعجب!! من هو أبو الأيتام هذا؟
: أبو الأيتام عبدالعزيز الذى يمتلئ بيته بالأيتام الذين لاعائل لهم فيقوم بإيوائهم والعناية بهم و يربيهم حتى يصبحوا رجالاً ونساءاً ليشقوا طريقهم فى الحياة، لايريد من ذلك سوى ثواب الله.
: وكيف يحصل عليهم؟
: إنه يتوجس عنهم، فيجد بعضهم فى الشارع مثل هذا الغلام و يعرف عن بعضهم فيرسل لهم من يحضرهم إليه أو يوصى بمن يجيئ بهم عنده، وإننى خائف أن

يسبقنى على هذا الصبى وأنا لى الرغبة فى الإحسان إليه.
: أسرع، لن يسبقك اليه أحد، أتراهننى على ذلك؟؟

* * *

و يذهب الرجلان فى سبيلها بعد أن جرى هذا الحديث السريع العابر أثناء وقفه قصيرة فى مقابل مكان الغلام عند مرور قافلة مع الشارع، وماهى إلا لحظات حتى قدم ذلك الشيخ الوقور الذى أضاء معظم شَعْرِه بالبياض وقد صَبغه بالحنَّاء فأصبح أشقراً قاتماً ذا جذوع بيضاء، وكان لإكتناز عضلاته وقامته المربوعة أثر كبير فى هيبة طلعته لدى الغلام «مُتَوخْ» وما إن وقعت أنظار الشيخ عبدالعزيز على الغلام بحالته تلك حتى إقترب منه، ولاطفه ورَبَّتَ على كتفيه وقاله له.

: حياك الله يابنى، ما إسمك؟ ومن أين أنت؟
: وأسنانه تصطك من البرد، أبقاك الله ياعم إسمى «مُتَوَخْ» واهلى الفلان.
: متى أتيت إلى المدينة؟ وأين أهلك؟
: بصوت متهدج، جئتها هذا الصباح الغير مبارك، معدوم الأهل حيث ماتت أمى فى صغرى وأبى قتل قبل يومين
: لاحول ولاقوة الا بالله، لا، لاياولدى تعوَّذ من الشيطان، إن شاء الله صباح خير وبركة، ويربت على كتف الغلام بلطف و يقول له تعال يابنى معي، إتبعنى، ولما رأى الغلام قد تردد فى المسير معه نزع الشيخ جبة كانت عليه وجلَّلَ بها الغلام وأمسك بيده وذهب به إلى بيته.
: أين ستذهب بى أيها الشيخ؟
: سأذهب بك إلى إخوانك هناك تتدفأ عندهم «وتطلق الريق» معهم.
: ليس لي إخوان بهذا البلد ولاأعرف فيها أحداً، ولم يكلمنى إنسان قبلك منذ أن وصلت إليها فى هذا الصباح.
: لايابنى، إن لك إخوانا ينتظرونك الآن، وإن لم يكونوا إخوانك من أمك وأبيك، إنما هم إخوان لك من عدة وجوه، منها الوضع الذى أنت فيه الآن.

: متمتماً بينه و بين نفسه وقد إختلط لديه الرجاء باليأس «عسى كل خرابة لنا فيها قرابة» من أين جاءونى هؤلاء الإخوان؟

: لم تخبرنى يابنى من هذا الظالم الذى قتل والدك؟

: بصوت متقطع، أسمعهم يقولون إنهم «الفلان» ولم يقتلوا والدى لوحده.

: حسبى الله ونعم الوكيل، حسبى الله على الظالمين، تفضل يابنى أدخل حياك الله وأصلحك، ولما وصل إلى باب غرفة القهوة وجد هناك مجموعة من الصبية والغلمان وقد تحلقوا حول موقد النار يتدفأون فرحبوا به، وأفسحوا له المكان وجلس معهم.

ودخل عبدالعزيز إلى داخل المنزل ونادى بصوته المميز، زوجته حسناء فحضرت مسرعة و وقفت أمامه «سم» ياأبا عبدالله...

: لقد وجدت غلاماً يتيماً ضائعاً فى هذا الشارع وأحضرته معى فلعل لديك ملابس جاهزة له.

: وكم عمره؟

: عمره حوالى سبع سنوات مع أن جسمه اصغر منها.

: لدى الملابس المناسبة له.

: إذا سأناديه لك، فقصيّ شعره ونظفيه جيداً ونظفى جسمه وألبسيه الملابس التى عندك مثل أقرانه وأجرك على الله.

: سمعاً وطاعة.

: يدنف إلى القهوة و يدعو الغلام ويمسكه بيده حتى يسلمه إلى زوجته حيث أوصاها بالإهتمام به وإن كانت لاتحتاج الى توصية. فأدخلت الغلام إلى مكان دافئ وأحضرت المقص فقصت شعر رأسه على النهاية وغسلته بالماء الساخن والصابون النادر وجوده إلا عند فئة قليلة من الناس، ولما نظف تماماً غسلت جسمه بالماء والصابون ثم ألبسته ثوبين قطنيين فوق بعضهما ومن فوقهما جُبَّة صوفيه على مقاسه، وكوفية «طاقية» «وغتره» غطاء الرأس فعقلتها فوق رأسه إلى تحت فكيه ولبس حذاءه، وهنا أحس بالدفء ودخلت الطمأنينة إلى قلبه بعد عناية هؤلاء الأجواد فيه، وتدله على الطريق المؤدى إلى القهوة وعندما دخلها هتف الصبية بصوت واحد يرددون «نَوِّخْ يَامُنَوِّخْ نَوِّخْ» وفسحوا له بالمكان وقام كبيرهم

وقرب له صحن التمر وبدأ يصب له من دلة القهوة وبعد أن أخذ رغبته من التمر والقهوة، قَرَّب له إناء اللبن فشرب منه حتى إرتفعت أضلاعه وعند ذلك إستسلم لنوم عميق فنام فى غرفة مجاورة للقهوة، ينام بها أولئك الصبية، أما الفتيات اليتيمات فإن مكان إقامتهن وجلوسهن داخل البيت عند النساء فى غرفة مخصصة لهن، وعندما حضر عبدالعزيز من السوق سأل عن الغلام، فقيل له إنه نائم، وعندما حان وقت الغداء أيقظوه من النوم وبعد تناول طعام الغداء جمع الشيخ هؤلاء الصبية، وقال لهم: إن هذا أخوكم منوخ وسيعيش معكم وقد أحضرت له فراشاً ودثاراً، وسيكون معكم وأنتم معه، ثم أشار الى منوخ قائلاً: إن هؤلاء إخوانك، صالح، ومحمد، وعبدالله، ومطنى، وسالم، وسعد، وسعود، وفهد، وسليمان، وعلى، وحمود،... يؤشر على كل واحد منهم عند ورود إسمه، وهذا المكان مثل بيوت أهلكم، وأريد منكم ياأبنائى الإلتزام بالسمع والطاعة، وأن يحترم بعضكم بعضا، وأن تتراحموا وتتحابوا فيما بينكم، وأن تؤدوا الصلاة مع الجماعة فى كل الأوقات، وأن تبتعدوا عن كل الطرق والدروب المعيبة كمضايقة الناس والتعرض لهم والتعدى على أبناء الجيران، وأن تلتزموا بالأخلاق الحميدة وأن تتأدبوا بآداب الرجال، فتوقروا الشيوخ، وتحترموا الكبير وترحموا الصغير، وتهتموا بما فيه مصلحتكم من تعلم قراءة القرآن الكريم والكتابة عند الكتاتيب الذين رتبنا موضوعكم معهم، حتى تنشأوا بعون الله على الأخلاق الحميدة والخصال الكريمة، ولكم على تأمين إحتياجاتكم ومتطلباتكم حتى يصبح كل واحد منكم رجلاً يعتمد على الله ثم على نفسه، وعند ذلك سيشق طريقه فى مسالك الحياة التى نكافح ونكدح فيها؛ هذه الخطبة القصيرة ومافى معناها يعيدها الشيخ على مسامع هؤلاء الغلمان والفتية كلما جاء اليهم عضو جديد، وقد قارب عدد كبير منهم سن الرشد، ولكنهم يعتبرون كلمات هذا الشيخ بمثابة النور الكافى لإضاءة طريقهم فى هذه الحياة، كيف لا؟ وقد ساعدهم على إجتياز مرحلة حرجة من حياتهم، فقد أنقذ حياتهم من مغصات الجوع، وأدفأهم من لسعات البرد، وكساهم من ضراوة العرى وآواهم من ضياع التشرد، ودلهم على طريق الهدى، وأرشدهم إلى مسالك الأخلاق؛ رجل هذه إفضاله عليهم، لِمَ لا يطيعوه ويمتثلوا أمره فودعهم وانصرف إلى شئونه

وإنصرم يوم الشتاء، وما أقصر أيامه وأطول لياليه وبعد تناول طعام العشاء، وصلاة العشاء الأخير فى المسجد المجاور لمنزل مضيفهم، وبعد أن أوى كل إلى فراشه فى تلك الغرفة الكبيرة، وجميع هؤلاء الصبية فيها، يمزق ظلامها ضوء سراج معلق بخلال فى عرض الجدار على إرتفاع حوالى مترين لايناله سوى أكبرهم ومن يليه، ومع هذا الضوء الهادئ إنسابت الأحاديث بين هؤلاء الصبية، كل واحد منهم يروى قصة مجيئه إلى بيت هذا الرجل الحنون الجواد، فبدأ الحديث صالح وهو أكبرهم موجها كلامه الى منوخ وذلك ليكون على علم تام بوضع من حوله من الزملاء:

: لقد أتيت إلى هذا البيت منذ ثمان سنوات حينما توفى والدى وأعمامى رحمهم الله بمرض الجدرى ولم يبق لي أحد التجئ إليه سوى الله، فَأتِيَ بي إلى هذا الرجل المحسن، حيث وجدت عنده مجموعة من الصبية كلهم غادروا بيته عندما كبروا وبقيت أنا على وشك الخروج، فجزاه الله أفضل الجزاء.

وانبرى الثانى يقول:

: أما أنا فقد أتيت الى هذا الشيخ بعد أن توفيت جدتى رحمها الله، وكانت تعولنى شرعاً، فأتيت هنا وعمرى عشر سنوات ولى الآن ثلاث سنوات بالتمام والكمال، ولم يبق ممن أعرفهم سوى صاحبنا صالح، أما الباقون فقد تفرقوا وسلكوا دروب الحياة بعد أن ترعرعوا فى بيت هذا الرجل الكريم.

وتابعة الثالث يقول:

: لقد أرسل لي الشيخ عبدالعزيز من يحضرنى أنا وأختى عندما علم أن عَمَّنَا الذى يعتنى بنا قد فارق الحياة بعد سقوطه فى البئر، يرحمه الله، ولم يبق لنا عائل إلا الله، ولنا الآن أنا وأختى مايقارب الثلاث سنوات، إننا بعد مجيئ محمد بأيام قليلة وقد أسبغ علينا شيخنا من معروفه.

واستمر الرابع يقول:

: أتذكر ياصالح متى جئتُ لهذا البيت؟ أعتقد أننى قبل مجيئ عبدالله، لقد حضرت إلى المدينة وعمرى حوالى تسع سنوات عندما أصابت «الحميقة» الحصبة وقضت على معظم أطفال أهل الحي، وأتى بى والدى للمدينة للبحث عن علاج، وعندما ذهب والدى للبحث عمن يعالجنى وطال إنتظارى وكنت فى حالة سيئة، فأخذنى

هذا «الأجودى» إلى بيته وأحسن اليَّ وبقيت عنده حتى شفيت، وقد حضر والدى أثناء ذلك فطلب منه الشيخ أن يبقينى عنده وتحت رعايته حتى أشفى، فوافق، ورحل والدى إلى أطراف العراق، منذ مايقارب ثلاث سنوات ولم يعد حتى الآن.

وتبعه الخامس يقول:

: لقد أرسل إلى والدى الثانى «عبدالعزيز» بعد أن توفى والدى رحمه الله «سنة الرحمة»(١) أنا وابنة عمى فى سني، وذلك عندما لم يبق من أهلنا أحد، إثر ذلك المرض الذى فتك بقريتنا فهلك معظم سكانها وصار لي الآن فى بيت هذا المحسن حوالى سنتين.

وأعقبة السادس بقوله:

: لقد حضرت أنا وابن عمى سعود وعمر الواحد منا لايتجاوز الثمان سنين نريد العمل وطلب الرزق، ونبحث عمن نشتغل عنده بالأعمال التى تناسبنا، وذلك عندما قتل أهلنا وأقاربنا رحمهم الله غدراً من قبل أعدائهم فى المكان الفلانى، وقد كنا نسمع بالمدينة أن بها أعمالاً تناسب كل شخص، فطلبنا من أحد الجمالين إيصالنا اليها مقابل أجر معين، فأوصلنا، وعندما جئنا إلى المدينة وجدناها خلافا لما كنا نتصوره، فلم نجد من نعمل عنده «كصبيان» أجَرآءْ وصادفنا هذا الجواد بعد أن كدنا نموت جوعاً فأحسن الينا وآونا حتى نكبر ونجد من يقبلنا كعمال لديه.

ولحقة السابع يقول:

: أما سبب مجيئى هنا فقد توفيت والدتى رحمها الله وأنا صغير وتزوج والدى بعدها بزوجة شرسة، تقسو علي فى المعاملة فى غفلة من والدى، ولما إستفحل أمرها وأراد والدى صدها عن صلفها خيرته بين بقائى وبقاءها عنده، ولما رأيت الأمر قد وصل إلى هذا الحد فضلت مغادرة المنزل وهربت إلى المدينة، وبقيت ثلاث ليال مشرداً فى اسواقها، حتى وجدنى هذا المحسن جزاه الله خيراً، وها أنذا لديه منذ حوالي سنتين، وعندما جاء والدى ليأخذنى أقنعه الشيخ بإبقائى حتى اكبر وأصير رجلاً ثم أعود إليه.

(١) «الرحمة» تعني الوباء العام كالطاعون وغيره وتسمى مجازاً الرحمة لربما من كثرة من ينتقل إلى رحمة ربه بسببها.

وانبرى الثامن يقول:

: لقد أتيت هذا البيت المعمور أنا وأخي علي عندما ذهب والدنا للغزو، وفي أثناء غيابه توفيت والدتنا بالحمى رحمها الله، وعندما عاد الغزو، لم يعد والدنا معهم رحمه الله، وكانت هناك معرفة بين والدنا والشيخ عبدالعزيز بحكم المعاملات التجارية بينهما وعندما علم بمقتل والدنا أرسل إلينا من يحضرنا اليه للعناية بنا وتربيتنا فى بيته.

وأعقبة التاسع يقول:

: أما أنا فكنت وحيد أبى وأمى اللذان فارقا الحياة الى رحمة ربهما إثر الغرق الذى حل بالبلد فى العام الماضى، عندما إنهدم عليهم المنزل وقد نجوت بأعجوبة، وعندما تجمع الناس لإنقاذ الغرقى تسابق الرجال نحوى لإنقاذى، وكان الشيخ عبدالغزيز مع من فزع فى الحادثه وعندما أنقذونى طلبنى منهم وأخذنى إلى بيته وها أنذا أعيش تحت رعايته منذ ذلك الحين.

وبعد أن سرد كل واحد منهم موجزاً لقصته ومجيئة إلى بيت هذا الرجل الإنسان، طلب أحدهم من منوخ، أن يقص عليهم قصته، فقاطعه صالح قائلاً هذا مخالف للعادة والمألوف لدينا، فلسوف يخبرنا بقصته عند قدوم أول ضيف جديد إلى هذه القهوة العامرة وإن ذلك لقريب جداً.

* * *

وعندما سمع منوخ من زملائه قصص حياتهم ومجيئهم إلى هذا المكان وجدها تشبه قصته، عند ذلك إطمأن أكثر عندما رأى عندهم نفس الظروف والأوضاع التى صادفته، وهكذا يستمر هذا الفيض من اليتامى، فيؤويهم ويحسن اليهم هذا الجواد ليخرجوا من عنده، من مدرسته، من ملجئه المتمثل فى بيته إلى مدرسة الحياة التى ينتظم بها الجميع، وما إن شبَّ منوخ على الطوق حتى برزت عنده روح المغامرة، وتجشم الأخطار، فصار يقوم بمهمات الرجال وهو لايزال يافعاً، ويعد نفسه لما هو أكبر من ذلك، فعندها أصبح يتقد حيوية ونشاطا، ويوجه صحبه إلى الأعمال التى يجب أن يقوموا بها، ورغم أن نَسَبَهُ معروف عند صحبه وعند الناس القريبين منه، إلا أن

الكل أصبح ينسبه الى لقب من قام بكفالته فعرف عند الناس بـ «منوخ الفلان» وأضحى له شأن كبير فى تجارة «مُعَزبة» صاحبه، فأصبحوا يعتمدون عليه فى مرافقة قوافل التجارة، وإيصال الصفقات التجارية، وإستبدالها، والمغامرة فى تجشم الأخطار من أجل الربح فى صفقة تجاريه فريدة، وإحضار السلع الجديدة قبل أن تعرض فى السوق من قبل التجار الآخرين، فعلا شأنه لديهم وبرزت مكانته فى تجارتهم، وفى ذات ليلة ربيعية مقمرة عندما إستراحت قافلتهم فى ذرى عرف دعص رمل ممتد من عروق النفود على مسافة مرحلة من المدينة، طلب من رفيقه فى السفر حَمَّادْ أن يستأنفوا المسير بعد إستراحة قصيرة حتى يدخلوا المدينة قبل طلوع الشمس حتى لايفتح أصحاب الحوانيت دكاكينهم إلا وقد عرضوا البضاعة التى أحضرها منوخ معه لأول مرة، فدار بينهما الحوار الآتى:

: ياحماد، مارأيك لو سرينا الآن واستأنفنا العمل بعدما اخذنا قسطا من الراحة؟ حتى لاتشع الشمس إلا وقد أنخنا رواحلنا فى السوق وأدخلنا بضاعتنا ليتم عرضها مع إفتتاح السوق صباح غدٍ.

: أمرح يامنوخ «وَكُلْ مَطْرُود مَلْحُوق» ما الذي يجعلنا نسرى طول هذا الليل؟ بضاعة إن عرضناها غداً أو بعد غدٍ فلا فرق فى ذلك!.

: «أوْخِذْ يَامأخُوذ»؟! «ياعنك ماأبرد قلبك»؟ ألا تعلم أننا واصلنا السير ليل نهار منذ عشرين يوماً حتى نحوز قصب السبق بعرض هذه البضاعة وبيعها بالأثمان المجزية، وتقول هذا الكلام عند آخر مرحلة من مراحل مشوارنا.

: إترك عنا هذا الكلام ودعنا ننام الليله «وعند الصباح رباح» ونصل الى البلد ضحى الغد ونعرضها فى سوق العصر.

: ألا تعرف أن أمير النهار أوله؟ وإذا لم نعرضها فى الصباح ونبيع منها حتى إغلاق السوق، ثم تتناقل أخبارها الألسن فى تجمعات المقاهى بعد صلاة الظهر، فيقبل الناس عليها فى فترة العصر، فلا يأتى المساء إلا وقد بعنا منها الشيئ الكثير، إن لم نكن قد بعناها كلها؟

: بتثاقل، ماعلى من كلامك!! إننى أريد أن أنام وفى غد خير.

: «عَزِّيْ لِمَنْ أنَتَ خَوِيَّهُ»؟! أتدرى؟ إرفع معي الأحمال على الإبل وأعقل أحدها

عـنـدك بحـمـلـهـا، ودعـنـى أسرى وأنت تنام على عَضُد راحلتك المعقولة حتى إذا شبعت نوماً في الصباح فالحق بي!

: أتتركني في البر لوحدي؟ ليست هذه شيمة العرب؟

: وأنـت، أتَجِدُّ مـن نـشـاطي وطـموحاتي؟ ليست هذه من عادات الكرم؟ أتترك مصلحتي تتضرر بسبب حبك للنوم؟

«مـايهـتـنـى بـالنوم سرحان ذيبه» هيا شد معي على الرحائل واختر واحدة منها تبقى معك حتى الصباح.

: بعد أن رفعوا الأحمال على الإبل، وعقل واحدة منها وسارت القافلة، إضطجع على عَضُدِ الناقة المعقولة وهو يردد بينه وبين نفسه ما أرخص النوم عند منوخ؟ والله لو كـان المـال مـالـه مـاحـرص عـلـيـه هذا الحرص!! إنه مال غيره، ليس له منه إلا التعب والسير والسرى، أما مكسبه فللفلان؟

ولما تـلـفـتـت الناقة، ولم تجد حولها أحد حنت حنين الشوق الى رفيقاتها وبدأت تـتـلـفـت يمينا وشمالاً، وتصغى بمسامعها علها تستأنس بأصوات الإبل وتفتح عينيها جيداً لربما ترا لها جهاما، ثم زادت في حينها، وقفزت بحملها قاطعة عقالها، مطوحة بـصـاحبها بعيداً عنها، حينا قفز بسرعة خاطفه، وبصعوبة بالغة أمسك بطرف رسنها، وأسرعـت مـتجهة صوب القافلة بطلب اللحاق بها، وهي تطوح بصوت حنينها، وهو يـبـارهـا مـاسـكـا بـطـرف الـرسـن يهدئها ويلاطفها، وهي تشق طريقها بكل عزم وتصميم، وماهي إلا فترة حتى جاوبتها القافلة بالحنين، وهنا أيقن منوخ أن صاحبه عزم على اللحاق به، ولما وصله رحب به قائلاً:

: حياك الله، الآن أصبحت الرفيق الصادق.

: لم تـتـركـنـى «المـأخـوذة([1])» أنام، لقد قطعت العقال وقفزت مثل المجنونة وجاءت تحن وتزن حتى وصلتك.

: «بَيَّضَ الله وَجْهَ العَلْيَاء» أنها تعرف المحافظه على حرمة الرفقة.

: بـالله عـلـيـك قل لي بصدق هل هذا المال الذى تحرص عليه كل هذا الحرص أهو مالك؟ أم مال أبيك؟

: عـنـدمـا سـألـتـنـى بالله سأجيبك، إن هذا المال أعزُّ علي من مالى ومن مال أبى،

(١) المأخوذه: الناقة وهذه الكلمة تدل على التضايق منها و يتمنى لها أن يأخذها الأعداء.

وهـذا الـرجـل الذى إئتمننى على ماله، ورعانى منذ صغرى، آوانى يوم كل إنسان يصد عنى، وكفلنى عندما فقدت أبى وأمى، كسانى وأدفانى عندما ضعت بالمدينة طعـمـة للبرد والعري، ربانى وعلمنى على الأمور الدينية والدنيوية، هذه الأمور أنا واثـق كـل الـثقة أن أبى لن يعلمنى إياها، ألا تريدنى أن أخدمه عندما أصبحت قـادراً عـلـى خدمـتـه؟ ألا تريدنى أن أسهر على مصلحته عندما أصبحت مستطيعاً ذلك؟ هذا الرجل أنا مستعد أن أخدمه بكل ما أستطيع مادام رأسى يطرقه النسيم، حتى لو أراد إقتلاع عينيى هاتين، لجدت بهما بنفس طيبة.

: كثر الله خـيرك، وأكثر من أمثالك ولكنه قد أحسن الى الكثيرين غيرك، فلماذا لم يردوا له جميله مثلما فعلت؟

: الرجـل لم يـفعل شيئاً إلى مـن أحـسن اليهم وهو لا يريد منهم جزاءاً فى الدنيا وإنما يـريـد ثـواب ذلـك من عند الله عز وجل، سيجد ذلك عند ربه وأنا لست مـسـئـولاً عن غـيـرى، أمـا فيما يتعلق بي فأنا أحاول رد بعض جميله بخدمته في أعماله التجارية وتصل القافلة في الموعد المحدد، ويتم عرض البضاعة وبيعها كما تـوقـع مـنـوخ، ويـشـاء الله أن يـصـبـح لـهـذا الشاب شأن في أعمال هذا الرجل الـتـجـاريـة، ويـعـطـيه من ماله ماطابت به نفسه عندما أراد الذهاب إلى مواطن قومه، حيث تزوج هناك وأنجب أولاداً لهم مكانتهم في مجتمعهم.

* * *

٨ ـ مساعد الأرامل والمحتاجين [١]

تبتسم نجد فتسحرك بإبتسامتها، وترى الزوغان يكاد ينطق من «رمانتي» وجنتيها والحيوية النابضة المتقدة تحتدم فى شفتيها، والإشعاع المضئ يتموَّج فى خديها، والسحر الكاسح تنفثه أهداب عينيها، أما إذا عبست فتقطيبة وجهها محزنة، ففى تجاعيد خدودها تعشش المصائب، وعلى فمها مذبح الآمال والأحلام، وفى غورعينيها مكامن المكر والخديعة، وفى أنفها خنجر الفقر والعوز المسلط على صدور الضعفاء، هى كذلك وأيم الله، ولكن مايجعلها محبوبة عند أهلها أن إبتساماتها الحلوة، تفوق عبوسها الموجع بقدر كبير، كما قال الشاعر «نَجْدٍ يُسَلِّيْ عَنْ غَثَاهَا عَذَاهَا» وشطر هذا البيت يجسد الصورة الماثلة لها: إذا هى ضحكت أمرع الناس وعاشوا فى رغد من العيش وبحبوحة من الرزق، ونعموا فى ظلال وارف الأرجاء، أما إذا كشرت فإنهم يعيشون فى ضنك من الرزق، قد يقتصر أحيانا على الأعشاب وما فى مستواها، ولكنهم يصبرون و يتحملون، يجالدون و يكابدون لأهوال، وهذه سنة المحِبِّ فى هذا الظرف العصيب حدث مالم يكن عبدالرحمن يتوقعه أو يحدث به نفسه يوما من الأيام ولو على سبيل الإحتمال، أن يعمل خيراً و يتهم بشر و يكاد أن يذهب ضحية سوء الظن، فقد نشأ في بيئة متدينة كادحة تجاهد في سبيل الله للحصول على لقمة العيش الحلال وما إن شب واشتد عوده حتى إشترى له فلاحة مستقلة «حَيْر» من عرق جبينه وقام بغرسها بأشجار النخيل الذى يمثل العمود الفقرى فى الحقل الزراعى، وما أن إستدارت أشجار النخيل فى منابتها «مَخَامِرِهَا» حتى أحاطها بسور طويل بالإضافة إلى ماتبقى من الأرض ووضع ليها باباً، لايدخل هذه الفلاحة سواه مع الصبيان الذين يعاونونه فى أعمال الزراعة، حتى إذا بلغ عُمر ذلك الغرس العقد الأول، كانت ذراه قد أطلت من فوق الجدار، لقد أعطى كل إهتمامه لفلاحته يعمل بها معظم يومه مع معاونيه سوى أوقات الصلاة أو عندما يُسْتَدْعَى إلى بيته لقدوم ضيف الى البيت أو لأى سبب آخر يستدعى حضوره، وماعدا ذلك فقد وجه كل جهده لخدمة هذه

(١) قصة عبدالرحمن بن زيد السويداء جَدّ المؤلف رحمه الله حدثت حوالي ١٣٢٠هـ.

المزرعة، حتى صارت مضرب المثل فى الجودة والإتقان ووفرة الإنتاج، ومن نتاج هذا «الخير» يكتسب رزقه و يأكل رغيف عيشه، حتى إذا جن الليل فإنه يسير على برنامج معين على طول السنة، وهو النوم مبكراً بعد صلاة العشاء الأخير بوقت قصير، حتى إذا مضى من الليل ثلثيه إستيقظ من نومه وقام وأوقد النار ثم توضأ وعمل القهوة وتناول منها بضعة فناجين مع حبات من التمر ثم صلى إثنتي عشرة تسليمة تَهَجُّدٍ متواصلة و بعدها الشفع والوتر، ثم عاد إلى القهوة ليرتشف منها فناجين إضافية قبل آذان الفجر الأول، ثم أيقظ سائق السوانى، ونبه أهله لصلاة الفجر وما إن يؤذن للفجر حتى يخرج من بيته إلى المسجد القريب منه، هكذا ديدنه طول حياته، فى سنوات العسر واليسر بالشتاء والصيف والربيع والخريف لايمنعه عن ذلك سوى مرض ألم به أو سفر طرأ عليه، وعندما إكفهر الجو حولين كاملين بسبب القحط الذى جثم على صدر البلد حينما ماتت الأنعام وقل الزرع وفقد الضرع، واختفت المؤن والأرزاق، وأصبح الرجل يأخذ دراهمه بيده تحت ظلمة الليل و يذهب بها إلى من يَتَوَقَّعُ أن يعطيه بثمنها أى مقدار من الطعام، سواء أكان ذلك حباً من أى نوع أو تمراً من أى صنف، فيعيد اليه نقوده معتذراً أنه لايوجد عنده شئ من ذلك، وتذهب المرأة بحُلِيِّهَا الذهبية بقبضة يدها أو فى علبتها الخاصة لتضعها رهينة عند من تظن أن لديه شيئاً من الطعام، علها تحصل من عنده على قليل من التمر أو الحب لتسد به رمق أطفالها الذين يتضورون جوعاً، وقد طردت تموجات أمعائهم لذة النوم من جفونهم، فبدأت حناجرهم تطوح بأصوات الإستجداء وطلب النجدة، وعندما يعيد ذلك المأمول فيه إلى الأم مصاغها معتذراً بعدم وجود شئ لديه تعود الأم بذهبها الذى لايسمن ولايغنى من جوع، في هذا الوقت بالذات يكون لباب الإحسان والصدقات قيمتها لمن هداه الله حتى ولوكان بالشئ اليسير، ولاسيا عندما بدأ فصل الشتاء، وما أطول لياليه على الساغبين، وما أشد لسعات برده على المقوين، بدأ عبدالرحمن بتفكير جدى لمساعدة هؤلاء المحتاجين وخاصة من لاعائل لهم، كأن تكون أرملة مقطوعة أو عجوزاً أو شيخا خائر القوى، أو أم أيتام لاتملك لهم شيئاً يسد رمقهم، وعند ذلك نادى زوجته قائلاً:

: وضحاء، إننى أريدك أن تشاركينى فى أجر لايجزى به الا رب العالمين.

: سمعاً وطاعة، ماذا تريدني أن أعمل؟ إن هذا عرض مغرى!!

: إن العمل الذى أريده منك أن تخيطى لي كل ليلة عدد من الأكياس على أحجام مختلفة تستوعب من صاع ــ فصاعين ــ إلى ثلاثة وسوف أحضر لك القماش اللازم لذلك.

: أبشر، أبشر، طلبك على العين والرأس، ولكن ماذا تريد بها؟ وهل أنال أجراً من وراء خياطة أكياس من القماش؟ لماذا لانخيطها ملابس ونوزعها على الفقراء والمحتاجين.

: لاأحسب أنك مستعجلة بهذا القدر!! إن هناك ماهو أهم من ذلك!! إن هناك اليتامى، والأرامل، والعجائز والشيوخ الذين يبيتون على لحم بطونهم و يتمنون لقمة من طعام تسد رمقهم فلا يجدونها.

: وماذا ستفعل بهم؟

: إننى سوف أمدلهم يد العون بقدر إستطاعتى.

: ولكن هل عندنا مايكفى لهذا الأمر؟

: عندنا بركة الله، نوزع مما عندنا على مستحقيه حتى ينفذ، وربما فرجها الله قبل ذلك، ألم تعلمى أن مع العسر يسراً؟

: ولكن ألا تعلم أن الناس فى مسغبة ومتى علموا بأن لدينا شيئاً من الطعام إنصبوا علينا ولن يكفيهم ماعندنا.

: إن فيه البركة وسنقدم منه للمحتاجين حتى إذا انتهى فهذا عذرنا من الله، فلا يجوز لنا أن نبيت شبعى وجيران لنا جياعاً فتوكلى على الله وأعملى ما أقول لك.

: سمعاً وطاعة، وإن لدى الآن مجموعة من الأكياس الفارغة وربما أستعين بأسمال الملابس النظيفة لأجهز منها مايمكن أن نبدأ فيه الليلة حتى تحضر القماش اللازم فى يوم غد.

: ونعم،! لقد أحسنت صنعاً، «وهَذِه هَقْوَتِي فِيْكِ». وأحضرت وضحاء المقص، والإبرة، وشريحة من القماش الجديد تهل من نسيجها الأسلاك «مِسْلكَةُ» وجلست بجانب ذبالة الإضاءة تنسل من أسلاك القماش وتبرمها لتخيط بها الأكياس حسب الأحجام المطلوبة، وما إن خرج زوجها من صلاة العشاء الآخر حتى

جهزت له بضعة أكياس من الأحجام المناسبة فقدمتها اليه قائلة.

: هذه الدفعة الأولى إلى أن تحضر القماش غداً فنبدأ بالجديد.

: يضحك مسروراً «ألبسك الله ثوب العافية» و «متعك فى نظرك».

* * *

ولم تكن أبواب منازل أهل القرى من الإحكام والإتقان بحيث يصعب فتحها، إذ غالبا ما تكون من أبواب مصنوعة من شرائح الخشب أو شرائح سيقان النخل «الشطيب» ولها رتاج «ضَبَّةْ» مثبته من داخل الباب لها لسان يدخل فى ساريته عند إغلاقه، ولها مفتاح من الحديد أو الخشب المصنوع يدخل فى رأس اللسان مع مجرى خاص يوجد به ثقوب لدخول «الغَلَقْ» وهى قضبان قصيرة من الخشب متحركة ومنظومة فى بكرة مثبتة فى رأس الرتاج «الضبة» وعند وصول ثقوب اللسان إلى هذه القضبان تسقط فيها محدثة إغلاق الباب ولاتفتح حتى يأتى اليها المفتاح بأسنانه الطويلة فترفع ذلك الغلق عن الثقوب فتنجذب سلة الرتاج، ولكل باب مجرئ يُدْخِلُ المرء يده معه وبها المفتاح فيدخله فى موضعه و يعالجه بالرفع والخفض والحركة حتى ينفتح الباب، وغالباً مايترك مفتاح الباب فى داخل الرتاج، أو يعلق فى عصا الباب الداخلى، أو قريبا منه بحيث يكون بمتناول يد الشخص الذى يريد فتحه من خارج البيت، وقد يرفع بعيداً من ذلك إذا لم تكن هناك رغبة لفتحه إلا بإذن أهل الدار، وما إن بسط الليل رداءه الأسود جالباً معه البرد فى إطاره اللاسع حتى دخل كل إنسان إلى بيته والتجأت كل دابة الى مخبئها، ولم تمض السويعات الأولى حتى توقفت الحركة وإنقطعت تماماً، وأمست الأسواق شبه مهجورة، في الوقت الذى هبت فيه الرياح وكأنها تعزف «سيمفونية» الإستسلام ولم يبت تلك الليلة عبدالرحمن إلا وقد عبأ تلك الأكياس التى قد جهزتها له زوجته بالتمر، وكان يستعين بها لمعرفة المستحقين فعلاً من هم أكثر إستحقاقاً للمساعدة، وبالأخص أولئك الذين لايسألون الناس إلحافاً، وعلى ضوء تلك الذبالة الراقصة بالقرب من الكانون الممتلئ بالجمر المتلظي تم إستعراض مجموعة من الأسماء كونت قائمة سرية لايعلمها إلا الله، ثم عبدالرحمن وزوجته، لم تكن تلك القائمة مكتوبة ولكنها محفوظة بالعقل حسب ترتيب

مواقع بيوت أصحاب هذه القائمة التى سيبدأ عبدالرحمن عمله الإنسانى بها. وما قد يضاف إليها مستقبلاً من الأسماء الغائبة عن الذهن فى تلك الساعة وأخذ النوم منها مأخذه ولما حان موعد استيقاظ عبدالرحمن كالعادة نهض من فراشه وتوضأ وصلى كالمعتاد، ثم أخذ تلك الأكياس المعبأة بالتمر الذى لايكاد يوجد إلا عند قلة من الناس وتلثَّم وتَقَنَّعَ بعباءته الصوفية فوقها لتقيه شر لسعات البرد، ثم دَلِفَ مع الشارع المقفر من أى حركة، الصامت من أى صوت، سوى صوت صفير الرياح تناوح شرفات المنازل، وقعقعة الأبواب غير الثابته تداعبها الرياح وبدأ يُدْخِلُ يده مع مجرى الباب فإن وجد المفتاح فتح الباب ووضع الكيس من داخل الباب ثم أعاد إغلاق الباب كما كان، وإن لم يجد المفتاح طرق الباب حتى إذا فتح صاحبه وبدون أن يتكلم أدْخَلَ عليه الكيس وأعاد رد الباب إلى وضعه بدون أن يعلم صاحب المنزل من هو ذلك الانسان الذى أدخل عليه الكيس وذهب دون أن يَنْبُسَ بكلمة واحدة وعندما أتم عبدالرحمن توزيع الأكياس التى معه بغير علم أحد من الناس عن هويته عاد إلى البيت فرحاً مسروراً بتنفيذ أول خطوة من عمله الخيرى، وقد وجد من إستيقظ على طرق الباب تلك التميرات التى ساقها الله اليه تحت جنح الليل بيد ذلك المحسن المجهول، أما من لم يَصْح من نومه إلا مع آذان الفجر أو لم يَأتِ الباب الخارجى إلا مع طلوع الشمس ممن تركوا المفاتيح على الأبواب فقد وجدو اكيسة التمر مُسْنَدَة على سارية الباب الداخلية، وقد عمرت الفرحة أفئدة عدد من المحتاجين فى ذلك الصباح حيث تناولوا الفطور من حلوى الغيد المجللة بالدبس، وتلك فاكهة لا تتوفر فى كل الأوقات، أما عبدالرحمن فعندما عاد الى بيته وجد زوجته فى إنتظاره بقرب كانون النار وعندما تدفأ على صلو الجمر ناولته فنجانا من القهوة التى عملتها أثناء غيابه القصير عن البيت ومع القهوة تناول حبات التمر «القدوع» دار الحديث بينهما.

: هاه!! بَشِّرْ، عسى أن تكون وجدت من ذهبت إليهم؟

: كما تعلمين أن الجو بارد وكل إنسان قد دخل فى أقصى بيته وتدثر فى كل ماعنده من أغطية لإتقاء البرد، ولو فتحت بيته وأخذت كل مافيه فمن المستبعد أن ينتبه إلي، ولكن لحسن الحظ أننى وجدت اكثر من قصدت قد تركوا المفاتيح فى

أماكنها فاستطعت فتح الباب دون عناء ووضع ماقسم الله لهم داخل المنزل وأغلقت الباب مرة ثانية، وهناك أناس آخرون قد طرقت عليهم الباب حتى إذا أجاب صاحب البيت وفتح أدخلت مامعى اليه ثم رددت الباب بيدى ليغلقة هو بنفسه.

: لماذا فعلت هكذا؟ ألم يعلم أحد من أنت؟

: لم أرد أن يعرف أحد من أنا، ومْادمت لا أريد أهل المنزل إلا بخير فلاضرورة أن يعرفونى، المهم أن يصلهم ماقسم الله لهم وكفى.

: لماذا أخفيت نفسك هكذا؟ والأمر لايعدوا كونه صدقة على المحتاجين؟

: بإستغراب!! ألا تعلمين أن أفضل الصدقات ما أحيط بالكتمان؟ ألم تسمعى الحديث الشريف القائل «أفضل الصدقة ألآتعلم شمالك ما أنفقت يمينك»؟

: صحيح ...صحح، معك حق، جزاك الله بمقدار عملك وعلى إساس نيتك!

: والله ياأم فلان لو تعلمين بشعور إنتابنى، وإحساس غمرنى عندما رفعت العجوز فلانة يديها إلى السماء ولسانها يلهج بالدعاء لمن أتاها بهذا الرزق فى حندس الليل المظلم، وقد أحسست بشعور غريب ينزعنى بروحانيته، فكدت أطفح وأطير من فوق الأرض عند سماعى لتلك الدعوات، وأرجو الله أن يقبلها منها. آه ماأجمل لذة المساعدة، وما أسعدنى الليلة حينما شعرت أننى أدخلت شيئا من السعادة على مجموعة من الأرامل والعجائز والشيوخ والمحتاجين.

: لاخيب الله رجاءك، وقبل منك ماتقدمه لآخرتك. ومع آخر هذه الدعوات إرتفع صوت آذان الفجر وبإنطلاقة صوت المؤذن إنقطع الصّمت الرهيب الجاثم على القرية وذلك ببدء سائقى السوانى بنزف الماء من الآبار، وبدأت المحّالُ تعزف ألحانا شجية مطربة، يصحبها أحيانا أصوات غناء السائقين، وصاحت الدّيَكَةُ البلدية بأصواتها العذبة لِتُنَبِّهَ من غط فى نومه إلى قرب موعد صلاة الفجر، حيث لم تكن ساعة المنبه موجودة آنذاك، وكان إعتماد الناس على صياح الدّيَكَةْ ومواقع النجوم، وهكذا إستمر عبدالرحمن كل ليلة يعبئ مجموعة الأكياس المشار إليها بالتمر أو بحب القمح والشعير المخلوط «بَغِيْثْ» وتوزيعه فى بداية الثلث الأخير من الليل دون أن يعلم به أحد بعد أن يؤدى صلاة مجموعة من تسليمات التهجد، وقد قسم

القائمة التى حفظها بذهنه إلى قسمين قسم يعطيه هذه الليلة، والآخر يعطيه فى الليلة القادمة و يشكل الصدقة بحيث يجعلها تمراً وفى القادمة حباً وهكذا دواليك.
وشعر جيران تلك الأرملة التى تعول خمسة أطفال قد قُتِلَ أبوهم فى أحدى الغزوات دون أن يترك لهم شيئاً يعيشون منه، فكانوا عبئاً ثقيلاً على عاتق والدتهم التى هى بدورها لاتملك شيئاً سوى ماتناله من أقاربها ومايجود به ذوو الاريحيات الكريمة من مَدٍّ بين الحين والآخر، لاحظ هؤلاء الجيران أن هناك طارق يقرع بابها فى آخر الليل بشكل منتظم ليلة بعد أخرى، وأحيانا الليلة الثالثة، ولما كان بعض الناس أول مايتبادر إلى ذهنه إحتمال الشر حتى يشاهد بوادر الخير، فقد ظن هؤلاء الجيران أن من يطرق بيت المرأة فى آخر الليل يريد بها سوءاً، ولم يراقبوا الموقف ليتأكدوا من ذلك، بل إنهم بنوا على ظنهم يقيناً، وكان للمرأة أقارب فى أحد جوانب القرية، عند ذلك سعى أبو الجيران بالوشاية سراً إلى أقارب المرأة مخبراً أبناء عمها أن هناك رجل يطرق باب قريبتهم فى آخر الليل بشكل دائم وأخشى أن يكون فى الأمر ماريب، وبحكم الجيرة أردت إخباركم بذلك لتكونوا على علم بالوضع قبل أن يقع شيء لاتحمد عقباه فوقع كلام ذلك الجار على سمع فُرَيْح، وسَعْد، أبناء عمها موقعاً موجعاً، واستفسرا منه عن هوية ذلك الطارق؟ والوقت الذى يأتى فيه؟ وهل يشاهده يدخل البيت؟ وماهى حاجته فأخبرهم أنه يجهل كل شيء إزاءه، إلا أنه يأتى فى حوالى طلعة النجم الفلانى و يطرق الباب وغير ذلك لايعلم عنه أى شئ، وأن هذه الليلة هى موعد مجيئة، وعند ذلك إنصرف من عندهم، وهنا تَحَفَّزَ الشابان وغلت الدماء فى عروقهما فدار بينهما هذا الحديث:

: فريح، ماذا ترى فى هذا الموقف؟ تُرَى من هذا الذى تجرأ وطالت خطوته، ومَدَّ يده على محارمنا؟ وهو لايجهل مكانتنا!!؟

: فقال له فريح: إننى لاأستطيع الإجابة، ربما يكون غريباً، وإلالوكان من أهل البلد لما حدثته نفسه على الإقدام، أو لمجرد التفكير بما يفعل الآن.

: من غير المحتمل أن يكون غريباً، لأنه كما يقول فلان يتردد دائماً وهذا يدل على أنه من السكان المحليين.

: مادام يعرف مكانتنا وتعدّا على من يمت إلينا بصلة، والله لأقتلنَّهُ شر قتلة.

: ذلك لك: إن أفلت من يدى قبل أن أشفى مايعتلج بصدرى منه، وأقطعه إرباً إرباً.
: متى يجئ الليل لأكمن له بالقرب من المنزل أو بداخل المنزل حتى إذا جاء هجمت عليه، وانتزعتَ روحه من بين جنبيه.
: كيف سمحت فلانة لذلك الغريب بالولوج إلى بيتها فى تلك الساعة المشبوهة؟ وهى تعلم أننا وراءها!!، هاه، سنقصم ظهرها قبل أن تلبسنا ذلك الثوب المشين.
: ربما لايكون لها ذنب فى ذلك، فقد يكون أرغمها أو أغراها؟
: إنها شريكة فى الذنب، ولو لم تكن كذلك لما فتحت له الباب. وفى هذه اللحظة يدخل والدهما حامد و يسلم على إبنيه فيرى علامات الإمتعاض والتحفز على وجهى إبنيه، و يلمح سحابة قاتمة على جبين كل منهما فيسألهما.
: باستغراب!! مالي أرى وجهيكما وقد تغيرا؟ عسى أن يكون فى الأمر خير؟
: نرجو أن يكون خيراً ياأبى، تفضل واجلس معنا.
: اذا كان الأمر صحيحا فهو بعيد عن الخير، إنّه شرٌ وعيش مرٌّ!
: أخبرانى ماذا جرى؟
: لقد جاءنا هذا الصباح فلان وهمس فى آذاننا بكذا وكذا وسرد الخبر المنقول اليهم من جار إبنة عمهم.
: وماذا أنتم فاعلون؟
: سننتقم من ذلك المعتدى المجهول الذى سيلبسنا السواد بعد أن كانت صفحتنا بيضاء بين الناس.
: أهذا رأيك الأخير؟
: وليس لى رأى سواه.
: وأنت ياسعد ماذا ترى؟
: ليت أخى يترك لى هذه المهمة لأخطف أنفاس ذلك المجرم بحقنا.
: وقد إتكأ على عصاه وجعل رأسها بين حاجبيه وأطرق مليا ثم قال: أنكما مخطئان، إذا كان هذا تفكيركما، أتريدان أن تجعلا من سمعتنا علكاً تلوكه الألسن فى المجالس والمنتديات؟ إن فلانة أكبر مما تتصوران، إنها من معدن طيب، وقد تربت

تربية حسنة، وهى من رجاحة العقل، وتقدير الأمور مايجعلها تجتنب أي طريق فيه شبهة، ثم إنها أعانها الله فى وضع لاتحسد عليه من الحاجة والعوز لإطعام أبنائها الذين هم مثل أفراخ القطا فى حجرها.

: لماذا ياأبى كل هذا الدفاع عن الموقف وأنت لم تر شيئاً ولم تسمع عن شيئ.

: وأنتم لماذا كل هذا الهجوم والتصميم على الإنتقام قبل أن تتبينوا الخبر؟ فلربما كان الطارق يريد بها خيراً، ولو كان غير ذلك لطلبت منكم النجدة. إن فلانة ذهب إبريز، أنا أعرفها يا أبنائى.

: يافريح، إن أبى على حق فيما يتعلق بضرورة التأكد من الخبر قبل الإقدام على أى عمل قد يكون من شأنه الإضرار بنا معاً.

: أنا سأذهب اليها الآن وأستوضح منها الخبر وهى لاتخفى علي شيئاً وسآتيكم بالخبر اليقين.

: إنى أنا شدك بالله ألا تذهب اليها حتى نتأكد بأنفسنا لأن جارهافلان يتكلم بملء فيه عن هذا الزائر الغريب، ومتى تأكدنا بأنفسنا نستطيع أن نضع بفمه حجراً، يُطْرِق الشيخ مليًّا يرفع رأسه قائلا.

: لكم ذلك ياأبنائى ولكن على شرط ألا يحدث منكما أى شيئ قبل أن تعطونى كامل التفصيلات عما تشاهدان، فإن كان الطارق يريدبها شراً وهو كما تقولان يأتى بأوقات منتظمة، فسنظفر به فى المرة القادمة، وإن كان غير ذلك فلكل حدث حديث، على أن يبقى الأمر طيَّ الكتمان حتى يتضح الموقف.

ويتفقون على هذه الخطه حتى إذا لَفَّ الليل الكون بستاره القاتم ومضى من نصفه قدم الأخوان وهما يمشيان على رؤوس أقدامهما متوجهين إلى المكان فى ذلك الوقت الذى لايوجد بالشوارع أى حركه، خاصة فى تلك الليالي الشاتية، وتحت ستار الظلام كَمَنَ الشابان بقرب باب منزل قريبتهم وكل واحد منهما قد تمنطق بكامل سلاحه، وتمُرُّ الدقائق ببطء أيام السنة، وتسحب ساعات الإنتظار صلبها الثقيل من فوق صدرى الرجلين، حتى إذا قرب الموعد وإذا بخطوات ثقيلة لها وقع مؤثر على الأجزاء الصلبة من الشارع قد قدمت اليها، وهنا تحققا من شيئ واحد، هو وجود ذلك المجهول ويجرى الهمس الخفى بينهما.

: أنظر، جاء الرجل إن خطواته ترزح على الأرض رزحاً.

: لقد قرب منا، حدق بعينيك جيداً، علنا نعرف وجهه، أو بعض ملامحه على الأقل.

: إنه كرة سوداء، يغلفها ظلام الليل، فلم أستطع أن أرى منه أى شيئ رغم بحلقتى بعيني.

: هاهو دنا من الباب، إنظر، إنظر، إنه بدأ يحاول فتح الباب!!.

: هل أطلق عليه النار!!؟ والله لن ينجو منى!!

: ألا تذكر كلام أبى؟ إن مهمتنا الليلة إستطلاعية فقط. وهذا السلاح الذى معنا هو للدفاع عن أنفسنا وليس للهجوم.

: إنه لم يستطع فتح الباب، ربما لم يجد المفتاح، إسمع لقد بدأ يطرق الباب بعصاه الغليظه التى يتوكأ عليها.

: إسمع صوت صرير الباب الداخلى، وهذا يدل على أنها ستفتح له، إسمع!! إنها تقول من بالباب؟ لقد نغط الرجل بكلمة أعتقد أنه يقول «أنا».

: والله وبالله وتالله لأطلقن عليه النار، إننى لاأستطيع صبراً، لقد وصل قلبى إلى حنجرتى.

: هدىء نفسك والتزم بكلام والدك. ويُفْتَحُ الباب بمقدار بسيط، وتبدو من الرجل الغريب حركة تدل على أنه قد وضع شيئاً مما معه، ثم يُغْلِقُ الباب مرة أخرى وتوصده المرأة، ويستأنف الرجل مسيره دون أن يدخل، ويسمعان صرير الباب الداخلى بعد أن أغلقته خلفها.

: لنذهب الآن وراء الرجل ونمسكه ونسأله من هو؟ ولماذا أتى فى هذا الوقت؟ وما الغرض من مجيئه؟

: ألم أقل لك أن مهمتنا الليلة إستطلاعية فيما يتعلق ببيت قريبتنا وليس لنا علاقة فيمن سواه.

: سأذهب وراءه. هيا نذهب سويا.

: ولكن لنكن على حذر حتى لايشعر بنا وتكون مراقبتنا له من بعيد وَدَبَّتْ خطواتهما مع الشارع علها يدركان الرجل ولكنه قد زاغ عن أنظارهما فى ثنايا تلك الشوارع

الضيقة المتعرجة واختفى ولم يتمكنا من مراقبته أو متابعته لمعرفة مكان عودته لأن سعداً ثنى أخاه عن الذهاب بعيداً عن الهدف المرسوم.

: لنعد إلى فلانة، ونطرق عليها الباب لنسألها عن هو ية ذلك الرجل.

: لا أوافقك على ذلك، وأرى العودة إلى والدنا وإخباره بما رأينا، ومادام الرجل لم يدخل المنزل فكل أمر قد هان بالنسبة لنا وعاد الشابان إلى منزلها لينقلا لوالدهما صورة واضحة عما شاهدا، وعندما قَصَّا عليه واقع ماحدث تبسم ورَبَّتَ على كتفيها وقال: لقد أحسنتما صنعا يابنى فيما فعلتما، أنا سآيتكما بالخبر اليقين غداً إن شاء الله، أما الآ ن فتصبحون على خير، وانصرف كل إلى فراشه بطلب النوم.

* * *

ومع انبلاج الصباح و بعد بزوغ الشمس وإنتشار خيوط أشعتها الدافئه على الأرض، إنطلق الشيخ قاصداً بيت قر يبته دون أن يظهر عليه أى شيئ يدل على مايعتلج فى صدره، ومايريد أن يعرف غوره، وعند وصوله إلى منزلها طرق الباب كعادته، فاستقبلته بالبشر والترحاب.

: أهلاً وسهلاً ياعم، أسعد الله صباحك تفضل، أدن من موقد النار وتدفأ على هذا الجمر، إن برد هذا الصباح قارس.

: حقا، حقا، يابنتي، إننى أشعر بأصابع يدى تكاد تتجمد، فلقد أتيت هذا الصباح لأوصِّي راعي الغنم بالإنتباه لأحد شياهنا التى يمكن أن تلد هذا اليوم، وقلت فى نفسى أمر عليكم للسلام والإطمئنان على صحتكم، و يبدأ بالتَّصَلِّي على النار، بينما وقفت سارة فى حيرة من ا مُرها، إنها لاتملك القهوة التى تعملها لعمها وهى مشرو به المفضل، وتتذكر ماذا تقدم له، ثم تذكر أن لديها شيئاً من التمر الذى أعطاه إياها ذلك المحسن المجهول، فغابت قليلاً، ثم أتته بطبق فيه تمر، وتعتذر إلى عمها.

: إعذرنى ياعم، لم أستطع عمل القهوة لك لأن دلال المرحوم من مدة طويلة لم يعمل بهن قهوة ولذلك فهن «هَاجِرَات» ولكن تفضل على الميسور.

: ماشاء الله، بسم الله وعلى بركَة الله، هذا تمرا! من أين لك؟

: هـذا رزق سـاقه الله تحت جنح الليل لهؤلاء الاطفال، فوالله ياعم إنه لم يقرع سنى منه واحدة، وإنما أتركه للصغار أسكتهم فيه إذا صاحوا، وأنت على كل حال أغلى منهم.

: وهـو يمضـغ أول تمرة منه، جزاه الله خيراً هذا الذى مَدَّ اليك يَدِ المساعدة فى هذا الوقت العصيب، ياترى من يكون يابنتي؟

: وأنـا أشـاركـك الـدعاء له بحسن الجزاء، ولكنى والله ياعم لا أعرفه حتى الآن فهو يـأتـى بيتى قبل آذان الفجر الأول ليلة بعد ليلة وأحيانا بعد ليلتين و يطرق الباب فـإذا فـتحـت الـبـاب أدخـل الىَّ كـيـسـا مملـوءة بـالتمـر مثلما ترى أو مملوءة بحب «البَـغِـيْـثِ» و يـعـيد إغلاق الباب بيده، وذلك منذ مايز يد على شهر ين، وبمقدار ماحرصت على معرفة هو يته، إلا أنه لايتكلم بكلمة واحدة وقد تلثم وأخفى ملامحه تماماً حتى لايعرف.

: غـر يـب أمر هذا الرجل المحسن، حتى ولاير يد أن يعرف إسمه ليشتهر عند الناس بالكرم والمروءة!!

: ولـست أنـا الـوحـيـدة الـتى تنال من أفضال هذا المحسن، بل هناك الكثيرون ممن يـعـطيـهـم مثلى، لقد سمعت من فلانة وفلان وعددت الأسماء أن نواله يصل اليهم، بنفس الوقت والصنف.

: أجزل الله له الثواب، ولكن ألم تعرفوا من هو؟

: سمعت أن فلانا تابعه ذات ليلة من بعيد حيث دخل الى بيت فلان.

: يهز رأسه، هـو، هـو، هـو، إنـه قـر يـب مـن كـل أعمال الخير، بارك الله له فى المال والـبـنين، و يـتـنـاول حـامد شيئاً من التميرات الموضوعة أمامه، وفى نفسه أن يأكل المـز يـد منهـا ولـكـن مـنـع نفسه عنها لتركها لهؤلاء الاطفال وإنما أخذ منها بمقدار مـايـسـمـح نـفس سارة، ثم دار الحديث فى شئون أخرى ومكث عندها قليلا حتى أيـقظت أبناءها وغسلت وجوههم وألبستهم ملابسهم ثم سلم عليهم الشيخ وظهر من عـنـدهـا وكـأن شيـئـاً لم يكن، عاد إلى أبنيه وكانا ينتظرانه على أحر من الجمر، وذلك ليوافهم بالنتيجة، وعندما دخل عليهما التفا حوله فى تحفز باشتياق بعدما لحا فـى محـيـاه الإطـمـئنان واليقين، فقال لهم: أبشروا ياأبنائى فكل شيئ على مايرام،

لقد فهم جار سارة خطأ، لقد أخبرتني بكل شيئ، وقص عليها ماعلم منها. وهذا محسن مَدّ اليها وإلى امثالها من الأرامل والأيتام والعجائز والشيوخ والمحتاجين يد العون والمساعدة فى هذا الظرف الصعب، لايهدف من ذلك سوى طلب الأجر والثواب من الله، فبادره سعد، ومن يكون ذلك؟ فأجابه إنه مساعد الأرامل والمحتاجين، إنه عبدالرحمن!! ولكن إذهب الآن وأتنى بفلان جار سارة لأطلعه على تفاصيل الموضوع خشية أن تتسرب أخبار من أفواه النساء تبنى عليها أشياء وأشياء. أما عبدالرحمن فلم يعلم بأنه تعرض للقتل فى مسعاه الإنسانى النبيل إلاَّ بعد فترة من الزمن وبعد أن زالت تلك الكربة عن الناس.

٩ - كنز والدها فثال القهوة *

فى بيئة ترى المروءة سجية، والكرم نهجاً، وهما يمثلان اللحمة والسدو لنسيج وشائج ذلك المجتمع، و يعتبران ضرور يان لإستقامته، حيث يعتمد قطاع غير قليل من الناس على هذه العادات الحميدة وأمثالها ففى بيت الكريم يأوى الضيف المتعب الذى أنهكه السير ودوَّخه السُّرىَ على ظهور الدواب من إبل وغيرها فيجد الراحة والطمأنينة والطعام والشراب والدفء فى أيام الشتاء الباردة، فيطعم و يرتاح، يغادر بيت مضيفة إلى سبيله، تاركا سداد فاتورة الإقامة والطعام والشراب وهى جملة «أنعم الله عليكم» أو «خلف الله عليكم» التى وإن كان لايوجد لها رصيد فى مصارف الحياة الدنيا، إلا أنها مدخرة نامية لدى رب العالمين، تنتظر قدوم صاحبها، فى هذه البيئة نشأ «ناصر» شاباً كريما مضيافاً، تعلو البسمة جبينه، وتنفرد أسارير وجهه إذا رأى الضيوف قد أناخوا مطيِّهم عند بابه الذى لايخلو منهم طول الوقت كما أشار بذلك أحد مادحية بقوله:

١١ مَـا قَـالْ بِـالْـوَزْنَـةْ لِـراَعِ الـرِّيَـال   يَـفْـرَحْ لِيَـا قَـالُوْا وَرَا البَـابَ خِـطَّار

وتنطلق كلمات الترحيب من شفتيه إذا قابلهم وجها لوجه، و يشعرون بالراحة والاطمئنان إذا وقعت أنظارهم على محياه، وتُعَطِّرُ أنوفهم رائحة القهوة المحمصة إذا دنوا من غرفة القهوة، حيث يرتشفون من القهوة مايز يح عنهم أثر التعب ووعثاء الطر يق، يتناولون معها من التمر مايفتح شهيتهم، و يطعمون من زاده الميسور مايذهب عنهم لسعات الجوع، ومن عادة الكرماء أن يضعوا فثال القهوة المطبوخة عند باب غرفة القهوة من الخارج أو قر يب منه وذلك كشاهد على مايحرق و يطبخ من هذه المادة التى تعتبر واجهة الكرم العربي، مع العلم أن لكل ضيف إعتباره حسب مكانته الإجتماعية فى قومه، هذا الرجل المضياف لم تكن له أرصدة نقدية أو موارد ثابتة يصرف منها، سوى ماتنتجه مزرعته من حبوب، وثمار نخيله من تمور، ومواشيه من ذبائح فهو يكدح و يتعب مع عائلته ومعاونيه بكل جد وإخلاص، ليقدم نتاج عرقة

* قصة ناصر بن موسى الحيلان حدثت عام ١٣٣٠هـ.

لأولـئك الضيوف مع إبتسامة عريضة، لايرجو من ورائها إلا المحافظة على هذه الجِبِلَّة التى حباه الله بها، والطمع فيما يدخره الله له من الأجر والثواب، وقد إشتهر بهذه الخلة الحميدة فى محيط المنطقة التى يسكنها، وذلك حسب الضيوف والمسافرين الذين يغدون عليه و يروحون ونظراً لأن المنطقة التى يسكنها كانت بالقرب من ممر القوافل التجارية والحجاج القادمة من العراق وفارس وماوراء النهرين فقد ساعد هذا الوضع على إتساع دائرة شهرته حيث غطت الآفاق، وإشتهر خارج منطقته، ولما كان الأعاجم لم يألفوا طريقة الكرم العربى فقدها لهم ذلك، وبدأ عدد كبير منهم يتحدث عن هذا الرجل بفخر وإعتزاز، لدرجة أن بعضهم ممن يقدر هذه الناحية كان يحترم كل أهل المنطقة التى بها هذا الرجل، وإستمرو صنعه على هذا الحال فى سنوات العسر واليسر، ولكل ظرف ماينناسبه، ففى سنوات الشدة يلجأ إليه بعض المحتاجين ممن لايجدون مايأكلون ليجدوا من نواله مايذهب عنهم غائلة الجوع، وقد يأتون إليه من القرى المجاورة على هيئة ضيوف ليأكلوا مما يقدمه لهم، وقد بارك الله له فى الرزق من إنتاج مزرعته التى يساعده فى إدارة شئونها اخواه اللذان يصغرانه سنا ومع إستمرار الوقت ودوام الرجل على نهجه إمتدت اليه السنة المغرضين بدافع من الحسد على المكانة التى تسنمها والصيت الذى أحرزه كما قال ابو الطيب المتنبي

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

* * *

وكثيراً مايكيد الحساد لذوى المكانة العالية، سواء فى المركز الإجتماعى، أو الكرم والمروءة وغيرها من الخصال الحميدة، وذلك إما بايجاد المثالب والعيوب للتقليل من شأنهم والنيل منهم، أو التأثير عليهم بواسطة من هم تحت كنفه بالايحاء إليه بشتى الأقاويل التى تجعل منهم عنصر إزعاج له فى حاضره وربما فى مستقبله بالرغم من أنهم غير مدركين ذلك، ولكن مع كثرة تكرار هذه الأراجيف التى لا تمت إلى الحقيقة بصلة فقد تؤثر على البعض، ولذلك دَبَّتْ عقارب الحسد هامسة بالوشاية فى تلك الأذان المصغية لمثل هذه الأمور، وذلك للتقرب بهذه الوشاية من الوزير المختص، الذى بدوره إمَّا أن يبت فى الأمر بنفسه أو يعرضه بطريقة مستساغة على المسئول

للحصول منه على الموافقة لتنفيذ مآربه، ففى صباح ذلك اليوم الخريفى المعتدل جاء «س» الى مكان الوزير واستأذن عليه، لخبرمهم يحمله بين أذنيه، فأذن له ودخل فأجلسه إلى جانبه:

: أسعد الله صباحك «ياطويل العمر»!

: وصباحك، هاه، ماذا لديك من الأخبار.

: لديّ خبر وإن كان يبدو بسيطا وساذجاً لأول وهله، إلا أن المتمعن فيه يجده من الأهمية والدسامة بمكان.

: ماهو هذا الخبر الذى جعلته ضخماً لهذه الدرجة؟

: ناصـــــــر.. ..!!

: ونعم الرجل، ولكن ماذا فعل؟

: ألا تعلم أن سمعته قد تعدت المنطقه بكاملها، وبلغت الأمصار طولاً وعرضاً؟

: تقصد أخبار كرمه؟

: نعم أخبار كرمه، وهل تستهين بها؟

: كثر الله خيره، وأكثر من أمثاله، فقد خدمنا ورجالنا الذين نرسلهم فى مهمات مستمره، يعودون منه وألسنتهم تلهج له بالثناء العطر، بالإضافة إلى الغادى والرائح من الضيوف وعابرى السبيل، يضيّفهم ويحسن إليهم وبذلك «يقود وجيهنا عند الأقارب والأجانب» ولا أرى فيه أي شيئ؟

: الخوف من هذه النقطه، وإذا لم تفكر فيها جيداً فعليك أن «تلمس رأسك أهو عليك أم لا؟»

: بعد أن يعرك جبينه ويفتح عينه جيداً ويمسح وجهه بيده من أعلاه حتى آخر شعرة من لحيته يعود ليسأل: وما الخطر من ذلك؟

: هل أنت صادق فى سؤالك؟ أم تتجاهل الحقيقة؟

: لا والله إننى أسألك بصدق ليس فيه تغابى؟

: ألا تعلم أن صيت الرجل العريض وسمعته الطيبه هى خير شفيع له لو أراد أن يتبنى أى رأى، أو ينتحى أى منحى؟ فكل الناس حتماً سيهبُّون لمساعدته ومناصرته إنطلاقا من مبدأ «أطعم الفم تغضي العين»؟

: كلامك قد يكون فى محله لو أن الرجل له أى هدف من وراء كرمه فقد تأكد لدينا أن هذا طبعه وليس له أى قصد سوى المحافظة على سجيته وطلب الأجر من الله.

: أنت رجل نيتك طيبه، وتحمل الناس كلهم على حسن النية، بينما الرجل قد أصبح من الشراء والجاه، بحيث قد لا تملك نصف مالديه من الأبل والجنيهات الذهبية العثمانية «العِصْمَلّى» والريالات «الفرنسية» و «المجيديات» فضلا عن الأسلحة والأرزاق على إختلاف أصنافها وهذا رصيده المادى، أما رصيده المعنوى فحدث عنه ولا حرج.

: أنا لاأكاد أصدق ما أسمع، وإن صدقت فلا أتصور صحة ماتقول؟

: صدق أو لاتصدق هذا شأنك، ولكن الأيام قد تكشف لك صحة ماأقول!!

: بعد أن إمتقع وجهه، وقطب بحاجبيه، وطأطأ برأسه، وكأنه يحدق بتلك الصورة القاتمة التى رسمها له هذا الرجل الذى تظاهر بالنصح والمشورة، ولوّن تصوراته بالصدق والواقعية، ثم رفع رأسه إلى الرجل وسأله: وماذا تنصح أن نعمل؟

: الرأى رأيك، والتدبير من إختصاصك، وإنما جئتك ناصحاً وفى رأيي أن أفضل علاج له أن تسلب نعمته من يده ليصبح فقيراً مدقعاً، ينظر الناس إليه نظرة إستهزاء وسخرية:؟

: يإستغراب!! وكيف نسلبه نعمته؟ وهو رجل مسالم لم ينلنا منه إلاّ الخير؟

: هذا شأنك، وفى رأيي ألا تتأخر، وإننى أستأذنك بالإنصراف وبما تراه الكفاية «ياطويل العمر».

: لابأس، ويأمر له بكسوة وحفنة من النقود الفضية، وينصرف فيجلس الوزير للناس يستمع شكاواهم ويُصَرِّف أمورهم، ولكنه بين الحين والآخر ترتسم أمامه تلك الصورة المشوشة التى رسم خطوطها ذلك الرجل بريشته العفنه، فيسرح قليلاً يتابع خطوطها المتعرجة بشكل فوضوى، ثم يثوب إلى وضعه الصحيح ينظر فيمن حوله من الناس وكأنه أفاق من نعسة خفيفه فيفتح عينيه جيداً ويردد كلمه «هاه» وما أن إنتهى من مجلسه وإنصرف الناس من حوله حتى إستدعى إثنين من مستشاريه واخبرهما أن يحضرا إليه فى مساء ذلك اليوم للتشاور فى أمرهم،

ومضت سحابة ذلك اليوم وكأنه أسبوع، ولما حان الموعد المحدد واجتمع إليه الرجلان ودار بينهما الحديث الآتى:

: لقد دعودتكم لخير، إن لدي موضوع كذا وقص عليهما مانُقِلَ إليه وبَيَّنَ لهما وجهة نظره حول الموضوع.

: هذا الأمر من شأنك، ولكن إذا كان فى الأمر خطراً فالأولى ألا يترك، وأرى التحقق قبل الإقدام على أى خطوة.

: إننى لاأرى التأخر فيه ساعة واحدة لكبح هذا الأمر قبل أن يستفحل؟!

: دعنا ننظر إلى الامر بواقعية، إنه حتى الآن لم يحصل شيئ، ولم نَرَ أى بادرة تدل على حدوث شيئ اللهم غير مانقل هذا الشخص الذى قد يكون مغرضاً؟

: صحيح ماتقول، ولكنى أخشى أن تتطور الأمور إلى أبعد من ذلك بحيث يصعب رَتْقَ ما انفتق.

: دع عنك رأى فلان، وابدأ من الآن فهذه فرصتك مكسب مادى لك وتحطيم مادى ومعنوى له!!

: ولكن ماهو المبرر الذى نتذرع به، هكذا تساءل الوزير؟

: أخلق لك مبرراً، أو بدون مبرر، من سيعاتبك؟

: إتق الله يافلان، لاتتبنى نزعة الشر، فإن الشر مرتعه وخيم.

: إذا كنت ترى هذه بادرة الشر، فأين هو طريق الخير؟ أنصبر حتى يفلت الزمام من أيدينا؟

ووقعت هذه الجملة الأخيرة من الوزير موقعاً صائباً، وفق صميم مايعتلج فى صدره، وعند ذلك إكتفى بهذا القدر من الحديث، وسأل:

: عليكم أن تساعدونى فى التماس الذريعة التى نجعلها مبرراً فى انتزاع نعمته؟

: إننى بريئ منكم ومما تحوكون، إن ربحكم المادى منه لايساوى خسارتكم المعنوية أمام الله والناس، ويخرج منصرفا خارج مكان الإجتماع.

: دعه يخرج لاردَّة الله، إن رأيه عقيم، وعليك أن تسرع الآن، وحتى بدون مبرر.

: أنا عزمت على ذلك ولكن أريد أى شيئ أستند عليه؟ يقول الوزير ذلك بشرود.

: ياسيدى ماحاجتك بالمبرر؟ ومن سيسألك عن ذلك؟ فالكل سيقولون «إن الشيوخ أبخص»؟

وهكذا تغلبت نزعة الشر على نداء الخير، ولم يصبح الصباح حتى أصدر الوزير أمراً بالقبض على ناصر وإخوانه وتكبيلهم بالحديد وزجهم بالسجن ومصادرة جميع أموالهم المنقوله والمتحركة وإدخالها إلى بيت المال.

* * *

تكونت مفرزة من الجنود غير النظاميين «الخوياء» وأوكل إليهم مهمة القبض على أولئك الأجواد، ومن ضمن أفراد المفرزة مجموعة من المماليك من أصل أفريقى، واتخذ هذا الأمر بسرية تامة فسارت المفرزة تحت جنح الليل، لايعلم فى مهمتها إلا الله ثم الوزير، وأعطى رئيسهم أمرا بالقبض عليهم دون مناقشة أو مواربة، أو إعطائهم أي فرصة لإبداء الرأى وسارت المفرزة وفى اليوم الثانى وصلت إلى المكان المحدد، وما إن أناخوا مطيهم عند بيت ذلك الجواد في (مدينة الروضة) حتى رحب بهم أخوه مطلق، وهو يحسبهم من أولئك الضيوف الذين لاينقطع مددهم، ودخلوا إلى غرفة القهوة وهم بملابسهم النظيفة وأسلحتهم اللامعة من سيوف وخناجر وبنادق، فزاد الترحيب بهم وبالغ فى أظهار البشاشة والبشر فى وجوههم على إعتبار إنهم من رجال «الشيوخ» وعند ذلك سأل رئيس المفرزة واسمه مبروك.

: ياولد .. هل أنت ناصر ...؟

: لا، أنا أخوه مطلق!!

: وأين ناصر الآن؟

: إنه قريب إما أن يكون فى البستان، أو قريب منه، إنه غير بعيد.

: وأين فريح؟

: وفريح كذلك غير بعيد، إنه فى أسفل البلد، خيراً إن شاء الله ماذا تريد به؟

: لنا فيهم حاجة ونريد مقابلتهم، وعليك أن ترسل لفريح من يدعوه الآن.

: سيأتون إن شاء الله، تفضلوا الله يُحَيِّكم، وقرب إليهم سفرة من نسيج الخوص فوقها صينية قد نضد عليها أنواع من الرطب وشماريخ بسر الحلوة، وعندما أكلوا منه ما أرادوا أدار القهوة عليهم مرة بعد أخرى حتى يحين وقت غداءهم الذى ذبحت فيه الخراف، ثم تجمع عليهم ضيوف آخرون واستمر معهم مطلق، فخرجت

مجموعة من «الخو ياء» ودخلوا البستان الواقع بقرب البيت، ليقطفوا من الفواكه الموجودة فيه كالتين والرمان، أما الخوخ والعنب فقد إنتهى موسمه، و بدأوا يتنقلون من شجرة إلى أخرى- يتذوقون ثمارها، عندما شاهدوا رجلاً داخل البستان يناديهم وهو لايعلم عن وضعهم شيئاً وإنما أراد منهم الإنتقال إلى الرمان ذى الطعم الحالي، مخبراً إياهم أن الرمان الموجود لديهم من النوع الحامض، و بالطبع هم لايعرفونه وعندما قربوا منه لم يروا من هيئته مايدلهم على أنه هو الرجل المعني بالأمر فلم يعيروه إنتباها، وحسبوه من العاملين بالحقل، فتركهم يعبثون بثمر الرمان كيفما شاءوا، وهو بدوره يظنهم من ضيوفه، وعاد إلى غرفة القهوة كعادته وهو، لايعلم شيئاً مما يجرى حوله، وعندما دخل الغرفة رحب بالضيوف الموجودين وحياهم، وجلس يرتشف فنجانا من القهوة عندما بادره مبروك الذي قال له:

: ياولد هل أنت ناصر ...؟

: نعم، أنا هو، حياكم الله وعلى الرحب والسعة.

: هل هذا أخوك مطلق؟

: نعم، حفظه الله وسلمه.

: وأين فريح؟

: لاأدرى، أتعرف يامطلق أين ذهب هذا اليوم؟

: إنه فى أسفل البلد وقد أرسلت إليه من يدعوه.

: سيحضر الآن إن شاء الله، خيراً إن شاء الله يارجال «الشيوخ»؟

: خير، ومتى حضر فريح فلنا معكم حديث على إنفراد. و يطبق الصمت على الحاضرين لايقطعه سوى دخول فريح عليهم و يسلم و يرحب بالضيوف ثم يجلس، فقال ناصر هذا فريح جاء، وقبل أن يأخذ فنجانا من القهوة، قام مبروك وخرج بعد أن أعطى الإيعاز اللازم، لرجاله بإحضار الأصفاد لهؤلاء الرجال، ثم دعا الإخوة الثلاثة فى دهليز القهوة وكأنه يريد أن يسر إليهم أمراً، وعندما خرجوا ثلاثتهم إلتف عليهم «الخو ياء» ووضعوا الأصفاد فى أيديهم، دون أى مقاومة تذكر حيث أخذوهم بكثافة وعلى حين غرة من أمرهم، وارتفعت أصوات الرجال وكثر لغطهم و يسأل ناصر:

: لماذا كبلتمونا بالحديد هكذا؟
: هذا الحديد أضعه تنفيذاً لأمر عمى...!!؟
: ماهو الذنب الذى إرتكبناه حتى تفعلوا بنا هكذا.
: لاأدرى... إسال عمى!!؟ يقولها وهو ينطق العين كالألف المثقلة(أمى)
: دعونا نذهب إلى «معازيبنا» ونواجههم دون أن يكون الحديد بأيدينا.
: «ياهُمَّلاَلي»؟!! لدى أمر بأن اضع الحديد بأيدكم وأحضركم إلى «طويل العمر»
: لاحول ولاقوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، نقيد أمام ضيوفنا، ونساءنا وأطفالنا، والخاص والعام، «يالله لا تشمت بنا الشامتين»!!
: يوعز لبعض أصحابه بأن يأخذ كل واحد رجلاً من هؤلاء رديفاً له على مطيته، و يكونوا بصحبتهم حيث سافر بهم إلى مقر السلطة بينما ترك مهمة الإشراف على الأموال إلى رفيقه سُعَيِّد، و يبدأ سعيد مع رفاقه فى الإستيلاء على الإبل الموجودة والمودعة مع البدو، يحضرونها و يضعون عليها وسم «الشيوخ» وهى العلامة التى توسم بها إبلهم ثم يرسلونها، ويحصون الحبوب والتمور و ينقلونها، ويحصون النقود الموجودة من الجنيهات الذهبية العثمانية، والريالات الفضية «والفرنسية» و «المجيديات» والأسلحة من سيوف وخناجر وحلى النساء، فلم يتركوا شيئاً إلا أخذوه ولما لم يعثروا على النقود التى يعتقدون أنه يمتلكها، ظن سعيد أن ناصراً قد خبأها تحت الأرض فى كنز كما هى عادة الناس آنذاك:
: يسأل زوجة ناصر، أين الكنوز ياسلمى؟
: أى كنوز تعنى، أيها القِنّ.
: كنوز ناصر من الذهب والفضة.
: إننى لا أعرف له من الكنوز شيئاً وهل يبقى شيئاً يكتنزه؟

إن كل مايحصل عليه من هنا، يقدمه لضيوفه وقاصد يه من هنا!!
: إنَّكِ كاذبة، يقولها بسخرية، ثم يستأنف، ناصر... ذو السمعة العريضة والغنى الفاحش لايوجد لديه سوى قبضة من الجنيهات وحفنه من الريالات «الفرنسية»؟
: إذا ليس هناك غير مارأيت، ويمكن أن تكون هذه النقود ثمن الإبل التى باعها يوم أمس، ولو أتيت إليه قبل يومين لم تجد عنده شيئاً.

: أنت كاذبة ومراوغة، والله إن لم تدلينى على الكنز لأقتلنك.

: إفعل ماتريد، أما الحقيقة فقد قلتها لك، ولاشئ عندى غير ذلك وهكذا يجرى هذا التحقيق السريع مع النساء والصبيان عله يجد من بينهم من يدله على مخبأ للنقود أو مكان للكنوز، وعندما وصل الدور إلى إبنة ناصر مَلِيحة، وهى شابة قد تجاوزت منتصف العقد الثانى من عمرها، ظن أنها هى التى تملك مفتاح الأسرار، لاسيما أنه قد خُيِّلَ إليه أنها أمين أسراره، وهنا نهرها قائلاً:

: تعالى يابنت، دلينى على كنز أبيك الذي تحت الأرض!!

: ليس لأبى كنوز تحت الأرض!!

: يلكدها مع كتفها بطرف قراب السيف وهو يقول «دلينى وإلاقتلتك»؟

: تعال معى لأدلك على الكنز «وانتفخت رئتا سعيد من شدة الفرح وقادته حتى وصلت إلى كومة فثال القهوة الموجود بقرب باب غرفة القهوة وأشارت اليه بيدها قائلة «هذا كنز أبى».

: يشتاط غيظا وحنقا و يعجز عن الكلام و بكل جهد تخرج من فه هذه الكلمات «ليس هذا كنزاً، إنه حثل قهوة ليس فيه من الطعم شيئاً»

: هذا كنز أبى قد إشترى به هذه القهوة وقدمها لضيوفه ليحفظ قيمتها كنزاً فى صدور الرجال، وعلى صفحات الذكر عبر الأجيال.

: بعد أن رأى كومة حثل القهوة يحرثها برأس قراب السيف، و يتمم أنها رطبة وجديدة ثم تنزعه سَوْرَةُ الغضب فيلكد مليحة مرة أخرى وهو يقول لم أعن هذا، إننى أريد كنز الذهب والفضة، يابلهاء!؟

: «ولا عليك زود»(١) يارجل الشيوخ.

: لم يفهم ماذا تعنى وظنها تُطْرِيْه فهدأت شدة غضبه ثم قال: ولكن متى تكونت هذه الكومة من حثل القهوة منذ كم سنه؟

: إننا ننقلها بين فترة وأخرى خشية أن تنهال على مدخل الباب فتسده.

: ولكننا لم نجد من حب القهوة سوى زنبيلين متوسطى الحجم «مِطْحَان» أحدهما ملآن والآخر به نصفه، وهذا لايتناسب مع القصيدة التى يمدح الشاعر بها أباك والتى من أبياتها:

(١) أى أنت الأبله وليس على بلهك زيادة.

١٢ مَارَاخِصٍ مِنْ مَيْرِ صَنْعَاء بِضَاعَةْ وَابْن لُحَيْدَانٍ عَلَى جَاهِدِ الْقَاعْ
١٣ مَاتَـقَّدَتْ يُمْنَاهُ مِنْ آلْبُنْ سَاعَة يَكْفِي شَهَرْ لِلزُّوْم ثَلاَّث الأَضْبَاغْ

: «وَاعَطَاكَ الضَّرَّبَةَ اَلِلَّيْ تَضْرَبك»(١)!! أنت لاتدرى أنه لايمر يوم إلا وقد جاءنا ضيوف غادين رائحين إلى المدينة فيرسل معهم والدى نقوداً لشراء القهوة والهيل والقرنفل، فيحضرونها معهم فلا يكاد.. يمضى يوم أو يومين إلا وقد جاء المدد من هذه المواد، وهذه الزنابيل لاتنقص يوماً حتى تمتلئ فى غده مرة أخرى.

: لماذا لايشتريها بالأكياس و يرتاح!؟ «كل يوم شوى» «كل يوم شوى«!!

: يشتريها أحيانا بالكميات إذا توفر لديه المال اللازم، ولكن قد لا تتوفر النقود الكثيرة فى كل وقت، فأحيانا تغاب عنه الدراهم إلا بقدر قليل يكفى لإستمرار التموين القليل.

: آه، أنا فهمت!! تريدين أن توهمينى أن والدك فقير وليس عنده كنز، وإنما رزقه كقاطر القربة، وهذا لن ينجيك من أن تدلينى على مكان الكنز.

: «إحْلُبْ لَبَن لومن جمل(٢)» لقد أرشدتك إلى مكان الكنز الذى تركه والدى وإذا لم تقتنع فافعل مابدالك.!

وبعد أن يئس سعيد من وجود أى كنز أو مدخرات إنسحب من البيت بعد أن تركه فارغاً من كل شيء سوى الأطفال والنساء الذين لايملكون غير ملابسهم التى على ظهورهم، أما جميع ممتلكاتهم فقد نقلها معه تنفيذاً للأوامر المعطاه له، وهكذا نكب هذا الجواد الكريم وأخواه ومكثوا بالسحن فترة من الوقت، دون أن يكون هناك أى ذنب إقترفوه، أو جرم فعلوه، وسلبت نعمتهم فلم يبق منها شيئاً، وبعد فترة خرجوا من السجن، وإستأنف الجواد ناصر عمله من جديد وكأن شيئاً لم يحدث له بفضل الله ثم بفضل رصيده فى صدور الناس كما جاء على لسان إبنته، حيث بدأ يتكون شيئاً فشيئاً، حتى عاد إلى وضعه السابق، ومكانته الأولى، انزل الله البركة فى ذريته واحفاده، الذين لايزالون بأعداد كبيرة يعيشون في ظلال دوحته.

---

(٢) تدعو عليه بالضربة القاضية.
(٢) تعني حدوث المستحيل.

١٠ - غرق سويحل *

الإنسان هذا الكائن الحى الذى منحه الله نعمة العقل، وهى على رأس المميزات التى وهبها إيّاه، وجعله يبصر بجهاز الإبصار، و يسمع بجهاز السمع، و يشم بحاسة الشم، و يلمس بحاسة اللمس، و ينطق بجهاز الكلام، وأوجد فيه من الوظائف الدقيقة والمعقدة، المتصفة بغاية الدقة والمتمشية مع أقصى درجات الإتقان، كالجهاز العصبى والدمومى والبولي والهضمى والتنفسي وغيرها من التكوينات والأجهزة المحكمة الأخرى، هذا الإنسان وإن كان صغير الحجم إلاّ أن المصانع والاجهزة الموجود فيه تفوق كثيراً نسبة حجمه، ومن الواجب عليه أن يحمد الله على إستكمال هذه النعم، فقد بين لنا ديننا الحنيف مايجب أن نعمله إزاء خالقنا، والإنسان بأدائه آيات الشكر والولاء الخالقه لايعدو كونه أدّى واجبا عليه، فما بالك إذا جحد هذه الأفضال وإستهان بها، واستخف بخالقها وواهبها، وإلى جانب ذلك مايمنحه الله للإنسان من نعمة الصحة والمال والولد كزينة لهذه الحياة الدنيا، يجب أن يقابله بالشكر والعرفان، غير أن الأنسان فى بعض الأحيان تطغى عليه نزعة شيطانية وتصرفات جحودية إزاء الخالق العظيم، منطلقا ومندفعاً من عنفوان صحته ومستنداً إلى ركيزة المال الوفير الذى بحوزته والبنين الذين هم تحت إرادته ورهن إشارته، فيخيل إليه أن باستطاعة قوته أن يتحدى جبروت خالقه، و بكثرة ماله أن يطغى على أفضال بارئه، و بقوة بنيه أن يتغلب على قدرة مصوره، ومادرى أن هذه الأشياء التى يراها كبيرة فى نظره لاتساوى عندالله شيئاً، بل إن صاحبها هو الآخر لايساوى شيئاً في قوة القادر القهار، وتختلف سبل التحدى فقد تكون بالأفعال وربما كانت بالأقوال، وفى الأثر مامعناه «رب كلمة يقولها صاحبها لايدرك معناها، فتهوى به سبعين خريفا فى النار»، فاذا تطاول الإنسان على ذى العرش والجلال بقول أو عمل فإما أن يمهل له بواسع حلمه و يؤجل عقوبته فى الدار الآخرة وإما أن يعجل له العقاب ليكون عبرة لمن إعتبر، وربما كانت العقوبة فى ممتلكاته أو بنيه، و يبقى هو ليرى بأم عينيه جزاءما اقترفه

* حدثت في ربيع عام ١٣٣٧هـ بالوادي الأخضر / شرقى جبل رمان.

وأنه لايساوى شيئاً بالنسبة لمن بيده كل شئ، وهذا ماحصل لـ «سُوَيْجِلْ» ذلك الرجل الجاهل الذى نفخ الشيطان فى أنفه حيث سولت له نفسه أن يقلل من قدرة الله و يتحدى إرادته بإشارة تتبعها جملة ساذجة، ولكنها تدل على الإستهزاء وعدم تقدير العواقب ولاتخرج إلا من جاهل مما كان لنتائجها أثر كبير على بقية حياته.
ففى ذلك الجو الربيعى الرائع فى النصف الأخير من فصل الربيع كانت الأعشاب الغضة والأزهار قد لفحتها الرياح الساخنة فلوت أطرافها وصبغتها أكثر إخضراراً وأطرى إيراقاً، واكتست تلك الروابى والوهاد بجلبابها الذهبى الهادئ تنقشه شجيرات الرمث احضراء وأشجار العوسج ذات اللون الداكن، وهذا اللون هو الذى يجلل سفوحها بالشجيرات والحشائش المتراقصة إذا طرقتها نسمات الرياح، بينما زينت نحورها الأشجار الكبيرة كالطلح والعوسج، ذات اللون الأخضر الداكن، وعلى قممها الشاهقه ترى أماكن محط الطيور وقد تلون باللون الأبيض بالقرب من أماكن أعشاشها، وخاصة الطيور الجارحة كالصقور وغيرها التى تختار لفراخها تلك الشماريخ العالية حتى لاتمتد إليها يد الانسان، فمناظر تلك الجبال السامقة وخلفها زرقة السماء الصافية، و بسفوحها تلك الأشجار الخضراء ومن تحتها الروابى الذهبية، التى تتموج فوقها الرياح مداعبة شجيرات النَّصِيْ، هذا المنظر الخلاب هو من أبسط المناظر المألوفة لدى سكان الريف، ولكنهم يفضلون عليها مناظر تلك الجبال الجرانيتية الحمراء ذات الصخور الكبيرة والكتل الهائلة المتراكمة بشكل غير منتظم، ذلك لتوفر الكهوف الواسعة تحت تلك الصخور، ولتواجد عيون المياه التى لا تنقطع مياهها فى الشتاء والصيف فضلاً عن الراحة التى يجدونها على حصبائها الياقوتية التى تشبه حب القمح، وماتنعم به قطعان مواشيهم من الرعى فيها، فى هذا الوقت قد عافت القطعان الأعشاب الشقراء والصفراء وتعدتها إلى التى لا تزال تصطبغ بالخضرة وتندى أوراقها بقطرات الماء وقد حملت هذه الأغنام فوق ظهورها وفى حواياها أحمالها من الشحم فأضحت تتعب من المشى ولا تستطيع الركض، فهى تمشى الهوينى وتقطف من تلك الأغصان الطرية والأوراق الندية بالإضافة الى ماتقضمه من رؤس سيقان الأزهار والأعواد الجافة، أما الإبل فقد إكتنزت طبقات الشحم فى سُنُمِهَا مزبورة تشبه قمم الجبال، تتراقص يمينا وشمالاً عندما تمشى ولا تستطيع الركض بعنف خشية إنزلاق سمنها وهى كسابقها قد أتخمها الرعى حين تلتقط بأطراف أشفارها من رؤس بعض

الأغصان مايجدد مخزونها من الرعى الذى تُعَبِّرُ به معظم وقتها، تومى الواحدة برأسها أحيانا بعنف لتطرد ذبابة الربيع الخضراء عن الوصول إلى أنفها، وتنش بذيلها الذباب من أن يحط عليها، فلا تكاد تستطيع التنفس مما تراكم على جسمها من الشحم واللحم وهى تتبختر بعظمة وخيلاء، هذه الإبل والأغنام بتلك الصفة تعتبر من أجود الثروات وأثمنها فى نظر ذلك الرجل، بالإضافة إلى مايمتلك من الألبان ومشتقاتها من السمن والأقط وغيره، هذه الثروة المادية الضخمة فى نظره بالإضافة إلى زوجته وبناته السبع اللواتى فى أعمار الزهور وكلهن بين منتصف العقد الثانى وآخره ويقمن مقام الفتيان فى خدمته بتصريف شئون مواشيه وأمواله، هاتين الركيزتين نفخ بها الشيطان أنفه وجعله يشعر بعافيته المكتمله وكأنه شيئ آخر فوق مستوى تكوينه البشرى، ينظر إلى من حوله شزراً وكأنهم من طينة ثانية غير طينته، وحتى الآراء التى يفصحون عنها كان يقابلها بالإستخفاف وأحيانا بالإستهزاء والغلظة كان يمثل عبئاً ثقيلا على من حوله، حتى أنه فرض عليهم النزول قريبا من بطن الوادى بحجة الإستفادة من جرعاء المسيل للجلوس والسهر عليها فى الليل ولم يستطيعوا زحزحته عن رأية، هذا وقد دار بينه وبين راشد أحد أفراد المجموعة التى تنزل معه الحديث التالى:

: ياسويحل، لماذا اخترت لنا هذا المكان الغير مناسب؟

: وهل تريد مكاناً أنسب منه فى الوادى الأخضر بكامله؟

: إن الوادى الأخضر واسع وبه من الأماكن الجيدة مايفوق ما اخترته لنا، إنظر الى ذلك البطين المرتفع قرب أشجار الطلح الظليله، وأنظر تلك البرقاء ذات الأرض اللينة المرتفعة، ومارأيك بذلك المنخفض الذى تكتظ فيه بيوتنا وتكون فى مأمن عن الأشرار؟

: أتريد أن تعلق بيوتنا بهذا البطين ليراها الغادى والرائح ونكون عرضة لأشرار الناس،؟ أوتريد أن تعلقنا بتلك البرقاء وتمتلئ عيوننا من رملها ولا تستطيع أغنامنا الأمراح فيها؟ بسبب الأحجار المتناثرة والتى تغطى جزءاً من الأرض، أو تريد أن تخنقنا بذلك المنخفض حتى لانستطيع أن نتنفس الهواء؟

: إن المبررات التى ذكرتها على الأقل بعيدة عن الخطر، ليست كبطن الوادى الذى وضعت بيوتنا على جانبه؟

: ليس هناك خطر، وإنما أنزلتكم هنا لتنعموا بهذه الحصباء النظيفه في بطحاء الوادي، لتناموا عليها في الليل ولتستريح أغنامكم بلينها ونعومتها.

: ولكن ألا تعلم أن الوقت آخر الربيع وأول الصيف؟ ولايزال هناك إحتمال لنزول الأمطار في «فصل الصيف»؟ الذي يتصف مطره بالغزارة وسيوله بالصلف، ومكاننا هذا خطر إن بقينا فيه؟

: دع عنك هذه الترهات التي توسوس بها نفسك إليك، ليس هناك أي خطر تنتظره، لاأسمع منك هذا الكلام مرة أخرى!!

: لن أطيعك في هذا الأمر، وسانقل بيتي وأشير على من يطيعني من الرفاق بالإنتقال إلى مكان مرتفع وأمين عن أخطار السيول.

: يقولها بغضب «اذاً أصبحت شيخ العشيرة» ولك الأمر والنهي فيها؟

: ليس هذا ما عنيت، ولكن أريد دفع الخطر عن نفسي ومالي وعيالي ورفاقي، وأبعدهم عن التهلكة التي نهى الله عنها.

: بدأت تهذي!! فعلاً لقد خرفت!! كذا الرجل إذا تقدم في السن أصبح يهذي بكلام لامعنى له، وأعلم أن الأمر والنهي لي لوحدي، وليس لك حق بأن ترحل من مكانك، أو تبوح بهذا الرأي لأي أحد، وإلا....!

: نطيع أمرك ونقتدي برأيك في حالة عدم تعريضنا للخطر من جَرَّاءِ ذلك، أما إذا أيقنا بمداهمة الخطر تبعاً لرأيك فلا سمعاً ولا طاعة.

: تقول هذا بكل وقاحة؟

: نعم أقوله وأنفذ ما أقول بكل ثقة دون الرجوع اليك يقولها بغضب ويبدأ راشد بنزع أطناب بيته وتقويضه على من فيه، وتبدأ نساؤه بطي البيت وتجميع محتوياته، وينقلون البيت بسفح رابيه من تلك البرقاء ذات الرمل الذهبي اللون، ينقشه زلط من الأحجار السوداء الضارية للزرقة والخضرة، وما إن رأى القوم راشداً قد بدأ بنقل بيته عن قرب بطن الوادي حتى سألوه عن السبب فقال لهم إنه يخشى من مداهمة السيل له في الليل أو في النهار لاسيما وأن الوقت فيه إحتمال لسقوط الأمطار بغزارة، وعند ذلك أدركوا أن راشداً على حق فيما رأى فبدأوا ينقلون بيوتهم بقربه واحداً مما زاد سويحل حقداً وحنقا عليهم وجعله يتشبث برأيه أكثر ، ويرى

فى خطوتهم هذه بادرة تمرد وعلامة جبن وإستسلام، فتركهم وشأنهم وبقى هو فى مكانه يتحداهم بالكلام، و يكيل لهم التهديد والوعيد، وعندما أرادت زوجته أن تفاتحه فى الموضوع، عله يتزحزح عن موقفه نهرها وأسكتها دون أن ترد بكلمة أخرى.



ماكادت شمس ذلك اليوم الربيعى الدافئ تزل عن سمت الرأس حتى بدأ قزع السحاب يتراكض فى صفحة السماء الزرقاء الصافية متجها نحو الشمال الشرقى، ثم بعد ذلك ظهر من فوقه طبقه من سحاب «السدا» الذى يكون منقاداً بشكل إنسيابى، ولاتراكم له ولايحجب الشمس إلا إذا تراكم بطبقات سميكة، وغاصت الشمس وراء نسيج هذا السحاب شيئاً فشيئاً حتى إنكسرت حدة أشعتها، وأصبح المرء يرى قرص الشمس بدون أن تؤذى عينيه، ثم تجمع ذلك «الطَّخَا» بعضه فوق بعض مكونا ستاراً داكنا لم يلبث أن حجب قرص الشمس تماماً مع آذان صلاة العصر، وبدأت النسمات الطرية تسبح فى ظل تلك الغيوم حاملة أريج تلك الرياض، فحينا تنشط وأحيانا يصبح هبوبها عليلاً يكاد يأخذ الإنسان إلى إغفاءة خفيفة، فى جو هذا الأصيل الرائع خطر ببال الشيخ «شَامِخْ» أن يهدى النصح إلى قريبة سويحل، عله يتراجع عن رأيه، ويهون من شدة صلفه فيرحل من المكان الذى ينصب فيه بيته بقرب بطن الوادى إلى المكان المرتفع الذى بنيت فيه البيوت مع رفاقه فقال بعد أن وصل إلى مجلسه:

: باسويحل، ياولدى، ألا تريد أن تنتقل من مكانك وتأتى بقرب بيوت ربعك فى المكان الأمان؟

: من هم ربعى؟ عسى ألا يكونوا قوم راشد؟ أولئك مجموعة من الجبناء والسخفاء، ليسوا منى ولست منهم؟

: تعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هؤلاء ربعك، ما الذى يعزلك عنهم؟ ألأجْلِ إختلاف فى الرأى قد تكون نتيجته لصالحك.

: إنهم دائماً لاينصاعون لأوامرى!! و يستخفون برأى!!

: عندما يكون رأيك صائبا فالكل يحترمه، و يتمشى بموجبه، لكنه إذا كان على مثل ماأنت عليه الآن من الأصرار على الخطأ، فمن حقهم أن ينفصلوا عنك.

: حتى أنت أيها الشيخ [العاقل]!! جرفك تيارهم؟ يقولها بإستهزاء.

: هداك الله يابني لنفسك، الآن جاءت ساعة الجد، وولت أوقات الهزل، أطلب اليك هذا المطلب الوحيد، وأرجو أن تقدر رأى من هو فى سن جدك.

: ماهو طلبك؟

: أن ترحل من هذا المكان الذى أنت فيه، وتنزل بمكان مرتفع، لايهم، إذا كان بجانب قومك أم بعيداً عنهم؟ المهم أن تنقل بيتك عن جال الوادى لاسيما وإن الوقت فى موسم «الصيف» وأمطاره غزيرة، وسيوله عنيفة تنصب بأمر الله من السماء على الأرض مرة واحدة وأنت قاطن فى المكان الخطر.

: أنا مقدر ماتقول، ولكنى أظن أن لكبر السن دور فى كثرة هذيان الأنسان وتخوفه من كل شيئ حتى من الزول البعيد أو الجهام الغامض.

: أشير عليك بالإنتقال من ذلك المكان الخطر على نفسك ومالك وعيالك، وهاهى الشمس قد إحتجبت بظلمة هذا السحاب المتراكم، إنظر البرق قد بدأ يلوح منه، وأسمع أزيز الرعد فيه وقد أقبلت السحابة، وربما أتت «مغانى» منابع هذا الوادى وروافده فجاء بسيل عظيم فباغتكم فى ساعة حرجة.

: وقد إرتفعت أوداجه وتعالى على قدرة خالقه حين تلفظ بتلك الكلمة الخبيثة التى لم يقدر معناها حق التقدير حين قال «إن مطر هذا السحاب لايبلل طرف عباءتى؟؟!!

: يمسك برأسه و يطأطئ موجها نظراته إلى الأرض وهو يردد إنا لله وانا اليه راجعون، لاحول ولاقوة الا بالله، ربنا لا تؤخذنا بما فعل السفهاءءمنا، اللهم أدفع عنا آيات غضبك، إنها كلمة خبيثة تلفظت بها أيها المغرور.!!

: ألم أقل لك إنك شيخ خرف؟! أصبحت تهذى دون إدراك!!

: يغادر المكان متوكئاً على عصاه، لايلتفت خلفه تاركا سويحل لم يبرح مكانه وعندما وصل إلى مضرب أصحابه، ناداهم وحينما إجتمعوا اليه قص عليهم ماحدث، وقال عليكم أن تجمعوا أطفالكم وأهلكم ومواشيكم وتلوذوا بالمرتفعات، فوالله لقد قال

هـذا الرجـل قـولاً إن أخذنا الله به فلن يبقى لنا باقية، ولكن عسى الله أن يخص كل واحد بذنبه، وأن يجنبنا سورات غضبه!!

* * *

ومع موعد أذان المغرب أضفى الليل جلبابه الأسود الذى زاد فى حلكته طبقات السحاب المتراكم على ناحية الغرب، وراحت قطعان الأغنام آو ية إلى مُرُحِها قرب البيوت، وتلتها أذواد الإبل وأخذت مباركها فى معاطنها غير بعيدة من الأغنام، وأشتغلت النساء فى الحلب وتجميع اللبن، بينا أقبل السحاب يسد الأفق تماماً شديد الظلمة يُدَوِّيْ فيه الرعد بوقع عنيف، تهتز الأرض بفعل صداه، ولايكاد الرعد ينقطع أبداً، وتستمر موجاته بدوى هائل يزلزل الجبال، أما البرق فلا يتوقف هو الآخر، بل يلمع مرسلاً إشعاعات ضوئية شديدة تكاد تخطف الأبصار و بشكل مستمر، مع إختلاف واضح فى درجات البريق مما يدل على تفاوت طبقات السحاب فى الإرتفاع والإنخفاض، والقوة والضعف، وعنف الاحتكاك الحاصل بين كتل السحابه الهائلة الذى ينتج عنها البرق وصوت الرعد، وأمست صفحة السماء الغربية وكأنها براكين متفجرة هائجة، تتمثل فى صوت دوى الرعد وإضاءة البرق الذى يشبه سرعة حركات الإشارات الضوئية الذّاتية، و يرى المشاهد على ضوئها طبقات السحاب البيضاء، والضاربة إلى الزرقة، وأقبلت هذه السحب تزحف على الأرض، والجبال والآكام ببطء شديد وكأنها أوْكِلَتْ بتلك البقعة لتحرثها، وتقلب القشرة العليا منها ظهراً على عقب، وما إن دنت من شرق جبل رَمَّانْ الأسمر منابع ومسائل الوادي الأخضر، حتى نزل رَبَاب المزن على الأرض تماماً وبدأ يسحب ذيله فوق الآكام، فانهشمت تلك الكتل الثلجية الهائلة، تساقطت حبات البرد بحجم البيضة وأكبر منها، حتى وصل حجم الحبات إلى حجم البرتقالة، وَجَرَّتْ السحابة الأولى ثوبها الفضى على الأرض ومالبثت أن تجردت منه وتركته خلفها مفروشاً على صفحة الأرض، حيث بلغ إرتفاع الثلج عليها مايقارب نصف متر، فتغيرَّ لون الجبال والوهاد من لونها الطبيعى إلى اللون الأبيض الناصع، وكأنها انتقلت فى لحظات قصيرة إلى القطب الشمالي، ثم تبعت تلك السحابة أخرى وكأنها حرصت على نهب الفستان الأبيض

الملقى على الأرض أو إزاحته عن مكانه على أقل تقدير، فأرسلت شآبيب مياهها الدافئة الغزيرة حتى كأن السماء إنشقت على الأرض، وماهي إلا دقائق قليلة حتي أذابت وجرفت تلك الطبقه الثلجية عن سطح الأرض، وجرفتها مع الوديان والتلاع والريعان، وطغى السيل مع مجارية العادية والمتوقعة، فارتفع منسوب الماء فى بعض النقاط مجراه تماماً، وأغرقت كل ماعلى هذا السطح من الدواب والزواحف والحشرات، وكنس البرد المزارع بما فيها من المحاصيل الزراعية وأوكل بها السيل لنقلها إلى اماكن أخرى، وأمسى بعض الناس تلك الليلة أغنياء وأصبحوا فقراء، وفى خلال مرور السحابة على تلك البقعة ذهلت من أصابت، فكل قد إنشغل بنفسه، أما سويحل فقد جرف السيل زوجته وبناته وبيته وإبله وأغنامه، وأنجاه الله بنفسه فقط ليريه قوة بطشه، وعظمة إقتداره، وسرعة مجازاته لمن تحداه، وكانت نجاته بسبب هروبه بنفسه إلى أكمة غير بعيدة عنهم، وأصبح الناس الذين مرت عليهم تلك السحابة فى حالة سيئة جداً، حيث جرف السيل محاصيلهم، وذهب بمواشيهم، وهدم بيوتهم، ودفن آبارهم، وأغرق بعض الناس وعلى رأسهم عائلة سويحل التى إختفت بكاملها إلى الأبد، لولا أنه بعد مرور ثلاثة أيام، وعلى بعد حوالى ثلاثين كيلاً، وُجِدَتْ جُثَّةُ إحدى بناته قد علقت ظفائرها بشجرة عوسجة. بمفرش الوادى شرق جبل ذراف «ذرف» قد غَطَّى عليها طمي السيل، ولما إنتفخت الجثه وتعفنت بانت من تحت التراب حيث عثر عليها هناك، وهكذا جازاه الله على سوء تحديه له وأبقاه حيا ليرى عجائب قدرة خالقه على الإنتقام، كما أن كلمته الخبيثة قد أضرت بأناس آخرين ليس لهم ذنب فيما إقترف، ولكن كما يقول المثل العامى «الخيرُ يَخُصُّ والشَّرُ يَعُمُّ» وبقيت تلك الحادثة يستشهد بها و يؤرخ بها المؤخون آنذاك، ولما أصبح الصباح وأرسلت الشمس أشعتها الفضية الصافية قام سويحل من المكان الذى بات فيه، حزينا منهكا قد أثخنت جسمه ضربات حبات البرد فى الجراح بكل أنحاء جسمه، وبعض الجروح لايزال ينزف منه الدم، قام هذا الإنسان الضعيف بعد أن رجع فعلاً إلى مستواه، محدود القدرة مهما بلغ جبروته وسار يمشى متوكئاً على العصا التى ساعدته على إجتياز سيل الوادى والنجاة منه وعلى بعد خطوات من مكان بيته بالأمس وقف بائساً حيث فقد المال والولد بل والصحة التى أطغته وجعلته يتعالى على قدرة ربه وقف وقلبه يتفطر حزنا وأمسى ينفث أحزانه فى قصيدة منها.

١٤ يـاجـبير مـاعـيـنـت قـطعة بنـاتـي غـدا بهـن سـيـل الخضر واغـلـيـلاه

ونجا رفاقه بكاملهم فلم يتضرر منهم أحد سوى ما أصاب مواشيهم من اضرار بسيطه، غير أنه لم يستطع مواجهتهم ولا الجلوس معهم، فهام على وجهه حتى وصل إلى أناس من أقاربه بعيداً عن قومه، وهكذا سببت كلمة هذا الإنسان كارثة له ولمن حوله وأصبحت عبرة لمن إعتبر، وسميت «سنة غرق سويحل تجاوزاً، والمقصود به غرق عائلته» حدثت ١٣٣٧هـ.

١١ - لايملك ما ملك *

في مجتمع يتسم بالبساطة والهدوء، و يتصف بالرزانة والجدية، و يتحرك بكل همة ونشاط فالناس في هذا المجتمع يغلب عليهم طابع البراءة، والوداعة، ينظرون للأمور من زاو ية رحبة لا تعكسها العدسات المقعرة، أو تتلاعب بها الرؤى المادية، فيما عدا مايتعلق بالدين والشرف والكرامة فهذه تختلف نظرة الناس إليها عن الأمور الأخرى، يسود الناس جو من الجدية في أوقات العمل، ولايكادون ينتهون من أداء واجباتهم اليومية حتى ينفضون عن عواتقهم جلباب التعب بممارسة أنواع شتى من طرق التسلية البريئة، بعد أن أدوا يوماً كاملاً من الجد والنشاط والحركة الدؤوب التي لا تعرف الكلل للحصول على لقمة العيش من عرق الجبين المتناثر، وخلايا السواعد السمراء المفتولة، وزخات الدم المتدفقه بالحيو ية في كافة أنحاء أجسامهم، وخير من يتمتع بأوقات المرح هم الشباب الذين لايكادون ينطلقون من قيود عملهم حتى يتجمعون بأماكن سمرهم التي يقضون فيها ساعات أنسهم الممتعه، قبل أن تتوفر وسائل الترفيه والترو يح الحديثه، فكانت وسائل ترفيهم آنذاك هي الألعاب البدنية والفكر ية. على مختلف أنواعها، يعيشون في تفكير محدود لايتعدى نطاق قر يتهم وما حولها، لايحسبون أيَّ حساب لما يجرى في «طوكيو» أو «شيلي» ولايعبأون بما يجرى في «سدني» أو «أوسلو» تغمرهم روح المرح وتطفح بهم وشائج الأنس، تجمعهم المحبة والإخاء، وتمزجهم الإلفة والصدق، تتبسم لهم سجية الكرم، وترحب بهم سِمَةُ المروءة فلا يكادون يجتمعون في مكان أنسهم ويمارسون ألعابهم البدنية لينفسوا عن أنفسهم ماتراكم في خلاياهم من مخلفات جدية ذلك اليوم الكامل من الكدّ ونزف العرق حتى تتفتح شهياتهم للتمتع بالتهام وجبة إضافية غير التي تناولوها بعد صلاة المغرب وذلك للتعو يض عن الطاقة التي نفذت خلال ممارسة ألعابهم، فعند ذلك يلجأون إلى التلفت يمينا وشمالاً فلا يجدون مطاعم لإعداد الطعام و بيعه كما هو موجود الآن في المدن، سواء للوجبات الثقيلة أو الخفيفة، مع وجود نوع من الإحراج في تكليف

* قصة سالم بن إبراهيم السويداء وقد حدثت حوالي ١٣٢٥هـ.

النساء بعمل طعام إضافى فهم فى هذا الوقت من الليل الذى يعتبر متأخراً ولاسيا أن النساء قد أخذن نصيبهن من التعب والنصب طيلة ذلك اليوم وهن بحاجة إلى التمتع بالراحة والنوم، فى هذه الحالة يتبادلون النظرات التى تغنى عن الكلام فينبرى أحدهم قائلاً: إن «الجُوَادَ» خير وسيلة لسد إحتياجنا من الطعام، والجُوَادُ هو مسمى قائم آنذاك ومعناه أن يجود كل واحد منهم بعنصر من عناصر وجبة تلك الليلة فتكون عناصرها على ثلاثة أو أربعة هذه الليلة وعلى آخرين فى الليلة القادمة وهكذا وقوام هذه الوجبة دقيق القمح والأرز «التِّمَّنْ» العراقى والسمن ومستلزمات الطبخ بالإضافة إلى الخضار والفواكة والتمور، فقد تكون الوجبة من النوع سريع التجهيز «كالْحُنَيْنِيَّة» أو «الثَّرِيْدَة» والأرغفة مع السمن والبصل، وقد تكون مما يحتاج الى الطبخ كاللحم مع المرقوق أو المطازيز أو الأرز العراقى «التِّمَّنْ» أو الجريش مع اللحم بالإضافة إلى الرطب والتمر والخضار كالباذنجان والقرع واللوبيا والبطيخ والشمام والفاكهة كالخوخ والرمان والتين والعنب والتفاح والأترنج، أما أوانى الطبخ فتكون على أحدهم كذلك، ولم يكن هناك مكان لبيع اللحوم فيضطرون إلى شراء الذبائح من الخراف والتيوس وغيرها ويكون ثمن الذبيحة موزعاً على مجموعة منهم بالتناوب، وعادة لاتتعدى قيمة الذبيحة عدد أصابع اليد الواحدة من الريالات ثم يباشر عدد كبير منهم إن لم يكونوا كلهم فى تجهيز وجبة «الْجُوَاد» ومع الإعداد والتجهيز تكثر المسامرات، وتزداد المِلَحْ، وتنمو النكات، وتحصل المراهنات حول مختلف المواضيع، فيرتفع صوت الضحك، ليكون من إعداد هذه الوجبة عدد من الروابط التى تربط هؤلاء الشباب بأواصر قوية من المحبة والوئام ويصبح من تناولها لذة مابعدها لذة، أثناء أختطاف القطعة من الرغيف أو النتفة من اللحم أو إرتشاف اللعقة من المرق أو نهب الحبة من الفاكهة، ومايجرى خلال ذلك من منافسة، وقد يحصل رهان على من يأكل هذه الذبيحة لوحده، فإن أكلها بكاملها فهى له، وله مثلها على أصحابه فى الليلة القادمة، وإن لم يأكلها بكاملها فعليه أن يَغْرَمَهَا لهم بمثلها وقد يكون أحدهم أكولاً فيطلب إلى جانب لحم تيس له من العمر سنة يطلب ملء قُفَّةٍ من الرطب، فيبدأ عندما ينضج لحم التيس، إرتشاف رشفة من المرق وبعدها حبة من التمر يتبعها وصلة من اللحم ورفاقه قد تحلقوا حوله يتفرجون على أكله، ويتبادلون النكات معه ويضحكون، ويقهقه معهم وكأن عملية الضحك مما

يساعده على الهضم السريع، حتى إذا التهم معظم اللحم ولم يبق منه سوى يد واحدة طلبوا منه أن يشاركوه فيها، حتى إذا رفضن ذلك سامحوه عن الذبيحة المطلوبة منه فى حالة عدم أكله لكامل اللحم، وعند ذلك وافق على أن يذوق كل واحد منهم نتفة من اللحم، ويطوى الليل سُدُلَهُ وهم على حالتهم المرحة هذه ويخلدون إلى النوم قبل أن ينفلق عمود الفجر من الشرق ليباشر كل منهم عمله اليومى الجديد نشطين بقلوب صافية من أية عوالق أو أكدار، ضاربين اللقاء القادم فى الليلة التالية وبنفس المكان، فى هذا الجو نشأ سالم الشاب الذى يتبنى أكبر واحدة من هذه التجمعات، ويصر على أن يكون إجتماعهم دائماً فى بيته، أو قريبا منه، حتى إنه إشترى لهذه المهمة كامل ماتحتاج إليه من الأوانى وأبقاها فى مكان خاص بها، ومع أن سالماً قد تأصلت فى عروقه سجية الكرم، فإن الجو الذى عاشه قد بَلْور هذه العادة، وجعلها تسرى فيه مسرى الدّم فكان يُلَوِّحُ بأردان ثوبه الفضفاض لكل من يراه، من يعرف ومن لايعرف، من قريب أو بعيد بالإشارة التى تعنى، تعال الَيَّ وهَلُمَّ إلى بيتى، مما جعلهم يطلقون عليه لقب «لَفَّاحْ» ذلك اللقب الذى طغى على إسمه الحقيقى فى الوسط الذى يعيش فيه، وخارجه فصاروا لايدعونه إلابه، وكثير من هؤلاء الشباب الذين تعودوا السهر فى الليل والمحافظة على حلقات السمار تخف عندهم هذه العادة حينما يتزوجون وينجبون وتُشَدُّ ظهورهم بأعباء المسؤلية غير لفاح، فإنه بقى على ماهو عليه محافظا على هذه السجية، وزاد على ذلك أن خصص لهذه الحلقات جزءاً بارزاً من بيته أمَّنَ فيه كامل مستلزمات السمر، والجواد، وبقى باسم المُحَيَّا، تنشرح أسارير وجهه عندما يرى أو يسمع أحداً قادماً إلى بيته، تنطلق كلمات الترحيب من حنجرته قوية، يُحَمْحِمُ بها كحصان يصهل، ويباشر القادمين اليه بإيماءته المعهودة التى تعنى كلمة تفضلوا، إدخلو، حياكم الله، هكذا ديدنه فى سنوات الشدة والرخاء، وعندما إقترن بزوجته مريم ودخلت بيته وجدته على ذلك الوضع الذى لايلوى فيه على شيئ من متاع الحياة الرغيدة، كلما أدرك شيئاً من عرق جبينه من هنا أنفقه على هؤلاء السمار والزوار من هناك، بالإضافة الى ذلك كان يكلفها بعمل طعام لهؤلاء الضيوف أثناء تواجدهم عنده فى أغلب الأحيان، فكان عملها مزدوجاً تقوم فى النهار بعمل بيتها المعتاد، وفى الليل بتجهيز الوجبة لرفاق زوجها وضيوفه، ولما

أنجبت منه أربعة أطفال وهو على وضعه ذلك لم يتغير منه شيئ حاولت أن تعيده إلى الصواب، فما تراه بنفسها أنه الطريق الصحيح، فدار بينهما الحديث الآتي:ـــ

: ياأخَيّ، يالفاح، ألم يحن الوقت بأن تعقل وتثوب إلى رشدك حتى الآن؟
: يقولها بإستغراب!! ومن قال لك أنني غير عاقل يامريم؟ أتهزئين بي ياإمرأة؟
: معاذ الله، إنني لم أقصد ذلك، وإنما عنيت أنك الآن أصبحت أباً لأربعة من الأطفال، يحتاجون إلى الرعاية والعناية، بل ويحتاجون إلى أن توفرلهم شيئاً من المال يستعينون به على نوائب الدهر!!
: من علمك هذا الكلام؟ ومن أوحى اليك بهذه الأفكار؟
: لم يوح إليَّ أحد بها سوى الواقع، هذا الواقع الذى يعيشه الناس، فكما تعلم من شح في الأرزاق، وصعوبة بالغة في الحصول على لقمة العيش، ولو، لاسمح الله تَعَثَّرتَ اليوم بأي سبب لمات أطفالك من الجوع!!
: أذكرى الله ياإمرأة!! لن تموتي جوعاً مع أطفالك ولك رب يرعاك!؟
: الإتكال على الله واجب ينص عليه ديننا الحنيف، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «إعقل وتوكل» فلا تترك أطفالنا بدون إدخار.
: مادام هذا الرأس «ويشير إلى رأسه» تداعبه الرياح فلاتخافي من حاجة بإذن الله، سآتيك بها من أفواه الطيور!! يقولها بلهجة الواثق من نفسه.
: أطلب من الله أن يسلم رأسك ويبقية ويساعده، ولكن أود أن تقتصد في بعض الأمور غير الضرورية، كالتجمعات الليلية والولائم التى لاينقطع قَتَرُهَا!!
: «أفا عليك يا أم ابراهيم»!؟ أتطلبين منى أن أقلع عن شئ أصبح من مقومات حياتي؟ لقد أصبح يجرى منى مجرى الدم!! لاأستطيع العيش بدونه، ولا أطيق الحياة بغيره!؟
: أنا لاأطلب منك أن تقطع ذلك مرة واحدة، ولكن الإختصار في هذه الأمور والإقتصار على الأمور الضرورية «كالنائبة» التى تمر على الجماعة، فإذا وصلت إلى بيتك فيجب عليك أن تقوم بأودك، وماعداها فارجوا أن تختصرها إلى المعقول.
: إسمعي ياإمرأة، يقولها بغضب، كل شيئ يمكنك أن تحدثيني فيه وتطلبيه مني، ماعدا مطلبك هذا، فإنه من رابع المستحيلات أن أجيبك إليه وإذا كنت تريدين

أن تبقي عزيزة في نفسي، جليلة في عيني، فلا تعودى لمثل هذا الحديث مرة أخرى، أتريدين أن أصبر عن الترحيب في مقدم الضيوف والزوار؟ وأن أبتسم لهم مع شبة النار؟ وتقديم الزاد الميسور لهم حسب الاقتدار؟ وتبادل الأحاديث مع مجموعة السمار؟ إن هذه الأشياء أعتبرها دعائم حياتى، وسر بقائى، ولولا ذلك لمت قهراً. يقول هذا الكلام والإنفعال باد على وجهه، والتقطيبة تكسو حاجبيه اللَّذَيْن لم يعهداها إلا في ساعات الغضب.

: بعد أن سحبت نفسها قليلاً إلى الوراء وكأنها تريد أن تخرج من أقرب الأبواب إليها، وهي تقول بصوت خافت لايكاد يسمعه «لابارك الله بهذه الساعة التى تطرقت فيها لهذا الموضوع، إذا كُنْتَ ستبقى على هذه الحالة فلن يطرق الغنى بابك، وسيبقى رزقك الذى تجمعه لغيرك، وسيعيش أبناؤك عالة على الناس، وسترى صحة قولى؟!

: بعد أن أصغى بسمعه عَلَّهُ يميز مما تقول شيئاً، فيسألها ماذا تقولين ياإمراة؟

: إننى أقول، هداك الله ياأباإبراهيم، وأقول لابأرك الله بهذه الساعة التى أغضبتك فيها!! تقول هذا الكلام وفرائصها ترتعد!

: إننى أكاد اسمع منك كلاماً غير هذا، مثل عيشة أبنائى عالة على الناس، وهذا لن يكون مادمت حياً إن شاء الله، وحتى لومت فسيظهر أبنائى على طبيعة آبائهم وأجدادهم وأقاربهم، إننى لاأذكر، ولم يذكر أحداً من أفراد هذه الأسرة بكاملها إلا ويخرج من لاشيئ فيكُوِّنُ نفسه بنفسه حتى يصبح يشار إليه بالبنان، ولا إخَالُ أبنائى سيقصِّرون عن هذا المنهاج أنها العصامية!! ياإمراة؟!

: أتسمح لي بالإنصراف لأحضر الماء القراح اللازم قبل أن يقف الساقى، وتنضب جورة الماء القراح؟!

: توكلى على الله، رافقك السلامة، و يبدأ بترديد هذا البيت.

١٥ رزق غيرى ياملاما مايجينى وزرقى يجي لوكل حَيٍّ يحايله

* * *

وما إن غربت الشمس وعاد الناس من أعمالهم بعد صلاة العشاء الآخر في مساء تلك الليلة من ليال آخر الخريف وأوئل الشتاء «الصَّفِريْ» التي يرتدي الناس فيها بعض ملابس الشتاء، و يرغبون القرب من موقد النار، لكي يتناثر العرق منهم يتأثير صلوها، حتى توافد عشاق أحاديث السمر إلى ناديهم ألمعهود في بيت لقّاح، ومإن قربوا منه حتى سمعوا صوت «نجر» القهوة يرن معلنا دَقّ الطبخة الأولى المخصصة للسمَّار، وما إن دخل عليه صديقاه محمد وسعدون، حتى أبش في وجهيها مرحبا بمقلمها، وقال لها مداعباً، أنا الليلة تفاءلت فأل خير، أن أول من يدخل علي من أصحابي فسوف اسمي إبني القادم بعد أيام بإسمه، فأيكم دخل الأول؟ فقال محمد أنا، فهز رأسه قائلاً: قد وجبت، أما الداخل الثاني فسيكون عليه تجهيز أكلة «الحنينية» هذه الليلة، وستقوم بها أنت ياسعدون!! فقال له سعدون: أبشر يا أبا إبراهيم، ولكن لاأتقن عملها تماماً، وأخشى أن أخربها عليكم،؟ فيرد عليه لقّاح إن لم تعملها جيداً فسوف نجبرك على أكلها «تحت رأس المشعاب»(١)!! سعدون لا والله، مادام الأمر كذلك فلن أعملها بمفردى، لكنى سأستعين بمن يتقن عملها حتى إذا حصل في الأمر «مشاعيب» فلن أتحملها لوحدى، أوَتساعدنى يامحمد؟! وقطع حديثهم دخول مجموعة من الشباب الذين جذبهم ضوء النار ورائحة القهوة المحمصة وما إن أخذوا مجالسهم حتى أدبرت القهوة ودارت معها الأحاديث بمختلف الشجون، ومن ضمنها مادار بشأن وجبة تلك الليلة ومن سيعملها!؟

فانبرى من بينهم عبدالمحسن الذى إستعد بعملها على مسئوليته ولاسيا في تلك الليلة التي تعتبر من ليالي أوائل الشتاء، ولكنه قال:

: أنا على إستعداد لعملها الآن، على مسئوليتى، ولكن أين نعملها؟
: الله يهديك يا «محيسن» وهل يخفى عليك مكان عملها كل ليلة؟ إن لديك هذا الكانون الذى تبرك فيه الناقة بكبرها!!
: والدلال أين نذهب بها؟
: أصبر بعض الوقت حتى ننتهى من شرب الطبخة الأولى من القهوة و يرتشف هؤلاء «النشاما» مايريدون منها و بعد ذلك تبدأ عملك.

(١) يعني بالقوة

: وأين الحطب؟

: إن هـذا الـدهـليز قد نضد فيه من جذوع الرمث حتى وصل الى السقف فعليك أن تأخذ منها وتوقد النار الكافية لشواء الخبز فيها.

وما إن إنتهى الصحب من شرب دَلَّةِ القهوة حتى جذب الدلال لقّاح وأخرجها من الكانون، وأتى عبدالمحسن بملء حضنه من الحطب الجزل مرة بعد أخرى ووضعه على النار، وأرتفعت ألسنة اللهب حتى كادت تلامس سقف غرفة القهوة الذى يرتفع حوالى أربعه أمتار وتحت صلو حرارة لهب النار، إنتحى الرجال إلى أقصى زوايا الغرفة، وعلى ضوء تلك النار الملتهبة قدم شباب جدد، وما إن خمدت النار وهدأت حتى غص المجلس بالسمار، وأحضر لفاح دقيق القمح والسمن البرى، وتمر الحلوة، وشرع عبدالمحسن فى عجن الدقيق، بينما بدأ سليمان بإخراج نوى التمر وتجهيزه ووضعه فى السمن الموجود بقرب النار بقدر كبير مخصص لهذا الغرض ودارت الأحاديث والمساجلات الشعرية، وارتفعت أصوات الضحك وبعد أن جهز عبدالمحسن عدداً من خبز الجمر التى يبلغ قطر الواحدة منها حوالى ٤٠سم، وسماكتها حوالى ٥سم وحرث لها أماكن فى الجمر ودفنها، وبدأ يراقبها ومعه محراث النار الذى يُقَلِّبُ به الجمر• بينما جَمَّعَ لفاح شيئاً من الجمر بالملقاط على جانب من الكانون وبدأ يحمص عليه طبخة قهوة جديدة، ثم وضع الدّلة عليه، لأنه لايستطيع وضع مزيد من الحطب حينا كان الخبز داخل النار خشية إحتراقه، وبعدما يزيد على الساعة أخرج عبدالمحسن الخبز من النار ناضجاً أشقراً وقد أنضجه الجمر دون أن يكون هناك حرق فى أى واحدة منه، حتى فى الحواف فإن أثر النار فيها خفيفا، ونظفها تماماً ثم أخذها جانبا على سفرة من الخوص واحدة بعد الأخرى وأخذ عصا غليظة ضربها بها حتى تفتت إلى قطع، صغيره، ولم يتّحرجْ البعض فى أخذ كسرة من الخبز الساخن قبل أن يدخل السمن، فى هذا الوقت أنتهى سليمان من نزع نوى التمر و«عَبَكَهُ» بالسمن على جانب النار، ثم أضاف إليه عبدالمحسن الخبز وبدأ يَثْرُدَهُ ويقلّبَهُ حتى إختلط الخبز والتمر بالسمن، وصار الخليط كالعجينة القاسية عندها وضعها عبدالمحسن على جانب النار وغطاها، وجلس يرتشف القهوة مع صحبه، وأعيد وضع مزيد من الحطب على النار، وتحلق

القوم حولها، وقد مضى من الليل مايقارب نصفه عند ذلك قُدّمتْ تلك الجَفْنَةُ لهؤلاء الرفاق، وتناولوها يلتهمونها بشهية وشره، وهم يتبادلون أطراف الحديث، وهنا قال رفيقه رُشَيْد: إن هذا السمن الذى جئت به ياأبا أبراهيم له نكهة ممتازة وطعم لذيذ، أهو من السمن الذى تعملونه فى البيت؟ فأجابه لفَّاح، بعد أن ضحك بصوته المعهود، لا والله إن هذا السمن طُعْمَةَ قد أتى بها رفيقاً لي من بادية «السُّوَيْد» عصر هذا اليوم وقد ذقتموها أيها الرفاق قبل أن يذوقها أهل بيتى، وهذا مما يسرني فعله، فيرد عليه رشيد، كفوْ ياأبا إبراهيم، الكل يعرف أن الذى فى بيتك ليس لك و يضحك الجميع، وكأنهم يوافقونه على قوله إنه عين الصواب، ثم أردف رشيد، على من الجواد هذه الليلة، فأجاب لفَّاح، إنه علي لوحدى وذلك لكى تذوقوا هذه الطعمة قبل أن تنفذ، قالها وهو يضحك!! و بعد أن إنتهى الرفاق من الأكل غسلوا أيديهم بعد الأكل، وتدفأوا على صلو النار، وقد جاوز الوقت منتصف الليل، فخرجوا من عنده إلى لقاء فى الليلة القادمة، هكذا دأبه فى أيام الرخاء يقدم لضيوفه وقاصديه أعز مايملك، وفى أيام الشدة لايوفر شيئاً يبخل به عليهم، أما الشئ الذى لايتغير لديه فهو ذلك الجبين الضاحك، والوجه البشوش، والإستقبال الحار، وعبارات الترحيب المتدفقه بالحيو ية والبشر، وشبة النار، وتقديم القهوة العربية إلى رواد ناديه، فى أوقات اليسر والعسر على حَدٍّ سواء.

وفى صباح ذلك اليوم الربيعى الغائم دنف لفّاح الى بيته ليتناول طعام الغداء، لكن زوجه مريم أخبرته أنه لايوجد من الطعام مايمكن أن يتناوله ذلك اليوم، ذلك أن أطفالها الستة قد ذهبوا إلى أخوالهم لتناول طعام الغداء عندهم ذلك اليوم، أما هى فلم تذق شيئاً طيلة ذلك اليوم، وهى تنتظر عودته لتدبير قوت لعيالها الذين قد يبيتون الليلة جياعاً، هذه الكلمات كانت لـ لفاح بمثابة الصفعة القو ية على وجهه واشتاط غيظا لإرسالها أبناءه خارج بيته، فتنحنح وأنتصب قائماً وقال: يافتاح ياعليم يارزَّاق ياكريم، ناولينى عباءتى فأخذها وأرتداها وخرج من بيته بعد أن أخبر زوجته أنه سيذهب إلى صديقه فلان من أثر ياء البلد عله يتدبر له قوت عياله، حتى تتيسر له القيمة المترتبة على ذلك فيسدد ماله وأثناء خروجه فى الشارع إلتقى به أعرابي وسأله.

: يارجل، أسعد الله مساءك، ألا تعرف بيت رجل يدعى لفاحاً؟

: ولم يكن متأكداً من هدف السائل «لا» وماذا تريدبه؟

: إننـي مرسل اليه، ولا أريد به إلا الخير، وأنت أول رجل أصادفه منذ أن دخلت هذا السوق، حيث لم أصادف الا هؤلاء الصبية الذين يضحكون علي، ويهزأون بى، فإذا تعرف بيته أرجو أن تدلنى عليه وأكون لك شاكراً؟

: معك حق، إن هذا الوقت معظم الناس فى أعمالهم، وحتى الجالس فى بيته قد يكون نائماً، إنها وقت القيلولة، ولكن ماذا تريد بلفّاح؟

: دلنى عليه وسوف ترى أننى لاأريد به إلا خيراً؟

: أنا هو!!

: باستغراب!! أأنت هو!؟ لماذا لم تخبرنى منذ البداية؟ لاأصدق ماتقول.

: لقد أمتنعت فى بداية الأمر حتى يتأكد لي سلامة مقصدك!!

: لن أصدقك حتى أسأل ذلك الرجل، و ينطلق الأعرابى إلى ذلك الشيخ الكبير المقبل فيسأله: ياولد، أتعرف لفاحاً؟ ويحملق الشيخ بوجه الأعرابى و يرد عليه هازئاً «وَلَدٍ وَمُصَيِّفْ»!! لفاح ذلك الرجل الذى تجاوزته خلفك! وعاد الأعرابى إلى لفاح خجلاً وهو يقول: لا تلمنى ياأخيَّ يجب على أن أتأكد من شخصيتك لأن معى لك أمانة قد أرسلها لك فلان وطلب منى أن أسلمك إياها يداً بيد، هذا الحمل الذى فوق البعير من «التَّمَّنْ» إن فلانا يهديك السلام و يقول هذه طُعْمة لك مما أحضرته قافلتنا من العراق.

: سَلَّمَ الله الحاضر والغائب، تفضَّل، تفضَّل، وأخذ الأعرابى برسن بعيره وسار خلف لفاح، حتى أناخه عند باب البيت وعقله وأنزل الحمل من على ظهره وأدخلوه فى البيت، وعند ذلك أدخل لفاح ضيفه وأكرمه، وفى أثناء غياب لفاح القصير عن المنزل أتى اليه أحد أصدقائه وسأل عنه زوجته، فأخبرته أنه ذهب إلى فلان، والَمْحَتْ له عن المهمة التى ذهب من أجلها، فذهب ذلك الصديق يتعقب لفاح ويحسبه ذهب الى الصديق المقصود وعندما وصله سأله عن لفاح فأخبره أنه لم يصل اليه حتى الآن، ونقل اليه الإشارة التى فهمها من زوجته عن الغرض من مجيئه ثم عاد يبحث عنه حتى أدركه فى بيته، فما كان من ذلك الرفيق الذى فهم

حاجة صاحبه لفاح حتى جهز له من الطعام مايكفيه وأهل بيته فترة من الزمن، وذلك ليحمله اليه على الدواب مع حلول الظلام، هذا ماكان من رفيقه عُبَيْد أما ماكان من لفّاح فإنه عندما دخل بيته على زوجته قال لها.

: مريم، أبشرى فقد رزقنا الله رزقا من عنده لم نحلم به، هكذا الرفاق لايضيع عندهم معروفاً، لقد بذلت لهذا الرجل معروفا قبل سنتين، والآن إتضح لي أنه لم ينس صديقه أو يدفن جميله، فجاءت أفضاله فى الوقت المناسب.

: لا تقل رزقنا الله!! بل قل رزق غيرنا، فما فى بيتنا ليس لنا، إنك ستنفده للآخرين!!.

: وقد بدى الغضب على عينيه، احمدى الله واشكرى نعمته ياإمرأة؟ وأطبخى لنا منه غداءاً الآن.

: تتجه الى المطبخ وهى تتمتم بينها وبين نفسها، هذه أول بادرة النفاد، والليلة باقيه، وسترى يالفاح صحة قولي!!

وعاد لفاح إلى غرفة القهوة ليعمل للضيف القهوة، بينما وقف رجلان عند الباب وسأل صالح عمراً.

: لمن هذا البعير المعقول عند باب لفاح؟

: إنه لرجل جاء يمشى خلف لفاح!

: وماذا معه؟

: إن معه حِمْلاً، أعتقد أنه من «العيش» أوما يشبهه، لاأدرى؟

: أتراه قد اشتراه؟ أم أهْدِيَ اليه؟ أو أرسل اليه كبضاعة؟

: من أين يشتريه؟ إنه غالي الثمن، أما الهدية فاحتمالها ضعيف، ولوأراد أن يهدى إليه أحد شيئاً فإنه سيهدى اليه مقداراً قليلا!!، هكذا أرى!! أما التجارة فبعيدة كل البعد لأن لفاحاً لايعمل بالتجارة.

: المهم أنه دخل بيته وسينعم به طيلة فصل الربيع!!

: «أفّا عليك»!! ألا تعرف لفاحاً؟ سوف ينفده فى بضع ليال!! سيقدمه لضيوفه وقاصديه!

: ألهذا الحد يبلغ به التبذير فى هذا الوقت بالذات؟

: ألا تعلم أن الذى في بيت هذا «الأجودى» ليس له؟ لندخل القهوة ونأخذ علوم ضيفة.

ودخل الرجلان إلى غرفة القهوة ورحب بهما وجلسا وأدار عليهم القهوة مع الضيف، وتوافد القوم عليهم، وماهى إلا نصف ساعة حتى إمتلأت القهوة بالرجال، وبعد تناول القهوة حان موعد صلاة العصر، فنهض القوم لأداء الصلاة فى المسجد ونبّه لفاح على الحاضرين بالعودة بعد الصلاة، لمشاركة هذا الضيف غداءه، فعاد بعضهم، وغاب آخرون، وما إن قدم الليل حتى جاءت الدواب المرسلة من رفيقه عُبَيد والمحملة بالمؤن لتضيف إلى ماجاءه بعد ظهر ذلك اليوم كميات أخرى، وأصبح بيته فارغاً وأمسى ملآناً.

* * *

كان هناك اختلاف فى وجهات النظر بين لفاح وزوجته من الناحية الاقتصادية، لقد طبع على الكرم، وتعود على البذل والعطاء أحيانا بكل مايملك دفعة واحدة، أما هي فتطلب منه الإعتدال، و يأبى عليها ذلك ولما كبرت فى السن وشارفت على الأربعين، وأصبح بنوها رجالاً، رغب لفاح أن يتزوج ثانية تجدد عليه حياته العاطفية، وكانت هذه النقطة هى الحدث الفصل بينهما فحملت زوجته فى نفسها ماهو كفيل بالفرقة وعند ذلك ربأ بنفسه أن يخضعها لرغباتها، وقد أختار هو بنفسه الحل المناسب فمنحها هى وأولادها بيتاله مجاوراً لبيته وتعهد بنفقتها إن هى إحتاجت اليه، لاسيا وأن أولادها قد صاروا رجالاً، بينا تزوج هو بإمراة أخرى أسكنها في بيته، واستمر على وضعه السابق لايطأطئ رأسه لمخلوق سواء أكان من بنيه أو أقاربه، فقد بقى على عزة نفسه وسخائه، وبذله، ومعاملة الناس بالحسنى والمعروف وقد تجاوز منتصف العقد السادس من عمره ورزق من الزوجة الثانية بولد وإبنتين» لايزالون صغاراً يحتاجون إلى العون والمساعدة، وفى صباح ذلك اليوم الربيعى أخبرته زوجته الأخيرة رقية أنه لايوجد فى بيته أى طعام غير ماقدمه لضيوفه البارحة، فرد عليها جملته المعهودة «يافتاح ياعليم يارزّاق ياكريم» وطلب منها أن تعطيه عباءته وعصاه، فارتدى العباءة وخرج متوكئا على عصاه، فى وقت حصل فيه شح

فى المواد التموينية فلا يوجد منها إلا اليسير و يباع بأسعار عالية، وفى طريقه مَرَّ على أثنين قد جلسا على قرنة الشارع، فاستوقفاه وطلبا منه أن يجلس معهما، فأخبرهما أنه ذاهب إلى رفيقه فلان لعله يحصل على طعام لأطفاله الصغار فتركهم وذهب وعند ذلك دار بين على ومحسنَ الحديث التالى:

: مسكين هذا الشيخ ومن سيعطيه طعاماً فى هذا الوقت الذى لايوجد فيه غير الألبان فقط.

: يستأهل ماهو فيه من الفقر!! دعه زاده الله على فقره فقراً!!

: إتق الله يارجل، ولا تقل هذا الكلام، فالفقر ليس عيباً ياأخى!؟ وهذا الكرم

: أنه مبذر لايستحق هذا الدعاء.

: إنه لم يبذرها بطرق مِعْوَجَّةٍ، وإنما أنفقها فى طريقها الصحيح، لقد قدمها لضيوفه، وأنت!! أنت بنفسك كم من المرات شبعت فى بيته؟؟

: أنا لم أقل بذلك شيئاً وإنما أقول إنه لايملك مالملك!!!

: ألا تعلم أنه لايتفق الغنى والكرم فى بيت واحد؟! إنهما ضدان متناقضان، قد يصبح الكريم أحوج إنسان فى ساعة من الساعات ثم تنقضى حاجته و يفرج الله كربته!

: ولكنه ... ولكنه قد زاد على المعقول.

: ولكن ياأخى لاتنس أنه طالما مر بنا من هذه القرنة وهو يدعونا إلى اللحاق به لتناول وليمة لديه، فلماذا تصمت عنه آنذاك؟ وأراك الآن تشن عليه حرباً شعواء؟ بالرغم من أنه لم يطلب منك شيئا، فكيف لو طلب منك ذلك؟

: يطلب!! والله لو اراد ذنباً من ذنوبي ماأعطيته إياه:

: إذا كف أذى لسانك عن هذا «الأجودى» ذلك اللسان الذى يشبه المبرد.

: أراك تتحامل عليَّ لصالحه، ماذا عمل لك؟

: لم أنل منه غير الخير، ولذلك فلا أقل من أن نكفيه شرنا. ووصل لفاح إلى صاحبه، وقضى حاجته وفى مساء ذلك اليوم قدم إلى البلد رجل يسأل عن لفاح، ومعه قطيع من الغنم وبعيرين محملين وعندما وصل اليه أناخهما وأدخل الحملين عليه مع الغنم ومعها رسالة شفوية تقول «فلان يقرؤك السلام و يقول لك هذه

«ٱلْعَدُوْلَةِ»(١) التى وضعتها معه قبل عشرين سنة لقد نماها لك ولما علم بنقص الطعام الحاصل بالبلد إشترى لك من اقيامها هذين الحملين أحدهما من القمح والآخر من الأرز ومعها شيئ من الأقط والسمن وهذه الأغنام وهذه النقود، وقد بقى لك دفعة سيرسلها لك فيا بعد» وعند ذلك أخبر الرسول أن مابقى منها فهو من نصيب الرجل الذى تولى الموضوع، وأعطى الرسول شيئاً من النقود واكرمه غاية الاكرام، وفى صباح اليوم الثانى أصْعَدَ الى رفاقه فى أعلى البلد ليدعوهم إلى وليمة عنده هذه الليلة، وعندما أقبل على الرجلين علي ومحسن وهما جالسان فى قرنتهم، همس محسن فى أذن علي، ها، قد جاء لفاح، ليطلب منك اليوم قوتاً لبناته!؟ فيرد عليه علي، إتق الله يارجل ولما وصل إليهما سلم عليهما، فبادره محسن بلهجة لاتخلو من السخرية.

: الى أين تريد اليوم يا أبا إبراهيم؟ ألم يقض فلان حاجتك بالأمس؟

: لاوالله، ونعم الرجل، لقد قضى لزومى!! ولوطلبت منه أحد أبنائه لما بخل به عليّ!! هذا أخو فلانه، أما تعرفه؟

: إنه كفوء لذلك!!

: إننى الآن سأدعو رفاقى لتناول طعام العشاء الليلة وأنتم بطبيعة الحال مدعوون معهم بعد صلاة المغرب مباشرة فلا تتأخروا!!

: طعام العشاء!؟ وتدعو كل هؤلاء الناس؟ عجيب أمرك بالأمس أصعدت من هنا تطلب قوتا لأبنائك الصغار واليوم تعود من نفس الطريق لتدعو الناس إلى وليمة كبيرة؟

: الرزق على فاطر السموات والأرض، فقد رزقنى الله فى نفس اليوم، وأمرنا الله أن نظهر آثار نعمته، قالها وهو يغادرهم، مكرراً لاتنسوا الموعد!؟ إنه غريب أمر هذا الرجل، بالأمس القريب يطلب العون البسيط واليوم يقدم وليمة قد تكفي لبيته وعياله شهراً!؟

: لقد قلت لك إنها سجية الكرم، لايستطيع مقاومتها، إنه يقدم، ويقدم، ولكن الله يعوضه، ولقد صدقت فيا قلت بالأمس، «إنه لايملك ماملك» وهكذا تبقى هذه الصفة تلازمه طيلة حياته حتى توفاه الله الى رحمته وبقى ذكره عطراً وقد أورث هذه الصفة لبنيه وأحفاده من بعده.

(١) العدولة هى جزء من المال يضعه الرجل عند الآخر لينميه له ويكون بينهما بالمناصفة.

١٢ - يمسح دموع والده*

الحاجة هي محك الإنسان، هي التي تكشف عن جوهره، إن كان ذهبا إبريزاً، أو صفراً «متأكسداً»، إن كان ماسا وهاجاً، أو نوعاً من الزجاج الرخيص، وبدون الحاجة لاتكاد تميزّ الغث من السمين، ولاتعرف المخلص الصادق من المماري المتملق، ولايتبين الرجل الذى تستطيع بعد الله الاعتماد عليه والإستناد إلى تدبيره، فى أوقات الحاجة التى تعوذ الناس منها، إلا أن لها فضل كبير فى بلورة وصهر المرء وإظهاره على حقيقته وإبراز مدى علاقته بالآخرين وعلاقاتهم به من قريب أو بعيد، وتختلف الحاجات، فهناك الحاجة التى يتوفرلها بدائل يمكن أن تحل محلها، وهناك الأخرى التى قد لا تسير القافلة بدونها، والثالثة التى لاغنى للمرء عنها، وهذه التى قد تتوقف عليها الحياة أو الموت، فمن قضاها كأنما أنقذ إنسانا من غائلة المنية، وربما إضطرت الإنسان حاجته إلى إتخاذ مواقف انتحارية يفقد على أثرها حياته الغالية، وربما ضحى بكل ما يملك فى سبيل قضائها، وإن وجد من يقضيها له فإنه يعتبره بمنزلة والده أو أخيه، وربما زاد على ذلك وإذا أسدى المرء معروفا بقضاء حاجة أخيه فى الدين أو الدم، فقد أنقذه من مأزق فيما أسدى اليه أما إذا فعل هذا المعروف مع قريبه أو أخيه أو أحد والديه فهذا بلاشك أرفع منزلة وأعظم أجراً، وقد مرت بالجزيرة العربية سنون عجاف يعز على المرء فيها الحصول على لقمة العيش بأى ثمن وإذا حصل عليها بهذه الندرة فإن أفواها قد تلتهم ماحصل عليه فى لحظات، ومن أين له أن يستمر فى إمداد هذه الأفواه بما تحتاج اليه مع ندرة ذلك، وهذا الظرف قد مر على «فَرَج» الرجل الرزين الذى كان ينزف من عرق جبينه، ويلحى من عضلات ساعديه لكى يطعم تلك الأفواه الجياع، والده المسن، زوجته، أطفاله الصغار، أخواته الأرامل، أبناء اخواته الأيتام، بالإضافة الى الضيوف الغادين والرائحين إلى داره لواقعة فى مكان بارز من البلد، والتى يقصدها عادة هُشَّال الليل، ومريدى الغذاء والدفء والراحة فى معظم الأوقات، ليس له مايساعده على هذا العبء الثقيل سوى الله ثم مزرعته ذات الحجم المتوسط التى يعل بها أبناؤه وأخوه وأفراد اسرته، هذا الى

* قصة فرج بن مبارك الغُرَيْس رحمه الله حدثت حوالى ١٣١٠هـ.

جانب حصيلته من المتاجرة بالمشغولات الخشبية التى تفى بحاجة السكان المحليين، وتباع عليهم بالنقد حينا و بالمقايضة أحيانا بأي نوع من أنواع الطعام، وفى عمله هذا يكاد أن ينطبق عليه مثل «السقاء» وقصته مشهورة عند الكثير ين، ولا أرى بأساً من إيراد موجزها ليطلع عليها من لم يعرفها، تقول القصة: أنه مرأمير مع رجاله على رجل يسقى الماء للبيوت بإنائين معلقين بعصا طو يلة يحملها على كاهله، و يسكب مافى الإنائين من الماء فى البيوت مقابل أجر زهيد يدفعه له أهل تلك البيوت، وكان ذلك اليوم شديد البرودة، وقد نال الرجل من خرير الماء الذى يحمله على ظهره أن لشقت ثيابه وتبللت ساقيه، حتى كاد الدم أن يتجمد فى عروقه، وعندما مر عليه ذلك الأمير وصحبه سأله قائلا: أيها السقاء ماالذى جعلك تتحمل لثق الماء و برودة الجو فى هذا اليوم القارس؟ فأجابه السقاء قائلاً: ياسيدى، إننى أوْفي دَين، وأدَيِّنُ دَيْن، وأرْمي فى بحر» فقال له ألامير: أعانك الله يابنى ولكن «إذا جاءك الخروف كثير الصوف، لاتبع برخيص» فرد عليه السقاء: «لا تُوَصِّي حريص» وأنصرف الأمير وصحبه من عند السقاء، وعندما إستقربهم المكان وامضوا سحابة ذلك اليوم وتناولواطعام العشاء جلسوا للسمر فسأل الأمير رفاقه أتدرون عن معنى الحديث الذى دار بينى وبين السقاء الذى مررنا فيه عصر هذا اليوم؟ وهنا إشرأبت أعناق القوم، واشتد إنتباههم لمعرفة معنى سؤال الأمير، وأنتظر منهم الجواب: فلم يتضح له مايدل على أن أحداً منهم يعرف الإجابة على سؤاله، وهنا طلب أحدهم من الامير إعادة السؤال فأعاده، فأجاب أكثرهم ذكاء ونباهة، لقد دار حديث بين الأمير والسقاء، يشبه الألغاز والكلام، ولقد عرفت نص الحديث، ولكن لم أعرف الإجابة عليه وتفحص الأمير وجوه القوم عَلَّهُ يجد من بينهم من يتوسم فيه علامات الإجابة، ولكنه رأى صحبه قد طأطأت رؤوسهم وإنكسرت نظراتهم لدى مرور طرفه على وجوهم وعند ذلك طلب منهم واحدا بعد الآخر الإجابة فلم يجد منهم الإ المعرفة بصلب النص فقط، ولم يجد بدأ من أن يطلب منهم الإجابة على تفسير ذلك الحديث قبل طلوع الشمس بأى شكل من الأشكال، وإن لم يأتوه بالإجابة فسوف يجردهم من خدمته ونهض من مكانه قاصداً خيمته لينام واشتغل القوم وبدأوا يعصرون أفكارهم علهم يجدون الحل قبل أن يحين الموعد المحدد فى الصباح، وأخيراً إستقر رأيهم على أن

يـذهبوا الى البلد للبحث عن ذلك السقاء والحصول منه على الإجابة بأى ثمن كان، فـذهبوا يسألون عنه من مكان إلى آخر حتى عثروا عليه فى بيت خرب حقير، وعندما طـرقوا عليه الباب عرف أنهم صيده الثمين، إنهم «خو ياء» الأمير الذى مر عليه أصيل ذلك الـيـوم فـسـألهـم عنّ حاجتهم، فقال قائلهم: إننا جئنا إليك نر يد تفسيراً للكلام الـذى دار بـيـنـك و بين الأمير عصر هـذا اليوم، فأجابهم إن ذلك غالي الثمن، لايمكن إعـطـاؤه مجـانـاً، فـطلبوا منه أن يبلغهم بما يرضيه لكى يخبرهم، فردد جملة، إن الجواب غـالي أيها الرفاق فدفعوا له مامعهم من النقود فلم يقبل، و بدأت المساومة بينهم و بينه حـتـى طـلـب منهم كامل أسلحتهم المكونة من السيوف، والخناجر والمُدِيْ، ولما قبضها وخـبـأهـا فى مكان أمين، أخذ عليهم عهداً الا يمسوه بسوء عند ذلك قال لهم إن معنى كـلامـى لـلأمير أنـنـى أو فى دين، أى أعتنى بوالدي وأرعاه وأقوم بكامل واجباته فهو الـذى ربـانـى وساعد على نشأتى حتى صرت رجلاً سو يا، وما أقوم به نحوه أعتبره رد لـبـعـض جـمـيـله علي ودين على عاتقى يجب الوفاء به، وأديِّنُ دين: أى أر بى أبنائى الـذيـن بـذرتـهـم عـلـى أرض الـواقـع، وأقوم بأودهم علهم ينفعونى فى المستقبل، وفى أخـر يـات حـيـاتـى، وأرمي فى بحر، أى أصرف على زوجتى التى قد تتنكر لمعروفي نـحـوها طيلة العمر فى لحظة واحدة فيضيع جهدى كمن رمى متاعه فى البحر، ودهش الـقـوم مـن مـعـنـى كـلام الـرجـل الـفـقـير، وقالوا له بلسان واحد، ومن الخروف كثير الصوف؟ فرد عليهم، ليس غيركم أحد!! ولم أبع عليكم برخيص كما أوصي أميركم، مـع السلامة وأوصد الباب دونهم، ودخل إلى بيته، فوقف القوم مشدوهين أمام بيته، وعـادوا إلـى مـقـر إقـامـتـهـم لايـلـوون عـلـى أثر، عُزَّلاً من السلاح غير أن مايهوِّنُ عليهم خـسـارة سلاحهم أنهم عادوا بالشي المطلوب، وفى الصباح الباكر عندما جلس الأمير، تـزاحمت المنـاكـب نحوه مستبشر ين بعثورهم على الإجابة الصحيحه، وعندما رآهم الأمير عـزلاً مـن الـسـلاح، سـألـهـم: وأيـن أسـلحتكم؟ فلم يجبه أحد!! فأيقن أن السقاء قد أخـذهـا منـهـم، فـعند ذلك أبلغهم أنه لايرغب فى خدمة أي واحد منهم، وصرفهم عنه قائلاً: إننى لاأرغب صحبة أناس أغبياء هذا موجز القصة وماينطبق على فرج منها هو فحوى كلام السقاء.

* * *

فهو يؤدى واجبه نحو أسرته بكاملها، وعلى رأسها والده الذى يعتنى به عناية خاصة، لاسيا وأن والده قد جاوز العقد الثامن من عمره وأصبح بحاجة ماسة إلى العناية والرعاية، لذلك فهو يتولى بنفسه إعداد طعامه، وشرابه، ونومه، والسهر على راحته، لايكل ذلك إلى أحد، وكما أسلفنا فإن الطعام قليل الوجود ولذلك صار فرج يأتى بالقمح و يكلف زوجته بطحنه ثم يضعه فى مستودع صغير داخل غرفة القهوة، مع شيئ من السمن البرى والتمر، وفى صباح كل يوم يتناول فرج مع أفراد أسرته طعام أفطارهم المكون فى الغالب من العصيدة الرخوة ثم ينصرف الجميع إلى أعمالهم فى البستان، و يبقى فرج عند والده فى غرفة القهوة، و يعمل له القهوة وعلى نارها يعمل له قرصا من البر على قدر رغبته فى الأكل، ثم يثرده له بالسمن البرى والبصل المقطع، و يناوله إياه حتى إذا شبع أدنى منه الماء الساخن وغسل يديه وفمه، وهذه الوجبه القليلة خاصة بالشيخ لايذوق منها فرج شيئاً، بل يكتفى بما تناول مع أفراد أسرته فى وجباتهم العادية، حتى إذا حان موعد الغداء، عمل له مثل ذلك، و يعتنى له بعشائه بالقدر الذى ترضى به نفسه، وإذا حصل على لحم فإنه يختار لوالده من أطيب اللحم و يطبخه له لوحده وربما يشو يه إذا كان من لحوم الطيور التى يصطادها له ببندقيته، بالإضافة إلى ذلك كان يعتنى بنظافة ملابسة، و يداو يه إذا رأى فيه أى ظاهرة من أعراض المرض، و يأخذ بيده الى المسجد لأداء الصلاة بجانبه، هذه المعاملة التى يعتبرها جزءاً من الواجب المتحتم عليه، بينما ينظر إليها أخوه فهد وكأنها طاعة عمياء وخضوع أكثر من اللازم، ورغم أنهما يعيشان بأسرتيهما فى بيت واحد، إلا أن هناك فرق شاسع بين معاملتهما لوالدهما، سواء ماكان منهما شخصياً أوما كان من زوجتيهما ومع أن زوجة فرج فاطمه ترى أن كل وقته يصرفه لخدمة والده، وأداء أعماله اليومية ولاتحصل من وقته إلا على أقل القليل، فقد تأثرت تبعاً لذلك، لكن فرجا لم يرخ لها العنان ولذلك كانت تطيعه أحيانا وتجامله وتصانعه أحيانا أخرى على مضض، وذات يوم وصل بها الإنفعال إلى أن إنفلت لسانها بجملة بدون شعور منها.

: صار هذا الشيخ شغلنا الشاغل.

: بعد أن وقع هذا الكلام على سمعه كالصاعقة، ماذا تقولين ياإمرأة؟

: إننى أعنى أنك إنشغلت أعانك الله فى خدمة والدك، مما جعلك بعيداً عنا.

إذا شغلت عنكم في العناية بوالدي وخدمته، فهذا جزء من واجبي نحوه، وأعتبره من أهم واجباتي، بعد أداء واجبي نحو ربي، فقد أمرنا الله تعالى بقوله **«وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبغلن عندك الكبر أحدهما أوكلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما، وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي إرحمها كما ربّيانى صغيراً» صدق الله العظيم.**

: صدقت، صدقت!! ولكني لم أعن ذلك وإنما أردت أن تمنحنا بعض السويعات التي نقضيها معاً، من الوقت الذي تجود به بسخاء نحو والدك، أحيانا بدون أن يكون بحاجة اليك، كأن يكون نائماً.

: إن الوقت الذي أقضيه مع والدي لمحادثته ومؤانسته، وخدمته إذا أراد حاجة معينه لهو من أحب الأوقات إلي!!

: وأنا كروجة لك فإن لي حقا عليك!!

: إن لك كل الحق، ولكن بعد والدي الذي أوجدني الله على هذه الأرض بسببه، أما والدتي فقد تغمدها الله برحمته ولم أتمكن من خدمتها، وبعد ذلك يأتي التزامي نحو عملي الذي لايمكن أن تستمر حياتنا بدون الإنتفاع من إنتاجه وأنا مدرك واجبي نحوك، ولكن للظروف أحكامها وأنت خير من يعلم.

: وإخواتك الأرامل وأبناؤك الصغار، إن لهم حقوقاً عليك ويحبون أن تجلس مع أخواتك وتواسيهن على الوضع الذي هن فيه وتلاطف وتداعب أبناءك وأبناءهن، مثل أخيك فهد.

: هذا صحيح، ولكني أجلس معهم في أوقات الفراغ، ولاأدخر وسعاً في جلب السرور الى نفوس جميع أفراد الأسرة دون إستثناء، أما أخي فهو أكثر مني فراغاً.

: وأكثر منك جلوساً عند زوجته وأبنائه؟

: ولكنه أقل مني لطفا!! أليس كذلك؟؟

: صحيح وبودي لو تجلس عندنا ونرى طلعتك حتى لو لم تتكلم، إن جلوسك عندنا يملأ علينا المنزل بهجة وسروراً!!

: أنا في أغلب الأحيان في المنزل، ولكن في غرفة الوالد، أو عند الرجال والضيوف بالقهوة وأنت خير من يقدر ذلك، فلا تلحقني منك ملامة لو أطلت عليك، لأنني أقوم بواجبي حيال أبي وضيوفي ورفاقي.

: واغناتى!! إذا ليس هناك فائدة ترجى من الكلام معك؟
: بعد أن بدت علامات الغضب على وجهه، أنا أعرف أوقاتى وكيف اصرفها وستحصلين على نصيبك منها!! قال هذه الجملة بصوت مرتفع.
ويقطع حديثهما صوت الشيخ مبارك وهو ينادى إبنه فرج فيقفز إليه مسرعاً ويرد عليه، لبيك ياأبى!!
: لقد أبطأت على، وكأننى أسمعك «تَتَعَلَّلُ» مع أحد فمن عندك؟
: عفواً ياأبى عن التأخير!! هذه أم العيال.
: وماذا لديها عسى أن يكون خيراً؟ كأنى أسمع صوتك إرتفع؟
: ليس هناك الا الخير، ولكن لايخفى عليك حديث النساء وماأكثر بركة الكلام من أفواههن!؟ إنهن يجعلن الجدران تتكلم!! يقولها وهو يبتسم.
: عسى ألا يكون هناك شيئ يستحق كل هذا النقاش؟
: أبداً، أبداً، ولكنها تقول إن الحجاج سيذهبون فى هذه الأيام، وتريد أن ترسل معهم نقوداً لإبتياع بعض جوائجها من مكة المكرمة، وسأتدبر أمرها إن شاء الله.
: تستأهل أم فلان، لاتقصر عليها بشئ إنها تسوى عندى بلد بكاملها، ووالله لو أن لى إستطاعه لجزيتها بأغلى شيئ لدى، مقابل خدماتها لي إنها تأتينى إذا غبت عنى وتقوم بخدمتى، وكأننى والدها، أو أكثر من ذلك، بَيَّضَ الله وجهها.
: جزاها الله خيراً، ستجد جزاء ذلك عند الله، ولطفا ياوالدى، أتريد منى أى خدمة؟
: أشكرلك أفضالك يابنى، فوالله إننى لم أرد شيئاً، ولكنى سمعت كلامك غير بعيد عنى، فأردت الإستئناس بقربك.
: الشكر لله ياولدى، وليس لي من الفضل أى شيئ، فأنت صاحب الفضل الأول وما أعمله نحوك هو جزء من رد الجميل إليك.
: حفظك الله ووقاك شرور الأيام، وبارك لك فى المال والولد فى الحياة الدنيا، وجمعنا معاً بدار رحمته إنه سميع مجيب.
: وهل تريد شيئاً؟
: أبداً بارك الله فيك، لقد تعشيت ووجدتك قد رتبت فراشى ولايلزمنى أى شيئ وبإمكانك أن تذهب لترتاح وتنام يابنى من عناء التعب.

: لن أغادر هذا المكان مالم أرك نائماً، هادئاً مطمئناً.

وتمدد الشيخ فى فراشه، ودثره إبنه، وقرب إليه إناء الماء ووضع عصاه بقرب رأسه، ومكث عنده حتى غط فى نومه وعند ذلك غادر فرج إلى الغرفة يمشى الهو ينى، على أطراف أقدامه مخافة أن يزعج والده أو يو قظه من نومه.

* * *

وفى صبيحة ذلك اليوم الهادئ الصافى المصادف ليوم الجمعة أحضر فهد «شماغاً» جديداً وغسله لإزالة مادة «النشا» عنه ونشره على حبل بالمنزل ليلبسه إذا جف، وتركه ودخل المنزل لبعض شأنه، وعندما خرج الشيخ مبارك متوضئاً للذهاب إلى المسجد مبكراً لأداء صلاة الجمعة رأى «الشماغ» المنشور ويحسبه لإبنه فرج وأغراه منظره الجديد، فأخذه وما إن وضعه على رأسه ممسكاً بأطرافه حتى خرج عليه فهد من داخل المنزل وخطف الشماغ عن رأس والده بإنفعال و بطر يقة عنيفة، فكاد الشيخ أن يهوى على الأرض من شدة النّزع، وتمالك الشيخ إتزانه بفضل العصا التي كان يحملها بيده، وجمع كفيه على رأس العصا ووضع رأس ذقنه عليها متكئاً، وهو حاسر الرأس ينظر إلى أقدام رجليه والدموع تنهمر من عينيه بغزارة، وماهي إلا لحظات حتى دخل فرج مسرعاً ورأى والده واقفاً مستنداً على عصا وهو يجهش بالبكاء فبادره قائلاً:

: مابك ياأبى؟

: لايرد وهو يشهق وتتكسر العبرات فى صدره، وتنهمر زخات الدموع من عينيه، بين لحظة وأخرى لايتوقف عن البكاء.

: بالله عليك ياأبى أخبرنى بمن آذاك؟ والله ليذوقَنَّ منى مايكدر صفو حياته.

: لايرد ويحاول المحافظة على إتزانه من السقوط بتغيير موقع رأس عصاه على الأرض.

: ينطلق داخل البيت هائجا مزمجراً بصوته، من منكم آذى والدى، هل أحد من الصبية ناله بسوء؟ هل منكن أيتها النسوة أسمعته كلمة جارحه؟ فدهش الجميع وأجابوه بلسان واحد أنهم لايعلمون عنه أى شئ. فعاد الى والده يسأله مرة أخرى.

: غفر الله ذنبك ياأبى ورضى عنك أخبرنى ماالذى يبكيك؟

: لايرد أيضاً، ولكنه قد هدأت حدة حزنه، وهانت درجة بكائه، وبدأ يحاول إخراج الكلمات، لكن حلقه لايزال يغص بالعبرات فلم يتسع سوى لكلمة واحدة تخلخلت وخرجت بكل صعوبة عندما قال، أخوك!!

: يمسك بعضدي والده من الخلف ويدرجه حتى أوصله إلى الفراش وجثم على ركبتيه فأخذ يمسح الدموع عن لحية والده وهو يقبله تارة ويضمه إلى صدره تارة أخرى، يواسيه ويهون عليه الأمر، عَلَّ تلك الكلمات اللطيفة تمتص منه قوة الصدمة التى هزت وجدانه، وهو يقول ماذا فعل بك أخى؟

: يحاول أن يفصح القول ولكنه لايستطيع وأصبح كنفسية الطفل الصغير بين أحضان أمه، وكلما قال جملة أخوك فهد وأراد إكمالها جهش صوته بالبكاء من جديد. وبعد تهدئه دامت حوالى الساعة قال:

: إن أخاك فهد، كنت أقيس شماغاً فوق رأسى فما علمت إلا وقد «شتلة» جذبه من فوق رأسى بعنف كدت أسقط على الأرض من جراء ذلك.

: غفر الله ذنبك ياأبى، أتبكى كل هذا البكاء من أجل «شماغ»؟ أليس عندك ماهو أفضل منه؟ سامحك الله يافهد يقولها فرج بصوت مُنخفض.

: يجيب بصوته المتهدج، والله يابنى إننى لم ألبسه طمعاً فيه ولكن على سبيل التجربة فقط، وإلا فإن لدى إثنين أحسن منه ولاحاجة لي بالمزيد.

: ربما أغرتك جِدَّةُ الجديد، فبكيت من أجل ذلك؟

: لا والله يابنى إننى لم أبك من أجل الشماغ، ولكنى خائف على فهد من عقوبة الآخرة، وأخاف عليه من عقوبة الدنيا، الفقر والعوز، وإنقطاع ذريته. هذا ماأبكانى رحمة به وإشفاقاً عليه.

: هداه الله ووفقه، يقولها وهو يحضر إناءاً به الماء ليغسل وجه والده إثر البكاء، وبعد ذلك طلب منه الإنتظار فى مكانه حتى يعود، وإنطلق فرج مسرعاً إلى صاحب دكان الملابس، وعندما وصل السوق وجد الحوانيت قد أغلقت عند الآذان لصلاة الجمعة، فأسرع إلى بيت صاحب الدكان صالح ووجده على الباب قد لبس وخرج قاصداً المسجد.

: أبا عبدالله، أرجو فزعتك، أرجوك قضاء حاجتى من دكانك.

: أبشر، حياك الله تعالى بعد الصلاة ولوتريد كل مافى الدكان فهو فداؤك وأبرك الساعات.

: أريد قضاء حاجتى الآن قبل أن تذهب إلى المسجد، أى قبل الصلاة، إننى مستعجل أرجوك، أرجوك!!

: ألا تسمع المؤذن يقول حي على الفلاح، وسنلبى النداء ونذهب إلى المسجد الآن نطلب ماعندالله.

: أنا أعتبر خطواتك معى إلى دكانك جزء مما يرضي الله عزوجل إن لي حاجة أريد قضاءها لوالدى، وتعرف أن رضا الوالدين من رضاء الله عز وجل، إنى أريدها بأى ثمن.

: بصرف النظر عن الثمن، ولكننا لانستطيع أن نفتح الآن فتفوتنا الصلاة.

: إسمع منى لن نخرج من هنا إلا إلى الدكان قبل الذهاب إلى المسجد، فالوقت لايزال مبكراً، وقد جئت لحاجة لن أعود إلا بها مهما كلف الأمر، فلا تطل الحديث.

واخيراً يرضخ صالح للأمر الواقع و يأخذ مفاتيح دكانه و يذهبان معاً فيأخذ فرج لوالده ثوبا جديداً وشماغاً جديداً وعباءة جديده، و ينطلق بها مسرعاً يسابق الريح حتى إذا وصل الى والده ألبسه إياها وتأهبا للخروج إلى الصلاة.

: يستقبل القبلة و يرفع كفيه إلى السماء، والعبرات تحتدم فى صدره من جديد، وهو يدعو ربه قائلاً: اللهم وفق إبنى هذا فى الدنيا والآخرة، اللهم إرض عنه، اللهم بارك له فى ماله، اللهم إجعل من ذريته البذرة الصالحة، اللهم ألبسه من ثياب الجنة. ويجهش بالبكاء، بينا أخذ فرج بيده وخرجا متوجين نحو المسجد لأداء صلاة الجمعة، وهو يزدهى بتلك الملابس الجديدة التى لبسها لتوه.

و يشاء الله أن تتحقق نبوءة ذلك الشيخ المسن و يعيش إبنه فهد فى ضنك من العيش، وتنحسر ذريته، و يبارك الله لفرج فى المال والولد، وتتكاثر ذريته التى لاتزال باقية بإعداد كبيرة حتى الوقت الحاضر.

* * *

١٣ ـ على صوت الطلقة *

لقد كابد الإنسان على أرض هذه الجز يره من المشاق والمتاعب مالو حُمِّلَ صُوَّان الصخر لانفلق وتحطَّم، ولكن إرادة الانسان وعزمه وتصميمه جعلته يَنْقُرُ بأصابعه بطن الأرض، و يَنْقُبُ بأظافره الصخور النار ية والجرانيتية، حتى يصل إلى أساس الحياة فيها، ألا وهو الماء، وما إن ينزع أظافره من عمق أحشاء تلك الصخور حتى يَجُّم الماء شفّافا رقراقاً، يكاد لخفته يطير، أو ملحاً أجاجاً يتجمد و يتكثف فى زنبيل الخوص، وفى الحالة الأولى يرتوى الإنسان وتدب الحياة فى أوصاله، ثم يطمح إلى إستكمال بقية مقومات الحياة وهى، الهواء، والماء، والغذاء، وطالما حصل على العنصر الأول بدون عناء وأدرك العنصر الثانى بجهد مضنى من باطن الأرض على عمق يتراوح بين ٢٠ ــ ٥٠ متراً، فقد راودته نفسه أن يخرج هذا العنصر إلى ظاهر الأرض ليسقى به المزروعات كالقمح بأنواعه والشعير، والذرة، والدخن بأنواعه، وأشجار الفاكهة من تفاح وبرتقال وتين وخوخ ورمان وعنب وأشجار النخيل الباسقة، وأنواع الخضار والبقول، ليتخذ من ثمار هذه المزروعات طعامه وشرابه، و بذلك تكتمل عناصر الحياة لديه، و يعتنى العربى بأشجار النخيل عناية فائقة و يبذلك الغالى والرخيص من أجلها، تطر به بساتنها الظليلة المكتظة بالغيد الراقصات، تدخل البهجة إلى نفسه عندما يُسَرِّحُ نظره فى غابات النخيل، فيرى الخضرة والمياه الجار ية من تحتها، تمتلئ بها حياضها، وتملأ نفسه الطمأنينة عندما يرفع رأسه فيرى العذوق الحمراء، والصفراء، والشقراء، والسمراء، تتدلى منحنية فى نحور تلك الودايا الشامخة وكأنها تهصر عذوقها إليه ليتناول منها رطبا جنيًّا، ليأكل الطرى فى وقته، و يكتنز الغنى بالدبس لبقية أيام السنة، بينا يبقى الجاف من التمر «بَذّاً» وذلك أسهل لحمله فى أول فصل الشتاء، هذه النخلة التى أحبها العربى منذ القدم، وشدت من أزره، وساعدته بأثمارها على البقاء قرونا وقرون، أغرم بها، وأصبح لايطيق العيش بدونها، يحافظ عليها، يدافع عنها بكل مايملك، أصبحت جزءاً من كيانه، قد يتحمل الأذية

* قصة هدلان بن حمدان التميمى مؤسس المستجدة وحدثت حوالى ١١٥٥هـ.

بـنفسه، ولكنه لايقبل أن تؤذى نخيلاته أمام عينيه، وإذا أريد الإنتقام من شخص أو أشخاص من قبل أعدائهم الذين لم يظفروا بهم فإنهم يعمدون إلى تقطيع نخيلهم، وهم يجزمون أن فعلهم هذا إنتقام موجع لخصومهم، وإذا ما أصيبت تلك الأشجار الغالية بكارثة طبيعية لادخل للإنسان بها فإنه يصبر على ماحدث صبره على فقد أعز شيئ لديه، ولكن إذا كان بمقدوره أن يعمل شيئاً لتلافى ماحدث وتدارك الكارثة قبل وقوعها فإنه لايدّخر وسعاً مهما كلفه من النفقات والأعباء، وقد يكلفه ذلك دمه وروحه، من هذا المنطلق وتحت هذا الإعتبار ماحدث «لِهَدْلاَنْ» وجماعته من بعده ففي منتصف القرن الثاني عشر الهجرى خرج هدلان من مقره الأصلى «قفار» واختار بقعة من الأرض ليقيم عليها بلدة جديدة يخططها و يوزعها بنفسه، فكان له ماأراد، واختار أحد السُّوَّاس الذين يعرفون مواقع الماء فى باطن الأرض، حسب ظواهر وعلامات معينة يحتفظون لأنفسهم بأسرارها، وغالبا مايصدق حدس الكثير منهم، وقد يصف بعضهم إشارات ومعالم فى باطن الأرض على أعماق طويلة، وتأتى أكثر أوصافهم مطابقة للواقع عند حفر ذلك المكان، والغريب فى الأمر أن هذه الفئة لم تدرس علم طبقات الأرض ولم يكن لها أى خلفيات أخرى، بل إنهم أُمِّيُّون لايعرفون القراءة والكتابة، ومع ذلك فقد توصلوا بفراستهم ودقة حدسهم إلى تحديد مواقع المياه تحت طبقات الأرض، لذلك إختار هدلان السواس «راضى» وأرسل اليه وعندما حضر لديه قال له:

: ياراضى، لقد إخترت بقعة من الأرض، وأريد منك أن تخرج معى للبحث عن أماكن الماء فيها.

: أبشر، وأين تقع الأرض المختارة؟

: إنها فى المكان الفلانى من جبل كذا، إلى حزون كذا.

: بعد أن وضع إبهامه على أسفل خده، وأطرق مَلِيًّا، هذه البقعة بالذات لم أمُرَّ بها فى أسفارى، ولكن سنراها، وأرجو أن يكون بها ماءاً.

: ولك عَلَيّ ما يرضيك، أَفْلِذْهُ بلسانك.

: هداك الله، وهل بيننا شيئ يستحق الذكر؟

وفى صباح ذلك اليوم الخريفى المعتدل يمتطى الرجلان مطيتيها متوجهين إلى

المكان المعين، وفى عصر اليوم الثانى يصلان إليه وباتا هناك تلك الليلة، وفى الصباح ترك راضى هدلان عند الركائب، وبدأ يمشي راجلاً، يجوس الأرض من الشرق الى الغرب تارة ومن الشمال الى الجنوب تارة أخرى، وقد أو عز إلى رفيقة أن إذا رآه أبعد عنه أن يلحقه بالركائب، ولما حان وقت الظهر إجتمعا وصليا الظهر، وتناولا طعام الغداء الذي جهزه هدلان، تناولاه على عجل، وبعد ذلك إمتطى راضى ذلوله تاركا رفيقه بإنتظاره، وأصْعَدَ عليها وأفاض حتى قاربت الشمس من المغيب، ثم عاد إلى صاحبه مرهقا وأناخ مطيته قائلاً.

: ماأجمل هذه الأرض، وماأخصب هذه التربة، وماأرحب هذا الأفق، وما أجمل هذا الجو!! لولا هذا «العذروب»!!؟

: مندهشاً!! وماهو عَيْبُهَا؟ لقد إخترتها بنفسى على مواقع كثيرة، لقد أدلجت على مطيتى مايزيد على عشرين يوماً، حتى وقع نظرى على هذه الأرض، بعد تردد ومقارنة بينها وبين أماكن أخرى، بَرَبِّكَ قل لى ماهو عيبها؟

: إنها خد أرض منبسط، ذو تربة خصبة، تقع فى حضن هذا الجبل الأشم عن شمالها، غير ملاصقة له، فهناك البعد الكافى عنه، ولكن مايعيبها أن ماءها قليل بالنسبة لمساحة الأرض وسعتها!!

: لقد هان الأمر، إذا يوجد بها ماءاً، بشر هل هو قراح أم مالح؟ وماهى كميته؟

: إنه ليس قليلاً بالمعنى المحدد، ولكنه قليل بالنسبة لمساحة الأرض الشاسعة والقابلة للزراعة، أمَّا عذوبته فهو قراح كماء السحاب.؟

: الحمدالله، مادام الماء عذباً ففيه البركة، لقد إطمأنت نفسى الآن، أما كميته، فلسنا موكلين بكل هذه الأرض لسقيها!! ألم تخبرنى عن كمية الماء؟

: إنه يتحمل فى سنين الأمطار إلى أكثر من خمسين بئراً، وعلى كل بئر من غربين إلى ثلاثة غروب، أما أوقات المحل وقلة الأمطار فلا يكاد يكفى الخمسين بئراً مع الإقتصاد بالماء.

: بَشَّرَكَ الله بالخير!! لقد أفرحتنى وأثلجت صدرى، الآن تستأهل البَشَارة، ألا تعلم أن مجموعة ربعى لايتعدى خمسة وعشرين رجلاً ومضمون كلامك أنه يكفينا حتى لوجاء معنا مثلنا،؟

: هؤلاء أقاربك الذين تقول عنهم، ولكن ألا تتوقع أن يأتيك أناس غيرهم ممن لا تتوقع مجيئهم الآن؟ فيحرجوك وتستحي منهم وتعطيهم، وماتلبث أن تخرج على العدد المحدد.

: الماء فيه بركة، وسوف نأخذ بعين الإعتبار هذا العدد من الناس.

: إنني أحذرك من الزيادة، لأن كل بئر يحفر زيادة على ذلك ينضب فى مقابله بئر آخر مما هو محفور!!؟

: أحقاً ماتقول؟ وماأدراك فى ذلك؟ ألديك علم بالغيب؟

: لاأعلم من الغيب شيئاً، ولكن سترى صحة قولى عند ذلك،ثم أن هناك ناحية أخرى وهو ضيق ذلك المجرى الذى لايتجاوز عشرين ذراعاً.

: تحدثنى وكأنك قد رأيته بعينيك؟ كأنك خرجت من تحت الأرض؟

: إن هذا المجرى الجوفى يشبه نهر ضيق، أو واد جارى، يعتدل مجراه فى بعض الأحيان، وينعطف يمينا وشمالاً أحيانا أخرى، لايتفرع منه أى فرع، ولا تتشعب منه أية شعبة إنها ساقية تشبه هذا الوريد، ويشير إلى وريد ذراعه، متجهة من الغرب الى الشرق وكل بئر يحفر فى غربها تكون أغزر ماءاً من التى تكون شرقاً عنها بسبب قربها من المنبع، فيجب أن تكون الآبار على جانبى الساقية حتى لايؤثر البئر الأعلى على ماتحته، ويأخذ كل واحد نصيبه كاملاً.

: إنها معلومات تفصيلية، لاأكاد أصدق ماتسمعه أذناى!! أصحيح ماتقول ياراضى؟

: لم أقل لك إلا ماأتوقعه صحيحاً!! وعادة حدسى لا يخطئ!!

: إذا غداً سوف ترينى منتصف نفس المجرى المعتدل منه والمعرج حتى نراعى ذلك عند التوزيع.

: وَيجَهِّزُ الرجلان العشاء، ويتناولانه بعد آداء الصلاة ويقضيان أول الليل فى أحاديث السمر، ثم ينامان حتى الصباح وبعد صلاة الصبح عملا القهوة وتناولا الفطور ثم بدأ هدلان يضع العلامات والمراسيم على إمتداد الساقية الجوفية، حسب إرشادات راضى، للمسافة التى يرغب توزيعها على جماعته ثم قفلا راجعين إلى مكان إنطلاقهما.

* * *

وما إن وصل هدلان وأخبر ذو يه وجماعته بما فعل حتى استبشروا وتأهبوا للإنتقال إلى المكان المستجد، الذى سمى «المستجدة» وشاع الخبر، فتجمع على هدلان أناس آخرون من غير جماعته، وبعد أيام إنتقلت المجموعة الأولى إلى المكان المعين، وبدأ هدلان بتوزيع الأرض، وذلك بشقها إلى شقائق عرض كل واحدة منها مئة ذراع، وطولها مطلق مدى النظر إلى النقطة التى ينالها الماء، وربما زاد عرض القطعة أو نقص حسب حجم الأسرة الممنوحة، وبدأ يبوع الأرض بقدميه وكلما بلغ المساحة المطلوبة وضع مرساماً من الحجر ينقب له فى الأرض و يركزه ثم يقول هذه أرضك يافلان، فيستلمها صاحبها، ثم يذرع للثانى والثالث وهكذا وما إن غربت شمس ذلك اليوم حتى كان قد وزع على كثير من جماعته، وفى اليوم الثانى أكمل التوزيع على الباقين، ثم عاد وخط لكل واحد منهم حَلَقَةَ بئره حسب إرشادات السَّوَّاس، متخذاً لنفسه أعلى بئر لتكون الحد الذى يتوقف التوزيع عنده، وذلك خشية الزيادة عن العدد المحدد، ولما كان حفر الآبار يحتاج إلى عدد وعُدَّة، من ضمنها أخشاب طويلة تركز على فم البئر كقوائم تركب عليها المحالة لإخراج التراب من داخل البئر وقت الحفر، ثم نزف الماء بعد ذلك، فقد عاد الى بلده الأم، وبدأ هو وجماعته يجمعون الأخشاب و ينقلونها على ظهور الإبل لمسافة حوالى مائة وثلاثين كيلا، وذلك لإستعمالها فى أغراض الفلاحة وسقف البيوت، وماهى إلا أيام قليلة حتى وصل أولهم الى الماء على عمق عشرين مترا حيث نبع ذلك الماء الزلال، ولم تمض شهور قليلة حتى اكتملت الآبار، وبنيت البيوت، وبدأ الفلاحون فى غرس فسائل النخل التى كانوا يحصلون عليها من القرى المجاورة وربما النائية فى بساتين منسقه مرتبة ثم بدأوا ببذر أشجار الفاكهة من جميع الأصناف، وكذلك أشجار الأثل، التى تعتبر كنوع من حماية البساتين عن الرياح العاتية و يتخذون من أخشابها حوامل البئر ومستلزماته، وسقوف البيوت وأبوابها، وصارت وَدَايَا النخل تمسى بلون وتصبح بآخر، يتمزع الخلب والأليـاف فى نحورها كتمزع الأسلاب من فوق صدر كاعب نفر ثدياها، يخفق ذرى سعفها وكأنها أيدى سَبّاح يريد الوصول إلى نقطه الهدف، وكأن بينهن سبَّاق فى الأفق الفسيح، تتعالى قلوبهن السامقة إلى كبد السماء، ولم لا؟ وهى تمتص من هذا الزلال، المخلوط بعصارة خلايا تلك التربة الخصبة، وتتراقص فى هذا المناخ الرائع،

وبدأت أشجار الفاكهة تسرى وتجرى، ولم تكمل سنتها الأولى حتى جادت بثمارها، وهكذا لم تكمل البلد منتصف العقد الثانى من عمرها حتى فاقت القرى المجاورة لها، وأصبحت محط أنظار البوادى المحيطة بها، يهبطون إليها فى موسم التمر فيتزودون بما أرادوا من هذه الغلة المتوفرة، وشيئاً فشيئاً حتى شمخت فيها القصور، وكثرت فيها المساجد وإزداد عدد البيوت، وتجمعت فى كتل متراصة، بعد أن كانت ملاصقة للبساتين، فكثر سكانها وأرتفعت فيها الحصون والقلاع، بعد أن أحيطت البلد بسور واحد، تحميه بروج بين مسافة وأخرى على طول هذا السور، وبروج تحيط بالتجمعات السكانية داخل البلد، والقصور المنحازة لوحدها، وذلك لحماية الأرواح والممتلكات من أى معتد عليها، أما البساتين فعلى الرغم من أنها لاتتجاوز الخمسين بستانا بمساحات مناسبة تحيطها أسوار شامخة، إلا أنها بساتين غنَّاء قد تكاثفت فيها ذرى النخيل مع بعضها، بحيث لايُرىَ قرص الشمس من خلالها، حاملة فروعها العقود الحمراء، والصفراء، والشقراء، والسمراء، من الرطب والتمر، تأودت تحتها أغصان أشجار الفاكهة من تين وخوخ ورمان وأترنج محملة بثمارها الغَضَّةِ الطرية، تَشْبَحُ بجانبها أعناق أغصان العنب مثقلة بعناقيدها الشقراء، وغالبا مايظللون «مَجَرّ» السوانى بجانب البئر بأشجار العنب تتمدد فوق عريشة من جريد النخل بإرتفاع حوالى ثلاثة أمتار، وذلك لتظلل العريشه الإبل وسائقها عن الشمس والمطر وتطل تلك العناقيد على السائق ليرى ثمار تعبه تتدلى فوق رأسه، فيقطف منها مايشاء عند نضوجها، بالإضافة إلى ماتقدم فهناك الزراعة الشتوية من الحنطة بأنواعها والشعير، والغلات الصيفية من الذره والدخن بأنواعه إلى جانب الخضروات الموسمية والبقول، واستمر هذا الوضع مايزيد على نصف قرن من الزمان، حتى أثرى أهل البلد، وأصبحوا فى درجة من القوة والمتعة حسب مقياس ذلك الوقت، ولم يحفر بالبلد قليب واحد زيادة عن العدد الأول، ولازيادة فى الرقعة الزراعية، وكل شئ يسير على مايرام، ويشفع لها بالإستمرار فى هذا المستوى، جودة التربة، وكثرة الأمطار، وإعتدال المناخ صيفا، فأصبحت من القوة والثراء بمكان مرموق تضاهى أكبر القرى فى المنطقه، يخطب ودها ذوى الجولة والصولة من زعماء القبائل والعشائر ويخشى سطوتها من هم دون ذلك، يتحاشى المرتزقة وقطاع الطرق الإقتراب أو التعرض لمواشى أهلها.

* * *

ولما أصبح كل صاحب بستان ينظر اليه بإعجاب وزهو، وهو يرمق هذه الغيد وكأنه يرى بناته قد صففن أمامه بعد أن طوحن بخمرهن فبانت تلك الجدائل المظفورة وقد تَزَيَّنَّ بأجمل حليهن ووقفن في هذه الصفوف المعتدلة المنسقه يذرفن الدمع طالبات النجدة يرددن «واعطشاه» يطلبن رشفة من الماء لإبقائهن على قيد الحياة هكذا شعور كل صاحب بستان عندما دار الزمن دورته، وقَلَّتْ الأمطار والسيول، وبدأت كمية المياه الجوفيه تنضب في أعماق الآبار، وأصابتها لوثة الملوحة فأصبح ماتخرجه الدلاء منها يسيراً لايكاد يكفي للمحافظة على الحياة، وبدأ لون الصفرة يغزو الطبقات السفلى من تلك البساتين، وضاقت الصدور بما يضطرم داخلها من لواعج الأسى، وخاصة في أسفل البلد وأطرافها ووسطها، أما أعلاها فلا تزال كمية المياه كافيه لمتح ثلاثة غروب على كل بئر، ولكن على حساب الآخرين، وتجمع الرجال في مجالسهم ونواديهم وكل ينفث كلمات الشكوى الموجعة، مما يعاني من إحتضار إحدى مقومات حياته، وأعز ممتلكاته ينظر إليها تحتضر أمام عينيه، فلابد أن يدافع عنها بأغلى مايملك، بدمه، بروحه، إذا لزم الأمر، وهنا يتكلم حمود قائلاً:

: أيها الرجال أترضون أن تموت بساتيننا هكذا ونحن لانحرك ساكنا؟ ونكتفي بضرب كف بالآخر؟

يرد عليه راشد:

: لا، وألف لا، إننا لانرضى بذلك حتى ولو كلفنا أعمارنا!!

يؤيده خلف قائلاً:

: إن من هم أعلى منا لايزالون يتمتعون بما يريدون من الماء، ونحن عطشى لانكاد نرتوي بأنفسنا، من عصارة هذا الماء المالح!!

: وماذا ترون أن نفعل؟

فينبري عواد:

: نمنعهم بقوة السلاح، فإما أن نبقى على قيد الحياة سواءاً وإما أن نهلك فلا يبقى لنا باقية؟

: ينضم إليه خلف مؤيداً مارمى اليه.

: أنا أخالفكم في الرأي،!! إنني أرى قبل ذلك أن نداعيهم شرعاً بأن يقللوا من

نزف الماء على بساتينهم، لكى نحصل على نصيبنا منه.

: معك حق، إن هذا الرأى هو عين الصواب، إن شعيباً لدية ثلاثة غروب تنزف بالليل والنهار، ثلاث بالليل ومثلهن بالنهار، بينا نحن لانشم رائحة الماء، سوى هذا الزقوم الذى يشبه الصديد!!

: وفوزان كذلك لاتَمِرْحُ سوانيه، إنهم ينزفون الماء عنا!؟

: إن التَّشَفِّي بالكلام لايفيد، وعلينا أن نعمل من الآن، علينا أن نداعيهم شرعاً إعتباراً من يوم غد، نُصْعِدُ إلى الأمير ونشتكى عليه، فإن أنصفنا فذلك ماكنا نبغى، وإن لم يبت فى أمرنا فنطلب منه إحالتنا إلى مرجعنا الأعلى لنتحاكم إلى القاضى الذى لابد أن ينصفنا بحكم الدين الإسلامى الحنيف. ووافق الجميع على هذا الرأى بلا جدال، واستأنف راشد.

: ولكن ربما إنحاز الأمير الى رَبْعِه، ونظروا لنا بمنظار آخر!؟

: مستغرباً!! بمنظار آخر!؟ وماعساهم فاعلون؟

: ربما إدعوا أنهم أصحاب الملك أولاً وما تحت أيدينا هو من أفضالهم، ولأن فلانا يَرْبَعُ لجماعته!!

: لاأظن أن فلانا يَرْبَعُ لأحد!! إنه إن لم يبت فى الأمر فسوف يحيلنا إلى القاضى، وعند القاضى ستنتهى مشكلتنا ولاسيا أننا لسنا لوحدنا، إذ أن المتضررين من هذا الوضع أكثر من ثلثى أهل البلد.

: مارأيكم لو استدعينا محمداً، وجارالله، لنتبادل معهم الرأى فربما يكون لديهم رأى صائب!؟

: أنْدُبُوالهم من هؤلاء الشباب من يدعوهم وادعو معهم فريحاً، فإننى أعرف عنه حسن البصيرة. وأرسل أربعة من الشباب لدعوة أولئك الرجال المعنيين وماهي إلا فترة قصيرة حتى حضروا، وتبادلوا وجهات النظر، واستقر رأيهم على مداعاة الآخرين إلى الشرع، وتواعدوا فى ساعة معينة للذهاب فيها، وعند الصباح إرتدى كل منهم عباءته الجديدة وتوجهوا سبعتهم إلى مقر أمير البلدة. وما إن وصلوا إليه وتناولوا القهوة لديه، حتى تكلم نيابة عنهم أحدهم:

: ينادى الأمير باسمه قائلاً: نحن جماعتك أصحاب البساتين فى أسفل البلد

ووسطها، نعانى الأمرين فى سبيل الحصول على الماء، فلا نحصل عليه، وقد مات نخيلنا!!

: وماذا تريدون أن أعمل لكم؟

: نريد منكم إنصافنا ممن هم أعلى منا، فهناك أناس فلائحهم رَيَّانة خضراء قاتمة كأنها قطعة الليل، وآخرون قد أصفرت بساتينهم، وكادت أن تموت من العطش!؟

: هذا أمر عام لستم أنتم لوحدكم المتضررين منه، إن هذه إرادة الله، لقد شح الماء على الناس جميعاً، وعسى الله أن ينزل الغيث وتكثر السيول، فتعود كميات المياه فى الآبار إلى ماكانت عليه!!

: لاشك إن هذه إرادة الله، ولكن الله قد أنزل لكل حالة من الحالات أحكاماً، ونحن نطلب منكم العدل، فمن غير المعقول أن تموت فلائحنا، بينما جيراننا ينزفون الماء عنّا ليل نهار؟

وعلى بئر كل واحد منهم ثلاثة غروب، وسَاقِيْهِ كأنه النهر الجارى؟

: يطرق ملياً!! ثم يعود فيسأل ومن المقصود؟ من هم الذين يأخذون الماء منكم؟

: إن كانت أسماؤهم تخفى عليكم فهم فلان ... ويعدد الأسماء!!

: وماذا أصنع بهم؟ هل أمنعهم من العمل بمزارعهم؟ إن هذا تدخل فى شئونهم الخاصة!!؟

: إنها ليست شئونهم الخاصة، وإنما هى مصلحة عامة للجميع، فإما أن نحيا سويا، أو تموت حقولنا معاً،!! فالموت مع الجماعة رحمة!! ألا تعلم أننا نكدح من أجل الحصول على لقمة العيش لنا ولذرياتنا، لنقري ضيوفنا، ونفى بإلتزاماتنا أمام الآخري، لندفع الزكاة الواجبة علينا، ومايطلب منا من مصاريف الجهاد لمرجعنا الذى تمثله أنت، إنك لن ترحمنا لو تعذرنا عن دفع ماتفرضه علينا، فكيف ترضى الآن أن تموت ممتلكاتنا أمام أعيننا؟

: إنكم على حق، وماذا ترون أن نعمل؟ هكذا تكلم الأخير.

: نريد منك أن تحضرهم عندك لنتفاهم فى الأمر وتبت بيننا فيما تراه مناسبا، وفيه تحقيق مصلحة للجميع.

: يرسل خادمه لإستدعاء المعنيين فى الأمر، و بعد ذلك بوقت قصير حضروا، فوجه أليهم الأمير الحديث قائلاً: هؤلاء جماعتكم طلبوا حضوركم لأمر سيتكلمون فيه، وقد ذكروا أنهم متضررون بسبب قلة المياه فى آبارهم.

: لقد أبان لكم الأمير صلب الموضوع، وأنتم تعرفون أننا جيرانكم، تربطنا بكم أواصر القربى، والنسب، والجوار، و...الخ ولا ترضون أن تموت فلائحنا أمامكم وأنتم تتمتعون بكميات وافرة من الماء.؟

وتمثل سعد قائلاً:

: «نزول بالأطراف إتلاف»!؟ هذه آباركم، وتلك آبارنا، وكل يشرب من بئره، ولم نتعّد عليكم بشئ، أما آبارنا فليس لأحد شركة فيها!؟

: هذا كلام غير منطقى، ولاطلبنا حضوركم لهذا الغرض؟ إن التطاول بالألفاظ لايعود بالمصلحة على كلا الجانبين، فربما كان ضرره أكثر من نفعه!!

: فقال شُعَيب صحيح مارمى اليه حمود، ولكن ياأبا فلان ماذا تريد أن نعمل؟ إن بئرى لايكاد يروى حَيْري؟

: «يَامَلْ حِزْنٍ يَرُوْمَكَ حَجَرْ»؟ نحن لانريد لحيورنا ريًّا وإنما نريد لها الحياة لا أقل ولا أكثر، حتى يفرجها الله من عنده، وكما تعرف إن لدنيا إلتزامات نحو الغادى والرائح والولاية ولابدمن الوفاء بها!؟

: و يشير الى الأمير وجميع الحضور قائلاً: إننى مستعد لتلقى جميع الضيوف القادمة الى هذا البلد، ومستعد لدفع الزكاة المترتبة على البلد بكاملها، وعلى إستعداد لدفع كامل تكاليف الجهاد، على أن آخذ الكمية الكافية من الماء من آبارى!! وبمعنى آخر «مستعد لحائف البلد وضائفها»

: بعد أن ضج المجلس بأصوات المعارضة، لا ليس هذا المقصود الذى جمعتكم من أجله، إننى جمعتكم من أجل المفاهمة، لامن أجل المزايدة فى الكلام.؟

: عَرْضُكَ هذا غير مقبول «إن كل واحد منا دون عانيه»!؟ وكلنا رجال مثلك لنا مالك، وعلينا ماعليك، فلايمكن أن نرضي بوضعك الحالى، إننا نطلب منك ومن جماعتك شرع الله أن لم يبت الأمير فى مشكلتنا!؟

: إذا لم تتفقوا على وضع معين أستطيع من خلاله الإنصاف فما بينكم، فليس لكم عندى سوى إحالتكم إلى القاضى، وهو يفصل بينكم بالعدل.

: جزاك الله خيراً لانريد منك غير ذلك.

: إذاً، إتكلوا على الله، أنت ياشعيب ومن معك، وأنت ياحمود ومن معك وهذا الكتاب معكم للقاضى لتختصموا عنده، فلا يتأخر منكم أحد عن الحضور وليكن ذلك من يوم غدٍ.

* * *

واستعد الفريقان وركبوا ركابهم قاصدين المدينة حيث يوجد القاضى، وعند حضورهم مجلس القضاء فوق حصباء المسجد، إطلع القاضى على كتاب الأمير، فوجد فيه موقفاً منصفاً من الجانبين، ووصفا لما يعانيه الناس العطشى من ضرر على ممتلكاتهم، فعند ذلك إستمع القاضى إلى الخصمين وقد أدلى كل واحد منهم بحجته، فتقدم الفريق المدعى ويمثله حمود قائلاً:

: نحن أهل البلد الفلانى، أبناء عم، وأقارب، وجيران، ومنذ أن أسست بلدتنا قبل ماينوف على مئة عام، وآبارها الخمسون يتوفر بها الماء بكميات كبيرة، لايشتكى أحد من العطش، وتمر فترات متباعدة تنقص فيها كمية الماء، ثم تعود إلى حالتها الطبيعية، ومنذ بداية هذه السنة، فقد تغيرت الأمور، فأصبح أكثر من ثلثى البلد على وشك الهلاك، والقِلَّة الباقية هم الذين ينعمون بالماء دون غيرهم؟

: هذه آبارنا التى إختطها لنا هدلان الأول، لم نغير ولم نبدل فيها شيئاً، وقد حذر السَّائِسُ الذى أرشد هدلان فى البداية أنه سيقع فى يوم من الأيام لإطراف البلد عطش، وأنت تعرف ياشيخ «أن الأطراف إتلاف» ونحن نكدح على عوائلنا وذراريناا!!

: نحن نعرف آنه عندما خطها هدلان بقدمه لم يزد على عدد الآبار التى جعل نفسه على قمتها هذا صحيح، ولكن من غير الإنصاف أن يموت أناس و يبقى آخرون يتصرفون بالماء كيفما شاءوا، إننا لانريد إلا العدل، الذى شرعه فاطر السموات والأرض.

: الشرع لم يتعرض للمياه فى جوف الآبار؟ فهذه أرزاق من الله يهبها لمن يشاء، ويمنعها من يشاء!! وهل طالبناك ياحمود بشئ من نوقك التى لايحصى عددها؟

: الشرع لم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا تعرض لها، ولاشك أن الرزق من عند الله، ولكن إذا لزم الأمر، ووصلت الأمور إلى الحياة أو الموت فإن المصلحة العامة تُقَدَّمُ على كل ماسواها، أما النوق، فلاصلة لها بالموضوع!!

: ماهو الحل الذى تراه ياحمود؟

: أرى أن تحكم بيننا بالعدل بما عندك من كتاب الله وسنة رسوله أو ماتراه مناسباً.

: وأنت ياشعيب؟

: أرى أنه إذا لزم الأمر فنمد لهم سَوَاقِياً من فلائحنا، بحيث يسقى كل واحد منا عدداً من الآخرين العطشى، ونحن مستعدون بذلك، فسياق النهار لنا، وسياق الليل لهم!!

: غفر الله ذنبك ياشيخ، إن أرضنا شبه رملية، والسواقى الطويلة تلتهم الماء التهاماً، ثم إذا صح ذلك فلن يأتينى الماء الا فى مدة تصل الى الشهر عند ذلك تكون قد ماتت مزارعنا وخسرنا كل شيئ!! وقد ينشأ عن ذلك مشاكل جانية أخرى تتعلق بأصحاب الأراضى التى ستمر هذه السواقى بها!؟

: بعد مناقشة كل واحد منهم عن كافة الجوانب المتعلقة بموقفه وآرائه نحو خصمه، إتضح له بثاقب بصيرته أن الفئة المحتاجة على حق فيما تريد، وأن الفئة الأخرى واهية الحجج وتنعكس نظرتهم فى حب الذات، وعند ذلك إنتصب القاضى معتدلاً فى جلسته على تلك الحصباء وقال: لقد أصدرت حكمى عليكم أيها الفئة الريّانة أن توقفوا سياق إبلكم يومين متتالين، وبعدها تبدأون مع الناس جميعاً ينزف الماء فى لحظة واحدة وعلى صوت البندقية، وليجهز كل فلاح من أهل البلد سوانيه، قبل أذان الفجر، ومتى سمع صوت طلقه البندقيه التى ستطلق من مكان مسموع للجميع عندها يبدأ كل واحد بسياق إبله حتى أذان الظهر، ثم يتوقف الجميع الى يوم غد فى نفس الموعد السابق، ويستمر هذا الوضع شهراً كاملاً فإن رأينا من ذلك منفعة، والا فعندنا إجراء آخر»!!

: أرضيتم بالحكم؟؟

: وقد أشرقت وجوه حمود وجماعته لقد رضينا بما ترضاه، جزاك الله عنا خيراً، ونرجو أن يكون فيه حل للمشكلة!

ورد شعيب وجماعته.

: هذا حكم مجحف!! ماذا سيفعل سياق نصف نهار بنخيلنا ومزارعنا؟؟

: الخيار بأيدكم مادمتم بهذا المجلس أمامى، وإن لم ترضوا به فلدى حكم آخر!؟

: لقد رضينا بالحكم، فلك السمع والطاعة!!

: إذا سأكتب بذلك لولي الأمر، ليعمّد أميركم بتنفيذ الحكم وبعد شهرين إن لم تروا فائدة من هذا الإجراء، فلكم العودة إليّ مرة أخرى، أو يفرجها الله قبل ذلك الوقت.

وانبرى حمود قائلا:

: لقد فلجْنَاكم بالعدل والمنطق الذى طالما تهربتم منه!؟

فرد عليه شعيب:

: ليس فى الفَلْجِ عيب، فكل خصمين لابد أن يَفْجِ أحدهما الآخر! ونتيجة لهذا الحكم فقد عادت المياه إلى مجاريها، وأصبح كل صاحب فلاحة ينزف من الماء ماتيسر له فى الفترة المحددة راضيا بما قسم له، حتى هطلت الأمطار وتكاثرت السيول فَطَمَتْ مياه الآبار تبعاً لذلك، واسْتُغْني عن مفعول الحكم، وصار هذا قاعدة عامة، كلما قل الماء رجعوا إلى البدء على صوت الطلقة أجيالاً متتابعة، حتى إذا أطل عقد الثمانينيات من القرن المنصرم، حفروا أباراً جديدة فماتت البساتين القديمة كما أشار الى ذلك السواس قبل حوالى قرنين من الزمان وكلما حفرت بئرمات مقابلها إثنان بسبب «مكننة» الزراعة فى هذا العصر، حتى درست البلد القديمة ونشأ بديلاً عنها أقل منها جودة وإنتاجاً.

* * *

١٤ ـ حليف دم ولزم*

في بعض الأحيان قد يجد الإنسان نفسه مضطراً إلى الهجرة من موطنه الأصلي إلى مواطن جديدة، ينشد فيها الرخاء والإستقرار، وذلك عندما تضيق به الرقعة التي يسكنها، إما بسبب الكثافة السكانية، أو لأسباب إقتصادية وإجتماعية، أو ظروف خاصة كالحروب وغيرها، ولو نظرنا عبر حقب التاريخ، لوجدنا مثل هذه الهجرات الجماعية قد توجهت من اليمن السعيد متجهة إلى الهلال الخصيب وشمال أفريقيا، ومنها الى أرجاء العالم العربي، هذه الهجرات وإن كانت بعض دوافعها إقتصادية، إلا أن هناك دوافع سكانية، فكلما إمتلأت تلك البقعة بالسكان أفرغت زخة منهم وسرت في صقع من أصقاع الأرض تعمره، وتجعل منه نقطه إستقرار ومنطلق حضارة جديدة ومركز إشعاع مؤثر، هكذا الحال عبر أحقاب التاريخ، ولو ألقينا النظر على نموذج مُصَغَّرْ لهذه الحالة لوجدناه على سبيل المثال في المدينة المنورة إبّان الفتح الإسلامي، وفي قَفَار في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، فقد إكتظت البلد بالسكان، وأصبح هذا المستودع البشري يغص بما فيه ويفرغ بين الحين والآخر مجموعات تتجه شرقا وغرباً، شمالاً وجنوباً، هذه المجموعات ما إن تستقر في البقعة التي تختارها، حتى تبدأ في حفر بصماتها المميزة على خَدِّ تلك الأرض، فيتناقل الركبان أخبارهم إلى البلد الأم ويسرى الخبر في منتديات القوم ومجالسهم، حيث تراود كل فتى نفسه أن يتخذ لها مكانا مرموقاً يشار إليه بالبنان، فيقوده طموحه إلى عقد العزم والتفكير الجاد للبدء بالخطوة الأولى، فقد يصل إلى نتيجة مرضية إذا توفرت له كافة المقومات، وقد يبقى تفكيره ضرباً من ضروب الخيال، وهذا ماكان من أمر الفتى حمود عندما عاد من إحدى المنتديات الليلية التي يجتمع بها الرجال والشباب معاً، وتدور فيها الأحاديث في شتى نواحي الحياة، وحاول أن ينام تلك الليلة لكن النوم جا في جفنيه، رغم هدوء تلك الليلة الخريفية ذات السماء الصافية التي تكاد تعد نجومها مثنى وفرادى، فقد سبح في خياله حتى كاد أن يلامس تلك النجوم بيديه، حينما طفحت به أجنحة الخيال وهو يفكر في هذا الأمر الذي شغل

* قصة حمود بن سليمان التميمي رحمه الله مؤسس الروضة بحدود ١١٧٨هـ.

بـالـه، مـستلقيا على ظهره فوق حصباء نثيلة البئر، يحسب حساباته، يستعرض مقومات مشروعه، الأرض، المال، الرجال، يتوقع له النجاح تارة، و ينقب عن مسببات الفشل تـارة أخرى، وقد أخذ عليه تجميع هذه العناصر جل تفكيره، ونزعت النوم عن جفنيه، وسـرقـت عليه وقته، فلم ينتبه إلا وسائق السوانى «قد أحضرها و بدأ ينزف الماء من البئر، عـنـد ذلك إنتحى بعيداً عن صوت المحال، وذهـب إلى فراشه بقرب زوجته فوق سطح المنزل فغط بنوم عميق حتى حان موعد صلاة الفجر، وقام من نومه متثاقلاً على خلاف عادته، ومضت سحابة ذلك اليوم وهو يسبح فى تفكيره بين الحين والآخر، مما جـعـل أخـاه الـكبير مَرْشَدْ يفطن لما هو فيه إجتمعا بعد صلاة الظهر لتناول القهوة فى غـرفـة قهوتهم، ولما سأله عن السرحان الذي ينتابه بين الحين والآخر، أجابه بانه لم ينم الـوقـت الـكـافـى الليـلة الماضية، ولم يقتنع أخاه الثانى ز يد أن ذلك كله بسبب قلة الـنـوم، وتنبأ أن يكون هناك سبب آخر جعله يسرح عنها أحيانا في تفكيره، غير أنه لم يـفـصـح لها عما يـعـتلج فى صدره، وعند المساء دنف إلى مكان التجمع المعتاد الذى يـرتـاده الـرجـال، ومـا أكثر هـذه الامـاكـن، فـالـبـلـد قـد أمـتـلأت بالبشر لذلك تجد الـتـجـمـعـات الرئيسية فى المقاهى، وعلى قرن الشوارع، على نثائل الآبار، عند أبواب سـور الـبـلـد، فى الفراغات الواقعة بين البساتين، على «عَقْمِ» السواقى خاصة بالليل، وتجـد الـرجـال فى هذه التجمعات بالإضافة إلى تبادل أطراف الحديث يشتغلون بشق لـيـف الـنـخل إلى شقائق صغيره تسمى «أوسانا» يفتل منها حبال الليف من مختلف الأحـجـام، و يـلـف عـلـيـهـا شـرائـح مـن الخـرق أو الـقـد الـطـرى ومـاشـابـهها، وذلك لإسـتـخـدامـهـا في أعمال الفلاحة، ولكن حموداً لم يتوجه إلى هذه المجموعات العاملة، وإنما قـصـد أحد المقاهى التي يجتمع فيها عِلْيَة القوم، وتتوفر فيها الأخبار الجديدة التى نـقـلـهـا الـركـبـان فـى ذلـك اليوم، أو التى لها أهمية لدى الناس وتحتاج إلى مناقشة وتبادل وجهات النظر، ومن ضمنها أخبار الجماعات المهاجرة من البلد الى مكان آخر واتخـذت لـنـفـسـهـا أمـاكن جديدة، وأخبار هذه التجمعات، من حيث المياه، والكمية المتوفرة فيها، وموقع الأرض بالنسبة لما حولها، وخصوبة التربة، والمشاكل المترتبة عليها، هـذه الأنـبـاء هى التي تهم حمود وتشد إنتباهه، فكان يصغى لها بإمعان، و يناقش فيها بـلـسان الملتصق بها، وأخذ يتنقل من مكان إلى آخر، يسأل عن فلان ماذا جرى له،

وعن علان ماذا حصل عليه، وذلك حتى يجمع المعلومات الضرورية عمن سبقوه فى الهجرة من بلدهم الأصلى، ثم بدأ يسأل عن البقع التى يحتمل وجود الماء فيها فى مختلف الإتجاهات، حتى وجد خبراً مفاده أن عيسى(١) قد منحه الإمام عبدالعزيز(٢) قطعة من الأرض فى الشمال الشرقى لجبل رَمَّانْ، وأنه ربما يبيع شيئاً منها فعند ذلك إستقصى الخبر من مصدره، وبدأ يسأل عن الأرض المقصوده وحدودها، ثم سأل من قد مربها من صحبه، عن ترتبها، وسطح أرضها وغطائها النباتى، ولكن المعلومات التي جمعها لم ترو ظمأه، فما كان منه إلا أن أعد العدة ليقف بنفسه على الموقع، وأصطحب معه إبن أخيه وواحداً ممن يعرفون الأرض، وامتطى الثلاثه ظهور مطيهم فى اليوم التالى، لأمر لم يخبر أحداً سواهم، وعندما وصلوا إلى المكان المقصود، استقروا فيه يومين متتالين، يدلجون فى شعابه ترفعهم الروابى، وتغمرهم الوهاد وتنبسط أمامهم تلك القيعان بمحاجرها المغطاة بشجيرات الرمث والعوسج والطلح، وتطل عليهم عروق الرمال الصفراء التى تكتنف تلك الجبيلات السفع وتلفها بوشاحها الذهبى، يشرف على هذا المكان تلك القمم الشامخة من الجبال السمر الضاربة للزرقة التي يخالطها اللون البنى أحياناً، ولما اولج الركب وداجوا فى مختلف أصقاع المكان وخباياه، وقع اخيتار حمود على مكان معين منه دون أن يبوح لأحد من صحبه فيما إختاره وعزم على الذهاب إلى عيسى لمفاتحته فى شراء الجزء المختار من الأرض المعطاة له، وبعد أن انتهت الرحلة الإستطلاعية كما صرح حمود لأصحابه بذلك عادوا إلى أهلهم، وبعد أن مكث عند أهله بعض الوقت ركب مرة ثانية قاصداً عيسى هذه المرة ليشترى منه الأرض، وبعد أن وصله صارحه بالغرض من مجيئه، وبعد أخذ ورد عن البقعة المختارة والقيمة المطلوبة فيها، لم يوافق عيسى على كامل ماطلب حمود وهى من القاع المعترض غربا، حتى الوادى المعترض شرقاً، ومن جبل سابل شمالاً، حتى الوادى الأخضر جنوباً، بجبالها وتلاعها، وريعانها، وحزونها، روابيها ووهادها، ووديانها وشعابها، لأن هذه الأرض هى الأكثرية مما أعطى له، حيث طلب من الإمام الوادى وروافده ومسائله، ولم يبق له سوى بطن الوادى، وبعد أخذ ورد ومداولة فى السعر لكامل ماطلب حمود، تدخل

(١) عيسى بن دُلَيْهَان الشمرى رحمه الله كان ذلك فى حدود عام ١١٧٨هـ.

(٢) الامام عبدالعزيز بن محمد آل سعود رحمه الله.

بعض الحاضرين قال عيسى أننى لن أبيعك هذه الأرض التى حددتها إلا بكيل هذا الصاع من قطع الذهب والفضة، وهى العملة الدارجة آنذاك، فقال حمود الثلث ذهب والثلثان فضة، فوافق عيسى على ذلك، وكان هذا الثمن يعتبر باهظاً فى ذلك الحين ولكن عيسى يريد أن يطرد حمود عن شرائها عندما حدها بهذا المبلغ الضخم، ولكن حموداً كان جاداً وعازماً على الشراء مهما كلفه الثمن، ولذلك ما إن أكمل عيسى حديثه حتى بادره حمود بالقول: لقد إشتريت بهذا القدر الذى حددته بشهادة هؤلاء الرجال، وتناول من جيبه عدد من الجنيهات الذهبية وصبها فى يد عيسى قائلاً: وهذا عربون البيع، وماتبقى فسوف أحضره لك فى مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم إن شاء الله وتكتب لنا وثيقة الأرض، فما كان من الحضور إلا أن باركوا للمشترى والبائع، وتمت البيعة على هذا الشكل.



وما إن عاد حمود إلى أهله حتى أخبر إخوانه بما فعل، فلم يوافقوه على ذلك واستخفوا برأيه ذاك، وبينوا له من عيوب الأرض مايقذعها فى عينه لو لم يكن مطلعاً عليها بنفسه، وادعو أن عيسى قد ضحك عليه حينما طلب لها هذا الثمن الخيالى، فلم يأبه حمود بهذه الأقوال، وطلب منهم المساهمة بمالديهم من نقود، على هيئة قروض يعيدها إليهم عندما تتوفر لديه، فلم يبخلوا عليه فيما عندهم، وجَمَّعَ من أقاربه وأصدقائه ولم يمض ثلاثة أيام حتى حصل على المبلغ المطلوب، وعند ذلك عاد الى عيسى وسلمه الثمن، وجرى كتابة وثيقة البيع بينهما، فعاد قافلاً الى بلده ومنذ أن عاد أصبح حمود والأرض التى اشتراها حديث المنتديات وحلقات السمر، وطرحت للبحث والمناقشة، وتعرضت لمختلف الآراء مابين مؤيد تأييداً مطلقا، وهذه الفئة هى التى تعانى مثلما يعانى حمود وغيره، وبين معارض لإخبار الأرض جملة وتفضيلاً، مبرراً الكثير من العيوب والمثالب، محاولاً تثبيط همة المشترى وثنيه عما عزم عليه، وهناك فريق ثالث وقف بين بين تارة مع هؤلاء وأخرى مع أولئك، أما حمود فلا يصغى لكل هذه المناقشات والآراء، وإنما يبحث عن شيئ آخر، إنه يبحث عن الرفيق الذى يقف بجانبه، و يساعده، ويكون ملتصقاً به بالإضافة إلى أقاربه، فبدأ بمن حوله من غير أقاربه، يجرب هذا و يعجم عود ذاك حتى وقع إختياره على ذلك الفتى القادم

لهذا البلد، والذي لم يمض على تواجد والده سوى فترة من الزمن، لكن زيداً رغم حداثة سنه، فقد وجد فيه مقومات الرجولة كالشجاعة، والكرم، والمروءه، والأمانة، والصدق، والدين، وحسن الخلق، هذه الخلال هى التى حببته إلى حمود، وجعلته يختاره رفيقا له على من سواه، وكانت العلاقة بين الإثنين قبل ذلك عادية جداً وما إن تواقد الرجال على المقاهى بعد صلاة المغرب حتى إستدعى حمود زيداً(١) وطلبه أن يصحبه على إنفراد، وذهب الإثنان بعيداً عن حلقات التجمع، وتحت ضوء القمر الفضى المتألق بعيداً عن الناس فقال حمود.

: أتعلم يازيد أننى اشتريت أرضا بالمكان الفلانى؟
: لقد علمت بذلك، بارك الله لك فيها وأعانك على فلاحتها.
: الله خير معين، ولكن كما تعلم فإن أقاربي كُثُر، ولن يقصروا أو يتقاعسوا عنى فى أمر من الأمور، ولكنى أريد لي رفيقا من غيرهم، لإتقاء أشياء لاتخفى عليك، وقد فحصت من حولى من الرجال من غير بنى عمى فوقع أختيارى عليك يا أبا ابراهيم!؟
: عليَّ أنا بالذات!!؟
: نعم، عليك أنت بنفسك!!
: مالي وهذا الأمر ياحمود؟ عليك بإختيار رجل عصبته قريبون منه يستطيعون شد ظهره عند الملمات، وبذلك يكون قويا تستفيد منه عند الحاجة، أما أنا فلا أزال جديداً فى هذه الديار، وبينى وبين عصبتى مسافة أيام وليالى، فعليك أن تفطن لغيرى ليكون أكثر فائدة لك، ولاسيا أنك ستخرج إلى مكان جديد وأرض مكشوفة!؟
: إن لى من العصبة من يساعدنى فى أى ظرف صعب يحدث لاسمح الله، أما أنت فبرغم وجودك وحيداً، وبعيداً عن أقاربك وديارك، فقد وقع إختيارى عليك، إلا إذا كنت لاترغب في ذلك؟ لقد أعجبني فيك بكل صراحة عدة خصال، ولو لم تفعل سوى اشتراكك معنا في أعادة مواشينا منذ شهرين حينما لَقَّبَكَ ذلك البدوى الجريح «بالسُّوَيْداَءْ» هذه الحادثة جعلتني أقدر موقفك وشجاعتك، ولاسيا أنك لم تدَّع مثلما إدعى الآخرون أنك فعلت ما فعلت، ولولا ذلك الجريح الذي كشف

(١) هو زيد بن إبراهيم بن سعد بن فرأج آل جناح الخالدي.

سر بطولتك لما علمنا بها؟

: يطأطئ والإبتسامة تعلو محياه فيقول: هذه الأمور لا تساوى شيئاً ولا تدعوك إلى أن تختارنى رفيقاً لك على أساسها!

: بالإضافة الى ذلك لقد أعجبنى محافظتك على الصلاة وأنت لا تزال فى ريعان الشباب، وهذا كان أكبر حافز على إختيارى لك، كما لمست فيك الصدق بالقول، والأمانه، وغض الطرف عن المحارم بالإضافة إلى إكرامك للضيف، والنخوة، والحمية، التى يفتقر إليها بعض الناس.

: بصوت خجل، لقد أسهبت فى إبراز أشياء لا أعتبرها مزايا إنفردت بها لوحدى، وإنما هى فروض وواجبات يتحتم عليَّ الوفاء بها، فأرجوك ألا تزيد عليها!!

: بل هذا الواقع، وأنا عندما أصارحك بما فيك من محاسن ومساوئ فإننى أرجو أن تأخذ كلامى مأخذ الجد.

: كلامك على العين والرأس، ولكن كلنا بشر لنا من المزايا والمثالب الشيئ الكثير، وعسى الله أن يستر سلبياتنا بإيجابياتنا!؟ ولم تقل لي ياأباسليمان ماالذي جعلك تختارنى فى غير هذه الأمور الثانوية؟

: لقد إخترتك بناء على تلك الخصال التي سبقت الإشارة إليها بالإضافة إلى أنك من قبيلة أخرى غير قبيلتنا، ولهذا الوضع أهيمة خاصة عندى أنا أعرف بها وهي تتعلق ببني عمى!؟

: ولكني كما تعرف غير مستقر الآن، فقد أعاد أبناء عمى آل جناح الكرة مرة ثانية، وأرسلوا إلي يطلبون حضورى، بعد أن رفض والدي يرحمه الله العودة إلى بلدنا، وأخشى أن تراودني نفسي إلى العودة ثانية إلى هناك؟.

: مالك والمشاكل، لقد عافها أبوك وعمك، وهربا بأرواحها، وتريد العودة إليها أنت؟ فلسوف أعوضك عما فقدت ببلدك، سأعطيك من أرضى ماتريد، أنت الأول وأنا بعدك، إن ذهبت معي؟.

: شكر الله مسعاك، وكثَّر الله خيرك، ولا أعدمنا وجودك، فأنت صاحب الفضل أولاً وآخراً، وليس على كريم إشتراط!؟.

: إذاً، توكل على الله، وضع يدك فى يدى، في حلف قوامه الوفاء، والتآخي

والتآزر، والمساعدة، وستكون عاقبته الخير الرخاء والأمان لنا ولأبنائنا وأحفادنا من بعدنا، فضع يدك في يدي!؟!.

: أرجو أن تتيح لي فرصة للتفكير إلى يوم غد، لأن الموضوع يترتب عليه مصير ذريتي من بعدى، فلابد من التبصر والتعمق في هذه الأمور ومشاورة بعض من أثق بهم من شيوخ أخوالي وأوافيك برأيي النهائي غداً، وأنت كذلك شاور من تريد.!.

: الآن زدت فيك إعجابا!! لأنك جعلت من التشاور والروية أساساً للخطوات التي تريد السير عليها إمْض، على بركة الله وإن غدا لناظره قريب، وعاد الإثنان إلى مجلسهما في حلقات السمر كالمعتاد.

* * *

وبعد أن عاد إلى حلقة القوم لاحظ مَرْشَدٌ أن مع أخيه ذلك الفتى، ولما إنفض المجلس لصلاة العشاء إستدعى مرشد أخاه حمود وسأله:

أراك قدمت أنت وزيد أين كنتما قبل ذلك؟.

: لم نذهب بعيداً، وإنما أردته في أمر يخصني، ولذلك إستدعيته من أجله،.

: وما عساه أن يكون هذا الأمر؟.

: الحقيقة أنني أردت لي رفيقا، وصديقا من غير بني عمنا في هجرتنا الجديدة وقد وقع إختياري عليه.

: إنه إختيار موفق، ولكن ألا يوجد الكثير من الناس غيره فلو إخترت فلانا أو فلان وعدد الأسماء.

: صحيح ما تقول، ولكن أكثرهم يفتقرون إلى الصفات المتوفرة والمجتمعة في هذا الرجل.

: إنه نعم الرجل، ولكن قومه بعيدون عنه في عنيزة بلاد القصيم، فربما يكون موقفه ضعيفاً عندما تشتد الأمور، فلو إخترت ممن عصبيتهم بهذه المنطقة فإنهم قد يسندوك أكثر، سيما وأنك ستكون في موقع مكشوف وعرضة للإعتداء بقرب تلك الجبال.

: إنني مقتنع بقدرة الرجل بعد إشتراكه في المعركة الأخيرة قبل شهرين ثم إنني قد إطمأننت إلى دين الرجل، وعفته، وتعففه، وكثير من صفاته.

: وهو يبتسم، إن جاءه تقصير فن ذراعه، فأهله وعشيرته بنو خالد مشهود لهم بزعامة ديرتهم، ولكن إنقلاب الأيام جعلهم يتفرقون في أصقاع الأرض، مثلما تفرق أجدادنا قبل زمن من موطنهم الأصلي وعسى الله أن يجعل فيه البركه، و يوفقكم لما فيه الخير.

: الواقع أنه حتى الآن لم يوافق نهائياً رغم محاولاتي معه من حوالي ساعة، فطلب مني مهلة يراجع فيها نفسه، وعند ذلك يقرر ما إذا كان عازماً على الأمر أم لا؟.

: عليك به، وأحرص عليه إلا إذا كان الرجل لديه الرغبة في العودة إلى بلاده، فهذا محتمل، ولاسيما إنني سمعت أنه قد جاءه دعوة ملحة من بني عمه بطلب العودة إليهم، وربما لايرفض كما فعل أبوه!!.

: لقد أشار إلى ذلك من جانب خفي، ولكني أتوقع أنه لن يعود ولاسيما أنني عرضت عليه مايمكن أن يغريه و يعوضه عن العودة!!.

: وما عسى أن تكون عرضت عليه؟.

: لقد أغريته بشيء مما أملك، ولن أفصح به لأحد حتى يوافق على مصاحبتي. وهنا وصل إليهما أحد أبناء مرشد مع عمه محمد، فَغَيَّرا مجرى الحديث خشية أن تتسرب الأخبار قبل أن يبت في الموضوع نهائياً من الجانبين. أما زيد فقد ذهبت إلى خاله صالح، المزيد الخالدي ذلك الشيخ المسن الذي عركته الأيام، وذاق حلاوتها ولعق مرارتها، وفاتحة في الأمر قائلاً:

: أسعد الله مساءك ياخال، ياأبا مَزْيَد، لقد طلب مني حمود أن أصاحبه إلى بلده الجديد، التي ينوى الإنتقال إليها فماذا ترى؟.

: بأى صفة يريدك أن تذهب معه؟.

: إنه يريدني أن أذهب معه كحليف، لي مَالَهُ وعَلَيَّ مَا عليه من الخير والشر.

: هاه!! ولماذا إختارك أنت بالذات؟.

: لقد عدد أشياء جعلته يرغب في صحبتي!!.

: يعلم الله ياولدى، إنهم رجال طيبون، بمعنى هذه الكلمة، وعلى الأخص سليمان وبنيه، فلهم ميزة على بني عمهم، خلاف البعض الذين لايخلو جزء منهم من الهَنَّة، مثلهم مثل بقية القبائل والعشائر الأخرى، وكما قال المثل «أصابع يدك

ليست سواء» هَيْه!! وهل أعطيته موافقة على ذلك؟.
: لم أعطه الموافقة حتى أستأنس برأيك أولاً يا أبا مَزْيَدْ!؟.
: حسنا فعلت يابني!! ولكن ماذا قررت حيال المندوب الذي جاءك من بني عمك قبل فترة يطلبون منك العودة إليهم؟.
: أعتقد أنني سأتخذ القرار الذي اتخذه والدي رحمه الله بعدم العودة، لأن هناك نزاعاً دائماً، وعدوانا مستحكما، وأضغان دفينة، بين الزعامات الموجودة في مدينة واحدة، وكل حي من أحيائها له زعامته، وصولته وجولته، وقد هدأت الفتن بين الجانبين فترة من الزمن ثم عادت فشبت من جديد بعد مقتل، رشيد، وفَرَّاج، وكان من نتائجها ماعرفت تفاصيله من والدي في حياته، فلست مستعداً أن أضع رقاب أبنائي وأحفادى تحت رحمة السلاح، من أجل رئاسة حي من أحياء المدينة أو ربما المدينة كلها وما حولها!!.
: مادام وضعك كما ذكرت، فلا أرى مايمنع أن تصاحب حمود، فهو أفضل لك من المكوث هنا، في هذا البلد المزدحم بالسكان كما ترى، فهذه فرصة لا تعوض، ولكنني أرى إذا عزمتم على ذلك أن أجتمع بأخيه مرشد، بمكان واحد، لنكون شاهدى الحال على مايتم بينكما من عهد وميثاق. وبعد ظهر اليوم الثاني أخبر زيد حموداً أنه سيأتي إليه مع خاله صالح، ويحبذ تواجد أخيه مرشد معهم، وعندما إجتمع القوم في «قهوة» مرشد، وكانت المقاهي آنذاك تتخذ مكاناً لمناقشة الأمور المهمة، وإتخاذ القرارات المصيرية، وعند ذلك تكلم حمود وقائلاً:.
: أيها الرفاق إنني قد رغبت في صحبة هذا الفتى أعنى زيداً، وأحببته لأمور عرفتها بنفسي، وقد تباحثنا في تفاصيلها، ووعدني أن يرد لي خبراً بالموافقة من عدمها هذا اليوم، ولا أدرى ماذا قرر حيال ذلك؟.
: تحقيقا لرغبتك، فإنني لا أكره مصاحبتك، إذا سرنا من هذا المكان على طريقة بينه تضمن لكلينا سلامته وأمنه، عزته وكرامته؛.
: نحن من الآن إخوان لم يربطنا صلب واحد ولم يجمعنا رحم واحد، وإنما جمعنا عهد الدين الإسلامي والانتماء العربي وعهد وميثاق.
: يعني «حُلَفَاء دَمٌ وَلَزَمْ»؟.

: نعم، «نِدِّيْ مِدَّاك وَنَجْلِي مَجْلاَك !!».
: مادام كل منا سيكون لصاحبه «حَليْفُ دَمٍّ وَلَزَمْ، يَدِّيْ مِرَّاه وَ يَجْلِيْ مَجْلاَهُ» إذاً مدَّ يمينك، وتصافح الإثنان وتعانقا ونطقا بلسآن واحد قائلين نعاهد الله على الوفاء، فاشهدوا أيها الحضور على ذلك والله على مانقول شهيد، وانطلقت كلمات الدعاء بالتوفيق على السنة الحاضرين، وتبادل الجميع القهوة، وانفض المجلس بعد التوصل إلى هذه النتيجة.

* * *

ثم أخذ حمود وحليفه بالإستعداد للإنتقال إلى المكان الجديد وما إن وصلاه حتى إختار السوَّاس الذي سيرشدهم إلى مواطن الماء فاختار تلك الأراضي اللينة المنبسطة في مفرش الوادي من أسفله ذات الغطاء الشجري الجيد والماء القريب، واستبطوا من الرَّكايا والآبار ماجعلهم يزرعون مساحات هائلة من القمح والشعير، حتى ضاقت بمحصوله مخازنهم، وبدأوا يُسوِّقُون إنتاجهم في القرى المجاورة لهم، وصارت البوادى تمتار منهم فى موسم الحصاد، وتجمَّع على حمود العديد من أقاربه وغيرهم، وازدهرت فيها الحركة السكانية في بضع سنوات، رغم الملوحة التي تمزج ماءها، بحيث توقفت الزراعة فيها في بادىء الأمر على غرس النخيل، وزراعة المحاصيل الزراعية الشتوية، ولما حصدوا غَلَّة الشعير في آخر ربيع ذلك العام وركزوها كدوساً تملأ حصيدة المزرعة، وبقى القمح على وشك الإستواء، وبعد ظهر ذلك اليوم الربيعي الغائم في بداية القرن الثالث عشر الهجري، تكدست على المنشأ قطع من السحب لم تلبث أن تراكم بعضها فوق بعض حتى سَدَّت الأفق، واختفت الشمس وراءها، وماهي إلا لحظات، حتى بدأ الرعد يدمدم، فتهتز الأرض من تحته، ويرتكز البرق على صفحة الأرض ليفرغ الشحنات الكهربائية فيها، ولم يمض غير وقت قصير حتى عانقت السماء الأرض عناقاً حاراً فسالت نتيجته المتمثلة بذلك الرضاب الأبيض الذي ملأ مابين دفتي الوادي، وتعداه فغطى المتنتين اللتين تمثلان كتفى الوادي، فأقبل السيل لجباً متلا طماً لايترك شيئاً أمامه إلا تعهد بحمله إلى مقر آخر، بعيداً عن موطنه ذاك، وانقشعت السحب، وانعكست بقية أشعة الشمس عند الغروب على تلك

الصفحة الفضية اللامعة من السيل العرمرم، وخاف الناس على أرواحهم وممتلكاتهم فطفقوا يتوجهون بأبنائهم وكبار السن والنساء الذين يخشى عليهم من الغرق إلى التلال المرتفعة القريبة منهم تاركين بيوتهم بما فيها، ثم ساقوا مواشيهم إلى تلك المرتفعات، وعاد الرجال والفتيان والفتيات إلى قصورهم وبيوتهم، وبدأوا يحفدون على أساساتها واضعين طبقات من التبن فوقها طبقة من التراب لتكون مزاحيم تحد من قوة عنفوان السيل عن هدم البيوت أو دخولها وتخريبها على مافيها من المقتنيات، والأرزاق، والمؤن، واستطاع أصحاب كل قصر أوبيت أن يحافظوا عليه فلم يدخل أي منها السيل وقد بدت المنطقة الواقعة غرب البلد إلى الجبل كصفحة بيضاء تشبه لوح البلور، وأطل الشيخ حمود من على ظهر جواده معتليا تلك الرابية المرتفعة، فرأى فوق صفحة ذلك اللوح الأبيض بقعة سوداء تتوسطه وسأل أحد بنيه، ماتلك البقعة السوداء التي أرى بيننا وبين الجبل؟ فأجابه إبنه إن هذه متنة منتفخة على شمال الوادي، نمر بها في طريقنا كل يوم عندما نذهب لقنص الوعول من الجبل، وسأل حمود إبنه أو تعرفها جيداً؟ فأجاب الإبن، نعم أعرفها كمعرفتى لك يا أبي، إنها الرابية الواقعة عند شجرة السدر الكبيرة، فرد عليه والده حسنا يابني، إذا أحياناً الله إلى غد، فدلني عليها وسيكون فيها قصرنا الجديد الذي سيصبح نواة للبلد إن شاء الله!! وعاد الإثنان لمساعدة الرجال والنساء الذين يعملون بكل ما أوتوا من قوة لصَدّ السيل عن بيوتهم والمحافظة عليها من هذا الفيضان وأمضى الناس تلك الليلة الليلاء في جهد متواصل وتعب مضني. بينما بات الشيوخ والعجائز والأطفال يفترشون مناكب تلك الروابي، ويتدثرون أديم السماء المشبع برذاذ الماء!! أما المحاصيل الزراعية، سواء ماكان منها كدوساً أو ما هو واقفاً على حاله، فقد جرفه السيل بكامله، وتعهد بتنظيف تلك المزارع من أى سنبلة أو حتى قصبة واحد، فأصبحت الأرض وكأنها بطن راحة الكف، حتى شيجرات الرمث قد جذبها السيل بعنف، فبرزت جذوعها وكأنها جدائل عذراء قد فرغت الماشطة لتوها من ظفرها.

وأمسى الناس أغنياء بغلتهم الزراعية المنتظرة، وأصبح كل منهم خالي الوفاض لايلوى على شيء سوى مالديه مما خزن في بيته من محصول العام الماضي، وهذه الكارثة التي حَلَّتْ بهم في ساعات قصيرة أصبحوا على أثرها فقراء، ولكن الإنسان

في هذه الجزيرة لايعرف اليأس إلى قلبه سبيلاً، لم يذهب هؤلاء السكان لإستجداء الآخرين، أو طلب المعونة منهم، ولكن بدلاً من ذلك ما إن أصبح الصباح حتى شد كل منهم حزامه على ظهره يتقدمهم الشيخ حمود ممتطيا صهوة جواده طالباً من إبنه أن يريه المكان الذي شاهداه معاً ليلة البارحة، ذلك المكان الذي لم يبلغه السيل العظيم رغم إرتفاع منسوبه الهائل فأصبح غثاء السيل يحيط به إحاطه السوار بالمعصم، ولما وصلا إلى المكان بدأ حمود يخط برجله أساسات القصر الذي أصبح نواة البلد الجديد وهو ماثل حتى الآن و بدأوا بحفر الجِبيِّ لإخراج الماء لأغراض البناء، ولم يمض فصل الصيف من تلك السنة حتى شيدت القصور وحصنت بالقلاع ثم خير حمود حليفه زيد بإختيار أحد أقسام القصر شماليه أم جنوبيه فاختار القسم الشمالي، وبدأوا بحفر آبار جديدة، عثروا بها على مياه غزيره وعذبه، ولما علم أقارب حمود بعثوره على الماء الزلال توافدوا عليه جماعات وأفراداً طالبين منه إعطاءهم أماكن للفلاحة من أرضه فتم تقسيم البلد إلى شقائق يتراوح عرض الواحدة منها بين مئتي ذراع، وأكثر، وأقل من ذلك حسب حجم الأسرة المعطاة في إمتداد مطلق حتى الجبال والوديان المحيطة بهم، ولم يمض العقد الثاني من عمرها حتى أصبح طولها يقارب السبعة أكيال، وعرضها ينوف على خمسة أكيال أيضاً، ثم أنتقل أبناء حمود و بنوهم قصراً جديداً في أعلى البلد، وازدهرت تلك البلد من مجرد آبار مالحة لزراعة القمح والشعير وأشجار النخيل إلى أن غصت بالبساتين الغناء الوارفة، ولم ينتصف القرن الثالث عشر الهجري حتى أصبحت مضرب المثل في وفرة التمور وجودتها، وجودة الحنطه وكثافة محصولها، وطيب الفاكهة ولذة مذاقها، فصارت مركزاً من مراكز التموين الرئيسية التي تقصدها القوافل، فتأتي إليها خفافا وتذهب منها ثقالاً، وأثرى أهلها، ونشطت فيها الحركة الثقافية فأصبح جامعها وكتاتيبها يخرجون أفواجاً من علماء الحديث، وائمة المساجد، وحفظه القرآن، كما ازدهرت فيها الحركة التجارية، وصارت القوافل لا تنقطع عنها غدواً ورواحاً، أما التركيب السكاني فبعد أن كانت البلد مقصورة في البداية على حمود وحليفة زيد وأبنائهم فما لبثت أن إجتمع فيها أعداد كبيرة من أقارب حمود وعصبته، وأناس غيرهم، حتى صار سكانها ينتمون إلى عدد من القبائل والعشائر والأسر، وقد أصبح مجتمعها شبيه بمجتمع المدينه، وقد بقى أحفاد المؤسسين فيها

حتى الآن، حيث أصبحت في الوقت الراهن مدينة متوسطة وحاضرة القرى المجاورة لها، وهكذا يريد الله أن يتم إحياء هذه البقعة بواسطة هذين الرجلين و يعيشان متلازمين وقد وفي كل منهما بما عاهد الله عليه، في مواقف بطولية ثمنها الأحمر القاني والأرواح العزيزة، فلم يحصل موقف دفاعي إلا وتجد عدد القتلى من الجانبين يكاد أن يكون متساو ياً وذلك لوقوفهم في مركز واحد، وسار على منوالهما أحفادهما فيما بعد، حتى إنتهت فترة الفوضى، وأصبح الدفاع عن الكيان موكول بالدولة أدام الله عزها.

* * *

١٥ - لا أتزوج من لانخل له *

قد يجد الإنسان نفسه في بعض الأحيان مجبراً على التحدي، لما يصادفه من الظروف والأوضاع، قد يكون هذا التحدي بالكلمات، أو بالأفعال التي يعود مردودها على مصدر التحدي، وقد يكون بفعل يعود بفائدة أو رمز ية تتوفر في الشخص لتكبح جماح المتحدى، وتحد من عنفوانه، وإذا إنطلقت كلمة التحدى من النِّد لمثيله، فقد يهون أمره عند الدخول في حلبة الصراع أو ميدان المنافسة، حتى يتغلب أحدهما على الآخر، أما إذا كان من أعلى إلى أدنى، فلسوف يرى فيه تخديشاً لكرامته وجرحاً لكبر يائه، فيندفع إليه وهو واثق من نفسه أنه المنتصر، فربما ظفر في نفسه أوخسر، أما إذا كان من أدنى إلى أعلى فلاشك أنه سيقدم عليه بتصميم واستماته، لايحسب لمقدار الخسائر مهما بلغت نسبتها، حتى لو خسر أعز شيء لديه، هذا إذا كان الإثنان من جنس واحد، أما إذا كان المتحدي من الجنس الآخر، الجنس اللطيف المكمل لحياة الإنسان، فإن وقع التحدي يكون أشد وأنكى، وكما يقول المثل «وراء كل عظيم إمرأة» فقد صدق في كثير من الحالات عبر الحقب كل في مستواه، هذا العنصر الفعال المؤثر الذي ينفث كلماته، و يورى شرره، فيدفع بالرجل إلى الأمام، قد يفضى به هذا الأمام إلى بر السلامة والأمان، وقد يَزُجُّ به إلى قعر الهاو ية، قد تساعده المرأة في إجتياز المصاعب، وتهون عليه وقع المصائب، وترشده إلى الطر يق السوي، تشد من أزره، تقف بجانبه، أو من خلفه حتى يصل إلى مبتغاه، قد تدفعه إلى أن يعمل المستحيل و يأتي بالخوارق من الأفعال من أجل عينيها، تشده إلى أن يفلق صُوَّان الصخر بأظافره حتى يكبر بنظرها، فيكون ممن ترجو نواله، وتطمئن إليه، وهذا ما حصل لـ «سعد» الذي عاش في بيئة ر يفية بسيطة، وعند نشأته فارق والده الحياة وهو لايزال يافعاً، ونشأ في أحضان أمه، تحنو عليه وتساعده حتى شب على الطوق فرأى في نفسه مايرى الرجال، وعند ذلك أدركت أمه مايدور بخاطره ففا تحته في الموضوع حيث وافق كلامها هوى في نفسه وأخبرها بموافقته بكلمات تصطبغ بالخجل، كان الناس يعيشون في ذلك الوسط الفلاحي

* سعد بن بكر التميمي رحمه الله حوالى ١٢٦٥ هـ.

المتواضع، غير أن العمل يمثل العمود الفقرى لحياتهم ، الكل يعمل من قبل آذان الفجر وحتى قرب صلاة العشاء الآخر لمدة حوالي ست عشرة ساعة في اليوم والليلة، تتخللها فترات قصيرة لأداء الصلوات، وتناول وجبات الطعام، وكان سعد يمارس عمله ضمن أفراد هذه الخلية، ولكن بصفته أجيراً عند أحد أقاربه، يسوق الابل لنزف الماء، وأمه تعمل عندهم كذلك لتجهيز علف الإبل مقابل أجر معين، وفي إحدى الأمسيات بعد أن استراح مع أمه من عناء يومها المضنى، جلس غير بعيد عنها في بيتهم الصغير الذي تركه لهما والده، وتحت ستار الظلام الذي يلف البيت تشَجَّع سعد أن يكلم أمه و يتناقشان في الموضوع الذي سبق أن تفوهت به إليه وقال لها:

: ياأمي، سبق وأن قلت لي أنك أصبحت رجلاً، ويجب أن نبحث لك عن عروس، فهل فعلت شيئاً؟.

: إيه يابني!! صحيح لقد قلت لك ذلك، ولكني لم تتح لي الفرصة المناسبة للبحث، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الزواج ياوليدى يحتاج إلى بعض المستلزمات، ونحن كما تعرف أحوالنا على بركة الله.

: دعى عنك هذا الكلام ياأماه، وابحثى بجد، فالفراغ الذي لم تحصلي عليه امره هين، فإن هناك عددا من الفتيات يمكنك الذهاب إلى إمهاتهن، لجس النبض فإذا رأينا هناك قبولاً من إحداهن أمكننا الذهاب إلى والدها لخطبتها منه، أما موضوع التكاليف، فإن الله كفيل بتيسيرها، لا تكوني في هم من ذلك!!

: صحيح من قال «يعجز الرجل عن المنظره، ولايعجز عن جهاز المرة» من أين لك إننى أرى تأجيل الموضوع لمدة سنة أو سنتين حتى يفرجها الله؟.

أما التأجيل فلا أوافق عليه، فخير البر عاجلة بنات عمنا كثيرات، فلانه جميلة وعلى أول شبابها، فلانة عاقلة وصاحبة دين، فلانة جادة وعاقلة، فلانة من نساء طيبات، فلانة ذهب ومذهب، وفلانة... وفلانة...الخ.

: لم تترك واحدة في البلد إلا ذكرتها، ولكن يابني أريد أن تختار من بينهن من ترى فى نفسك ميلالها، وتعتقد أن والدها يتقبلك إذا أتيته خاطباً، فهناك من يريد أناساً أغنياء على مستوى طبقته، ولناس يريدون من يسير في ركبهم و يوافق

مزاجهم، وآخرون ينظرون للمصاهرة بمنظار نفعى، كما لا تنسى أن بعضاً ممن عددتهن لهن أبناء عَمٍّ قد «حَيَّرُوهُنَّ» فلا يمكن لأى أحد كائن من كان أن يتزوجهن، فاعرف يابني موطىء قدمك قبل أن تضعها!؟.

: يُطْرِقُ بامعان ويسبح في خياله في ظلمه الليل، وكأن كلمات والدته القناديل التي تضيىء طريقه الجديد الذي سيسلكه، وتعم فترة صمت مطبق تقطعها أمه.

: لماذا سكت يابني، ألم يعجبك كلامي؟ ألم تر فيه عين الصواب؟.

: معاذ الله ياأمي!! ولكني أفكر فيه الآن لأسير على ضوئه فأتجنب مواطن الأشواك إلى ثغور الزنابق!! ولأختار الفتاة التي يمكن أن تتوفر بها الصفاة المحببة إلى نفسي، وفي ذات الوقت أروم من والدها الموافقة على إعطائي يدها عند خطبتها.!؟.

: إن لك حرية الإختيار، ولكن يابني عليك بذات الدين التي نبتت من أصل طيب فلن تخسر، فإن توفرت فيها الصفاة الجسمانية التي تصبوا إليها نفسك فهذا نور على نور، وإن لم تتوفر فلا توليها كل إهتمامك!.

: لقد وضعني كلامك هذا في دوامة، كلما أردت الخروج منها عبرت من حيث أتيت، كلما توفرت مجموعة من العناصر، فقدت مجموعة أخرى غيرها!؟.

: لم أضعك في دوامة، إنها الحقيقة يابني، ولاشيء غيرها، أردت أن أنبهك عليها قبل أن تصطدم بجدار الواقع، فعندها تندم ساعة لاينفع الندم.

: لقد كانت نفسي متفتحة لهذا الموضوع، أتحرق شوقاً إليه، أما الآن فإن كلماتك العميقه قد كبحت جماحي، وجعلتني أميل إلى التريث والتروى قبل الإقدام على هذه الخطوة لضمان السلامة.

: أرجو ألا تعتبره تشبيطاً لهمتك، أو إعاقة لعزمك، ولكني يابني يعز علي أن أراك متعثراً في طريق من الطرق التي تسلكها، لاسيا وإنك إبني الوحيد.

: لاعليك يا أماه، فبرغم صغر سني، إلا أنني أعى ماحولي تماماً، وأنظر للأمور ببصيرة ثاقبة فلا تخافي، وإن نصائحك أعتبرها كالشموع التي تضيىء طريقي.

: هية !! لم تقل لي يابني من هي الفتاة التي ترغب أن تسعى في خطبتها لك؟.

: دعينا نستعرض الفتيات اللواتي تتوفر بهن المواصفات المطلوبة، هاه!! جوزاء إنها

فتاة كاملة الأوصاف، ولكن.. هيهات بالحصول عليها!؟ إن إبن عمها قد «أجارها» إذاً فلا سبيل إليها، شعاع، وهذه على جانب كبير من الجمال، لكن أباها بخيل وأخشى أن يورث بخله ابنائي!! أما عنقاء فهي من محتد طيب، ولكنها كبيرة في السن، لقد عنست، فهي تكبرني بأكثر من عشر سنوات!! أما رقية فلا يعيبها غير القصر، إنها قزمة لايبلغ طولها ثلاثة أذرع، أما هدلاء، فلا عيب فيها غير أنها رجاليه، تشبه الرجل في تصرفاته، إنها تفتقر إلى مقومات الأنوثه، أما قوت، فمن الصعب الحصول عليها، لأن أباها قد ضَنَّ بها على أناس أكبر مني منزلة، إذا لم يبق غير سلمى التي تتوفر بها معظم مقومات المرأة، وإن لم تكن جميلة جداً، إلا أنها من أساس طيب، ويمكن ألا يمانع أبوها في زواجها مني!؟.

: الآن عرفت أن لك نظرة فاحصة، ماحسبتك هكذا!؟ «ياما تَحْت السَّوَاهي منْ دَوَاهِي»!؟ وكيف عرفت كل هذه الصفاة عن فتيات ربما لم ترهن من قبل؟.

: «أفا عليك ياأمي»؟ وهل يخفى أحد؟ «كُلّنَا أهْل قُرِيَّة كُلٌّ يَعْرفُ أخَيَّهْ»؟؟.

: ومن أين حصلت على هذه المعلومات رغم أنك لم تبرح «المجر» لسياق الإبل؟.

: أعرف أشياء وأشياء!! إن حلقات السمر التي تعقد كل ليلة وينظم فيها الشباب، يتم فيها إستعراض شتى المواضيع، وكل يركز على الموضوع الذي يهمه ياأمي!؟ كل يغنى على ليلاه!! وإذا أردت أن اعطيك زيادة في التفاصيل عن أولئك اللاتي عددتهم لك وعن غيرهن فأنا على أتم الإستعداد!؟.

: لاحاجة لي بذلك «ستر الله من دار الستر»!! دع كل في حال سبيله وإنما نريد البحث في الموضوع الذي يهمنا، أقول إنك أحسنت الإختيار حين وقع نظرك على سلمى، إنها فتاة مليحة، متوسطة الجمال ولكن الطمع في أمها، إن طلعت عليها، إن أمها من النساء القلائل اللواتي يساندن أزواجهن، يخرجنهم من بلقع الفقر، إلى وارف الغني!! يبنين مداميك بيته على أساس قوى، يحفظن الرجل في ماله، وفي أنفسهن، حقاً إنها «ذَهَبٌ وَمَذْهَبُ»!! هاه!! ماهذا الصوت الذي أسمع؟ كأنه صوت محال!؟ أبدأ الناس بالسياق!؟ فعلاً هذا فلان صَدَّرْ!؟.

: أحقا ماتقول!؟ إي والله صحيح!! هكذا الحديث الشَّيِّق يختطف الوقت فيسير كلمح البصر، هيا على بركة الله يابني رعاك الله، ولنا حديث لاحق إن شاء الله!!

وفي مساء تلك الليلة الخريفية المعتدلة إنطلقت منيرة بعد أن فرغت من إطعام الإبل علفها الذى أعدت لها قاصدة بيت أهل سلمى تحت جنح الظلام، ولما وصلت المنزل طرقته فردت عليها «مُنْيَةْ» من الداعى.

: أنا منيرة، أم سعد !!

: أهلاً وسهلاً، تفضلى الله يحييك!

: مساكم الله بالخير!!

: الله يمسيك بالرضا والعافية!! تفضلى أجلسى على هذا الحصير يا أم سعد!!

: ماشاء الله هل أنتهيت من العمل بهذه السرعة؟ ونام أطفالك؟

: لقد إنتهيت لتوى من العمل، وبقيت سلمى لتكمل تنظيف أوانى المطبخ أما الأطفال فقد ناموا بعد العشاء مباشرة، وليس بالبيت غيرى.

: إذا مادام الأمر كذلك فهى فرصة طيبة، لأفاتحك فى الموضوع الذى عنيت إليك من أجله!؟ فلا تذهبى لإحضار أى مشروب، إننى ريانة، وليس لى نفس بأى شيئ!

: خيراً إن شاء الله!؟ وماذا لديك من المواضيع؟

: كما تعلمين ياأم فلان، أن إبنى سَعَد قد أصبح رجلاً، ولدينا الرغبة فى قربكم، وقد وقع نظره على إبنتكم « المُصْلَحَة» سلمى، فجئت إليك لأرى وجهة نظرك، وما إذا كان هناك أى التزام أو ترتيب سبق أن جرى فى هذا الموضوع؟ وما إذا كانت البنت ليس لديها مانع فى ذلك حتى يمكنه أن يتقدم إلى والدها بطلب يدها!؟

: والله إن سعداً لنعم الفتى!! ومن لحمنا ودمنا!!، ولكن مثل هذه المواضيع تحتاج إلى بعض الوقت لأسبر لك غور البنت!، وأطلع على رأى والدها، فاتركى لى فرصة أتمكن خلالها من إجابتك، وعليك أن تعودى لى بعد ليلتين!!

: لامانع لدى من ذلك، ولكن ياأم فلان أرجوا أن تكونى إلى جانبنا ماأمكن!؟

: أبشرى!! إن سعداً من أقاربنا، ونحرص على قربه، وسأحاول جهدى، إلا إذا لم يخرج بيدى شيئ!؟

: فيك البركة إن شاء الله، وسأذهب وأعود عليك بعد يومين تصبحين على خير.
: وأنت على مثله، آه!!لقد نسيت أن أضيفك، تفضلى، إشربى من هذا اللبن البارد، إنه ينقع على «الكبد» فى مثل هذا الوقت.
: تأخذ منه «طرقوعاً» على عجل وتشكر لمنية حسن إستقبالها وتوديعها وتنصرف.

عند ذلك تنتهى سلمى من تنظيف أوانيها وتعود إلى أمها بعد أن سمعت طرفا من الحديث لم تميز مضمونه فتسأل أمها.

: من هذه المرأة التى عندك؟ كأنها صوت أم سعد!؟
: نعم هى بعينها.
: ولماذا كانت مستعجلة؟ وماذا تريد فى هذا الوقت؟
: إن لها حاجة سوف أخبرك عنها، هل أنهيت عملك؟
: أجل!! لم آتك إلا وقد أكملت كل شئ ورتبته على أحسن ترتيب!!
: تعالي يابنيتى واجلسى إلى جانبى! وبعد أن جلست قالت لها، تعلمين يابنيتى إن كل فتاة إذا بلغت سن الشباب فلابد لها أن تتزوج إذا رزقها الله بابن الحلال الكفء!
: لقد جاءت إليك لتأخذ رأيك فيما لو خطبوك لإبنها سعد ماذا تقولين؟ ويقع هذا السؤال عليها وقع الصاعقة، فترتعش أطرافها، ويصفر وجهها، ويجف ريقها، فيلتصق لسانها بلهاتها، ويطبق الصمت فترة من الزمن، فتعاود أمها السؤال، مالك لاتتكلمين!! لاتنبسى بكلمة واحدة، وتحاول أن ترد، ولكن لسانها يخونها، فيصبح كلامها تأتأة، ووهوهة، ثم تحاول الوقوف والإنصراف من عند أمها فلاتستطيع، وتدرك أمها الوضع الذى هى فيه فتقول لها:
: لاعليك يابنيتى!! لاعليك، لقد حدث لي فى أول أمرى ماحدث لك وهذا من صفات النساء اللاتى يستحين ويخجلن، لابأس فكرى فى الأمر وغداً تعطينى الإجابة، على مهلك! وتنصرف عنها، فتقوم سلمى بعد ذهاب أمها، خائرة القوى لاتكاد تصل إلى فراشها الذى ما إن وصلت اليه لطلب النوم حتى بارح جفنيها، وتوا ردت الصور بأشكال شتى عن المستقبل، عن هذا الرجل، وماذا تتوقع أن يحدث منه؟ هل ستعيش معه بتوافق الطباع وتطابق الأمزجة، أم سيكون هناك

نـفـور فى جانب من الجوانب فيحصل الجفاء، هل يمكن أن تعيش تحت كنفه آمنة مطمئنة على نفسها و بنيها بعد ذلك؟ وتطاوحت بها الأفكار والخيالات والصور، ولم تـشعـر إلا وقـد أوشكـت ظلمة الليل أن تنقشع، عندما أذّنَ لصلاة الفجر وهى لم تـذق طـعـم الـنـوم تـلك الليلة، فقلبت الوسادة على رأسها علها تحصل على إغفاءة بـسيطة تذهب عنها آثار السهر، وغطت فى نوم عميق أيقظتها أمها بعد فترة قصيرة فنهـضـت مـثـقـلة لاتكاد تستطيع المشي على الأرض وقد إنتفخ جفناها من السهر، وقـد زادت مـن عـزمـهـا و بـدأت بـعـمـلـهـا كـالمعتاد، و بعد تناول طعام الغداء، أمسـكـت أمها بيدها وإنتحت بها جانبا، وسألتها عن رأيها فى الموضوع الذى فاتحتها فيه ليلة أمس.

: إيه!! بنيتى، ماذا تقولين فى الموضوع الذى تكلمنا فيه ليلة البارحة؟

: ورائى، ورائى!! ألم تصبرى ياأماه!! ما الذى يعجلك؟

: أنـا لـسـت مـسـتـعـجـلـة، ولكنى وعدت المرأة أن أعطيها الخبر غداً وأحب آن آخذ رأيك، لهذا السبب أنا حريصة على إستطلاع رأيك!؟

: والله يـاأمـاه لـقـد فـكـرت فـى الـموضوع البارحة جيداً، فالرجل معروف لدينا ومن أقـاربـنـا، ولاشك أنه من عرق طيب، وليس به مايقذله فى عينيى ولكن بصراحة، الفتى فقير ولايملك فى هذه الحياة شيئاً سوى ما يدركة من أجره عند الناس، وهذا لايجعلنى أطمئن إلى مستقبل مريح معه، بل لايجعلنى أثق إلى مستقبل أبنائى إذا أنجبت منه!! أنعيش عالة على الآخرين؟

: يابنيتى، إن قلة ذات اليد ليس عيباً، إننى حينما تزوجت والدك كان فقيراً فوقفت بجانبه وساعدته حتى أخرجه الله وأصبح الآن من خيار ربعه!؟

: ولـكـن أبى كان على الأقل لديه مزرعة إستطعت أن تساعديه فيها، أما هذا فليس لديه شئ، إنه «كالطائر على طرف العسيب»!؟

: أبـنـيـتـى، لاتـتـركـى مـثـل هـذه الحسابات تسيطر على تفكيرك، فالرزق على الله فلايفوتك إبن عمك!!

: صحـيـح ياأمى الرزق على الله، ولكن هناك أسباب للرزق غير متوفرة عنده، سوى أجره السنوى الذى لايتعدى بِضْعَةَ دُرَيْهِمات «وشْ العُصْفُور، وشْ مْرقْتُهْ؟

: يبدو عليها الجزع من كلاَم إبنتها، فتتابع حديثها بلهجة الحزم اشير عليك أن تتزوجيه، فلن يأتى إليك أفضل منه!!

: تشعر أن والدتها تحاول الضغط عليها فترد عليها «وَهَلْ أَتَزَوَّجُهُ مِنْ أَجْلِ دُغْمُ الكَرَب»؟؟

: تقبض بسبابة وإبهام يدها على رأسها قائله بصوت لايخلو من التحدى، ستندمين إذا لم تطيعى مشورتى ساعة لاينفع الندم؟

: أنا أحس بنفسى، فلا تتعبى نفسك ياأماه!! وما كتب سيكون.

وانصرفت كل واحدة إلى حال سبيلها ولما رأت فية عدم موافقة إبنتها على الموضوع لم تفاتح والدها بذلك، و بقيت كاظمة طيلة ذلك اليوم، وفى الموعد المحدد، جاءت أم سعد إلى منية لإستطلاع الرأى فقالت لها

: بَشِّرى يامنيه!! عسى الأمور خير ومتيسرة؟

: ترد بصوت مثقل فلا تكاد الكلمات تخرج من شفتيها، خير إن شاء الله ولكن رفضت «مَمْهُونَةِ الغِذَاءِ»!!

: لماذا؟ عسى ماشر؟ عسى ألايكون بولدى عيب من ا لعيوب؟

: حاشا لله ياأم سعد، إنه كامل الخصال.

: وبماذا تعيبه؟؟

: و بصراحة إنها تقول، «وهل أتزوجه من أجل دغم الكرب»؟

: ووالدها ماذا يقول؟

: بصراحة، لم أفاتحه فى الموضوع عندما عرفت رأى البنت، لأننى متأكده أنه سيأخذ رأيها، وستدلى له بنفس الكلام، فإذاً لافائدة من الكلام معه.

: إنك مخطئة إن كلمة الفصل بيد الرجل، إنه يستطيع أن يجبرها خاصة إذا كانت صغيرة وجاهلة لا تعرف مصلحة نفسها!

: لاتحاولي يا أخيَّةَ!؟ إننى أعرف ابنتى وزوجى، فهو لايكرهها على شئ لا ترضاه، وتقتنع منه بنفسها، حتى فى الامور البسيطه، أما إذا إقتنعت فلن يقف فى طريقها أحد عند التنفيذ!

وتعود منيرة مع نفس الطريق الذى جاءت منه «بأقل من خفى حنين»

تسحب أقدامها وكأنها تجذبها من خلطه طين، مسترخية يديها، مكسورة الخاطر، وعندما وصلت إلى ولدها سعد، لمح من محياها أنها عادت خالية اليدين، فقال لها بَشِّري ياأماه!! فأجابته بصوت خافت قد أثرت فيه الصدمة، البقاء برأسك لقد رفضت البنت!! فسألها عن السبب؟ فأجابته: إنها تقول: «وهل أتزوجه من أجل دغم الكرب»؟ فكان هذا المثل بمثابة الصاعقة المنقضة على صدره، لكنه تمالك أعصابه وقال: هونى عليك ياأماه، هذا شرط بسيط جداً، وأتبع ذلك بضحكة مُدَوِّيةٍ، وذلك لإنتشال أمه من حالة اليأس التى تعانيها، فقالت الأم: إنها مغرورة تلك الفتاة!! لاتريد سوى الأغنياء، ذوى البساتين المظلمة، من أجل أن تحصل من ضمن مهرها على نخلتين أو ثلاثاً!؟ لتختار نخل القسب!؟ هذا ماتريد!! فرد عليها إبنها دعيها وشأنها فكل له من حياته نصيب، «وإن كان لي فيها نصيب فلن يأكلها الذيب»؟!

وحاول سعد أن ينام ليلته، ولكن تلك الجملة الإستفزازية الصادرة عن الفتاة كانت له بالمرصاد، فكلما حاول النوم الولوج إلى جفنيه وخزته تلك الكلمات بشدة من تحت إبطه، فأمضى ليله يتململ وكأنه إضطجع على شوك الشرشير، ولما حان موعد عمله إنطلق لمباشرته كالمعتاد، حتى إذا أصبح طلب من أمه أن تسوق عنه الإبل فذهب إلى عمه عمر مسرعاً حيث وجده لم يخرج من غرفة القهوة، فقال له.

: أسعد الله صباحك ياعم، لقد جئتك لأمر مهم جداً؟

: وصباحك يابنى!، وماهو هذا الأمر «ياخلف أبوى»؟

: أريد أن تبينوا لي حقى من والدى من الأرض العراء الواقعة الى الجنوب من فلاحتكم؟!

: وماذا تريد بها يابنى؟

: اريد أن أحفر بها بئراً، وأغرس بها نخلاً!!

: وهل أنت جاد فيما تقول؟

: لم يأت بى إليك إلا الجد!

: إنها أرض وعرة، إنها متة رضمة، تقع بين واديين ولاتصلح للزراعة!؟

: أنا مقتنع بها، إنني أريدها، اليوم قبل الغد، متى تبرزوها لي؟

: إنا لله وإنا الله راجعون «المقرود مايبخت»؟!، إذا كنت عازماً على ذلك فسوف نأخذ لجنة النُّظرَاء بعد صلاة الظهر و يبينون لك حقك، أيرضيك ذلك!؟

: نعم يرضينى، وسأحضر إليكم إذا رأيتكم هناك، فلا تتأخروا؟
مع السلامة وإلى اللقاء،

و يعود سعد إلى أمه، و يباشر العمل عنها، و يطلب منها أن تأتيه بعد صلاة الظهر مباشرة لتقوم بالعمل عنه حتى يتمكن من الذهاب لأمر مهم، فتسأله عن كنه هذا العمل، أهو يتعلق بالزواج؟ فيقول لها: نعم، ولما حان الموعد إنطلق فوجد القوم هناك، و بينوا له حقه، وأعطوه أعمامه ز يادة عن نصيبه من حقهم على يد هيئة النظراء، فوضع عليها المراسيم، وعاد إلى أمه ولم يؤذن عصر ذلك اليوم حتى حصل على قطعة الأرض اللازمة، فقال لرب العمل: آمل أن تبحث لك عن أجير غيرى إعتباراً من يوم غد، لأننى سأباشر عملاً جديداً ولماحَّظ عن الإبل وعاد إلى بيته قال لأمه:

: ها!! ياأماه، مامعى منك؟ و«هل أتحَزَّمُ بك»؟

: كلى معك يابنى!! تستطيع أن «تحتزم بى إلى الإبط»!! ماذا عندك؟

: سنبدأ حياة جديدة! سأصبح فلاحاً إعتباراً من يوم غد، لقد حصلت على الأرض، وسيدلني السائس على مكان البئر، وسنبدأ بحفرها غداً إن شاء الله. يقول ذلك باندفاع تغلفه نبرة الفرج.

: بإستغراب، ولكن يابنى من سيساعدك، ليس لدينا المال اللازم لبدء العمل والناس كما ترى كل منهم قد تورط في شئون فلاحته، و بعض الناس تعرف موقفهم معك!! إنه ليس لدينا حتى قوت يومنا، غير ما نأكله عند «معاز يبنا» فالناس في مجاعة كما تعرف ونحن نكتسب من عملنا لقمة العيش التي لا تتوفر عند الكثير ين، فما لنا ياولدي ومال الفلاحة، إنها صعبة!!
الكثير ين، فمالنا ياولدى ومال الفلاحه، إنها صعبة!!

: توكلى على الله ياأماه، وأعزمي على كلمتك الأولى، لقد صممت أن أحفر البئر لوحدى، بهذين الساعدين، ولن أقبل من أى كان أية مساعدة ومن أى نوع، هذا

ماقررته، فما عليك سوى الخروج من العمل عند الناس ومساعدتى، أنت بالذات أنا محتاج إليك!؟

أنا مستعدة لمساعدتك بكل طاقتى، ولن أدخر وسعاً «واغْربَا لِكْ يَامُنَيْرَة»!!؟ تقولها بلهجة حادة، هذا الولد إذا عزم على أمر فلن يثنيه عنه أحد؟ «لايقدر عليه إلا الذى خلقه.»؟ والمشكلة أنه حتى وجبة الطعام لاتوجد عندنا، وليس هناك سوى لبن هذه الشويهات!؟

: الرزق على الله قليل من اللبن وماتيسر معه يكفى!! والفرج قريب فلا ترددى؟

: مالذى حملك على هذا يابنى؟ وغاب عنها تأثير كلمات سلمى عليه.

: متجاهلاً الوضع السابق، لقد تطارحنا الحديث أنا وبعض أقرانى فلمزنى أحدهم بكلمة تتعلق بحق أبى عند أعمامى، ولما كنت لاأريد إيذاءهم بتقسيم نخلهم وفلاحتهم قررت الطلب منهم أن يبنوا لى حقى من والدى من تلك الأرض البيضاء لاتصرف بها، وما أجدر أن نبدأ بها غداً.

: وحقك من الفلاحه؟

: يبقى على حاله حتى يحين الوقت المناسب.

وفى الصباح يجهز سعد عدة الحفر ويخرج مع طلوع الشمس ويبدأ بسم الله فى حفر البئر، ولم تمض سحابة ذلك اليوم حتى بين حلقة البئر، وتأتيه أمه باللبن وماتيسر لها من طعام، ولما انحدرت فوهة البئر، ركز عليه الأخشاب القائمة، وركب عليه المحالة والرشا، وعندما نفذ مالدى والدته من المتاع صارت تذهب مع طلوع الشمس إلى مسائل الشعاب، والأودية، والتلاع والمحاجر، لتجمع اَلْجَنِيْ، وتعود به قرب آذان الظهر ليكون بمثابة وجبة الغداء لولدها وتدخر منه شيئاً للعشاء مع قليل من اللبن، ومتى أحضرت له الجني أوصلته إليه فى جوف البئر، فأكله وشرب عليه اللبن ثم استأنف العمل وذلك بحشى التراب الذى حفره أثناء غيابها وكومه فى أحد جوانب البئر فيبدأ بتعبئة الزنابيل الصغيرة ويعلقها بطرف الرشا، ويمسك طرفه الآخر وهو فى قعر البئر فيمتحه حتى يخرج الزنبيل إلى فوهة البئر حيث تكون أمه فى إنتظاره فتأخذه وتفرغه من التراب بعيداً عن فم البئر ثم تعيد الزنبيل إليه فارغاً ليعبأه من جديد ويرفعه إليها مرة ثانية يجذبه من داخل البئر وهكذا حتى تنتهى كمية التراب

التى جمعها فى تلك الفترة.

: واستمر العمل على هذا المنوال ثلاثة أشهر ونيِّف، لم يقبل فيها مساعدة أحد من ذو يه أو أصدقائه بأي وجه من الوجوه، ينزل و يصعد من خلال سلم من حبال الليف قد فتله بنفسه وثبتها على حرف البئر، وفى صباح ذلك اليوم الربيعي وعلى عمق حوالى عشرين متراً، أحس سعد بالسخونه والدفء تنبعث عليه من جوف البئر، فأيقن أن الماء غير بعيد عنه، فأهوى بعمود الحديد الذى بيده بكل ماأوتى من قوة، وضرب به ضربة قوية فار الماء على أثرها صافيا رقراقاً، فغرف منه أول غرفة بيده كاد أن يشرق بها من شدة الفرح، ثم خرج من البئر مسرعاً ليسوق البشرى إلى أمه ولكنه لم يجدها حوله، فعاد مرة ثانية الى البئر، فوجد الماء قد زمى فى قاع البئر حتى كاد أن يغطى منكبيه وهنا لملم عدته وصعد مع السلم، ولما خرج من البئر رأى زول أمه يلوح من بعيد فجرى إليها مسرعاً يكاد يطير من السرور، فضمها إلى صدره وقبل جنيها وهو يقول، أبشرى ياأماه، لقد وجدت الماء، وجدت الماء إنه عذب كماء المزن، وتشارك الأم إبنها سروره و يرددان معاً الحمد لله الذى كلل عملنا بالنجاح، و ينطلقان معاً يركضان صوب البئر وعندما وصلا إليه صَلَّ سعد «القلص» فأخرج به عينه من الماء، تضلعا منه وكأنها يقطفان أول ثمرة من ثمار كدهما المضنى، وعرقهما المتصبب لعدة شهور، وكان موعد غرس النخيل قدحان فى دخول«السماك»فعلى الفور شرع سعد بغرس فسائل النخل التى جمعها بأعداد كبيرة من ذو يه ورفاقه، وهذا من توفيق الله له فلم تمت منها واحدة، ولم يمض الحول على مقالة تلك الفتاة التى كانت الحافز الأول لسعد للإقدام على خطوته تلك احتى كان لديه مايز يد على مائة نخلة، سيصبحن فيا بعد «دُغْمُ اَلكَرَبْ» وعند ذلك أصبح لديهْ المؤهل المطلوب للفوز بيد تلك الفتاة التى كبرت فى عينيه بعد أن رأى آثارها الإيجابية المبدئية عليه، وصار غر يس سعد حديث الوسط الفَلاَّحى، ولاسيا أنه وافق ذلك الماء القراح الذى لايوجد له مثيل بالبلد، ولوقوعه قرب المركز الرئيسى ومكان التجمع السكانى، فبنى بجانب البئر جورة على نفس الساقى وجعلها سبيلاً لله يرتوى منها أهل البلد وغيرهم، تجلب النساء منها الماء على رؤسهن بإناء يشبه الجرة يسمى «جذعة» مصنوعة من النحاس يستوعب حوالى ستين لتراً من الماء، وطفح صِيْتُ سعد وماء بئره الغز ير

والعذب وقد تم كل هذا بمدة تنوف قليلاً عن الحول، وعند ذلك تنفس سعد الصعداء وعاد إلى محاول خطبة فتاة أحلامه فقال لأمه.

: ياأماه!! إننى أرى الوقت قد حان لأتزوج، أليس كذلك؟

: إي والله يابنى، لقد أصبحت رجلاً بحق وحقيق «بِسْمِ رَبِّى عَلَيْكَ»؟

: أريدك أن تعودى إلى سلمى وتخبريها بأننى أصبحت من أهل «دُغْمُ الكَرَب»؟

: سلمى الفلان!! لا والله يابنى لن أذهب إليها، لقد ردونى فى المرة الأولى ولن أذهب إليهم مرة ثانية، أرجو المعذرة يابنى وإذا كان ولابد فسنرسل خالتك رقية لتجس نبضها، أو إذهب أنت إلى والدها رأساً، فليس هناك مايمنع إنك الآن ملء العين «وآحرز يحوطك»؟

: بامكانى الذهاب إلى أبيها، ولكن أريد إنتزاع نفس الجملة التى قالتها من نفس الطريق وبنفس اللسان الذى نطق بها، وهو لسانها ولسان والدتها؟

: هذه خالتك رقية نستدعيها ونرسلها لنفس الغرض.

ويتم إستدعاء رقية ويبلغها سعد ما فى نفسه، فتسير إلى بيت أهل سلمى، وعند وصولها كانت أم سلمى غائبة عن البيت لبعض شأنها ولايوجد سوى سلمى، التى رحبت برقية، فقالت رقية أين والدتك ياسلمى؟ أجابتها أنها ستعود عن قريب،

: ماذا تريدين ياأم فلان؟

: إن لي بها حاجة خاصة أريد أن أقولها لها.

: إذ تريدين أى شيء من الحوائج فأنا بمكان أمى، سأقضيها لك فاعليك إلا أن تأمرى بها؟

: إنها حاجة ليست من لزوم البيت وأمتعته، إنها خاصة!؟

: وقد أدركت بذكائها عن ماهية الغرض الذى جاءت من أجله رقيه فقالت لها: وهل تجحدين عليَّ الأشياء التى ستقوليها لأمى؟ إن والدتى ستخبرني بها، إمى ليس بينى وبينها أسرار، فهي تصارحنى بكل شيء وأنا كذلك!!

: بعد شيء من التردد، الواقع أن الموضوع يتعلق بك أنت!!

: بى أنا!؟ وما هذا الموضوع؟ تقوله متجاهلة ماسبق أن أدركته من غرض رقية.

: مادمت تسأليني يابنيتى!! فقد جئت مرسلة لكم من إبن أختى سعد ليستطلع

رأيك فيما لوخطبك من أبيك، أتوافقين أم ترفضين؟

: يداعب قلبها الفرح ولكنها تتحكم فى أعصابها، مادام الموضوع فى هذا الشكل، فسوف أقول رأيي، وربما لا أرفضه فهو نعم الفتى وليس عليه مدخل!!

: كادت تشرق بريقها، يعنى، يعنى، يعنى إنك موافقه!؟

: قلت لك أنى سأقرر بعد ذلك، وأرجو أن تقصرى صوتك فهذا حس خطوات الوالدة أقبلت، فلا تذكرى لها شيئاً إنك تكلمت معى فى هذا الشأن، دعى الأمر يكون من قبلها أفضل، تقلوها بهمس.

وتصل منية وتسلم على رقية، وبعد السؤال عن الأولاد وأهل البيت تفاتحها رقية بالغرض الذى جاءت من أجله، فتهز منية رأسها

: لقد بذلت جهدى من العام الماضى وأنا أحاول بها وهاهى الآن تسمع منك فالأفضل أن تكون الإجابة من رأسها!

: ماذا تقولين يابنيتى؟

: بعد صمت مطبق نبرت بهذه الكلمات بصوت منخفض، إذا وافق أبى وأمي!؟

: أنا موافقة، ولو أطعت مشورتى لكان معك منه ولد!!

: إذا أعود وأنا مطمئنه!!

وتستأذن لتخرج من عندهن فرحة مسرورة بما حصلت عليه من النتيجة الإيجابية، تسابق الريح فى جريها، فطفحت أردان ثوبها الفضفاض من سرعة الجرى، وعندما وصلت إلى سعد وأمه زفت إليهما البشرى قائلة.

: أبشر «ياخلف أبوى ياسعد» لقد وافقت سلمى وأمها على الخطبه ولم يبق سوى موافقة والدها، وهذا من شأنك، يابنى أسرع إليه غداً ولن يردك خائباً إن شاء الله!!

: أبشرك الله الخير، إذا صِرْت أجود منى، لقد أدركت مالم استطع إدراكه.

: إننى مطمئن إلى الرد الايجابى!! وكأننى ضمنته بيدى!! وعند الظهر فى اليوم التالى ذهب سعد مع أحد أعمامه إلى والد سلمى يخطبانها منه فلم يرد لهما طلباً بعد أخذ مشورتها، وفى نهاية الأسبوع تم الزفاف على أبسط الطرق، وتصبح سلمى زوجة لسعد تم الحصول عليها بسبب جملة تَحدٍّ أطلقتها من لسانها، عن قصد أو عن

غير قصد، كانت هذه الجملة حافزاً لسعد أن يبتدع البئر بسواعده على عمق عشرين متراً ليصل الى الماء العذب الذى أصبح يغذى معظم سكان البلد بماء الشرب لأكثر من قرن من السنين وليحوز فى النهاية فتاة أحلامه التى أنجبت منه بنيه الذين لايزال أحفادهم على قيد الحياة.

* * *

١٦ - أهذا يكون خطيبا ؟*

قبعت شبه الجزيرة العربية قرونا طويلة منزوية عن العالم فى ظل الحكم التركى الثقيل جاثما على أطرافها فنأت عن الإرتواء من منهل العلم، وبصفة خاصة وسطها نجد، أما أطرافها التى إمتد اليها النفوذ الأجنبى فقد بقى فيها بصيص من النور لايكاد يذكر، متمثلاً فى المدارس الخيرية التى تشرف عليها الحكومة إشرافا إسمياً، أما نجد فإنها كانت بعيدة عن النفوذ الأجنبى عدا إلمامات عدوانية سريعة، ولذلك إقتصر التعليم فيها على مايدرس فى تجمعات الذكر، وحلقات المساجد، وعلى أيدى الكتاتيب الذين يدرسون طلابهم القرآن الكريم، وعلوم الحديث، ومن برز منهم يستطيع الإنضمام إلى مجاميع علماء الحديث من المشايخ الذين يتخرج على أيديهم القضاة وأئمة المساجد وخطبائها، ولو نظرنا بإمعان إلى الطريقة التى يدرس بها آنذاك لوجدناها تتمثل بتعليم حروف الأبجدية، ينتقل الطالب بعدها إلى تعلم القرآن الكريم قراءة على الطريقة التَّلْقِينيَّةِ، وكتابة الجزء اللأخير منه المشتمل على قصار السور ومتى أتم القرآن الكريم بدأ القراءة فى كتب الحديث بادئاً بالأصول الثلاثة وغيرها من الكتب الفقهية الأخرى، وهى بطبيعة الحال من الكتب المخطوطة ثم يتفرع الى أحد الفروع التى يرغبها، كالقضاء، أو علم الفرائض، وغيرها، وهذه المرحلة لايصلها إلا القلة من الرجال ذوى الطموحات البعيدة والهمم العالية، أما ماعداهم فيكتفون بدراسة القرآن الكريم، قراءة وتجويداً، والكتابة التى قد تكون غير جيدة ويلاقى المعلم، ويسمى «الخَطِيْبُ» أو «المُطَوِّعْ» من المتاعب والمشاق فى سبيل تأديه رسالته التعليمية هذه، حيث لايوجد جهة تشرف عليه أو توجهه أو تصرف عليه، وإنما هو كل شئ، يشرف ويوجه نفسه ويتولى الصرف على نفسه، وربما طلابه ويضطر فى أغلب الأحيان إلى إستقبال طلابه وتدريسهم فى جزء من منزله، إن لم يجد مجالاً قرب بيته أو فى المسجد، وفى هذه الحالة يقوم بأود طلابه فى تأمين بعض الضروريات كالماء مثلاً، رغم أن زوجته تحضره على رأسها من مكان بعيد، وربما تكفل بالفراش الذى يجلسون عليه وغير ذلك من الأمور، وفى مقابل ذلك يحصل الخطيب من والد الطالب أو ولي

* قصة محمد بن عامر العامر رحمه الله حدثت حوالى ١٢٨٥هـ.

أمره على مكافأة معلومة يحددها بنفسه، وربما مجهولة، تتمثل فى قليل من النقود، أو شيئاً من الطعام عن كل فصل دراسى، مع بعض الهدايا التى يحصل عليها عندما ينتهى الطالب من ختم القرآن الكريم، أو إجتياز نصفه الأول، وربما عند بلوغه كل جزء منه، أما الطالب نفسه فإن المتاعب التى يتلقاها كثيرة ومتشعبة، إبتداءاً من مجيئه إلى مكان الدرس على قدميه، وإصطحابه ذلك اللوح الخشبى الثقيل الذى يكتب فيه الحروف الهجائية، وبقية واجباته، و يضطر إلى طلائه بالماده الجبسية «بيضاء اللوح» ليصبح أبيضاً ناصعاً، ثم ينشره فى الشمس فترة من الزمن حتى يجف فيحضره، و يأخذ قلمه المبرى من أغصان الشجر، ويحضر محبرته، الدواة، التى حَضَّر الحبر فيها بنفسه، ثم يبدأ كتابة واجبه اليومى الذى حدده له المعلم، ومايلاقيه من التعب فى جلوسه متململاً على الأرض التى غالباً ماتكون على فراش من بساط الصوف، أو الحصير، وربما حصباء بدو فراش، وما قد يناله من توبيخ المعلم له، وقد يطوله عصا المعلم المديد ليهوى على منكبه أو رأسه، وقد تصافح مسطرة المعلم بطن راحته بعض الأحيان، وربما تطرق أخمص قدميه، بالإضافة الى مايلاقيه من تقلبات الجو، من حرارة و برودة، وهو فى مكان مكشوف أو شبه مكشوف، والجوع الذى يعبث بأمعائه طيلة فترة الدراسة، فليس هناك وجبة خفيفة يأكلها فى الفسحة اللهم إلا ماقد يخبئه فى جيبه من جبيبات التمر، أو كسر الأقط، أو قطع الأرغفة، والكليجاء، وربما الجراد الجاف، فى غير مواسم الخضروات والفواكه التى يضعها فى جيبه، لكن هذه المدخرات لايجد لديه الوقت الكافى لتناولها، فالدراسة تكاد تكون حصة واحدة مستمرة لمدة ثلاث ساعات تحت مراقبة المعلم، وطائلة عصائه، و بعد أن ينتهى الطالب من دراسة القرآن الكريم، يختار النابه من الدراسين، طريق الدراسة والتحصيل العلمى الرفيع، فإن عليه أن يشد المئزر، ويمسك بعصا الترحال، يقطع المسافات الطويلة على ظهر دابته متعرضا للأخطار والمهالك، يتجول من عالم الى آخر ومن مدينة الى مدينة، يقرأ على هذا الشيخ، يقتطف من معلومات ذاك، و يدرس على ذلك العالم كتاب أو أكثر يسهر الليل مع النهار لينسخ نسخة من هذا الكتاب فيحملها معه، وهكذا ديدنه حتى يحتل المرتبة التى يرضاها لنفسه، أو تكون على قدر إستطاعته فى التحصيل فى هذا الجو الثقافى العسير قدم ذلك الرجل «عامر» الذى

هرب بدينه من إحدى البلدان العربية المجاورة، وكان قد بلغ من العلم مرحلة تؤهله لأن يقوم بجزء من رسالة التعليم التى يقوم بها أمثاله، ومع أنه غير متفرغ لها، وذلك ليكسب لقمة العيش بعرق جبينه، ولأنه لم يتزوج بعد، فليس له مكاناً يتخذ منه مقراً للتدريس، اللهم إلا فناء المسجد فى أوقات فراغه، ولهذا السبب لم ينتظم لديه أحد فى هذه الفترة وحينما تزوج وأنجب إبنه الأول أضطره الوضع فى بادئ الأمر الى إدخاله عند أحد الكتاتيب الموجودين فى البلد لفترة قصيرة. وعندما أراد الذهاب بإبنه إلى المعلم عوض[1] الذى يدرس الصبية إصطحب إبنه معه، وكان الإبن صغيراً نوعاً ما وضعيف البنية، لكن أباه قد ذاق حلاوة العلم وأراد أن يحظى إبنه بنصيب منه، فعندما وصل إلى بنت المعلم قال له.

: أسعد الله صباحك ياخطيب، لقد إخترتك دون غيرك لأضع ابنى هذا عندك ليتعلم قراءة القرآن الكريم والكتابة، وأرجو أن تكون عند حسن ظنى بك من حيث قبول إبنى ومراعاة ظروفه نظراً لصغر سنه.

: حياك الله وأسعد صباحك ياأخى، وأنا أعتبر إبنك مثل إبنى لافرق بينهما، ولكنه صغير السن قد لايجارى الطلاب الموجودين عندى الآن، لأن أعمارهم من العاشرة فما فوق، وابنك لم يبلغ السادسة من عمره، وأخشى عليه من الطلبة أن يؤذوه، ويفتنوه عن دراسته، ثم إنكم ماشاء الله تعلمون الناس فى المساجد، فالأولى أن تدرسواابنكم، لأن الأقربين أولى بالمعروف:؟

: معك حق فيم تقول، ولكن لدى الآن ظروف صعبة، لقد اشتركت مع فلان فى الزرع فأخذت «عُمَالَتَهُ» ولا أستطيع التوفيق بين تدريس إبنى وبين عملى، حيث لاأحضر من المزرعة إلا وقد نام.

: مالذى يجعلك مستعجلاً على تعليمه الآن، فهو لم يبلغ السن التى تؤهله للدراسة مع ضعف فى بنيته، فالوقت لايزال مبكراً.

: لقد لمست فيه الرغبة الصادقة للدراسة، مع أن لديه بعض الإلمام بمعرفة وكتابة بعض الحروف، وسوف يعجبك الصبي، إن فيه ملامح الذكاء والنجابة، وأنا أعتبر صنيعك معروفاً إذا قبلته هذه السنة حتى انتهى من حصاد الزرع وتصفيته!!

: إن هذه الساعة هى أبرك الساعات،!!إن أردت أن تتركه الآن، أو يحضر غداً مع

(١) هو الشيخ عوض بن محمد الحجي رحمه الله.

الصبية عند حضورهم للدراسة، وسوف أنتبه إليه حتى لايؤذيه أحد من أشرارهم.

: أشكر لك مسعاك، ولن أنسى أفضالك علي.

و يودع عامر المعلم و يبقى الصبى عنده ذلك اليوم حيث أجلسه بقربه وفاء بوعده، وتغامز الطلبة وهم ينظرون الى ذلك الصبى الذى لم يأت سوى اليوم، وقد جلس بقرب الخطيب، ودَبَّتْ الغيرة فى نفوس بعضهم لهذه المكانة التى حظى بها هذا الغلام الجديد، ودار بين إثنين منهم الهمس الأتى حين قال زامل لزميله رشيد.

: رشيد، إنظر، أترى بعينيك كلتيهما أم بإحداهما؟

: إننى أرى بهما معاً!! ماذا تقصد؟؟

: أقصد هذا الصبى الذى لم يحضر إلا الآن وأجلسه الخطيب بالقرب منه، ونحن إذا حضر الواحد منا مستجداً جلس فى طرف الصف، وربما فى طرف أحد الصفوف الخلفية، فما معنى ذلك؟

: ربما لأنه قد خاف عليه منّا؟ أو عساه يريد أن يضربه بكفه إذا أخطأ بدون إستعمال العصا أو المسطرة!؟ أو لعله قربه إليه بدافع الحمية؟ فهذا خطيب ووالد الغلام خطيب!. ألا تعلم بذلك؟

: عز الله!! لقد وجدتها!! فالخطيب يحامى على إبن الخطيب!

: وفوق ذلك ربما ركز عليه بالتدريس، فيتعلم قبلنا و يسبقنا فى دراسة القرآن الكريم ويختمه قبلي أنا وأنت؟

: أيسبقنا نحن!؟ وقد بلغنا الجزء الثالث!! إنه سيعجز عن اللحاق بنا.

: أسألك غير هذه الساعة!؟

: لايهمك!؟ إنه طفل صغير لم ينضج إدراكه وتفكيره بعد!! ولايفهم شيئاً؟

: لايغرنك كبر جسمك؟ فكما يقول المثل «أبن البط عوام»؟ وهذا والده خطيب وسيصبح مثله!؟

: أهذا يكون خطيبا؟؟ والله ولاخطيب ....؟

: لقد قلت لك سأذكرك غير هذه الساعة!؟ عندما يكون خطيبا يدرس عنده القُرَّاء وكل الناس تحترمه وتنظر إلى وجهه!!

: هذا لن يكون، فدع عنك هذه الخيالات، وقل لى أين الموعد الذى نلتقى فيه

لنذهب معاً، وذلك لحبل فخاخنا لصيد «الصَّعَوْ» و «الزَّغَابِرْ» فلقد صدت منها أمس أعداداً كثيرة، و يتفق الإثنان على المكان المحدد.

و يأذن المعلم للطلاب بالإنصراف، و يتزاحم الطلبة على باب الخروج بأيديهم ألواحهم الخشبية، فيتعرض الصبى لهذا الزحام و يكاد يسقط على الأرض لولا أن جذبه المعلم بعضده، حيث أخبره أن يصبر قليلاً حتى يخرج الطلاب ثم يتبعهم ليسلم من نتائج الإزدحام.

* * *

وفى بداية الفصل الشتوى حينما بدأ البرد يلقى بردائه ليلسع أطراف الطلاب العادية، نَبَّهَ عليهم المعلم أن على كل طالب أن يخبر أباه بإحضار كمية الحطب اللازم كالمعتاد قائلاً لهم، إسمعوا ياأبنائى اصلحكم الله، أن على كل واحد منكم أن يخبر والده بإحضار الحطب اللازم لفصل الشتاء، فإما أن يحضر شبكتين من شجر الرمث، أو حملين من خشب الأرطى، و يضعها فى هذا الحوش لكل فصل الشتاء، أو أن يأتى كل طالب يوميا بشجرة من الرمث، حتى يتمكن من الدراسة داخل الغرفة الدافئة بقرب النار، ومن لم يحضر الحطب اللازم فلن يجلس فى الغرفة المدفأة وسيكون مقعده تحت هذه السقيفة عرضة للفحات البرد.

و يستمع الطلبة إلى هذا البيان الهام وكل منهم ترتعد فرائصة عندما يتصور لسعات البرد تحت ظل تلك السقيفة المتجهة إلى الشمال وهى باردة فى الصيف فكيف هى فى الشتاء، وعندما عاد الطلبة إلى أولياء أمورهم أخبروهم بطلب المعلم، عند ذلك لم يتردد الآباء من إحضار الحطب اللازم الذى طلبه المعلم منهم، ولم يمضى يومان حتى إمتلأ الحوش الكبير بكميات هائلة من الحطب، وكل ولي أمر طالب قد أحضر مايخص إبنه وأبلغ المعلم بذلك وبهذه الخطوة بدأ الإستعداد لدراسة الفصل الشتوى، وفى اليوم التالى تغير الطقس حيث هبت ر ياح باردة إضطر الناس بسببها إلى إشعال النار والجلوس إلى جانبها، والإلتجاء إلى الملابس الصوفية، والدخول إلى جوف الغرف طلبا للدفء، والطلاب بطبيعة الحال أول من يحتاج لذلك، فعندما حضروا إلى بيت المعلم وجدوه قد أحصى الطلبة الذين أحضر أولياء أمورهم الحطب

وأجلسهم داخل الغرفة التى فى كانونها تتلظى النار، وحواليها الطلبة قد نعموا بالدفء، وأحيانا تجد الواحد منهم قد وضع لوحه الخشبى أمام وجهه لوقايته من لفح النار وحرارة صلوها، بينا أولئك الطلاب الذين لم يحضر أولياء أمورهم الحطب قد جلسوا ترتعش فرائصهم فى تلك السقيفة التى تقرع الرياح الباردة صفحات جدرانها، وعندما تكامل الطلبة وعرف الذين أحضروا مايخصهم من الحطب، والذين لم يحضروه كرر المعلم الطلب ممن لم يحضروا أن يبادروا بإحضاره يوم غدٍ، أما اليوم فإنهم يعتبرون ضيوفاً للدفء على من بادر بإحضار المطلوب، وهكذا بدأ الدرس الأول وجميع الطلاب داخل حجرة واحدة بوسطها موقد النار تتوهج ألسنتها بينهم وتجلب إليهم الدفء والحنان، وطلب الخطيب من الطلبة ألواحهم ليطلع عليها، فيقول للمحسن خطك جيد، وعليك أن تجتهد أكثر، ويقول للمسيئ، إن خطك رديئ أو سطوره معوجة، وما إلى ذلك من الملاحظات الشفهية، دون أن يكتب أو يؤشر على تلك الألواح بشئ، وقد رأى المعلم لوح الطالب موسى، ولم يستطع قراءته نظراً لرداءة الحبر الذى كتب به فيزجره قائلاً:

: ما الذي جعل خطك هكذا؟ إن الحبر خفيف جداً، فلا أكاد أرى سوى مجرى القلم فقط وكأنك كتبته بالماء!؟

: هذا حبر عملته بنفسى يوم أمس، ياخطيب، ولم أتمكن من تغييره أو عمل حبر غيرة.

: إنه ليس حبراً، إنه شبيه بالماء، لماذا لم تعمل الحبر حسب العناصر والتركيب والمقادير التى أعطيتها لكم قبل أيام؟

: لقد نسيتها ياخطيب!

: نسيتها!؟ إذا إفتح يدك وخذ هذه، حتى لا تنسى مرة أخرى، وبعدها إسأل أحد زملائك عنها.- ويضربه المعلم فى باطن كفه، بالمسطرة الخشبية التى يثبت فى طرفها العريض أجزاء من نوى التمر، وذلك من أجل شدة تأثيرها عند الضرب بها.

: يسحب يده بعد أن أخذ الضربة الموجعة، يتلوى وجهه من شدة الألم، ينكب على راحته يلعقها بلسانه تارة، وينفخها بفمة تارة أخرى، حتى بردت عليه من شدة الضربة، والتفت الى زميله المجاور حمدان يسأله بصوت منخفض أتعرف التركيبة

التى يقولها الخطيب!؟

: نعم أعرفها تماماً، وقد عملت بموجبها حبراً ممتازاً، إنظر الى هذه الكتابة عل اللوح!!

: تكفى «ياخو مزنة علمنى» إياها وسأعطيك ماتريد!! فكل شئ يحميني من مسطرة الخطيب هو المبارك!!

: لاأستطيع أن أشرح لك ذلك الآن، ولكن بعد أنتهاء الدرس أنا مستعد لتعليمك كيفيه صنعه، وسأعطيك ملء دواتك حبراً تكتب منه حتى تعمل لك حبراً، ولكن ليس الآن، فدعنا ندرس حتى لاينتبه لنا المعلم، فيتناولنا بهذه العسيب الطويلة يفلق بها رؤوسنا!! يقول بصوت منخفض.

: حسنا إذا بعد إنتهاء الدرس سأذهب معك إلى بيتكم، وبعد إنتهاء الدرس قال المعلم جملته التى تعنى الإذن للطلبة بالإنصراف وهى جملة «صلوا على النّبى» وتزاحم الطلبة على البوابة وخرجوا يتراكضون وقد تلفع كلو واحد منهم «بغترته» وأنكمش على نفسه محتضناً لوحه وكتابه على صدره فتوجه موسى مع زميله حمدان، وفى الطريق يسأله عن كيفية تركيب الحبر.

: ألا تذكر ما قاله لنا المعلم قبل أيام؟

: لا، والله إننى لا أذكر منه شيئاً، لقد نسيت عشائى البارحة؟

: دعنى أذكرك، لقد أخبرنا أن نضع الحبر إذا أردناه أزرقاً، من حب شجر الرّال نجنيه رطباً ثم نهبشه فى «النجر»، فنغليه بكمية من الماء على النار ثم نضيف اليه كمية من قشور ثمر الرمان، المسحوق مع مقدار من الصمغ، حتى يصبح الماء أزرقا مركزاً مائلاً إلى الحضرة، أما المقادير فهى مايقارب الصاع من حب الرال زائداً فنجانين من قشور الرمان المسحوق، مع فنجان من الصمغ يضاف اليه مل «المشرابة» ماء تقارب اللترين، وبعد الغلى يصبح لديك مايقارب ربع كمية الماء حبراً جيداً، أما إذا أردت الحبر أسوداً فأضف الى قشور الرمان والصمغ سناج الصاج، وكذلك إذا أردت حبراً أحمراً أو اخضراً فأضف إلى ذلك الصبغ نفسه كمية من الصمغ فتحصل على اللون المطلوب.

: هذه والله المصيبه!! ومن سيجلس يطبخ و ينفخ؟ أليس هناك أحد يبيع الحبر؟

: لا، لايوجد أحد يبيعه، وعليك أن تعمل كل ماتحتاج بنفسك «من زندك وإلا مُتّ» وإلا تعرضت للعقاب كما ذقت ذلك قبل قليل أنسيت؟؟

: أي والله!! إن راحتي لم تبرد حتى الآن!! ولكن أريد من فضلك أن ترشدني لأول مرة، وبعدها سوف أعمل كل شئ بنفسي.

: لك مني ذلك، ولكن أخشى أن تطلب مني حتى برى أقلامك!؟

: ذكرك الله للشهادة!! لقد ذكرتني بشئ نسيته، وما يدريك أنني قد قَطَّعْتُ أصابع يدى أمس، وأنا أحاول برى أقلامي من أغصان الأثل!؟

: «أهبل ماأهبلك»!! أتريد أقلاماً من أغصان الأثل؟ لقد اتضح لي أنك لاتعرف حتى الأشجار التي تؤخذ من أغصانها الأقلام! إذا أردت القلم الجيد، فعليك بأغصان شجر الخوخ والرمان، وذلك للخط العريضى الممتاز، أما أغصان شجر الرمث فهي متينة جداً ولكن خطها غير ثابت، وإذا حصلت على أعواد القصباء فهذه أجود الأنواع، ولكن لايملكها غير المعلمين.

وعندما وصل الإثنان إلى منزل أهل حمدان، أعطى زميله الحبر الذى وعده به ولما أراد الإنصراف أمسكت به والدة حمدان وطلبت منه أن يتناول طعام الغداء مع إبنها، وبعد الغداء عاد موسى إلى بيت أهله، ومعه الحبر والمعلومات اللازمة لتركيبه فيما بعد.

* * *

واستمرت أيام الشتاء ببردها اللاسع، يحضر الطلاب مع طلوع الشمس مشيا على الأقدام وقد تلفعوا بملابسهم كل حسب طاقته، ولكنها لاتعدوا الملابس القطنية، وبعض الجبب الصوفية من فوقها، والأحذية غير الدافئة فى أغلب الأحيان، وكل قد ضم لوحه الخشبي ومصحفه على صدره فيجلسون فى الصباح الباكر حول النار فى الغرفة الدافئة، وعندما تملأ الشمس فناء المنزل يخرجهم الخطيب بفناء البيت بمشراق الشمس، حيث تستمر الدراسة من بعد طلوع الشمس بقليل وحتى قرب آذان الظهر حيث يتفرقون ، وقد يتعرضون لأيام غائمة ومطيرة لاتخرج فيها الشمس فيمكثون طيلة فترة الدراسة عند النار، وقد يفاجأهم المطر فى طريق الذهاب أو العودة من الدراسة

فيأتى الطالب تَلْثَقُ ثيابه مما أصابها من المطر بالإضافة إلى عدم توفر طعام الإفطار الكافى لهم مما يجعلهم يحسون بلسعات البرد أكثر فأكثر، فى هذا الجو سأل الطالب صالح صاحبه محمد وهو يفرك راحيته ببعضها ليزيد من تنشيط الدورة الدموية فى يديه وكأنه يطلب من زميله شيئاً مما فى جيبه قائلاً.

: هيا، يامحمد، أعطنى مما فى جيبك اليوم، وعسى أن يكون مثل ماكان فيه بالأمس!؟

: أتعودت على ذلك!؟ «لَهْسَةُ البِسَّةُ على أكل الوشيق»!؟ لم يعد فى جيبى اليوم كليجا كما كان بالأمس، وليس فى جيبى اليوم سوى الأقط!.

: أعطنى، حتى لوكان أقطاً، الشكوى إلى الله!! إننى جائع هذا الصباح!! إن فى عليه صمغة الريق!!

: إن أكل الأقط يحتاج إلى قضم يحدث صوتا واضحاً، وأخشى أن ينتبه لنا المعلم ويضربنا بعصاه.

: أنت أعطنى والباقى علي!! فلسوف أمصه أو أضع اللوح أمامى وكأننى أكتب وأنا أقضمه، هات!! «ولاهو شغلك»!!

: خذ هاتين الكسرتين، ومتى إنتهيت منها أعطيتك زيادة ويلتفت صالح إلى زميله عائد ويلكده بمرفقه قائلاً

: أعطنى مما أعطاك الله، أعنى مافى جيبك هذا الصباح.

: أى جيولى تقصد؟ إن فى جيبى اليمني شيئاً من التمر وفى اليسرى قطعة رغيف من الحنطة قد صنعته أمي ليلة البارحة!

: «هذا غرض روق»!! عجل أعطنى منه قبل أن ينتبه إلينا العملم، إن هذه الأشياء أكلها لايحدث صوتا، ويتناول منه ملء قبضة يده من التمر وقطعة من الرغيف وينصب اللوح أمامه، ويزدرد اللقمة بعد الأخرى، آه هذا رغيف بائت أكاد أن أغص فيه، ثم يستأذن من المعلم للذهاب إلى دورة المياه، وذلك لغرض الشرب لا للهدف الآخر، وبعد أن يعود يختار له مكانا آخر بين طالبين جديدين، يسأل أحدهما، هاه!! أعطنى مما فى جيبك ياعُبَيد!!

: لو كان فى جيبى شيئاً أكلته إننى والله لم اطلق الريق هذا الصباح وعلى

عشائي البارحة!!

: «ليس فيك مص عظم»؟ رفع الله عنك ولا ابتلانا بما أنت فيه من العوزا!؟ و يلتفت عن يساره فيسأل سعد، هاه!! نأولني مما في هذه الجيب الملآنة؟؟

: أبشر!! فقد ملأتها من الجراد المطبوخ المجفف، أتريد منه؟ إنه بريشه، ورجليه ومخالبه.!

: جراد!! الجراد طيب وكنه يحتاج الى وقت وفراغ وسيفضحنا صوته أثناء القضم وريشه عندما نرميه على الأرض ...الخ ثم إنه لايشبع ولايغنى من جوع، إنكم جيران فقراء، ثم يستأذن من المعلم لإحضار الحطب للنار من الحوش، وغرضه من ذلك أن يختار زميلين جديدين يجلس بجانبها ليختطف مما في جيوبهما، لكن الخطيب لايأذن له، فيجلس في مكانه مكسور الخاطر يمضغ كسرتي الأقط التي أعطاها إياه زميله السابق.

* * *

وتسير الأيام تلو الأيام وتتعاقب الأعوام و يكبر الغلام محمد الذى درس القرآن الكريم حتى ختمه عند المعلم عوض ثم واصل دراسته عند أبيه الذى إفتتح له مكانا للدراسة في جزء من بيته، والتف عنده مجموعة من الطلاب على نفس الطريقة المتبعة والنمط المرعي لدى الكتاتيب الآخرين وكان محمد على جانب كبير من الذكاء والفطنه، فأجاد الخط بشكل لانظير له بين أقرانه، وقرأ كتب الحديث والتفسير والفقه المتوفرة يومئذ، وحفظ الكثير منها، وبعد أن توفي والده حافظ على نهجه وطريقته في التعليم فكان يكسب رزقه من هذه المهنة في بداية الأمر حتى أخذ نخلاً لصاحبه يسقيه ويقوم بتكلفته مقابل ثلاثة أرباع الثمرة له، والربع للمالك ثم أشترى بستانا خاصاً له وتوسع في غرس مزيد من النخيل فيه مما أعانه على اكتساب معيشته لكي يستمر في عمله التعليمي، ويشاء الله أن يكون محمد هذا الذى سبق أن إستهزأ به زميله زامل في أول يوم دخل لدى المعلم، أنه مستحيل أن يتخرج هذا معلماً، أصبح أشهر معلم في البلد ويمتاز خطه بالجودة والإتقان والجمال، بالإضافة إلى مايتمتع به من الأخلاق الفاضلة، والخصال

الحميدة، ومحافظته على الصلاة مما جعله محبوباً عند الناس وكل منهم يرغب أن يدرس إبنه عنده ثم بعد ذلك جرى إختياره خطيباً للمسجد الجامع وذلك لحسن قراءته، وفصاحة لسانة وجمال صوته، ووضوح ألفاظه، كما أنه كان جواداً يوفر لطلابه المحتاجين فى كثير من الأحيان وجبة الغداء، ولا يأخذ عليهم شيئاً لقاء تعليمه لهم، وذلك طمعاً فيما عند الله من الأجر والثواب، بالإضافة إلى أعمال الفلاحة والتدريس التى يقوم بها، فإن كتابة المبايعات التجارية والعقارية بين الناس تتم على يده فى غير أوقات التدريس، كما أن مهمة عقد الأنكحة فى البلد ومايحيط بها يتمها بنفسه، ويتصدر مجالس الذكر، وحلقات تلاوة القرآن الكريم فى المناسبات، وفى شهر رمضان وغيره وقد صادف فى إحدى سفراته الى المدينة هذا الموقف.

فمن الخصال المستحبة لدى الحكام فى ذلك الوقت بعد صلاة الفجر مباشرة أن يفتتح مجلس الأمير بتلاوة آى من الذكر الحكيم، من إمام المسجد أو من يراه ممن حضر المجلس من المشايخ والفقهاء والقراء، وبعد التلاوة يتم تدارس الآيات التى وردت فى الجزء الذى جرت تلاوته للتفقه فى الدين، كما يرد القارئ على إستفسارات الحاضرين الفقهية، وصادف ذلك اليوم أن حضر المجلس عبدالعزيز[1] صديق الأمير، وهو قارئ مجتهد ولكن يوجد فى لسانه عقدة تجعله لايجيد قراءة القرآن الكريم، فطلب منه الأمير أن يفتتح المجلس، فبدأ عبدالعزيز بالقراءة وكان بالمجلس أيضا القارئ حمد[2] وكلما إستمر عبدالعزيز بدأ يتعتع فى قراءته وصار حمد يرد عليه مما جعله يجد الصعوبة فى الإستمرار لكثرة رد حمد عليه، ليخرج كل حرف من مخرجه ويعطيه حقه، ومع أن ذلك كان رغم إرادة عبدالعزيز، فعند ذلك أشار حمد إلى عبدالعزيز بالتوقف عن القراءة، فكبر ذلك فى نفسه ورفض الطلب واستمر بقراءته وحمد يرد عليه، فضاق عبدالعزيز ذرْعاً من هذا الرد الذى إعتبره نوعاً من الإحراج والعناد له، ولكنه لايستطيع عمل شئ بحضور الأمير، وعندما فرغ عبدالعزيز من قراءته دخل المجلس الخطيب محمد، وبعد السلام والجلوس طلب منه الأمير أن يقرأ عليهم شيئاً من القرآن الكريم، فبدأ بالبسملة ثم دندن صوته الجهورى الرنان بترتيل آيات من الذكر الحكيم، بقراءة مجودة، وأصغى القوم لسماع هذا الصوت النَّدِيّ، ولم يتمالك عبدالعزيز نفسه أن قطع هذا الصمت وذلك لافراغ ما يعتلج فى صدره نحو القارئ

(١) عبدالعزيز بن سعود السويداء. (٢) حمد بن محمد أبو عرف.

فأشار إليه قائلاً: «الآن ردْ يا بْنَاخِيْ بَوْلآنْ»!؟ يعني الشيخ حمد قال هذه الجملة باندفاع وصوت مرتفع فما كانَ من القوم إلا أن ضحكوا على هذه الجملة التي سارت مجرى المثل فيما بعد، ثم أستأنف الخطيب محمد القراءة من جديد، وبعد الإنتهاء منها بين للحاضرين بعض ما اشتملت عليه الآيات القرآنية من معاني، وماتضمنته من أوامر ونواهي، ثم إنفض المجلس بعد ذلك مع طلوع الشمس، وهكذا أصبح الخطيب محمد يشار إليه بالبنان، ويتصدر مجالس عِلْيَةِ القوم ليتلو القرآن أو يبين بعض معانيه، ويوضح أوامره ونواهيه، وأستمر طيلة حياته على هذا النهج، إلى أن توفاه الله إلى رحمته فأورث العلم بنيه من بعده، وهكذا بقي بنوه وأحفاده من بعده بيت علم وفقه، ويشتغل عدد كبير منهم الآن أئمة في المساجد بالإضافة إلى أعمالهم الرسمية الأخرى في مجال التعليم والتوعية والإرشاد، ويبقى الإشعاع المنير يضيئ ما حوله، ويجنى من الورد الزهور، ومن الروض الشذى حتى وقتنا الحاضر.

* * *

١٧ - عسى ما أنت عثمان *

نعود للكرم مرة ثانية، ذلك المعين الذى لاينضب، تلك السجية الكريمة التى تُعَدُّ من المزايا الحميدة التى يمتاز بها العربى بصفة خاصة، ولايتوقف الكرم على مايقدمه العربى لضيوفه من صنوف الزاد والمأوى، ولكنه قبل ذلك كرم النفس والأخلاق، إنه يتمثل فى البشاشة والترحيب قبل تقديم القهوة والزاد، وقد لعب الكرماء دوراً كبيراً ومهما عبر الأجيال، فى تلك الظروف العصيبة التى لايجد الإنسان فيها مايسد رمقه، ولكنه عندما يصل الى بيت ذلك الجواد يهش فى وجهه، و يرحب به، و يؤو يه فى بيته و يقدم له مايلزمه فترة إقامته عنده بالإضافة إلى الزاد الكافى لمواصلة رحلته، عندما يكون منزل هذا الجواد فى أرض قفر، إما بقرب صحراء قاحلة، أو جبل خال من الناس، فعند ذلك يكون منزل هذا الجواد مرتاداً لأعداد كبيرة من الناس، كعابرى السبيل، فمن يبحث عن إبل ضائعة، أو رَكْب قصدوا مكاناً للغزو وغيره، وربما قوافل الحجاج مع ذات الطر يق، فلابد أن تمر علّى ذلك الجواد، لتناول وجبة أو وجبتين عنده، وربما ثلاثة أيام بلياليها، لاير يد من قاصد به أى مقابل لقاء خدمته أو ضيافته لهم، سوى مايرجوه من الأجر والثواب لدى خالقه، وتلبية لنداء أريحيته التى تحثه على البذل والعطاء، وترجمة مادية لتلك البشاشة التى تكسو محيَّاهُ عندما يرى ضيوفه، أو يسمع خبط أيدى مطيهم عند بابه، وتمر بالكريم ظروف صعبة أكثر مما سواه، ذلك لأنه فى مواجهة هذه الموجات المتتالية من الضيوف والزوار، فيتحاشى أى تقصير إزاءهم قلُّوا أم كثروا، وطالما تململ فى فراشه وقد جافى النوم جفنية فى السنوات العسيرة، عندما يشعر بأنه لم يقدم لضيوفه مايجب أن يقدمه، رغم نداء الواقع الذى يطرق مسامعه قائلاً: إنّ هذه قدرتك ولا لوم على من أدّى إقتداره، فى جو كهذا نشأ عثمان وترعرع يسمع الأخبار فى حلقاة السمر، يصغي الأحاديث الكرم والكرماء حتى عشق هذه السجية وهام بحبها فأصبحت تتمثل أمام عينيه كأحسن صورة خلقها الله، وأغلى خصلة أوجدها الله بين عباده، كيف لا؟؟ وهى تقرى الجائع وتروى العطشان، وتضم المقرور بحضنها الدافئ وتقضى حاجة المعسر، فاعتزى

* قصة عثمان بن ناصر التيمي رحمه الله حوالي ١٢٩٠هـ.

فى يوم من الأيام «أنا أخو ميثاء» والله لأظفرن بهذه الخصلة التى أحببتها وعشقتها حتى خارج درجة الهيام، وغادر موطنه الأصلى مجتازاً تلك الذرى الجرانيتية الوردية مختاراً بكنفها بقعة يرتبط إسمها بإسمه فيشتهر بها أو تشتهر به لافرق عنده فى ذلك، المهم فى نظره أن يظفر بمعشوقته على حصبائها فى وَهْدَةٍ نحر هذا الجبل الأشم، فحفر هناك أول بئر فيها على عمق خمسة وعشرين طولاً «حوالى خمسين متراً» ومن ينبوع هذا البئر بدأ بتحقيق باكورة أحلامه، ورغم الصعوبة فى إخراج الماء من أعماق الارض، إلا أنه وجد لذة فى ذلك إنطلاقا من رأى من قال: كلما كانت الطرق إلى المحبوبة عسيرة شعر العاشق بسعادة أكثر، ومن ثمار مايسقى من مياه هذا البئر بدأ يقدم لضيوفه فى صوان لاتعرف الكلل مما تحمل فوق أكتافها من أصناف الزاد واللحوم، لأولئك الوافدين، وتناقل الركبان أخبار هذا الجواد الكريم بموجاتهم المتعاقبة حتى غطت شهرته مابين الخافقين، وصار يضرب به المثل فعلم بأخباره البعيد والقريب من يعرفه ومن لايعرفه، وصادف أن أتاه فى يوم من الأيام ذلك الرجل الذى يسمع به ولا يعرفه، وكانت تلك السنة من السنوات العصيبة التى تُخَيِّبُ آمال الكريم وطموحاته، ومن غريب الصدف أنه ضَوَىَ فى تلك الليلة لوحده بخلاف الليالي الأخرى التى يتكاثر فيها الضيوف فآواه عثمان، وقدم له القهوة والدفء، ثم قدم له تلك الصينية من الزاد المتوفر لديه وهو من نوع العصيدة قائلاً:

: بعد أن وضع الصينية أمام الضيف تفضل حياك الله أيها الضيف العزيز على ماتيسر لدينا، وأرجو أن تعذرنا عن التقصير، ثم ذهب خارج غرفة القهوة لبعض شأنه.

: يتنحنح، ويدنو من الطعام، وكان الضوء خافتا متأرجحاً يتمثل بضوء السنة النار الملتهبة، وعندما قرب من الزاد وتحقق فيه كبرت نفسه عنده، ورأى أن هذا الطعام أقل مما يقدم له ولأمثاله، وأنه أكبر من ذلك، فسولت له نفسه، ونزغه الشيطان فصب فى أذنه كلمات الكفر بهذه النعمة، وحثه على أن يتجاوز الإعتقاد والكلام إلى دور الفعل فاستجاب لصوت الشيطان ووضع جورة فى وسط هذه العصيدة وملأها بالبول، ثم قفز من عندها خارجاً وهو يقول للمضيف الذى التقى به فى باب الغرفة «عَسَى مَا أنْتَ عُثْمَان» صاحب الصيت العريض!! اتضيفنى عصيدة

أيها البخيل!؟

: يحاول أن يثنى ضيفه عما عزم عليه ويحاول أن يهدئه ببعض الكلمات اللطيفه ولكنه يفشل أمامَ ثورة الضيف وعنفوانه حين دفعه من أمامة وخرج من الباب متجهاً إلى مطيته وعثمان يجرى وراءه و يقول: أيها الضيف الكريم والله إننى لم أدَّخر وسعاً، ولم أذخر شيئاً وهذا ميسورى، وماتناله حبالي، فإن عذرت فالكريم يعذر، وإن أبيت فعلى توفيق الله، وأرجو أن تسترّ مالقيت منى من تقصير، يقول ذلك عثمان وهو لايدرى ماذا فعل الضيف الذى إمتطى شداد ناقته، فثارت به ولكدها متخفياً فى ستار الليل ولفائفه القاتمة ثم عاد عثمان إلى غرفة القهوة ووضع شيئا من الحطب على النار فاتضح له جورة الماء وسط الطعام وتذكر هل وضع فى الطعام إداماً!؟ لكنه لم يذكر وقرب من الطعام وشتم رائحة الماء التى فوقه فوجده بولاً، فعند ذلك دارت به الأرض وأظلمت الدنيا فى وجهه، وقدحت فى عينيه شهب الألم وأمسك برأسه قائلاً: لاحول ولاقوة إلا بالله إنَّا لله وانا إليه راجعون، ربنا لا تؤخذنا بما فعل السفهاء منا، ربنا خُصَّ كل بذنبه، ربنا لا ترنا عقاب الكفر بنعمتك، وحمل الصينية بيديه وهو لايكاد يتمالك أعصابه وذهب بها داخل البيت حيث زوجه نورة وأولاده وهو يردد اللهم خُصَّ كل بذنبه.

: فادركت زوجته أن فى الأمر شيئاً فبادرته قائله مابك ياعثمان؟

: لقد أوشك أن تحل بنا المصيبة، وأرجو الله أن يجنبنا سورات غضبه، إنظرى ماذا فعل هذا الفاسق!!

: ماذا فعل؟

: لقد وضع جورة فى وسط هذا الطعام ملأها بالبول وخرج غاضباً!!

: ياللهول «بلاه الله بالحصف الذى كبر الخصف» أبنعمه الله يفعل هكذا!؟

: الواحد منا يتردد أن يفعل ذلك على الأرض مخافة أن يؤذى أحداً!! فكيف بالفاسق الذى عمله فوق الطعام!؟

: سَوَّد الله وجهه من كل شهر ثلاثين ليلة.

: والله إن صدق ظنى أن يحيط الله به ويمحق نعمته من بين يديه، هذا إذا عجل الله له العقوبة، أماإذا أجلها له فإلى جهنم و بئس المصير. إسمعى منى ياإمرأة!! هذه

العصيدة أبقيها فى ماعونها وأنشريها بالشمس حتى تجف، ثم ضعيها فى إناء لديك حتى أسألك عنها، فوالله إن صدق حدسى لن يأكلها غيره.

: أرى أن نأخذ من أطرافها مما لم يمسه شئ ونتعشى منه أنا وأطفالى ونحتفظ بما فيه المشكله للغرض الذى أشرت اليه.

: لا، والله لن ينقها أحد منكم، لكم الله عنها، بإمكانك عمل شئ لأطفالك، أما هذه فستبقى له هو!! وسترين إن مَدَّ الله فى أعمارنا!!

: سمعاً وطاعة، وتأخذ الصينية كاملة وتضعها فى سطح المنزل بما فيها وعندما جفت وضعتها فى كيس من القماش، وعلقتها فى سقف الغرفة للموعد المطلوب.

وتكررت الليالي والأيام تعقبها الشهور والسنون وهذا الرجل المضياف يقدم لضيوفه ماتيسَّر فى سنوات الشدة، والجزر والخراف فوق الصوانى فى أوقات الرخاء لايتوانى ساعة واحدة حتى جاء عصر ذلك اليوم الشتوى القارس، حيث كان جالساً مع بعض صحبه وضيوفه فى مشراق قصره، فدنف إليهم ذلك الإنسان الذى يشبه الشبح، عارى المنكبين حافي القدمين، غائر العنيين، تاتيء الوجنتين، يتوكأ على عصاه وكأنه قد جاوز المئة من عمره، وعندما وصل إليهم سلم عليهم فعرفه عثمان من سحنته فإذا هو صاحبه قبل أربع سنين، هو ذاك الذى فعل بالطعام مافعل، فرحب به وأدخله إلى غرفة الجلوس وأوقد له النار ليتدفأ عليها، وتوافد الضيوف عليه حتى إمتلأت غرفة القهوة، وعند ذلك أسرع عثمان إلى زوجته.

: يأم فلان، أحضرى تلك العصيدة الجافة، التى احتفظتى بها منذ سنين ثم إسحقيها «بالنجر» واطحنيها لوجدها بدون أن تضيفى إليها أى شئ، وجهزيها قبل موعد العشاء بوقت كاف.

: ليس هذا وقتها!! إن القدور مملوءة باللحم والهريس ولله الحمد.

: بلى!! هذا والله وقتها!! لقد أتى صاحبها فى حالة يرثى لها:

: أحقاً ماتقول!؟ إذا لقد تحققت نبوءتك فيه!؟

وتنفذ نورة ماطلب منها ويعود عثمان إلى ضيوفه، وبعد صلاة المغرب مباشرة إستدعى عثمان ضيفه صاحب العلاقة فى غرفة مجاورة، وقدم له تلك العصيدة، وكان يعانى من شدة الجوع ماجعله يذهل نفسه عن تذوقها، فالتهمها

بشره حتى أتى عليها كاملة، ونظّف إناءها لحساً بواسطه أصبع سبابته، وعندما إنتهى منها حمد الله وأثنى عليه وقال:

: أغناك الله أيها الكريم وزادك من واسع فضله، والله في حياتى كلها لم أذق ألذُّ من طعم هذه العصيدة!!

: أتدرى ماهذه العصيدة؟

: لا، لاأعلم ما سر لذة طعمها!!

: إنها تلك العصيدة التى جَعَلْتَ إدامها من بولك!! قبل سنوات وهربت عندما كانت النعمة «تزغرت على كبدك»!؟

: أحقا ماتقول؟

: نعم، لم أقل لك إلا الحقيقة!؟ وأنا عثمان الذى «هزبتنى به» وقتها.

: يسرح تفكيره، ويضع إبهام يده على ثنيته العليا ويقرع سن الندم، ويغيب عن وجوده الحالى بعض الوقت، ثم ينطق بتلك الكلمات التى يغص بها ولاتكاد تخرج من حلقه بسهولة، والله ياعثمان العذر لله ثم لك، إننى لم أعرفك فى ذلك الوقت!! هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن آخر عهدى بالخير والرزق والبركة منذ ذلك اليوم، فقد كنت أمتلك أذواداً من الإبل وقطعانا من الغنم، وأطعمة ونقوداً وبيتاً وزوجة وأولاداً، فحق الله تلك النعمة بين عشية وضحاها، ووالله إنه لم تمض السنه الأولى وعندى من أموالى ثاغية ولاراغية وبعدها بسنة توفيت زوجتي ولحقها أبناؤها فجفانى أصحابى، وتفرق عني رفاقى، ومنذ ذلك الحين وأنا أعيش مشرداً متجولاً بين نُزُلِ العرب، لاأملك من متاع هذه الحياة سوى هذا العصا المحروق طرفه، وهذه الأطمار البالية التى لاتستر عورتى وأجهش ببكاء عميق!!

: لقد توقعت لك هذا المصير، وهذا جزاء من كفر بنعمة الله التى أنعم بها عليه، وإننى والله قد ترقبت أن تأتي إلينا يوماً من الأيام لتتناول تلك النعمة التى دنستها وهذا حدسى قد تحقق، وعليك أن تحمد الله الذى جعل عقوبتك بالدنيا ولم يدخرها لك فى الآخرة.

: كفى ياعثمان!! يكفينى ما أصابنى، وأرجو الله أن يغفر لي ذنوبي، وأن يعيد علي أفضال نعمته إنه سميع مجيب!

: إن الله غفور رحيم، هيا تفضل تناول العشاء مع الضيوف فهم فى إنتظارك، ويأخذه بيده فيقوده إلى مكان الضيافة حيث الصوانى المملوءة بالهريس وعليها الخراف المطبوخة بكاملها ولكنه قد شبع.

* * *

وتعاقبت الأعوام وهذا الكريم يقدم لضيوفه المأوى والمأكل والمشرب للمقيم عنده وعابر السبيل، لايريد من وراء ذلك إلا الأجر والثواب والمحافظة على سجية الكرم التى أحبها منذ أن كان فى بلده الأول دون أن يسهل الطريق له أحد، بل أخذها بيده، وأصبح مقصداً لكافة الناس على مختلف مستوياتهم، يدنف إليه عابر السبيل بمفرده، ويتنصاه الرَّكْبُ كثر عددهم أو قل، فيجدون عنده مايفى بإحتياجهم أثناء الإقامة ويمدهم بزاد الطريق عند الرحيل من عنده، وربما صادف مجيئهم غيابه عن بلده، فتقوم زوجته مقامه عندما كان أبناؤه صغاراً كما حدث هذه المرة عندما كان عثمان غائبا عن أهله، فى أصيل ذلك اليوم الربيعى الصافى وكان الزرع على وشك الحصاد والأرزاق شحيحة فى تلك السنة، حيث لاوارد من خارج البلد والغَلَّةُ الجديدة على وشك الحصاد أناخ ببابه ركب قوامه أهل مئة وعشرين مطية، منها أربعون مردوفه، متوجهين إلى الحاكم لبعض شأنهم، فرحبت بهم زوجته وأوعزت إلى أحد أجرائه أن يتولى عمل القهوة وتقديم التمر لهم، ثم التفتت إلى ماعندها من الحب فلم تجد مايكفى لهذه الجموع، فأوعزت إلى بعض نساء الجيران بالحصاد من الزرع المستوى، وتجفيفه على النار بالصاج حتى جف ثم جرى هرسه، كما أمرت بعض الأجراء بنحر إحدى السواني مع ذبح مجموعة من الخراف، وعندما إطمأنت إلى كل شئ يجرى على مايرام أخذت بترتيب مايلزم الضيافة، ولم يأت موعد تقديم العشاء إلا وقد إكتمل كل شئ فقدمت لهم أعداداً كبيرة من الصوانى تكفى لهؤلاء القوم عليها الهريس، وفوق بعضها الخراف وبعضها الآخر فقار وهبر من لحم الناقة، وبعد أن إكتمل الضيوف والتفوا حول الصوانى، وقفت أمامهم متلثمة وهى تقول:

: ياأهلا ثم أهلاً، حياكم الله عدد خطى مطيّكم، ياأهلاً وسهلاً تفضلوا، سموا ببركة الله على عشائكم، يا أهلاً وأبرك الساعات على حلال الذى «اذا حضر

تَقَضى وإذا غاب وَصَّى»([1]) أهلاً ومرحبا وعلى الرحب والسعة، ثم أنصرفت.

: إذا كانت هذه ضيافة المرأة في غياب الرجل فكيف لوحضر!؟

: ألا تعرف عثمان،؟ إنه أشهر من نار على علم!! لقد إشتهر في الجبل وخارجه، واصبح مضرب الأمثال، ولو حضر لرأيت العجب إن أخبار كرمه بلغت أقصى الأقطار.

: إننى أسمع بأخبار كرمه، ولكنى لم أشاهده إلا الآن، لقد سمعت أيضا عن إبن لحيدان، وإبن مهيد، والبائح، وإبن ثويني، وإبن عبيكه، وإبن رخيص، والخوير، والقبالى، وإبن ربيعان، وابن عمير، وغيرهم كثير في هذه البقعة التى تميزت بهذه الخصلة الحميدة ولكن لم أصادف أن كنت ضيفا على أى من أولئك الأجواد.

: ذلك لأنك لم تذهب إلى أولئك الأجواد، ولم تسافر كثيراً، ولوسألت عنهم من حل بأرضهم لأجابوك، فوالله اذا وطأت بحق أى واحد منهم من الأرض لن تتخلص منه حتى يكرمك و يؤويك و يزودك بمتاع سفرك. و يقطع حديث الرجلين بصوت عقيد القوم يقول:

أيها الركب إننا سوف نسرى هذه الليلة فنواصل مسيرنا حتى نصل الى هدفنا فى الموعد المحدد، فعلى كل منكم بعد الإنتهاء من العشاء أن يشد مطيته ولايتخلف منكم أحداً.

وكان يهدف من وراء ذلك المسير فى الليل إلى تخفيف عبء الضيافة على المضيف، لكرم فى نفس الضيف، حيث يترتب على مبيتهم فى مكانهم تجهيز وجبة إفطار لهم وهذا ماجعله يأمر صحبه بالمسير فى الليل.

وعندما وصلوا إلى الحاكم ضربت الأحاديث كل إتجاه وتطرق الحديث الى ضيافة زوجة عثمان لهم، وكان عثمان فى مجلس الأمير لم يشعر به عقيد القوم ولم يعرفه، وعند ذلك إستدعاه الأمير بقربه ليستمع جزءاً مما قامت به زوجته الوفية من أداء واجباته أثناء غيابه عنها فقال المتحدث:

(١) قيل أن هذه الحادثة قد جرت على موضى الفرحان أم مطلق زوجة زيد الخشيم الخالدي صاحب قفار وقيل أنها جرت على بشرى الناشي الشمرية زوجة مناحي بن دهيثم الشمرى وكل واحد منهن قالت هذه الجملة والمرجح أنها لزوجة الخشيم لأنها أولا .هن فزوجها معاصر للأمير عبدالله بن رشيد ١٢٦٣هـ وزوجي الأخيرتين على عهد ابنه محمد العبدالله الرشيد ١٣١٥هـ.

: لقد ساقنا طلب الماء لسقى ركابنا والتزود بشئ منه فأخذنا نفس الطريق الذى أوصلنا إلى «جفيفاء» فوصلناها عصراً وأنخنا مطينا بالقرب من فلاحة عثمان وكنا أهل مائة وعشرين ذلولاً منها أربعون مردوفة، ولم يكن غرضنا المبيت، وعندما فرغ الصحب من ملء أوعيتهم بالماء وهممنا بالرحيل جاء إلينا الرسول من أهل البيت، يخبرنا بأن عشاءنا قد فات، وعلينا أن نتفضل إلى البيت لتناول القهوة وقدمنا إلى غرفة القهوة على إستحياء وذلك لكثرة عددنا،فغصت بنا الغرفة على كبرها وإمتلأ الحوش المقابل لها، وأديرت علينا أطباق التمر والقهوة، وأستأنسنا بالأحاديث، حتى صلينا المغرب، وقبيل صلاة العشاء سحبت أمامنا تلك الصوانى التى أوقرتها «المفاطيح» وفقار الإبل، وتقدمت تلك المرأة المتلثمه وقد أرخت خمارها على جبينها فلم يظهر غير عينيها، ولوحت بيدها مشيرة الينا ورحبت بنا وقدمتنا إلى طعامنا، وسط كلمات الترحيب التى تتدفق كرماً وسخاءاً مع الإعتذار لنا عن التقصير.

: وهل قصرت بكم حتى تعتذر؟

: حاشا لله لقد أكرمتنا غاية الإكرام، وجاء إعتذارها كتاج لهذه الأريحية، ونعم المرأة، أسعد الله من تلك حليلته!!

: أحقا إنها نحرث أحدى السوانى؟

: لقد علمت بعد أن غادرنا المكان!

: أتعرف عثمان شخصياً؟

: تغشاه البيضاء، لا والله لاأعرفه حتى لو أخذ غطاء رأسى.

: إنه هذا الرجل الجالس الى يسارك، أليس كذلك ياعثمان؟

: يقفز من مجلسه و يعانق عثمان عناقا حاراً، ويهنئه على ماناله من سمعة طيبة وصيث ذائع، و يبارك له فى زوجته التى قامت مقامه عند غيابه.

: ليس لنا فضل فى ذلك، فالفضل من الله والى عباده، ودورنا هو أداء واجب علينا. !

: أبشر بعوض السانية ياعثمان!

: البقاء برأسك «ياطويل العمر» لم نقدم أى شيء لضيوفنا ونطلب عنه تعويضا من أحد من الناس،

وينتقل الحديث الى شئون أخرى مع رؤساء الوفود وأحاديثهم، وفى اليوم التالى عندما أراد عثمان العودة الى أهله أجزل له الأمير العطاء.

* * *

وشاء الله أن يجتمع عند الأمير محمد بعد زمن هذه القصة عدد من الكرماء جمعتهم الصدفة فى وقت واحد، وكل منهم قد جاء للسلام على الأمير على حدة وعندما جلسوا بعد تناول العشاء فى مجلس الأمير الذى يقضى فيه بعض الوقت للاستماع الى أحاديث السمر قبل أن ينام، وجه الأمير الى هؤلاء الرجال لسؤال الآتى:ـ

: لقد إشتهر كل منكم بالكرم فى بلده، وذاع صيته خارجها وأريد منكم أن تخبرونى أيكم أكثر كرماً من الآخر؟ أي أيكم أجود؟ وصمت القوم، عدا النظرات المتبادلة التى قد تترجم أحاسيسهم وكأن كل واحد منهم يطلب من الآخر الإجابة على هذا السؤال!! وربأت تلك النفوس الأبية، وشمخت تلك الأنوف الحاتمية، وارتفعت تلك الهمم العالية عن أن يقول أحد منهم إننى أطيب من رفاقى وأكثر جوداً منهم، ومن خلال النظرات يطلب كل واحد منهم من أحد رفاقه أن يجيب على هذا السؤال، وطال أنتظار الأمير للاجابة فلم يتكلم أحد.

: لماذا لم يجبنى أحد على سؤالى؟ أمن ذكر الكرم تخجلون؟ فأجابه ابن عبيكة.

: لم يخجلنا «طارى» الكرم أطال الله عمركم!! ولكن السؤل لايخلو من الإحراج!!

: وماهى صيغة الإحراج فيه؟

: تعرف أطال الله عمرك أن كل إنسان دون عانيه، وإذا قام أحد بواجبه فليس معنى ذلك أن يكون أجود الناس، وإذا سألتنى من هو أجود منى فسأخبرك به، إنه البائح، الذى لاتطفئ ناره وتدهمه الركاب القادمة من النفود، والذاهبة إليه وقد بسط راحته للغادى والرائح فقال البائح:

: أطال الله عمر الأمير، فإن هناك من هو أجود منى، ذلك هو إبن رخيص الذى لاتبرد قدوره، إنه توسط هذا النفود فكل من جاع أو عطش فى هذه الرمال آوى إليه ووجد عنده كامل متطلباته وزاد سفره، فرد بين رخيص قائلاً.

: إن البائح يمازحك أطال الله عمرك، فهناك من هو أجود منى، ذلك هو عثمان

الذى لاينقطع «خُطَّارُهُ» تلقَّى كل هاشل الليل فى سفح هذا الجبل الغربى فيجد عنده مستلزمات الحياة والبقاء إجابه عثمان:

: إن إبن ثوينى أحق منى بنلك أطال الله عمرك!! فهو الذى لاتفضى قهوته يحجى ويذرى كل من فاض عليه من شرق هذا الجبل فيكون له أهلا وموئلاً. فرد بن ثوينى.

: كان بودى أن أكون كذلك، ولكن سبقنى إليها القبالى «ياطويل العمر» الذى لاتبرد دلاله. فأجابه القبالى:

: لم يترك لى الخويرُ والخشيُم منها شيئاً وهما اللذان لم ترد ابوابها لقد نافسونى فى هذا المجال. وإن لم يكن الخشيم حاضراً فقد حضر ذكره.

: لقد زاد القبالي فى الإطراء مع أن هناك من هو أحق منا فى ذلك فقال: الخويرُ هناك إبن لحيدان الذى لاتغيض قدوه، فقد تلقَّى شرق جبل رمان حيث يجد الضيوف عنده مايريدون أثناء إقامتهم وزاداً لسفرهم.

: فقال ابن لحيدان:

ليت هذا تم لي لولم ينافسنى فيه أخو حلوة، وإبن ربيعان، وإبن عمير وإبن عفنان وإبن جلعود، واخو فريحه، ولفَّاح وعدد كبير من الأجواد لاتحضرنى أسماؤهم، ومع أنهم غائبون عن هذا المجلس إلا أنهم قد اخذوا حقهم ولم يتركوا لى منه إلا اليسير، ولكن من هؤلاء الحاضرين فأجودنا إبن عبيكة الذى يسرع فى تحنية ركاب ضيوفه، يتلقَّى كل ذاهب إلى هذا النفود يريد الإستعداد لقطعه وكل من خرج منه منهكا ساغبا ظمئانا فيجد لديه مايريد. عند ذلك قال الأمير:

: ودارت الحلقة مرة أخرى دون أن يجيبنى أحد على سؤالي المحدد!! إننى أعرف أن الكل منكم جواداً ومضيافاً، وهناك الكثير غيركم ممن غاب عن هذا المجلس بنفس مستواكم وربما أكثر لم تعددوا أسماءهم ولكن سؤالى أيكم أجود أيها الحضور!؟

وأطبق الصمت من جديد، فلم ينبس أحد بكلمة، وتكلم محمد وهو أحد الحاضرين.

: أتسمح لي أطال الله عمرك باخبارك بأجودهم وهذا رأى شخصى إن أقرونى عليه فاعتبرونى قد أصبت، وإن أخطأت فهى زلة لسان.

: أعطنا ما عندك.

: الكل منهم جواد كريم نحو ضيوفه وقاصديه، وكل واحد فى هذا البلد يؤدى واجبه لضيوفه على أكمل وجه، ولكن هؤلاء وغيرهم ممن إشتهر بالكرم والجود، ومما سمعنا من أسلافنا فإن أغلب هؤلاء قد وجد الواحد منهم شداداً مشدوداً فامتطاه واستمر فيه، وجد أساساً لم يزد أن أكمل عليه البناء إلى أن بلغ من الصيت مابلغ، ماعدا عثمان فإنه هو الذى وضع الأساس بنفسه وأقام عليه البناء بيده، وبذلك فإن أجود الحاضرين هو عثمان، الذى أخذ هذه السجية بيمينه، وأطرق القوم صامتين أمام هذه الحقيقة التى أدلي بها ذلك الشيخ الوقور من واقع تجربته ومعرفته بخفايا الأمور.

: ماذا تقولون أيها الأجواد بما قال شيخنا؟

وبلسان واحد نطق الجميع بالإعتراف لقد صدق محمد!! فإن «أخا ميثا» هو أجودنا، وطأطأ عثمان رأسه حياءاً أمام الحاضرين وهكذا بقى لهذا الجواد كما بقى لإمثاله من الذكر العطر والميراث النفيس الذى أورثه لبنيه وأحفاده من بعده إلى يومنا هذا.

* * *

١٨ - تزوجته رغم الاختلاف الطبقي

تتحطم الحواجز، وتتناثر الاغلال، والمفاهيم، وتنسحق التقاليد، أمام إرادة الإنسان، فكما حَطَّم ودك الظواهر الطبيعية، فهو حَرِيٌّ بأن يتبعها مايقف فى سبيل وصوله إلى هدفه، وربما يجد الإنسان نفسه فى موقف ضعيف فلا يتردد عن الإستعانة بمن يراه أهلاً لذلك، وأول مايبدأ بذويه الأقربين، فإن لم يجد منهم ناصراً بدأ بمن هم أبعد حتى يصل الى أقصى معارفه، وعندما تدعوه الحاجة فقد يلجأ إلى الإستعانة بمن يرى فيهم قضاءً لحاجته ورغم أن معظم الأمور قد تبدو سهلة وبسيطه فى البيئة الريفية إلا أن هناك أشياء يصعب التساهل فيها أو التغاضى عنها، فيجد الإنسان صعوبة بإقناع معارضيه للعدول عما أصروا على إتباعه، أو التمسك به ولاسيما إن كان هذا الأمر يتعلق بالنسب، فقد يتعدى الإصرار على الرأى والعناد بالكلمة إلى إستعمال العنف وارتكاب جريمة القتل، وموقف الرجل قد يكون موقف الند للند، فيكف حال موقف المرأة؟ إن كانت هى صاحبة الشأن، وبطلة المسرح، غير أنها إن خانتها سواعدها فلن يَكلَّ تفكيرها عن إختيار الحيل، وشتى الأساليب التى توصلها الى بغيتها، لاسيا إذا كانت محاطة بمجموعة من إخوانها الذين يقفون ضدها، وعكس هواها ورغبتها، هكذا عاشت «هَيّا» ومحمد هذا الوضع ففى بيئة ريفية وادعة جميلة، أخذ أبو محمد بستانا من أحد الأثرياء القاطنين بالمدينة والذين يتخذون عادة من البساتين أماكن للنزهة والراحة فى أوقات معينة، قد تكون أسبوعية أو شهرية، وقد تكون موسمية موعدها فى الغالب عندما يصير بلح النخل رطباً، فإن هذه الأسرة الثرية تأتى بكامل أفرادها، ويحتلون جزءاً من البيت البسيط الواقع بالبستان، والذى يعيش فيه الفلاح العامل بالفلاحة مع أفراد أسرته، حتى إذا جاء موسم الرطب أو جذاذ النخل، تنازلوا عن جزء منه وربما كله لمالك المزرعة وأفراد أسرته الذين سيحلون ضيوفاً عليهم فى مزرعتهم فترة تطول فتبلغ عشرين يوماً الى شهر وتقصر فتبلغ أسبوعاً حتى يتم جذاذ النخل، وتعبئة مايخص المالك وهو ربع الثمرة صافية من أى التزامات، ويبقى للفلاح العامل ثلاثة أرباع الثمرة مقابل قيامه بكامل مايلزم الفلاحة من

سوانى وغيرها وتسمى هذه العملية «سِقَايَة» وعادة يقوم بها أفراد الطبقة الفقيرة الذين ليس لهم بساتين أو أملاك، فى هذا الجو نشأت نواة الود والمحبة بين هذين القلبين.

ففى ضحى ذلك اليوم الخريفى الرائع إجتمع كامل أفراد الأسرة الثرية حول فراش من الخصاف ترتفع فوقه كومة من التمر الناضج الذى تم جذاذه وإنزاله من النخل، وصاروا ينظفونه من الحشف والشماريخ والعوالق الأخرى، حتى إذا كان آخر زنبيل أنزله الفلاح من النخلة تجمعت أسرة الفلاح المكونة من زوجته وابنه محمد البكر والذى قد بلغ الحُلُم، وابنته التى تصغره بخمس سنوات مع كامل أسرة الثري المكونة من زوجته وابنيه الصغيرين وابنتيه اللاتى فى أعمار الزهور، التف الجميع حول التمر كعادة الفلاحين ينظف كل واحد مايليه و يتبادل الجميع الأحاديث الودية، والمرحة وتدوى الضحكات فى بعض الأحيان، كل هذا يجرى بينما محمد قد أخذ عذقاً به بقايا تمر ورفعه بيده اليسرى وبدأ وكأنه يفرط من شماريخه التمر بينما بصره يتخلخل مخترقا هذه الشماريخ ليقع على وجه إبنة زائرهم «هيا» دون أن تشعر بما يحدث، ولم يشعر من حوله بما يفعله، وقد منعه حياؤه الشديد من النظر اليها دون استعمال هذه الوسيلة، كما لم يستطع من بين هذه الشماريخ أن يتمعن فى وجهها، غير أن تلاعب العنق بيده وتقطع الرؤية قد جعلته يشتاق أكثر فأكثر الى إشباع نظره من ذلك الوجه الصبوح أمامه، ولكن أنَّى له ذلك!! لقد حيل بينه وبين مايشتهى بفراغ العذق من التمر ولايستطيع رفعه بغير ذلك، ثم توجهت أمه الى المطبخ مع إبنتيها لمساعدتها على تقديم طعام الغداء لضيوفهم فتبعتها النسوة كلهن، وبعد قليل قدم مايخص الرجال من الغداء على حدة وبقيت النساء مع مضيفتهن بتناولن طعام الغداء لوحدهن، وفي هذه الأثناء بدأت على محمد علامات الشرود الذهبى، حتى إذا انتبه الى عيون القوم ترمقه طأطأ رأسه حياءاً ثم إستعاد انتباهه وكأن شيئاً لم يكن، وإنصرف الجميع بعد الغداء كل فى حال سبيله وأخذ محمد مخلبا ليحش به حضناً من البرسيم علفا للأغنام الموجودة داخل سقيفتها، وسار فى طريقه الى مزرعة البرسيم، يتعثر فى العقوم الصغيرة تحت أشجار النخيل، وهو يتخيّل ذلك الوجه المليح الذى تَلَصَّصَتْ إليه عيناه قبل فترة وجيزة من بين شماريخ العذق، وكلما كبى فى عقم انتبه أنه فى وضع آخر غير ما يترآى أمامه، ولما وصل الى مزرعة البرسيم حصد منه

مايكفى للأغنام وعاد به إليها وبعد أن أغلق عليها الباب إخترق الدهليز المؤدى الى صحن البيت، وهنا فى هذا الدهليز الضيق المتعرج إلتقى محمد مع هيا بطريق الصدفة ولأول مرة تبادل الإثنان النظرات المركزة العميقة لبرهة قصيرة دون أن ينبس أى منهما بكلمة واحدة أو يشير بإشارة عابرة، ثم أسْدَلَ كل منهما أهداب عينيه على هذا المشهد الذى أصبح نواة حبٍّ عميق بينهما، وتعاقب الإثنان مع الدهليز كل فى حال سبيله وكل منهما يَتَصَبَّبُ عرقا مما يدب فى أوصاله من تلك الحالة التى يشعر بها لأول مرة فى حياته، ولاذ كل منهما بستار الخجل من صاحبه لايستطيع أن يقابله مرة ثانية، رغم مايختلج فى نفسه و يعتلج فى جوانحه من لواعج الشوق فى النظر اليه، ومضت الليلة الأولى ومحمد يتململ فى فراشة لايكحل النوم جفنيه عندما يتجسَّدُ أمامه ذلك المنظر الخلاب الذى يمثل عنفوان أحلامه، بينما بقيت هى تصارع موجات النوم وكلما قربت من لواحظها موجة برزت لها تقاسيم وجه ذلك الفتى الريفى الأسمر الذى ترى فيه ملامح الرجولة ماثلة أمامها، فدفعت بموجة النوم بعيداً عنها، وفى صباح اليوم الثانى جاء أحد أبناء الثَّرِيْ من المدينة ليخبر أباه بموضوع يستدعى حضوره، فما كان من الأب إلا أن اصطحب معه كامل أفراد أسرته قافلاً إلى بيته، وماعلم أن هناك خيط حريري قد أخذ بطرفه معه وترك الطرف الآخر ثابتاً بالمزرعة، وبعد أن وصلت الأسرة الثرية إلى مقر إقامتها بالمدينة واستقر بهم المقام شعرت هيا وكأنها نسيت شيئاً ثمينا من حليها بالمزرعة، وكلما تذكرت أهو السوار الذى يحيط بمعصمها الغض؟ لا، إنه موجود!! ولكن ربما هو ذاك الزمام الصغير ذى الفصّ الثمين الذي يتلألأ فوق أرنبة أنفها؟ وبلمسه لطيفة تجده فى مكانه!! ويخطر ببالها أنه ذلك القلب الذهبى الذى يداعب نحرها الشامخ ثم تلمسه بيدها فتجده لايزال متعلقا بسلسلته الذهبية يلعب فوق صدرها!! ومادام هذا وذاك لم يضيعا فربما كان أحد أقراطها، وتلمس شنوفها بكلتا يديها فتجدهما يداعبان شحمتى أذنيها!! إذا لم يبق سوى خواتمها وتنظر اليها فتجد كل واحد منها فى مكانه قد اكتظ بتلك الأصابع البيضاء اللينه!! وتخاطب نفسها إذا ماذا نسيت هناك!؟ مادمت لم أنس من حلي شيئاً!! وبعد تفكير عميق تذكرت ذلك الموقف العابر الذى حدث لها مع إبن الفلاح، وعند ذلك زادت عدد دَقَّات قلبها وفى ثنايا تلك الخفقات المتتالية أدركت

السر الذى ينتابها ويجعلها كأنها نسيت شيئاً هناك، لقد تركت ماهو أهم من الحلي،وأغلى من الجواهر، لقد تركت جزءاً من قلبها!! أو كما توهمت هي!! حيث تجد نفسها مشدودة على الدوام إلى هناك رغم إرادتها، وعندما تتصور ذلك المنظر الذى إمتلأت به عيناها تعاودها تلك الإنتفاضة الخفيفة ويبش العرق من جسمها ومع ملامسة الهواء لحبات العرق المتناثرة على سطح جسمها تشعر بالبرودة والراحة والهدوء، حيث يدخل النعاس الى جفنيها هكذا كانت تعيش فى وقت فراغها وما أكثره عند إبنة ثرى لا تزاول من الأعمال إلا عمل المنزل البسيط كخياطة الملابس بيدها قبل أن تفتح المدارس أبوابها أمام الفتيات، وبعد شهر من ذلك الوقت فى آخر فصل الخريف بدأت بوادر الشتاء تظهر سماتها حيث يحتاج الناس الى مزيد من الملابس لاتقاء لسعات البرد، عند ذلك همست هَيَا فى أذن أبيها:

: أبى، ألا تعلم أن فصل الشتاء قد قرب دخوله؟

: نعم انه غير بعيد، لم يبق سوى أقل من شهرين!! أعان الله عليه بكثرة الأمطار، اللهم اجعلها سنة خير ومطر ودفء وبركة، ولاتجعلها محل وصرد.

: ماعن هذا سألتك ياأبى عَظَّم الله أجرك.

: وعن ماذا تسألين يابنيتى؟

: ألم يخطر ببالك أن ترسل لأبى محمد وعائلته بعض الكساء الذى يساعدهم على إتقاء البرد؟ فهم كما تعلم يعملون عندنا منذ أكثر من عشر سنوات على خير وجه، فلا أقل من أن ترسل لهم كسوة شتوية هذا العام، فلقد رأيت ملابسهم أثناء تواجدنا هناك فى حالة رَثَّة وهم بحاجة الى مساعدة، أليس كذلك!؟

: حقا يابنيتي لقد إنتبهت لشئ غفلنا عنه جميعاً، حقا إن الدال على الخير كفاعله، وماذا ترين أن نرسل لهم؟

: أنت أحسن منى نظراً فى ذلك.

: سأجهزها اليوم أو غداً، ولكن المشكلة من يوصلها إليهم؟ فكما تعلمين إخوانك الكبار كل مشغول بتجارته وشئونه الخاصة، ومن هم دونهم قد سافروا الى الحجاز لتخليص بضاعتنا.

: لست بحاجة الى من يوصلهم الملابس، إن أبامحمد يأتى لصلاة الجمعة كل أسبوع،

و يأتى هنا لتناول القهوة، فإذا جاء سلمه إياها.

: صحيح ذكرك الله للشهادة، إنه يأتى إلينا كل أسبوع، ولكنه رجل حيي، ذو شهامة ونفس أبية ولايقبل أن يأخذ منى شيئاً، لقد جربته قبل هذه المرة.

: إذا نرسلها له مع عبدالله إبن أخى الأكبر، فهو على قدر كبير من الذكاء ومن أحسن الشباب.

: قد لايكون لديه الوقت، وربما يصعب عليه الذهاب الى هناك لوحده على ظهر الدابة.

: إنه على خلاف ماتظن، إنه قرم فإذا جهزتها سوف أرسلها معه ولن يتأخر فى ذلك.

: حسنا، وسوف أحضرها غداً.

وفى اليوم التالي أحضر الأب الملابس اللازمة، وندبت هيا إبن أخيها عبدالله لشراء «شماغ» وجبة صوفية دون أن يشعر أحد بذلك، وأكدت عليه أن يكتم الخبر ففعل، وبعد إحضارهما وضعتها بلفافة على حده داخل لفافة الملابس الكبيرة، وأرسلوها مع عبدالله، وهمست فى أذنه أن إذا جئت أبا محمد فخذ هذه اللفافة وأعطها محمداً بيده على إنفراد وقل له هذه هدية من عمتى هيا، فلا يخرج العلم منه ولامنك لأحد، ثم عد الينا، فاستوعب عبدالله التعليمات بكاملها ولم يدر أحد بشيئ مما فعلته غير أن الجميع يعرفون أنه قد أرسله جَدّه ببعض الملابس الى الفلاح الذى يعمل بمزرعتهم وهذا شئ عادى لاغبار عليه، وعندما وصل عبدالله إلى الفلاحة وجد محمداً وأمه على باب المنزل، وحالما رأته أم محمد فرحت به ورحبت بقدومه، ثم دلفت داخل المنزل لتحضر له مايشتهى من الطعام، مما أتاح له فرصة فى إيصال الهدية الى محمد تحت ستار الكتمان، فأخذ محمد الهدية ولم يتحكم فى عينيه حيث تناثرت منها بضع حبات من الدموع دون أن يتفوه بكلمة واحدة، وعجز حتى عن التعبير لرد الرسالة الشفوية فقطعت عليه والدته هذه الحالة بدخولها عليهم فى غرفة القهوة ومتابعتها لكلمات الترحيب بالضيف القادم، وعندما رأت لفافة الملابس سألته عنها فقال لها إنها ملابس أرسلها لكم جدى سليمان وذلك بمناسبة قرب قدوم فصل الشتاء، فبدأ لسان أم محمد يلهج بالدعاء المأثور، وطول العمر «للعم» سليمان،

وتتابعت الدعوات بينما كانت تضع قطع القماش على صدرها وهى واقفة، فتدليها لترى جمال ملبسها وأناقتها عليها، بينما محمد ينظر لتلك الهدية الملفوفة على حدة ويتخيل عليها ذلك الوجه البشوش الذى اختلس النظر اليه من خلال شماريخ العنق، ثم أشبع ناظـره منه فى ذلك الدهليز الضيق قبل فترة من الزمن، وقفزت دمعتان من عينيه أراد إخفاءهما عن أمه التى كانت لاهية فى مقايسة قطع القماش، ولم يفطن لهما إلا عبدالله الذى أحضر الملابس، فى هذه اللحظة قدم أبو محمد فرأى ماأرسل اليه من «معزبه» سليمان فأحتقن الدم فى وجهه ونفرت حبيبات العرق على جبينه من شدة الحياء وقال: كثر الله خيرك ياسليمان وعافاك الله ياعبدالله، لماذا كلفتم أنفسكم عناء كل ذلك؟ إن لدينا من الملابس مايكفينا سنين، فلم تتمالك أم محمد نفسها حيث قالت:

«إلاّ وتشترى مثل هذا القماش»؟ تقول ذلك بانفعال مشوب بالفرحة، فرد عليها عَوَّض الله علـى من تَكَلّف!! ستصبحين بنتاً فى عنفوان الشباب بعد لبس هذه الثياب!! يقول ذلك بلهجة لاتخلوا من رَنَّةِ الإستهراء، فأجابته: أجَلْ!! وسترى إن كنت أم محمد. وبعد أن تناول معهم عبدالله طعام الغداء قفل راجعاً إلى أهله.



وأخذ محمد تلك الهدية وضمها الى صدره، فارتدى الجبة التى هى من نوع الصدرية، ولبس «الشماغ» وذهب الى عمله فرحاً طافحاً بالخيال وصار يسأل نفسه، مامعنى هذه الهدية؟ هل معناها أنها أصبحت تودنى؟ لا، لاتوهم نفسك يامحمد بمالا طائل منه!! أين أنت وهى؟ إنها بعيدة المنال، إنهم أثرياء وأنت فقير معدم، إنهم من طبقة غير طبقتك!! إن كل ماتملك ومايملك والدك لايكفيها ملابس لمرة واحدة!! دع عنك هذه الترهات يامحمد!! إنها بعيدة عنك أبعد من نجم الثريا فلا تكلف نفسك عناء التفكير فيها، والزم جانب العقل والحكمة وتمثل بقول الشاعر:

١٦ مرقب ماتا صله مره وخله   لاتهلفى مع طويلات المشاحى

ثم عاد يسأل نفسه، ولكن لماذا أرسلت لى صدرية وشماغا؟ لابد ان هناك سًر

وراء ذلك!! هذه الصدرية لتحيط بصدرى الذى يحتوى على القلب، وهو منبع العاطفه!! والشماغ يجلل رأسى الذى هو موطن التفكير!! هل معنى ذلك أن لهذه الهدية أبعاد لديها تتعلق بما تكنه لي من تقدير وموده؟ أم جاءت هذه الأشياء منها صدفة صرت أحللها وأعللها على مايجول فى نفسى؟ ولكن ماهى الركيزة التى أستند إليها فى ذلك؟ فكلانا لم يَرَ صاحبه جيداً إلاّ تلك النظرة الخاطفة السريعة، حيث إرتاع كل منا من صاحبه وخجل وانصرف يتصبب عرقاً، وهذا الموقف يحدث كثيراً فى مصادفات مماثله ولا أظن أن له من الأثر ما يجعلها تهدينى هذا النوع من الملابس!!ولكن لماذا لم تكن الهدية ثوباً أو عباءة؟ إن الثوب والعباءة يضفيان على كامل الجسم و يسترانه، أماما أهدته فيختص بالأماكن الحساسة!؟ ثم أفاق من خياله وسأل نفسه لماذا تلعب بى تلك الهواجس وتضرب بي مختلف الطرق والإتجاهات؟ دعك منها والزم عملك؟ إن هنالك ألف حاجز وحاجز يحول دونك ودونها، ولولم يقف فى سبيلك سوى أنها من فئة وأنت من فئة أخرى!! حتى لو رضيت هي بالزواج منك فلن يرضى أبوها وأخوتها، أين أنت وأين هى؟ هكذا يعزى نفسه بتلك الكلمات اليائسة البائسة الحزينه، و يستمر فى أداء عمله من تفجير الماء بالنخيل، وحصد شئ من البرسيم لمواشية، أما هى فحالما عاد اليهم إبن أخيها عبدالله وعلى غفلة من الأهل إنتحت به جانبا من المنزل وسألته عما قال له محمد عندما أعطاه الهدية قائلة:

: عسى ألا يكون صادفك فى طريقك عارض؟ وعسى لايكون الطريق أتعبك؟

: لا، والله لم أجد أى تعب فى طريقى فقد سهله الله على، وعلى العكس من ذلك فقد وجدت فيه متعة!؟

: وكيف حال الذين أتيت منهم؟

: إنهم بخير، وقد فرحوا كثيراً بالملابس، فقد غادرتهم وألسنتهم تلهج بالدعاء لجدى بطول العمر والصحة والعافية، ووالله لو رأيت أم محمد وهى تقيس قطع القماش على نفسها فرحة مسرورة لأعجبتك التعابير التى ترتسم على وجهها؟ حتى أنه حصلت بينها و بين أبى محمد مراهنة أنها ستصبح بعد أرتداء هذه الملابس أحسن من إبنة خمسة عشر ربيعاً.

: إنهم سعداء فى حياتهم، ومحمد؟

: أما محمد فلم يتفوه بكلمة واحدة، غير أن الدموع إنهمرت من عينيه عندما قدمت له الهدية، وقلت إن هذه من عمتى، فبقى صامتا شارد الذهن يقلب طرفه، ولايستطيع التحكم بعواطفه، وبين الحين والآخر أرى زخّات الدموع تتناثر من عينيه، يحاول إخفاءها عن والديه بالإلتفات يمينا وشمالاً ومسحها بطرف أنامله، ولولا أنهم قد انشغلوا مع إبنتهم بالملابس لفطنوا له.

: ولم يقل لك أى شئ؟

: لقد قال هذه الجملة، كثر الله خيرها ولا أبدلنا بغيرها!!

: حسناً، لايعلمن أحد بأى شيئ من هذا وأناعمتك!؟

: «أفاعليك» يعلم أحد!!؟

: شكراً لك، أبقاك الله ياسَنَدى، وعندها يفترقان كل إلى عمله.وعندما أوت هيا إلى فراشها سبحت بها أجنحة الخيال، وهى تحدث نفسها تُرى ما سر هذا البكاء الذى حدث من محمد أثناء تسلمه للهدية؟ أيُكِنُّ لي من المحبة ما جعل دموعه تتناثر وكأنها حب اللؤلؤ الرطب؟ آه .. ليت أنى بقربه لألتقط تلك اللآلى، وأثقبها وأنظمها لتكون لي عقداً بديلاً من هذا القلب الذهبى؟ أم تراه علامة الجبن «فالرجال حسب معلوماتى البسيطة لايبكون مهما حل بهم من ساعات الفرح أو الترح؟ وربما يكون سبب بكائه من شدة الحياء؟ إنه حيبى جداً يستحى من خياله إنه لايستطيع حتى مجرد رؤية النساء!! حقا إنه أمر مُحَيِّر، إن الحياء لايبكى، إذا ماهو السبب؟ آه .. يبدوا لي أن هذه دموع الفرح التى تحدث للشخص عندما يتلقى شيئاً مفرحاً، وربما فرح بهذه الصدرية والشماغ؟ لا، إنها أشياء عادية لاتفرح ولاتخرج الدموع على شكل موجات متتالية بين الفترة والأخرى!! إذاً لابد أن يكون وراء هذا البكاء الصامت شيئ!! ثم مامعنى كلامه لابد لنا الله بغيرها؟ أتراه يعنى «عمة» كما هى عادة الفلاحين يحبون من يحسنون إليهم و يساعدهم بأشياء كالملابس والقهوة والهيل وغيرها من الهدايا؟ أم تراه يعنى شيئاً آخر؟؟

لاأظن أن تفكيره اليافع يصل به إلى هذا المعنى البعيد الذى يجول فى خاطرى؟ ولم لا؟ فابن الفلاح قد عركته الأيام منذ الصغر وصقلته التجارب

فاصبح يدرك كُنْه المفاهيم التى يعرفها الكبار، إذا كان حدسى صحيحاً فسوف يبادلنى الهدية بمثلها وإن كان غير ذلك فلن يرسل شيئاً ولن يأبه بالموضوع، ثم غلبها النوم مع كلمات اليأس هذه، وبدأت تساورها أحلامها وآمالها وآلامها لتأخر وصول الهدية إليها، كما ظنت أن تكون، أما هو فقد عاد إلى التفكير الجدى فى أمر هذه الهدية، ولا سيا أن الفتاة علقت فى ذهنه، ولابد من إرسال هدية مماثلة ولكنه لايملك ذلك، فطلب من والده أن يسمح له بالذهاب إلى المدينة ليعمل قَرأشاً ويكتسب مع أمثاله وَلِدَاتِهِ، ففاتح أباه فى الموضوع بعد تناول طعام العشاء وبحضور أفراد الأسرة كلهم.

: ياأبى إن لي إليك طلبا أرجو أن توافق عليه.

: ماهو طلبك يابنى؟ إنه على العين والرأس.

: أريد أن تسمح لي بالذهاب إلى المدينة لأشتغل وأكسب مثلما يكسب الرجال.

: تذهب للمدينة!؟ ومن تتركنا له إذا ذهبت؟

: أترككم للّه يرعاكم بعينه.

: ونعم بالله!! آه.. ليس لدى مايمنع من ذلك، ولكنك يابنى صغير السن ولا تتحمل العمل فى لمدينة، لايوجد بالمدينة يابنى سوى الأعمال الشاقة، مثل أعمال البناء ويتمثل فى نقل الطين وَاَللَّبِنِ من طلوع الشمس حتى أذان المغرب.

: أنا رجل وأتحمل مايتحمله الرجال مثلي:

: أطع مشورتى يابني لا تذهب!؟ ثم إنهم لايعطون العامل أجراً مناسباً، إن أول مايبدأ العامل فإنهم يعطونه ربع ريال في اليوم، ويعنى ذلك أن كل أربعة أيام بريال واحد، وإذا كان ممتازاً فقد يرفعون أجرته اليومية إلى نصف ريال.

: هذا ماأطلبه وسأثبت جدراتى إننى أهل لأى عمل يكلفونى به.

: وهناك نقطة أخرى فإذا إنزلقت قطعة الطين من يدرك، أو لم تناولها من يليك بشكل جيد، فسوف ينهرك معلم البناء فى المرة الأولى وفى المرة الثانية لا تدرى إلاّ و «لُبَاقَةَ» الطين تضربك على هامة رأسك من يد المعلم.

: لايهمنى مادمت سأحصل من وراء ذلك على «الفلوس» فكل شئ سوف أتحمله

: بإسم الله على وليدى «أتذهب وتتركنا» حرز يضبط عقلك» هكذا قالت أمه ثم أردفت!؟

إننى أخاف عليك يابنى من الوحدة، من الظلام، من جلساء السوء، بل أخاف عليك من مجرد شئ إسمه السفر، فإذا تريد رضائى فلا تسافر وأبق معنا.

: رضاءكما جميعاً على عينى وعلى رأسى، أما خوفك علّي فليس له مجال الآن!! ألا تعلمين أننى أصبحت رجلاً؟

: «وَلَوْ ياوليدي!!» الدنيا لايعلم غيبها، تقولها بصوت مجرور حزين.

: «الرَّجّال معزم» وقد طَنَّتْ برأسه هذه السفرة وعسى أن تكون عواقبها خيراً.

: «أفَا عليك» ياأبامحمد!! تطاوعه؟ يجب أن نحول دون رغبته بأى وسيله، هذا ولدنا ليس لنا غيره!!

: لن نثنيه عن هواه، مادام يرى فى نفسه الكفاءة فله كامل الحرية فى تصرفه.

: يقفز من مكانه و يقبل رأس والده وأمه وهو يقول: سأثبت لكما أننى أهل لذلك، ولن أطيل عليكم، سأمكث هناك هذين الشهرين قبل حلول فصل الشتاء، وموسم الأمطار الذى تتوقف فيه أعمال البناء، وأعود إليكم. والآن كما تعلم ياأبى إننى لاأملك حتى أجرة السفر فإذا تكرمت وأعطتني ريالاً أستأجر به حتى أصل المدينة فإننى أراه منك معروفاً، وتناول راشد من بقشة(1) بجيبه ليس بها غير ريال واحد سلمه بيد إبنه وهو يقول:

: وفقك الله يابنى ورعاك من كل سوء.

: بعد موافقتها على كره بحثت له فى صرائرها عن ريال آخر فأعطته إياه وهى تقول: وهذا تستعين به عندما تصل إلى المدينة حتى تجد لك عملاً.وتأهب محمد للسفر من ساعته فأخذ ملابسه ووضعها فى لفافة وعلقها فى خِلاَل مثبت بجدار السقيفة، وعند الصباح ودع والديه وأخته واتجه على دابتهم الى المدينة الصغيرة التى تأتى اليها السيارات، وعليه أن ينتظر قدوم سيارة الشحن التى تأتى إلى البلد فى الأسبوع مرة واحدة لتجلب معها المؤن والأرزاق، وتعود بحملها من المنتجات المحلية كالحبوب والتمور وأحيانا مواد البناء، من أخشاب الأثل وجريد النخل، ومن حسن حظه أن جاءت السيارة فى نفس اليوم الذى وصل فيه، وكان لمجئ السيارة شهرة يعلم بها الجميع، حيث يتحلق الناس حولها لشراء شيئ مما جلبه صاحبها، فجاء إليهم محمد وسجل أسمه ضمن قائمة الركاب الذين ستعود بهم إلى

(1) البقشة لفافة صغيرة تلف على بعضها بها بعض الحاجيات وهى بمثابة محفظة النقود في زمننا.

المدينة الكبيرة عصر ذلك اليوم، وفى الموعد المحدد تحركت السيارة بالركاب البالغ عددهم ثلاثين راكباً فوق حمولتها المكونة من أكياس القمح، واستمرت عصر ذلك اليوم وطول الليل لقطع مسافة لاتزيد عن مئتى كيل، ومع طلوع الشمس وصلت الى المدينة حيث نزل محمد لأول مرة فى المدينة، وهو يرى مبانيها الشاهقه فى نظره، ورأى ازدحام الناس، وعندما وقع نظره على هؤلاء البشر لأول وهلة تبادر إلى ذهنه بعض ما أشار به إليه أبوه عندما أرادا ثنيه عن عزمه على السفر، ثم زالت هذه الخواطر عندما أمضى سحابة ذلك اليوم فى أسواق المدينة روحة وجيئة، وسأل عن مكان وجود العمل وتوصل إلى المسئول عن تشغيل العمال، فطلب هذا من محمد أن يأتيه فى الغد ليشغله أول يوم على سبيل التجربة بدون أجر، فإن أعجبه عمله أجرى له أجراً معينا قدرة ربع ريال، وإن لم يعجبه فليس له أى مطالبة بالأجر، فوافق محمد على ذلك، وفى الصباح الباكر شمر عن ساعديه ونزل إلى الميدان مع العمال ينقل قطع الطين «اللّبّاق» فى يديه الإثنتين ليسلمها إلى زميله وهذا يسلمها لمن بعده حتى تستقر قطع الطين بيد معلم البناء فوق الجدار ويحمل اللبنه بكلتا يديه ليوصلها لمن بعده حتى تصل مكانها بيد المعلم وهكذا دو اليك طيلة النهار من طلوع الشمس وحتى غروبها لايقطع ذلك سوى فترة طعام الغداء حوالى نصف ساعة وأوقات صلاتى الظهر والعصر لكل منها حوالى ربع ساعة، وقد أثبت محمد خلال ذلك اليوم ومابعده بكل جدارة أنه عامل نشيط، مماجعل المشرف على العمال يُصَنِّفَهُ من الدرجة الأولى الذين يبلغ أجر الواحد منهم نصف ريال فى اليوم، فامضى الشهر الأول فى العمل تسلم فى نهايته مبلغ خمسة عشر ريالاً على أربع دفعات حيث يتم دفع الأجور إلى العمال أسبوعياً فاشْمَعَلَّ رأسه وصار كأنه يملك ثروة «أوناسيس» وفي مساء تلك الليلة راودته أفكاره من جديد وصار يحدث نفسه، الأن أستطيع أن أحقق أول خطوة من حُلُمى وهى شراء هدية لمن بدأتني بهذه الهدية التي أرتديها فوق جَنَاني والتي تجلب لي الدفء في ساعات الصباح الأولى، ولكن ياترى ماهي الهدية التي يجب أن اشتريها لها؟ هل أشترى لها قطعة من الذهب؟ إنَّ كل ما أملك من نقود الآن وما سيأتي في الشهر القادم لايكفي لها بقطعة ذهبية واحدة؟ فإذا إشتريتها لم يبق معي شيئاً فماذا أقول لأهلي؟

والشيء المهم أنني لا أريد أن يشعر أحد بما يتم بيننا!! إذا أشترى لها خاتماً من فضة!! هاه.. إنها لن تلبسه، ففي يدها خواتم ذهبية، وعندما تلبس خاتم الفضة فسيكون هناك نفور في الملبس ثم إنّ خواتم الفضة لا تلبسها إلا العجائز، ومادامت هي عبارة عن هدية رمزية لماذا لاتكون قطعة من قاش فهي أسهل إيصالاً بخفية، فقد تخيطها بنفسها وتلبسها، أو تفعل بها ماتشاء، المهم سأشترى لها الهدية من القماش وليكن ذلك ضحى يوم الجمعة القادم، إنه أنسب وقت لدي ولكن لايوجد لدى «الشنطة» التي احفظها بها، إن ملابسي لاتزال معلقة بهذه الصرة سأشترى الحقيبة أولاً، وإذا إشتريتها ظن الناس أن بها نقوداً فتكون عرضة للأخطار ولاسيا أن إقامتنا فى مقر العمل وعند حركة العمال تحت هذه الأسقف الجديدة!! لا، لن أشتريها إلا عندما أريد السفر وذلك أضمن وأحسن وتغفو عيناه على هذه الكلمات المطمئنة وعندما تجهز محمد للسفر إلى أهله فى نهاية الشهر الثانى وقد حصل على مبلغ ثلاثين ريالاً خلال شهرين من الجهد والعرق فاشترى لوالديه وأخوته بعض الملابس والهدايا، وأشترى لوالده شيئاً من القهوة والهيل كما اشترى لأمه بعض اللبان والحناء، وأختار قطعة من القماش نقد فيها ثلاثة ريالات، يريدها هدية رمزية لـ. هيا، ثم وضع الجميع فى حقيبة صغيرة وعاد قافلاً إلى أهله مرفوع الرأس يرفل بثياب جديدة، وقد أحضر لهم الهدايا وهى على بساطتها إلا أنها بالنسبة لهم تعنى شيئاً كبيراً، ذلك أنهم رأوا ثمرة إنتاجهم تقدم لهم بيد إبنهم، ورغم تَغَيُّر لونه بالسمرة القاتمة بعد شهرين من العمل والجهد المضنى، إلا أنهم يرون جبينه وكأنه صفحة البدر وعندما عاد إلى أهله وجد صعوبة فى إخفاء الهدية لأنه لايريد أن يعرفوا عن موضوعه شيئاً، ولايوجد لديه بالبيت ملاذ يمكن أن يضعها فيه، وبعد أن نام أهله أسرع تحت ستارالظلام إلى غرفة مملوءة بالعلف، وأخفى القماش في جوف العلف الجاف، وفي الصباح الباكر سلم مفتاح الحقيبة لوالديه، وفيها الملابس والهدايا ومبلغاً من المال قدره إثنا عشر ريالاً فضياً، فكان لهذه المفاجأة أكبر الأثر فى نفوسهم، وتصوروا هذه الحقيبة الصغيرة المفتوحة أمامهم وكأن خزائن الدنيا فتحت بحذافيرها فى وجوههم، فعند ذلك شهقت أمه شهقة الفرح ولفت ذراعيها حول عنقه، وبدأت

تقبل جبينه وهي تردد أحر الكلمات المعبرة عن عاطفة فياضه فتناثرت دموع الفرح من عينيها، أما ابوه فلم يزد أن قال: أول الغيث قطرة والمقبل أكثر إن شاء الله، سلمك الله ياولدى هذه «هقوتى بك» وانبرت أخواته يقبلن عينيه وجبينه، وبعد السؤال عن الأحوال تطرق الحديث الى مُلاَّك المزرعة فعلم أن جميعهم بخير، وعندما أقبل يوم الجمعة تجهز للنزول الى المدينة مع والده لأداء الصلاة وقدا إرتدى ثيابة الجديدة، وأخفى قطعة القماش الهدية تحت ثيابه ليوصلها الى صديقه عبدالله الذى بدوره سيوصلها الى هيا، وبعد وصولها إلى المدينة وأدائها الصلاة كالعادة دنفا إلي قهوة «معزيهم» لتناول القهوة والغداء ثم العودة الى المزرعة وبعد تناول الغداء خرج محمد مسرعاً وغمز بعينه لعبدالله فلحقه وذهبا الى سقيفة متطرفة عن البيت، فأعطاه القماش وأوصاه أن يوصله الى عمته مع التحية، وأكد عليه بكتمان الخبر كيلا يعلم أحد بذلك فنفذ وصيته بكل دقة وأمانة وكانت مفاجأة سارة لهيا، تلك القطعة من القماش، وإن كانت ليست من النوع الذى ترتديه فلم يكن ذوق من إشتراها بدرجة من النضوج بحيث يحسن الإختيار، ولكنها بالنسبة لها تفوق أى نوع من أنواع المنسوجات لا تساويها أنعم لفائف الحرير، فأخذتها ووضعتها على وجهها لتشم رائحة كَفَّي المُهدى عليها تكون قد علقت بها، وجعلتها ضمن قطع قماش لديها، وذلك لتخفى معالمها عن ذويها، وفى المساء أخذتها وبدأت تقلبها وتلمسها، تتحسس مثانيها وأطرافها، وهى تفكر ماذا تصنع بها؟ أتفصلها فستاناً؟ إنها لم تكن من القماش الذى تلبس أمثاله لاسيا أنها ذات ذوق رفيع فقد كانت تهزأ بأخواتها وأقاربها إذا رأتهن يرتدين ملابس لا تدخل مزاجها!! أتبقيها قطعة قماش لديها قد يطلبها أحد منها فيصعب عليها الإمتناع من إعطائها كما يعز عليها التفريط بها وهى تلك الهدية الثمينة الديها، وأخيراً هداها تفكيرها لأن تجعلها بيوتا لمخدتها الخاصة، تتوسدها فى الليل وتلصق خدها على ذلك القماش لتسبح فى أحلامها حتى يغلبها النوم وكلما اتسخت طبقه منها من حبات الدموع التى تتناثر عليها أثناء الليل فسختها ونظفتها وأعادتها إلى مكانها، وفى هذه الحالة لايشك أحد فى وضعها، ولا تراود أحد نفسه لاستعمال مخدتها وتكون هذه الهدية دائماً أمام عينيها وتحت رأسها ومعصم يدها.

* * *

ومضت الأيام، ومأأبطأ دنو فصل الصيف موعد نضوج التمر لتخرج تلك الأسرة الثرية وتقيم فى مزرعتها كالمعتاد فى كل عام، ومن خلال ذلك يجتمع هذان القلبان فى دائرة ضيقة يحيط بها جدار منزل واحد وإن لم يلتقيا فيها لوجود الموانع والعوائق التى تسمح لهما بالإلتقاء ولكن وجودها فى تلك المساحة المتقاربة قد يشفع لهما وتؤنس أحدهما بوجود الآخر غير بعيد عنه، ومع مكوثهما فى هذا البستان مدة طويلة وكل منهما لايتجاسر على الإلتقاء بالآخر، يمنعها الحياء والخوف من مجرد التعرض له أو مفاتحته فى كلمة واحدة، كما تمنعه الشيمة والمروءة والحياء من التعرض لأحد من بنات ضيوفهم، وسارا على هذا المنوال طيلة بقائهم، حتى إذا كان ضحى ذلك اليوم الصيفي الحار ولاذ كل من أفراد الأسرة تحت ظل شجرة يتبرد تحتها، فذهبت هيا تحت شجرة بقرب الجابية لتجد تحت ظلها نسمات باردة تلطف الجو وتطفئ حرها، ودنف محمد بدون قصد أو علم إلى الجابية ليأخذ دلوا غمسها فى الماء لتبتل، عند ذلك شاهدها بقربه، ورأته بقربها، وتكررت نظراتها لبعض، وأشبع كل منهما عينية من رقعة وجه صاحبه تلى ذلك إبتسامة منها عقبها إبتسامة منه دون أن ينبس أى منهما بكلمة، وأسْدِلَ الستار مرة أخرى، فأخذ دلوه وانصرف يخط رجليه متثاقلاً فى مشيته تتابعه بنظراتها من خلال حدقتين مغرورقتين بالدموع، حتى إذا غاب عنها خلف الحائط اسبلت تنترحبات الجمان فوق صدرها، فلم تنتبه إلاَّ وأختها الصغرى تقول لها: مالك ياهيا؟ مايبكيك؟ فاسرعت لتلافى الموقف، وأمسكت بخمارها فسردت منه شريحة عصبت بها رأسها، وادَّعت أنه يولمها، ربما كان من شدة الحر!! فدنت من الجابية وغسلت وجهها وبللت هامة رأسها بالماء للإبتراد وذلك لتزيل أى شك قد يترتب على الموقف، لاسيا وأن أختها رأتها تجهش بالبكاء، أما هو فحينا أختفى عنها بدأ يراقب حركاتها من ثلمة جدار الحائط ليرى ماذا تفعل، وعندما رآها أيقن أنها تحبه فعلاً، ولاسيا أنه رأى كذلك كيس مخدتها من القماش الذى أهداه لها، ولكن الحواجز السابق ذكرها هى التى تمنعه من التحدث، اليها كما أن الإعتبارات الطبيقية هى الأخرى التى تجعله يعزى نفسه ويحاول إبعاده عن التعلق بها لأنه يعلم علم اليقين أنه من رابع المستحيلات الظفربها، فلذلك يحاول أبعاد نفسه عنها، وقد توقعت بشاقب رأيها بعض مايدور فى نفسه عن هذا الموضوع ولكنها فى

نفس الوقت لم تكن تعرف ماذا سيفعل إزاءها، ولذلك إنتظرت قدوم إبن أخيها عبدالله الذى يعمل مدرساً فى إحدى المدارس فى عطلة نهاية الأسبوع، وهو بالطبع كاتم سرها، وعندما حضر إنتحت به جانبا، وطلبت إليه أن يجس لها نبض محمد بجملة واحدة هى «هل يكن لى مثلها أكن له وماذا سيفعل؟ وعندما نقل إليه عبدالله هذه الرسالة القصيرة، جاءه الرد بالتأكيد «وأزود من ذلك»!! ولكنه أردف قائلاً، أين الثرى وأين الثريا؟ الجاه، المال، المكانة الإجتماعية، تحول دون ذلك، يقول ذلك بلهجة اليائس إلا من رحمه الله بهذه الكلمات الموجزة عاد الرسول إليها، وكان هذا أول حديث يجرى بينهما عبر ابن أخيها عبدالله، عند ذلك آلت على نفسها، أن تحطم هذه الحواجز وتدكها وتسحقها لتتمكن الثريا من لثم خد الثرى فقالت لإبن أخيها، مامعى منك ياسندى؟ فيرد عليها عبدالله كعادته بكل ثقة واعتزاز «كلى معك»!! وبهذه الجملة تطوى صفحة جديدة إلى حين نشرها فى الوقت المناسب، ولم تمض أيام قلائل حتى عاد الثَّرِيُّ بأسرته كالمعتاد دون أن يعلم أحد ماذا يجرى على الساحة الداخلية، وعندما عادوا إلى مقرهم بالمدينة، وكان الأب يعيش مع أسرته وأبنائه الصغار وحفيده عبدالله، وله أبناء كبار قد تزوجوا وسكن كل واحد منهم فى منزل منفصل مع أسرته فى بيوت متقاربة، وكان الأب شديد الثقة بحفيده المدرس الذى يعد متعلماً فهو يحمل الشهادة الإبتدائية، و يعتبر رأيه ناضجا مع صغر سنه نسبيا، ولذلك ركزت هيا على هذه الناحية لإستغلالها فى تحقيق ماتصبوا إليه، ولاسيا أنه كثر خطابها فى تلك الأيام من بنى عمها، وغيرهم وكلما طلب أحديدها رفضته بإصرار، وأخيراً صارحت إبن أخيها بأنه لم يدخل نظرها من الرجال سوى محمد إبن الفلاح ولاتريد زوجاً غيره مهما كلفها الأمر، ومن خلال ثقة الوالد برأى حفيده، ومن التصاقه به إستطاع فى صباح ذلك اليوم بعد صلاة الفجر مباشرة عندما بدأ يناوله أول فنجان قهوة مع حبات التمر أن يعرض عليه الموضوع الذى نقلته له عمته، وبعد تداول فى الرأى بين الشيخ وحفيده، ومناقشته للفكرة، والأبعاد المترتبة عليها ومحاولة إستبدالها بافكار جديدة جرى تمحيصها وإستنباط الصالح منها فطلب الشيخ من حفيده نقل هذه الأفكار الى عمته علها تجد فيها مايناسبها وقد عرضها عبدالله فلم تأبه بها، ومع تكرار اللقاءات بين الجد وحفيده بعد صلاة كل فجر حيث

يكونان لوحدهما إستطاع عبدالله أن يقنع جده بصحة نظرها، وعندما إمتنع الأب إستطلع رأيها فقالت لهِ مثلما نُقَل إليه، ومن هنا رأى بثاقب بصيرته أنه لامناص من تحقيق رغبتها لاسيا وأنها أغلى بناته إليه، عند ذلك تحين الفرصة المناسبة ليجمع أبناءه الكبار والصغار ومعهم حفيده و يطلعهم على ماقرره نحو أختهم، وعندما سنحت له الفرصة جمعهم وأغلق عليهم غرفة القهوة وقاله لهم:

: ياأبنائى لقد جمعتكم لخير.!

: خير إن شاء الله ياأبى!! إن هذا الصباح يجعلنا نتفاءل بالخير.

: أنتم تعلمون أنه قد كثر خطاب أختكم هيا هذه الأيام.

: نعم، لقد تقدم لها رجال أكْفاء، رجال يجب الحرص على مصاهرتهم، ولكنها رغم ذلك قد رفضتهم جميعاً.

: لقد تقدم لها من بنى عمنا ثلاثة ورفضتهم بكل وقاحة، لن نتركها على هواها!!

: أترى من تريد أن يأتى إليها ليخطبها بعد هؤلاء؟

: يجب علينا إجبارها على أحد بنى عمنا! إنها لاتفهم مصلحة نفسها ونحن أدرى بالرجال، لاسيا وأن أحدهم لايزال ملحاً فى طلب يدها رغم رفضها.

: إسمعوا يا أبنائى وعوا ما أقول لكم. إننى قد قررت قراراً لارجعة فيه، وقد إتخذته بعد دراسة وتمحيص، وتمعن بالعواقب، لقد قررت أن أزوجها محمد بن راشد، الفلاح!!

فاشرأبت أعناقهم وغلت الدماء فى عروقهم، و برزت علامات الغضب على وجوههم، وقالوا بصوت واحد، إننا نرفض هذا القرار.

: هذا قرارى ولن يرفضه أحد، أنا صاحب الشأن، وماجمعتكم هنا إلا لأطلعكم على ما أتخذت للعلم فقط.

: أتزوج أختنا عاملاً فقيراً، أجيراً فى مزرعتنا، لايملك من الدنيا شيئاً، ماذا سيقول الناس عنا؟

: ليقول مايقولوا مادامت قد رضيت به!!

: أترفض بنى عمهنا، وعلْيَةِ القوم لتأخذ هذا الرجل الذى لم يكن مناولا نحن منه، أتريد أن «تهفى أصلنا»؟؟ والله لأقتلنها شر قتلة، ولسوف أقتله معها هو الآخر.

: تقتلها؟؟ إن يدك أقصر من أن تنالها بسوء أو تعترض سبيله فأنا وراءك!! «تف على هالوجه» إنك نزغة شيطان.

: هذه من علامات الساعة!! تعاف المرأة كرام الرجال وذوى الحسب والنسب وترغب فى هذا الصعلوك!!

: إنثبر ثبرك الله!! حتى أنت تتكلم، إقطع كلامك ولا ترده؟

: والدى الكريم، مادمت قد إتخذت القرار بنفسك وانتهى الموضوع وليس لأى منا أى وجهة نظر، فقد أحطنا علماً بذلك، المهم أننا غير راضين عن هذا الزواج، وغير راغبين فى هذه القربة،

: ياأبنائى إنى أرى من الأمر مالا ترون، ثم إن الرجل دَيِّن، وذو أخلاق عاليه، وصادق، وأمين، ولم أجد فيه من العيوب سوى الفقر، وهذا ليس عيباً، كونه من فئه غير فئتنا فهذا لايعيبه، أما تعلمون عن صفوة الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، الذى يقول: إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، ثم إننى أرى أنه كفؤاً لها، وسيعيشان بسعادة مابعدها سعادة مع توفيق الله. وطأطأ الجميع وخيم صمت رهيب فى الغرفة لم يقطعه سوى كلمة أخيرة من على.

: ياأبى عَظَّمَ الله أجرك، أرجو أن تعيد النظر في قرارك هذا نظراً لما يترتب عليه من إعتبار يمس بسمعتنا ومكانتنا بين الناس.

: لقد قلت لكم إن قرارى هذا أخير ولارجعة فيه، وسمعتنا ومكانتنا ستبقى كما هى، لن يحط منها هذا الأمر شيئاً، فلم نرتكب جرماً فيما فعلنا وليس هناك مايعيبنا، فتوكلوا على الله، ولينصرف كل إلى عمله.

لقد كان قرار الحسم هذا مما أثلج صدر عبدالله الذى إتخذ لنفسه دور المستمع والمسجل للأحداث الجارية على حلبة الصراع فى تلك الغرفة المظلمة من باقى سدل الليل فيما بعد صلاة الفجر مباشرة، ويتلاعب بها ضوء سراج خافت لا تكاد تميز الوجوه عليه، لولا أن أشعة نور الشمس قد شفعت له عند تفرق المجموعة من الرجال.

* * *

فذهب عبدالله الى عمته وصب فى أذنها كل مادار فى الجلسة من نقاش، وقرار والدها الأخير بهذا الشأن وهو الذى قد لفَّ جنانها بغلالة من الطمأنينة، وأثلج مايجيش بصدرها من لواعج وأحاسيس، فاغرورقت عيناها بدموع الفرح من جديد، وأيقنت أن تحقيق آمالها قد بدت غير بعيدة، كل هذا يجرى من جانب واحد، أما الجانب الآخر فلم يكن لديه أى علم بالموضوع، ولايزال محمد يسلي نفسه و يعللها بأن لامجال إلى مايدور فى نفسه، وتمسك بهذه التِّعِلَّةِ و بقى عليها الآن بقى عليها أن تفكر بالطريقة التى تكمل بها الخطوة النهائية من هذه السلسلة فلجأت الى ركيزتها التى تُعَوِّلُ عليها فى كثير من أمور حياتها، ألا وهو ابن أخيها عبدالله فطلبت إليه التفكير فى أسلم الطرق الموصلة إلى الهدف المنشود، و بعد استعراض مجموعة من الأفكار التى تفتقت عنها أذهانها وصلا الى رأى معين وهو الإيعاز إلى أبى محمد بالتقدم بخطبة يدها من أبيها لإبنه محمد وتولى عبدالله هذه المهمة بنفسه وذهب فى عطلة نهاية الأسبوع إلى المزرعة وأجتمع بمحمد ودخل معه فى مواضيع جانبية تدور حول الزواج والخطوبة إلى أن إستشف منه الرغبه فى الزواج وكأن فى نفسه شيئاً يود لوتتاح له الفرصة ليعبر عنه، وهى الرغبة فى التقدم لخطبة يد عمته هيا، ولكنه سرعان مايرتد على نفسه يعنفها و يؤنبها على مجرد التفكير بهذه الأمور ثم يشطح بالحديث بعيداً عن ذلك، وما إن لحظ عبدالله هذه الإنفعالات ترتسم على محياه حتى أدرك بعمق تفكيره كنه مايدور فى نفس محمد، ولم يشأ أن يفاجأه مرة واحدة، خشية أن يحدث له صدمة قد تؤثر فى نفسه، ولكنه بدلاً من ذلك بدأ يستعرض معه أسماء البنات اللاتى يمكن أن يتقدم لهن وكلما عرض عليه إسم واحدة منهن أحدث حركة معينة أو صوتا معروفاً يدل على عدم رغبته بتلك الفتاة كأن يهز رأسه بحركة أفقية أو يلوى فمه أو يرفع شفته العليا مع إحداث صوت «تْسَ» حتى وصل الإستعراض إلى عمته هيا، عندها عصره الألم وعصف بقلبه فسكت دون أن يرفض، ولم يكن واثقا من إمكانية القبول فيشير بالإيجاب، وتسمرت عيناه وجمد الدم فى عروقه، وغصت الكلمات فى حلقه فظل صامتا، إلى أن قال له.

: مالك سكت هكذا؟ لماذا لم تنطق؟ واتبع ذلك بضحكة مدو ية.

: أتضحك على ياعبدالله!؟

: عفواً، لم أقصد ذلك ولم أقل لك إلا الحقيقة لماذا لم تتقدم لخطبتها؟ إنها فتاة فى مقتبل العمر وتصلح لك!

: أى حقيقة تقول ؟ وإن بينى وبينها مثلما بين السماء والأرض، ولست مستعداً أن أعلق نفسى فيما لاطائل منه فأكون عرضة لإستهزاء الناس!!

: دع عنك هذا الهذيان، وأطع مشورتى، تقدم لخطبتها قبل أن تفوتك لأنه قد كثر خطابها هذه الأيام.

: أنت لا تترك المزاح، أو ربما لإستهتار لا أدرى؟ فاترك عنك هذا الموضوع وأرجوك ألا تسمعنيه مرة ثانية، والا إنفطر قلبى!! أرجوك أرجوك، أتوسل إليك!!

: إسمع منى!! أطع مشورتى لا تفوتك فتندم ساعة لاينفع الندم!! يقولها بجد وحزم.

: إذا جئنا للجد فهل أنت صادق فيما تقول أم مجرد هزارا؟

: لم أقل لك إلا الصدق، فتقدم وأنا ضمينك «بها الشارب وأنا أخو سارة» يقولها وهو يفتل شعر شاربه الخفيف.

: وقد إنفتحت أسارير وجهه، ولمع البشر فى عينيه، وتهدجت الكلمات فى حنجرته فتمتم فى هذه الجملة المتقطعة، و.. و.. لـ.. لـ.. لكن كـ.. كيف العمل؟ لا... لا... «لا توهقنى ياعبدالله » يقولها وهو يرتجف.

: يُرَبِّتُ على كتفه وهو يقول إطمئن ماعليك سوى أن تتقدم لها والباقى علي و يضرب له صدره بكل ثقة.

: يثب على عبدالله يقبل رأسه وهو يردد، أصحيح ماتقول.. أصحيح؟؟

: وأَصَحُّ من الصحيح، يقولها بلهجة الواثق من نفسه وممن خلفه.

: هاأنذا على جانب بسيط من القناعه، وكأننى لا أكاد أصدق ما أسمع مع أننى مقتنع، ولكن أبى من يقنعه؟

: أنا كفيل بذلك فاترك أمره إلىّ، ولن يصبح الصباح حتى ترانى قد لَيَّنْتُ رأسه.

وتفرق الإثنان فذهب عبدالله يدور حول المزرعة، أما محمد فقد إنصرف إلى تفجير الماء بالنخيل، وفى إحدى زوايا البستان وجد أبا محمد قد استلقى فى حوض إحدى أشجار النخيل وتوسد ذراعه وأخذ إغفاءة قصيرة قبل أذان العصر، ولم يوقظه سوى وقع خطى عبدالله مقبلاً إليه، وعندما وصله سلم عليه فانتصب أبو

محمد جالساً، وجلس يقربه عبدالله، وبعد أن تحدثا قليلاً في شئون الفلاحة وموافقه ثمرة الموسم الشتوى ذلك العام، وأنهم حصلوا على غَلَّةٍ لابأس بها أحسن من أى سنة قبلها، إستغل عبدالله هذه النقطة فوجه السؤال إلى أبى محمد

: مادام أنه قد حصل لكم هذا العام غلّة طيبه سدد تم منها ديونكم وخزنتم كمية جيدة من الحبوب، فلماذا لم تبحثوا لمحمد على عروس؟ ألم يصبح رجلاً؟ أليس كذلك؟ أم أنا أخطأت في تدخلى في شئونك؟

: لايابنى، إنك مائن علينا، إي والله فلقد أصبح محمد رجلا، ومايدريك أنه قد أحضر لنا في العام الماضى عندما «تَغَرَّب» للعارض ملابس كثيرة وهدايا ومبلغا من المال، سلمه الله وأصلحه إنه ولله الحمد قَرْم على أقرانه.

: أبقاه الله لكم، ومادام الأمر كذلك فلا أحق من أن تبحثوا له عن زوجة تسعده، وتسعدكم معه، لتروا أبناءه بينكم.

: ياعبدالله ياولدى، مثلما يقول المثل «العين بصيرة واليد قصيرة». مافى أيدينا شيئ، والزواج يحتاج الى «خمسمائة ريال» يقولها وهو يفرد أصابع يده ويهزها أمام عبدالله، ومن أين لنا هذا المبلغ؟

: إن الله سوف ييسر الأمور.

: الله خيره كثير وأفضاله واسعه ولكن «العروس تبى فلوس»!! آه.. ثم إنه لايوجد من أقاربنا الذين نعرفهم «بنت موافقة منها للزواج» وبنات هذا الزمن قد صعب الوصول إليهن حيث يكلف زواج الواحدة «شليل دراهم» الله يرحمك يازمان أول، لقد تزوجت أم محمد بخمسين ريالاً وعباءة وثوبا وخماراً.

: دع عنك الماضى، وانظر في الوقت الحاضر، فيجب عليك أن تبحث له عن إبنة الحلال المناسبة وسوف تتيسر أمور الزواج بإذن الله.

: على يدك ياولدى ياعبدالله .

: إن كان على يدى فهذه عمتى هيا لا تفوتكم!؟

: ماذا تقول؟ عمتك هيا!؟ الله يصلحك ويهديك ياولدى« أنا شايب كبر جدّك وتسهزئ بى!؟

: لطفك ياعم!! إننى لم أستهزئ بك، وإنما أقول الحقيقة!!

: أي حقيقة تعني!؟ والله إن لك مكانا في قلبي ومودة في نفسي أتريد أن تقلب هذه المودة كرها بكلامك الصبياني هذا؟؟

: أعني والله الحقيقة التي لاغبار عليها وأنا واثق مما أقول!!

: أظن أنك صغير حتى الآن لاتدرك مايدرك الرجال؟ ولاتعرف الإعتبارات والأمور التي تدور في أذهانهم؟

: على العكس مما تقول فأنا أعرف الكثير مما أشرت اليه، ولايخفى علي شئ وإنني أنصحك بل وأوكد عليك أن تتقدم لخطبتها قبل فوات الأوان.

: أتقول الصدق؟ أم هي شطحة من شطحات الشباب؟

: بل هو الصدق بعينه، فتقدم وأنا كفيل بتدبير الأمور!!

: أين نحن وأين أنتم؟ إن هناك بَوْن شاسع بيننا!؟

: لابون ولا حواجز توكل على الله وأقدم على ما أقوله لك!

: ثم لنفرض أن ما تقوله صحيحاً، فن أين لنا المال الذي نجهز منه تكاليف الزواج؟ لا ياولدي أصلحك الله، دعنا وشأننا «برق عاديك لاتستخيله ليا صار ماترجى سوارحك ترعاه»!! يقول ذلك بلهجة اليأس و يطق أصبع يده الوسطى بعد أن إنفلتت من الإبهام فاحدثت صوتاً قو ياً.

: أنت تقدم إلى جدى وجرب فكما يقول المثل «إن لقحت والا ماضرها الجمل!!؟

: وكيف أتقدم لشيء نتيجته سلفاً معروفه وربما النتيجة كلمات إستهزاء أوَدُّلو تبتلعنى الأرض دون أن أسمعها!! فكيف تريدني أن أقدم على ذلك؟

: إذا أتيت يوم غد لصلاة الجمعة وتناولت الغداء كالعادة فعليك أن تفاتح جدى في الموضوع وسوف أكون حاضراً فاستطيع إقناع جدى بوجاهة طلبك، ولا تنس أن تلبس أنت ومحمد ملابس نظيفة!! يقول ذلك وهو يغمز عينه و يضحك ثم ينصرف ليودع محمداً و يطلعه على النتيجة و يؤكد عليه أن يصر على والده بتنفيذ الخطه ثم يعود قافلاً إلى بلده في أصيل ذلك اليوم.

وفي المساء عندما تناول الجميع طعام العشاء جلس أبو محمد مستنداً على سارية السقيفة، فسأله إبنه متجاهلاً معرفته بما جاء عبدالله من أجله.

: ما الذي أتى بعبد الله يا أبي؟ ولماذا لم ينتظر حتى يتناول طعام العشاء عندنا؟

: آه يابني.. لقد إستعرض أموراً لاطاقة لنا بها، وربما قد غضب وعاد دون أن يتعشى معنا؟
: وماهي؟ عسى أن تكون خيراً؟
: لو أخبرتك بها لم تصدق، ولضحكت حتى تنفطر كبدك؟ لقد عرض علي أن أخطب لك عمته هيا بنت سليمان!؟
: وماذا في ذلك؟ ماذا قلت له؟
: وماذا في ذلك؟ ألا تعلم أن هذا من رابع المستحيلات؟ ولذلك هدأته بأن وعدته أنني سوف أتقدم لخطبتها، على أساس إقناعه ورضاه!!
: وهل على الله مستحيل؟ يرزق من يشاء بغير حساب!!؟
: «والله لو حلمت ليلة القدر» ما حصلت لك «بس حط عن رحائلك»!؟
: لا يا أبي، أنت جَرِّبْ وربما تصيب، وإذا لم تُصبْ فليس هناك ضرر من جراء ذلك.
: جَرِّبْ.. جَرِّبْ!! أتريد أن تجعل مني مادة ضحك للناس؟
: بعد إستماعها لهذا النقاش الحاد قالت أم محمد: إي والله جرب «لعل الله أن يرزق وليدي»!؟
: وما يدريك عن مضامين الرجال!؟
: لاتحتقر رأي أمي، فربما كان صائباً!؟ فما عليك سوى الإدلاء بدلوك، فإن أخرجت ماءاً شربنا منه، وإن لم تخرج شيئاً فلم تخسر!! وإن أخرجت طيناً ماذا نفعل!؟
: يكب على رأس والده يقبله وهو يقول: إن شاء الله لن يحدث من الامور أسوأها!!
: أبشر سنتقدم غداً الجمعة ونرى!! يقولها بنغمة مجرورة وصوت يائس. هذا ماجرى لأبي محمد وأفراد أسرته، أما عبدالله فقد عاد إلى أهله ونقل إلى جده وصَيَّة من أبي محمد يبدي فيها رغبته في مصاهرته، وأنه سوف يتقدم لهذا الموضوع بعد أداء صلاة الجمعة من يوم غد فرحب الجد بهذه الفكرةو وبعد صلاة الجمعة دخل محمد ووالده إلى غرفة قهوة سليمان وتناولا طعام الغداء والقهوة كالمعتاد ولم يتحدثا في الموضوع، بل غلب عليها الحياء والخوف من العاقبة، فما كان من سليمان إلا أن سأل أبا محمد قائلاً:

: ماشاء الله هذا إبنك يا أبا محمد، لقد صار رجلاً، فلقد خط شاربه وظهرت بوادر شعر لحيته!!

: إي والله أصلحه الله وهداه!! يقول ذلك و يده ترتعد بها فنجان القهوة يكاد يتدفق مافيه.

: ألم تبحثوا له عن بنت الحلال!؟

: لا والله إننا لم نبحث له حتى الآن!! الأمور كما ترى يا أبا علي لا تساعد على ذلك! و يغمز محمد بعينه لوالده لكن الوالد يغضى عن تلك الغمزة!!

: لو كان ولدى لأسرعت إلى زواجه!!

: أنت إنسان قد أغناك الله، ووسع عليك سبل الرزق، وعسى الذي أعطاك ألا ينسانا من رحمته!!

: بعد أن جمع محمد شجاعته الأدبية، وقوته الجسيمة، وشد أعصابه وكأنه يقدم على مغامرة مصيرية قال: ورغم ذلك لقد جئنا إليك يا أبا علي لنطلب منك يد إبنتك هيا!!

: بعد أن غص بالكلمات وتقطع صوته في موجات من الوأوأة. ص. حـ. صحيح، مايقوله محمد، نحن قد أتينا لهذا الغرض ولكن «سالفة حالت دون أخرى»!

: بعد صمت قصير، خير إن شاء الله، نرى مالا نكره، ونستشيرها في الأمر!!

: أنت تعلم أننا لم نأت إلاّ راغبين بقربك، فلا تردنا خائبين من موافقتك:

: إذا كنتما صادقين فيما تقولان، أبشرا، وأهلا وسهلاً بكما وعلى الرحب والسعة، فو الله لايستأهلها غيرك يامحمد!!

وَشَرقَ محمد في ريقه، مما جعله يعجز عن رد كلمة الشكر والثناء لأبي علي على هذه الموافقه، أما أبوه فقد تسمَّرَ على الأرض ولصق لسانه في لهاته وجمد الدم في عروقه من شدة وقع المفاجاة، و بعد عناء شديد إستطاع أن ينطق بهذه الكلمات.

: كثر الله خيرك يا أباعلي، وجَمَّلَ الله حالك وأكثر من أمثالك!

: لم نفعل ذلك إلا حينما وجدنا أن محمداً كفؤ لابنتا، والآن أتريدون أن يكون الزواج في القريب الحاضر، أم مؤجلاً إلى وقت معين؟

: إننا نريد ذلك بالسرعة الممكنة، فخير البر عاجله.
: حياكم الله، ليلة الإثنين القادم، واذهب ياعبد الله أدع لنا إمام المسجد ليتم عقد النكاح الآن، فانطلق عبدالله وأتى بالإمام وتمت مراسيم العقد على أبسط صورة كما شرعها الدين الإسلامي الحنيف.

محمد وابوه : بلسان واحد أكثر الله خيرك يا أبا علي وقَبّلا رأس سليمان ثم إستأذنا للانصراف إلى أهلها، وهما لايكادان يصدقان ما سمعاه وما وصلا إليه من نتيجة إيجابية ومفأجاة سارة إنتهت يعقد قران محمد على هيا، وعاد عبدالله لينقل إلى عمته وقائع الجلسة، مما أثلج صدرها، ولما وصل محمد وأبوه إلى منزلها زف محمد البشرى إلى أمه وأخته، وعند ذلك قال أبو محمد لإبنه يابني ليتك لم تستعجل في الأمر حتى نتمكن من تدبر وضعنا!؟

الآن كيف يمكننا تدبير أنفسنا؟ إننا سوف نحملها مالا تطيق، ولن نجد من يُسَلِّفُنا المبالغ اللازمة التي تفي بالتزاماتنا!! ثم ماهي الهدية التي سنقدمها للعروس؟ وماهي الملابس التي يجب أن نختارها لها؟

وتدخلت أم محمد قائلة: أنا سوف أساهم بقلادتي المرجانية وخواتمي أبيعها وأعطيكم قيمتها، هذا ما أستيطع أن أفعله، أما الرجل فيتدبر حاله!! ويرد عليها زوجها، أما سمعتي المثل القائل «إنفخ ياشريم قال مامن برطم»!؟ أتحسبين الأمور كما كانت أيام زواجنا؟ إننا بحاجة إلى مبلغ ثلاثمائة ريال غير قيمة الملابس والهدايا، وذهب «الصُّبْحَة» وغيرها.. وغيرها. آه ــ الله المعين، لقد تورطنا وبس»!! وبينماهم في أخذ ورد إذ قدم اليهم عبدالله حاملاً وصية من جده سليمان مفادها، ألاَّ يكلفوا أنفسهم في أي شيء، وعليهم أن يأتوا بأنفسهم فقط في الوقت المحدد، لأن كل شيء قد تم تجهيزه من وليمة الزواج وغيرها، وبعد ذلك أخذ عبدالله بيد محمد وإنتحى به جانبا ثم ناوله صرة بها مجموعة من الحلي ومعها خمسمائة ريال من الفضة من عمته وقال لمحمد هذه الأساور والمصاغ تهديها لعروستك أمام النساء، وهذا المبلغ يعطيه والدك لجدى أمام الناس وذلك ليظهر الزواج على حقيقته وحسب الأصول والأعراف المرعية أما الأشياء العينية من المهر كالأرزاق والملابس وغيرها فقد جهزها وأوهم النساء أنكم أرسلتموها له، وتلك هى جاهزة في غرفة منفصلة قد أغلق

عليها جدى ليتم الكشف عنها ليلة الزفاف، وغادرهم عائداً إلى أهله، وقد غمرت الفرحة والسعادة هذه الأسرة التي كانت تعد كمال هذه الخطوة من رابع المستحيلات، وفي الموعد المحدد، ركب محمد ووالديه وأخواته دوابهم وقدموا إلى حيث يقيم أهل العروس فوجدوهم في إنتظارهم وقد هيأوا كل شيء ودعوا الناس إلى طعام العشاء وأقيم حفل الزواج بطريقة مبسطة، وبعد الإنتهاء من ذلك جرت أمام الناس مراسم الزفاف حيث تم زفاف العروس إلى عريسها في غرفته، عند ذلك حانت لحظة اللقاء المثير، تلك اللحظة السعيدة المنتظرة التي كانت من الخيال، عبر الأيام والشهور والسنين، تلك اللحظة التي جمعت بين قلبين متعطشين إلى بعضهما، ثم سكبتهما في بوتقة واحدة ليسيرا معاً في بداية حياة تغمرها السعادة ويحتضنها السرور، وفي لحظة اللقاء حدث مالم يكن بالحسبان، لقد تقابل الإثنان وجهاً لوجه وبدأت سحب من الدموع الغزيرة تنهمر من عيني كل منهما، إنه فرح، فرح اللقاء الذي حطم الحواجز، وسحق العادات، وأذاب التقاليد، وبدد أبهة الغني، إنه الفرح الذي نقل الفرد من طبقة إلى أخرى وإنتشله من قعر الفقر إلى سطح الثروة، وأنقذه من متاهات الحرمان إلى نعيم السعادة، اللقاء الذي أذاب هذين القلبين مع بعضهما حتى إختلطا تماماً ثم قسم هذا الخليط في قالبين متساويين أودع كل منهما في صدر صاحبه، وبدأت تلك الدموع وكأنها الجمان المتناثر فوق صفحة الورد المتلألئة، وسطح البلور المتموج، ولم ينبس أى منهما بكلمة واحدة، حتى إذا تعبا من الجلوس ألقت برأسها على طرف مخدة الفراش الوثير، ولم تلبث أن رأته يضع رأسه على طرف المخدة الآخر، وإستمرت زخات الدموع تتدفق منهما موجة بعد أخرى على تلك الوسادة المحشوة بالريش وكأنهما تعهدا بشحن تلك المخده بأغلى شيء لديهما، حتى غلبهما النعاس وناما ليلتهما تلك كل في حال سبيله وعند الصباح وجدا تلك المخدة قدار توت تماماً من الدموع حتى إنها بدت تتصبب بغزارة من ماء اللواحظ المنهمر عليها طيلة الليل، وكانت هذه الليلة هي بداية حياتهما المليئة بالسعادة والحبور والإستقرار وعاشت مع زوجها في بيتهم المتواضع بالمزرعة لايطيق أى منهما مفارقه صاحبه يوماً واحداً وأنجبت منه أبناءاً وبناتاً وكل يوم يمر يزداد حبهما والتصاقهما لبعضهما ثم بدأ محمد يدرس بتأثير من عبدالله حتى حصل على المؤهل الذي يؤهل للتدريس فصار مدرساً وعاش مع زوجته وأبنائه حياة مليئة بالسعادة والحبور.

١٩ ـ تزوجها ليحميه أولادها

في إحدى الفترآت السيئة التي مرت بالجزيرة العربية قبل أن يمن الله عليها بالأمن والإستقرار تحت ظل حكومتنا الرشيدة، في تلك الفترة إرتفعت رءوس الفتنة، وضربت الفوضى أطنابها فأصبح الضعيف فريسة لمن هو أقوى منه، وكثر السلب والنهب في الغزوات المحلية البغيضة، التي ذهب ضيحتها صناديد الرجال وزهرة الشباب في سبيل الحصول على مكاسب مادية رخيصة، في هذا الجو أصبح البقاء للأقوى، أما الضعيف فهو دائماً عرضة لغزوات السلب والنهب من أناس بعيدين عنه وربما من الأقربين إليه في الجوار أو النسب، قد تأتيه المصيبة من أقرب الناس إليه إذا هموا به، ولمسوا مهمزاً، ورأوا أنه لايدافع دون حقه فقد يبادرونه بسلب ما في يده من نعمة، فيعيد جمعها من جديد حتى إذا توفرت لديه بشكل مُغَر إختطفوها من بين يديه مرة أخرى وهكذا دواليك، في هذا الوضع عاش هادى مع عشيرته في جزء من أرض قبيلتهم وتحت كنفها، ولكنهم رغم ذلك كانوا يتعرضون لما يتعرض له الضعفاء من شَنِّ الغارات بين الحين والآخر.

وفي كل مرة تدور الدائرة عليهم إما بقتل عدد منهم، واثخان البعض الآخر بالجراح، أو بسلب نعمتهم من بين أيديهم، وهذاأضعف الايمان، هذه الغارات المتتابعة أرهقت كاهل هادى وأفراد عشيرته مما جعله يفكر جديًا في الأمر، ويبحث عن الأسباب التي أوجدت نقطة الضعف هذه، فجمع أفراد عشيرته ودار بينهم الحديث الآتي:ـ

: ياترى ماهو السبب الذي جعل الناس يستضعفون جانبنا ويكررون علينا الغارات المرة تلو الأخرى؟

: إن المكان الذي نقطن فيه أرض مكشوفة تجعلنا عرضة للرائح والغادى، فلابد أن نغيِّر منزلنا لنكون في مأمن من غزوات الآخرين.

: لا أظن ذلك، لأن كثيراً من العشائر يقطنون في أرض مماثلة لأرضنا ورغم ذلك

لايتعرضون لما نتعرض له، ولكن هناك سبب آخر فياترى ماهو؟

وقال ضاحي :

: في إعتقادي أن السبب هو كثرة مواشينا، وجودة أصنافها، ومن هنا يأتي طمع الطامعين فيها، فيخطفونها من بين أيدينا!!

فأردف غنام:

: لا أعتقد ذلك، لأن ماعندنا من المواشي يشبه ماعند الآخرين، وأحياناً يكون أقل جودة منه، ولكن ربما يكون السبب أن البعض منا لايؤدي واجبه كما ينبغي في ساعة الشدة الحاسمة.

: إنك لم تصب الهدف ياغنام!، إنني لا أرى واحداً منا يتقاعس عن أداء واجبه في الساعات الحرجة، فالكل منا يؤدى جهده بأقصى طاقته، والدليل على ذلك أننا نقْتِلُ و يقتل منا، نذال من الأعداء كما ينالون منا، وننازع الخصوم فيقع النقص فينا أو تنهكنا الكلوم.

: ربما يكون السبب أن مضاربنا في طرف منازل قبيلتنا، فنكون في رأس الهدف، وحتى لو جاءت إغارة قصدها غيرنا، فتجدنا أمامها لنكون لها مغنماً، فلودفنا أنفسنا في وسط عشائر القبيلة الأخرى ليكونوا لنا سياجاً نحتمي ضد الهجمات المتعاقبة علينا.

: آه - ياضاحي والله لو دخلنا في جحر ضب للحقنا الأعداء إنهم يقصدوننا بالذات فالعشيرة الفلانية أكثر منا تطرفاً في مضارب القبيلة ومع ذلك لم ينلهم من الأذى ماينالنا!!

: العشيرة الفلانية تحت حماية فرسانها المعروفين، يذودون عن حماها، ولايجد المغيرون عندهم غير جَزِّ الرءوس ودرحرجة الجماجم.

: ونحن لانقصر فيمن يعتدى علينا، ندافع عن أنفسنا بقدر طاقتنا.

: آه .. «الرمح على أول ركزة»!! الأمر: يختلف عما تقول، فالناس في وقتنا الحاضر لايقنعهم من يدافع عن نفسه، ولكن ينتزع إعجابهم من يجيد الكر والفر، من يذود عن حماه، ويهاجم أعداءه في عقر دارهم، ليزرع الرعب في نفوسهم، أما من يدافع عن نفسه فقط فإنه يثبت في بعض المواقف، و يقال عنه إنه إستمات

في الدفاع عن نفسه، وقد يهزم فتلصق به وصمة العار إلى الأبد.

: يوجه كلامه للآخرين من الحضور، لماذا لم تتكلموا وتدلوا بآرائكم في هذه القضية المصيرية التي تهمنا جميعا؟

فقال مفضي :

: لقد تكلم الإخوان نيابة عنا بما فيه الكفاية، وأعتقد أنكم لن تدركوا من وراء كلامكم هذا أى طائل سوى إضاعة الوقت.

وكانت أم هادى بداخل البيت تسمع هذا الحوار، «فقطعت عليهم قول كل خطيب» وجاءت تلك العجوز عفراء تتوكأ على عصائها، فجلست أمام الحضور وقالت:

: «ياعيالي»!! إنكم ستقولون عنى أنني عجوز خرفة، وليس عندها من الرأى شيىء، ولكن مهما قلتم فلن يردنى عن الإدلاء برأيي، وقد يكون من باب النصيحة لكم فالآن «ياعيالي» أنا الآن قد تجاوزت السبعين من عمرى، ومنذ كنت طفلة أذكر أن عشيرتنا بعد مقتل قائدها فلان قد فقدت مكانتها، ثم خرج فيها إبنه فلان فرجوناه أن يعيد مكانة العشيرة عند الناس لكن المنية لم تمهله، وبعدها إنطفأت تلك الجَذْوَة التي كنا نؤملها، فإذا تريدون رأيي من واقع خبرة مايزيد على نصف قرن فعليكم أن يتزوج بعضكم من العشائر والقبائل الأخرى لتجديد دمائكم، ولتروا أثر الوراثة في أبنائكم عندما «يجذب» الغلام مِخْوَل طيب، أما أن يعجبكم جمال نسائكم فلا ترون عنهن بديلاً، وتجمعكم العصبية فلا تزوجون بناتكم لأحد، ولاتأخذون من بنات الآخرين فهذا خطأ كبير، مخالف لما أوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم.

: يا أماه، عَظَّم الله أجرك وأنجاك من عذاب النار، مالعلاقة بين كلامك هذا وما نحن بصدده.

: هذا هو الأساسى ياولدى، وعلى الأساس يبني البيت، فإذا كنت تريد رجالاً يشبون نارك، فعليك أن تخطب ابنة الفلان وتزوجها بأي ثمن!!

إبنة الفلان!! يقال إنها على درجة من القبح بشكل لايستطيع الارنسان مجرد النظر إليها!!

: أجل إنها كذلك!! ولكن لتنفعكم الجميلات وأبنائهن بالذود عن حماكم، فالقبح ليس عيبا «خلق الله حسن» ولن تأخذها ياولدي من أجل جمالها، وانما بهدف أن يرزقك الله منها أولاداً مثل جدهم وأخوالهم يشعلون ضوءكم و يرفعون راية العزفوق رءوسكم!!

: هداك الله ياأماه!! فلو تزوجتها، متى يأتي منها الأولاد؟ ومتى يصبحون رجالاً يدافعون عنا؟ الله المستعان!!

: كل ما هو آت آت، وكل ما هو آت قريب «شيء ترتجيه ولاشئ تأكله»!!

: هداك الله ياأمي!! هذا ضرب من الخيال، ولايمكن العمل به.

: يتضح لي أن نظرتك للأمور قريبة، ومن لايخطط لاينجح!! آه، لقد قلت لكم في البداية أنكم ستقولون عني أنني عجوز خرفة ولكن سترون صحة قولي!! مع السلامة وقامت العجوز محدودبة الظهر تتأرجح وثالث قدميها العصا مُغْضَبَةً وخرجت من البيت كله.

وتفرق المجتمعون دون الوصول إلى نتيجة معينة، سوى التزامهم بأداء واجباتهم في أقصى طاقتهم، و بعد انصراف الصحب فكر هادى في أبعاد كلام أمه، وعاد إليها يسألها عن بعض النقاط الغامضة عليه، فوجد عندها الإيضاح الكافي، عند ذلك عقد العزم على الذهاب إلى والد البنت خلف وهو شيخ عشيرته من نفس قبيلة هادى، فحل عليه ضيفاً، فعرفه الشيخ تمام المعرفة، و بعد تقديم واجبات الضيافة من قبل المضيف، جلسا يتناولان القهوة فتكلم هادى.

: يا أبا فلان أطال الله في عمركم، لقد جئت إليكم طالبا قربكم.

: أهلاً وسهلاً بك وعلى الرحب والسعة، ولكن بأى شئ تطلب قربنا يابني؟

: لقد جئت إليكم خاطباً إبنتكم !!

: لايوجد عندنا بنت تصلح لك ياولدي!!

: يذكرون أن لديكم بنتاً لم تتزوج بعد!!

: آه .. تقصد «صِيْتة»!! إنها لاتصلح لك يابني فاطلب الله عنها!؟

: أنا طالب يدها بالذات!

: يدها بالذات!؟ أغرك أحد بها؟ أم أغراك من يريد أن يغشك فيها؟
: أنا مقدم عليها على الخير والشر!
: يابني، إنها إبنتي وأغلى عندي من عيني هاتين، وأريد لها كل خير، وبودي لو تزوجت مثل أخواتها، ولكن الله خلقها على أبشع صورة ولا أريد أن أغش بها أحداً مثلك رجل وابن «لحمولة» وقد عافها الخطاب فتزوجت أخواتها من هن أصغر وأكبر منها وبقيت هي عانساً عندي؟
: أنا أريدها مهما كانت صورتها، إلاّ إذا كان لديك مانع آخر؟
: حاشا الله يابني ليس لدي مانع آخر، ولكني لا أريد أن أغشك فيها لتصبح فتقول «بَيَّض الله، سَوَّدَ الله»!!
: إنه يوجد لدى إمرأة أخرى غيرها، ولكنى رغم ذلك أحببت قربكم بزواجي منها.
: أبْشِرْ!! ولكنها كذلك لاتتقن من أعمال البيت شيئاً، إننا قد أوكلنا إليها، رعي البهم وحلب الغنم!
: إنني مقدم عليها مهما تكن!!
: إذا كنت قد رضيت بكل ماقلته فليس لدى مايمنع من ذلك، دعنى أناديها لتحضر لنا ماءاً للقهوة، ونأخذ رأيها في الموضوع.
: إفعل ماتريد.
: يناديها لتحضر له الماء، وينظر إليها هادى خِلْسَةً، فيرتاع منها ويقول في نفسه إنها «شِيْفَة عَنِيْفَةْ» ويحدث نفسه بالإحجام عن الإقدام على الزواج منها، لكنه يذكر رأى والدته فيعيد الإلتزام بكلمته، وتراه هي، فيسألها أبوها، ياصيته!! إن فلانا جاء يخطبك فماذا ترين!؟
: وقد هزتها نشوة الفرح فارتعشت يدها، وتدفق الماء من الإناء الذي تمسكه فقالت: رأى من رأيك يا أبي!؟ وإنصرفت تتعثر في ثيابها من شدة تأثير المفاجأة.
: هاه!! ياهادى ياولدي؟ لقد نظرت بعينيك فكما يقول المثل «مايمدح حاضر»؟!
: لقد قبلتها!.
: على بركة الله، ونادى أحد أبنائه فأرسله إلى «الخطيب» الذي يتولى عقد النكاح وحضر المأذون في الحال فتم العقد وأعلن في المنزل وذلك بأن شب الشيخ ناراً

كبيرة، وهي بطبيعة الحال لاتشعل إلا لأمر طارئ وتجمع الرجال على ضوئها لإستطلاع الخبر، ودخل خلف إلى البيت فأخبر النسوة أن يجهزنها للزفاف تلك الليلة ثم عاد إلى ضيفه، وعندما تجمع رجال عشيرته عند النار خاطبهم قائلاً، إن هذا الرجل الجالس أمامكم فلان قد تقدم لخطبة إبنتي فلانة، وقد زوجتها إياه، وفي هذه الليلة سيتم زفافها إليه، وإنكم مدعوون غداً لتناول طعام الغداء والعشاء فبارك الجميع هذا الزواج وتمنوا للعروسين التوفيق والسعادة، وعاد الرجال إلى بيوتهم لينقلوا خبر تلك المفاجأة إلى أهلهم، فانطلقت أحاديث النساء في أخبية البيوت وتحت ظلمة الليل، فمن قائلة تقول: إنه حظ نزل عليها من السماء!! وأخرى تقول: إنها قد برت بوالديها فجزاها الله على ذلك!! ومن قائلة: كل ساقط له لاقط!! وأخرى تهمس من هذا الذي لم يجد من النساء غير هذه العانس القبيحة!؟ ومن قائلة لجارتها: بالتأكيد أنه قد غُشَّ بها! وتضحك الأخرى فتقول: لقد كنا نُخَوِّفُ بها الأطفال إذا صاح أحد منهم بالليل إنها ستروع أبناءها؟ ومن قائلة إنه لم يتزوجها إلا لهدف في نفسه فياترى ماهو؟ فترد عليها جارتها: إنها إبنة فلان شيخ وولد شيخ، فربما لهذا السبب تزوجها، وإذا كان الله قد حرمها من الجمال فلن يضيرها ذلك عند الرجال المدركين الذين لايغرهم بياض الجبين، فربما كان هدف الرجل التقرب بنسبها لغرض في نفسه؟ ربما يكون ذلك؟ وتجرى الهمسات من خلف أخبية البيوت بمختلف الأفكار التي تنسجها أدمغة النساء عندما يفاجأن بعمل كهذا يـعَدّ بعيدا لحدوث، فإنهن يضربن بأفكارهن مختلف الإتجاهات، هذا ماجرى في الحي بعد إعلان النبأ، أما العريس فبعد أن تفرق القوم زُفَّتْ إليه عروسه في جزء محجور من بيت الشعر، قضى فيه ليلته تلك، وفي الصباح نحرت الجزر، وذبحت الخراف وأقيمت وليمة كبيرة ظل الناس يأكلون منها طوال يومهم حتى المساء، وفي صباح اليوم الثاني رحل العريس وعروسه بعد أن جهزها أبوها بكامل مايلزمها وأرسلها برفقة زوجها وعندما وصل إلى مضارب قومه، نُصِبَ لها بيت خاص سكنت فيه قرب بيت زوجها وعاشت معه.

* * *

وبقيت صيتة تقوم بأعمال بيتها على الوجه الأكمل لاكما قال أبوها ولم تمض سنة حتى ولدت بكرها توأمين من الذكور، وفي العام الثاني جاءت بولد ثالث ثم رابع وخامس ولم يمض عقد من الزمن إلا وقد ولدت له ثمانية ذكور وابنتين، فحضيت لدى زوجها بمكانة تختلف عن مكانتها في بداية زواجه بها، وصارت علامات النبل تظهر على بنيها منذ صغرهم حيث بَزُّوا أقرانهم في كثير من الأمور، إبتداءاً بالألعاب التي.. يمارسونها كالمطارحة والسباق وغيرها، حتى أن أفراد التوأم بدآ بركوب الخيل والتدريب عليها، وإستخدام الأسلحة في وقت مبكر، وذات يوم بدأ هذا الحوار بين هادى ووالدته.

: أترين يا أماه هؤلاء الصبيان قد كثرت الشكاوى ضدهم من أبناء الجيران؟

: آه .. لعل الله أن يسلمهم ويرعاهم ويقيهم كل مكروه، هؤلاء الغلمة أنظر إليهم، وأرجو أن يبيضوا وجهك!! «أرجيه رجوى البدو للمرباعي»

: ولكنهم من الآن قد آذوا جيراننا بشرهم؟

: هذا ليس شراً، إنه أولى علامات الخير وبشائره أما تسمع المثل القائل «الديك يعاعى(١) وهو بالبيضة» أبشر بالسعد منهم إن أبقاهم لله لك!! وسيكون لهم شأناً آخر إن شاء الله.

: «إمحق سعد»!؟ لا والله هذا الشر والعيش المر.

: ياولدى تعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وكن متفائلاً فو الله إن صدق ظنى ان ترى العز على وجوههم.

: أنت متفائلة جداً، منذ أن أشرت عليَّ بالزواج من أمهم «راع الهوى عوين»!! ولايزال هذا التفاؤل يلازمك ويطمس بصرك عن كل ماسواه؛! أما ترين كل يوم يأتني أحد الجيران يشتكي واحداً منهم؟

: آه.. هذا الذي يجعلني أنتظرهم وكأنني أنتظر أوْبَةَ غائب غالي إختفى عن عيني فترة طويلة، لقد قلت لك إن هؤلاء سيكون لهم شأناً!! والدليل على ذلك أنهم يأخذون حقهم كاملاً من لِدَاتِهِمْ الآن، ودعهم يكبروا قليلاً فيبدأون يأخذون زيادة على حقهم، وربما يمارسون الكسب من غيرهم، آه .. عسى الله أن يطيل في عمرى حتى أرى زبناً يقود «سِرْبَة» الخيل، يقارع الأعداء يفك المواشى، يذود

(١) يصيح.

عن النَّزْل!!.

: أظنك يا أمي تحلمين!؟ إنهم لايزالون أطفالاً لم يصلوا بعد إلى ما تتصورين!

: إنه ليس حلماً، إنها الحقيقة، وستراها إذا أطال الله لي ولك في العمر، وتمثلت بالمثل القائل «من جاب من قوم تحلى وجيهه، ومن جث من خوٍّ لقى الطلع مابه» تقول هذا المثل في نبرة لاتخلو من العتاب لابنها على تسرعه في إطلاق الأحكام على مجريات الأمور.

: لقد جئت إليك يا أماه ألتمس لديك الرأى الصائب لمعالجة مايتصف به أبنائي من بوادر الشر، بحكم تجربتك الطويلة، ولكني وجدتك تشجعين وتغذين غرسات الشر هذه!! ولو سمعك أحد منهم فلن يقر لنا قرار من أذيتهم.

: يابني، أرجو أن تفرق بين الشر الذي تعنيه، وبين مافيه الصبية الآن، إن ذلك لايعدو تنفيسا عما يجيش بصدورهم، وأرجو ألا تكبح ذلك الطموح عندهم، عن طريق التعنيف، أو القهر والضرب، واترك لهم حرية التصرف مع الأرشاد بطريقة هادئة، على أساس ألا يشعروا أن ذلك ضغطا عليهم، أو مضايقة لهم، هؤلاء حرار، فروخ حرار، آه.. «ياسُعْدَ عينيك ياعفراء إذا إكتحلت بهؤلاء الشباب يمتطون ظهور الخيل تسبح بهم من أمام عيني هاتين.

: لاتزالين تعيشين في الخيال يا أماه!! ليس هناك فائدة من الحديث، حقق الله آمالك!!.

: إن غرساً غرسته بيدى هذه لابد أن أجنى ثمره إن أطال الله عمرى، ولن يخيب ظني، إن الطَّيِّب لايُخيِّبُ ظنك، ولكن يخيبه الرديئ، ولكن عليك يابني أن تبدأ في إقتناء الخيول الأصائل بعد أن تبيع كل هذه «الكديشات» التي لديكم استعداداً لظهور أبنائك عليها في المستقبل القريب.

: إن كان أبنائي سيظهرون كما تتصورين فلسوف يكسبون الأصائل بأيمانهم من أعدائهم، وإن كانوا غير ذلك فسوف تؤخذ الخيول منهم بعد أن يجند لهم أعداءهم.

: أوه ... «أَلْقِمَه العنان و يلقم يدى»!؟ أتدري!!دعهم، دعهم لله وسوف يخرجهم، وتعيش تحت ظلهم، ساعة ئذ، ستقول رحم الله أمي إن كنت قدمُتُّ، فلقد وقع ما كانت تتوقعه بالضبط، وإن كنت على قيد الحياة فسوف تُقَبِّلُ مفرقى الأشيب وأنت مسرور.

: إنـي أرجـو ذلـك، ولـكن عسى الله أن يديم ستره، ونستطيع أن نربيهم حتى يبلغوا ذلك الحين، الذي نجني فيه من ثمارهم.

: أوصـيـك مـرة ثانية ألا تقسو عليهم، وأن توجههم بدون عنف وألا تشعرهم بالضغط وتغرس في نفوسهم الخوف، حتى تتمكن أن تجنى ثمار ذلك عندما يكبرون.

* * * * *

ودارت الأيـام دورتهـا، وبلغ الفتيان زبن وصعب سن الخامسة عشرة وهما باكورة أبنـاء هـادى، فـي هـذه الـسن يمـارس الـفـتـيان الفروسية وحمل السلاح مع أقرانهم، فـيـبـدأون المـبـارزات فـي مـعـارك وهمـيـة تشبه المناورات الحربية في الوقت الراهن، ويجربون استخدام أسلحتهم المكونة من السيوف والرماح، وفي إحدى هذه المبارزات، ضـايـق الـفـارس الـصـغـير زبـن أحـد لِـدَاتِـهِ جـريـد حينما كَرّ عليه كرة مميتة، وعندما تـصـافـحت أعناق الخيل صاح زبن به صيحة كاد أن يسقط عن فرسه من شدتها عند ذلك عيره قائلاً:

: «إعقب» ياولد «الشِّيْفَة!؟

: أعـاد الـكـره مرة أخرى وضايقه وهو يقول «جتك الحيفه، جتك الخيفة، خذها من يـد ولـد الـشـيفة» !! ولكده بعصى الرمح فأرداه على الأرض وذهبت فرسه تتنزى بسرجها، فتجمع عليه رفاقه ووجدوه قد تأثر ببعض الرضوض دون غيرها.

: وقـد غـلـى الـدم فـي عـروقه، فقال: أدنوا إلى مهرى، والله لأطوِّحَنَّهُ من على ظهر جواده، وأجند له كما جندلنى،!!

فقال مقحم :

: لم تـفـعـل بـه مـاذكرت وأنت بكامل قواك!! فكيف تفعل به الآن وقد أصابك ما أصابك!؟

: ناولني رمحي وقرب إلى فرسى وسترى!؟

: تـعـوذ بـالله مـن الـشـيـطان، لقد ذهب الغلام إلى النزل ولم يعد، وهذه الفعلة ربما جـاءت مـنـه عـلـى سـبـيـل المزاح، إنه لم يرد بك شراً، ألم تر أنه لم يطعنك بلسان

الرمح، وإنما لكدك بعصاه، ليرميك من فوق جوادك.

: لقد غضب منى غضباً شديداً، فرأيت الشرر يتطاير من عينيه، عندما اقترب منه!!

: ماذا قلت له حتى يغضب منك؟

: لقد زل لساني عندما ضايقنى، فقلت له : ياولد «الشيفة»!!

: لقد عَيَّرْتَهُ إذا!! فحقك ماجاءك!؟ وربما أعطاك قليل مما تستحق هذا زبن أما تعرفه؟ وهل تجهل ما فعل أخوه صَعَبٌ بصاحبنا محمد قبل أيام؟ هؤلاء لايطأ أحد بارضهم.!!

. إنهم شر وعيش مرٌ، منذ أن كنا صغاراً، لقد نَغَّصوا علينا عيشتنا، آه، لقد آلمنى كتفى، وجبني وفخذى الأيسر، أسندنى بيدك لأعتدل واقفاً.

: بعد أن حمله صاحبه على ظهر جواده، عليك أن تتمسك على ظهر جوادك، حتى لا تسقط عنه.

وعاد الغلمان من ميدان المبارزة إلى البيوت، وشاع خبر مافعله بصاحبه، ومنافسه جُرَيِّدْ فاشتاط والد الأخير غضباً وحضر إلى أبي هادى، فرفع عقيرته ليدافع عن ابنه وفي مجلس حضره عِلْيَةُ القوم دار الحوار الآتي:

: ألم تعلم ياهادى بما فعل ابنك زبن بإبني جريد؟

: لا، وماذا فعل به؟

: لقد رماه من فوق ظهر جواده وهى تجرى، وحالته الآن لاتسر!!

: «عوذا» آمنا بالله!! عسى ألا يكون قد تأثر؟

: إنني جئتك الآن وقد أعدت أمه «دَمِيْثَةً»[(١)] لتدمثه فيها عسى أن تلين رضوضه، وتتلاءم فتوق أضلاعه!!

: عسى أن يكون سلم من الكسور؟

: لا أدرى، ولكن هناك إحتمال بسلامته من الكسور، والمهم هنا ماجئت لأجله، وهو أن تَقْتَصَّ له من ولدك!!

: ما الذي حدث بينهم بالضبط؟ ربما كان ذلك مزاحاً؟

: «إمْحَقْ مِزاح»!! هذه المرة حصيلة مزاحه رضوضاً، والمرة الأخرى قد تكون كسوراً، وبعدها دق رقبته!؟

(١) الدميثة رمل تشعل عليه النار حتى يسخن ثم تزال النار عنه و يدفن به العضو المرضوض.

: إترك الغلمان وشأنهم يمزحون و يتعثرون، و يعودون بعد ذلك مع بعض وكأن شيئاً لم يكن كما قال المثل «الصغار تتصالح والكبار تتفاضح»!؟
: ليس هذا منطق من يريد إعادة الحق إلى نصابه؟ عليك أن تأخذ حق إبني من إبنك والا...؟
: دعنا نسأل زبنا عن السبب، وربما إذا عرفنا السبب زال عنا العجب ونادى هادى إبنه من عند مهره الذي ربطه غير بعيد عن البيت، وعندما جاء وسلم عليهم، سأله والده: ما الذي حدث بينك و بين «خَويّك» جريد؟ ولماذا زحلقته عن ظهر جواده؟ فلقد جاء أبوه غاضباً.
: إن جريداً أعلم بالسبب، وقبل أن يأتي والده مغضباً فعليه أن يتحقق من ولده عن السبب؟ فإمّا أن يُقَصِّر لسان إبنه و يتحمل مايحدث في المبارزة، وإمّا أن يتحمل نتائج أخطائه اللفظية
: ماذا قال لك؟ أخبرني.
: يا أبت لن أخبرك بما قال، وإنما أحب أن أخبر والده، أنه إذا عاد إلى بذاءة لسانة مرة أخرى فسيلاقي منى العقاب الصارم!! قال ذلك وهو يغادر المكان.
: عليك أن تلمس رأسك أهو عليك أم لا؟ لابد أن تتأكد من إبنك، فقد يكون هو المخطئ وربما كما قال المثل «ضربني و بكى وسبقني واشتكى»!؟

في هذه اللحظة قدم الغلام مقحم فسأله هادى قائلاً: يامقحم، هل كنت مع الجذعان عصر هذا اليوم؟
: نعم كنت معهم.
: ما الذي حصل بين زبن وجريد؟
: كان كل واحد منا يطرد الثاني على ظهور الخيل في مبارزاتنا كالعادة وماشعرنا إلا وجريد قد طفح عن ظهر جواده وتدأدأ على الأرض بعد التحام بينه وبين زبن، وعندما أسرعنا إليه لاسعافه ألفيناه سليما إلا من بعض الرضوض، والجروح الخفيفة والحمد لله جاءت سلامات.
: لماذا جدع زبن جريداً؟
: بعد تردد مصطنع لمحاولة كتمان السبب قال: لقد عَيَّر جُرَيّد زبناً بقوله: «إعقب

يـاولد الشيفة»! فعند ذلك غضب ز بن ولكده بطرف عصا الرمح، هذا حسب قول جر يد بنفسه!

: آه... لهذا السبب طَوَّح به!! تسلم يمينه!!

: أقالهـا فعلاً؟؟ إذا يستأهل ما أصابه!! إن ميدان المبارزة يجب أن يخلو من المعايير، والتـنـابـز بـالألـقـاب، فـهـو يُـعَـلِّمَ الصبر، وشدة التحمل، و ينميِّ بالفرد الأخلاق الحـمـيـدة والـصفاة الحسنة، إنه ميدان احتكاك الرجال بالرجال على ظهور الخيل، وأنتم درعنا في المستقبل، فيجب عليكم التكاتف والتلاحم والصبر والتفاني.

: على من تتكلم؟ عَلِّمْ إبنك ذلك!!

* * *

ومـع مـرور الأيـام إنـتـشـرت أخبار أبناء هادى، ز بن وصعب، فيما يروى الناس عنهـم، وهابهم أبناء عشيرتهم الأقر بين، وأبناء عمهم المحيطين بهم دون أن يجرى أفعال تحـدث هـذه الهـيـبـة، وعندما بلغ الفتيان سن الثامنة عشرة، أصبحا فارسين يشار إليهما بـالـبـنـان، رغم أنهما.. يحتاجان إلى إثبات ذلك عملياً أمام الناس، وحانت الفرصة المؤاتـيـة حينما أغار على مواشيهم في صبيحة ذلك اليوم قوم من جيرانهم الذين تعودوا عـلـى مـداهمتهـم بين الحين والآخر، وهم في هذه المرة ينتظرون حيازة الغنيمة السهلة كما جرت عـلـيـه الـعـادة، فـاسـتـاقوا المواشى من أمام البيوت تحت آخر أستار الليل، وذهـبـوا بهـا غير بـعـيـد عن النزل عندما لحقتهم الخيل تسبح بفرسانها، فاهتزت الأرض مـن تحـت أقـدام الـقـوم المغير ين، ونشبت الرماح في ظهورهم تنزع حبات القلوب من مخـابـئـهـا، وتـشـرح الأكـبـاد قـدداً مـترا قـصة، وتمزع الكلى لترمى على الأرض، ثم صافحت السيوف لم الفرسان، فطارت الرؤس من بين التراقى وكأن ظفائرها أجنحة الـغـر بـان، وتدأدأت الجثث، فلم يبق من المغير ين سوى فارس واحد لاذ بالفرار عند إحتماء وطـيـس الـمعركة، فرد الخبر بمصير القوم المشئوم عندما عاد إلى أهله، وروى لهم حـول مـاشـاهـد، فـلـم يصدقوه وظنوابه سوءاً فجهزوا غارة أخرى بها نخبة من الفرسان، فلم يكن حظها بأطيب من حظ سابقتها فقد لاقى فرسانها الأمر ين، مما اضطرهم أن يـلـوذ بـعـضـهـم بـالـفـرار، وَدَوَّتْ أخبارهاتين المعركتين فيمن حولهم كدوى الرعد في مـتـراكـم الـسـحـاب، وتناقل الركبان الأخبار إلى مختلف الجهات، وعلى ضوء السنة اللـهـب فـي مـقـهـي عقيد العشيرة التي أغارت عليهم ومنى فرسانها بالفشل دار الحوار

الآتي:

حين قال نافع لمُسَلَّم :

: ألا ترى مافعل أبناء هادى بفرساننا؟

: إنه غريب جداً، إنني لا أستطيع تصديق نفسي حتى الآن وكأنني في حلم؟

: صدق أو لا تصدق هذا الواقع لاشك فيه.

: منذ أن عرفت نفسى، والآن قد شمط الشيب لحيتي لم أعرف أن عشيرة الـ... يفعلون هذا الفعل، لقد إعتدنا أن نأخذ حلالهم كلما أردنا ذلك!؟

: آه.. لقد تغيرت الأمور، وانقلبت الأحوال فلم يعد الوضع كالسابق، وتأييداً لكلامك فإنني قد سمعت أنه منذ أن قتل رئيس عشيرتهم فلان قبل أكثر من نصف قرن، وهم طعمة للناس كلما توفرت أنعامهم إلتهمها أحد جيرانهم.

: ياترى أهذا كله يعود إلى قلة عددهم؟ أم ضعف جانبهم عند اللقاء؟

: لا والله، إنني بريئي إلى الله العظيم من ظلمهم، أو النقص في حقهم إنهم يدافعون عن أنفسهم بكل ما أوتوا من قوة، ولكن يأتي عليهم السيل فيغطيهم، ولايستطيعون دفعه عن أنفسهم.

: إذا ما هذا الحظ الذي قام لهم، في هذا الوقت بالذات؟

: إنه ليس حظا كما تفهم، وإنما لابد أن هناك سِرٌّ لم نعرفه بعد، جعلهم يهبون، واقفين للذود عن مضارب قبيلتهم، وربما طالت شوكتهم فاصبحوا يغيرون على من حولهم!؟

: كل شيء يجب أن تحسب حسابه إلا هذه «عسى بحملها تثور»!؟

: أتدرى من هم أخوال أبناء هادى هؤلاء؟

: إن أخوالهم الفلان، وجدهم خلف بنفسه!

: آه ... هذا السر في إرتفاع أعناقهم، لقد جنبهم جدهم وأخوالهم، إذا ليست هذه منزلتهم، إن لهم مكانة أرفع وأرفع مما هم فيه.

: إذا كفانا الله شرهم دحرهم عنا، لقد رميت في بطني حجراً!؟

هذا جانب من أحاديث خصومهم، أما حديث هادى وأبنائه فله شجون أخرى تختلف عن هذه، فبعد أن عاد الفرسان من المعركة، وعلى رأسهم زبن وصعب،

وجمعوا الخيل التي كسبوها من الأعداء المغير ين وفسخوا أعنتها والقوا بها كومة بجانب الأسلحة التي تناثرت على أرض المعركة، وأنتهوا من صف الرماح والسيوف، طفق زبن وصعب إلى قربة من الماء لينظفا أيديهما من الدماء التي تجمدت عليها أثناء القتال، وعادا إلى رُفَّةِ البيت مرفوعي الرؤوس، وقد إجتمع قومهم إليهم يرمقونهم بأحداق ملؤها الإعجاب والفخر، وكل فتى في العشيرة يتمنى لو أنه في ثياب زبن أو صعب، ولو أن بعض الأقران قد أخذت لواعج الغيرة تلذع قلوبهم، وربما تمنى الكثير منهم لو أن ذلك لم يحدث، لاسيا عندما رأو النساء قد أقبلن إلى بيت هادى لتهنئة الفرسان على السلامة، وعلى ما أحرزوه من إنتصار على الأعداء، و يرين بأعينهن الأول مرة المكاسب العينية من الخيل المسومة، والأسلحة المكدسة قرب البيت، وَرَنَتْ الفتيات بلواحظ الإعجاب والعرفان إلى هذين الفارسين اللذين بيضا وجوه رجال العشيرة، وذادا عن حماها، وفي هذا المجلس دار الحديث بين هادى وخليف كما يلي.

: هنيئاً لك يا أباز بن على ما أحرز هذان الشبلان من نصر على القوم.

: هنأك الله بالسلامة والعافية، أنسيت أن كنيتي أبا محمد؟

: من الآن وصاعداً سنناديك بأبي زبن!! إنه حامى الظعن من دون قصور في محمد!؟ لكنناه «نُقَلِّطُ» زبنا وصعباً على الجميع، ليست العبرة بكبر السن، وإنما العبرة فيمن إذا قال فعل!! فيمن ينطح المغيرة!!

: سلم الله الجميع ووقاهم كل مكروه! يقولها وهو يبتسم.

: يوجه السؤال إلى زبن، كيف تصرفت أثناء المعركة وهزمتا لأعداء؟

: لا أذكر تفاصيل ذلك تماماً الآن كل لحظة تحتاج إلى حركة وتصرف يمليه الموقف، غير أن مايهمنى هو النتيجة، التي ترون مردودها، وإذا أردت الإيضاح فعليك أن تسأل صعبا.

: وحتى أنا لا أذكر سوى أن أسلك الإتجاه المعاكس لما يسلكه زبن لِتَلَقِّى الفلول المنهزمة والايقاع بهم قبل التقاطهم النفس ثم العودة من جديد

: دعنى أصف لكم كيف فعل زبن وصعب بالمغير ين، إن زبناً ينقض على الصف وكأنه العقاب الكاسر، فيشق صفوفهم و يكتسح جمعهم ثم ينقض عليهم مرة أخرى

من الإتجاه المعاكس على شكل العرقاة، في نفس الوقت يتلقى صعب الفرسان الفارين من أمام ضربات زبن ويحصد رقابهم حصداً، وهكذا فعل هذان الفارسان حتى بعثرا جمعهم ثم بدآ بملاحقتهم واحداً بعد الآخر، فتى انْصلّتَ أحدهم خلف خصمه كالشهاب الخاطف قطف رأسه وعاد مسرعاً وراء الثاني والثالث، وهكذا حتى قضوا عليهم وفر من طفحت به سابقه هارباً إلى أهله.

فقال خليف :

: والآن ماذا ترون أيها الرفاق نحو هذين البطلين؟

: إذا ترون رأيبي فلا أحق منهما بتولي شئون العشيرة!! واستلام إدارتها.

: إننـا لم نفعل شيئاً يستحق كل هذا، والبركة في رأس «العَوْد» و يشير إلى والده، فهو سيد الموقف، و بيده تصريف الأمور.

: عفواً، إنني أقصدها دى وأولاده.

: ومن يشك في ذلك؟ فالزعامة له أولاً وآخراً، ولاسيا بعد أن برز أبناؤه بهذه المكانة، وأصبح صيتهم يُدّوي في الآفاق.

: ماذا ترون أيها الرفاق؟

وارتفعت الأصوات بالموافقة على عقد لواء العشيرة مجدداً لهادى وأبنائه داعين لهم بالبركة والسؤدد. وقطع سكونهم القصير صوت عفراء، تلك العجوز التي أشرفت على بلوغ المئة من عمرها وقد هدها الخور والكبر، وكانت ترقد تحت دثار المرض، عندما بشرها أحد أحفادها بالنصر الذي أحرزه أخواه زبن وصعب، وأن الناس قد إجتمعوا في البيت لتهنئتهم بذلك، وعندما سمعت الخبر دَبَّتِ الحياة وروح الشباب في أوصال جسمها بعد أن سمعت بثمرة غرسها وقد أنيعت وتم قطافها، فأخذت عصاءها وحاولت أن تعتدل ولكن ظهرها المنحني كالعرجون لم يساعدها على الإعتدال، ورمت بخمارها، فبانت تلك الظفيرتان البيضاوان، تجلل ذوائبها شُقْرَةٌ من صبغة الحناء، وأتت تقفز على قدميها تارة، وتتكئ على عصاها أخرى حتى دخلت وسط حلقة الرجال، فجثمت على رأس زبن تقبله وإنتقلت إلى رأس أخيه صعب، وهى تردد زغاريد الفرح ووقفت على عصاها تتراقص وهى تقول:

غـرس غـرسـتـه بـايـدى والـيـوم هـذا عـيـدى

الـعـز جـابـه هـادى غـنـوا مـعـى يـاولـيـدى

وذهبت متأرجحة إلى النساء داخل الخباء وهى تصيح فيهن، اليوم يوم الفرح، يوم البهجة والسرور، الحمد لله الذي أرانى ثمار غرسى قبل أن أفارق الحياة.

وشاء الله أن تكون زعامة العشيرة بيد هادى وبنيه منذ ذلك اليوم وبقيت بيدهم ردحاً من الزمن، حتى قيَّضَ الله من أضفى على هذه الجزيرة بكاملها الأمن والإطمئنان.

* * * * *

٢٠ ـ تزوجها فكانت الضحية

قد يجد الانسان نفسه في أصعب ظرف من الظروف وقد حيل بنيه و بين مايشتهى، بل ربما أبعد من ذلك، كأن يحال بينه و بين شئ من مقومات حياته، وربما فقد حياته بكاملها، نتيجة لهذا الظرف القاسي الذي حكم عليه بكل صرامة وجور ولاسيا عندما تحيط به عقول قد ران عليها الجهل فأعمى بصيرتها، وأفئدة أذكتها نار الحمية، فطغى شعور التطرف على رقة العاطفة وكتمها في مخبئها، ونفوس متعطشة للقتل والإنتقام، وعيون مشتاقة لرؤ ية الدم القانى أمامها، إرضاء لدافع العصبية العمياء، وعندها تتعطل لغة الكلام، و يصبح البديع. بمحسناته لايغنى شيئاً أمام تلك الآهات المملوءة بأدران الجهل، والفصاحة لاتفيد أمام من لايفهم مدلولها، وقوة الحجة لاتشفع أمام خصم لدود، والشفاعة لاتليِّنُ قلوباً أصلب من الجلمود، في مجتمع ضيق محدود ضمن إطار مدينة صغيرة تضرب الوشاية والنميمة على بعض مجتمعها بخيوط تفوق بدقتها خيوط العنكبوت، وتز يد في متانتها على أسلاك الفولاذ، هذه الخيوط تلتف حول الفرد مثل الإخطبوط لتغتاله ونلقى به جثه هامدة إن هو استسلم لدفعها وجذبها، و يقوم بنقل هذه الخيوط بين قطب وآخر، أناس قليلوا العدد، لكن مفعولهم يفوق عددهم بكثير، حيث تفرغوا لهذا العمل الدنيئ، والأسلوب الخبيث، واتخذوا من الشوارع مسرحاً لهم، يتكئون على زوايا البيوت في ملتقى الشوار وتقاطعاتها، ليرصدوا الغادى والرائح، الذاهب والمقبل، و يضعون لكل منهم من الأسماء والألقاب مايشينه، و يتنبئون بما فعل وما عساه أن يفعل حيث لايسلم أحد من شرهم، حتى إذا تجمع الناس في منتدياتهم، ومجالسهم بعد صلاة الظهر أو بعد صلاة المغرب، ألقى كل منهم ماجعبته من حصيلة رديئة، قد تعجب ذوى النفوس الدنيئة، وتضحك الصبية وذوي العقول الفارغة لفترة قصيرة، ولاتلبث هذه التصنيفات أن تنتقل إلى البيوت و يتداولها الناس، فيتولد عنها بعض الألقاب، والمعاير، والهمز واللمز، التي تفرق القلوب وتبدد الجماعات والتي نهانا ديننا الحنيف عنها، في هذه البيئة نشأ الفتى المترف ذو الثروة والجاه عبدالرحيم في أسرة تحتل مكانتها المادية والإجتماعية في

البلد، وكان لتربيته أثر كبير في بغضه لتلك الفئة الفاسده المفسده، حيث إبتعد عنهم وقاطع مجالسهم ولم يصخ إلى أحاديثهم، أو ماينقل عنهم، رغم أن المجتمع.. يحتم عليه كشاب من طبقة غنية أن يكون عضواً لاهيا ضمن أفراده، لكنه قد ضحى بذلك كما يملى عليه وجدانه الحي وتعاليم دينه السمحة، وانظم إلى فئات يجللها الوقار وتغشاها الطمأنينة، وتتمتع بأخلاق فاضلة، رغم صغر سنه، مما أوغر قلوب الهماز ين عليه، وذلك لعدم حصولهم على نواله أيضاً، مما جعلهم يضعونه في رأس الهدف، ولكنهم لايجدون عليه مدخلاً، فكان إذا أراد أن يجلس بحث عن حلقات الشيوخ وكبار السن، مما جعل خصومة يلصقون به لقب، خل «الشيبان» أولصق به هذا اللقب وطفى على اسمه الحقيقي بين أولئك الفئة، لكنه لم يجد فيه غضاضة، ولذلك لم يأبه بمن ندَبَهُ فيه، بل على العكس كان يعده من باب الفخر أن يُعَيَّر بمصاحبته لأولئك الشيوخ الأفاضل العقلاء، ومن ضمن هؤلاء الشيوخ الذين أنس عبدالرحيم للحديث معهم ذلك الشيخ إبراهيم الذي كان يعمل صائغاً للذهب في دكان بجزء من بيته له فتحتان إحداهما إلى داخل المنزل والأخرى على الشارع الفرعى، فكان عبدالرحيم يأتي بعض الأحيان ليجلس عند رفيقة عبدالرحيم على باب الدكان المفضى على الشارع، يتبادل معه أطراف الحديث أثناء تأدية إبراهيم لعمله مع من يتجمع عليهم بعد ذلك من عملاء الصائغ أو رفاقه، فيكون دكان إبراهيم متلقى لعدد من أصدقائه ورفاقه، ومن يستأنسون لحديثه، وبطبيعة الحال في ذلك الوقت كان الرجال هم الذين يشترون لزوجاتهم المصوغات و يأخذونها إلى البيوت فتتم مقايستها و يعاد الكبير أو الصغير، حتى يحصلوا على الحجم المناسب، أما النساء فلا يسمح لهن بالحضور إلى دكان الصائغ غير العجائز المسنات اللائي لا جناح عليهن، وفي هذه الحالة فلا يأتي إلى هذا الدكان غير الرجال والعجائز مما يقطع خط الرجعة على المرجفين في وصم عبدالرحيم في تهمة من التهم التي يتمنون أن يصموه بها، وتتطرق الأحاديث في هذه الجلسة عند الصائغ إلى مختلف شئون الحياة، وتعتبر بالنسبة له تسلية أثناء تأديته العمل، أما من يلتفون حوله فهى تسلية وقتل للوقت الضائع لدى البعض منهم، و يقدم الصائغ لقاصديه القهوة بين الحين والآخر، إضافة إلى الماء واللبن أحياناً، من بيته الملاصق للدكان، فإذا ما أُحْضِرَتْ له دَلَّةُ القهوة طَقْطَقَ من جاء بها بالفناجين

إيذاناً بوجودها فيقوم ويحضرها ثم يوكل إلى أحد أصحابه بإدارتها على الآخرين، وكذا الحال عند حضور الأشياء الأخرى، ومع طول الرفقه بين عبدالرحيم وإبراهيم، زاد التلاحم والتألف بينها، وأصبح كل منهما يأنس، بل تنبسط أسارير وجهه عندما يشاهد صاحبه، حيث إعتبر عبدالرحيم إبراهيم، بمكان والده، كما اعتبر إبراهيم عبدالرحيم بمحل ولده، ورفعت الكلفة بنيهما وجسر كل واحد على الآخر، وفي ضحى ذلك اليوم الربيعي الرائع كان فم الدكان مكتظاً بالجالسين، وكان إبراهيم مشغولاً يركب قطعاً دقيقة من المصاغ لايستطيع نثرها عندما سمع صوت فناجين القهوة من الباب الداخلي، فأمر عبدالرحيم بإحضار الدلة، حيث قام بتثاقل وحياء ودنف إلى البوابة الداخلية عندما شاهد إبنة إبراهيم قد أمسكت بالدلة والفناجين تنتظر والدها في وضع طبيعي لاتصنع فيه، في غرة من أمرها إذ فاجأها الرجل الغريب الذي لم تر وجهه من قبل فتسمرت على الأرض لثوان معدودة، ثم القت بالدلة والفناجين على الأرض فانتثر بعض مافي الدلة من القهوة، ونفرت هاربة كأنها الغزال المذعور، فأخذ عبدالرحيم الدلة والفناجين وجاء بها وأدارها على الرجال وكأن شيئاً لم يكن، حيث تحكم بأعصابه ولم يظهر أى شعور يخرجه عن طبيعته، غير أنه ما إن أعاد الدلة إلى مكانها داخل الباب ورجع إلى مكانه حتى بدأت عليه موجات من السرحان، والشرود الذهنى، مما أضطره إلى مغادرة المكان متذرعاً بأن لديه موعداً مع شخص آخر، وعندما غادرهم في طريقه إلى منزلة إنبسط أمام عينيه المنظر الجميل لتلك الفتاة الحلوة، بقوامها الرشيق، وعضديها العبلتين، وصدرها النافر وجيدها الأتلع، يعلوه وجهها الأبيض الصبوح بكل مافيه من إبداع الخالق العظيم من إتقان الصنعة في تناسق وإحكام دقيق، تزينه تلك الجوهرتان الساحرتان، يفصلها ذلك الأشم القائم فوق ثغر كأنه فتحة حبة الفستق، يلوح إلى يساره ذلك الخال الأسود في أسفل صفحة ذلك الخد الوردى الأسيل يكسوها ذلك الأسود الفاحم المتمثل في ظفيرتين غليظتين تتدليان فوق صدرها إلى ماتحت موضع الحزام، وبينما هو يمشي إلى بيته غارقاً في ثنايا هذه الصورة يسبح فيها من موضع إلى آخر، حتى إصطدم بسارية أحد البيوت التي أعادته إلى وضعه الصحيح، وبعد وصوله إلى المنزل جلس مع إخوانه في مجلس القهوة، وكانت قد غصت بالرجال فتحكم في أعصابه، وحاول أن يتناسى

المشهد، ولكنه ظل في صراع مع نفسه حيث تطغى مخيلته أحياناً على تفكيره، وتترآى له تلك الصورة ثم يطردها لئلا ينتبه إليه أحد من الرجال الجالسين معه، هكذابقى طيلة ذلك اليوم، وجزء من الليل حتى إذا أوى إلى فراشة ألقى بمقاليد تفكيره لتسيطر عليها تلك الصورة الحبيبة إلى نفسه، والتي حُفِرَتْ فى حافظته بشكل لايمكن معها التلاشئ أو النسيان بل إنه أصبح يحفظ أدق الدقائق من تفاصيل الصورة، وفي خَضِمِّ طغيانها عليه عَنَّت له فكرة تناديه بمنطق العقل، وتدعوه إلى التعقل، ذلك أن النظرة الأولى غالبا مايكون لها سحرها، ورونقها، وربما تلاشى وبهت هذا الرونق عند النظرة الثانية، وقد يزول تماماً عند الزواج فيما لو قدر ذلك أن يتم فلماذا هذا التسرع؟ أمن أول نظرة تحبّ وأنت الشاب العاقل الرزين؟ تلك هى نظرة عابرة كغيرها من النظرات تمر بلواعجها وتطوى في ثنايا النسيان!! ثم يعود فيسأل نفسه لقد لمحت فتيات كثيرات لم يَكُنَّ على هذا المستوى من الجمال، ولم يقع في نفسي من أى واحدة منهن موقع تلك الفتاة، ولم ترتسم فى مخيلتى لأى منهن أى صورة إلا في حدود ثوان معدودة!! أما هذه فقد أخذت عليّ جُلَّ تفكيرى حتى كدت أن أشرد في التفكير وأنا في حلقة القوم «ياالله قسمة خير» !! ثم يعود مرة ثانية يسأل نفسه إنه من الصعب!! إننى من طبقة وهى من أخرى وبينهما جليد متراكم يحتاج إلى حرارة لإذابته، ولا أملك هذه الحرارة لوحدى، وحتى لو وجدت الدفء اللازم فسيقابلنى من العقبات والمعرقلات مايجعل الزواج مستحيلاً!؟ ثم تطغى عليه العاطفة فيسرح في خيال عميق، وتصورات بعيدة تبرز من خلالها تلك الصورة التي رآها من مكان بعيد وتقترب منه رويداً رويداً حتى يكاد أن تلامسها يداه ويحدث نفسه بحديث مغاير لما يمليه عليه عقله، ولماذا الظفر بها مستحيلاً!؟

إن أباها إبراهيم رفيقى، ويقَدِّرُني، وربما لو طلبت منه يدها فإنه لايمانع في ذلك، أنا شاب في مقتبل العمر، ذو مال ومركز إجتماعي مرموق وكل يتمنى أن أخطب إبنته، وهى فتاة في عمر الزهور، وقد راقت لناظرى، فما الذي يمنع من إكمال هذه الخطوة؟ ليس هناك أى محذور!! ولكن «من يعلق الجرس»!؟ من الذي يتقدم لخطبتها؟ إنني أستطيع ذلك بنفسى لكن أبي وإخواني وأقاربي لن يوافقوا على ذلك مهما كلفهم الأمر، لاسيا وإنهم يشيرون ويلحون عليَّ بالزواج من إحدى قريباتي،

مع عدم رغبتي في أى واحدة منهن، بعدما رأيت بعيني اليوم ما رأيت، يا إلهي!! كيف توجد هذه الحوراء على وجه الأرض؟ كيف وجدت في بلدنا وعند رفيقى بالذات ولم أعلم بها لولا تلك المصادفة؟ صحيح إنني أعرف أن له عدد من البنات، ولكنى لم أكن أعرف أن من بينهن واحدة على هذه الدرجة من الجمال!! إنه رفيقى وبحكم المعرفة والصداقة فإنني أغضى عندما أرى زول أى واحدة من إناثة تمر من عندى، وربما لهذا السبب لم أكتشف هذه الحِصَّةِ الفريدة إلا في هذه الصدفة التي قدر الله أن أراهابها، يا الله!! إنه الجمال السماوى الذي أحكمته يد الخالق بإبداع وإتقان!! لقد ذُكِرَ لي بعض الفتيات الجميلات في بلدنا عندما تأتى مصادفة من المصادفات، وأرى واحدة منهن تنتزع من مخيلتى تلك الصورة الخلابة والإطار الجميل الذي إرتسم في ذهنى عنها عندما يصفها لي واصف، ولذلك فقد قلت في نفسي عندما ذكرت لي من بين تلك الفتيات من قبل أختى لإختيار واحدة من بينهن لتكون شريكة حياتي، إنها من ضمن ماوصف لي على سبيل المثال رغم أن أختى قد رغبتنى في بعضهن عندما كانت تعدد لي مواصفات كل منهن، لكنها لم تعط تلك الفتاة حقها الفعلى، ربما لئلا تفتنى بها لاسيما وأنها تعلم أنني لايمكن أن أتزوجها مهما كانت الظروف، ولذلك فقد إمتنعت أختى عن الاسهاب في سرد أوصافها!! أترى أختى محقة فيما ذهبت إليه؟ أم هي غيرة بنات حواء لا تريد إظهار سحر الجمال في غير من تريد؟

قد تكون على حق فيما لو نظرنا من زاوية الإختلاف الطبقى بيننا، ولكنها قد جانبت الصواب حين لم تصفها كما خلقها الله، حقا إن النساء قد تغطى أعينهن الغيرة في بعض الأحيان فيظهرن الصورة باهتة مشوشة، قد لا ترى فيها حتى المعالم الرئيسية؟ إن أختى لم تكن محقة فيما ذهبت إليه، إنها قد رأت أنه من الصعب إزالة تلك الطبقة العازلة!! وستكون إزالتها على يدى، سأحطم تلك الأغلال التي قيدت الكثيرين أمثالى، وصارت بسببها المآسى والنكبات الإجتماعية وخراب البيوت!؟ سأجعل المسألة سواسية كما أمرنا ديننا الحنيف، ومع هذه الكلمات الحاسمة يجد بعض العزاء وتقترب الصورة منه مرة أخرى ويطفح معها سابحاً في خيالات لامتناهية حيث يسرق النوم جفنيه في الهزيع الأخير في الليل، ويغط في سبات عميق، تنشله

صورة لوجهها البدرى الوضيئ و يصحو وهو يتمثل بهذا البيت:

١٧ أبـولَـبَّةٍ مِثْـلَ القَـمَرْ ضَاحْ وَاسْفَرَا   تَوَاسَا عَلَى المَاجبلْ خَلَأَّقَهْ البَارِي

و يعرك عينيه وهو يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، آه.. إن هذه أفكار وقرارات ليلية، «وكلام الليل يمحوه النهار» فتى أصبح الصباح فكرت بالموضوع بجد، واتخذت القرار المناسب .

* * * * *

وعندما أصبح الصباح، ومع أشعة شمس ذلك اليوم الربيعي خرج عبدالرحيم بعيداً عن ضنك المنازل وضيقها، ليرى جوانب الأفق الرحيب تحت أشعة الشمس الدافئة، ومن حواليه خضرة مزارع القمح، وبها السنابل الطرية التي خرجت لتوها من جُربها، ولها أخوات لا تزال تتراقص بجربها لم تر النور بعد، وكأنها آماله وأمانيه الغضه التي لم تصقلها التجارب ولم يعركها المران، تتلاعب نسمات الربيع على صفحة سنابل الحنطة فيرى التموجات الساحرة التي تقلب سفير السنابل من لونه الأخضر إلى اللون الذهبي عندما ترتسم عليه أشعة الشمس مع هبات النسيم، ومن فوقه زرقة السماء الصافية ببعدها اللامتناهى، تتوسطها بنت الضحى بأشعتها التي لا تترك في خبايا النفس أى غامض الابينته، في هذا الجو قرر عبدالرحيم أن يحاول قصارى جهده بالإبتعاد عن هذا الطريق، وإن رأى نفسه أنه لامناص له من المضي فيه فسوف يقدم عليه مهما كانت النتائج، ومن باب محاولاته الأولية تلك أن يبتعد عن رفيقه إبراهيم، وإنقطع عنه ثلاثة أيام متتالية على غير عادته مما جعل الثاني يسأل عنه أصدقاءه الآخرين، إن كان مريضاً ليزوره، ولما علم أنه بصحة جيدة إطمأن إلى ذلك الخبر، وصار يستعيد ذكرياته، إذ ربما قال كلمة أثرت على عبدالرحيم أو جرحت شعوره، غير أنه لم يذكر شيئاً وهنا أقتنع أنه ربما كان لديه من أعمال تجارته مايشغله عن الحضور إليه كالمعتاد، أما عبدالرحيم فقد مضت عليه تلك الأيام الثلاثة ثقيلة مرهقة وكأنها ثلاثة أعوام، ولم تطلع شمس اليوم الرابع حتى سارت به قدماه بدون أن يدرى إلى أي وجهة يقصد، حتى وقف على دكان رفيقه إبراهيم وهو يردد في نفسه.

١٨ الـقـلـبُ تَلَّنْ صَوْبَ نِيَّة هَوَاهَا   والـنَّـفْـسَ مِـزْهَـافَـةْ وأنَـا قَـاصِـرٍ لَهْ

ولم يتمالك أعصابه عندما وصل رفيقه أن سلم عليه سلاماً حاراً مدعماً بالقبلات، وكأنه قد غاب عنه مدة طويلة ليست ثلاثة أيام بحساب الساعات والدقائق، فجلس عنده، وتجاذبا أطراف الحديث، وتشعبت مناحيه، وكان عبدالرحيم يسرح طرفه أحياناً في سقف الحانوت وكأنه يبحث عن شئ مختفى في ثنايا أخشاب السقف أو بين جرائد النخل المعروضة عليه، وهذا الوضع خلاف ما اعتاد عليه إبراهيم عندما يجلس عنده عبدالرحيم، كان يطأطئ رأسه ويغضى بطرفه، أما الآن فإن هذه الحالة تنتابه بين الحين والآخر، ثم يعود مرة ثانية إلى وضعه كالمعتاد، بدأ إبراهيم يراقبه ليرى ما إذا كانت هذه النظرات المركزة تتوجه إلى داخل الدكان أم لا؟ ولكنه وجدها تتجه إلى حيث يكون وجه رفيقه عبدالريحم إذ يُبحلِقُ أحياناً في زرقة السماء الرحيب وكأنه يحاول رؤية إحدى النجوم في رابعة النهار، وتكاثر الرفاق حول الدكان كالعادة، واستمر هذا الوضع لأكثر من عشرة أيام، وابراهيم يتابع سرحان ونظرات رفيقه ويدقق فيها، ويحاول قياس مدتها وعدد تكرارها ليمحصها ويستخلص النتيجة منها، ولكنه في هذه الحالة يحتاج إلى قرائن لفظية ليتمكن من الوصول إلى إستنتاج صحيح، ولهذا السبب دار بينهما الحديث الآتى

حين قال إبراهيم :

: أراك ياعبدالرحيم كأنك مشغول البال في بعض الأحيان، فما الذي يشغلك؟
: أبداً..أبداً ـــ ياعم إبراهيم ليس هناك مايشغل تفكيرى والله الحمد.
: يبدو لي كأنك تسرح في بعض الأحيان!! أو هكذا أتصور!؟
: إن ما تلاحظه عليَّ هى فترة إستراحة الذهن التي تحدث لأى إنسان.
: إستراحة ذهن!؟ ولماذا لم تحدث لك إستراحة الذهن إلا هذه الأيام؟
: آه..دنيا ياعم إبراهيم!؟ يناديه ياعم احتراماً لكبر سنه.
: إننا عصارة الأيام، لقد عركتنا، وطحنتنا ثم عجنتنا حتى أصبحنا بعد حرارتها الشديدة خبزاً ناضجاً كما ترى.!!
: إذا كنتم أيها الجيل الذي سبقنا بمرحلة من العمر، قد نلتم نصيب الأسد من تجربة

الحياة، فإننا سنتحمل أعباء أخرى، وقد نكون أقل منكم تحملاً لبعض الظروف.

: قل لي بربك ما الذي يشغل بالك هذه الأيام؟

: لايخلو إنسان من بعض العوارض والهموم التي تنغص عليه عيشه!!

: عسى ألا يكون هناك شئ يستعصى على الحل؟

: إن لكل مشكلة حل، ولكن هناك بعض العقبات التي تحول دون فتح بعض الأبواب ، فقد يضيع المفتاح، وقد تتكسر بعض أسنانه، وقد.... وقد..!!

: ماهذا الباب الذي إستعصى فتحه عليك وأنت الذكى البارع؟؟ أخبرني، سأساعدك على الفتح «إن كنت أبافلان» الصديق عند الضيق!؟

: ليت المفتاح كله بيدك!! إن جسمه معك وأسنانه مع غيرك!؟

ماذا تقول؟

: لم أقل لك غير الصحيح!

: أبشر بسعدك إن كان المفتاح معى!! بل إن كان لي في الأمر مدخل ظفر!! أمعى جسم المفتاح؟

: نعم معك، ولكن البحث عن الأسنان ضرورى ليجدى عمل المفتاح.

: بعد أن وضع ما في يده من عدته، أتقول الحق؟ أين هي الأسنان؟

: سأخبرك بهذا فيما بعد، يقول ذلك بعد أن أقبل مجموعة من الرفاق قاصدين الجلوس عند إبراهيم كالعادة، وما إن وصلوا وجلسوا حتى طويت صفحة هذا الحديث إلى موعد آخر، ومضت الأيام ولم تحن الفرصة لاستئناف الحديث مرة أخرى في نفس الموضوع، ولعدم حرص عبدالرحيم على إثارة الموضوع من جديد عَلَّهُ يُسلّى نفسه و يبعدها عن هذا الطريق ولكن أنّى له ذلك، فكلما مرت الأيام زاد قلبه تعلقا بها، وزاد جسمه إقترابا من أبيها دون أن يعلم أحد بذلك، أما إبراهيم فإنه لم يهتم بالموضوع بسبب الغلاف الذي وضعه عبدالرحيم حوله، والرموز التي كان يستعملها حيث لم يفصح له عن شيء مما يدور في ذهنه، ولكنه عاد ليسأل نفسه عن كُنْهِ المفتاح الذي ذكر رفيقه أنه بيده، ولكي يصبح ذا جدوى فيجب عليه البحث له عن أسنان، إذاً الموضوع لابد أنه متعلق به من بعيد أو من قريب، أتراه بحاجة إلى مادة؟ ربما يكون ذلك فقد يكون أتم صفقة تجارية ونقص عليه بعض المبلغ؟ ولكنه من أسرة ثرية ولدية مبالغ من المال، فضلاً عن مال والده، آه... إن أباه

مريض، ويجب على زيارته هذا اليوم، آه قد يكون مايشغل باله مرض والده المفاجئ!! ولكن مرض والده منذ يومين فقط بعد الحديث الذي ذكره، ثم ماعلاقتي أنا بمرض والده، لست مداو ياً، ولا أتقن الكي والفصد، وليس بحاجة إلى مال، شفاه الله وعافاه، يجب على أن أزوره اليوم، وربما وجدت عبدالرحيم عنده لأسأله عن استكمال الحديث السابق، وفي هذه اللحظة وفد عليه مجموعة من الاصدقاء وما إن جلسوا عنده قليلاً حتى إستأذنهم لإغلاق المحل والذهاب لزيارة أبي عبدالرحيم المريض فشكروه على حسن مبادرته، وأنه قد ذكَّرهم بواجب قد نسوه، فذهب الجميع لدار المريض لزيارته.

وبعد فترة عاد عبدالرحيم إلى رفيقه إبراهيم يؤانسه بحديثه بين الحين والآخر، وزاد تردده بشكل ملحوظ مما جعل إبراهيم يجد الفرصة لاستكمال الحديث السابق معه حينما قال:

: آه..يا «رُحَيِّمْ» ألم تجد أسنان المفتاح بعد؟
: لقد وجدت شيئاً ولايزال البعض قيد البحث.
: دعنا من الأحاديث الرمزية وأفصح عما تقول لأستطيع المساهمة في حل معضلتك!
: إن أخبرتك بالحقيقة أخشى أن تغضب!؟
: معاذ الله!! وهل هناك شئ يدعو للغضب؟
: لم يكن هناك مايوجب الغضب بالمعنى المفهوم ولكنه قد يثير بعض الناس.
: إنني أعتبرك بمكان إبني ولن أغضب منك مهما كانت الأسباب.
: مادام الأمر كذلك فسأصارحك في الموضوع.
: هات ماعندك!!
: إنني جئتك خاطبا يدا بنتك!
: والدهشة تعلو محياه، وأى بناتي تقصد؟! إن لدى ثلاث بنات.
: أستميحك عذراً إذا قلت لك إنها «ذات الخال» دون أن أعرف إسمها.
: آه... هذه الوسطى، إنه يوجد واحدة أكبر منها، ولكن كيف عرفت أن بها خالاً؟ هل رأيتها وكيف؟ يقول ذلك بانفعال شديد.
: لقد إتفقنا على الأبتعاد عن الغضب!! أليس كذلك؟ لقد لمحتها من بعيد.
: تهدأ ثورته بعض الشئ، و يستأنف حديثه، ولكنه يوجد واحدة أكبر منها. ثم إنها

صغيرة على الزواج، فلم تكمل من عمرها الآن ستة عشر ربيعاً.
: هذه «غرض روق»!! يقول ذلك وهو يبتسم إبتسامة الرضي.
: ولكن أختها الكبرى!؟ فلا ينبغي لنا أن نزوج من هي أصغر منها قبلها.
: أنا لا أريد سوى تلك، قل لي بربك ما اسمها يا أبا بلان؟.
: يعرك جبينه بالإبهام والسبابة ويطأطئ رأسه إيه... اسمها «لؤلؤة».
: إنه إسم على مسمى، حقا إنها لؤلؤة قد أخرجها الغواص لتوه من صدفتها من قعر البحر غضة طرية لم تلسمها يد الثاقب يقول ذلك بنفسه.
: آه ولكن هناك ماهو أهم من ذلك، إن هناك العوائق والموانع الأخرى التي تحول دون ما تريد!؟
: أي موانع تعني؟.
: أنسيت أن أهلك لايوافقون على إتمام هذا الزواج؟.
: وهذه أسنان المفتاح التي أعنى في بداية حديثى معك.
: إذا كيف تخوض في حديث ترى إستحالة إتمامه؟.
: سيتم إن شاء الله.!!
: كيف يتم بدون موافقة أهلك وعشيرتك؟
: أنا الذي سأتزوج وليس أهلى وعشيرتى، وسوف أتحمل تبعات ذلك.
: يابني لاتغويك شطحات الشباب، وتدبر الأمر قبل أن تغوص في بحر متلاطم الأمواج، ويتعذر عليك السباحة، وتعوزك النجاة.
: أنا أعرف أين أقف!!.
: لابد أن تدرك المكان الذي تقف عليه، إن لديك والدك وإخوانك وبني عمك وعشيرتك ستثور ثائرتهم عند معرفتهم بالخبر، ولن يوافق منهم أحد، وربما حالوا دون ذلك، فأرجوك أن تتدبر الوضع ولاتفشى شيئاً من هذا الكلام، لئلا يتناقله الناس، فيثير لك مشاكل مع ذويك، وفي نفس الوقت قد ينالنا سوء مما يصيبك؟
: من أجل ماذا تحصل المشاكل؟ أمن أجل أننى تزوجت بإمرأة؟.
: لاتنسى أن هذه المرأة التي تزوجتها من فئة غير فئتك، ومن هنا ربما تحصل المشاكل؟

: فئة ماذا؟ كلنا سواسيه كأسنان المشط، لافرق لعربي على عجمى إلا بالتقوى، هكذا علمنا ديننا الحنيف.
: صحيح ماتقول ولكن من يفهم؟ فقد تطغى العصبية أحياناً على تعاليم الدين، و يتشبث بها البعض و يتصرفون على ضوئها، وإلا كلنا في هذه الجزيرة نعود إلى أرومات عربية أصيلة، وندين بالدين الإسلامي السمح، ولكن البعض يعيبون على من إتخذ مهنة ليكسب عيشه الحلال منها، و يعتبرونه ناقصاً عنهم.
: هذه دعوى الجاهلية التي نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها.
: إنني أطلب منك شيئاً واحداً إذا وافقتنى عليه فقد ينتهى الأمر.
: خيراً إن شاء الله وما هو الطلب؟
: أن تزوجنى ابنتك على سنة الله ورسوله بدون أن يعلم أحد من الناس سوى شاهِدَيْ العقد، وأنا آتيك بهما، وأهل بيتك وهم بدورهم يكتمون الخبر ولايخرج علم بذلك لأحد.
: كيف يتم الزواج بطريقة سرية؟ هذا غير معقول!! إن الزواج يجب أن يعلن للناس.
: ولماذا يعلن للناس؟ إن الغرض من إعلانه للناس لمعرفة ما إذا كان أحد الزوجين أخ أو قريب للآخر من الرضاعة، وهذا غير موجود لدينا فلذ لك لا أرى ضرورة للإعلان عن ذلك.
: لم تجر العادة بهذا منذ عرفت نفسي!! يقول ذلك بصوت ضجر،
: مالك وما للعادات والتقاليد، إذا كان لك رغبة في قربتي فيجب أن تضحى بمفهوم العادات.
: يعلم الله إنني لأاكره قربك، ولكن دعنى أفكر في الموضوع جيداً وأستشير البنت، وستجد لدى الخبر يوم غد إن شاء الله.
: ولكن إحرص ألا يعلم أحد فيا يجرى سواء في حالة الموافقة أو عدمها.
: إن شاء الله.

وبعد أن تداول إبراهيم الرأى مع زوجته وإبنته بكتمان شديد، لم يعارضان الأمر، وبناء عليه فقد أصبحت موافقته على الزواج مضمونة بالطريقة التي يريدها

عبدالرحيم، وعند إجتماعهما في اليوم الثاني، دخلا إلى غرفة القهوة الداخلية فقال:

: آه..ياعم إبراهيم لَعلّي أناديك «ياخال» من الآن أم لا؟

: كما تريد أن تناديني، عم بحكم السن، أو خال بحكم المصاهرة.

: إذاً أنت موافق على ماطلبت، و بالطريقة التي أرغب!؟.

: أجل!!

: إذا أبشر بما يرضيك، فاطلب منى ماتريد بلسانك، حتى لو طلبت كل ما أملك، إن مالي وتجارتي لا تساوى قصاصة ظفر لؤلؤة!!

: مهلاً..مهلاً يابني!! ليس هذا ما أريد، إنني من الفئة التي تبنى من يقترب منها، ولست من الفئة التي تهدم أقاربها.

: رضاك عَلّي عزيز، وعسى أن أقدم مايرضيك عنى، فموعدنا غداً بعد صلاة الظهر مباشرة، وسوف أحضر فلانا ليعقد لك القرآن، ومعه شاهدين موثوقين بالرزانة وكتمان السر، يقول ذلك بصوت منخفض.

: لا يابني، إن فلانا كثير الكلام، وأخشى أن يتسرب منه خبر، فمن الأفضل أن نحضر إمام المسجد، فهو شيخ وقور، ومتى طلبنا منه كتمان الخبر فلن يخرج منه كلمة واحدة، أما الشاهدان فعليك إحضارهما ممن تثق بهم.

: نعم..هما عليَّ، إنني أعرفهما تمام المعرفة ولن يبوح أى منهما بِسِرٍّ. واستأذن عبدالرحيم خارجاً من البيت وعاد صاحبه إلى دكانه.

وفى الموعد المحدد حضر الجميع للغرض المعروف بعد أن أوصى كل منهما صاحبه أن يكون الأمر مكتوماً خشية أن يتسرب الخبر إلى أهل العريس وعشيرته فتنشأ مشاكل ربما أحدثت الفرقة و باعدت بين الناس، وعند ذلك أحضر عبدالرحيم كيسا مملوءاً بالدراهم الفضية والجنيهات الذهبية، بمايماثل عشرة أضعاف المهر الذي يدفع لمثيلاتها من الفتيات، وألقى به في حجر والدها قائلاً:

: هذه النقود لك يا «خال» وأرجو أن ترضيك عنى، وتناول صُرَّة ثانية وسلمها له قائلاً هذه «لخالتى» أم الزوجة مع الاعتذار لها عن التقصير، أما هذا الصندوق الصغير فهو مملوء بالمصاغ وهى هدية متواضعة لزوجتي، ثم غرز ملء يده من القطع

الذهبية والفضية ونثرها بحجر الإمام، ومثلها في حجر كل من الشاهدين وطلب أن يتم العقد ولم يوافق الإمام على كتمان الخبر إن هو سئل عن ذلك.

: لماذا كل هذا يابني؟ لقد كلفت نفسك كثيراً فلم تترك من مالك شيئاً إلا أحضرته، ثم أخذ من الكيس ريالاً واحداً ورد إليه الباقي، قائلاً أرجوك أن تسترد مالك إليك، فلقد قلت لك إننا من الناس البُنّاة وأتم العقد يا «خطيب» على هذا الريال «وشيمة رجال» أما مايخص النساء فذلك شأنهن.

: تثور ثائرته، ويحلف الإيمان المغلظة ألاَّ يخرج مما دخل بأحمر ولا أبيض، ويتم الإمام عقد النكاح بعد أن تظاهر عبدالرحيم أنه سيسافر في تجارة له لأحد مضارب البادية، ويغاب عنهم أسبوعاً كاملاً وهو في بيت أهل زوجته. وظفر بتلك الدرة التي سلبت لب عقله، وبعد ذلك بأيام قليلة انتقل الصائغ وأفراد أسرته إلى بلده الأول ويبعد مسافة ثلاثة أيام عن البلدة التي يقيم بها عبدالريحم واستقر هناك حيث ظل عبدالرحيم يتردد بين هذين البلدين متنقلاً بتجارته بين الحين والآخر وإذا قدم البلد حل ضيفاً عند رفيقه ووالد زوجته إبراهيم ويمكث عندهم فترة ثم يعود بتجارته إلى أهله في بلده.

في هذه الأثناء أحب والده أن يخطب له إحدى بنات أقاربه، فاستدعاه في إحدى الأمسيات، وفاتحه في الموضوع، لكنه تعلل بأنه لايزال صغير السن ولم يمض عن عمره شيئاً يذكر، فهو الآن يبنى نفسه وينمي ثروته، ومتى أصبحت لديه الرغبة في الزواج فسوف يخبر والده في ذلك لكن الوالد لم يقتنع بهذه التَّعِلَّةِ حيث يعرف أن إبنه في عنفوان الشباب وبهذه السن فإن الفتى بأمس الحاجة إلى الزوجة، في تلك البيئة المسلمة المحافظة ولذلك عرض عليه مجموعة من الفتيات الواحدة بعد الأخرى من أقاربه ومن جيرانه، وممن يعرف ومن يسمع عنهن، وكلما ذكر له واحدة منهن أو مأ برأسه بعدم الموافقة، وأصبح لايتكلم إلا باللآءات المترادفة، مما أغضب والده عليه، فنهره محاولاً التأثير عليه لكنه لم يأبه بذلك، وأخيراً قال لأبيه، إذا أردت الزواج أخبرتك، وإستأذن من عنده وخرج دون أن يتم في الموضوع شئ، عند ذلك استغرب أبوه هذا الموقف منه، وقال في نفسه: غريب أمر هذا الفتى، أذكر أنني في سنه أقبل رأس أبي ليبحث لي عن زوجة، ولم يهدأ لي بال حتى أخذت ام محمد، أما

هذا يقال له «خذ الخير، فيقول لا تأخذه مخلاتي»!! غريب أمره، عسى ألاَّ يكون قد سلك طريقاً معوجاً لاسمح الله؟ لا أظن ذلك، إن تقاه ودينه وأخلاقه تمنعانه من سلوك مثل هذا الطريق، ثم إن الطريق الملتوي قصير المدى، سرعان مايكتشف ولم أسمع عنه حتى الآن سوى العلم الطيب، ياترى ماهو السر في رفضه للزواج؟؟ إيه...«خله الله أمدى له»!! يرجع لرأيي «على مُتَكَّسْ قرونه»!؟

وتمضي السنة الأولى على زواج عبدالرحيم غير المعلن، ويخرج للدنيا باكورة هذا الزواج طفل ذكر، كالوردة البيضاء ساحرة المنظر، عبقة الرائحة، و يظل أباه يحتضنه و يلثمه، لايستطيع الإغضاء عنه، يلثم جبينه، و يقبل خديه وثغره، كلما قدم بتجارته إلى البلد الذي يقيم فيه ابنه الذي لايكاد ينزل من يديه، يردد عليه الأغاني، ينظم فيه الأبيات و يرددها على أسماعه، أصبح هذا الطفل جزء لايتجزأ من كيانه.

وما إن أنجبت لؤلؤة هذا الوليد، ودخلت عليها إحدى صديقاتها التي جاءت لتوها من السفر، حتى سألتها عن والد هذا الصبي؟ فهمست لؤلؤة إنه إبنها من زوجها عبدالرحيم التاجر الذي يتردد عليهم وطلبت منها الصمت والا يخرج منها خبراً ذلك أنه لايريد أن يعلموا أهله بهذا الزواج فصاحت: مزنه : آه «واغربا لك يامزنة»!؟ أيتم هذا؟ إنني لم أعرف زواجاً بهذا الشكل؟ أنا صديقتك وصدّقت ماتقولين إن فلانا والد ولدك، ولكن هل سيصدق الناس مثلي؟ إن الناس لايرحمون، فعندما يرونه لديك وهم لم يعلموا بزواجك منه، فإنهم قد يَصُبُّون الموضوع في قالب آخر ليس في صالحك، فن الأفضل لك أن تعلني ذلك للناس.

: وقد باغتتها المفاجأة، وأعمى بصيرتها المنظر القائم الذي رسمته لها زائرتها من خلال تلك الأفكار فقالت: وكيف إلى ذلك سبيلاً، إنني أخشى على زوجي!؟ انه يساوى عندى كل شيء إنه يدافع عن نفسه، ولكن أنت من يدافع عنك؟ إذا لاكت سمعتك الألسن، فعند ذلك يتسع الخرق على الراقع.

: آه إنني خائفة عليه، أخشى أن ينالنى سوءاً، فأقل شئ قد يحدث له هو أن يطلقنى، إنني لا أستطيع العيش بدونه.

: هاه... يطلقك، يطلقك إن هناك ألف رجل يتمناك، ثم إنه لن يطلقك أبداً.

: صحيح، إنه لن يطلقنى حتى لو مات دون ذلك، إن صدق ماسمعته منه.

: إذا مادمت واثقة من عدم طلاقه لك فما عليك سوى إعلان الخبر للملأ، وعلى رءوس الأشهاد.

: وكيف ذلك؟ هل أصيح بالشارع وأقول إن فلانا تزوجنى منذ سنة!؟

: لا، ياعزيزتي، إن لدينا أم فلان تلك العجوز الحدباء التي تلتقط الأخبار لتغطى بها البلد بكاملة فى ساعات قصيرة فسوف أرسلها لك الآن وبُوْحِيْ لها بالسر وعليها الباقي.

: طيب، تقولها ببطء وثقل. وهى تتصور سوء العاقبة المترتبة على ذلك وخرجت مزنة من عندها، وما هي إلاّ سويعات قصيرة حتى طرقت الباب تلك الحدباء، مومية بمرفقيها البارزين كمجدا في القارب الشراعى تتشمم الأخبار، وبعد أن إستوت على الأرض، أطلت بوجه الصبى قائلة ماشاء الله، تبارك الله، لا إله إلا الله، لمن هذا الوُليد «المزيون»؟.

وتسرع أم لؤلؤة التي لم تكن عالمة بما حصل، تحاول إخفاء معالم الحدث غير أن لؤلؤة تسبقها حسب إرشاد صديقتها، وتفتح الأمر وتعطي العجوز كامل المعلومات عن الزواج وماتعلق به، فتشهق العجوز شهقة سمعها من في أقصى البيت قائلة، «باطل.. باطل.. زواج بالخفية»!؟ إن الزواج الذي لايُرْقَصُ فيه، ولاتحضره مثلى وأمثالي، ولايحتفل فيه ليس زواجاً.. إسمحوا لي يابُنَيَّتِي إننى مستعجلة، لقد أبطأت على عيال بُنَيَّتِي!!» إهْهْ...إهْهْ..» وتحاول الوقوف ولا تستطيع إلا بمساعدة العصا الذي تحمله بيدها، وإنطلقت من هذا البيت تبث النبأ من بيت لأخر ولم تمض سحابة ذلك النهار حتى غطت هذه العجوز البلد بكاملها حيث أصبح حديث المجالس والمنتديات وبعد ثلاثة أيام إنتقل الخبر إلى البلد الثاني الذي يقيم فيه عبد الرحيم وأفراد أسرته

* * * * *

ومـا إن ذاع الخبر تناقلته وسائل الإعلام الموجودة أنذاك وتتمثل في الفئة المرجفة الذين يتخذون من قُرن الشوارع والمقاهى والمنتديات أماكن لهم، ولاشك أن هذه

الفئة كانت تتلهف على أي خبر، أو حتى تهمة تمس عبدالرحيم بسوء، فتسوق عليها البشائر من قريب أو من بعيد، بل إنهم يتمنون ذلك، و يكادون أن يلصقوا به التهمة لو وجدوا إلى ذلك سبيلاً، قبل أن يحصلوا على مبرر واضح، أما الآن فقد حانت فرصتهم، فإنهم لن يتأخروا دقيقة واحدة قبل أن يبثوا الخبر، بحجم مكبر، و بأسلوب لايخلو من التهويل والإستفزاز وكأنه خرق أحد نواميس الطبيعة بما قد يؤدى بمصير آلاف البشر، أو كأنه خرج من دينه الإسلامي، فصارت تلك العقول تحلل وتعلل وإنطلقت الألسن تنشر وتلصق، ولم يأت المساء إلا وقد أذكت تلك الألسن الحاقدة عليه قلوب أقاربه، وأضرمت نار الفتنة في تلك العائلة الهادئة المطمئنة.

وكان عبدالرحيم قد قدم لتوه في قافلة تجارية من البلد الذي يقيم بها أهل زوجته وما إن علم بانتشار الخبر حتى اظلمت الدنيا بعينيه وزاد ذلك ستار الليل المظلم أمامه، فهام على وجهه لايلوى على أحد حيث ركب دابته وخرج إلى خارج المدينة، وبحث عنه والده وإخوته تلك الليلة في الأماكن التي يرتادها، والأصدقاء الذين يذهب إليهم، فلم يجدوا له أثراً، وظلوا طيلة ليلتهم يبحثون عنه بدون جدوى، أما هو فقد بقى خارج البلد ساهراً يرقب النجوم عَلَّهُ يجد بينها من الأفكار بَصِيْص من أمل ليساعده في حل معضلته تلك، يقلب الأفكار و يستعرض الحلول المناسبة له، بحيث لاتمس مكانة أهله وعشيرته بسوء، المهم لديه أن يحتفظ بزوجته وأم ولده، ولما أنطلقت خيوط الفجر الفضية من الشرق ضاربة في عنان السماء، قرر العودة إلى المنزل «وكان قبل يومين عند زوجته وقد علم بانتشار الخبر فازعجه فحضر إلى البيت، ثم أمسك بيد زوجته وإنتحى بها بعيداً عن الأنظار، فودعها دون أن ينبس بكلمة واحدة، غير أن عتابه لها على مافعلته تَجسَّدَ في حبات من الدموع سقطت على صدرها أثناء الوداع، وإنتضى ابنه الصغير ذى الثلاثين يوماً من لفائفه وطبع على خديه ومحياه وثغره قبلات قد تكون قبلات الوداع الأخير وأنصرف من عندهم قائلاً لهم مع السلامة» فصلى الفجر واضطجع على الأرض حتى فرشت أشعة الشمس غلالتها الفضية على الأرض عندها ركب دابته، وعاد إلى أهله فاستقبلوه بالفرحة والعتاب معاً، وعندما سألوه عن سر إختفائه الليلة الماضية أجابهم بأنه قد ذهب لبعض شأن تجارته في المكان الفلانى، دون أن يظهر عليه أى أثر مما يعتلج في

نفسه، وعند ذلك قرروا أن يذهبوا به إلى البر، ليتباحثوا معه في الموضوع بعيداً عن أعين الناس وأسماعهم، فطلبوا إليه أن يذهب معهم إلى البر فوافق على مضض وصحبه أبوه وأخواه مع إثنين من بني عمه ألاقربين، وعندما وصلوا إلى نقا من عروق النفود، وجدوا هناك ظبية صغيرة قد أكنعت في مراحها لا تزال نائمة، واستطاعوا القبض عليها حية حيث أجادوا وثاقها، وأبقوها لديهم، وعلى رمل بذلك الكثيب الذهبي، جلس الجميع يفترشون نعومة الرمل الدافئة الذي إعتبروه بمثابة قاعة للمحكمة لمحاكمة عبدالرحيم على مافعل، فقال فضل:

: أبني عبدالرحيم، أين كنت ليلة البارحة؟ لقد تعبنا أثنا البحث عنك؟
ولماذا تبحثون عني؟ ذهبت لبعض شأني كما أخبرتكم!
: وتقول هكذا!؟ لقد بحثنا عنك للتفاهم معك من أجل فعلتك التي فعلت.
: وماذا فعلت؟
: أتستهزئ بي لتقول ماذا فعلت!؟ وهذا الزواج المدسوس!؟
: الزواج ليس مدسوساً، فقد تم على سنة الله ورسوله!
: أخوه الكبير «سَنَّ الله رأسك وأراحنا منك»!! أتقولها بكل وقاحة!؟
: بل أقولها بكل جرأة، إنني لم أزْن ولم أعمل الفاحشة.
: أخوه الأوسط « إقطع قطع الله لسانك» !!يقولها بغضب وعصبية.
: أحسن المنطق تحسن لك الإجابة.
: يا أبنائي دعونا من هذه المغالطة، ولنتكلم بالكلام المعقول، قل لي يابني، ما الذي حدَّك على أن تتزوج بتلك الفتاة من غير فئتنا، لقد تزوجتها حين أعجبتنى، وهى الوحيدة التي دخلت نظرى من بنات حواء، وهكذا أراد الله أن يتم هذا الزواج.
: ولكنها يابني ليست من «فئتنا» ألا تعلم ذلك؟
: بلى، إنني أعلم تمام العلم، ولكن مالفرق بيننا وبينهم، كلنا أبناء آدم وحواء، كلنا مسلمون، هم من أرومة عربية معروفة، ونحن كذلك، يجمعنا معهم الدم، والدين، والوطن والمصير، فما الفرق بيننا وبينهم؟
: إنهم من فئة «الصُّنَّاع»؟

: ومـاذا فـي هـذا مـن المـثالـب؟ فـاداموا كـذلك فقد يكونون أفضل منا في بعض الـوجوه، إنهم يكسبون رزقهم بعرق الجبين، إن لديهم مهنة تغنيهم عن ذل السؤال، وتجعل الفرد منهم يعيش عيشة كريمة، لاتحنى رأسه الحاجة ولايذله العوز، فقد جمعوا إلى عراقة محتدهم عزة نفوسهم، ماذا تقول في صهرى إبراهيم؟

: ونـعـم الرجل في كل وجه من وجوه الرجولة ومن أصل يمت إلى أرومة عربية غير أنه «صائغ» ولولا ذلك لطلبت أنا إحدى بناته.

: إذا مادام الأمر كذلك، فلست مخطئاً فيما فعلت!!

: لقد أخطأت خطأ فادحاً، أتعاف بنات عمك وتتزوج ابنه الصائغ!؟.

: إن زوجـتـي خير ممـا ذكـرت!! لم يزد آباءهن عن أبيها شيئاً، إن أباها يتقن صنعة جـيدة، وآبائهن لايتقن الواحد منهم سوى أعمال الفلاحة فقط، وإن داهمته الحاجة وضاقت عليه سبل العيش ركع تحت تأثير العوز وأذل نفسه.

: ابن عمه الأكبر، لقد طفح الكيل «لا والله إلا الرخم دخل البيوت»!؟

لـقـد طـال لـسانك وبدأت تهجم على عاداتنا و«سلومنا» لتبرير فعلتك!!؟أخزاك الله.

: هـذا إنـسـان مـارق، لـقـد ضـرب بـسـمعتنا عرض الحائط، ودَنَّسَنَا بما لايغسله ماء البحر، ولايطهره ماء دجلة والفرات.

: لقد ألبسنا العار والشَّنَار، وفعلته لم يُسبَقْ عليها!؟

: أيها الإخوان، ماذا فعلت حتى تصفونى بهذه الأوصاف؟ وتهولون كل هذا التهويل، لـقـد تـزوجت إمرأة على سنة الله ورسوله، وإذا لم يعجبكم ذلك، فاعتبروها بحكم الجارية التي تشترى وتباع!

: الجـاريـة تـشـترى بثمن معلوم، وهذه إنتهى وقتها منذ زمن بعيد تلك الطريقة التي كـانـت سـائـدة بعد الحروب العظيمة، وسبي النساء والذرارى، وبيعهم بالأسواق، أما الآن فلايوجد أحد يباع ويشترى!؟

: لـقـد حـاولـت أن تعتبروها زوجة لي على الكتاب والسنة فأبيتم، وطلبت إعتبارها جارية فلم توافقوا، والآن إعتبروها كما يحلوا لكم.

: حاولت ... حاولت ... «حَلاَّل..يحل ركبك» لابد أن تخضع للأمر والآ...
: أتهددنى أيها الغِرُّ الصغير!؟.
: إسمعوا يا أبنائي، لم نأت لهذه البرية إلا للتفاهم في الأمر حتى نجد الحل المناسب له، وندفنَ أسرارنا بهذا الرمل، بعيداً عن الناس، ولاداعي للغضب والعصبية.!
: الآن مادمنا في فترة النقاش والتفاهم، بماذا ترى ينتهي الأمر؟
: أرى أن ينهى الموضوع بتطليقها وقطع أى صلة له بها من بعيد أو من قريب.
: أطلقها!؟ ولماذا؟
: تطلقها لأنها ليست من فئتنا و بذلك ينتهى الموضوع.
: إسمح لي يا أبي عظم الله أجرك، ماهو المبرر الذي يجعلني أطلقها وأقطع علاقتى بها؟ أليست زوجتى وأم ولدى؟
: كما قلت لك، إنها ليست منا، ولانحن منها وكفى: يقولها بغضب.
: بَسْ ... ألهذا السبب!؟ مستحيل أن أطلقها.
: تطلقها من «تحت المشعاب»!!ورغم أنفك!!
: أطلق زوجتى وأنقطع عن إبني من أجل رضاكم، وبدون ذنب إقترفته؟

هذه زوجتي، أغلى عندى من عيني هاتين، وإبني أعتبره بُشْرَةُ قلبي فلا يمكن أن أفرط بها، فاطلبوا منى طلبا غير ذلك، أتريدوننى أن أرحل عنكم إلى بلد آخر لاتروني فيه ولاتسمعوا أخبارى، ولا ينقل إليكم المرجفون كل صباح ومساء أنباء عنى، أو تحليلاً وتعليلاً لجزء من مسيرة حياتي، أو أى تصرف من تصرفاتي فإنني مستعد، أما الطلاق فلا أعرف كيف يكون.
: سنعلمك الطلاق كيف يكون بحد هذا السيف.
: إذا وصلت الأمور إلى هذا الحد، فالسيف أحب إلى مما تدعونني إليه.
: إسمع يابني، أنا والدك ويجب عليك طاعتي.
: طاعتك يا أبي على العين والرأس، ولكن في هذا الأمر أرى أن تُحكِّم عقلك، فإن كنت قد إقترفت جرماً وجب عليّ طاعتك، وإن كنت بريئاً إلا من ترهاتٍ واعتبارات واهيه فمن الحق أن أرفض.

: يشتاط غضباً وهو يقول: ليس هناك مجال لحكم العقل، فاختر بين أمرين لا ثالث لهما، إما أن تطلقها الآن، وإما والله لأقتلنك بسيفي هذا، ويمتشق السيف من غمده.

: أتتجرأ يدك على قتل إبنك بنفسك!؟ أوصلت الأمور إلى هذا الحد؟ أجاءت منك يا أبي!؟

: لاتحاول أن تستدر عطف والدك بهذا الكلام، الخبيث، أنت تعرف أن أبي إذا قال فعل!! يقول ذلك وهو يشير بسباتيه إلى عبدالرحيم بعد أن قبض كفه

: يعتزى «أنا أبو فهد» لقد حلفت لك بالله إن لم تنفذ ما أمرتك به لأجدعن رأسك الآن، أيها الإبن العاق.

: عبد الرحيم إفعل مابدالك يا أبي!! أما الطلاق فلا والله لن يخرج من لساني حتى تخرج روحى من جسدي.

: أتقول هذا؟ أكتفوه!؟ وفي ثوان قصيرة أديرت يديه خلف ظهره، وشدوا وثاقه، فقال له أبوه: هذه المرة الأخيرة التي أطلب منك طاعتي.

: وهل أنت جاد فيما تقول؟

: كجدك فيما ترفض!؟

: اللهم إني أعوذ بك من الدّين وقهر الرجال، إذا إفعل ما بدالك، وماذا تقولون أنتم أيها الإخوة وأبناء العم!؟

فهد يتكلم نيابة عنهم، من عصا فله العصا، ومن عق والده فيستحق العقاب.

: ولو لم يقتلك أبي لقتلتك أنا!! لن تفلت من يدى.

: تقصر يمينك عن هذا الفعل!!

: لافائدة من كثرة الكلام، فإما الطلاق من هذا المكان وإما ندفنك في هذا الكثيب جثة هامدة ونكتم خبرك و ينتهي الأمر.

: لن أتنازل قيد أُنْمُلَةٍ عن موقفى، لأننى على حق.

: يرفع سيفه ليهوى به على عنق عبدالرحيم.

: قبل أن تفعل ذلك يا أبي، لي إليك طلبين إثنين لا ثالث لهما و بعدها إفعل ماتريد.

: بعد أن وضع السيف، هاه .. هات.

: الطلب الأول أن تطلقوا وثاقي ، وتعطوني فرصة أخيرة قدرها ساعة من زمان، والثانية أن تسمحوا لي باصطحاب هذا الغزال إلى ذلك النقا.

: لك ما تريد، ولكن نخشى أن تهرب منا؟

: ليس مثلي من يهرب من المصير المحتوم!!

: أطلقوا وثاقه!

وعند ذلك أمسك بالغزال وحل رباطه وأطلقه هارباً يتنزى من بين تلك العروق من الرمال حينما ملك حريته قائلاً له: إذهبي أيتها الريم الغناء إلى حيث تريدين إكراماً لعيون زوجتي التي تشبهك في الجيد والإلتفاته.

ثم ذهب بعيداً عنهم واستند إلى دعص من أحقاف النفود وجلس وكأنه يكتب على الرمل الذهبي ويحفر فيه بأنامله، ولكنه في الواقع لم يكن يحفر بالرمل، وإنما يحفر بما هو أكثر حساسية وأشد ألماً إنه يبقر باظافره عروق ساعديه حتى إذا خرج منها السائل الأحمر بدأ يكتب بدم قلبه ودموع عينيه تلك القصيدة التي خلدت ذكره وجسدت آلامه، وأبرزت معاناته، وقد صب فيها جام غضبه على العادات والتقاليد وأبرز فيها تلهفه على زوجته التي وصفها وصفاً رائعاً دقيقاً، ودعا على البلد التي قسى عليه أهلها بسحاب الغضب، وسيل الموت والدمار، فيما يفوق وصف واصف، وتلاعب بالكلمات في هذا الوصف بإبداع وإتقان، ولما لم يجد من وسائل الكتابة شيئاً يكتب به سرد شريحة من ثوبه الأبيض وأخذ عود يسقيه من ذلك القاني الذي يسيل من شرايينه حتى إذا إرتوى من الدم بدأ يكتب به القصيدة على تلك الشريحة البيضاء، يضع نقطها وفواصلها من زخات الدموع التي تذيب حرارتها أحياناً بعض الحروف الحمراء، ولما فرغ منها أسلم روحه إلى بارئها مع آخر بيت منها تأوه فيه الآه الأخير في حياته، وعندما إستبطأوه، ظَنُّوه يتلهى عنهم أو ربما أنه قد نام دون ان يأبه بهم، فأسرعوا إليه ليجدوه جثه هامدة لاحراك فيها، ووجدوا هذه القصيدة مكتوبة على «بدن» ثوبه فقرأها أخوه فهد بعد أن طلب منه أبوه ذلك وإذا هي:

١٩ يقول التميمي الذي شَبَّ مترف مدى العمر ما شافى زمانه جَاهْ(١)

(١) من آدابنا الشعبية ج (١) ص٢٠٠.

٢٠ يـاركـبْ ياللّى من عُقَيلٍ تقلّلوا	من نجد إلى الريف المريف مِدّاة
٢١ حدروا بنا من جو عِكْلٍ وقوضوا	عـلـى كـل هَـبّـاع يمـد اخـطـاه
٢٢ عـلاكـم بـالـسير لـكـن وصـفـهـا	عـلـى قـطـعة الـبيـدا وكثر اسراه
٢٣ صـريمـة ربـد حـدهـا جـال تيا	على الأرض من عال النبا بوطاه
٢٤ لمـا جـو الـدهـنـا والإنـسـان ماله	مـلاذ ومـايـكـتـب عـلـيـه وطـاه
٢٥ لـقـوا شـادنٍ فـي زربها مـستكنـه	أعـمـاه مـن لـفـح الـسـمـوم ذراه
٢٦ غشاها لذيذ النوم والنوم قد غشا	مـن الـقـوم حـذر وابـتـلوه اعداه
٢٧ قد قلت لإخواني ومثلي ومثلهم	يـشـكـى لـيـا مِـنَّ الـزمـان وطـاه
٢٨ دعوها سبيل كود من ذي فعايله	يجـزى عـلـى فـعـل يـشوف امناه
٢٩ يـاشـمـل يأمامونة الهجن هوذلي	إلـى دار مـن صـعـب على لـقاه
٣٠ دقـاق حجـل أطـراف ياناق وان طرا	عـلـى الـبال زاره من عناه شقاه
٣١ لـعـل قصر حـال بـيـنـى وبـينها	لـنـجـم مـن المـولـى يهـد بـنـاه
٣٢ أبـغـى لـياهَدَّ العِلاَ من قـصورها	تـذهـل عـطـيـرات الجـيوب حياه
٣٣ يـظـهـر عشيرى سالم من ربوعها	هـذاك مـطـلـوب الـفـتـى وامـناه
٣٤ ألا واعنى عينى ليـاريت صاحبى	جَـضـيْع لغيرى واحـترمـت الـقاه
٣٥ سـيـره ممـروع لـغـيـرى ويهـتـوى	وسـاقـيـه مـا يِـنْـحي عليّ بمـاه
٣٦ دع ذاوسـل رب المـلا في مُحَلْتِمْ	سـرى يـفـتح الـظلماء شعاع سناه
٣٧ لـكـن بـأمـر الله تـطـلـق ركـونـه	عـزالـيـه وصـف لـلـسـحـاب إرداه

٣٨ حَـوَارِكـنْ تـبـنـى الـذراعين زجـن — مـن الـريـح زعَّـاجٍ وطـاه سـنـاه
٣٩ وطا ما وطا واللي وطا بعدما وطا — غـطـا مـاوطـار واللـي وطاه غـطاه
٤٠ محـا مـا محـا واللـي محا بعدما محا — محـا مـا محـا واللـي محـاه محـاه
٤١ عـصاما نـصا واللي عصا بعدما نصا — نـصـامـا عطا واللي عطاه نصاه
٤٢ وإن كان لي ظن وهاجوس خاطرى — قـد حـال بين الـبـازمين غـشـاه
٤٣ مـن بـاعـنـا بالهجر بعناه بالنِّيا — ومـن جذ جبلى ماوصلت ارشاه
٤٤ الإقفا جزا الاقفا ولا خير بالفتى — يـتـبـع هـوا مـن لايـطـيـع هـواه
٤٥ خليلي يشادى خاتم العاج وسطه — تـقـول انـفـرج لـولا الَـبـزْيـمَ زواه
٤٦ خليلي خلا قلبي من الولف غيره — عـفـت الأخـلاء والخـدون احـذاه
٤٧ خليلي لوجا البحر بينى وبينه — ذبـيـت روحـى فـوق غـبـة مـاه
٤٨ خـلـيـلـي لو يرعى الجراد رعيته — أهـضـلـه مـن حـشـمـتـه وارضاه
٤٩ خـلـيـلـي لـو يزرع زريع سقيته — مـن الـدمـع لـوزل الـسـحـاب بماه
٥٠ خليلي لو يبرز على الشرَّى ريقه — غـدا سـكـر الـتـاجـر يزيـد اشراه
٥١ خـلـيـلـي لو ياطا على قبر ميت — بـامـر الـولـى حـاكـاه حين وطـاه
٥٢ خليلى معسول الشفاتين فاتنى — كما فـات لـقـاى الـدّلـي ارشـاه
٥٣ كن عن صغير السن حذر ولاتكن — دنـوع لـيـاشـفـتـه بـسـن سـفـاه
٥٤ وإن كـان مـاجاوز ثلاث مع أربع — وعشر فـلا يـشـفـى الـفـؤاد الـقـاه
٥٥ تـعاديه مايدرى تصافيه مادرى — ومـاسمع من غال الحديث حكاه

٥٦ عضيت روس أنا ملى بنوا جذى وقلت آه من حر المصيبة آه

٥٧ لو أن في قول آه تبراعلتى كثرت أنا من ضامرى قول آه

وهكذا ترك عبدالرحيم هذه الحياة الدنيا ولفظ أنفاسه الأخيرة مع هذه الآهات المتتالية، بعد أن ترك هذه القصيدة يرن صداها في مسامع الصخور و يتغنى بها الركبان، تجسد أبلغ المعاني سواء فيما يختص بزوجته أو مايختص بمن قسوا عليه وعاد فضل وأبناؤه بعد أن خسروا واحداً منهم نتيجة تعصبهم الأعمى نحو عبدالرحيم.

* * * *

٢١ ـ استخففت بشجاعته فأثبت جدارته*

على المحك يتضح جوهر الأشياء، وعند الصقل يتوهج لمعان الماس، وكذا عند الحاجة تبرز خلائق ومناقب الرجال، وتشتعل ذروة الشجاعة، والمغامرة والإندفاع لدى الأبطال، وبكلمة إستثارة، أو بيت شعر يدفع البطل في نفسه إلى صلونار المعارك، وغبار المهالك، ولاسيا إن كانت هذه الكلمة أو الجملة أو البيت صادراً من الجنس اللطيف المعجب به، وبالأخص إذا كان مصدرها من فم محبوبته، أو من هو معجب بها، فإن لهذا المصدر قوة تفجير خاصة، تجعل دوى صوتها يتغلغل في أعماق جنانه، ويكسبه قوة هائلة يندفع من تأثيرها بأقصى عنفوان يستطيعه، ليحقق الهدف الذي يستقطب إنتباهها أو يحوز على رضاها، في وقت كانت النساء يشتركن في تجهيز المحاربين بكل مايحتاجونه في مهمتهم، ويودعنهم عند المسير من أهلهم. سواء كانوا في بيوت الطين أو بيوت الشعر، وربما يشاركنهم في المعارك إن حصل غارة على مضرب من مضاربهم، وقد يطوحن لهم بالأصوات لبث الحماس والنخوة فيهم، وقد يرددن الأهازيج التي تدفعهم إلى قلب المعركة بكل تفان وثبات، ويشرفن بأنفسهن على نتائج المعارك فَيُقَلِّبْنَ بأيديهن السَّلَبَ، ويمرضن الجريح ويداوينه، ويعزين أهل الفقيد، فكانت المرأة تسير جنباً إلى جنب مع الرجل في أفراحه وأتراحه، وبطبيعة الحال فالعرب الرحل يجوبون قفر الرياض، ويجوسون خمائل الطلح والعرعر والسدر في فصلى الشتاء والربيع، حتى إذا أقبل الصيف ألفيتهم قد اتجهوا إلى أماكن تواجد المياه من آبار معروفة، وموارد ومناهل مؤكدة، وقرى مشهورة، فإذا وصلوا إلى القرى وجدت كل واحد قد ذهب إلى رفيق له من الحضر أهل البساتين، ونصب بيته أو بيوته قُبَالَة بستان صاحبه، يرتوى من الماء لبيته بالقِرَبِ التي تحملها النساء على ظهورهن من ساقي البستان، وتبقى أغنامه وإبله تسرح وتروح على بيته في هذا المكان ترتوى من مشرع رفيقه، حتى إذا حان موعد الرطب منح صاحب البستان رفيقه منيحة أو أكثر من نخلة يخرفون من رطبها مايتمتعون بلذة مذاقه طيلة فصل الصيف ومن عادة العرب الرحل أنهم لايتقنون صعود النخل لإلتقاط الرطب

* قصة بداح بن بشر العنقرى وقد حدثت حوالي عام ١١١٩هـ.

فيستعينون لهذه المهمة برفاقهم من الحضر كنوع من إكمال المعروف نحو رفاقهم، و يبقى صاحب البيت مع رفيقه أو رفاقه يجتمعون في كثير من الأوقات في زيارات متبادلة من بيت لآخر، سواء أكان من البادية أو الحاضرة، في هذه الجلسات تدور بينهم الأحاديث والمسامرات والمبارزات الشعرية وتضرب بهم كل مضرب و يستمر هذا الوضع طيلة أشهر الصيف وأوائل الخريف، حتى إذا ناض بارق «الوسم» وجاء الركبان بأخبار نزول الغيث على أرض ما، تقاطرت تلك الأظعان قاصدة ذلك المكان طلباً للكلأ والمرعى، في هذا الجو عاش «بدّاح» أميراً في قريته يتصدر المجلس و يُرْجَعُ إليه في الرأى لكثير من الأمور، يتزعم الجيش والرجال المحاربين المدافعين عن كيانه الصغير و يذودون عن حماه، يقود الغزو إذا أراد إكتساح نزل من النزل القريبة منه والفوز بغنائمهم كنوع من تأديب من إعتدوا على مواشى أهل قريته، أو من يعلم أنه يُبَيِّتُ له أذى، فيباغته لكسر شوكته واتقاء شره قبل أن يهاجمه، وهكذا دأبه منذ أن ورث هذا المكان بعد والده وهو في العقد الثاني من عمره، وعندما انتصف العقد الثالث نزل بجواره في صيف ذلك العام أحد رفاقه وهو عقيد عشيرته أيضاً، وبقى عنده طيلة شهور الصيف، وكما هى عادة القوم تحت تأثير ظروف البيئة السائدة آنذاك، كان الرجل إذا مر بالنساء يسلم عليهن من بعيد إمَّا بإشارة من يده، أو بسلام السنة و يرددن عليه السلام بكل عفة ونظافة طوية، وحسب تأثير ظروف المرأة آنذاك حيث تقوم بنصيب كبير من العمل، كإحضار الماء والحطب وتحضير اللبن، وطحن الطعام وتجهيزه وغير ذلك من الأعمال التي تنوء بها، في هذا الوضع يراها الرجال محتشمة بطبيعة الحال، وتراهم هى كذلك من وراء الخمار أو البرقع، ويحدث أن تستعين المرأة بأحد المارة ليساعدها على حمل قربة الماء على ظهرها، أو «جُنعة» الماء على رأسها، أو حزمة الحطب يرفعها على رأسها كذلك، ليس هناك أي بأس أوربية من هذا العمل، و يأتي ذلك لعدم تعرض أحد من الرجال للمرأة بسوء سواء بالكلام أو الفعل، وعندما خرج بداح من باب بستانه شاهد على جورة الماء فتاة فارعة الطول، عبلة الجاسد، بضة الكفين، فاتنة الملامح، فطلبت منه أن يساعدها على حمل قربة الماء فوق ظهرها، فديده وساعدها كالمعتاد، وما إنْ رأى ذلك القوام الرشيق المتناسق يتهصر تحت تلك القربة الكبيرة من الماء حتى وقع في قلبه منها ما وقع، وهو في تلك اللحظة لا يعرف إبنة من هذه الفتاة؟ فوقف مشدوها ينظر إلى

ذلك القوام يتثنى في تموجات مثيرة، وفي موقفه هذا جاءت عجوز لتملأ قربتها من نفس الساقي فوجدته يسرح طرفه في مدى الأفق، يتابع ذلك الزول الذي علق بذهنه عند ذلك سألته.

: مالك ياأبابشر أراك سارحاً في نظرك؟ هل ضاع لك شئ؟
: هاه...لا، لا لم أفقد شيئاً يا أم فلان، وإنما... (يقول ذلك وهو يبتسم).
: وإنما ماذا؟ يبدو لي أنك قد فقدت شيئاً؟
: حتى الآن لم يحدث أي شئ!! إنما مجرد نظر إلى الأفق الرحيب!
: أعَليَّ يا أبابشر!؟ هذه العنود التي علقت عينيك بها ستراها مراراً وتكراراً.
: آه...ياشمطاء!! ومن تكون تلك الفتاة؟
: إن لم يخطئ ظنى فإنها إبنة شيخ العرب الذين نزلوا يوم أمس.
: أهى إبنه الشيخ فلان؟ لم أعهد عنده بنات بهذه السن عندما نزل بقربنا قبل ثلاث سنوات.
: اهَّيْه ... قبل ثلاث سنوات!! الفتيات عند سن النضوج يمسين بلون، ويصبحن بآخر.
: ماحسبتها تكون بهذا الشكل!! لست مصدقا!؟ هيه ... أصلحها الله.
: آه .. «نحرها نَجّار الشباب»!! هيا إرفع معي القربة على ظهرى.
: لن أفعل ذلك حتى تعدينى أنك ستأتينى بالخبر اليقين عن تلك الفتاة.
: سآتيك بالخبر غداً إن شاء الله «بس شل علي»
: يساعدها على رفع القربة على ظهرها وهو يقول بلهجة لاتخلو من الدعاية إية ... « خَلَق وفَرقَ»!!
: يلسع سمعها صدى هذه الجملة فتقول بنبرة التحدى «ياماكنت أحسن منها»!؟
: لاأظن ذلك!! يقولها بنغمة مجرورة وبصوت يخرج من الأنف.
: لايغرنك «زَمَّةُ شَبَابها» ستصير مثلى إن عاجلاً أم آجلاً.
: لا تنسى ماأوصيتك عليه!!
: أبشر..

وتـذهـب العجوز حاملة القربة على ظهرها معلقة فى رأسها، و يسرع بداح إلى مجـموعة مـن الرجـال عـنـد أحد جيرانه لتناول القهوة، وعندما دخل عليهم نهض الجـميع تاركين له صدر المجلس على بساط من و بر مستنداً الى أر يكة محشوة بثمر الطَّرْفِ، تبادل القوم وجهات النظر مع فناجين القهوة حول بعض الأمور التى تهم القر ية وسكانها، ومن ضمنها أعداد النُزُل التى ضر بت حول القر ية وأسماء رؤساء تـلـك العـشائر، وماجلبوه معهم من المنتجات الحيوانية والإبل والأغنام التى جلبت فـى سـوق الـقـر يـة، ومعدلات الأسعار، وما إلى ذلك، هذا ماكان من بداح، أما عـمشاء فبمجرد وصولها إلى بيتها ألقت بقربتها، وأخذت مغزلها مع وشيجة الصوف وذهـبـت إلـى الـنـزل الـذى ذهـبت إليه الفتاة متعقبة أثرها، متتبعة أثر الماء الذى يـنـضـح مـن قـربتهـا، حـتـى وصلت إلى بيت أهلها، عند ذلك سلمت على أهل الـبـيـت ودخـلـت إلى القسم الخاص بالنساء «الحجير» حيث وجدت الترحيب من صـاحـبـة الـبـيـت وابنتها فأجلستها على فراش من «العِدْل» ودارت الأحاديث مع دوران المغزل فى يدها فضر بت كل اتجاه، ومن خلال هذه الأحاديث عرفت تلك الشمطاء إسم البنت وإسم أبيها وأمها وتأكدت من مركز ومكانة أبيها بين عشيرته، ونـقـلـت لهـن بـدورهـا أخبار البلد وأسماء العشائر التى قطنت قرب هذه المياه، ولم يمـضى أصيل ذلك النهار حتى عرفت كل شيً جاءت من أجله، ومع حلول الظلام كـانـت قـد أنهت لـفافة الصوف التى جاءت بها وصَيَّرَتها خيطا واحداً ملفوفاً على مـغـزلهـا حـيـث لم يـذهـب وقتها هباءاً، كما إقتبست جميع المعلومات التى تر يدها، ورتبتها فى شر يط واحد من الأنباء ستوصلها إلى بداح عندما تصل إليه بعد صلاة المغـرب مـبـاشـرة، حيث إتجهت الى منزله تتعثر فى نؤى الحصيدة ، وتكاد أن تطأ أطـراف ثـوبـهـا بين الحين والآخر، وما إن خرج بداح من المسجد بعد صلاة المغرب قـاصـداً مـنـزلـه حـتـى استوقفته فى الطر يق لتدلي له بكامل المعلومات التى وعدته بهـا، وأهم شيً لديه هو معرفة تلك الفتاة، ومن هو والدها؟ أما بقية التفاصيل فقد طـلـب تـأجـيـلـهـا إلى يوم غد، نظراً لأن لديه ضيوفا سيلحقون به بعد الصلاة ليتم تـقـديم العشاء لهم، وهنا طلب منها أن تتفضل لتناول طعام العشاء مع نسائه لكنها إعـتـذرت لأنها ستذهب لحلب شويهاتها وإفترق الإثنان كل إلى حال سبيله على أن يـتـقـابـلا مـرة أخرى، وفـى الـصـبـاح الباكر من اليوم الثانى حضرت عمشاء إلى

المشرع تحتضن قربتها وجلست عند الساقي تنتظره حتى خرج، فأسرت فى أذنيه بعض التفاصيل التى رأتها فى تلك الفتاة «جوزاء» وتحتوى على أوصافها ومحاسنها، وبهذه المعلومات ألهبت لديه لواعج الشوق وشدته إلى التطلع إليها والحرص على رؤيتها، ومع مرور الأيام قدرآها أثناء مجيئها لطلب الماء، وأحيانا عندما تأتى لتفقد رعية الغنم عندما تكون على المشرع كعادة بعض فتيات العرب، وعندما إمتلات عيناه منها رغب فى خطبتها من أبيها، ولكنه إمتنع عن ذلك على إعتبار أنهم بمثابة الضيوف عنده أثناء إقامتهم، ولم يكن مفضلاً عند العرب أن يخطب الإنسان من ضيوفه، بل لم يكن مستساغاً حتى طلب أبسط الأشياء من الضيف منذ القدم، ولذلك نأت به شيمته أن يتقدم إلى أبيها بخطبتها فى هذا الوقت، واكتفى بالتلميح من بعيد ليجس نبضه فيرى ما إذا كان لديه قبولاً أم لا؟ فلمس منه عدم الممانعة فى ذلك بنفس مستوى تلميح الرجل، ومن ثَمَّ عقد العزم على إرجاء الموضوع حتى ينزحوا إلى منازلهم فى وقت الربيع ثم يلحق بهم، وتكون خطبته حسب الأعراف والتقاليد المرعيه، و يصبح لها طعمها ومذاقها، وخطر بباله فى هذه الاثناء أن يجس النبض بالنسبة للفتاة نفسها، فأوكل هذه المهمة إلى صديقته العجوز عمشاء، وإستدعاها وأغدق عليها الأعطيات من الطعام والفاكهة والكساء حتى طار لُبُّها وجعلها تسرع فى المهمة التى أوكلت إليها، وتتفنن فى إيجاد الأوصاف المغرية وإبراز الصفاة الجذابة لمن أرسلها حتى تتمكن من إنتزاع موافقة الفتاة وأمها عن قناعة ورضى، فلبست من فاخر الملابس التى أهداها إليها من نوع الحرير الموشى بخيوط الذهب «وريسى» وإن كان لايناسب سنها، إلا أن تلك الشمطاء قد تصابت لغرض فى نفس يعقوب، وملأت زنبيلاً متوسط الحجم من بعض أصناف الفواكه والطعام التى أهديت إليها، وحملته على رأسها قاصدة بيت أهل الفتاة، وعندما وصلت البيت ترفل بثوب الحرير الذى نصبت منه طعماً لتلك الفتاة، بادرتها شاهة صاحبة البيت:

: ما شاء الله..، تبارك الله، من هذه؟ تقولها وكأنها لاتعرفها، هَهْ..؟ أم فلان!؟ ماشاء الله لقد رجعت فتاة فى العشرين من العمر!؟

: لقد أكثرت فى عمرى سامحك الله!! آه ساعدينى على إنزال ماعلى رأسى.

: ماذا فى هذا الزنبيل الثقيل؟

: إنه قليل من طعمة هذا الرجل الخيِّر!!

: من هو؟

: ألا تعرفينه؟ هذا الجواد الذى بلغت هباته وعطاياه كل من وطأ فى أرضه إنه بداح!!

: ونعم الرجل، إننى أعرفه فهو رفيقنا الذى تشرب مواشينا من بئره، وصحبته لنا قديمة منذ ثلاث سنوات خلت، كثر الله خيره، ماشاء الله ماهذه الفواكه و«ٱلْمَيْوَات» إننى لاأعرف بعضها!!

: إن هذه شماريخ البلح، وهذا الرمان، وترفقى بهذا التين الناضج إنه لايتحمل الضغط عليه بقوة، أما ماتحته فبالطبع تعرفينه إنه حب الحنطة.

: نعم هذا أعرفه، أيمكن أن أتذوق بعض ماجئت به؟

: نعم تفضلى، وهل أحضرته إلا لتذوقوه، وهنيئاً مرئياً!!

: ماأحلى هذا البلح!! إننى لم أذق فى حياتى أحلى منه، وهذا التين ما ألذ طعمه، وأطيب نكهته!! فكيف يجنونه الحضر؟ هل يجدونه فى خد الأرض كما نجد الكمأة؟

: لا، ياأخَيَّة، أنه ثمر شجر كبير ينمو بداخل البساتين و يؤتى أكله فى هذا الموسم.

: ليتنا نملك بستانا مليئاً بهذا الشجر «يازين طعمه زيناه»!! وتنادى إبنتها، ياجوزاء أسرعى إلينا لايفوتك ماجاءت به أم فلان من التين والبلح والرمان.

: لبيك ياأماه، وماذا لديكن؟ وتقترب فترى الزنبيل المملوء وتناولها والدتها مما فى الزنبيل، وتأخذ من كل نوع حبة واحدة وتمسك بها بيديها، وعيناها مشدودتين إلى الفستان الذى ترتديه عمشاء، تحدق النظر فى النقوش المطرزة على أكمام الثوب وجيبه، وتندفع بلهجة لا تخلو من الدَّهشة، ومن أين لك هذا الثوب ياعمة؟

: بعد أن رمقتها بطرفها، وهى تحاول أن تظهر ماخفى من نقوش الثوب قبل أن تجيب على السؤال، فتقول متباهية، هذا يعتبر من النوع الذى يهدى للعجائز أمثالي من كف هذا الجواد الكريم!!

: من ذا الذى يهدى مثل هذا الثوب؟

: ألا تعرفينه يابنيتى!؟ إنه بداح!!

: بداح رفيقنا!؟

: نـعـم، إنه هو!! والله يابنيتى إنه لنعم الرجل، أمير قومه جواد كريم، وفارس مغوار، وشاب فى إكتمال الشباب، فكم فتاة تتمناه!!

: لقد رأيته، ونعم الرجل، أليس هو أبا فلان!؟

: بلي، يابنيتى!!

: ونـعـم .. تـقـول ذلـك وتـفـكـيـرهـا مـشـدود بهذا الثوب، تتلمسه باصابعها، وتتابع تعرجات التطريز بالخيوط الذهبية، وتسقط حبة التين من يدها دون أن تعبأ بها.

: مـالـك يـابـنـيـه؟ أسـال لعابك عند هذا الثوب؟ إن لديك ثيابا أجمل منه بأشكالها وألوانها ونقوشها!!

: «سلامة روحك» يـاأماه!! صحيح إن لدى ثياب جديدة ولكنها ليست مثل هذا «عَانِيْه يَمّهْ» إن نقوشه تسلب القلب، إنه يلصق على الجلد من فرط ليونته!!

: لقد «ذابت» البُنَيَّة عند هذا الثوب، كلى من هذه النعمة وأتركى عنك الثياب.

: دعيها تـشـبـع نظرها منه فلربما لن ترى مثله إلا عند زوجها فيما لو تزوجت حضرى مثل بداح.

: الله المستعان، لكل حدث حديث، قربى كلى من هذه الفواكه.

: هنيئاً بنفسك المفتوحة للأكل ياأماه!! لقد سُدّتْ شهيتى عن الأكل!!

: أتريدين أن تقيسيه على نفسك؟ فإن ناسبك فهو لك هدية منى.

: معـاذ الله يـاعـمـة، أنـا آخذ ثوبك؟ أشكر لك صنيعك، وعسي أن تُبْلِيْه بالعافية، ولايلبس من بعدك.

: إنه لن يناسبها «بسم الله عليها» إنه لن يأت إلى ركبتها!!

: سيـأتيها مـن يُلْـبِسُها الثياب التى تناسبها، من هذا النوع وأفضل منه، وعند ذلك رأت الإجابـة فـى عـيـنـي جوزاء وشفتيها وكأنها تقول آمين، دون أن تتكلم ببنت شفة.

وطـلـبـت عـمـشاء الإنصراف إلى بيتها بعد أن أفرغت صاحبتها مافى الزنبيل، وملأته بالإقط كما هى العادة آنذاك وذهبت من عند شاهة وابنتها وهى تشعر بأنها

وضعت الحجر الأول فى الشباك، وذلك حينما رأت جوزاء تتابعها بنظراتها إلى أن اختفت فى البيوت.

* * *

ونقلت لبداح خطتها التى بدأت بتنفيذ أول خطوطها، فسره مافعلت وحثها على إستكمال مهمتها حتى تعرف وجهة نظرها نحو الموافقة على زواجه منها، ثم عادت العجوز مرة ثانية وثالثة، وفى كل مرة تحمل معها شيئاً من الهدايا، وترتدى ثيابا غير التى سبق أن لبستها وتخبرهن أن هذه من أفضال بداح عليها، حتى حصلت على موافقة الفتاة وأمها على الزواج من هذا الرجل الذى تلك صفاته، فهو يناسب لمكانتها الإجتماعية، إذ أنها إبنه شيخ العشيرة، وهو أمير بلـــده وعقيد قومه، وإن كان من قبيلة أخرى لكنه كفوءاً لها، وقد نطقت أمها بصريح العبارة أنها تتمنى أن تكون أبنتها عند شيخ مثل بداح تنغمس فى نعمته، وتعيش فى ظلاله الوارف، أما البنت فكانت موافقتها تتمثل باغضائها الطرف، وجملة واحدة هى «رأيي من رأى أهلى» وربما فضلت النطق ولكن منعها الحياء، كما هى عادة الفتيات يومئذ ونقلت عمشاء هذه الإنطباعات إلى بداح، فضمن الموافقه من جميع الأطراف، وأجاز العجوز التى سبرت له غور النساء بطريقتها الخاصة جائزه مرضية، وفى ذات مساء بعد أن تفرق السُّمَّار من حلقتهم خارج سور القرية، وتحت أشعة القمر الفضية، بقى بداح مع أحد أصدقائه جاسر بعض الوقت، وكأنه يودلو تمددت فترة السهرة لزمن أطول، حيث تلحلح على تلك الأرض اللينة فوق نُؤي بارز مما دعا رفيقه أن يسأله.

مالي أراك يا أبابشر وكأنك لاتريد أن تسرى هذه الليلة؟

: لقد طابت لي هذه الليلة القمراء التى تشبه النهار، فلقد خنست نجوها، وبقيت صفحة السماء، كأنها طليت بأشعة القمر الفضية أليس كذلك؟ وهذا الهدوء الرائع الذى يخيم على جو هذه الليلة، وتلك النسمات العليلة التى تصافح أنوفنا بين الأونة والأخرى حاملة معها أريج البساتين ولقد إستسلمت لهذا الجو الممتع، ولهذا السبب لاأرغب الدخول إلى المنزل الآن، فضلاً عن أننى لاأرى لى رغبة فى النوم، فإذا لم يكن هناك إحراج لك، ورأيت البقاء معى قليلا، فإننى أرى ذلك

معروفا منك.

: ماأبركها من ساعة؟ من ذا الذى يحصل له طيب حديثك وبهجره؟

: هذه «هقوتى» فيك.

: ولكن ما الذى يشغل بالك حتى يجافى النوم جفنيك؟ أعندك نية فى غزوة؟ أم وجدت خبراً عن أعداء يبيتون لنا شراً؟

: لاهذا، ولاذاك، ولكن هناك ماهو أصعب من الغزو، وأقسى من تربص الأعداء!؟

: خيراً إن شاء الله، وماعساه أن يكون؟

: إنها لواعج الشوق، وحواجز التقاليد!! يقولها بنغمة شجية.

: أفصح لي عما تقول، كلامك كلام العاشق الولهان!! إن صدق حدسى!؟

: لم يبلغ بى ماذكرت، ولكنه غير بعيد عنه.

: من هذه المحظوظة التى ملأت عينيك ووقعت فى نفسك؟

: واحدة من بنات حواء!!

: أمن بلدنا، أم من غيره؟

: يسرح طرفه فى السماء قليلا وكأنه لسان حاله يقول:

٥٩ جَـوٌّ جَـمَـعْ من كُلٍّ سَمْوَا بِدِنْدَة وَجَانْ اَلبَلَـى مِنْ ذَيْهَبانِ التَجُوعى

ثم يقول: بل هى من تلك البدويات اللاتى تربين على حليب الأبكار فزاد أجسامهن تناسقاً ورشاقة، لاتجدها فى كثير من الحَضَريات!

: وهل أعجبتك رشاقة جسمها؟ إنه يوجد بين الحضريات من تشبه غصن الموز فى إستقامته، وعود الخيزران فى تثنيه!!

: لم يكن جسمها فقط، وإنما هي كاملة الأوصاف.

: بربك من تكون هذه؟

: إنها إبنه الشيخ فلان.

: آه .. لقد ذكرت لي بأنها من أجمل الفتيات.

: لاخبر بعد عين، لقد رأيتها بنفسى.

: إذا كانت قد راقت لعينك فلماذا لاتخطبها؟ إنك لفارسها المنتظر!! ولن يمانع أبوها من تزويجك إياها!
: وأنا متأكد من ذلك، ولكن......؟
: وما الذى يمنعك من هذا؟
: تمنعنى منه شيمتى، وكرامتى، أنت تعرف أنهم بمثابة الضيوف عندنا بمنزلهم هذا، ومن العيب أن تطلب من ضيفك أدنى شيء فضلاً عن أن تطلب منه يد أبنته، أليس كذلك؟
: لقد غابت هذه النقطة عن ذهنى، إن معك كل الحق، وهذه من ميزة صناديد الرجال الذين يحسبون حسابا لكل خطوة يخطونها.
: من لم يحسب حسابه فى كثير من الأمور فسوف يعرض نفسه للمهالك.
: ومتى ستخطبها إذاً؟
: إذا رحلوا من عندنا فى «الربيع» القادم، واستقروا بمكان معين ذهبنا إليهم، فهذا الوضع أنسب وأفضل، والمرأة دائماً يسعى إليها الرجل ولا تسعى إليه، منذ عهد أبينا آدم عليه السلام.
: ولكنك ممن يُسْعَى إليه، و يطلب التقرب منه.
: كل إنسان يرى فى نفسه ما أراه فى نفسى وإنى صاحب الحاجة!!
: وهم كذلك لهم شرف القربى.
: دعهم وشأنهم، فهم حتى الآن لم يشعروا بما يعتلج فى نفسى.
: المستعان بالله!! متى ينتهى فصل الصيف و يظعن العرب الى مضاربهم؟
: ماأسرعها على الحي، ياجاسر!
: أهنئك على سعة البال، وطول النَّفس!!
: وهل أنا غريب عنك؟
: أبداً، أبداً، ولكن لو أننى فى ثيابك لما صبرت إلى ذلك الوقت، إن كنت محقاً فيما تقول؟
: آه.. هذا هو الفرق بينى و بينك، محق وز ياده!! ولكن.

ماكل مايتمنى المرء يدركه   تأتى الرياح بما لاتشتهى السفن!

فمارأيك بهذه الليلة الصافية؟ إنها تذكرنى باشياء، وأشياء!! وأنت، ماذا تحمل لك من الذكريات ياجاسر؟ يقول ذلك وهو يسرح نظره فى السماء.

: أما إذا سألتنى عن ذكرياتها، فهى تشدنى إلى عدد من الذكريات منها، سياق السوانى، وحش العرفج والنَّصِي فى بعض السنين، وفى ليلة مقمرة كهذه، ولكنها شاتيه، صدنا وجمعنا فيها الجراد، وبدأنا بالتقاطه حينها كان لايستطيع حراكاً من شدة البرد، وكأننا فى وضح النهار، فعبأنا منه رُزَماً كثيرة وملأنا منه غرفا بكاملها أتذكر تلك السنة يا ابابشر!؟

: إننى اكاد أذكرها، لولا ماغطاها من ذكريات أهم منها، تتعلق بالسير والسرى، وقطع الفيافى والقفار فى الغزوات، والإختفاء عن أعين القوم المهاجين فالقمر يفضحنا بنوره ويجعلنا عرضة للمخاطر، حتى إذا غاب القمر عدونا تحت جنح الظلام أو تسللنا إلى مواقع مهمة نكمن فيها لعدونا، وفى ليلة مثل هذه الليلة، كنا قاصدين فريق من العرب لغزوهم، ولم نعلم إلا من رقيبنا الذى أطل من فوق ذلك الأبرق، فرأى الإبل الوضح قد أمرحت فى تلك الفيضة من تحتنا، وقد هدأت فى مباركها، وكأنها المَرْوُ يلوح من بعيد على ضوء القمر، فعندما أخبرنا الرقيب، أرسلنا حائفاً ليسبرها، فلم يجد معها راعيا، أرسلنا واحداً منا ليتعرف على وسومها، فوجدها غفلاً سوى من وسم غامض لايعرفه مع أن الرجل الذى أرسلناه خبير بمعرفة الوسوم فى نجد كلها، وعند ذلك ذهب فرساننا يمينا وشمالاً لاستطلاع ماعسي أن يكون حولها، فلم يجدوا أحداً، وبعد ذلك إستقناها وعدنا بها إلى أهلنا غنيمة دون أى عناء أو مشقة، وعدلنا عن غزوتنا تلك، وكلما تكررت ليلة قمراء كهذه ذكرتنى بتلك الأذواد الوضح التى غنمناها.

: إننى أكان أذكرها ولكنى نسيت فى أى سنة حدثت؟ لقد حدثت قبل مايزيد على أحد عشر عاماً «عام الربيع الطيب»!!

: إنها ذكرى لها مكانتها، وهل هناك أخرى مثلها؟

: آه.. كثيرة هى الذكريات!! وذات ليلة مماثلة ذهبت ومعى احد أصحابى لسبر فريق من العرب تحت جنح الظلام، فتركت رفيقى خلفى، وأتيت أَخَايِلُ البيوت مع مجارى الشعاب، مخافة أن تهرنى كلابهم فينكشف أمرى، وكان هدفى من

ذلك معرفة بيت عقيد القوم لآخذ سيفه الذى غالباً ما يكون معلقاً فى عمود البيت، وربما إقتدت فرسه إن وجدتها غير محددة، حتى إذا أغرنا عليهم مع الفجر لم يجد سلاحه الفتاك وفرسه الأصيلة، وعندما نامت العيون، وخيَّم السكون، أتيت أسحب نفسى منبطحاً على الأرض، من بين أشجار الرمث والغضا لايرانى أحد، وعند إقترابى من البيت الموالى، بحوالى مئتى ذراع، بزغ القمر من الشرق، فألقى بأشعته على الأرض فكثت قليلا للاستراحة، وإذا بإمراة تخرج من نفس البيت لبعض شأنها، فرأيت القمر ساطعاً على غرة وجهها، وواللّه لقد تساوى عندى وجه القمر وصفحة جبينها، ثم عادت دون أن تعلم بى، فقلت فى نفسى، حرام علينا أن نفزع مثل هذا الوجه، ونروعه، وواللّه لن يذورهم منا ذائر إكراماً لهذا البدر السائر على الأرض، وسحبت نفسى عائداً من حيث أتيت وقلت لصحبى إن هؤلاء القوم لاقبل لنابهم، وضربنا عنهم إلى وجهة ثانية.

: تستأهل... إنها لذكريات حالمة .. زدنا ياأبابشر!!

: ألم يأتك النوم؟ ألا تسمع سائق السوانى بدأ ينضح الماء؟

: أوه .... واللّه إنك لعلى حق، إذا تصبح على خير ليأخذ كل منا قسطا من النوم قبل أذان الفجر وموعد الصلاة.

* * *

ومرت الأيام، وانقضى فصل الصيف بعد أن لاح بارق «الوسم» من بعيد، فحانت لحظة الرحيل، وما أصعبها من لحظة، وبصفة خاصة على قلوب المحبين الذين لايستطيعون التنفيس عن أنفسهم بالشعر المبتذل، ولا يريدون أحداً أن يعرف مايدور فى أذهانهم، نظراً لمكانتهم الإجتماعية، أمثال بداح، وعندما رأى أظعانهم قد تقاطرت فى طريقها إلى المكان المقصود، إستند إلى سارية البستان يودع تلك الأظعان بطرفه، ولسان حاله يقول:

٦٠ البدوهم اوظعينهم عذ بوابى — هنيت قلب لاعرفهم ولاجوه

٦١ شدوا ومدوا بالغزال العجوبى — ياليتهم من جملة الحضر خلوه

ثم رحل رفاقه بعد أن تمتعوا بموسم رطب ممتاز حيث أغدق عليهم من أصناف التمور كعادته، ماجعلهم يخجلون منه، و يريدون مجازاته بأى شيء يطلبه من النياق والجمال لغرض إستخدامها كسوانى، لكن لديه مايكفية منها، و يغنيه عن طلب أى شئ من رفاقه الذين نزلوا عنده طيلة فصل الصيف، وأكلوا من ثمار فلاحته، مناطاب لهم، وحملوا معهم من أحمال التمر ما أوقر إبلهم، لقد ذهبوا فى طريقهم إلى البرارى والقفار حاملين معهم أغلى شئ لدى بداح، لقد ذهبوا بلبه رهن تلك الفتاة الفارعة الطول، الذى تعلق قلبه بها منذ أن رآها لأول مرة، وما إن غابت الأظعان خلف سمت الأفق حتى عاد إلى مجلسه، وكأنه يحدث نفسه بهذه الأبيات:

خصيتهم بالشوف شوف الذريفى　　ليـامـا غـداتـال العرب ذهبانى([1])

وحولت من راس الطويلة معيفى　　ولانـى لمـرصـوف الثمـان ارجـوانـى

ولما إستقربهم المقام بمكان يعرفه على مسيرة ثلاثة أيام وما إن وصلوا إلى مكان نزول المطر، ومنابت الكلأ حتى خطر بباله أن يذهب إليهم ليخطب جوزاء من أبيها، كما كان يحدث نفسه منذ أمد بعيد، لكنه أرجأ الموضوع مرة أخرى حتى ينتهى من حرث الزرع لذلك العام إذ أن موسم الحرث على الأبواب، وهذا الموسم يحتم عليه البقاء مع عماله ومعاونيه لزرع القمح والشعير بالمساحات التى يراها، وعند الإنتهاء من الزرع وجد عنهم خبراً أنه قد إرتحلوا إلى مكان آخر، ثم دخل عليهم فصل الشتاء ببرده القارس فى ذلك العام، فأجل السفر مرة أخرى حتى تنقشع موجة البرد التى خيمت عليهم تلك السنة، وأثرت على نبات الأرض لولا مانفح الله به الأرض من هواطل السحب التى أعادت إلى العشب حيويته ونشاطه، وعندما أطل الربيع بابتسامته المتمثله بزهوره الفواحة، ونسماته المنعشه، إنسابت معها إلى نفس بداح ضرورة إستكمال الموضوع الذى شغل باله منذ الصيف الماضى، وعند ذلك إستدعى غلامه جوهر.

: جوهر، عليك أن تجهز لنا الحصان الفلانى والفرس الفلانية ولتكن رفيقا لي يوم غد!
: سمعاً وطاعه.

(١) شرح الأبيات مع كامل القصيدة فى موضع آخر من الكتاب.

ومع إطلالة خيوط الفجر كان الغلام قد جهز الخيل بكل مايلزمها وبعد أداء صلاة الفجر إمتطى بداح وغلامه جواديهما متجهين إلى وجهة لايعلمها الغلام، بعد أن توشح كل منهما بسيفه وحمل رمحه، وطفحت بهما الخيل تجوب الرياض المطفلة وتمخر الفياض المُخْضَلَّة، ولم يحن موعد صلاة العصر إلا وقد وصل بداح وغلامة إلى بيت رفيقه بجاد، حيث وجد الترحيب الحار، والفرحة الغامرة، وطفق شيخ العشيرة منذ لحظته فأمر غلمانه بنحر الجزور وذبح مجموعة من الخراف إكراماً لضيفه العزيز، الذى حل بحقهم من الأرض، ثم عاد إلى رفيقه الذى أخذ مكانه فى صدر المجلس كعادته، وقد إرتديا الجديد من ملابسها وفوقها الجوخة، تجللها «العباءة» قد تمنطق بحزام خنجره الذهبى، وقد تدلى من فوق صدره ظفيرتان غليظتان من شعره، وبرز بجلسته تلك بمثابه الحاكم البارز بين الجالسين، وقد لفتت طلعته تلك أنظار نساء الحي، وبصفة خاصة الفتيات، ولاسيا أن معظم نساء النزل قد تجمعن فى بيت شيخ العشيرة ليساعدن نساءه على تجهيز تلك الوليمة الكبيرة التى أعدها بجاد لضيفه، فانسابت النظرات من فوق عارض البيت، ومن خلال عِنَّتِهِ، لالتقاط نظرة وأخرى قبل غروب الشمس لهذا الضيف الذى بهر أنظارهن، وقد أمضى بداح اصيل ذلك اليوم وسط أجمل آيات التكريم، وأطرى كلمات الترحيب من رفيقه بجاد، مع إدارة القهوة بين الحين والآخر طيلة هذه الفترة وبعد أن أدى الجميع صلاة المغرب ثم صلاة العشاء، قدمت الصحاف والجفان فى وليمة كبيرة دعى إليها جميع الفريق من رجال ونساء، وعندما قدمهم إلى طعام العشاء قال بجاد.

: «تفضلوا حياكم الله فى العام عيدين إثنين وهذا هو العيد الثالث عندما شرفنا أبابشر بمقدمه الميمون، يا أهلا وسهلاً، تفضلوا على الميسور، واعذرونا إن وجد القصور»!؟

: لم يأت قصور يا أبافلان، كثر الله خيرك.

واستمر القوم بتناول طعام العشاء، أما فى داخل الخباء فقد إنسابت الهمسات والتساؤلات من الشفاه، عن السبب فى مجيئ بداح فى هذا الوقت بالذات، فمن قائلة بأنه ربما وَلِهَ على رؤية صاحبه بجاد، وأخرى ترى أنه ربما كان ماراً فى هذا

الطريق بالصدفة وثالثة تقول إنه قد جاء قاصداً رفيقة بدليل أنه قد جاء على فرسه مع غلامه، ولابد أنه قد جاء لهدف، وربما يكون هذا الهدف هو خطبة جوزاء، فإن كان الأمر كذلك فيجب عليها ألا ترفضه، وتتدخل الرابعة وكأنهن أمام الأمر الواقع فتقول، ماالذى يجعلها ترغب فيه؟ فتتصدى لها صاحبتها مظهرة محاسن الرجل، وسمعته وصيته، وتتدخل الأخرى فتورد شيئا من صفاته الجسمية وتبرز طلعته البهية التى نالت إعجابها، وتعدد تلك المظاهر، كل هذا يجرى بين النسوة خلف الخباء وجوزاء تسمع حديثهن ولكنها قد انشغلت عنهن بأمور تتعلق بالوليمة وهى تسمع آرائهن، فبين مؤيدة تأييداً مطلقاً، وبين معارضة رعناء، وبين من ترغب الماثل المنظور، ومن تفضل الغائب المنتظر، فى تلك الآراء المتفاوته، بينما الرجال لايزالون فى تناول طعامهم، وبعد أن فرغوا نقلت أوانى الطعام إلى قسم النساء وانشغلت حناجرهن بالطعام عن زائد الكلام، وبعد أن تفرق الجميع وبقى من القوم أقلهم، وعلى صلو جمر النار أعاد بجاد الحديث مع ضيفه مرحباً مرة أخرى.

: حي الله من جاء!! حييت ياأبافلان، إنها الساعة مباركة كنا نتمناها وجاءت من عند الله، حللت أهلاً، ووطئت سهلاً.

: أبقاك الله ياأبافلان، فلقد كنت أود زيارتك منذ زمن، ولكن حالت الظروف دون تحقيق هذه الزيارة، إلا فى هذا الوقت بالذات؟

: يعنى هذا أنك قد جئت قاصدنا بالذات؟

: أجل، وصاحب الحاجة يشد إليها الرحال!

: ماهذه الحاجة المباركة التى جاءت بك إلينا؟

: لقد جئت إليك خاطبا يد ابنتك جوزاء!!

: ماأبركها من ساعة!! وبركات جوزاء كثيرة منها أنها ستقربنا إليك بالنسب، ووالله «لو كانت ذبيحة ماعَشَّتْكَ»!؟ من عندى جاءتك وعلى بركة الله!! بقى أن نأخذ رأيها وستجد عندى الخبر يوم غدٍ إن شاء الله!!

: كثر الله خيرك، وأكثر من أمثالك وهذه «هقوتى فيك» وتطوى هذه الصفحة إلى موعد آخر موعده يوم غدٍ، وتضرب الأحاديث مناحي شتى، فتمتد فى قصص

الغزو، ومواقف الرجال البطولية، وكل منها يدلى بدلوه فينزف من جمة عميقة، وذهبت بهم هذه الحكايات والقصص حتى إنهرس الليل، ونامت الأعين ولم يتمكن بجاد من أخذ رأى إبنته فى تلك الليلة، حيث وجدها نائمة، وعند الصباح تجمع عدد من النساء فى بيت بجاد إستعداداً لعمل وجبة الغداء للضيف، ودخل بجاد القسم النسائى فاستدعى زوجته وأخبرها بالغرض الذى جاء بداح من أجله، فرحبت الأم وأيدته على ذلك، فطلب منها أن تذهب وترسل لها ابنته جوزاء وعندما وصلته إنتحى بها فى إحدى زوايا البيت بعيداً عن تجمع النساء اللائى ذهبن بدورهن بعيداً عندما أحسسن أن هناك مشاورات بين بجاد وزوجته وابنته، وعندما فاتح بجاد إبنته بالموضوع، تمنعت مبدية إعتراضها بأنها لا ترغب أن تقيم فى الحضر مفضلة حياة البادية، وكأنها تشارك «ميسون» عندما قالت:

لبيت تخفق الأرياح فيه ... أحب اليّ من قصر منيف

وعندما أراد والدها إقناعها بأن هناك راحة أفضل، ومعيشة أوفر، وفراش أوثر، وليس هناك كبير فرق بين الحياة هنا أو هناك، عند ذلك رفضت البت فى الموضوع رغم إقناع والدهالها، وقوله لها إن هناك موافقة مبدئية منه، ولاير يد أن ينتقض أمره، عند ذلك طلبت منه مهلة حتى بعد الظهر لتبت في الموضوع، وعاد بجاد إلى ضيفه الذي سمع الحديث الذي دار بين بجاد وابنته حيث لم يفصل بينهم سوى عارض البيت المكون من نسيج الشعر، عند ذلك أحس بداح بشئ من خيبة الأمل دون أن يفح لرفيقه عن شئ مما يدور في نفسه، علل هذا الموقف إلى أنه نوع من التمنُّع الذي يحدث دائماً من بنات الذوات، وقد زاد موقفها هذا بداح تعلقاً بها أكثر من ذى قبل، وعاد أبوها وجلس دون أن يخبر ضيفه بشئ مما حدث بانتظار رأى البنت الأخير، وهو عازم إذا لزم الأمر على إجبارها إن هى أصرت فى الرفض إتماماً لكلمته التى قالها لصديقه، فجلس مع ضيفه مشغول التفكير، ثم إستؤنف الحديث بين الأثنين فى أمور شتى ثم جلست جوزاء هى الأخرى فى مكانها تفكر فى الأمر، وحتى لا تظهر أمام النساء بموقف المستكين الحائر، تناولت مغزلها مع وشيجة الصوف و بدأت تدفن آلامها مع تلك الشعيرات التى تتحسسها بأناملها وتبرمها فى فلكة مغزلها، وتطوى آمالها مع

طي الخيط على المغزل كلما طال تفكيرها وتسرح الطرف يميناً وشمالاً، وما إن علمت النساء اللاتى فى البيت بالهدف الذى جاء بداح من أجله حتى أسرعن إليها يهنئنها بهذا الحظ السعيد الذى نزل عليها من السماء، ولكنهن وجدن عندها عدم التقبل لآرائهن، فظنن أن هذه عادة كل الفتيات، لذلك تركنها وشأنها، ثم صرن يأتين لها واحدة بعد الأخرى، كل واحدة تبدى رأيها على حدة فى الخاطب ومعظمهن يؤيدن على الإقتران به، وهى لا ترد على أحد منهن صرفاً أوعدلاً، وتناول الناس طعام الغداء وانقضت سحابة ذلك اليوم وهى لم تبرح مكانها، وبعد صلاة العصر ذهب بجاد لبعض شأنه، وبقى الضيف متكئاً على أريكة وثيرة قاعدتها شداد المطية فى «رفة» المضيف تدار عليه فناجين القهوة بين الحين والآخر، فى ذات الوقت أتى مجموعة من العاذلات إلى جوزاء، وجلسن يطلبن منها البت فى الموضوع، وهى تدافع عن موقفها، وسمع بداح وهو فى مجلسه ذبذبات الحديث من خلال عارض البيت، فأرهف سمعه لما يدور من حديث النساء خلف الخباء، وفأجاته الصاعقة التى زلزلت وجدانه، وبقى صوتها يدوى فى أعماقه بعنف، وعاف الزواج جملة وتفصيلاً، وكره كل بنات حواء من أجل تلك الجملة التى نطقت بها جوزاء بلهجة المستهتر وهى تبرم مغزلها باصابعها، ولسوء حظها أنها جاءت بجذافيرها منصبة فى أذنه، ذلك أن بعض الناصحات اللائى جئن إلى جوزاء ليرغبنها فيه أدلت كل واحدة برايها، فمن ممتدحة صفاة الرجل وأخلاقه، ومن مبرزة هيئته، ومكانته الإجتماعية والقيادية بين قومه ومن مشيدة بصفاته الجسمانية ووسامته، ولما أكثرن عليها هذه الآراء ظنتها أنها تفرض عليها فرضاً فقالت: «لا تكثرن عليّ فى ذلك إن أطرف واحد من بنى عمى أفضله عليه بالقول والفعل، وهل غَرَكُنَّ صفحة خد هذا الحَضَرِى»!؟ ووقع هذا الكلام بأذن بداح، فدارت به الأرض، وأصفرت الدنيا، وأحمرت ثم إسودت فى وجهه، وغلت الدماء فى عروقه فنهض من لحظته واقفاً ونادى غلامه بأن يحضر له جواده عازماً على الرحيل من ساعته، عندما قدم مضيفه، فوجد رفيقه قد تغير لونه، وتعكر مزاجه، وعزم على الرحيل، فاقسم عليه ألا يذهب، وحلف بطلاق زوجته، إلا أن يمرح تلك الليل، وعند الصباح سيذهب من عنده مسرور الخاطر، وسأل بجاد عن السبب الذى جعله يعزم على الرحيل دون أن يحصل على نتيجة لما جاء من أجله، فأجاب أنه يجب عليه

أن يعطيهم وقتا أطول لتبادل الرأى والبت فيه، فى نفس الوقت ذكر ان لديه موضوعاً آخر مهماً يستدعى حضوره هذه الليلة، غير أن حلف بجاد بالطلاق منعه من المسير، ولم يقتنع بجاد بالمبررات التى ذكرها رفيقه فدخل إلى بيته هائجاً حنقا، يسأل زوجته وابنته ماذا فعلتن للضيف حتى وصل إلى ماوصل إليه من الغضب والغليان؟ فأجنبه أنهن لم يفعلن شيئاً، وماحسبت جوزاء أن كلامها قد طرق مسامعه، فأنكرت مابدرمنها وحلفت الأيمان الغلاظ إنها لم تفعل له شيئاً، وماعلمت أن كلامها كان أعظم عليه من طعن الرماح وضرب شفرات السيوف، عند ذلك عاد إلى ضيفه الذى جلس عنده يسليه ببعض القصص والأحاديث، ولكنه وجده متغير المزاج تلم به تشنجات عصبية بين الحين والآخر حتى إذا حان موعد النوم ذهب بداح مع غلامه عند مربط فرسيها على بعد مئة متر من البيت، واضطجع يغالب النوم، ولكنه لم يستطع الاستسلام له حتى إطلالة خيوط الفجر من الشرق ولم يلبث فى نومه سوى فترة قصيرة حتى إستيقظ على الصياح وصوت وقع حوافر الخيل على الأرض، وتوالت سرب الخيل فى موجات متتالية من البيوت، تقتل الرجال وتسلب الأموال، وسيقت الإبل والشاء من مرحها، ونهب كل مافى البيوت، واشتبك فرسان القبيلة ورجالها مع القوم المغيرين، يتقارعون بالسيوف، و يتناوشون بالرماح للذود عن نسائهم وأطفالهم وصَرَّتْ النساء يستنجدن بكل من يرينه و يشحذن فيه النخوة والحمية ليفزع مع الرجال وصارت خيل رجال القبيلة تعود الواحدة بعد الأخرى تتنزى خفيفة بعد أن جندل فارسها، ثم تعود لتلحق بالخيل مرة أخرى أو يلحقها فارس من الأعداء ليستاقها مع مثيلاتها، و يضمها إلى الغنيمة فى ذلك الصباح الأكدر على قوم بجاد حينما خلت البيوت إلا من النساء والشيوخ الذين لم يترك لهم قوت يومهم، كل هذا يجرى وبداح متكئ على سرج حصانه لايحرك ساكنا، وجاء عدد من النساء يستنجدن به ليلحق بالفرسان و يساعدهم، ولكنه كلما جاءته واحدة منهن قال لها «أنا حضرى» لايزيد على ذلك، حتى جاءته جوزاء صارخة مستصرخة تطلب فزعته فقال لها، «أنا حضرى لا أعرف الكر والفر» فصاحت به صيحة لم يشعر معها إلا وهو على ظهر جواده، وامتشق حسامه وأطلق لحصانه العنان أمام أنظار جوزاء، وانصرف به كالشهاب الثاقب، حتى أدرك المعتدين على مسافة غير بعيدة وعلى

أثرهم فلول فرسان القبيلة يحاولون بكل إستماته النيل من خصومهم، ولكنهم لم يحصلوا على ماأرادوا، عند ذلك إخترق بداح صفوف الأعداد روحة وجيئة يجندل فى كل غارة عدداً من فرسان الأعداء، حتى كسر شوكتهم، ولم يلبث أن أوقع فى قلوبهم الرعب، ودبَّتْ فى نفوسهم بوادر الهزيمة، مما شجع الفلول المتبقية من قوم بجاد إلى الإلتئام مرة أخرى حيث أجهزوا على القوم المغيرين وهزموهم بقيادة بداح ثم أعيدت المواشى والأمتعة، وأسلاب القوم المغيرين وخيولهم يحدها هذا الفارس المغوار، ولما وصلوا إلى البيوت شرعت النساء فى معالجة الجرحى، وتجمع الرجال فى بيت بجاد، وشكروا لبداح جميل فعله، وشجاعته و بطولته، في صد الأعداء وإنتزاع راية النصر منهم، وإعادة المواشى والأموال، أما بداح فقد ربط فرسه وجاء إلى القوم بمشية الأسد الهصور، وكأنه لم يفعل شيئاً حتى الآن، لولا الدماء التي بدلت لون ثوبه بالأحمر القانى، وجمدت على كف يده على مقبض السيف، لم يخلصها منه سوى الماء الساخن، فغير ثيابه وجلس مع القوم، حيث جاءته جوزاء متلثمة وهنأته على شجاعته و بطولته إندفعت قائلة له إننى موافقة على طلبك ياأبابشر، لكنه لم يرد عليها، ولم يرفع طرفه إليها، ولم تر على وجهه أية علامة تدل على رضاه عن موافقتها، فوقعت فى قلبها النقطة الحارة وإنصرفت إلى بقية النساء، ومضت سحابة ذلك اليوم المرهق الحزين حيث ذهب عدد من الفرسان ضحية ذلك العدوان الغادر على حي آمن من أحياء العرب، ودفن القتلى وأخذ بعض النساء وخاصة العجائز منهن فى معالجة الجرحى ومداواتهم، ولكن قلبين ظلاً مشغولين عن كل ماحدث، قلب جوزاء الذي تعلق بهذا الفارس الشجاع بداح بعد أن رأت بأم عينها شجاعته و بسالته، وأصبح شغلها الشاغل عن كل ماسواه، وقلب بداح الذي بردت آلامه، ونامت هواجسه بعد أن أثبت لتلك الفتاة التى لاتعرف معادن الرجال، من أنه أهل للرجولة والبطولة والفداء، و يستأهلها وأكثر منها وأفهمها أن الرجال بالمخابر لا بالمناظر، وعندما أطبقت سدل الليل اراد بداح أن يجسد موقفه هذا بتلك القصيدة التى يعبر فيها عما يجتلد فى صدره، و يدور فى ذهنه من الأفكار نحو جوزاء وموقفها اللامبالى منه فى بداية الأمر، ثم التصاقها به فى النهاية، وكانت جوزاء تتابع كل حركاته وسكناته ببصرها، وسمعها، وحدسها، فلما جَنَّ الليل أخذ آلة الربابة التى كانت معلقة فى البيت وإنتحى قليلاً

ثم بدأ يعزف عليها و يغنى قصيدته التى منها:

الله لحد ياما غزينا وجينا ويـاما ركبنا حاميات المشاويح[1]
ويـاما على كيرانهن اعتلينا ويـاما ركبناهن عصير مراويح
ويـاما تعاطت بالهنادى يدينا ويـاما تقاسمنا حلال المصاليح
٦٢ يازين يوم إنك تبيح الكنينا خليت جفن العين نومه شلافيح
٦٣ وراك تزهديا اريش العين بينا تقول خيال الحضر زين تصفيح
٦٤ الطيب ماهو بس للظاعينا قسم وهو بين الوجيه المفاليح
٦٥ للبدو واللى بالقرى نازلينا كل على حقه ليا هبة الريح
٦٦ يوم الفضول بحلتك راثعينا والخيل باخوانك سواةالزنانيح
٦٧ يوم إنكسر رحى جذبتـ السنينا وخليت عنك الخيل جب جلاويح
٦٨ هيا عطينا الحق هيا عطينا واما عطيتينيه والله لاصيح
٦٩ لاصيح صيحة من غداله جنينا والاخلوج ضيعوه السراريح
٧٠ يابو نهود كانهن فرغدينا ذربات للقلب المشقى ذوابيح
صخف بلطف بنهزاع بلينا ياعود موز هزت أطرافه الريح
٧١ لاخوخ لارمان لاطلع تينا لامشمش البصرة ولاهن تفافيح
٧٢ ياعود ريحان نبت بالبطينا وامنين ماهب الهوى بان له ريح

وعندما سمعتها جوزاء تحطمت آمالها المعلقة على رغبتها فيه وأيقنت أنه قد عزفت نفسه عنها، لموقفها منه، ولكنها هى البادئة، فزاد تعلقها به حيث آلَحّتْ على أبيها أن

(١) الأبيات التي لايوجد لها أرقام لم أتمكن من شرحها للعثور عليها في وقت متأخر.

يستبقيه ليقيم لديهم حتى يتم عقد الزواج، لكن نفس بداح ربأت به أن يتزوجها بعد أن سمع من لسانها ماسمع، وأراد أن يمرغ كرامتها وعزة نفسها مثلما عفرت مكانته بالتراب فرحل عنهم فى صباح اليوم الثانى، تاركا قلبها يتحطم فوق صخرة كبريائه وربما لن تطول بها الحياة بعد هذه الضربة القاضية.

٢٢ ـ هذا بلى أبوك ياعقاب *

تشتعل العاطفة لدى الإنسان فيقوى ضرامها، وتذيب بحرها جميع الفوارق، وتلوى بأعتى العوائق، وفى أغلب الأحيان تنطلق شرارتها الأولى من نظرة عميقة، أو كلمة مؤثرة، وماتلبث هذه الشرارة أو تضطرم وتبقى جذوة ملتهبة لاتخبوا ألسنتها لمدة طويلة، قد تكون بالشهور أو السنين، وأحيانا تمتد بامتداد حياة من اشتعلت من أجله، وتندلع السنة هذا الحب العاطفى من الرجل نحو فتاة أحلامه، فيبقى أوارها مشتعلاً، وغالباً مايكون فى الفترة السابقة للزواج، وربما فى أيام الزواج الأولى ، وقد يستمر مدة أطول من ذلك، كجزء كبير من العمر، ويمكن أن يكون العمر كله، خاصة إذا كان منبع هذه العاطفه الود المتبادل بين الجانبين، فإنه سيستمر بين الزوجين على مدى الحياة، و يبقى ملازما لأحدهما إذا اختطفت يد المنون الآخر، وما أصعبها من ساعة، وما أثقلها من فترة حينا يفقد أحدهما صاحبه و يبقى وحيداً يتجرع مرارة الفراق، و يتلوى تحت سياط الألم والأدهى من ذلك وأنكأ جرحاً إذا كان فراق صاحبه حدث بواسطه، أو بفعل يده فتلك هى الطامة الكبرى، تلك الزوجة التى أدركها بعد جهد جهيد، ومهرها بمهر لم يشهد له مثيل فى زمانه، وقد غبطة الناس على هذا الكسب الذى حازه لوحده، ومع بساطة الحياة من حوله فى البيئة الرعوية، وتيسر سبل الحصول على الزوجة، إلا أنه لم يحصل عليها إلا بعد أن عجم كل عود، وتقصى كل خاضبة بنان، حتى عثر على ضالته التى لم يملأ عينيه سواها، وكأن لسان حاله يقول:

٧٣ «شرهة يدى ما كل غصن تعصاه ولاهى على عوج العصى محدودة»

فى هذه البيئة المفعمة بالحيوية، المضخمة بشذى القيصوم والشيخ والبعيثران والعرفج، فى تلك الفياض الفواحة، التى تغشاها قطعان الأغنام، وأذواد الإبل، لتقطف من غضها مايطيب لها ومتى إشتهت الماء جاءت فى أرسال متتابعة نحو الماء،

* قصة نمر بن عداوان وقد حدثت ١٢٨٥هـ وقيل ١٢٢٣ أو ١٢٢٨هـ.

(١) كتبت هذا الموضوع قبل الاطلاع على ماكتبه الشيخ البحاثة روكس بن زايد العزيزي بمجلة الحرس الوطني.

حيث يتولي كل صاحب مواشى متح الماء من الثمائل والآبار وسقى مواشيه، فى مثل هذه البيئة عاش نمر زعيما وفارساً لعشيرته، يرجعون إليه فى أمورهم الخاصة والعامة، له الكلمة الفصل بينهم، بيدّه رايتهم عقيدهم فى الغزوات ونديمهم فى المسامرات، يتفقد أحوالهم، يشرف بنفسه على تصريف أموره، يأمر رعاة إبله وأغنامه بالتوجه الى المكان الذى يريده، ويحضر أحيانا ورود مواشيه على الماء ليمتع نظره برؤيتها، وليتفقدها وفى يوم من آخر أيام الربيع حينما وردت قطعان الأغنام على الماء من قبيلته، ومن قبيلة أخرى جاءت واردة بأغنامها هى الأخرى تشرب من ماء ذلك المنهل وهى فى طريقها إلى مكان آخر، فى تلك الأثناء كانت الأغنام التى ترد على المشرع هى أغنام نمر، وهو واقف بقرب الحياض ينظر إليها كعادته، ومن العادة المألوفة آنذاك هو إيراد أغنام رئيس العشيرة أولاً، إحتراماً له، وترد الأغنام فى أرسال ترسل متتابعة حسب توفر الماء بالحياض الجلدية التى ينزف بها السقاة، حتى إذا انتهت أغنام عقيد القوم جاء الناس من بعده واحداً بعد الآخر على نفس الطريقة التى سار عليها، وذلك منعاً لاختلاط الرعايا فما بينها لكى لايحدث الإرتباك، فى هذه الاثناء كانت أغنام العرب الآخرين غير بعيدة عن الماء محجوزة تنتظر دورها للورود، وأصحابها واقفين عند البئر حتى تحين الفرصة المواتية لهم، فى تلك اللحظة نَدَّتْ عنز من أحدى رعاياهم لعجوز واقفة مع المنتظرين اسمها شيمة وجاءت تلك العنز لاهثة مندفعة الى الحوض، ومن شدة العطش قفزت فى وسط الحوض وخبثت الماء باضلافها، وكان نمر قريب منها فما كان منه إلا أن أخذ حصاة صغيرة حذفها على العنز فضربت رأسها حيث آلمتها فقفزت من نفس الحوض تتلوى من الألم وتثغي على مرأى من صاحبتها التى لم تكن تعرف مكانة نمر بين قومه، فتأثرت من منظر عنزها، وبدون إكتراث قالت:

: «وَلْ» لطمت عنزى عن الماء، لطمك الله عن رؤية وجه وضحا»؟

: أما تستحين أيتها العجوز تقولين هذا الكلام لشيخنا!!

: الشيخ من صفاته، الرحمة والإنصاف، والرفق، فما ذنب هذه البهيمة التى حدها الظمأ إلى أن تقفز بنفس الحوض؟

: أما ترينها؟ لقد قفزت بوسط الحوض، إنها لم تشرب كبقية الغنم!!

: لقد قلت لك يابنى إنها بهيمة، والبهيمة لاتعرف وقد حدها العطش إلى ماترى.

: يدرك نمر خطأه و يعرف مغزى كلام العجوز، فيقول، إنها صادقة ياسعد، دعها، دعها، ومعذرة ياخالة،!! لقد آلمت عنزك، وأبشرى بالعوض عنها، هذه الأغنام أمامك خذى بدلاً عنها عشراً من الضأن!!

: يسلم رأسك يابنى، لعل أغنامك للبركة، ولا تؤخذ من بعدك، وحتى لوذهبت العنز كلها فهى فداء لقدميك، ولكن ياوليدى سامحنى عن زلة اللسان، حيث نطقت تلك الجملة بدون شعور منى.

: يأمر راعى غنمه ليوقف إرسالها، ويحاش الموجود منها حول الماء لتسقى قبلها أغنام أولئك العرب المارة الذين منهم تلك العجوز، ففعلوا ما أمرهم به، وانتظر أصحابه حتى صدرت أغنام أولئك العابرين، وفى أثناء ذلك قرب نمر من تلك العجوز يعتذر إليها. عن فعلته بعد أن صافحها، وعلمت هى مكانته بين قومه، فعذرته ثم دعاها على بعد أمتار من الناس فسألها: من هى وضحا التى تدعين عَلىَّ ألا أرى وجهها؟

: تضحك وهى لاتريد أن تبوح له بسرها بدون ثمن وتحاول أن تشدَّهُ إليها أكثر وتجعله يتمنى رؤيتها بما أوردت من أوصافها الحقيقية التى تتمتع بها قائلة إنها تلك الفتاة التى لايوجد لها مثيل من مشرق الشمس إلى مغربها، إن أقبلت سحرتك وإن أدبرت خلبتك، طويلة القوام، هيفاء المقدم، عجزاء، ناحلة الخصر، عبلة المجاسد، ناعمة الأطراف، صبوحة الجبين، يجللها أشقر كذيل المهر، واسعة النحر، نافرة الصدر، دائمة الإبتسامة، حلوة الحديث مرحة الروح، لايمل مجلسها، ولا تغضى عن النظر إليها، أجمل من على وجه الثرى.

: بربك ياخالة من تكون صاحبة هذه الأوصاف الفريدة؟

يقول ذلك بكلمات تتزاحم فى حلقه بصوت متهدج.

: تستطرد، وليس هذا فحسب فلربما تجد من يقاربها فى الوصف من بنات حواء، ولكن ميزتها أنها إبنه شيخ العشيرة، من معدن الإبريز الصافى، ولهذا فإن صفاتها الجسمية والنفسية مُدَعَّمَةٌ بطيب محتدها.

: بربك أخبرني من هى؟

: تزدرد ريقها وهى تقول: لم تتركنى يابنى أكمل حديثى عنها ولكن عيبها

الوحيد أنها صعبة المنال!! لقد خطبها إلى أبيها عدد كبير من الرجال المرموقين من قومها، ومن أمراء قبائل وعشائر أخرى فلم يظفروا بها.

: أخبريني من هي وسوف أظفر بها أنا.

: مشكلتها يابني أن أمر قبولها أو رفضها بيدها، حيث أعطاها أبوها حرية إختيار الزوج الذى تراه، بماتسمع عنه، أوما قد تشاهده منه من أعمال بطولية.

: ستكون من نصيبي بإذن الله مهما كلف الأمر!؟

: ليس الحصول عليها بالأمر الهين يابني، وقاك الله كل شر، فهي ليست كبنات الناس العاديين يمكن أن تراها في مضارب قومها مع الصبايا، أو قرب موارد الماء، أو حول المواشي، أنها مخبأة، لاتخرج من خبائها منذ أن نهدت، لم يرها رجل عدا محارمها.

: كيف يمكن أن اراها بعيني؟

: إنه لصعب جداً أن تراها، أنا إمرأة عجوز كما ترى ولما سمعت عنها إستطعت بكل صعوبة التسلل إلى خبائها لأراها، فبهر عيني منظرها، وأشعلت في دمي روح الشباب، أما الرجال فن الصعوبة أن يروها اللهم إلا بطرق قد لاتكون واضحة أو قد يكون فيها بعض الإهانة لذوى المكانة الذين يرون بأنفسهم.

: يردد بينه وبين نفسه، قهرك الله من عجوز ثم يسألها: ماهي هذه الطرق التى تمكنني أن أراها؟

: منها أن يكون الراغب في رؤيتها خادماً في بيت أبيها على سبيل المثال.

: وماهي الخدمة التى يحتاجها والدها، هل لديه حرس وخدم يمكن الإنضمام إليهم؟

: إنه كزعماء العشائر يتكون حرسه من أفراد عشيرته، اللهم إنه قد يحتاج إلى الرعاة، والسقاة، ومن يعمل القهوة ويديرها على القوم في المجلس.

: بربك ياعمة أخبريني عن إسمه ومكانه؟

: لكل شئ ثمن!!

: إفلذي بلسانك ماتريدين!؟

: ليس على كريم إشتراط!!

: لك خمس من النياق.

: إننى عجوز لاأتقن رعى الإبل ولا سقيها فاجعل بدلها شويهات!!

: لك مئة من الغنم، أترضيك ياعمة!؟

: كل الرضى، وعسى الله أن يمكنك من الظفر بها.

: الآن أخبرينى من تكون؟ ومن هو أبوها؟ وفى أى مكان؟

: أبشر، إنها وضحا إبنة الشيخ راكان شيخ عشيرة كذاالذى يقطن الآن فى المكان الفلانى.

: أشكرك ياخالة، وإليك الشويهات، فَتُعْزَلُ لها وتحوشها بعصائها حتى ألحقتها برعية غنمها.

* * *

وبعد أن ذهبت العجوز ثاب نمر إلى رشده، وأخذ يؤنب نفسه قائلاً: أفى فترة قصيرة إستفزتنى هذه الشمطاء، وحشرتنى فى زاوية القط. فجعلتنى أندفع بدون تفكير أو تعقل فاتخذ القرار الأول وأربط نفسى فيما لاطائل من ورائه، فتاة جميلة كما تقول مخبأة عند أهلها كغيرها من الفتيات!؟ جاءتها هذه العجوز تبرق عيناها وتعصر مدامعها فترى الشئ شيئين!! تحسب الغث بمنزلة السمين، إنها لعجوز خرفة، لكنها رغم ذلك أدركتنى بأسلوبها، وانتزعت منى تلك الغنيمات، إيْه ..هذا نصيبها!! نَدَّتْ لها عنز واحدة بطلب الماء، وذهبت بمئة نعجة!! حظوظ كل هذه الحياة!! ولكن لايكفى الحظ لوحده، إنها البراعة والحيلة، وحسن التصرف!! هذه العناصر تساعد على قيام الحظ، ثم أهى حقيقة ماثلة كما وصفتها؟ أم هى من مبالغات النساء فيما يصفن!؟ فن عادات النساء «أنهن إذا أحببن شرقن، وإذا كرهن غرقن»!!

ولاسيما إذا صادف هوى فى نفسها، فكم وصف لى من الفتيات، وعند التمعن فيهن لم أجد كل ماجاء فى الموصوفة من صفات، إنه أسلوب نسائى، وربما تكون حيلة عجوز حبكتها وانطلت عليَّ!؟ ولكنها كانت تتكلم بلهجة الواثق من نفسه، وربما كانت صادقة؟ أترى ماتقول صحيحاً من الصفات التى وصفت بها تلك الفتاة؟ من واقع تجربتى فإنه لايقنعنى إلا أن أراها فى عيني، ولكن كيف إلى ذلك سبيلاً؟ إن كان صحيحا ماذكرت من تعذر رؤيتها على الغريب!! وحتى لوجئتهم ضيفاً فلن

أتمكن من النظر إليها طالما أنها مخبأة!؟ أما إنني سأهين نفسي بأن أعمل خادماً عند أبيها لفترة من الزمن حتى أراها فهذا لا تطيقه نفسي!! ولن ترضاه كبريائي، ولو كان الأمر يمكن تحقيقه بالضيافة أو المكوث القليل لذهبت إلى أبيها كضيف مرة أو مرتين منتحلاً شتى الأعذار، ولكن الأمر ليس كما أتوقع، بل لابد من البقاء عندهم لفترة من الوقت حتى أملأ ناظرى منها، لن أعمل راعياً للغنم، أو ساقيا للمواشى من أجل الغرض، وقد يكون عمل القهوة وإدارتها أهون وطأة على النفس، من سابقيه ولعل هذا العمل أكثر التصاقا بالبيت، وربما سنحت فرصة قريبة مكنتنى من النظر إليها، لأقطع الشك فى نفسي، فإن كانت العجوز كاذبة إتضح لى الأمر، وإن كانت صادقة فقد تكون فتاة أحلامي المنشودة!؟ إيْه... دعنى أفكر بعد ذلك.

كل هذا يجرى فى تفكير نمر وهو لايزال فى موقفه يخطط بعصاه على الأرض خطوطاً عشوائية لا معنى لها، والناس ينظرون إليه، وهم يحسبونه قد أجاز العجوز تلك الأغنام طيبة لخاطرها لقاء إساءته إليها، ثم بقى يصفى موقفه برسم خطة معينة لغزو أو غيره، وعندما عاد إليهم مقطب الجبين أدركوا أنه كان يفكر فى أمر جدّي ولكنهم لم يعرفوا ماهية هذا الموضوع الذى شغل باله، وبعد الانتهاء من سقى الأغنام، عادوا إلى البيوت، وتصدر نمر مجلسه كالعادة، تدار القهوة على الحاضرين بين الحين والآخر، حتى إذا جن الليل، واكتملت حلقة السمر فى بيته من عِلْيَةِ القوم كان قد قرر أن يذهب لنفس الغرض، فأخبرهم أنه سيسافر مع غلامه فى اليوم التالى إلى الوجهة الفلانية، واختار من بينهم من ينوب عنه أثناء غيابه الذى ربما يتجاوز الشهر، لقد إتخذ هذا القرار بنفسه دون أن يعلم أحد عن الغرض الذى سيذهب من أجله، وعندما تفرق السمار أو عز إلى غلامه أن يجهز له مطيته الفلانية وفرسه الفلانية، ومع خيوط الفجر الأولى إنطلق الإثنان قَاصِديْنِ الجهة المطلوبة يغذان السير يسألان النزل بعد النزل عن عرب الشيخ راكان وبعد مسيرة خمسة أيام وصلا إلى طلائع «سلفان» النزل، حيث ضافا أحد البيوت المتطرفة وأقاما عند صاحبه ليلتهم، فأكرمهم وآخرين غيرهم، وعند الصباح أمر نمر غلامة بالعودة على مطيته، من حيث أتى قائلاً له: سأعود إليكم بعد شهر من الآن، أو قبل ذلك، وربما أستقر عند هذا النزل من العرب وربما أغادرهم، وعاد الغلام أدراجه كما إمره سيده، وعند الصباح تظاهر نمر بأنه

سيذهب عن هذا النزل، فامتطى ظهر جواده وودع مضيفه ضارباً وجهة معاكسة لما يرغب الذهاب إليه، ثم إلتف من خلف تلك الهضبة وأتى بيت عجوز فى طرف النزل، فترجل عن جواده، وسلم على صاحبة البيت وطلب منها ماءاً للشرب فناولته إناء مملوءاً لبنا، فطلب منها الماء بدلاً من اللبن، فاعطته ماطلب، وعندما شرب منه وضع فى الإناء ثلاثة جنيهات ذهبية، وناول العجوز نمشة إناءها وعندما رأت الجنيهات فى قاع الماعون، أيقنت أن الرجل ذو حاجة وإلا لما وضع تلك القطع الذهبية ثمنا لقليل من الماء، فعند ذلك طلبت منه أن يربط فرسه، وأن يستريح عندها قليلاً لتقوم باداء الواجب نحو ضيافته فرحب بهذه البادرة منها، وبعد أن أحضرت له ماتيسر عندها من الطعام سألته.

: يابني، لقد وضعت جنيهات فى هذا الإناء الذى لا تزال فيه فما الغرض منها؟

: إنها هدية لك ياخالة!!

: لم تكن تعرفنى مسبقاً حتى تهدى إلي شيئاً!؟ ولسنا ممن يأخذون عوضا عما يقدمونه لضيوفهم، ألا تعلم أنك فى وسط حي من أحياء العرب؟

: ليس هناك ضرورة أن ترتبط الهدية بالمعرفة فى جميع الأحوال.

: بلى يابني، ولكن قد أعتبرها هدية لابدلها من ثمن، فما حاجتك؟

: إن حاجتى بسيطة جداً، سأبقى لديك فرسى هذه وسلاحى وملابسى، وعليك المحافظه على المهر وحفظ السلاح، وسأترك لك من النقود ماتصرفين منه على فرسى، ولك عندى مكافأة مجزية عندما أعود، وسأرجع إليك بعد فترة من الزمن قد لا تطول.

: وأين تريد أن تذهب يابنى؟ أتريد أن تسلك طريق اللصوصية وقطاع الطرق؟ إن كنت كذلك فلا والله لن أستبقى لك عندى شيئاً!

: معاذ الله ياخالة، إننى أكبر من أن أسلك هذا المنهج، ثم إننى سأترك كامل سلاحى لديك، وإنما لي حاجة تستدعى منى أن أقضيها على رجلى بطرف هذا الفريق.

: أتريد أن تغدر بأحد من رجال أو نساء فريقنا؟

: يأبى الله على ذلك فليس الغدر من طبعى.

: لن أستبقى ممتلكاتك لدى قبل أن تخبرنى بغرضك؟
: وهل تحفظين السر؟ أعطينى عهد الله وميثاقه!
: سأكتمه وأدفنه تحت رمل هذا «البرخوص» وعليك الله وأمانه.
: إننى أود رؤية إبنة الشيخ راكان، فإن صلحت لي خطبتها إلى أبيها.
: تطق لسانها بلهاتها،وأصبعيها معاً قائلة: أوه...لقد عجز عن رؤيتها كثير غيرك ولم يظفربها صناديد الأبطال!!
: بربك ياخاله وهل هى كما وصفت لي؟
: كل وصف يقصر عنها!! إنها فوق وصف كل واصف!!
: إذاً إحتفظى بالسر لديك، وأحفظى فرسى وسلاحى وملابسي وتناول من حقيبته ملابس ثانوية تشبه ملابس المسافر عابر السبيل، ويتعرف على بيت الشيخ راكان ويتجه إليه بعد أن أعطى العجوز نفقة الفرس، وعندما وصل إلى البيت المقصود، وجد مجلس الرجال وقد اكتض بهم، وطمحت نفسه إلى صدر المجلس كما هو معتاد، لكنه أقنعها بالوضع التى هى فيه، فسلم على القوم وجلس فى طرف المجلس، وتناول القهوة مع الجميع، وظل جالساً حتى إذا حان موعد الغداء تناوله مع الحضور، وبقى يومه ذاك ويومين بعده وهو فى بيت الشيخ مع أولئك الضيوف الغادين والرائحين فى موجات متتالية، وبعد مضى ثلاثة أيام وهى الفترة التى لايسأل فيها الضيف عن سبب إقامته كما هى عليه العادة يومئذ، وعندما إنقضت تلك المدة وفى ساعة لم يكن بالمجلس عند الشيخ غير القليل من الرجال إستدعى بضيفه وسأله عن حاجته، إذ ربما يكون عابر سبيل قد أنقطعت به الرجل، فيزوده بما يلزمه من الزاد والراحلة، غير أنه لم يجد ضيفه بهذه الصورة، وإنما قال الضيف لمضيفه، إننى أبحث عن عمل وإذا ترون أن أكون عامل قهوة «فداوى» فى مجلسكم العامر، فإن لي الشرف بذلك، قال هذا الكلام بأسلوب لطيف وإبتسامة عريضة فرأى الشيخ فى هذا الشاب الوسيم الظريف أهلاً لأكبر من ذلك، ولكن بناء على طلبه فقد أبقاه لديه يعمل القهوة ويديرها على الحاضرين، ومضى الأسبوع الأول وهو على وضعه ذاك، يتفقد أحوال فرسه عند العجوز خفية بين الحين والآخر، وحينا أطلت وضحا من فوق قاطع البيت على القسم الرجالى فى

ساعة غفلة من نمر، رأته باركاً حول أوانى القهوة «المعاميل» وبدقّةِ حدسها، وفرط ذكائها أدركت أن هذا الرجل لايتقن عمل القهوة، بل لايجيد حتى الجلوس لعملها، فعند ذلك سألت أباها عن هذا الرجل الجالس بقرب أوانى القهوة؟ حينما أخبرها أنه «قهوجى» فعند ذلك نقلت لوالدها وجهة نظرها فى أنها تشك فيه، وأنه ربما يكون له هدف آخر غير طلب الرزق من عمله هذا، وذلك لأنه لايتقن حتى جلوس عامل القهوة، فرد عليها أبوها، أنّه لايستطيع سؤاله فى الوقت الحاضر، مع وجوب التزام جانب الحذر منه والتيقظ لجميع حركاته لمعرفة ما إذا كان لديه أية نية أو هدف آخر، هذا الكلام يجرى بين راكان وابنته دون أن يكون لدى نمر علم بما يدور فى أذهانهم، وكل مايتمناه أن يمتع ناظريه برؤية وضحا ولولبضع ثوان من هذا الوقت الطويل، الثقيل على صدره، واستمر فى عمله اليومى يحمس القهوة على النار ثم يسحقها بـ «النّجْر» ويُلَقِّمُها بالدلة لتغلى بعض الوقت ثم يضيف عليها البهار من الهيل والقرنفل والزعفران، ثم يبدأ بصبها وادارتها على الحضور فى المجلس وهكذا دواليك ، تمر عليه الساعات وكأنها سنين، وأحيانا ينتقد تصرفه هذا، وتعاتبه نفسه، كيف يرضى بهذا الوضع من أجل عيون إمرأة؟ ثم ينزع هذا العتاب قائلا لها: مكانك تحمدى أو تستريحى!؟ واستمر تحت الرقابة غير المنظورة، وهو يتحين الفرص ولكنها بعيدة المواتاة، إلى أن جاء صباح ذلك اليوم الأكدر حيث صَبَّحَتْ النزل خيول الأعداء فى غارة مفاجئة فهب الرجال للدفاع عن أنفسهم وتجمعوا عند بيت الشيخ للانطلاق من هناك بعد تلقى التعليمات والإرشادات من القيادة لديه، وأرخى الفرسان أعنة خيولهم فطفحت بهم وفى مقدمتهم الشيخ راكان قائدهم فدخلوا معمعة المعركة مع الأعداء، ولم يبق فى البيوت سوى شيخ مسن، أو إمرأة وطفل، أما بقية الرجال فقد انتظموا فى أسرابٍ متتابعة من الخيل تذود العدو عن البيوت والمحارم، غير أن كفة الأعداء قد رجحت عليهم بسبب الضربة الأولى التى وجهوها لعرب الشيخ راكان، واستاق الأعداء النعم من عندالبيوت، وولوت النساء وارتفع صراخهن يطلبن النجدة والغوث من كل رجل قادر على الدفاع، كل هذا يجرى ونمر يتحرق شوقا لإمتطاء ظهر جواده، ولكنه يقاوم نفسه فى صراع عنيف قرب دلال القهوة، حتى خرجت وضحاء من

خبائها وقد ذهلت نفسها من هول ما أصابها فاستنجدت به أن يلحق بالرجال، وبعد أن ملأ ناظريةِ من غرة وجهها قال لها: إننى لاأملك حصانا أمتطية، فدلته على مربط الخيل حيث يوجد هناك حصان أبيها الذى يدخره للمهمات، فأسرجه وأخذ سلاحة ولاذ بظهره الذى إنهصر حتى قارب على ملامسة الأرض ثم لكده وانطلق كلمح البصر حتى لحق بالقوم وهم يصالون لهيب المعركة، فأخذ يخترق كواكب الفرسان روحة وجيئة، وفى كل مرة يقتطف عدد من الرؤوس دون أن يلحق به أحد، حتى إذا شل حركتهم بدأ يوجه هجومه على كل كوكبة من الأعداء لوحدها فيختطف من بينهم الفارس والفارسين، ويحاول بقدر أستطاعته أخذ قلائع الخيل التى جندل أصحابها وبعد مضي فترة من الوقت شعر فرسان القبيلة المهاجَمَةِ بأن كابوس الأعداء المغيرين قد خف عنهم، فتنفَّسُوا الصعداء، وهم لايدرون ماهو السبب الذى رفع عنهم ذلك الضغط من فرسان عدوهم حتى شاهدوا ذلك الفارس على حصانه الأدهم يخترق جيش الأعداء اختراقا مريعاً، ولم يعرفوه فى بادئ الأمر، غير أن الشيخ راكان قد عرف حصانه ولكنه لم يعرف الفارس لكونه قد تلثم واخفى معالم وجهه وما إن رأى فرسان راكان أن هذا الفارس يعمل بجانبهم حتى ارتفعت معنوياتهم، وهبوا من جديد فكان لهذه الحملة أثر كبير فى تخلخل تماسك الأعداء المغيرين، ودب الذعر فى نفوسهم من صولات وجولات هذا الفارس، الذى أعقبه إنتعاش معنويات فرسان القبيلة المهاجمة واستماتتهم فى المعركة حتى كسروا شوكة الفئة المغيرة، وشيئاً فشيئاً حتى دبت روح الإنهزام فى نفوسهم، فتقهقروا ثم تراجعوا، بعد أن نشبت الرماح فى قطيهم والسيوف فى رقابهم، فولوا هاربين بفلول لاتلوى على أثر، تاركين خلفهم كل ماكسبوه فى ساعات قصيرة مع عدد من جثث فرسانهم، وتم النصر للشيخ راكان وفرسانه على أعدائهم بعد أن أنقذهم هذا الفارس المغوار فى اللحظة المناسبة، وكان لانطلاقته الحاسمة أثر كبير فى صد تلك الغارة الغادرة ولما إنشغل القوم بجمع السلب، وإعادة النعم المنهوبة إلى البيوت أسرع نمر على ظهر حصانه إلى النزل ومعه عدد كبير من قلائع الخيل وهى قليل من كثير من تلك القلائع التى أودى بفرسانها، ورمى بهذه القلائع بالقرب من حاجر البيت أمام أنظار وضحاء،

وأعاد الحصان إلى مربطه، وغسل الدم عن يديه ثم غير ملابسه وأشعل النار وجلس ليعمل القهوة حينما جاءته وضحاء وطلبت منه أن لايجلس بهذا المكان، قائلة له: ليس هذا مكانك يامزيد!! فرد عليها: دعينى حيث أنا يا إبنة الأجواد!! فآلت عليه ألا يمس القهوة أو يعملها باعتبار مقامه أكبر من أن يخدم بعمل القهوة، غير أنه طلب منها استثناء هذه المرة التى سيسقيها أولئك الفرسان العائدين من غبار المعركة لتتجلى العماس عنهم، فوافقته على ذلك، واستمر بعمله وعادت إلى خبائها، وحولها النساء تروى لهن قصة ماحدث لها مع هذا «الفداوى» وتريهن قلائع الخيل التى أحضرها معه ولما عاد راكان وفرسانه، وجدوا نمراً قد إنتهى من تجهيز القهوة، فتجمعوا مرة أخرى عند بيت الشيخ وكل يروى ماحدث له ومافعل أثناء المعركة، وأبدى راكان إعجابه بذلك الفارس الذى تسبب فى هزيمة القوم وكسر شوكتهم وهو الذى يمتطى جواداً يشبه حصانه، وعند ذلك دَلِفَ راكان إلى مربط حصانه فوجده فى مربطه يتصبب عرقاً، قد مرسته الغارة، وأنهكه ثقل الفارس، فسأل إبنته: من الذى ركب جوادى يابُنَيَّة!؟ فأجابته لقد ركبه هذا الذى يدعى أنه «فداوى» وأنظر تلك الأعنة خلف هذا الرواق قد أحضرها معه!! فهذا الفارس ليس عامل قهوة، ولقد حلفت عليه ألا يعملها مرة أخرى، وإن له لشأن آخر!! وقد صدق حدسى فيه، فأرجوك ياأبى أن تبحث لك عن شخص يقوم بعمله، وتنظر فى أمره، لتقضى حاجته إن كان صاحب حاجة وعاد راكان إلى القوم، وهم يتناولون القهوة يديرها عليهم نمر الذى عظم فى عين راكان بدرجة كبيرة عند ذلك أمررا كان أحد الغلمة أن يأخذ الدَّلة من نمر ليديرها عنه، و يدعوه فيجلسه بجانبه، دون أن يعلم أحد عن السبب، وإرتفع لغط القوم فيمن كان له اليد الطولى فى صد غارة الأعداء وكسر شوكتهم، ومن جمع أكثر عدد من أعنه خيل المعتدين التى قتل فرسانها وكل يدعى مايدعى، وهنا حانت كلمة الفصل التى أطلقها الشيخ راكان حينما قال: أتدرون من حاز قصب السبق فى هذه المعركة وسبب هزيمة المغيرين؟ فأشرأبت أعناق رجاله دون أن يعلموا جوابا لهذا السؤال، عندما فاجأهم، بأن ذلك الفارس الصنديد هو هذا الجالس إلى جانبى، يقول ذلك وهو يربت على كتفه بكل إجلال وتقدير، ثم استطرد وآية

ذلك تلك الأعنة التى إقتلعها من رُوس خيلهم وهاهى خلف حاجر البيت، وحصاني الذى تصببت عافيته عرقا تسيل على الأرض من تحته!! وكانت بالفعل مفاجأة للحضور فتوجهت الأنظار إليه بإعزاز وإكبار، وبدأت أصوات الهَمْهَمَة والهمسات تدور فى المجلس بموجات متفاوته، وبعد أن تناول الجميع القهوة عادوا إلى تجهيز جثث القتلى ومواراتها بالتراب بعد الصلاة عليها ومضى ذلك الصباح الأغبر على هذا النزل الآمن من العرب وفى المساء طلب راكان من «مَزْيَدْ» الإنفرابه حيث دار بيها الحديث الأتى:

: يامزيد، أخبرنى بحقيقة أمرك؟ بعد أن إتضح لنا خلاف ماتتظاهر به من أنك لاتتقن سوى عمل القهوة، بينما وجدنا منك فارساً مغواراً، تذعر الخيل بصوتك، فبربك أخبرنى بحقيقة أمرك؟

: إذا سألتنى بالله فإن إسمى الحقيقى هو «نمر» وليس مزيداً وأنا عقيد العشيرة من القبيلة الفلانية ومعروفة مكانتى عند قومى وغيرهم:

: يسلم عليه ويحتضنه و يتبادل الإثنان القبلات والتحية، فيسأله ولكن مالذى جعلك تنزل بنفسك عن مكانتها، وتتنكر لتعمل بهذا العمل الذى لايعتبر لك وأمثالك؟

: لقد أجبرتنى الظروف على إنتهاج هذا السبيل.

: لابارك الله بتلك الظروف التى تهين الإنسان وتجعله ينزل بنفسه منزلة يأباها!؟

: وأنا أقول ماتقول، ولكن للضرورات أحكام.

: ولكن بالله عليك، ماهى تلك الظروف التى «رَصَّتْكَ» لاتخاذ هذا الموقف؟

: إذا سألتنى بالله، فساجيبك بصدق وإخلاص، ذلك أنه يوجد لديكم حاجة ذكرت لي، وأحببت أن أراها وأعرف عنها قبل أن أقدم على طلبها، فلقد خاننى ذكر غيرى لأمثالها، حتى إذا رأيت بعينى، تبخرت تلك الهالة التى يضفيها الواصف على موصوفه فأردت رؤيتها بعينى قبل الإقدام عليها.

: والآن عسى أن تكون رأيتها؟

: نعم.

: اطلب حاجتك يانمر، فوالله لن أرد لك طلبا، حتى ولو كان رأس أحد أولادى.

: تسلم «ياطويل العمر» ويسلم أولادك فى ظلك، وما أريده منك سوى يد ابنتك وضحا!؟
: أبشر، أبشر، لقد جاءتك، وتستأهلها، مهرة وجاء فارسها.
: على شرط واحد.
: ماهو شرطك
: أن تقبل بى زوجاً لها عن قناعة، لأننى سمعت أنها رفضت الكثيرين غيرى!
: تقبل!! إننى متأكد من قبولها، إنها لن تعصى لي أمراً!! ومن تريد غيرك فكاك الأنشاب!؟
: أرجوك أن تتأكد منها قبل البت فى هذا الموضوع.
: يدخل عليها فى الخباء لأخذ رأيها، حين أجابته بكلمة واحدة صادرة عن قناعة وثقة بالرجل الذى رأت فعله بأم عينها، وهى كلمة «أجل» كررتها ثلاث مرات، فعاد أبوها ليؤكد لنمر موافقتها وعند ذلك تصافح الإثنان من جديد وراكان يردد جملة على الرحب والسعة حياك الله وبيَّاك. وأقبلا إلى الرجال الجالسين فى المقهى وأعلن راكان لهم أن ضيفهم هذا ليس «مزيداً» كما يدعى وإنما هو نمرين ... شيخ القبيلة الفلانية، وقد جاء خاطبا إبنتى وضحا، فزوجتها إياه على سنة الله ورسوله بشهادتكم جميعاً، وعليه أن يحدد الوقت الذى يريد فيه أن تزف إليه، فقام الرجال وصافحوا نمر وحيوه من جديد وترددت كلمات الترحيب فى المجلس ثم أردف راكان إنكم مدعوون غداً على وليمة سأقيمها على شرفه، وفى الصباح نحرت الجزر وذبحت الغنم فى وليمة كبيرة، إحتفاءاً بالفارس المجهول الذى أقام بين القوم أياماً متتابعة دون أن يعرفوه ، وفى اليوم الثانى إستأذن نمر من مضيفه للذهاب إلى أهله على أن يعود للزواج بعد شهر من هذا التاريح، فأذن له المضيف فر على العجوز التى أودع عندها فرسه وسلاحه، وأخذها منها، وأعطاها مكافأة مجزية، وأرسل راكان مع نمرعدداً من الرفاق لمؤانسته حتى يصل إلى أهله.

* * *

وعندما عاد نمر إلى أهله بعد غياب لم يتجاوز الشهر، أخبر قومه بأنه خطب وضحاء إبنه الشيخ راكان التى تعتبر فريدة زمانها خَلْقاً وسيتم الزواج بعد فترة وجيزة

من الآن و يسرى الخبر فى النزل سريان النار فى هشيم الشيح، ففرحت قلوب أهله وأقاربه ومن يحب له الإستقرار والهدوء، غير أن هناك بعض القلوب التى شعرت بالغم وخيبة الأمل تلك هى قلوب الفتيات الجميلات بالحي، اللاتى تمنى كل واحدة منهن نفسها وتحلم فى غرفة النوم أن يأتى نمر إلى أبيها ليخطب يدها، بعد أن يقع إختياره عليها، لتصبح بين عشية وضحاها زوجة الشيخ تحتل المكانة المرموقة فى المجتمع، أما الآن فقد انقلب هذا الحلم الجميل الممتع إلى كابوس يضيق مجرى النفس، وقد يكتمه، ولم يشعر نمر بهذه الأحاسيس، فأخذ يعد العدة، واستشار أقاربه ليشاركوه الرأى فى نوع المهر الذى ينبغى أن يدفعه لوضحا حيث تفاوتت الآراء، بين مقل ومكثر، مع اختلاف فى نوعية المهر، أن تكون من الإبل، أم من الخيل، أو من الذهب والفضة، وأنواع الأسلحة، ولما أخذ ملخص تلك الآراء قرر أن يكون مهرها يمت بصلة الى إسمها وشيئاً من صفاتها فاختار أن يكون تسعين ناقة وضحا غير جمل هو جملها، وخمسة وتسعين من الخيل بين الأدهم والكميت، تشابه حناء كفيها، مع مبالغ من النقود الفضية والذهبية، والسلاح من السيوف والبنادق ذات الفتيل، وأحمالاً من المؤن فضلاً عن المصاغ والهدايا والملابس للعروس خاصة، وجهز الجمل الذى يحمل هودجها بأبهى زينة، من النمارق، والعثاكيل والستائر التى تحمل أرقى وأنعم أنواع المنسوجات من الصوف والوبر، التى تحمل الألوان الزاهية الجذابة، ولم يمض وقت قصير حتى أصبح كل شئ جاهز، ثم جهز مجموعة من الفرسان من أفراد عشيرته لتصحبه للمشاركة وحماية هذه الأذواد الوضح من شر تربص الأعداء وقطاع الطرق، فسارت القافلة ووصلت إلى مضارب الشيخ راكان بسلام وحينما أشرفت طلائعها على النزل أرسل نمر أحد فرسانه إلى بيت الشيخ راكان ليخبره بقدومه، حيث تم إتخاذ الإستعدادات اللازمة لعمل وليمة الزواج بالحجم الذى يناسب المقام، فنحرت الجزر وذبحت الأغنام وعملت وليمة فريدة من نوعها، ومع أصيل ذلك اليوم قدم نمر ورفاقه إلى بيت صهره، بتلك الأذواد الوضح وكأنها ركام المزن يسير على الأرض تتقدمها تلك الخيول الأصيلة تتهادى ماشية الهوينى، وفى مقدمتها الشيخ نمر تتأرجح به مهره، وماهى إلا لحظات حتى أنيخت النياق أمام البيت وكأنها اللؤلؤ المنثور فى حجر غانية تريد نظمه، وربطت تلك الخيول فى أعنتها على جانب منها،

بعد أن تقدم العريس، واستقبله مضيفه بأبلغ كلمات الترحيب، وأرقى علامات الإكرام، وبعد تناول القهوة مدت الوليمة فى صحاف وجفان على مرأى النظر، وتوافد الناس من أطراف النزل لتناول طعام العشاء، وتقدم الجميع الضيف داعيا ضيوفه إلى العشاء مرحباً بهم على شرف الضيف، بكلمات وجمل تندى كرماً، وتفيض رقة ولطافة، وبعد أن فرغ القوم من عشائهم عاد العريس ورفاقه إلى أماكنهم، وتفرق القوم إلا أقلهم، رحب راكان بضيفه مرة أخرى وسأله:

: لماذا كلفت نفسك يانمر وأحضرت ما أحضرت؟

: لقد قيدنى البخل، ومعذرة يا أبافلان إن حدث شيئ من التقصير!!

: تقصير!؟ إنه بعيد عنك بعد الأرض عن السماء.

وإستدعى راكان إمام مسجد النزل، ليقوم بعقد النكاح فى نفس المجلس، وعندما حضر وبدأ بالعقد، سأل: على أى شيئ أعقد الزواج؟ فقال له راكان إعقدة على «ريال وشيمة رجال» ثم أتم الإمام العقد ودعا للجميع بالبركة والتوفيق وانصرف وبانصرافه نهض القوم، وتقدم راكان والعريس، وصحبه إلى الخباء المعد للزفاف، وبعد أن أوصلوا الرجال رفيقهم، عادوا إلى أماكنهم، وبقى والد العروس مع العريس لبضع دقائق حيث ودعه وخرج، وماهى إلا ثوان معدودة حتى زفت وضحاء إلى زوجها، ومن تلك اللحظة بدأت قصة حب جديدة سداها الحب الصادق المتفانى من كلا الطرفين ولحمتها الزواج على سنة الله ورسوله، ورأى نمر ماسر خاطره، وأبهج نفسه، بتحقيق أحدى أمنياته الغالية فى الحياة، وهى التى كانت حلماً يراود نفسه، وأمنية يتوق إليها تلازمة كظله، والآن لقد أضحى هذا الحلم حقيقة ماثلة أمام عينيه، وفى قبضة يديه، تلك الفتاة التى لم ير في بنات جواء مثلها منذ أن شق بصره فرأى النور، وهى بدورها قد كسبت الرهان ممن كانوا يرومون الظفر بها، بفضل مكانتهم الإجتماعية فى عشائرهم، ومايبث عنهم من أخبار، قد تكون صادقة، وقد يدخل فيها عامل التضليل وأسلوب التهويل، وقد يكون من بينهم من لم يفعل شيئاً، اللهم إلا أنهم من أبناء أولئك الرجال الأبطال، وقد تخطى القاعدة العامة فى إستنبات فرع رديئ من أصل جيد، كما جاء فى المثل، «النار تورث الرماد»!! ولكن هذا الفتى قد ملأ عينيها،

واحتل عرش فؤادها بعد أن رأت فعله أمامها، بالإضافة إلى مارزقه الله من وسامة المظهر، وطيب الحديث، ولين المعشر، وقد إعتبرت نفسها من المحظوظات حين أراد الله أن يكون فارس أحلامها، و باتا ليلتهم تلك كأسعد عروسين حيث الحب الصادق والود المتبادل، وقد بدأ نمر ووضحا أول حلقة من سلسلة طو يلة، تربط حلقاتها السعادة في الحياة الزوجية وعندما أصبح الصباح، إستأذن نمر للرحيل بزوجته، الى مضارب قومه، فلم يجد مانعاً من ذلك، واتخذت كافة الترتيبات للرحيل، وبدأت القافلة بالمسير يتقدمها هو دج وضحاء كزهرة الديدحانة، و بعدها الخيول والإبل التي أحضرها نمر معه بعد أن آلى راكان على نفسه ألا يأخذ من مهر إبنته، سوى سيف واحد ليبقية عنده كرمز للذكرى، أما بقية المهر من الإبل والخيل والسلاح والمؤن فقد أعادها إلى نمر، وعندما عارض نمر على هذا الإجراء، حلف راكان بالطلاق من جميع نسائه إلاّ أن يقبلها نمر تعود معه إلى قومه، وهو يقول: لقد زوجتك إبنتي لامن أجل الخف والحافز، ولكني زوجتها رجلاً يصلح لها وتصلح له، ولولا حب إبقاء ذكرى ابنتي لما أخذت هذا السيف، كرمز لوجودها عندى دائماً، وآمل أن تأتي إليَّ بسيوف تمشي على الأرض، يذودون عن حماهم، ويحموا ظهرى، وبهذه الكلمات ودع راكان إبنته لتبدأ القافلة مسيرها إلى مضارب قبيلة زوجها نمر، ولما وصلت قافلة العروس إلى مضارب قوم زوجها نصب لها بيت خاص، وأقيمت الولائم الكبيرة، وأصبحت على رأس ربات بيوت الحي، يشار إليها بالبنان، حينا أضحت مضرب المثل بأخلاقها السامية، وسماتها العالية، وجمالها الأخّاذ، حتى صارت محط أنظار النساء، يجتمعن عندها، ليستمعن لعذب حديثها، ويُمَتِّعْنَ أنظارهن بجمالها، وكل واحدة منهن تقول: «عز الله إن نمراً أحسن الإختيار » غير أن الغيرة تلسع قلوب البعض منهن فترمقها بجفن مريض قد كحله الحسد، وهي تبحث عن أى عيب فى خَلْقِهَا لتصمها بنقصانه، فتعود نظرتها خائبة حاسرة، وتتلمس أى زلة من لسانها، أو فهاهة فى منطقها لتطعن فى دماثة معشرها، ولكن يعود لها قلبها مفئوداً، وتراقب تصرفاتها، بحركاتها وسكناتها علها تجد فيها نشوزاً لتتخذ منها ثلمة تقفز منها إلى حصانة أخلاقها، فتعود وقد إنفضّت عضلاتها، وحتى لاتجد القلة القائمة من ربات الحسد أى مدخل عليها، يظل

حسدهن يحرق أفئدتهن لتصير رماداً، و يبقى الجوهر فى حالة ممتازة فوق الجميع، ومضت الأيام تطوى الليالي عبر تكرار الجديدين، على هذين الزوجين اللذين تم التقاءهما على المحبة والإقتناع، فرسخت أواصر الإلتحام بينهما، وفى كل يوم يمروليل يكر تمتزج روحيهما فتكاد أن تكون روحاً واحدة فى جسدين منفصلين حتى أن أحدهما لايطيق الإبتعاد عن الآخر، أو الغياب عنه مدة طويلة، وعلى رأس السنة الأولى برزت باكورة الإنتاج لهذا الحب، بمولود ذكر سماه «عُقَاباً» تيمناً بعقاب الجو، فى السمو، والإرتفاع، والمنعه، والإنقضاض على فريسته، وحماية وكره وصغاره، وكلما تقدم الزوجان سنة فى عمر الزواج كلما زاد ارتباطهما ببعضهما، وتماسك قلبيهما، حتى أن نمر أصبح لايستطيع الذهاب لغزو أوقنص، أو نزهة قصيرة إلا و يصطحب زوجته معه إلا أن يكون لديها عذر قاهر، واستمر هذا الوضع مدة تزيد على نصف العقد من السنين، وهو يصطحب زوجته معه على فرس أو ذلول، وأحيانا يستردفها معه إذا كان ذاهباً لرحلة قنص قصيرة، تستغرق يوماً واحداً فتساعده على حمل الصيد، وتسليه أثناء البحث عنه، وذات يوم من أيام الخريف المعتدل الحرارة، إمتطى نمر ظهر جواده قاصداً مراتع الصيد، مستردفاً معه رفيقة حياته، والجزء الثانى من روحه، تاركين أبناءهم الصغار فى رعاية جدتهم بينما قارب أن يشب على الطوق، ذهب الأبوان إلى هدفها كأصفى مايكون الإنسجام فوق قطاة ذلك الحصان الأصيل، في نزهة للصيد، وعندما بلغا مراتعه إنبرى لهما فريق من الغزلان بقيادة تلك «العنود» التى أعيت حيلها، ومراوغتها، وشدة نفورها براعة نمر فى القنص من دقة التصويب وإصابة الهدف، فحلف ألاّ يستريح حتى يصطاد هذه العنود النافرة بعينها، فبدأ يراوغها ويخاتلها على ظهر حصانه، وخلفه زوجته تبادله الرأى فى كيفية الظفر بها، وإستمرت المطاردة طيلة ذلك اليوم، وقبل أن تودع اشعة الشمس تلك الروابى المغطاة بالزمام والشجيرات إستطاع نمر أن يجعفها بطلقة من بندقيته ذات الفتيل أصابتها من فوق مرفقها فزعت بسرة قلبها، عند ذلك تَرَجَّلَ عن ظهر جواده وذكاها، وقد شعر بالراحة التامة بعد أن بر بقسمه، وإنقشع عنه تعب ذلك اليوم المضنى فى لحظة ودعت أشعة الشمس الذهبية الأفق، و بدأ الليل بإرخاء أطراف

سدله وهو يلف أذيال رداء الشفق إلى الغرب، فى هذا المكان بنصف بَطْنِ تلك الهضبة المرتفعة، رأى نمر أن يستريح هو وزوجته من عناء ذلك اليوم المضنى، وأن يتعشيا من شوايا تلك الظبية التى أرهقتهما طيلة يومها بعد أن شط بهما المكان عن أهلها بسبب تلك المطاردة المستمرة عبر الوهاد والنجود والأودية والشعاب، فأشعل نمر النار بزناده وبدأ يشوى من خيار اللحم، و يتبادلان أكل اللحم المشوى مع حديث الأنس بين هذين القلبين، وتبادل الضحكات على بعض المواقف التى مرت عليهما أثناء مطاردتهما لتلك الظبية العنيدة، وكان التعب قد أخذ منهما مأخذه، وحتى الحصان قد أنهكته المراوغة والإنقضاض فصفن يهش بذيله ذات اليمين وذات الشمال، ومع هذا الحديث الرائق على صلوا النار، وتناول قطع من اللحم كل من يد صاحبه دب النعاس فى عينـي وضحاء، ولم يترك سلطان النوم عيني نمر المجهدتين من التحديق، إلا وغشاهما، وحينما شعر نمر بذلك قال:

: أراك متعبة، وتودين أن تنامى، فافرشى ذلك الفراش الخفيف، واتركى الرداء نتغطى به.

: وأنت ألا تحب أن تنام، إنك متعب أكثر منى، إننى لم أبذل مجهوداً مثلما بذلت من الحركة ولكد الحصان.

: لست متعبا كما تتصورين، إن صلابة الرجال تتحمل أكثر من ذلك، ولولا كثرة المراوغة لما شعرت بأى تعب.

: لن أنام وأنت ساهر، فإما أن ننام معاً، أو نظل ساهرين معاً.

: أنا قد لاأستطيع النوم، وذلك أننا بأرض قفر، لانعرفها ولانعرف مافيها، وماحولنا، فقد يداهمنا الأعداء، من قطاع الطرق، ونحن نياماً فلا نستطيع الدفاع عن أنفسنا. يستر الله ياأباعقاب، فهلم ننام معاً «يابعد عمرى»!!

: «أنت عمرى وروحى»!! ولكن لوداهمنا أحد ونحن نائمين فسوف ياخذون حصاننا على أقل تقدير، هذا إن ابقونا على قيد الحياة.

: يُلْجِمُهُمْ الله، وبإمكانك أن تضع طرف عنان الحصان تحت رءوسنا حتى إذا حافه حائف، فبطبيعة الحال سيتحرك و يصهل ونتنبه إلى ذلك.

: صحيح ولكن الأفضل أن أربط طرف العنان بيدى اليسرى وأجرد سيفى، وأضعه بجانبى مصلتاً، حتى لوداهمنا أحد أخذت السيف قطفت رأسه.

: كما ترى، فأنت صاحب الشأن.

وبعد أن أطفأ نمر النار ربط طرف العنان بيده، وجرد سيفه ووضعه إلى جانبه، واضطجعا فوق فراش واحد وتحت غطاء واحد فغطا فى نوم عميق بعد ذلك الجهد الشاق، يلفها غلس الليل بردائه السميك الغامق، حتى لايكاد المرء أن يرى كف يده إن هو مدها، وأطبق عليهم السكون الثقيل، حتى إذا جاء الهزيع الأخير من الليل أحست وضحاء بالرغبة لقضاء حاجتها، وخشية من أن تزعج زوجها وتطير النوم من جفنه سَلَّتْ نفسها من حضنه من تحت الغطاء، تمشى الهوينى على أطراف أصابعها، تتخفف عن الأرض لئلا تحدث صوتا ينبهه، وقضت حاجتها وعادت بنفس الطريق، وعندما أقبلت على الحصان، استأنس لرؤيتها فحرك رأسه و«أرهم» همهم بصوته بحيث جذب العنان، وعند ذلك تنبه نمر فزعاً، ودون أن يتكلم أو يتحسس مكان زوجته، أخذ سيفه وضرب الزول القريب منه، فقطعه الى نصفين، وياشدة هول مارأى!! وياقوة وقع ماعلم!! ولفضت وضحاء أنفاسها الأخيرة مع آخر كلمات اللطف والعتاب التى طرقت مسا مع نمر «أفايانمر» وقلقلت نمر الأرض، وبرق الشر فى عينه، وكاد ينفطر قلبه، فوقع مغشياً عليه لايشعر بما حوله، وظل منطرحاً على الأرض حتى كوته حرارة شمس اليوم التالى، وعندها صحا من غيبوبته يصارع مرارة الحياة، ويقاسى آلام الضمير، تحرقه نار الشوق، يطلب من يسعفه ليساعده على الخروج مما هو فيه، فلا يجد من حوله أحداً، واستنجد بقوة عزيمته، فخانته أعصابه، وجمع قواه فمدد جسدها وسجاه بالغطاء الذى كانا قد تلحفا به ليلة أمس، وأمتطى ظهر جواده، ولكده مصوباً نحو مضارب قومه، ليحضروا ويأتوا معهم بالنساء ليتم تغسيلها والصلاة عليها ودفنها قبل أن تعبث السباع بجسدها، ولم يحن موعد صلاة العصر حتى كانت الأفزاع قد وصلوا إلى مكان الحادث، وشرعت النساء بغسلها وتجهيزها، بينما حفر الرجال قبرها، ثم صلوا عليها ودفنوها فى بطين تلك الهضبة، ذلك القبر الذى تمنى نمر أن يكون قد حل بلحد ساكنه وغابت وضحا عن وجه الأرض مع غياب شمس ذلك اليوم المشئوم، وقد كاد نمر أن يخطف عقله عندما واروا جسمها بالتراب، وعادوا به محمولاً مع رديف له من أكثر القوم رزانة وعقلاً، وهو يعزيه ويحاول تخفيف مصابه، بما يتلوه عليه من الآيات القرآنية، والأحاديث

الشريفة، والأقوال المأثورة، والقصائد الشعرية، غير أن هذه التعازى لم تبلغ فى نفسه مبلغاً، وعند ذلك إنطلق لسانه بأول قصائد مراثية التى تجسدها أحاسيسه وتبين مايكنه لزوجته من الود الصادق، وما يصفها به من الصفاة و ينعتها فيه من النعوت حيث قال:(١)

٧٤ حي الجواب وحي من به يعزين	حيه ثمانين الف والف عددها
٧٥ حيه عدد ماناح ورق البساتين	حيه عدد ماناض برق عددها
٧٦ حي الصديق اللى شفيق يعزين	أبيات فى صفح الطلاحى رصدها
٧٧ هو يحسب إن الصبر قوله يلهين	الصبر مرمرنى وريقى عقدها
٧٨ صبرى دفنته بالزبارة بيبرين	متعلق حد السهل من سندها
٧٩ باح العزا ياصاح صبرى غداوين	لودرت عندى ذرة ماتجدها
٨٠ والله دين القطع دين باثر دين	وحياة من هو بالثماير بندها
٨١ ودين الصحيح وكلمة الحق تكفين	الله يكفى شر من هو جحدها
٨٢ ياسين ياأم اعقاب ياسين ياسين	ياشبه عنز الريم ترعى وحدها
٨٣ بنت الرجال وخالط عقلها الزين	وروايح الريحان زبحة جسدها
٨٤ جتنى عطاما سقت فيها تثامين	شيمة فهود كل من جاحدها
٨٥ للضيف لطفين وللصند قاسين	وجيرانهم مادوجوا فى صنهدها
٨٦ ماسقت فيها غير خمسة وتسعين	أصايل والكل تسبق بيدها
٨٧ لومن حدود الهند للشام للصين	لابواب مصر إلباب نجد بلدها
٨٨ تاقف نساها فى مزاها مزاين	وكل النسا ياليت وضحا بعدها

(١) خير مايلتقط من أشعار النبط جـ ٢ ص ١٩١.

٨٩ فيها خصال وافيات من الزين وابها مثايل ماحصينا عددها

٩٠ لياشافتن زعلان قامت تراضين مثل الشفوق اللى تلهله ولدها

٩١ ماناجت الغطروف بالمنطق الشين ولاقط بالخملات وَكّدْ وعدها

٩٢ ولاعاتبت بالهرج الأدنىٰ والأقصين ولا على الجيران عضت بيدها

٩٣ ولا أرثت شن صاربين الفريقين ولاوسوس الشيطان واكثر نكدها

٩٤ ياغصن موز ناعم بالبساتين اللى كما بَيْضَ القميرى نهدها

٩٥ وجدى عليها وجد من هو بسجين متحسر يشرب كرابة كمدها

٩٦ أووجد من خلوه ربعه مقفين فى رهر هي البيد فارق نجدها

٩٧ أوجد شيهان شهر من شياهين جَبّوا سبوقه باشهب الملح لدها

٩٨ من لامنى يبلى بجن الفراعين ومازال بالدنيا يعيش بنكدها

٩٩ ماأنساه أنا والله دين باثردين مادام روحى ماجت فى لحدها

١٠٠ وصلوا على من نور الحق تبين محمد المختار ماأدوا رعدها

وعندما وصل الى مضارب قومه، توافد عليه الناس من مختلف فئات قومه يعزونه فى مصابه الجلل، ولكن أنى لقلبه السلو عن تلك الزوجة، التى أحبها كل الحب، وأخلصت له كل الإخلاص، واختطفتها يد المنون بيد من؟ بيده هو، فى ساعة نحسه، ووضع لاشعورى، عندما جن عليه الليل هاجته الذكرى فحاول رسم صورة واضحة للوضع الذى هو فيه من خلال هذه القصيدة.

١٠١ البارحة يوم الخلايق نياما بيحت من كثر البكا كل مكنون

١٠٢ قمت أتوجد وأنثر الما على ما من موق عين دمعها كان مخزون

١٠٣ ولـي ونـة مـن سـمـعـهـا مـايناما | كنى صويب بين الاضلاع مطعون
١٠٤ وإلا كما ونـــه كـــسير الـــسلامــا | خـلـوه ربـعـه للـمـعـادين مـديون
١٠٥ فـي ساعـة قـل الـرجـا والحـامـا | فيما يـطـالـع يـومـهـم عـنـه يقفون
١٠٦ والا فـونـة راعـبـي الحـمـامـا | غـاد ذكـرهـا والـقـوانـيـص يرمون
١٠٧ والاخـلـوج سـايـقـه للـهـيـامـا | على حوار ضايع فى ضحى الكون
١٠٨ والارضـيـع جـرعـوه الـفـطـامـا | أمـه غـدت قـبـل أربعينه يتمون
١٠٩ عـلـيـك ياشارب بكاس الحماما | صـرف بـتـقـديـر مـن الله مـازون
١١٠ حـطـوه فـى قبر عـسـاه الهـيـامـا | عـنـد الـدفـن داع لهـا الله يـدعـون
١١١ فـى حـفـرة يـسقى ثراها الغماما | مـزن مـن الـرحمـة عـلـيهـا يـصـبـون
١١٢ جعل البخترى والنفل والخزامى | ينبت على قبر هوى فيه مصيون
١١٣ مـرحـوم يـاللـى مـامـشـى بالملاما | جـيـران بيته راح مامنه يشكون
١١٤ واوسـع عـذرى وإن هـجـرت المنايا | ورافقت من عقب العقل كل مجنون
١١٥ أخـذت أنـا وإياه سـبـعـة عـوامـا | مـع مـثـلهـن فـى كيفة ماها لون
١١٦ والله كـنـه يـاعـرب صـرف عـامـا | يـاعـونة الله صرف الأيام وش لون
١١٧ واكبر همـــي مـــن غـويـش يـتـامـا | وإن شـفتهـم قـدام وجـهـي يبكـون
١١٨ قلت السبب تبكون قالو يتامى | أنـا الـيـتـيم الـيـوم وانتم تـسـجـون
١١٩ قـت اتـشـكـى عـنـد ربعى عداما | وجونى على فرقى خليلى يعزون
١٢٠ قـالـوا تجـوز وانـس لامـه بـلامـا | بعض العذارى عن بعضهن يسدون

١٢١ قلت إنها لي وقفت بالولاما ... ولو بقى ثلثينهم مايسدون

١٢٢ أخاف أنا من غاديات الذماما ... اللى على ضيم الدهر مايتقون

١٢٣ أو خبلة ماعقلها بالتماما ... تضحك وهى تلدغ على الكبد بالهون

١٢٤ تـوذى عيالي بالنهر والكلاما ... وانا تجر عنى من المربصحون

١٢٥ والله لاأقول البيض عقبه حراما ... واصبر كما يصبر على الحبس مسجون

١٢٦ عليه منى كل يوم سلاما ... عدة زها الوارد حجيج يلبون

١٢٧ وصلوا على سيد جميع الأناما ... على النبى ياللى حضرتوا تصلون

وفى صباح كل يوم يتوافد عليه إناس من قومه يحاولون تعزيته وتسليته ولما طال بهم الوقت بدأ بعضهم يعذله على جزعه مما حدث، وحاول أكبر أبنائه عقاب أن يعزيه و يعذله بكلام يحاول فيه بطريقة لا إداركية التقليل من شأن أمه الخَلْقية عله يعزيه عنها، حينما قال لأبية: لماذا ياأبى كل هذا الجزع على أمى بعد أن قدر الله عليها ماقدر، إن أمى رحمها الله لم تكن بالشكل الذى تراه بعينك، فوالله إننى أذكر حينما كنت صغيراً وتكون مضطجعة على جنبها أكاد أن أدخل من تحتها مابين كتفيها وردفها!!

فرد عليه أبوه على الفور بلهجة مجرورة تقطر حزنا وأسى «هَذَا بَلَى أبوك ياعْقابْ» فذهب قوله هذا مثلاً، وانطلق لسانه بقصيدته التالية:

١٢٨ سار القلم ياعقاب بالحبر سارا ... وبزيزف القرطاس يامهجتى سار

١٢٩ سار القلم بالنوبهدات الصغارا ... ياعين وكرِيٍّ وحش حين ماطار

١٣٠ إكتب جواب مثل قطف الثمارا ... من قيل إبن عدوان ينظم له اشعار

١٣١ من ضامر كنَّه وقيدات نارا ... مانيرة النمرود تشبه لها نار

١٣٢ لـكـن ينهش بـى غليث السعارا والحـال مـنـى تـقـل يـبـراه نجار

١٣٣ أكـتـب بـغـال ولّـعْ الـقـلـب نارا خـلأن بـالـدنـيـا وحـيـد ومحـتـار

١٣٤ ياعقاب من فقده عيونى سهاي لـكـن فيهـا ذرشـب وزنجـار

١٣٥ إغْوِلْ عـويـل الـذيـب ليل ونهارا وأحن حنين الجيد ثاو على الدار

١٣٦ عـلـى حـبـيـب بـالـترايب توارى خـلأنْ مـشـتـاق وحـيـد ومحـتـار

١٣٧ والله لاكـــذب ولا هـــو قـــارا أيـضـا ولانـى بـالتمـاثـيـل بـذار

١٣٨ واخـلاف مـابين الـبـسـيـطـه وزارا ومـن طاف فى طيبه وللبيت زوار

١٣٩ يـاعـقـاب لـوتجمع جميع العذارى من الشحر إلى نجد لتونس لسنجار

١٤٠ ومن بصرة الفيحاء إلى قندهارا مـن غير وضـحـاء مـالك الله مختار

١٤١ أجـل، جـل الـزين حسن المسارا راعـى تـلـيـل فـوق الأرداف نـثـار

١٤٢ العـنـق عنق اللى تقود العفارى قـايد خشوف الريم فى دو الأقفار

١٤٣ يـاعـود مـوز تحـتـه المـي حـارا فى وسط بستان دنت منه الأثمار

١٤٤ يـاعـقـاب مـاوالله مـدير النهـارا مجرى سفينة نوح فى غب الابحار

١٤٥ لـوجـن بـنـات البدو صف تبارى عـلـى الحـنـايا دللن كـل خـوار

١٤٦ ولـوجـن بـنـات الحضر مثل المهارا سـطـر الـذهب بارقابهن تقل نوار

١٤٧ ولوجن بنات أصليب فوق الشهارى يـامـاحـلا بـشـفـيهـن دق الأوبـار

١٤٨ ولوجن بنات الترك هن والنصارى والهـنـد واللى ساكن كل الأقطار

١٤٩ جنى ضحى العيد وسط النهارى وقـالـوا لـنا يانمر قم طب واختار

١٥٠ مـاآخذ سوى مضنون عيني خيـارا الصاحب اللى فر عقلى معه طار

١٥١ فيهـا خـصـال وافـيـات كـثـارا ومـسـايـل فيهـا الـتـفـاكير تحـتـار

١٥٢ شـيـمـة فـهـود وبـه زعـانف نمارا ومن الجمال اليوسفى فيه تفكار

١٥٣ حِسَّـه لـطـيـف مثل جنى الثمارا يسبى اللبيب منادمه تقل سحار

١٥٤ قـلـت آه واو يـلاه مـر المـرارا مـن مـي زقـوم جـرعـتـه لـه أمرار

١٥٥ مـن فـقـد مسلوب الحشاتين سارا غـرو كما بـدر لهـا الـنـور نـشار

١٥٦ يـالـيـتـنـى وإياه نـثـنـى المشارا فـوق الـسبايا واشهب الملح زَجَّار

١٥٧ لـكـن مـلـك الموت جـانـا غـتارا فـرق وشـتـت واودع الـقـلب محتار

١٥٨ ريحـه جـسـدهـا مـثـل ريح البهارا وبين اشـفـتيها بالمثل حص مَحَّار

١٥٩ لـولا ضـلـوعـى فـر قـلـبـى وطـار لـكـن يـنـشر بـسـرة الـقـلـب نـشار

١٦٠ مـن لامـنـى بـه ثـور أوهـو حمـارا والـثـور أخير إن قيـل لـه دور ينـدار

١٦١ وصـلاة ربـى عـد وحـش الـقـفـارا وإلا عدد سـحـب تروي بالأمـطـار

١٦٢ عـلـى نـبـى الخـلـق سر وجـهـادا اللـى خـضـع لـه كل قـاس وجبَّاد

واستمر نمر بمراثيه التى تقطر الماً وحزناً، تفطر القلوب وتحطم الأضلاع لنستمع اليه فى هذه المرثية الطويلة اللى نقتطف منها.

١٦٣ الـبـارحة فى هجعة النوم غرقان ويـح مـن الـوجـلا وفـرقـى نـديمى

١٦٤ زارن خـلـيـل فـيـه وصـف لنابان وصـايـف المحـمـول هـيـف الـبـريم

الى أن يقول واصفا حالته مع أبنائه.

١٦٥ أبكى أنا واعقاب ينحب وسلطان قـالـوا يـتـامـى قلت أنا اليتمى

١٦٦ قلبى غدا به سمهرى ذارع الزان قـالـوالسليم وقـلـت مـانى سلـمى

و يستمر فى طلب العفو والمغفرة لها.

١٦٧ يـالله بجـاهـك ثم جـاه إبـن عـدنـان وجاه الرسل مع جاه موسى الكليمى

١٦٨ والـعـرش والـكـرسـى ولـوح وقـرآن تـفـتـح لها فى جنتك يارحيـمى

و يـسـتـمـر بمـعـانـاتـه تـلـك يقاسى مرارة العيش، لايلذ له منام ولايستسيغ طعام، يستخدم من الماء مايضمن استمرار الدورة الدمو ية حتى دب به الهزال وأصبح جسمه ضـعيف البنية مما جعله عرضة للأمراض التى أنهكت صحته حتى فارق الحياة والتقى بر بـه، وبهـذا ترك نمر هذا الصدى المتمثل بقصائدة التى رثى بها زوجته، وأصبح رمزاً لمن فعل بهم الحب فِعْلَهُ يستشهد به الشعراء حتى وقتنا الحاضر.(١)

(١) خير مايلتقط من اشعار النبط جـ ٢ ص ١٩٤.

٢٣ ـ تزوجها فكانت عليه خيراً وبركه

يمر الإنسان بتجارب عديدة فى مدرسة الحياة العريقة، هذه التجارب تصقله لتحفر نتائجها بحروف ثابتة فى عقله، لايمحوها تكرار الليالي والأيام، وهذه النتائج تشمل مختلف شئون الحياة، إبتداءاً من عهد الطفولة وحتى الشيخوخة المتأخرة، وكل يوم يمر عليه قد يترك بصمة تدل على معلومات جديدة فى موضوع معين، أو تصحيح لمعلومات سابقه كان قد تعلمها بالأمس، قد تكون هذه المعلومات تتعلق به شخصيا أو بمن حوله من الناس، والجماد، والبنات، هذه المعلومات أو التصويبات يتلقاها عن طيب نفس، أو عن كره منه، لكنها فى كلا الحالين تترك آثارها الباقية لديه، ويمكن أن يبتعد عن شيئ يكرهه وهو لايدرى لعل فيه خيراً له، و يتعلق بأشياء قد تكون وبالاً عليه، قد يقصد بقعة من البقاع وهو لايدرى أى شر يتربص به، وربما إجتنبها وفيها رزقه وبحبوحة عيشه، ولربما إختار الرفيق لسفره فيلاقى منه النكد والعذاب، ولعل الصدفة تجمعه بزميل يجد فيه الإخلاص والمحبة والتفانى فى سبيله، وقد يحرص على رفيقة حياته، و يبذل الغالى والرخيص من أجلها فلا يجد عندها المردود الذى يوازى مابذله فى سبيلها، ولاسيا عندما يكون المرء كثير السفر والترحال، إما لتصريف تجارته، أو تحقيق هدف علمى ينتقل من أجله، أو لأعمال يكلف بها من قبل الجهة أو السلطة المشرفة عليه، وربما إرضاءاً لهواية يهواها، هذا التنقل والترحال ينعكس صداه على تصرفات زوجته، و يتخذ ماإذا كانت تستطيع إدارة شئون بيتها فى غياب الرجل على الوجه المطلوب، أم هى من النوع الذى لايحسن التصرف وتحتاج إلى المساعدة الدائمة، وإن كانت من هذا النوع فقد تكون عرضة لعقوبات عديدة من زوجها آخرها الطلاق، ثم الإستعاضة عنها بالزواج من أخرى، وإن كانت من النوع الذى يعتمد عليه فلقد يتمسك بها و يعض عليها بالنواجذ، وكان الزواج فى ذلك الوقت لايكلف إلا القليل من المال، واليسير من الجهد، خاصة إذا كان الإنسان فى بحبوحة من العيش، أو من أسرة مرموقة، أو فى ريعان الشباب، ولكن إستمرارية هذا الزواج ترتبط بمدى محافظة المرأة على مايختص بزوجها من مكانة معينة وعلاقات

إجتماعية، أو ثروة مادية، أو علاقتها معه ومع أقاربه وقد تسنح له الفرصة بالصدفة فيجد شريكة حياته التي يسعد بها وتصبح بالفعل شريكة حياته في مثل هذا الوضع عاش «رُشَيْد» متنقلا من مكان إلى آخر تارة يعمل بتجارته، وأخرى يكلف بمصاحبة الغزو، وثالثة يتصدر فوج الحجيج لأداء فريضة الحج، وقد تطول هذه الرحلات فتبلغ الستة أشهر، وقد لاتتجاوز اسبوعاً واحداً، ونتيجة لهذا التجوال حصل على عدة تجارب في الزواج، وكانت كلها تترك بصمات محفورة في ذهنة لايزيلها مرور الزمن، ففي عنفوان شبابه تزوج أول واحدة رزق منها طفلين وفارقت الحياة وتعلق بالأخرى بعد أن أجهد نفسه في الحصول عليها، وذلك لسبب ظاهر وهو كونها «مُحَيَّرة» من إبن عمها كما هو سائد يومذاك، وقد أعجبته وأعجبها لكن هذا العائق وقف دون تحقيق رغبتها إلا بعد أن قدر الله على إبن عمها بالوفاة، وعند ذلك خطبها إلى أبيها حيث زوجها إياه، وبحكم الثراء النسبي الذي كان يتمتع به آنذاك فقد أغدق عليها الهدايا وكافة متطلباتها، وهكذا عاشت «رُقَيَّةُ» في بحبوحة من العيش لم تعهدها في بيت أبيها لكن زوجها كعادته لم يلبث أن سافر في مهمة طويلة قاربت نصف السنة، وفي أثناء غيابه عنها ومن منطلق حبها لذاتها وإستغلال مال زوجها في الأوجه التي ترى فيها خدمة لها وإظهاراً لأبهتها أمام سيدات المجتمع، فقد قَرَّرت أن تستعين بالخادمات فجعلت أجراً للمرأة التي تحضر لها الماء يومياً، وأجراً آخر لمن تطحن لها الحب،ولمن يحضر لها الحطب، ولمن تحلب لها الغنم وتجهيز اللبن، ولمن تطبخ وتنظف لها المنزل وأوانيه، وبأمكانها أن تكتفي بواحدة لتقوم بهذه الأعمال جميعها، ولكن حبها للظهور صار يدخل بيتها في اليوم أربع من النساء، كل واحدة منهن تقوم بعمل معين، ولو يوجد عندها إختصاص آخر، فإنها لاتتورع في أن تأتي بمن تقوم به غير أنه بعيد عنها، فلربما برزت الحاجة لهذه الوظيفه بعد أقل من تسعة أشهر عندما تلد بكرها، فإنها بطبيعة الحال ستحتاج إلى صبية متوسطة العمر، أو عجوز مسنة لتحمل هذا الوليد، وتقوم بشئونه لتكفيها شر إزعاج صياحه أو خدماته الأخرى، أما الرجل الذي يطرق بابها اسبوعيا فهو ذلك الحطَّابُ الكهل الذي يحضر لها شبكة من الحطب في الأسبوع، إلا في أيام البرد فإنه يضاعف مايحضر لها من الحطب، وعاشت رقية وكأنها الطاووس المختال، معجبة بنفسها تنظر الى ظلها وتفحص خيالها بالمرآة بين الحين

والآخر وكأنها «زبيدة» في زمنها، هذا يجرى وزوجها رشيد في غيبته لايعلم بما يجرى خلفه، وانقضت المدة المقررة له وعاد إلى أهله الذين غادرهم قبل ستة أشهر بعد أن ترك لدى زوجته كل مايملك، ولما عاد وجد البيت قد إمتلأ بالنساء العاملات وكل واحدة تقوم بعمل معين، فسأل زوجته:

: ماذا تعمل هذه المرأة وأمثالها ممن أراهن في البيت؟
: هذه فلانة قد إستأجرتها بكذا وكذا لتحضر لنا الماء يومياً!
: وأنت، لماذا لم تحضري الماء بنفسك، مثلك مثل بقية النساء في البلد؟
: ألا تعرف أن «جذعة» الماء ثقيلة علي ولاسيا أنني حامل كما تعلم؟
: كل النساء يحملن ويحضرن الماء على رؤوسهن حتى تحين ولادتهن!!
: أما هذه، فلانة فتقوم بعمل المنزل من الطبخ وتنظيف الأواني والكنس.
: يالله العجب!! وأنت ماذا تعملين!؟
: ألا تعلم أن الإنحناء لكنس البيت، والغبار المتصاعد من الأرض يضر بالحامل؟ وأن الإقعاء عند القدر وتوثيفه وعملية الطبخ قد ينتج عنه سقوط الجنين؟
: لم أر في حياتي إمرأة تترك عمل منزلها وَتَكِلُهُ لغيرها إلا أنت!؟ ثم إن النساء منذ القدم وهن يقمن بأعنف الأعمال ولم أسمع بأن واحدة منهن أسقطت حملها من جرّاء عمل الطبخ أو التنظيف!
: ماالذى يدريكم أيها الرجال عن أحوال النساء؟
: أنظرى، من ذا الذى يطرق الباب؟
: ربما يكون الحطاب الذى يحضر لنا الحطب، فهذا موعده، لقد اتفقت معه على أن يحضر لنا شبكة من الحطب كل أسبوع الا في أيام البرد فإنه يحضر لنا شبكتين، ووالله إنه لرجل مخلص يحضر لنا من جزل الحطب و يابسه مايسد حاجتنا.
: إيه، الحطب يمكن أن نتغاضى عنه، ولكن المصيبة الأشياء الأخرى،
: إن الطارق لم يكن الحطاب، وانما هى الطحانة، تلك التى تقوم بطحن الحب لنا، وقد كلفتها بأن تطحن لنا كمية كبيرة من الدقيق حتى إذا قدمت نعمل لك وليمة كبيرة، إحتفاءاً بقدوك الميمون!.

: طحن الله غطامك!! وحتى الطحين قد استأجرت من يطحنه؟ ماذا تكونين أيتها الكسولة؟ إنني لم أر مثلك قط!! وماذا بقى بعد!؟

: إنه لم يبق أحد سوى حالبة الغنم التى تأتى إليّ فى الصباح الباكر والمساء المتأخر، لتقوم بعملها بأمانة وإخلاص، ولله درها، ماأكبر زبدتها!!

: وماذا بعد أيضا!؟؟ يقولها بكل تأفف.

: لماذا أراك غاضباً؟ لم يبق بعد ذلك غير خياطة الملابس، تلك التى تخيط ملابسى وتنقشها، وتطرز جيوبها وأكمامها بالنقوش الجميلة وهذا الثوب الذى أرتديه من شغلها!! إنها بارعة فنانة فى خياطتها.

: لاجَمَّلَ الله حالك، أيتها الخرقاء!!لم تتركى عملاً إلا أوكلت به أحداً يقوم به، ولم يبق سوى من يأخذ اللقمة و يبردها و يضعها فى فمك؟

: أتسهزئ بى!؟

: بل وأضحك بملء فى!! وهل هناك شيئ لايضحك!؟ فشر البلية ما أضحك.

: أتر يدنى أن أقوم بكل هذه الأعمال وأنا كما ترى ثقيلة لا أستطيع أن أعمل شيئاً؟

: كل النساء تحمل وتلد، حتى تصل إلى أكثر من عشر مرات، و يقمن بأعمالهن بل و يساعدن أزواجهن فى الأعمال الأخرى.!!

: بعض الرجال لايعذر ولايأوى آه.. إن ظهرى يؤلمنى، آه ماأشد هذا الألم الذى يطعن ظهرى آه لقد نزل إلى خاصرتى!!

: يقول فى نفسه أعطاك الله الطاعون ثم يستأنف، ومن أين تدفعين أجوراً لكل هؤلاء الناس؟

: خيرالله، ثم خيرك كثير، أبشرك أنه لم يتراكم علينا من الديون شئ.

: إن لم يتراكم اليوم فسوف يتراكم غداً إن دمنا على هذه الحالة.

و يدخل رشيد ليتفقد الأرزاق والمؤمن التى تركها فى منزله، والتى قدر لها أن تكفيه حولاً كاملاً، ولم ير منها شيئاً، بل تعداها الأمر الى بعض المؤمن والسلع التى اعدها كنوع من التجارة، وقضي على البعض منها، فعند ذلك ثارت ثائرته على زوجته التى عملت كل هذه الأعمال و بددت ثروته التى جمعها بعرق جبينه عبر مشاق السفر و بين ثنايا المخاطر، وفرطت بها فى سبيل خدمتها وراحتها الزائفه،

وعند هاحلف وآلى على نفسه ألا يبقى لديه من الخدم أحد أبداً عدا الحطاب، أما بقـيـة الأعمال فقد طلب منها أن تقوم بها هى بنفسها حتى لو أتعبها ذلك مع ثقل الحـمـل، وعندما رأت منه العين الحمراء، رضخت للأمر الواقع وقامت بعملها على خير مايرام، وبقى فى البلد ثلاثة أشهر ثم غادها بعد أن وضع عندها مايكفيها من المؤن لمدة ثـلاثـة أشـهر، ومابقى بعد ذلك وضعه فى مستودعات خاصة بعيدة عن متـناول يدها، وبعد أن عاد من مهمته وجدها قد أنجبت له ولداً، ولم تتركه يفرح بـالمولود الجـديد قبل أن تنغص عليه فرحته بقائمة من الطلبات الجديدة التى أملتها عـلـيـه، مع قـائـمـة أخرى بالديون التى راكمتها على ظهره أثناء فترة غيابه القصير، فعـنـد ذلك إنـقلبت فرحته الى نكد، عندها طرح القوائم المقدمة إليه جانبا، وبدأ يـداعـب إبـنـه وكـلـه فـرحـة وسرور بهذا القادم الميمون، ولكنه تصور مستقبله الغير مـطـمـئن مـع زوجته، تلك الزوجة الهدامة التى تبدد ثروة زوجها يمينا وشمالاً بدون مـبـالات وتـبـتـلـعـهـا كما تمتص البطحاء الظمآنة وَشَلاً من الماء، ولما أصبح عليه الـصـبـاح وتـفـقـد شـئـونه الخاصة وجد النقص الواضح فى كل أمواله، من مواشى ومـمـتـلـكـات وعند ذلك خطر بباله أن يطلقها لأن إمراة كهذه لايمكن أن يرغبها أو يجـارها أحد، ولكنه وجد مشكلة هذا الطفل الصغير البرئ الذى شاء قدره التعيس أن تكون هذه أمه، تلك التى تشبه المنخل لثروة أبيه، عند ذلك قرر أن يبقيها لديه راضـيـا بـما قـدر الله لـه وقسم، واستمر يقاسى آلام التحمل حتى طارت ثروته من بين يـديـه، فاصبح فقيراً مدقعاً، وبعد أن بلغ الصبى حولين من عمره مرض مرضا مـفـاجـئاً إختطفت يد المنون روحه فى النهاية، وعند ذلك شعر والده بالحزن والأسى ولـكـنـه فى نفس الوقت وجد الطريق أمامه ملائماً فعمد الى تطليق زوجته وردها إلـى بـيـت أهـلـهـا ثم أسـتـمر فى عمله، ولم يمض عليه سنتين أخرين حتى نبت ريـشـه مـن جـديـد وأبَشَّتْ راحـتـه بالندى، عند ذلك خطب فتاة ثانية من عائلة مـتـوسـطـة وعندما تزوجها وأسكنها فى بيته وجدفيها المحافظة التامة على ماله وترتب مـنـزلـه، والـقـيـام بجـمـيع أعمال بيتها، وكعادته سافر بعد الزواج بمدة وجيزة وعند عـودتـه، وجـدهـا خير حارس لماله قد حفظته ونمته، وأقتصدت فى مصاريفها ولكن الخـصـلة التى لم تعجبه فيها هى «ضيق عينها» ذلك أنها لم يدخل عليها أثناء غيابه

أى إنسان، وحتى أقرب الناس إليه، أخواته، وأعمامه، فضلاً عن الناس الآخرين، وهو بطبيعة الحال رجل كريم يأتيه الضيوف، و يزوره الأصدقاء، و يقصده الرفاق، و يعقد فى بيته بحضوره بعض الاجتماعات التجارية لمجموعة التجار، وبيت هذا وضعه لايناسب «مُوْضِي» فهى إمرأة لاتريد أحد أن يدخل بيتها ولا يجلس مع زوجها، إنها تمتلئ غيظا عندما يطلب منها زوجها عمل وليمة للضيوف أوعشاء «للاصدقاء» فتكثر من كلمات التضجر وقد تصل بها الحالة الى السباب والشتيمة بطريقة غير مباشرة لهؤلاء القادمين الذين كلفوها الجهد والتعب واثقلوا ميزانيتهم بهذه الوجبه التى كان يمكن أن تكفيهم شهراً كاملاً، وتكاد تنفجر حنقاً عندما يزوره أحد أقاربه وهى تظن أن هؤلاء الزائرين لم يأتوا إليه حباً له ومودة فى رؤيته،وإنما جاءوا بقصد النيل من ثروته وخيراته وربما سمعوا منها بعض ماينفلت به لسانها من الكلام، فضلا عن العبوس الثابت على جبينها عندما ترى أحداً من أقاربه يدنف الى بيته، مما جعل بعضهم يمتنع عن زيارته، والبعض الآخر يباعد بين الزيارة والأخرى إلى أن يقطعها نهائيا، وتبعاً لذلك تدانت زيارة أصدقائه له شيئاً فشيئاً، وتلاشت الإجتماعات التجارية فى داره، وبدأت مكانته الإجتماعية فى التقلص، كل هذا وهو يتحمل إنعكاسات تصرفاتها تلك حتى إنفض الناس من حوله بسببها، وبذلك فقد جزءاً رئيسيا من ذاته، وعندما وجد نفسه بهذا الموقف دار بينه وبين زوجته «مُوْضِي» هذ الحوار.

: ياموضى لماذا لم تَفْتَح الباب عندما طرقه أخى فلان؟

: إنك لم تكن موجوداً، ولم أعرف ماذا يريد!؟

: هذا أخى لم يأت لبيتى إلا وله حاجة، إن معه زوجته وأبناءه.

: لسنا مستعدين على فتح بابنا لكل من هب ودب!! لماذا لم يجلس فى بيته؟

: هذا أخى اما تعلمين ياإمراة؟

: أخوك، عمك، خالك، قريبك، إنهم كسائر الناس لهم بيوت يجلسون بها، لماذا يأتون لإزعاج الناس؟ إنهم لم يأتوا إلينا حبا فى عيوننا وإنما أتوا للنوال من نعمتنا، أليس كذلك؟

: إذا صحيح ماسمعت عنك!!

: وماذا سمعت عني؟ لعلهم نقلوا لك كلاماً قبيحاًعني!؟
: لم ينقل عنك إلا أنك تبدين تذمراً عندما يزورك أحد من أقاربي وتقابلينهم بتقطيبة جبين ثابتة، وقد يسمعون منك بعض الكلمات التي تنم عن عدم إرتياحك لـزيـارتهم، تقدمين لهم الطعام من غير نفس سمحة، لايرون أثر الإبتسامة على محّاك، تودين لو يغادرون من ساعتهم، وتمنين عدم قدومهم.
: بعض ماقلت صحيح، إنني كما قلت لك كل إنسان وله بيت يضوى إليه، ولسنا ملزمين بعباد الله نصرف عليهم، فالله خلقنا لوحدنا وكفل لكل واحد رزقه، ولم يخلقنا للعناية بالآخرين.
: إذا كان هذا مايتعلق بأهلي، واقاربي فكيف أصدقائي؟
: أصدقاؤك!! إنهم أصدقاء الرخاء «كبار البطون، وساع الركون»! صديقك نفسك وماتملك يدك، أما ماعداهم فليس هناك أصدقاء.
: ولكن لديّ مجموعة من الأصدقاء الذين أستند إليهم في المهمات، ولايمكن أن أعيش بدونهم، إن الإنسان لايستطيع أن يعيش معزولاً عن أصدقائه، لقد إمتزجت معهم منذ الصغر، حتى أصبحوا جزءاً من حياتي.
: لاصديق لك غير مالك!!
: هذا الكلام مرفوض!! فأحيانا لايغني المال، ولاينفع الإنسان غير أقاربه وأصدقائه.
: إذا كنت مصراً على ذلك، فبإمكانك أن تزور أصدقاءك في بيوتهم.
: وبيتي!! ألا يبادلونني الزيارة فيه؟
: البيت من مسئوليتي ومافيه تحت تصرفي!!
: إذاً يمكنك أن تطردي ضيوفي إن هم قصدوني؟
: وهل بيتك مضيف حاتم الطائي؟
: كل إنسان على مقدار إستطاعته، لكن سأقوم بواجبي بحسب مقدرتي!!
: مادمتُ بهذا البيت فإنني أكره أن يدخله أحد، أقارب أصدقاء ضيوف، إجتماعات تجارية... الخ.
: الإجتماعات التجارية هي التي تدر علينا الأرباح وتفتح لنا مجال الرزق من خلال الصفقات التجارية.

: بإمكانك عقد هذه الصفقات فى دكانك بالسوق!

: إن بعض ضروب التجارة لاتصلح أن تبحث فى السوق، خاصة إذا كانت البضائع المراد جلبها جديدة فيجب إتخاذ السرية التامة حتى طرحها بالأسواق، وذلك لحيازة السبق فيها وبالتالى إكتساب الربح الكافى منها.

: أنا لا أعرف هذا الذى تقول!! وكل ما أعرفه ألاّ يدخل أحد فى بيتى هذا، وإذا أكرهتنى على ذلك فإن لدى طريق آخر.

: عجيب أمرك أيتها المرأة!! هل أصبحت الرجل فى البيت؟

: إننى لأزال إمرأة، ولكنى أتكلم فى نطاق بيتى.

: لوأنك تعرفين إختصاصك فى بيتك لما تفوهت بهذا الكلام، إن عليك أن تقومى بإدارة شئون بيتك وفقا لرغبتى وتصرفي!!

: لا تنس أن كل عمل أقوم به يعود عليك بالخير، إن فيه حفظاً وتوفيراً لمالك!!

: لأريد مثل هذا التوفير، آه...لقد أبتلانى الله بالمتناقضات تماماً و يتلوا قول الله تعالى «**ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتعقد ملوما محسوراً**» صدق الله العظيم..

: إن هذا طبعى ولا محيد لي عنه!

: وأنا أيضا هذه طبيعتى وليس لى عوضاعنها، إن لي من الأقارب والأصدقاء والمعارف والضيوف مالأستطيع العيش بدونهم، أزورهم و يبادلوننى الزيارة، آنس بقربهم، و يسعدون لرؤيتى، أفرح لقدومهم و يستبشرون بوجودى، أصلهم ولايقطعوننى، هذه المجموعة التى أعتبر نفسى عضواً فيها لايمكن أن أنفصل عنها.

: إننى لأريد كل ماذكرت، إننى أريد العيش لوحدى، معك أنت لوحدك، لاقريب ولابعيد يدخل علينا عتبة هذا البيت!!

: لقد تَحَمَّلْتُ حَيْفَكِ كثيراً ياإمرأة!! يقول ذلك بغضب.

: وأنا لاأستطيع أن أتحملك أكثر.!!

: إذا فأنت طالق بالثلاث اللائى لا رجوع فيهن، وهلمى معى لأوصلك إلى بيت أهلك، ستر الله علينا وعليك.

* * *

وبقى رشيد بعد ذلك أعزبا فترة من الزمن حتى إهتدى إلى فتاة تَوَخّى فيها الخصال التى يرغبها، فخطبها إلى أبيها، وتزجها فوجد فيها بعض ضالته، لقد فتحت صدرها لزائريه من أقاربه وغيرهم، وقامت بواجبها نحو خدمة ضيوفة، وصانت ماله من التبذير، ففرح بها فرحاً شديداً علها تنسيه مالقيه من سابقتيها من تبذير الأولى وتقتير الثانية، غير أن فرحته تلك لم تلبث أن تبددت أمام خصلتين برزتا فيها، بعد فترة من الزمن، أحدهما جحودها لنعمة الله عليهم، والثانية الثرثرة وكثرة النقاش والجدل، خاصة عند إجتماعهم وقت النوم، هاتان الخصلتان إكتشف بوادرهما منذ البداية، ولكنه ظن أنها ستتلاشيان مع مرور الأيام، وربما يزولان بعد مضى فترة من زواجها، وفى هذه الفترة قد حاول إرشادها وإقناعها أن هذا الطريق الذى تسير فيه خطأ واضح، ولكن ظروف عمله لم تمكنه من البقاء عندها الفترة الكافية، لكى يقنعها بوجهة نظره السليمة، فغاب عنها غازيا لمدة ستة أشهر، وبعد عودته فى مساء تلك الليلة فى أول لقاء له مع زوجته، وبدون أن يسألها بدأت كعادتها بالثرثرة، فسردت عليه شريطا طويلاً من المعلومات التى يحبها أو لايحبها، على مدى فتره غيابه، ومضى من الليل ثلثيه ولسانها يقرع لهاتها، لايسكت أبداً، وكلما انتهت من حكاية بدأت بالأخرى، مع شيئ من التهويل وتضخيم بعض الأمور، وطرح المشاكل برمتها أمامه، وكأنه موكل إليه حل مشاكل الناس جميعهم، وتعرضت لكل صغيرة وكبيرة جرت أثناء غيابه، سواء مايخصه أمرها أم لايهمه حتى غاصت فى أعماق مشاكل الناس، دون أن تترك له فرصة لمعرفة رغبته فى هذه الثرثرة أم لا، وأخيراً نفذ صبره فقاطعها قائلاً؛

: يافِضَّة، مهلك، مهلك، لماذا تسردين عليَّ كل هذه المعلومات؟ والحكايات والمشاكل التى لاطائل منها ولاعلاقة لنا ببعضها لامن بعيد أو قريب!.
: أريد أن أخبرك بكل ماجرى بعدك لنا، لتعلم مقدار المتاعب والمشاكل التى صادفتنى أثناء غيابك!
: ليس هذا وقتها، إننى الآن قد أنهكتنى مشقة السفر، وأحتاج إلى الراحة هذه الليلة، وعندما أستريح يمكنك أن تعرضى على مافى جعبتك من معلومات.
: ألا تريد أن تلم بالمعلومات وهى طازجة؟ وفور وصولك؟

: ياإبنة الأجواد!! هذه المعلومات أكثرها لايخصنا ولايمت إلينا بصلة.
: وربما حتى المعلومات التى تخصك لاتحب أن تسمعها لأنك لم تسأل عنها!؟
: لقد قلت لك أن وقت عرض هذه المعلومات غير مناسب الآن!
: ومتى تراه مناسبا؟ إذا فات الوقت؟ فخير البر عاجلة!!
: بعض هذه القصص والروايات تنغص على حياتى، فمن الأفضل تأجيلها إلى وقت آخر.
: يبدو أنك لاتهتم بشئون الناس ولافيما يجرى لهم.
: يهمنى شئون بيتى أولاً، قبل الإهتمام بما قالت فلانة ومافعلت علانة.
: وحتى شئون بيتك لم تسأل عنها؟
: لاحول ولاقوة الا بالله، لقد أطرت النوم عن عينى، واستدار رأسى من كثرة الحديث المتصل، الآن نعود إلى شئوننا الخاصة، فنسأل مجبرين!! الشكوى إلى الله،؟ كيف أنتم بعدى، عسى ألا يكون قد قصر عليكم شيئاً أثناء غيابى؟
: لقد قَصَّر علينا كل شئ، فالمصروف الذى تركته لنا نفذ ولم يبق لدينا منه شيئ!؟
: عسى ألاّ تكونوا إستندتم من أحد شيئاً؟
: لا والله لم نستدن «بارة» واحدة.
: الحمد لله.!
: ماذا تحمد ربك عليه؟ وأنت لم تقاس ماقاسيته أثناء غيابك!
: أحمد الله على كل حال، فاحمدى ربك ياإمرأة!؟ وكيف الإبل؟
: لقد أصاب بعضها الجرب، وخسرنا الكثير لشراء طلائها من الزرنيخ والنورة وأجرة الرجال الذين ساعدوا فى طليها، وتماثلت للشفاء ثم برأت.
: وكم هنأتم منها؟
: واحد أو أثنين!
: الحمد لله، لقد أزعجنى خبرك السيئ!!
: والغنم لو تدرى ماذا جرى لها!!
: ماذا جرى لها؟
: لقد أصاب الماعز «النحاز» وأصاب الضأن «الطير» وكلفنا فلانا بعلاج الماعز

بالفصد، والضأن بالكى فنجا منها مانجا وفنى منها مامات.
: جعلها الله فداءاً لأهلها!! وكم مات منها؟
: إثنتين من المعز، وواحدة من الضأن!
: الحمد لله على قدره وقضائه.
: وبعد أن برأت من المرض ضاع عدد كبير منها!
: لإن ضاع نصفها لايهم
: لقدضاع ثلاث من المعز، وبضع شياه، ثم بحثنا عنها فوجدناها.
: الحمد لله على «العقلان»!!
: لم تسأل عن الذين تطابهم بدين الحبوب من الفلاحين!!
: ماذا جرى لهم؟
: لقد أتى الدَّبَا، وأكل مزروعاتهم، فلم يبق لهم شيئاً.
: لعل الله أن يعوضهم فى زراعة الموسم القادم ويردوا إلينا حقنا.
: ولكنهم الآن يحتاجون الى من يُدَيِّنَهُمْ من جديد حتى ذلك الوقت الأمر بسيط نُدَيِّنَهُمْ، ويقومون فى العام القادم بايفائنا حقنا السابق واللاحق.
: وفلان الذى لايملك من الحياء مثقال ذرة، إنه يتكلم بملء فه فيقول إننى لن أعطى رُشَيْداً حقه إلا بعد المداعات عند القاضى!
: كفى، كفى، كُفِّي عن هذا الهذيان ياإمرأة!! لقد إنفجر راسى!!
: لماذا لم تسألنى عن أهلى وأهلك؟؟ أليس لهم قيمة عندك؟
: كفى ياإمرأة، وهل تركت لي مجالا لأتكلم، ثم إننى لوسألتك فستقولين إن فلانا سقط فى البئر واندقت عنقه فمات، وعلان سقط من النخلة وانكسر ظهره، وفلان سقط من دابته وتهشمت أضلاعه، كفى سماع هذه المآسى!! كفى!؟
: والله لكأنك تعلم الغيب، ومايدريك أن فهداً سقط فى البئر وانكسرت رجليه، وسعداً جفلت به دابته وأطاحت به على الأرض فشج رأسه.
: إسكتى إسكتى!! لاتتلفظى بكلمة واحدة، وأبقى ماعندك إلى يوم غد.
: أمرى إلى الله،!! سأصبر إلى يوم غد، ولو أننى ربما لنا أستطيع أن أنام هذه الليلة، مما يتزاحم فى ذهنى من الحكايات والأخبار.

: دعيها، دعيها!! لا أخرجها الله من لسانك، يقول ذلك وهو يتثاءب بعد أن مضى من الليل أكثر من ثلثيه.

ومع سكوت هذا اللسان المهذار غط فى نوم عميق لم ينتبه منه إلا بعد طلوع شمس اليوم الثانى، عندما بدأ أول الزوار الذين علموا بقدومه من الجيران والأصدقاء يتوافدون عليه، فشب لهم واستقبلهم كعادته عند قدومه من أى سفر، ودعاهم إلى وليمة يجتمع عليها أقاربه وأصدقاءه بين الحين والآخر، ولما فرغ من إستقبال الزائرين دخل إلى بيته، فاشرف على غرفة مستودع الأرزاق وإذا فيها من المؤن مايكفيهم مدة طويلة خلاف ما أخبرته به زوجته ليلة البارحة، وقد تجمع لديه من المعلومات التى أقتبسها من زائريه أن معظم المعلومات التى سمعها من زوجته فيها الكثير من التهويل والمبالغة، وعندها أدرك أن زوجته شانئة لنعمة الله جاحدة لأفضاله عليهم، تحب أن تُكَوِّنَ المشاكل وبث الخلافات بين الناس بما تختلق من أقاويل، وتنميّ من ظغائن، رغم ماهى عليه من الخصال الأخرى التى إمتازت بها عن سابقتها، ولكن السمات التى لديها قد طغت على محاسنها، وهى من أكبر العيوب التى تعد مثلبا لأى إنسان ذكراً كان أم أنثى فعند ذلك قرر أن يركز على نزع هذه الخلال منها بالإقناع حينا، وبالتهديد وربما لجأ الى نوع من العنف أحيانا أخرى، عَلَّها تقلع عما لاطائل تحته، ولكى يجتث هذه الصفاة الهدامة منها و يغرس فى أماكنها غراساً مثمرة أو يبقيها قفراً يبابا على أقل تقدير، ولما ضاقت ذرعاً باجراءته تلك، التى إعتبرتها تدخلاً فى شئونها قالت له:

: أراك لاتصغى لكل أحاديثى إليك، وكأنك تتضايق مما أخبرك به؟
: الله، الله!! و«بالحيل»!! أتضايق من كثير مما تسردين عليّ من القصص والروايات.
: هذه أخبار ممتازه، أتلقفها لك من هنا وهناك، وأجمعها لأصبها فى أذنيك لتستمتع بها.
: وبئست المتعة يا ابنة الحلال!!
: أحمد الله الذى جعلنى هكذا ولم يجعلنى ممن يمشين بالنميمة!!
: هذه الخصلة أخت النميمة، ولايستبعد أن تصلى فى المستقبل الى هذه الصفة!

: أرجو المعذرة فإنني والله لاأروى إلا القصص والأخبار المنتقاة واستحى من سرد سفاسف الكلام.
: اذا كان هذا أحسن مالديك فكيف سيئه!؟ إن هذا الأسلوب يزعجنى و يضايقنى، كأنك موكلة باخبار الناس ومشاكلهم.
: مالذى تر يده منى؟
: الصمت!! الصمت عن الهذيان، الكلام المعقول فى الوقت المناسب أر يد منك أن تقلعى عن هذه العادة السيئة!
: وهل لدى عادة سيئة لاسمح الله!؟ تقول ذلك باستغراب.
: نعم!! هذه الثرثرة التى إذا أو يت إلى فراشى لأستر يح وأرمى بهموم يومى كاملة، وأخلد إلى الراحة، وجدتك قد جمعت لي كل مابثته السنة الناس، وجئت تسردين على كل شاردة وواردة، مما هب ودب مما يشغل تفكيرى، فإن أنا أصغيت إليه و بادلتك الحديث فقد اغتبنا عباد الله، إنها الغيبة بعينها، ألا تفهمين ذلك؟
: لا، سلمك الله الغيبة ليست هكذا!!
: هذه الغيبة بأم عينها، وهى أن تذكر أخاك بمايكره، وأر يد منك أيضا أن تتركى هذا النقاش عند النوم الذى قد يصبح «نِقْرَةً» مستمرة دائمة كل ليله، فإذا كان لك حاجة معينة، أو لديك وجهة نظر تودين إيضاحها فعليك إختيار الوقت المناسب، كبعد راحة الغداء مثلاً!! أما أن تحفظيها إلى وقت النوم أو عند تناول الطعام فهذا أمر لا أطيقه!!
: أتقول هذا!؟ وكيف أستطيع الكف عن ذلك؟
: إصبرى، وأصطبرى.!
: «يَقُوَلَهُ الذَّى بالأرْض»!! يقول ذلك الذى يستطيع التحكم بعواطفه وضبط أعصابه، أما أنا فلا أطيق الإحتفاظ بما أسمع حتى أختار الوقت الملائم.
: هذا شيئ مزعج، أن تشغلى نفسك بما لايعنيك!!
: لم أقصر فيا وكل إلي من أعمال!! أليس كذلك؟
: حاشا لله أن يكون هناك تقصير، ولكن جنيك لهذه القصص والأحاديث يأخذ عليك جزءاً كبيراً من وقتك، وصبها فى أذنى عند النوم أمر يضايقنى و يقض

مضجعي وكذلك عند تناول الطعام ينغص عليّ لقمتي.

: هذه تسلية ممتعة، نتفكه بها قبيل النوم!! وأثناء تناول الأكل!!

: «إمحق تسلية»!! إنني أستطيع تصحيح إسمها الى تنغيص ينعكس صداه في النوم إلى أحلام وكوابيس مزعجة، فلا تتعودى لهذه «التَّسْلِيَة» يقولها بتهكم.

: لقد أصبحت جزءاً من لحمي ودمي، ولاأستطيع الحيد عنها.

: وستداو مين على هذه الطر يقة؟

: نعم، و بكل تأكيد!!

: إذا لست لي بزوجة.

: كما تر يد، أما الإقلاع عنها فأمر مستحيل بالنسبة لي!.

و بنـاءاً عـلـى ذلك فقد طلقها رشيد وعاد إلى العزو بية مرة ثالثة، وقد كره شيئاً إسمه الزواج والإقتران بأى واحدة تشبه تلك العينات التى مرت به، أما إذا وجد شريحه جيدة فليس عنده ماىمنع، ومكث على حالته ماينوف على ثلاث سنين وهو يبحث عما ير يد دون جدوى لاسيما أن المجتمع الذى يعيش فيه لايهيئ له الفرصة فى هذا المجال، حتى إذا كان فى إحدى سفراته بصحبة رفيقه «ر باح» جلسا ذات مساء بقرب النار يصطليان و يتناولان القهوة و يتجاذبان أطراف الحديث الذى دار بينهما كالآتى:ـــ

: أراك ألفت العزو بية، واتكلت على أختك فى تدبير شئون بيتك بالإضافة إلى عملها فى بيت زوجها، فلماذا لم تتزوج؟

: أتزوج!! أتزوج، ياما تزوجت؟ ولكن!!

: ولكن ماذا؟

: لكنى لم أجد الزوجة التى تناسبنى، و بالأصح تتفق طباعها مع طباعى.

: البلد ملآنة، و بنات الأجواد كثير!

: لقد جر بت، ولم أفق.

: أيعنى ذلك أن كل زوجاتك اللاتى إقترنت بهن لم يوافقن مزاجك؟

: دعنى من ذكرهن، سترالله علينا وعليهن، لقد ذهبن فى حال سبيلهن ولاداعى للتعرض لهن.

: قد يكون العيب منك أنت، ألايمكن أن تكون شحيحاً عليهن؟ وقد تكون شديداً فى معاملتهن؟ وصاحب مزاج حاد عليهن؟ وقد تعاملهن بعنف، كأن تضربهن مثل بعض الناس!! وقد يكون هناك قصور وظيفى نحوهن؟

: لقد أخطأت فى جميع تكهناتك!! أنت تعرفنى تمام المعرفة ولا داعى للتخرص.

: أأخذت كلامى مأخذ الجد!؟ إننى أعرفك تماماً، ولكن مالسبب الذى جعلك تطلق الواحدة بعد الأخرى؟

: أقول لك إنه لم يوفقنى الله حتى الآن الزوجة التى تناسبنى.

: كل النساء اللاتى طلقت من بنات الأجواد، ومن «حمائل» طيبة، ثم لماذا لم تتزوج غيرهن؟ عسى أن تجد مايملأ عينك وتشغل الفراغ الموجود فى نفسك ألم تسمع الحديث الشريف «تبركوا بالنواصى والبقع»؟

: أتريد أن تجبرنى على كشف أسرار الناس؟ حسبى الله ونعم والوكيل!

إن كل واحدة من مطلقاتى أجد فيها خلة لاتتفق ورغبتى، فالأولى مبذرة لاتبقى ولاتذر، والثانية مقترة لاتجود بالنزر، والثالثة ذات لسان يتراقص بالهذر، وحتى الآن لم أعثر على الناصية المباركة، يقول ذلك ببطء، وكأن الكلمات تجذب من لسانه جذباً.

: وبئست الخصال، وإنك معذور فيما فعلت، ولكن لم يعلم الناس بهذه الخصال التى إتصفت بها نساؤك السابقات!! إن هذه صفة من صفات الرجال الذين يسترون العيوب.

: لقد امتقع لون وجهه بعد أن شعر أنه قد أفشى سراً كان الأولى به أن يكتمه، ولكنها زلة اللسان، فقال لصاحبه أنْشِدُكَ الله يا أبافلان ألاّ تنشر أسراراً عرفتها، فقد خرجت منى قسراً، وقد تحملت الكثير من أمثالها ولم يعلم بها أحد غير الله.

: كن مطمئناً وأرح خاطرك، فوالله لن تخرج من فلذة لسانى وسأدفنها فى هذا المكان، فثق بالله ثم بكلامى، إنما الذى يهمنى أن تجد الزوجة المريحة التى تسعدك بقية عمرك و يرزقك الله منها الذرية الصالحة.

: ليت هذا يكون!

: لم تقفر الأرض، لاتكن يائساً، فليس ذلك على الله بعسير، وما يدريك لو يحقق

الله آمالك فى القريب العاجل، وربما فى سفرتنا هذه؟
: سفرتنا هذه!؟
: نعم!! فسوف نصل إلى البلد الفلانى الذى نقصده وإننى أذكر رفيقا لديه بنات من زوجة طيبة، مبآركة، فوالله إنه منذ أن أمسك بيدها ودخلت فى بيته دخل معها الخير والبركة.
: ومن يكون؟
: فلان.
: ونعم الرجل، ولكن أتراه يوجد لديه أحد مناسب سناً، ثم أتراه يزوجنا؟
: آخر عهدى به قبل ثلاثة أشهر ولديه إبنته الكبرى مناسبة للزواج أمًا إعطائك، فاترك الموضوع لي، وسوف تتزوج فى سفرنا هذا إن شاء الله.
: إننا بسفر تجارة، ولم نكن مستعدين للعرس.
: ومايضيرك لو تزوجت؟ إنه نور على نور!! أليس كذلك؟

وناما ليلتها تلك، وعند الصباح واصلا السير، طيلة ذلك اليوم حتى قدما البلد ظهراً ونزلا عند رفيق رباح، فرحب بهم أجمل ترحيب، وعمل لهما القهوة وعندما أدار عليها الفنجان الأول رفض رباح أن يأخذه قائلاً: والله لن نشرب قهوتك حتى تعطينا ماجئنا من أجله، فرد عليها، خذا القهوة وكل مطلوب حاصل إن كان فى مقدرونا، فقال رباح هذا رفيقى ورفيقك رشيد وهو غني عن التعريف جاء خاطبا إبنتك، ولن نتناول القهوة حتى تعطينا ماطلبنا فقال المضيف ابراهيم أبشروا فقد جاءكم ماطلبتم، واعتبرها من أبرك الساعات، فعند ذلك تناولا القهوة، ثم دنف إبراهيم إلى البيت وكانت زوجته وبناته وعدد من نسوة الجيران يهرسن حب «اللقيمى» لعمل الوليمة اللازمة للضيوف، فأمسك بيد إبنته الكبرى وأمها وتنحى بها جانبا وقال لهن: لقد جاء فلان خاطبا يد ابنتى فلانة، وقد اعطيته الكلام، وبقى علي أن آخذ رأيكن فماذا ترين؟ فقالت الأم لم نخرج عن رأيك فى يوم من الأيام وصمتت الفتاة، فوجه كلامه للأم، إذا جهزى إبنتك للزفاف هذه الليله!• فردت عليه سمعاً وطاعة، وعاد إلى ضيوفه ثم أرسل أحد رفاقه لذبح مزيد من الخرفان والتنبيه على الجماعة المصلين فى المسجد لوقت العصر، يدعوهم للعشاء بعد صلاة المغرب من تلك الليلة التى ستكون فيها حفلة زواج إبنته تلك

الحفلة المبسطة اقتصرت على أهل العروس وجيرانهم. وبذلك قدم رشيد لهذه البلد لم يخطر بباله الزواج وأمسى متزوجاً وهجر العزوبية من ليلته تلك بفضل الله ثم بمساعدة رفيقه رباح، ثم صَرَّفوا بضاعتهم، وعاد رشيد بعروسه إلى بلده، وماإن دخلت بيته حتى حطت فيه البركة، وأحاطته الطمأنينه، ورسخت فيه سجية الكرم والمعروف، فقد جمعت هذه الفتاة الخصال الحميدة التى يتوق إليها، ويتمنى الحصول عليها، لقد وجد فيها ضالته التى طالما أجهد نفسه بالبحث عنها، ففى أول يوم وطأت قدماها ساحة البيت بدأت بتنظيفه وترتيبه، مرحبة بالضيوف والزوار، باسمة فى وجوههم تقدم لهم ماتقتضيه عادات الضيافة العربية من بذل من غير أسراف، تحسب لكل موضوع حسابه، وعادت الإشراقة إلى جبين رشيد بعد أن وجد كل مايريد، على عكس ماجرب من بنات حواء الأخريات، وهو الآن مطمئن الفؤاد ليستأنف عمله بحمل عصا الترحال لتصريف تجارته حيث ذهب فى أول رحلة له غاب فيها مايقارب الثلاثة أشهر، وعند عودته فى تلك الليلة توقع أن يجد ماتعود عليه من نسائه السابقات غير أنه لم يجد غير الترحيب، والفرحة الغامرة بمقدمه وكأنه قد سقط على زوجته من السماء، فارتاح ليلته تلك وفى الصباح قدم إليه رفاقه وعملت له الوليمة المعتادة التى دعى إليها جميع أقاربه وأصدقائه وجيرانه، وكل واحد منهم يلهج لسانه بالثناء على سيرة زوجته وتصرفاتها نحو أقاربه وأصدقائه وجيرانه، وكأنه لم يغب عنهم ورأى مواشيه على أحسن مايرام، وتفقد أحواله المادية، فوجد كل شئ فى غيابه أحسن منه لوكان حاضراً، وأوى إلى فراشه فى الليلة الثانية فوجده كأنه يضطجع فيه للمرة الأولى، فامتلأت جوانحه بهجة وسروراً ومضت الليلة الثالثة وزوجته تحاول أن تسليه بشتى الطرق حيث تنتقى له من عذب الحديث وأجمل القصص المسلية ماينزع عنه وعثاء السفر وهموم الترحال، وفى الليلة الرابعة سأل رشيد زوجته:

: لم ياسَلْمَي لم تخبرينى عن أحوالكم أثناء غيابى؟

: لم أرد إزعاجك، ولم تسألنى عن تلك أنت، غير أننا ولله الحمد بخير، وقد سار كل شئ على مايرام، فالمواشى بحالة جيدة، وقد توالدت فى هذه الفترة وزادت مما يقارب الربع، ولم ينقص منها شيئ عدا واحدة ذهبت فداؤك.

: تسلمي ياسُلَيْم، جعل الله فداءك كلما أملك!!
: يسلم رأسك، وكل ماتركت لنا من مصروف باق على ماهو عليه.
: وكيف ذلك، ألم تصرفوا خلال غيابي شيئاً؟
: بلى، ولكن من بعض الديون التي احضرها الناس لك، فلقد بارك الله فيها بعد أن تصرفت ببعضها فنمت خلال هذه الفترة فساعد نماؤها على مصاريف البيت.
: بارك الله فيك، وديون النقد التي تحل في هذه المدة؟
: لقد أحضر البعض شيئاً منها، وطلب مني آخرون أن أمهل لهم بعض الوقت بالمعروف، ففعلت.
: خيراً فعلت!! لك كل الحق في ذلك، إنك «مائنة» فالمال مالك.
: أبقاك الله، وادام عليك لباس الصحة والعافية، ولماذا تجهد نفسك بالتفكير في بعض الأمور، دعني أشاطرك المسئولية فيما أستطيع المساهمة فيه.
: أعانك الله على المسئولية التي بوجهك في تدبير شئون البيت من تحضير الماء، وطحن الحب، وتجهيز الطعام، واللبن، فهذه مسئولية لايستهان بها
: لقد نسيت إضافة شيئا مهماً، وهو مشاطرتك المسئولية أثناء وجودك، وتحملها كاملة أثناء غيابك.
: ألا يتعبك ذلك؟ خاصة وأنك الآن حامل؟
: إن كل ماذكرت لايملأ حُضْني، وإنني أجد متعة مابعدها متعه في إنجاز أعمالي البيتية.
: ألا ترغبين في الاستماع إلى الحكايات والقصص والأخبار؟
: الاستماع بالأذنين، فيمكن أن أستمع أثناء تأدية عملي ممن يأتين بها، «و يأتيك بالأخبار من لم تزود» وبعد ذلك أختار المناسب من الكلام، والباقي يطير مع الهواء، فالكون أوسع من ذهني!!
: ألا يضايقك تصريف المواشي، كالأغنام مثلا؟
: إنني أعتبر مواشيك ملكي، وأنا أحب المواشي، ويتجسد حبي لها بالإحسان إليها، ثم إنها بهائم تستوجب الرفق والرحمة، أليس كذلك؟
: والضيوف والأقارب الغادين والرائحين، ألا يضايقك قدومهم وبقاءهم؟
: إن أحب الأوقات إليّ هو الوقت الذى يكون في بيتي مجموعة من الناس وعلى

الأخص ممن يمتون إليك بصلة القرابة، أو الصداقة أو الجيرة، وكل من جاء إلى هذا البيت، أضعهم فى عينى هاتين، جفن فراش والآخر غطاء.

: ألايضايقك كثرة الولائم وتقديم الطعام للآخرين؟

: إننى أجد لذة فى العطاء، وتقديم الطعام للأضياف والزوار وكنت أتمنى أن أجد زوجاً يساعدنى على تحقيق هذه الرغبة فادمت تحبذ ذلك، فالحمد لله على حسن توفيقه إياى بنيل ماكنت أصبو إليه!

: ألا تخشين أن يؤدى ذلك إلى نفاذ ثروتنا؟ يقولها بنغمة المازح.

: على العكس من ذلك، فأننى أومن بالحديث الشريف الذى يقول: «اللهم أعط كل منفق خلفا، وأعط كل ممسك تلفاً» ومادام العطاء المقصود به وجه الله وصلة الرحم ومساعدة المحتاج فإن الله سيعوض عنه.

: وهل أنت صادقة فيا تقولين؟

: كل الصدق!

: الآن كبرت فى عينى، وعظمت فى نفسى!!

: تسلم عيونك «يابعد عيونى»

وعلى هذه الكلمات العذبة، طرق النوم جفنيها، وناما تلك الليلة وتعاود هذه الكلمات والأحاديث المنتقاة كبرودة زخات المطر من أذيال السحاب فى يوم ربيعى مشمس، وتمضى الأيام فتنجب سلمى باكورة إنتاجها ولداً ذكراً، وبمرور السنين تملأ عليه بيته ذرية صالحة، ويزداد ماله ويتوسع جاهه، ويعيش حياة ملؤها السعادة والهناء، ويتذكر الحديث الذى رواه له رفيقه رباح «تبركوا بالنواصى والبقع» قبيل خطبته لتلك الفتاة التى جعلها الله له خيراً وبركة ونماءاً وسعادة.

* * *

٢٤ ـ كان زواجها شفاء لهما

تلعب لواعج الشوق بالإنسان دوراً كبيراً، فقد تنزعه عن الوسط الذى يعيش فيه، وتذهب به هذه النوازع إلى عوالم أخرى، يُسَرِّحُ فيها طرفه يميناً وشمالاً، وقد يرى كل مافيها أشباح عدا ذلك النصف الآخر الذى فُتِنَ به، يراه أمام عينيه، وملء سمعه وبصره، يملك عليه إحساسه يحتضن جسمه كاحتضان الهواء، يتحكم بتفكيره، يطغى سلطان الإحساس به على كل ماسواه، قد يبوح بأسراره لمن يثق به ليودعها لديه فى صندوق كاتم للأسرار، وقد يتسرب شيئ من هذه المعلومات خارج الصندوق فتظهر من خلالها أصداء معينة قد تساعد المهتمين به على إنتشال هذا الغارق فى بحر المتاهات، أو تكون فضيحة عليه يخشى إنتشارها بين الناس، وهذا مايحرص على تلافيه، ولاسيا إن كان محاطا بأعداء من الشامتين والعذال، أو كانت إنسانة تخشى صولة ذويها وجولتهم، مما قد يؤدى بحياتها فى بعض الأحيان، فإنها تكتم لواعجها وأحاسيسها فى صدرها دون أن تبوح بها حتى لأقرب قريب لديها، مهما كانت ثقتها فيه، يمنعها حياؤها من أن تنبس بكلمة واحدة، يقيِّدها الخوف من أن يخرج منها كلمة أو إشارة يفهم منها مايدور بخلدها، وذلك خشية الفضيحة والعار فلذلك تراها تعيش كاتمة لأسرارها صابرة على آلامها، محطمة آمالها، وبتراكم هذه الآلام وتفاعلاتها داخل نفسها تملك عليها كامل إحساسها، وتؤثر فى سلوكها، فيحسب ذووها أنها مصابة بمرض «فسيولوجى» أو نفسي، فتتم معالجتها بالطرق العلاجية المتوفرة لديهم، وكانت في ذلك الوقت تتمثل بالكى بالنار، والفصد، وإسقائها، أو إسعاطها الأدوية المكونة من مختلف المركبات العشبية وخلاصة العصارات الشجرية، وبعض العناصر الكيمائية، وكل هذه العلاجات أو بعضها لاتؤدي إلى كبح الداء، والتماثل للشفاء، فالكى في غير موضعه، ولغير المرض المعنى فيه لايزيد الجسم إلاّ قروحاً يسيل صديدها فتشوه آثارها صفحة الجلد الناعمة، ويبقى الجسم الهزيل، وهذه الجروح منفذاً لما يغزوه من مكروبات وجراثيم تحاول الفتك به، هذه المقاومة تضعف من موقفه أمام مايعاني من أحاسيس وأشجان، وتلك المركبات التي تدخل

للجسم بواسطة الفم والأنف دونما حاجة إليها لا تزيد الجسم إلا إضطراباً في أجهزته الهضمية والدموية، وغيرها، خلاف ماتترك من سموم قد تزيد الطين بله في الإخلال بوظائف أجهزة الجسم، حينما تهب لمقاومة هذه المواد الغريبة النافذة إليه، وبالمثل المركبات الكيماوية، فإن تفاعلاتها داخل الجسم قد تؤدى إلى إرهاقه، وتخديره وإحداث التهابات داخل أجهزته، هذه الأدوية التي دخلت إلى الجسم دون أن يكون لها حاجة قد أنهكته وجعلته هامداً لاحراك فيه، دون أن يكون هناك أى بادرة تدل على الشفاء، وعند ذلك يتم اللجوء إلى علاج آخر، وهو العلاج النفسي لدى «القراء» فلعل هذا الجسم أصابه مس من الجنون فينقل المريض إلى أماكن تواجد هؤلاء القراء، وقد يحضرون إلى المريض في مكانه، غير أن هذا العلاج هو الآخر لم يظهر له ذرة من شفاء، لكون الجسم لامَسَّ فيه إطلاقا، وكان لكثير من القراء تأثيراً منهكاً للجسم نتيجة ضغط أصابعهم على أماكن رقيقة وحساسة ومؤثره، مما يحتاج بعدها الجسم إلى نقاهه لاتقل عن أسبوعين، حتى تقترب المفاصل التي باعدوا بين أعضائها وتلتئم التمزقات التي أحدثتها أصابعهم في الأجزاء الرقيقة.

ولما فشلت كل هذه الطرق عن شفاء ذلك الجسم النحيل لم يبق سوى ماقد يلجأ إليه البعض في أحوال نادرة كنوع من العلاج النفسي بالكشف عن خبايا المرض إن وافق ذلك معالج ظريف في وضع كهذا عاشت الفتاة «الدُّقَيْس» فلقد عاشت جزءاً لايستهان به من حياتها طُعْم لهذه المعاناة، التي لم يكن سببها مرض «فسيولوجي» وإنما كان هذا المرض العضال قد انتقلت جرثومته الأولى إليها خلال نظرة من فوق عارض البيت [بيت الشعر] لضيف قد جاء إلى بيت أبيها، وتوطن هذا الداء بعد النظرة الثانية في صباح اليوم التالي، ففي مساء ليلة ربيعية باردة نوعا ماضوى إلى بيتهم المضروب وسط تلك الرياض السندسية، ذلك الشاب الوسيم، وما إن أناخ مطيته وعقلها، ووضع خرجها بجانب عِنَّةِ البيت حتى رحب به صاحبه، وأشعل النار وحضأها ليرتفع لهبها، فجلس الضيف يصطلى يقربها لتنتزع البرودة التي كادت أن تجمد أطراف أنامله، وبدأ المضيف يرحب بضيفه بينما بدأت زوجته تعد الطعام اللازم للعشاء تلك الليلة. فطفقت الفتاة كعادة بعضهن مدفوعة بغريزة حب الإستطلاع وأطلت من فوق عارض البيت من زاوية لايراها أحد، وباطلالتها تلك

رأت ذلك الوجه الوسيم الذي يتدفق حيوية وفتوة، وقد زاد تلاعب ضوء لهب النار رونقا وطلاوة وسحراً، فتسمرت عيناها عليه، وأمسكت بأعلى العارض وكأنها تريد توسيع الفجوة التي تطل منها، لكن خوفها من أن يتقوض العارض، أو أن يفطن إليها والدها، جعلها تكتفي بالوقوف وإمتاع نظرها في الرؤية إلى ذلك الوجه الوسيم، دون أن يعلم بها أحد، سواء من والديها أو صاحب الشأن نفسه، ومكثت منتصبة في مكانها لم تغادره إلا حينما نادتها زوجة أبيها لتطلب منها المساعدة في تجهيز وجبة الطعام، فذهبت لتلبية طلبها، وأمسكت بجزء من العمل وهى لا تدري ماذا تفعل، وقد إنحصر تفكيرها في إطلالة ذلك الوجه الذي بدأ يبرز بشتى الصور الخلابة، وشطح بها خيالها إلى تصور رائع له قد يفوق طبيعته الحقيقية، وربما تعداها، وهى تحاول بين الحين والآخر كلما رأت فرصة سانحة أن تطل من فوق عارض البيت حتى جهزت الطعام، وقدم للضيف، وبعد تناول طعام العشاء غير الضيف مجلسه الذي كان يتكىء عليه حيث أسند ظهره إلى عارض البيت مما حرمها النظر إلى وجهه في تلك الليلة حتى نام، وبقيت الفتاة في فراشها تغالب النوم، وكلما طرق لحاظها طوحت به تلك الصورة الجميلة التي لم تفارق ناظريها، وقد أنحفرت في ذهنها بأدق تفاصيلها، وأضفى عليها الخيال الكثير من المحسنات وصبغها برونق جذاب تفنن في إبداعه وبذلك ظلت طول ليلها تتابع هذه المشاهد وتعيدها مراراً دون ملل، وكلما أعادت تصورها زاد تعلقها بها أكثر، واستمرت هذه الخيالات مع تلك الشابة الغِرَّة حتى أنفلق الفجر من الشرق لينبه الناس النائمين لاداء صلاة الفجر و يتسم النهار داعيا الناس إلى السعى للكسب والإسترزاق، وليذهب كل إلى عمله، وكل مسافر يسير حل إلى حال سبيله ومنهم، ذلك الفتى الذي أخذ على تلك الشابة الغضة تفكيرها طيلة الليل وحرمها لذيذ النوم، سيغادرهم اليوم ولن ترى وجهه مرة أخرى، فما كان منها إلا أن سألت أباها عن الوجهة التى سيذهب إليها ضيفهم دون أن يعلم أحد عن هدفها، وعندما علمت بالجهة التى يريدها، أخذت حبلها وفأسها وذهبت لنفس الجهة لتحضر حزمة من الحطب على رأسها كما هى عليه الحال، ولم يكن الواقع هدفها الحطب، وانما أرادت أن ترى وجهه عن قرب فى وضح النهار عندما تطلب منه أن يساعدها على رفع حزمة الحطب على رأسها، وربما تكون هذه النظرة هى الأخيرة

بالنسبة لها، ولما أصبح الضيف وتناول طعام الإفطار ودع مضيفه وإمتطى ظهر ذلوله وإنطلق من قرب البيت، وعلى مسافة غير بعيدة أومأت إليه تلك الفتاة بِكُمِّ ثوبها تطلب منه أن يساعدها على حمل حزمة الحطب على رأسها، كما هى عليه العادة آنذاك، أناخ مطيته وحمل حزمة الحطب ووضعها فوق رأسها دون أن يتلفظ أى منهما بكلمة واحدة، وعاد إلى إمتطاء كور مطيته آخذاً طريقه، وإنصرفت هى بحزمتها متجهة إلى البيوت، بعد أن أشبعت عينيها من غرة وجهه، فعادت تجر أقدامها التى تكاد أن تغوص فى الرمل من شدة الإجهاد والتعب، حيث انصرف كل تفكيرها إلى ماعلق بذهنها من هذا الشاب، وماكادت تصل البيت حتى رمت بالحطب وأرتمت على الأرض إلى أن ساعدتها زوجة أبيها بايصالها إلى الفراش، وكان للإجهاد النفسى وسهر الليل بطوله، أثر كبير فى أن تغط بنوم عميق لم تستيقظ منه إلا بعد الظهر، ومن هنا بدأت أعراض الإرهاق عليها مما جعل والدها يحسب أنها مريضة وبقيت طول يومها وليلتها لم تذق طعاماً فبانت عليها دلائل التعب والإرهاق، مماجعل زوجة أبيها تسارع إلى مباشرتها بالأدوية المتوفرة لديها، ومع خُلُوِّ جوفها من الطعام فقد جاءها تأثير الدواء بحالة سلبية، مما هَدَّ قواها أكثر، واستمرت لا تذوق طعاماً، وتكتفى بقطرات من الماء لإرواء ظمئها، واستمرت على حالتها تلك كل يوم يلاحظ النقص فى صحتها، وخالتها تسقيها من صنوف الأدوية التى لديها أو التى احضرتها من عند رفيقاتها، غير أن ذلك لم يجد نفعاً، وحاولت خالتها معرفة سبب مرضها فلم تخبرها، لا تقاء وقوع المحظور، وقد حاولت معرفة مكان شكواها لتشخيص مرضها فلم تخبرها إلاَّ أن لديها انغلاق فى الشهية، مع دقات غير عادية فى القلب فى بعض الأحيان، غير أنها لم تفصح لها عن السبب الكامن وراء هذه الضربات المتتابعة ومتى تحصل معها، وعند ذلك أحضرت الخالة العجوز التى إشتهرت ببراعة مداواة الأمراض بالأدوية التى تُحَضِّرها من الأعشاب والحشائش، وتخلطها ببعض المواد الكيماوية، ولما حضرت العجوز أرادت أن تشخص المرض الذى تعانى منه الشابة الصغيرة فقالت لها.

: أبُنَيَّةْ، عسى ألاَّ ترى بأساً!! مم تشكين أصلحك الله!؟

: عافاك الله ياخاله، إننى أشكو من ألم أنهك جسمى!

: متى أحسست به يابنتي؟
: لقد شعرت به منذ مايزيد على الشهر.
: ماهو السبب المباشر للألم؟
: لاأدرى!! لاأدرى!! تقول ذلك وهى مضطربة.
: ماالذى يؤلمك؟ أعنى نفس المكان الذى تشكين منه.
: يؤلمنى قلبى، مع فقدان الشهية.
: هل أكلت أكلة ثقيلة؟
: لا أذكر أننى تناولت من الأكل غير ماأعتدت عليه منذ صغرى
: هل شربت لبنا مكشوفاً بالعراء تحت النجوم؟
: لم أتناول أى شيئ أستنكره.
: هل أصابك برد وشعرت بالحمى على أثره؟
: لم يحدث لى ذلك أبداً.
: هل حملت شيئاً ثقيلاً؟
: لم أحمل شيئاً ثقيلا.

فتدخلت خالتها قائلة منذ أن أحضرت حزمة من الحطب فى يوم من الأيام، ذاك آخر عهدها بالعافية، فلقد ألقت نفسها على الأرض وأمسكت بالمضجع، وأستأنفت البنت حديثها.

: ولكن ياأماه كل يوم أحضر حزمة أكبر منها وأثقل فما ضرتنى
: ومتى شعرت يابُنَيَّة بألم القلب؟ تسألها العجوز.
: إنه لم يكن لألم بالمعنى الصحيح، وإنما هى دقات متتالية تقلقنى.
: ومتى تحصل لك هذه النوبة؟
: إنها تحدث معى عندما آوى إلى فراشى، وأحيانا إذا لم يكن لدى أحد.
: تنهض العجوز وهى تقول: لقد عرفت علاج إبنتك ياأُخَيَّةْ!! إن لديها تأثر «بمعاليق» القلب لقد حملت رحملاً ثقيلا فأحدث تمزع بمعاليق قلبها، وإن خير دواء لها هو الحلبة، والحبة السمراء وسوف أحضرها لها لتتناولها عند الصباح والمساء لمدة سبعة أيام وسترى العافية على أثرها.

وبالفعل تم تحضير هذه الأدوية، ومزجها مع قليل من اللبن بعد سحقها لتتجرعها فى الصباح والمساء، واستمرت على هذا المنوال أكثر من ثلاثين يوماً، دون أن يكون هناك أى بادرة للشفاء وأنتقل خبر مرضها من مضرب قومها إلى مضارب العرب المجاورين فقدمت من ذلك المضرب عجوز أخرى تدعى «سعدى» وقد شخصت مرضها بأنه «قطع قلب» أى تمزق فى شرايين القلب، وتعهدت بأن تداويها بالعلاج الناجع، وهو كيها مع مواضع معينة فى صدرها وظهرها مع استعمال مادة الشب و«الصّن(١)» يمزجان مع قليل من اللبن وتسقى إياه مع الصباح الباكر وعند غروب الشمس «فى صفرتى الشمس» وأحضرت المسامير ووضعتها فى جوف النار حتى صارت شقراء، ثم بدأت العجوز بكيها مع مواضع قد وضعت عليها علامات من السناج، ولم يشفع لها أنينها أو جضيضها تحت حرارة المسامير الحمراء، بل انطلقت الأصوات تشجعها وتطلب منها الصبر والتحمل طلباً للعافيه، وأحيانا تعزيها هذه الأصوات بنغمة لاتخلو من اليأس حينما تسمع بعد الحاضرات تقول: «آخر طب الكى» وفى هذه الحالة تشعر أن هذا الدواء هو آخر مايتطبب به نحوها، واحترق جلدها من الكى وبعد أيام سال الصديد من جسمها ثم تلا ذلك تشوه ظاهر فى صفحة جلدها، وجرحت حموضة الشب وزناخة «لصّنْ» حلقها، واستمرت تعانى من هذه الأدوية لأمرين، وهى تتحمل ذلك دون أن تفصح لأهلها عن سر مرضها الكامن فى حناياها، ومضت الشهور تلو الشهور، وصحتها تتدهور يوماً بعد يوم حتى أصبح جسمها جلداً على عظم، وخارت قواها فلم تستطع المشي وربما تعذر عليها حتى الوقوف على قدميها، ولم يُذْكَرْ لأهلها مداو يا او متطبباً فى أى مكان إلا وذهبوا بها إليه، وأعطاها من الأدوية ماجرح حلقها وقرح أمعاءها، وربما حماها عن بعض الأطعمة التى لاتذوقها أصلاً، وهكذا دواليك حتى أعيت أهلها الحيل من التطبب بها، وعند ذلك عَنَّ لهم رأى آخر فقد تكون مصابة بَمَسٍّ من جنون وفى هذه الحالة فإن الأدوية لاتفيد فيها وإنما ينفعها إستدعاء من يقرأ عليها آى من القرآن الكريم ويكتب لها العزائم والتعويذات، وطرقوا هذا الباب الواسع، فأحضروا لها أول قارئ من هذه الفئة وعلى الفور أخبرهم أن علاجها لديه ولن يطول بعد أن بدأ بالقراءة

(١) الصن هو دمن وبول دوية «الوبر».

عليها، وهنا أمسك بالأماكن الحساسة من جسمها كجذع صيوان الأذن، فاهوى سبابته ثم أبهامه فيها وضغطها ومن حر الألم صرخت بأعلى صوتها، فعند ذلك قال لأهلها هاهو ساكن هنا و يقصد «المَسّ» تحت أذنيها، ومع شدة الضغط وهزال حالها بدأت تتضور تحت ألم أصابعه ثم انتقل إلى أماكن أخرى من جسدها وهو ينفث من فه الهواء الذى لايخلو من رذاذ لعابه حيث لم تستطع أن تتحمل وقع الرزاذ على وجهها فتادر فوراً لازالتها بطرف خمارها وهو يقول لمن حوله: إنظروا إليه إنه لايتحمل الهواء المشحون بالآيات القرآنية، و بعد أن فرغ من ذلك كتب لها عدة فئات من التعاو يذ مكتوبة بماء الزعفران، فبعضها تعلق بجيدها، والبعض الآخر يذاب فى قليل من الماء لتشربه فى أوقات معينة، والآخر يذاب فى الماء وتغتسل به، وسوف تتماثل للشفاء، وهذا الوضع جائز ونافع فيما لو كان بهامس من الجنون أما مرضها هذا فلن يشفيه سوى الدواء الخاص به، و بقيت تلك المسكينة مدة طويلة تعانى من آلام مواضع أصابع القارى مع إستمرار المرض على ماهو عليه، ولم يكتفوا بذلك القارى بل انتقلوا إلى ثانى وثالث ورابع وعاشر ولكلما ذكر لهم أحد فى هذا الإختصاص أسرعوا إليه، إما أن يحملوها إليه، أو أن يحضروه لها، ومضت السنون وهم على هذه الحالة إلى أن أصبحت عبئا ثقيلاً عليهم، حيث لم تكن حية مع الأحياء، ولاميتة فى عداد الأموات، ينقلونها من مكان الى آخر بنقالة، وهى عبارة عن هيكل عظمى يغلفه جلد شاحب اللون، ولولا صوتها الحزين المنهك لحسبها الناس شلواً من المتاع، ورغم ما وصلت إليه حالتها تلك إلا أنها لم تبح بسرها لأحد من الناس، ومع الحاح خالتها عليها فى ساعات الخلوة بها علها تهتدى إلى سبب مرضها إلا أن إجابتها دائماً كانت «لاأدرى» و بالأخص حينما طرقت موضوع الحب الذى قد يكون أحد مسببات مرضها المزمن، ورغم شتى الطرق التى إختبرتها بها خالتها على أن تكتشف كنه مرضها إلا أنها قد فشلت تماماً.

* * *

وتعاقب الربيع والصيف وجسم تلك الفتاة الناحل تلوى به رياح الخريف لتسقط أوراقه الخضراء بعد أن قلبتها الى صفراء باهته، ثم تسلمه إلى عواصف الشتاء

البـاردة لـتـلفع ذلك الهيكل العظمى المنهوك القوى والذى بقى هامداً غير ذلك النفس الـذى يحـرك جـوانحه ببطء ليغذى نبضات القلب التى تتابع هي الأخرى بتؤدة ورتابه مملـة، ولـكنهـا تحـافظ على الحياة فى هذا الهيكل الضعيف، وفى ذلك اليوم الربيعى الجـمـيـل جـاءت إلى مضارب القوم إمرأة ممن يشتغلن بالتطبب كغيرها من العشرات اللآئـى مـر ذكـرهـن آنـفـا، وأستدعيت للكشف على تلك المريضة، وإن كان قد مر عـليها العشرات دون أدنى فائدة، مما جعل المريضة تشعر بالضيق عندما تعلم أن أحداً قـادم لـلـنظر إليها وعلاجها وتكره أن يقترب منها من هؤلاء المتطببين أحد، ولكن تلك الـعـجوز ليست كغيرها، إنها بالإضافة إلى حذقها فى الدواء لديها بصيرة نافذة بحيث يـتـحقق الكثير من حدسها، وعندما رأت «نُزَيْلَةْ» الفتاة وجسَّت نبضها طلبت الخلوة بهـا، وعـنـد ذلـك قـبـضـت على معصمها زمنا يقارب الساعة وهى تتمثل بأبيات من الـقـصـائـد الـعـاطـفـيـة عـلـى أسماعها وكأنها لا تعنيها، وعند ذلك إكتشفت السِّرَ فى مـرضـهـا، فـقد لاحظت أرتفاع دقات قلبها عندما تسمع الكلمات العاطفية، وتنخفض دقـات الـقـلـب عـنـدمـا تـكـون كلمات بيت الشعر فى الأمور الأخرى، ثم تعاود فى الإرتـفـاع عـندما يطرق مسامعها أبيات وجدانية أخرى، وكأن قلبها «الترمومتر» عندما تـقـتـرب مـنه جذوة من نار أو تبتعد عنه. عند ذلك أيقنت بثاقب رأيها أن ما أصاب تـلـك الـفـتاة لم يكن مرضا بدنيا، يتعلق بأجهزة جسمها، وانما هناك نقص فى الغذاء الـروحـى لهـذه الإنـسـانـه، ولابد لاستكمال هذا النقص من الغذاء لإزالة «الأنيمياء» الـروحـيـة الـتى تعاني منها تلك الفتاة، فأخذت نزيله بيد خالتها زوجة أبيها وانفردت بهـا وأخـبـرتها أنها «تحب» تقول هذا الكلام بلهجة المتأكدة الواثقة من صدق حدسها، نظراً لما لمسته بحاستها السحرية المرهفة فقالت خالة الفتاة المريضة:

: ومايدريك أنها تحب ياأُخَيَّةَ؟

: هذا سر أحتفظ به لنفسى.

: إيـه... إنهـا لم تـكن تحب كما تقولين، فقد سألتها وحاولت معها بشتى الوسائل أن أعرف ما إذا كانت قد وقعت بشراك هذا الموضوع فأنكرت ذلك.

: أنـا مـعـك فيما تـقـولين، ولـكنهـا قـد كـتـمـت عنك الخبر، إما بدافع الحياء أو بتأثير الخوف.

: أتخاف منيّ؟ هذا غير صحيح، إنها بمثابة إبنتى لاتخاف منى.
: ربما كان ذلك بدافع الحياء منك!
: أبداً أنا لا أوافقك عليَ ماأشرت اليه.
: وإن لم توافقينى على ذلك، فالبرهان يحكم بيننا!!
: أنا أضمن لك البنت أنها لا تفكر فى هذا الموضوع إطلاقا، وانما مرض خفى أعيا المداو ين وأرهق القراء وعسى الله أن يمن بالشفاء على بنيتى؟
: إننى أخالفك الرأى وأتوقع أنها تحب، هذا الحب الذى صيرها إلى ماهى عليه.
: وهل الحب يصنع بالإنسان هكذا؟
: أتقولين ذلك صادقة؟ إنه يفعل أكثر وأكثر أماسمعت القائل:

١٦٩ بـــران بـــرى وأودعـــن كــالخـــلال عن الـعـنـــود اللـــى تـذيـــر بمـفـلاه

فلواعج الحب قد يمـــتد تأثيرها إلى أن يصبح الإنسان فى حالة من الوجل، وفقدان الشهية وقد يصبح مرضاً، وكثرة التفكير قد تصل بالمرء إلى الهذيان ويهيم على وجهه كالمجنون، أما سمعت عن مجنون ليلى وغيره وغيره.

: أما فقدان الشهية التى ذكرت يا أخَيَّه فقد حدثت لها فى بداية مرضها.
: لقد قلت لك إن هذا الشعور متأصل فيها، وسترين صحة ذلك فيما بعد.
: لست مصدقة ماتقولين حتى الآن، رغم ظهور بعض البوادر المشجعة.
: صدقى أو لاتصدقى، هذا شأنك، أما ما أقوله لك فهو الواقع إن صدق ظنى.
: هبى أن كلامك صحيح، فكيف يتم علاجها؟
: إن الأمر بسيط جداً، فعلاجها تزويجها لمن تحب.
: ولكن من ذا لذى علق بذهنها؟
: يمكن سؤالها عنه بنفسها!
: ولكن كيف؟ كيف نتأكد منها أنها تحب أولاً؟ ثم من يسألها عنه؟
: الأمر بسيط جداً، إنقلوها يوم غد بعيداً عن البيت، واتركوها يوما كاملاً، وليكمن أبوها بجانبها دون أن تعلم به، وليراقب حركاتها وسكناتها، و يستمع لأقوالها، ولايرد عليها إن هى نادته أوصاحت له، مهما فعلت، فإن كانت تحب كما أرى

فسوف تبوح بسرها إما بكلام منها أوقصيدة تطوح بها، أو تتمثل بقصائد قد قبلت وتحتوى على التوجد والعاطفة، وإن كانت غير ذلك فسوف تبقى هامدة فى مكانها بدون حراك.

: هذه خطة بسيطه ولن تكلفنا شيئاً.

: إذا عليك بإستدعاء أبيها وإخباره بالخطة وعليكم تنفيذها بكتمان شديد وسأبقى هنا حتى أرى نتيجة توقعاتي.

وجاء الأب وأملت عليه العجوز «نزيلة» خطتها فذهب الأب إلى إبنته فى الصباح الباكر من ذلك اليوم الربيعى الدافئ وقال لها.

: أُبُنَيَّتي إننا نذهب ونعود، وتطرقنا الرياح، ونشم الهواء الطلق وأنت ملقاة فى هذه «الرفة» لاتغادرينها ألا ترغبين أن تخرجى منها؟ فاجابته:

: ليت لي العظام التى تنقلنى!! ولكن الشكوى إلى الله!! وأجهشت بالبكاء.

: مهلاً يابنية، لاتبك، فسوف أنقلك إلى رأس تلك الأكمة وأتركك طيلة هذا اليوم لتشمى الهواء النقى، وتتمتعى بدفء أشعة الشمس فوق رأس ذلك التل الأبرق.

: أتنقلنى إلى هناك وتتركنى لوحدى؟ لن أجسر لوحدى؟

: لاعليك يابُنَيَّة، نحن فى النهار، وغير بعيدين عنك بالمعنى الصحيح.

: إننى أخشى على نفسي من السباع!؟ لاسيا وأننى لا أستطيع حراكا.

: السباع لاتدلج حول البيوت بالنهار، وعسي الله أن يستر عليك يابنيه!!

: إننى أخاف على نفسى من الهوام!؟

: سنترك معك عصا تدافعين به عن نفسك، إن جاءك شيئ من الزواحف والحشرات المؤذية.

: لا، لا ياأبى لاتتركنى لوحدى!! لن أجسر، لا أستطيع البقاء، أرجوك أن تجلس عندى أنت أو خالتى

: كل منا سيذهب إلى عمله، وستبقين لوحدك، ولن يذورك ذائر، إن شاء الله، وتعلمين أننى سأذهب للبحث عن الغنم الضائعة أما خالتك فستذهب للعرب المجاورين لبعض شأنها.

: وأنا ستبقونى لوحدى!؟

: نعم وما الذى سيؤذيك؟ كونى مطمئنة.

واستعان الوالد بأحد جيرانه لحمل المريضة على قطعة من النسيج الصوفى بمثابة النقالة ونقلوها إلى رأس تلك الأكمة البرقاء، وساوى لها والدها مكانا فى الرمل الناعم برأس التل بمحاذات صخرة واقفة ووضع عندها قليل من الماء وهو غذاؤها اليومى، وترك عندها عصاءها وودعها مع رفيقه عائدين إلى البيوت على نظرها بعد أن تركها لوحدها، ثم عاد من الجهة الثانية، يخاتلها ويحبو على ركبتيه ومرفقيه حتى قرب منها، واختبأ خلف الصخرة بجانبها، وكمن هناك يراقب حركاتها وسكناتها، ويسمع كل مايصدر عنها من أصوات، وجلست تتململ فوق تلك الرمال الذهبية الدافئة وأزاحت الفراش من تحتها، وتلفتت يمينا وشمالاً، ونادت أباها وخالتها بأعلى صوتها، ثم رفعت صوتها بالبكاء، وبدأت تطلق الويل إثر الويل، بصوت مرتفع، تنادى أهلها وذويها بين الحين والآخر، ثم مدت ساقيها بعد إنحناء طويل دام مدة طويلة، وبدأت تطوح بالأصوات يمينا وشمالاً، بكلام ليس له معنى مفهوم، كل هذا ووالدها يستمع لها ويرقب كل حركاتها، صامتا لايلفظ بكلمة واحدة راكداً لايتحرك حسب إرشادات العجوز له، ولما قرب وقت الظهر، وترنحت الشمس فى كبد السماء، هاضت عليها أشجانها، وترقرقت اللموع فى عينيها، وأخذت العصا، وأمسكت به وحاولت النهوض من مكانها متكئة على العصا، وكلما حاولت أن تقف عليه خانتها قواها الخائرة منذ زمن طويل، ولم تساعدها أعصابها من طول المكث، وحاولت مرة ثانية وثالثة وفى المرة العاشرة إستطاعت أن تقف برهة قصيرة ثم جثت على الأرض وبركت على ركبتيها وأجهشت بالبكاء، وبعد ذلك جلست القرفصاء متكئة على عصائها، ثم شدت من عزيمتها ووقفت على عصائها يرتعد ساقاها من شدة الهزال ثم إرتجفت وخانها إتزانها فسقطت على الأرض ثم حاولت الكرة مرة أخرى وثانية حتى وقفت فى المرة الرابعة التى إعتدلت فيها واقفة على قدميها بمساعدة العصا، ثم حاولت أن تخطو على الأرض فتعثرت قدماها بناعم الرمل وسقطت على الأرض ثم إستعادت وقفتها وخطت خطوتها الأولى وكأنها الوليد ذى الحول الواحد، ثم بدأت خطواتها تتوالى، غير أنها تدور فى مكانها لاتبرحه، ودبت الحياة فى أوصالها، ثم بدأت تنادى أباها وأمها وإخوانها بأعلى صوتها، ثم تعدتهم إلى منادات الجيران واحداً واحداً فلم تسمع أى صوت غير أصوات الطيور المغردة فوق تلك الرياض المعشبة، ولما لم يجبها

أحد، أيقنت ألا أحد حولها من الأهل أو الجيران، وعند ذلك رفعت عقيرتها بصوت مرتفع تقول:

١٧٠ أمس الضحى نطيت أناراس مزبور — واشرف على راع العلوم الدقاقة

١٧١ واونتى ياما بقلبى من الجور — ونة ضعيف ضاهدينه رفاقة

١٧٢ أنا شفاتي واحد من هل القور — هو عشقتى من ناقلين التفاقة

١٧٣ عوق الظليم ليا تحدر من الخور — دم القراينقط على عظم ساقة

١٧٤ هو صار عوق لى وانا صرت ثابور — والكل منا صار شوفه شفاقه

١٧٥ لعب بقلبى لعبة الغوش بالكور — وأومابي أوماة العصا بالعلاقه

١٧٦ وده سمر قلبى على مشة الزور — سمر الحديد اللى متان حلاقه

١٧٧ غديت أنا لا احدى ولابدى ولاثور — عدى خلوج محكمين وثاقه

فلم يتمالك أبوها نفسه حيث قفز من مخبئه قائلاً:

: أبشرى، أبشرى بمن تريدين!!
: أو تسمعنى ياأبى؟ تقول بدهشه وانزعاج.
: أجل أسمعك وأراك أيضا!!
: فسقطت على الأرض وهى تقول: ليت الأرض تبتلعنى!! ياليتها!؟
: لا، لن تبتلعك قبل أن أزوجك من تحبين.
: أحقا ماتقول ياأبى؟
: وبكل تأكيد إن شاء الله، إن كان لايزال على قيد الحياة.
: هذا الذى لم أتأكد منه.
: كيف تحبين إنسانا لاتعرفين عنه شيئاً؟
: إن عهدى به لقديم جداً!

: ومن يكون هذا الذى شغف قلبك بحبه؟

: إنه ذلك الفتي الذى ضافنا فى فصل الربيع من تلك السنة حينا كنا بالمكان الفلانى.

: مااسمه؟ وابن من؟

: لاأعرف إلا إسمه الأول، إنه «عَوَّاد» ولا أدرى إبن من!!

: عواد، عواد، يسرح الأب طرفه، وقد غَلَّ أصابعه فى شعر رأسه، وبدأ يهرش رأسه وكأنه يبحث عنه بين تلافيف شعره!!

: يحاول تذكر إسم ذلك الإنسان، وهو يردد الإسم الذى مر عليه أكثر من خمس سنوات ثم يقول: إننى لا أذكره، فكم جاءنا من الأضياف فى ذلك المكان الذى أقمنا فيها سنتين؟

: إنه ذلك الشاب «الشمحوط» الطويل الوسيم، و«بالأمارية» فإن أحد أصابع كفه الأيمن قد عابت وإنحنت إثر كسر أصابها، وقد روى لك قصة الجمل الذى هاج عليه وعضه تلك العضة التى تركت فى يده ذلك الأثر الواضح وهو عقفة فى إحدى أصابع يده.

: أعذريني يابنيه، فاننى كثير النسيان، عواد، ذى الإصبع المعقوفة!!

عواد، ذى الإصبع المعقوفة!! إننى أكاد أذكره. هاء... لقد ذكرته!! ألم يأتنا بالمكان الفلانى وذهب إلى المكان الفلانى للبحث عن بعير ضال؟

: بلى ... وأظنه كذلك!!

: لقد عرفته تماماً، إنه عواد بن ... وأبشرى به، أبشرى، يقول ذلك وهو يربت على كتفيها بحنان.

: أحقا ماتقول ياأبى؟ أصحيحا ماأسمع منك؟ تقول ذلك بصوت متهدج.

: إن كان لايزال على قيد الحياة.

: ومتى ذلك؟

: سأذهب صباح غد للبحث عنه، ومتى وجدته تم كل شيئ!!

: وهل تسمح لى بمصاحبتك؟ تقول ذلك مندفعة بتأثير الفرح.

: ليس لدى مايمنع، ولكن من الأفضل أن أذهب أنا وأبحث عنه، ومتى وجدته إتفقت معه على الطريقة والترتيب الذين يتم بموجبها الموضوع.

: أطال الله عمرك، وأبقاك لي سندا. تقول ذلك بعد أن وقفت وإنتصبت على عصائها كأنها الرمح، وهذه الكلمات تتزاحم في حلقها مندفعة إندفاعاً، وقد تراكمت الانفعالات وتراصت على محياها، ودَبَّت الحيوية في أوصالها، وهزت خلايا جسمها بعنف وكأنها تصيح بتلك الخلايا أن انتعشى وهبى، واستعيدى البناء بسرعة لتتماسكى، وعادت إليها قوتها المخزونة والكامنة منذ مدة طويلة، ثم استأنفت تقول: أحقا عرفته يا أبي؟

: نعم لقد عرفته، ولماذا لم تخبرينا منذ أمد بعيد يابنية؟ لقد قاسيت من آلام الكى، ومرارة الأدوية، وتفال القراء الشئ الكثير، فلماذا لم تخبرينا بذلك منذ ذلك الحين؟

: لم أستطع إخبارك بذلك، وأين اللسان الذي سينطق بهذا الشيء؟

: إذا كنت لم تتجاسرى علي، فلماذا لم تسرى لمن هى بمكانة أمك بهذا الأمر أو تهمسى لها بمضمونة؟

: لم أستطع ذلك لضعف موقفى، فلقد منعنى الحياء عن مشافهة أى إنسان وصدنى الخوف عن التلميح لك!! فأنا إمرأة وتعرف موقف المرأة ولاسيما الشابة الصغيرة!!

: يا أسفى على العذاب الذي تحملته، والشقاء الذي رضخنا تحته!

: لا تأس يا أبي على مافات. فما فات مات!!

: وليت أننى عرفت أنك بهذه العقلية الناضجة لأخبرتك منذ البداية، ولكن هذا ماكتب الله، والحمد لله على أقداره!

: توكلي على الله لنعد إلى البيت، إنتظريني هنا حتى أنادى جارنا فلانا ليساعدنى على نقلك إلى البيت.

: أبداً، أبداً، سأعود معك ماشية على قدمي هاتين.

وعادت مع أبيها تتخطى على الأرض، يمسك والدها بأحدى يديها والأخرى تمسك بها العصا الذي تتوكأ عليه، وسار معها الهوينى حتى وصلا إلى البيوت، ودهشت خالتها حينما رأتها مقبلة مع والدها تمشى على قدميها. فقالت:

: الحمد لله على السلامة، يزول البأس، وعانقتها خالتها وضمتها إلى صدرها وصارت تقبلها وهى تقول: الحمد لله على السلامة، ماشاء الله، ذهبت محمولة، ورجعت

تمشى على قدميها؟ ماذا بها؟ مالذى أطلق عقالها؟

: لقد صح ماقالته «نزيله» وإتضح أن الذي فعل بها هذا هو «العشق».

: وبدون تفكير قالتِ خالتها «وَاحِزْن يَرْجِفْ قَلْبك» وهل الحب يعمل بالنساء هكذا؟ وما يدريك أنها تحب؟ هل قالَت لكَ شيئاً؟

: نعم لقد صارحتنى، بعد أن قالت القصيدة الآتية، وتلي القصيدة وهى تنظر إليه تارة، وتنظر إليها تارة أخرى، وتكررت نظرات العتاب والإسغراب، وعندما إنتهى الزوج من تلاوة الأبيات قالت له الزوجة: ومن هذا الذي افتتنت به هذه «المقرودة»؟.

عند ذلك رفعت الخالة عقيرتها موجهة اللوم إلى ابنة ضرتها مشيرة إليها بأصبعها وهى تقول:

١٧٨ برق تحدر لم عرعر وأبا القور لاتستخيله لو ربيعك شفاقة

١٧٩ تري الرجال إيهم تمازيح وغرور ومن قبل بخصه لايجي لك عشاقه

وعند ذلك برزت ملامح اللفاع في ألحاظ البنت ضد هذا التحدى السافر من زوجة أبيها، وبدون تعقل أو تروى أجابتها:

١٨٠ من لااستشارك لاتباديه بالشور ومن لايودك نور عينك فراقه

: وهكذا فازت بالرهان العجوز «نزيلة» بعد أن صدق حدسها فيما رمت إليه فقالت مفتخرة بحدة ذكائها وهى تشير إلى رأسها بسبابتها «رأى صاحى» وأنا نزيلة، إذا إشتبهت عليك الأمور، فأبشر بالذي يوردك الماء فرد عليها والد الفتاة، «أبشرى بالذي يسمح خاطرك ياخالة» ثم إستأنف كلامه لزوجته عليك أن تجهزى لي الزاد اللازم وجميع مستلزمات السفر وتضعى لي الشداد على مطيتى فجر غدٍ، ولن تمضى أيام قليله إلا وقد تم كل شيْ. ومع خيوط الفجر الأولى إمتطى الأب كور مطيته قاصداً مضارب القوم الذين معهم الرجل المقصود وبعد ثلاثة أيام وصلهم وسأل عن الرجل فوجده فأناخ مطيته ضيفاً عنده وبعد إجراءات الضيافة المعتادة جلسا منفردين وهنا **صاوح** مقبل **صاحبه**

بـالمـوضـوع الـذي جـاء مـن أجـلـه، وضـرب المـسـافـة لـتـحـقـيـقـه، فـعند ذلك لبى المعنى مطلبة، ووعده أن يأتى إليه بعد أيام قليله لطلب يد ابنته كما هى عـلـيـه العادة والعرف، فعاد مقبل بهذه الحصيلة، وبعد ثلاثة أيام قدم الرجل مع مجـموعـة من أصحابه، وتمت الخطبة والزواج في يوم وليلة حسب التـرتـيـبـات المتـخـذة مـسبقا، وعادت إلى الفتاة حيويتها ونشاطها واستعادت صحتها شيـئـاً فشيئاً بعد أن رحلت مع زوجها ثم أصبحت بعد ذلك من أجمل النـساء وأتمهن صحة، فصارت أم لأبنائه، وهكذا نرى أن سبب شفائها قد تم بزواجـهـا ممـن تحـب، وانـطلق لسانها بعد ذلك بالشعر الذي لايخلو من الأبيات الجيدة التي سارت على كل لسان من ذلك قولها من قصيدة مطلعها:

يـالله عـسـى مـاتـكـره النـفـس خـيـره   يـا والـى الـدنـيـا عـلـيـك الـتـدابـر
اللـى فـرق بين الـعـشير وعـشـيـره   هـو لـه وانـا لـيـه ولـي المـقـاديـر
وراك يـامـانـع[1] تـبتن يجـيـره   زود عـلـى تـلـطـيـخـكـم بـالمـعـايـر
أنـا (صُـلَـيْـبـيَّـه) ولالـى نـخـيـره   وانتم نخـايـركـم رقـاب المـنـاعـير
حـنـا (صُلَيْب) ولاعـلـينا جـريـره   عـاداتـنـا نـنـزل خـلاف الـدواويـر
أنـا بـديـرة والحـبـيـب بـديـره   ورجـاكـم مـايمـرح الـلـيـل يـامـير
مـانـع لـيـاركـب الجـواد الـظـهـرة   مـا لـه شـبـيـه يعلم الله حـذا الـزيـر
زيـر الـعـراق اللـي ر بـالجـزيـرة   شـيـخ كـبير ووافـي بـالـتـشـابير
يـطـعـن لـعـيـنـى فـاطـر لـه ظهيره   غـبـوقـة الخـطـار يـرصـا مـواخير
شـرابـة المـاكـان غـثـر حـفـيـره   مـنـاكـبه تنحى الـضـوامى عن الـبير

(١) مانع بن سويط شيخ الظفير قتل عام ١٨٥٤هـ «تاريخ ابن بسام».

خـيـال شـقـح مـايـردد نـشـيـره　　وان جـن عـلـى روس الـنوازى دعاثير
لـيـا سـمـعـت الـصايح تقاود بريره　　تجـعل على البيت المطرف معاصير
زبـن الحـصـان اللـى قـطاته كبيره　　تـعـاورنه مـصـعـدات المـعـاويـر
والله لابـدل دارهــم لـى بـديـره　　نـتـبـع مـزون مـقـفـيـات محـاديـر

٢٥ - أزوجها صاحب الظهران *

قد يجد المرء نفسه في موقف صعب عندما تأتيه الأذية والظلم من ذويه الأقربين، فيكون وقعها أنكأ وألمها أشد، كما قال الشاعر العربي:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

تلك هي قساوة الحياة، ومرارتها يتجرعها المرء غصصا في بعض الأحيان من يد قريب منه أو بعيد عنه، فعند ذلك يتخذ كافة الإحتياطات لتجنبها وإذا لزم الأمر فإنه سيدافع عن نفسه بما يتطلبه الموقف من دفاع، حتى لو أدى ذلك إلى بتر تلك اليد التي ستجلب إليه من نغص الحياة شيء لايريده، ولايستطيع تحمله، هذا إذا كان المتسبب له بعيداً عنه، أما إذا كان المتسبب قريباً منه، أو يمت إليه بصلة فإن ذلك سيضعه بين نارين، إما أن يكتم غيظه و يتجرع مآسيه، وهذا بطبيعة الحال سيكلفه إتزانه على أقل تقدير، وربما إمتد إلى صحته فحطمها، وإن تحدّا قريبه وحاول أن يرد عليه إساءته فذلك أشد وقعاً على النفوس، لاسيما إذا كان موضع الخلاف ليست سلعة تباع وتشترى، أو قطعة أرض أو بستان أو بيت يقتسم، اول منفعة يتم تبادلها، ولو كان كذلك لسهل التفاهم عليه بالطريقة المؤدية لارضاء الطرفين، حتى لو اضطر أحدهما إلى التنازل عن جزء من حقه في سبيل رَدْء الشّر ودحره، مهما لغط المتكلمون، وطَبل المرجفون، ولكن الأمر على غير هذه الصورة، إنه يتعلق بما هو أكبر من ذلك، حيث يمس العلاقات الإجتماعية، والأواصر العائلية، والوشائج الأسرية بما يربط بين قلبين نشآ منذ عهد الطفولة البرئ الناصع، واستمر الود والتآلف بينهما منذ أن كانا يلعبان سويا على نبث البئر في ظل شجرة التين الهائلة حينا، وتحت جزء من شجرة العنب الكبيرة المتدلية على السوانى أحياناً أخرى، في هذا المكان الهادى الرائع، الظليل بدأ الطفلان يبنيان بأكفهما الطرية الناعمة من حضباء النبث ذلك النأي الصغير الأعوج أو الخط الذي ترى فيه أثر أصابعها الغضة، و يتخيلانه بيتاً شامخ البنيان، يبنيه الصبى بمساعدة رفيقته وإبنة

* حدثت القصه عام ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م.

عـمـه، ثم يعين لها القسم النسائي، المطبخ وغرف النوم، حيث تجلس فيه ترتب شئون بيتها، وكـأنهـا أكبر ربـة بيـت، تـصـف مـن قطع الأحجار والخشب، وكرب النخل مـاتـتـصـوره أرقى الأواني وتنضد في غرفة النوم قطع أخرى من الخشب والخزف وهى تـتـخـيـلـه أفـخـر أنـواع الأثاث والنمارق، وتصدر تعليماتها وتوجيهاتها إلى من تتصورهم مساعديها، أما هو فيجلس بالقسم الخاص بالرجال وهى غرفة القهوة ومايليها، و يتخيل أن الرجال يأوون إليه فيعمل لهم القهوة و يديرها عليهم، و يدعوهم إلى تناول الطعام كـعـادة الـرجـال، وهنا يصدر أوامره إليها لعمل الوجبة اللازمة بحيث تُجِدُّ وتجتهد في عـمـل مـاتـتـصـوره الزاد اللازم للمدعو ين وهو عبارة عن كمية قليلة من الرمل الناعم الـذي تـنـخـلـه باصابعها الطر ية من البطحاء التي يلعبون عليها و بالتالي يتخيلون أنهم يـأكـلـون هـذا الـطـعـام مع ضيوفهم، وهكذا يتصور الأطفال و يطفحون بخيالاتهم لحياة سائرة بهذا المنحى، وهى ولاشك محاكاة لنمط الحياة عند الكبار كل حسب البيئة التي يـعـيـش فيهـا، منذ ذلك الوقت إرتبط والتأم هذان القلبان، وزاد بينهما الإلتحام كونهما يـعـيـشـان مع أهـلـهـم فـي بـيـت واحـد كما هى العادة في معظم الأسر من فلاحين وغـيـرهـم، وهمـا بـكـرا والـديهما وسـارت الأيام والشهور والسنين وكل واحد من هذه الأسـرة الـكـبـيـرة يـعتقد بل ويجزم أن تلك الفتاة بكر والديها ستكون من نصيب إبن عمها و بكر والديه أيضاً، ولكن ما إن نَهَدَتْ الفتاه وغلظ صوت الشاب حتى تغيرت مجـر يـات الأمـور، وظـهـرت مـن والـد الـفـتـاة بوادر لاتبشر بخير، في هذا الجو عاش «مَـنْـصُـور» إبـن ذلـك الفلاح الكادح الذي يباشر عمله قبل أذان الفجر وحتى أذان الـعـشـاء الأخير، لايـفـصـل ذلـك سـوى إستراحة قصيرة لأداء الصلاة وتناول وجبات الـطـعـام، يـشـد عـضـده أخوه وشر يكه فى المزرعة، وإن كانت الحياة في هذه الأسرة تـسير عـلـى نمـط واحـد تقر يباً، وقوام برنامجها يتكون من أعمال الزراعة الشتو ية حتى إذا إنتهـى مـوسـمـهـا وأدخلوا غلتها باشروا في زراعة الفصل الصيفى، وهكذا ديدنهم عـلـى طر يقة آبائهم وأجدادهم منذ مئات السنين، يزرعون و يُسَوِّقون منتجاتهم يأكلون منهـا وقـد اكـتـفـوا ذاتـيـاً، يـضـيـفـون عـانيـهـم، يـشترون من أثمان منتجاتهم الزراعية مـايحـتـاجـون إلـيه من ملابس ومستلزمات أخرى، لايلتفتون لأى مجال آخر، حتى إذا بـدأت بـوادر إنـتـعـاش الـبـلاد بسبب إكتشاف النفط في الجزء الشرقى منها في نهاية

الستينيات الهجرية بدأ الشباب هجرتهم من أماكن عديدة من البلاد للعمل في متطلبات وأعمال حقول النفط، ثم يعودون بعد مدة وجيزة وقد حصل كل منهم على مبلغ من المال، ورفل بالحلل الجديدة، فاصبح الناس ينظرن إلى هؤلاء الشباب بعين ملؤها التقدير والإعجاب، وصار كل شاب يطمح في أن يكون مثل هؤلاء الشباب وإشرأبت أعناق الفتيات ينظرن إلى هؤلاء الشباب العائدين من حقول العمل يرتدون الملابس الجديدة الناصعة، والعباءات الموشاة بالخيوط المذهبة، وكل واحدة تتمنى أن يكون فارس أحلامها من هذا الرعيل الذي كسب رزقه بيمينه في أقصر وقت ممكن، لم يتركه والد لما ولد، وفي ذات مساء جلس الأخوان محمد وسالم بعد صلاة العشاء متسندين إلى سارية جدار القليب يتبادلان الحديث فقال:

: يا أخي محمد، ألا تشعر بما أشعر به؟

: وبماذا تشعر يا أبا منصور؟.

: إنني أكاد أشعر أنه قد حان الوقت لنتم الفرحة التي كنا نتمناها منذ أمد طويل؟

: ماذا تقصد بالفرحة؟ أهي الفرحة بالانتهاء من حصاد مزرعة الذرة؟

: أنت لا تفكر سوى بالزرع والحصاد!!

: هذا عملي، وبماذا تريدني أن أفكر؟

: أريدك أن تفكر في إتمام زواج منصور من علياء الذي طالما انتظرناه.

: إيه .. لم ينتظره غيرك على ما أظن!!

: وأنت ألم تنتظره؟ ألا يسرك إتمامه؟ باعتبار منصور إبنك، ألم تعد بإتمامه منذ أن كانا صغيرين؟

: ألم... ألم،!! لقد أكثرت من هذه التساؤلات؟ آه... لقد تغيرت الأمور عن ذي قبل يا أبا منصور!! لقد قلت هذا الكلام على سبيل المزاح وتطييب الخواطر!!

: أنت أكبر مني وأعلم، ولكن يا أخيّ ألا تعلم أن ثلاثة أمور هزلهن جزل وهي، الزواج والطلاق والعتق، ولقد سبق ان أعطيت يد ابنتك علياء لمنصور، في أكثر من مناسبة.

: إيه، قد يكبر الإنسان وينسى، أما تذكر أمنا يرحمها الله عندما كنا صغاراً، ويصاب أحدنا بضربة موجعة، أو شَجَّة في رأسه، فتمسح عليه وَتُرَبِّتُ على

كتفيه قائلة: مالك شر تكبر وتنسى!!

: دع عنك هذا الكلام يا أبا صالح، ولنتكلم بجد، إننا نريد «سمننا في دقيقنا» كما يقول المثل.

: ولكن السمن مطلوب، وغالي الثمن في هذه الأيام، إنَّهُ يساوى «شليل دراهم»!!

: وماذا تعنى؟

: أعنى أننى لن أزوج ابنتى علياء إلاّ...!!

: «بشليل دراهم» أليست هذه تكلمة إجابتك؟

: نعم وبكل تأكيد، ولن أزوجها إلا على شاب عائد من «الظهران» ولديه من الدراهم ما يملأ حضنى!!

: قل غير هذا يا أبا صالح، وأتق الله، ولايستحوذ عليك الطمع!!

: أما سمعت بيت الشاعر الذي يقول:

١٨٢ اللــي يــبــي الجــادل المــربــوع يـــــــوق الألــفين مــايــراوى

: دعنا من هذا الكلام، إن شأننا يختلف عن أولئك الذين يضعون بناتهم بالمزاد العلني!! إننا إخوان قبل كل شيء، وما في جيبك أعتبره في جيبي.

: إخوان مافي ذلك شك، ومالنا مشترك لاريب في ذلك، ولكن لن أزوج إبنتى الأعلى «راع الظهران» وبس.

: راع الظهر ... راع الظهران... أظنهم خطفوا بصرك ببريق ملابسهم الجديدة وعباءاتهم الشقراء المطرزة، وعُقُلُهم المائله!؟

: بل وخطف بصرى أيضاً الريالات الفضية البيضاء التي يسبى رنينها الألباب!!

: أتقول هذا عن صدق؟

: وبكل تأكيد، فإذا يريد منصور يد علياء فعليه أن يدرك مايحوشه الجذعان، من دراهم الظهران!؟

: الظهران، لقد أثقل سمعى ترديد هذه الكلمة،!! تصبح على خير، وغادر سالم المكان وهو يردد بينه وبين نفسه هذه الكلمة التي يعتبرها أثقل الكلمات على سمعه، وكان منصور قد سمع الحديث بكامله، عندما كان واقفا بقرب جذع شجرة

التين المائلة متخفيا عن أنظارهما تحت ستار الظلام وعندما وصل والده إلى قرب باب البيت التقى به منصور، وسأله على كلمة الظهران التي قد سمعها منه، وكأنه لايعلم شيئاً مما جرى بينهما، فقال الوالد من باب التعمية، يذكرون ان فلانا سيذهب إلى الظهران يوم غدٍ فردد الولد الأبيات الشائعة على ألسنة الشباب.

١٨٣ يا الغوش هيا نبي ظهران ترو الوعد راس مشعابه

١٨٤ كل النشاما نصوا ظهران ولا بقى غير شيابه

: فرد عليه والده، لايذهب للظهران سوى العاطلين الذين لاعمل لهم، فقال الولد بلهجة المتحفز: والذين يريدون البنات «المزايين»

: ماذا تقول؟

: أقول ماقلت يا أبي، وإني لذاهب غداً مع أول سيارة تغادرنا إلى الظهران.

: مالذى جعلك تقرر بهذه السرعة؟

: جعلنى جديث مدماك القليب بينك وبين عمى!!

: أو سمعته؟

: بكامله!! ووالله لن يردنى غير الظهران، أو رأس مشعاب، أو رأس تنورة.

: إذا كان أزعجك حديث عمك، فسوف يهديه الله وسأحاول معه حتى يعدل عن رأيه.

: لاتحاول معه يا أبي، «فالحر تكفيه الارشارة» كما يقول المثل وإذا كان لك محاولة معه، فلا يعط يد علياء لغيرى حتى أعود سالماً غانما إن شاء الله،!

: سأبذل جهدى، حسبى الله ونعم الوكيل، لقد جاءت من أخى الكبير الذي أعتبره بمثابة والدى، لقد أغضب هذا الشاب الغض. يقول ذلك بينه وبين نفسه وأفترقا فذهب الأب للنوم، أما منصور، فقد دخل إلى غرفة منفصلة وأخذ يعد نفسه للسفر، وذلك بتناول لفافة من القماش، لف بها ثوبه الثاني و«شماغة» وعلقها في خلال مثبت بالجدار، ولم يخبر سالم زوجه بما عزم عليه ابنه، مخافة أن يزعجها، ولاسيا أنها رقيقة الإحساس، وعند الصباح فاتحها منصور بمل عزم عليه، دون أن يخبرها بالتفاصيل، فولولت وتجمع عليها النسوة، بما فيهن علياء يحاولن ثنيه عن

عـزمه، لكنه تمسك برأيه، وعند الظهر قدمت سيارة الشحن «اللورى» التي يمتطيها النـاس لتنقلهم بين مدينة وأخرى، وأخذ منصور من والده ثلاثين ريالاً منها خمسة عشر ريالاً أجرة نـقـلـه مـن بـلده حتى الظهران بموجب التعرفة المتفق عليها يومئذ والباقي سيصرف منه على نفسه حتى يحصل على عمل هناك.

* * * *

وفي أصيل ذلك اليوم الخريفى تحركت السيارة بما عليها من شحنة التمور والحبوب وفوقها يجلس الركاب متوجهين إلى الظهران فرفع أحدهم صوته «بالهجينى» حيث قال:

يـاديـرتـي خـربـك عـثـمـان　　وعـن الـسـنـاعـيـس مـاجـوره

١٨٥　يـا الـغـوش هـيـا بـنـي ظـهـران　　تـرى الـوعـدراس تـنـورة

١٨٦　أخير مـن مـقـعـد الحـقـران　　وش عـاد لـو عـيـشـتـي هـورة

إلى آخر القصيدة :

: ورودها معه صحبه حتى غابت بهم السيارة خلف سمت الأفق وتركوا أم منصور وغيرها من الأمهات ذوات العطف والحنان اللواتي ودعن أبناءهن أو الزوجات اللاتي ودعن أزواجهن أو الأطفال الذين ودعوا آباءهم وكل منهم تنزف مآقية زخات من الدموع ربما لاعتبارهم هذه الساعة ساعة فراق، وما أصعبها من ساعة؟

بينما واصلت القافلة رحلتها بضعة أيام عبر طريق ترابي صعب كثير الشعاب والأودية والكثبان الرملية، والأرض الوعرة حتى وصلوا إلى المدينة الكبيرة في منتصف الطريق، حيث نزل ركاب السيارة في العراء، تحت خيمة قرب محطة السيارات، ثم إنتظروا وجود السيارة الأخرى التي تنقلهم إلى هدفهم المطلوب، وبعد يومين وصلت بهم السيارة الأخرى التي نقلتهم إلى الظهران عبر طريق ترابي يشبه سابقه، وعندما وصلوا إلى الظهران بهرت أنظار أبناء القرية ضخامة المعدات والآليات التي تستخدمها الشركة المنتجة للنفط، ولكن ما أذهلهم أيضاً أنهم لم يجدوا الظهران جنة وارفة الظلال كما كانوا يتصورون أو دراهم مركونة تنتظر من

يأتي لالتقاطها والعودة بها كما كان يحلو لبعض متصدرى المجالس، بل وجدوها على العكس تماماً، ومكث منصور عند أحد جماعته الذي سبقه بالمجيئ إلى هذه المنطقة، الأسبوع الأول في غرفة صديقه ضمن «عنبر» طويل يحتوى على أعداد كبيرة من الغرف، هذه العنابر تكون المجموعات السكنية لموظفي الشركة وعمالها وبعد أن مضى الشهر الأول ومنصور يذهب كل يوم إلى شبابيك الشركة التي يتم من خلالها إستلام أوراق العمال الراغبين في العمل، ويتم اختيار العدد اللازم كل يوم حسب متطلبات العمل، وتستقبل هذه الشبابيك مئات العمال يومياً من الذين قدموا من كافة أنحاء المملكة، ويقع الإختيار على أعداد محدودة كل يوم، وعندما يئس منصور من الفوز بالإنخراط في أعمال الشركة توجه إلى مكاتب المقاولين المحليين الذين يتعهدون للشركة من الباطن بإنجاز بعض الأعمال المحدودة وذلك بتوفير الأيدى العاملة لهم، فلم يجد عملاً وكاد اليأس أن يحطم قلبه، وساورته نفسه أن يعود إلى أهله، ولكن أين الوجه الذي سيقابل به أهله إن هو عاد بدون فائدة؟ وماذا ستقول عنه النسا؟ وبأى منظار ستنظر إليه ابنة عمه علياء عندما يعود فاشلاً؟ بينما يعود غيره وقد حصلوا على ماير يدون، فقرر أن يبقى حتى يحصل على عمل، أو لايعود إلى أهله أبداً، وبعد عناء ومشقة، وتعب، وطول إنتظار وتردد على مكاتب الشركة والمقاولين تحصل على عمل شاق ومرهق بالشركة كعامل لتحميل قلابات الرمل التي تنقله إلى المناطق الصلبة لفرشه تحت أنابيب النفط وبدوام يمتد إلى ثمان ساعات عمل، وبأجرة قدرها ثلاثة ريالات في اليوم، وعندما علم رفاقه بانتظامه في العمل أقبلوا يهنئونه ويتمنون له التوفيق، وينصحونه بضرورة الإستمرار وتحمل ما يلاقيه في هذا العمل، وفي نفسه مافيها من الكراهية لهذا العمل، ولكنه تحمل هذه المشقة وجالد عليها حتى يعود بعد عام أو عامين منذوى الثياب البيضاء اللامعة، والعُبِيِّ الشقراء والسوداء الموشاة بالخيوط المذهبة، يملأ أعين الناس، ويحتفى فيه القريب والبعيد، وبالتالي يظفر بيد ابنه عمه التي تملك عليه إحساسه، وقد إشترط أبوها ألا يزوجها إلا على ذوى الثياب اللامعه الجديدة، وهكذا استمر منصور في عمله الرتيب يباشره في الصباح الباكر وحتى مابعد صلاة العصر مقابل الثلاثة ريالات الفضية التي يتقاضاها ولو كان عند أهله وعمل في مزرعته بهذه الطاقة لتحصل على أكثر من هذا الأجر

بسبب زيادة مردود الأرض التي يخدمها بهذه الصورة ومضت السنة ألاولى وشارف على إتمام السنة الثانية، وبذلك يحصل على إجازة عمل لمدة شهرين من الزمن وفي هذه الفترة وبفضل نشاطه في العمل ومهارته فى المهنة التي عمل بها بعد إنتقاله من العمل الشاق إلى مهنة عامل كهربائي ثم فنى كهرباء وذلك لسرعة تقبله لتعلم اللغة الإنجليزية، وطاعته لأوامر رؤسائه، فقد وصل أجره اليومى إلى ستة ريالات مع مايحصل عليه من أجرة إضافيه عن الساعات التي يعملها خارج وقت العمل الرسمي، وبعد إكتمال السنتين على تغربه عن أهله كان قد جمع مايزيد قليلاً على أربعة آلاف ريال وهى ثروة كبيرة في ذلك الوقت هذا المبلغ قد جمعه رغم ما كان يصرفه على نفسه وماينفقه على قاصديه من الضيوف، وما يعطيه لبعض أولئك المحتاجين الذين يفدون إلى أماكن تجمع العمال طلباً لنوالهم ليستعينوا بها على نوائب الدهر، وعندما تأكد منصور بأن لديه المبلغ من المال وأن نصفه كفيل بتغطية تكاليف الزواج قرر أن يتمتع بمجازته، عند ذلك إشترى لوالده ووالدته وإخوانه وأخواته الهدايا، وشملت هداياه عمه وزوجته وأبناءه بمثل ماخص به أهله، وفي أحد الأفواج العائدة إلى الأهل من الشباب تألق منصور بينهم مرفوع الراس، شامخ الجبين حينا عاد إلى أهله غانما بعد غياب دام مايزيد على عامين كاملين، وما إن إستقر عند أهله مظهراً ما أدركه من المال حتى سال لعاب عمه، فلم يتمالك نفسه حيث فاتح أخاه سالم برغبته في إتمام الفرحة التي تحدثا عنها قبل فترة من الزمن وهى زفاف إبنته علياء إلى منصور، وكانت فرصة ثمينة ينتظرها سالم بفارغ الصبر، وتم الزواج وسط أفراح العائلة والأقارب والجيران بحفل بسيط، وبعد أن إستقر الأمر في ذات يوم ومع قهوة الصباح دار الحديث بين منصور وعمه محمد.

: بعد أن إرتشف فنجانا من القهوة قال: أحمد الله الذي غير الأحوال ياعم!!

: وماذا تغير من الأمور يابني؟

: أول تغيير لها، نظرتك إلىَّ ياعم!!

: لم تتغير نظرتي إليك ياولدى!! منذ ذلك الوقت وحتى الآن!!

إنني أنظر إليك كإبنى، منذ كنت طفلاً إلى اليوم!؟

: أعتقد أنها مرت فترة كانت نظرتك إليَّ خلاف ماتقول.
: ومتى كان ذلك؟
: عندما دار بينك و بين أبي الحديث المسائى قرب سارية مدماك البئر!!
: هل أخبرك والدك عنه؟
: لا والله، إنه لم يتلفظ بكلمة واحدة، وإنما سمعته بنفسى، ومنذ تلك اللحظة شعرت بنقص في نفسى وعزمت على إستكماله.
: إعذرنى يابنى مادمت سمعت حديثنا آنذاك، فلم أكن أقصدك؟
: ربما أنك لم تقصدنى بحديثك، ولكنك وضعتنى أمام خيار صعب إضطررت معه على مغادره البلد، والإكتساب مثل أقرانى.
: لقد كان هدفى أن يكون كلامى حافزاً لك على البروز ونيل المكاسب.
: إنني أشكر لك صنيعك هذا، وكلما تذكرت تلك الكلمات التي أغاظتنى ساعتها، ولكنها كانت بمثابة الفتيل، الذي فجر الطموح عندى، وجعلنى أتحمل أقسى صنوف العذاب وآلام الغربة في سبيل الوصول إلى هدفى. والحمد لله، «يحمد مصابيح السرى كل سارى» كما يقول الشاعر.
: أما تعلم يابنى أن القساوة أحياناً من الأب أو العم أو الخال أو الأخ الأكبر تعتبر نوعاً من التأديب تارة، وشحذ الهمة وصقل العزيمة تارة أخرى، أما سمعت بقول أبى تمام

فقسى ليزد جروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

: جزاك الله خيراً ياعم، وأكثر من أمثالك، الذين يستعملون القسوة كنوع من التربية التي تعود بالمنفعة على المقسو عليه.
: إن قساوة ذو يك في كثير من الأحيان أهون عليك من قساوة سائر الناس.
: على شرط أن تكون لهدف سام، وليست نابعة من الحقد أو الكراهية.
: أظن أننى من النوع الأول.
: شكر الله مسعاك.

وانتهت فترة إجازة منصور وغادر أهله إلى مقر عمله على أن يعود إليهم بعد عام

كـامل، تـاركـاً زوجـتـه عـنـد أهله، وكان بوده أن يصطحبها معه، لكن ظروفه المادية حـالـت دون تحـقيق رغبته، وبعد مرور سنة كاملة عاد إلى أهله بعد أن إستأجر بيتاً فـي المـنطـقـة الـتـي يـعمل بها، فوجد زوجته قد أنجبت له بكرها، ولداً ذكراً فغمرته الفرحة، وابتهج مسروراً لهذا العطاء الذي قد حباه الله به، ومكث عندهم فترة إجازته وعـنـد الـعـودة عـرض على زوجته أن تصحبه إلى مقر عمله فلم تمانع على أن يوافق أهلـهـا، وعـرض الأمـر عـلـى أهـلـه فأيدوه ودعوا له بالتوفيق والسداد، وطلبوا منه أن يـزورهـم عـلـى رأس كل حول، فوعدهم بذلك غير أنه عندما فاتح عمه بالموضوع تلكأ عليه عندما قال له :

: أنـت تـعرف ياعم كم هو صعب على الإنسان أن يعيش في مكان وتعيش زوجته في مكان آخر؟

: لم أفهم ماتقول؟

: يـسـتطرد، وكم هو صعب أن ينتهي المرء من عمله المضنى اليومى ويعود إلى منزله ليباشر في تجهيز وجبة غذائة، ثم يبدأ بتنظيف ملابسه وأوانيه وترتيب منزلة؟

: كـلـنـا نـعـمـل ذلـك، ونـعود من عملنا مرهقين، وأحيانا نجد وجبة للغداء، وأحيانا أخرى لانجدهـا!! فـنـبقى طاوين حتى موعد وجبة العشاء، «أجل إنت ماغزيت مع منها»!؟

: دعنا من هذا ياعم، وأرجو أن تتفهم وجهة نظرى.

: حتى الآن لم أعرف وجهة نظرك حتى أفهمها!! ولم اعرف معنى كلامك!!

: معنى كلامى أنني بودى أن أصطحب معى زوجتى علياء وإبني إلى مقر عملى!!

: ماذا تقول؟؟ تصطحبها معك للظهران؟ يقولها باستغراب مشوب بالغضب

: نعم للظهران، وماذا في ذلك؟

: وتقول هكذا!؟ إبنتى تسافر للظهران!؟ يقولها بلهجة الاستهزاء

: إنها ستسافر معى، برفقتى، وسأحرص عليها أشد الحرص.
وأضعها في عيني هذه. جفن فراش وجفن غطاء.

: إترك عنك هذا الكلام، تسافر علياء!؟ «والله لم يبق غيرها»!؟

: إنها زوجتى، وفي عصمتى وأنا حريص عليها حرصي على نفسى.

: علياء تسافر لديار الأجانب!!؟

: إنها ليست ديار أجانب، إنها ديارنا!! فهي جزء من المملكة العربية السعودية سكانه إخواننا، إنه جزء من بلد عربي مسلم، وهي بين مثيلاتها من زوجات الموظفين والعمال!!

: إترك عنك هذا الكلام، «خط خطين وأمح الثالث»!!

: إنني لا أفهم ماتعنى ياعم!!

: إذا كنت لاتفهم ما أعنى فاعتبر إبنتى لَبِنَةً من طينة هذا البلد ولن تنتقل منه أبداً، فإن أردت زوجتك فامكث عندها، أو عد إليها بعد سنة، وإن لم تردها فأنت حر، «هذه اللى ماطارطيرة»!؟ يقول ذلك وقد إشتاط غضباً.

: إننى لم أتزوج لبنة من طين هذا البلد، وإنما تزوجت إنسانة مثلى تشاركنى آمالى وآلامى طول حياتي، وستبقى عندى طول حياتى إلى ماشاء الله.

: لقد أعلمتك أنها «كَتَرَة» في هذا الجدار، ولن تتزحزح عنه قيد أنملة.

: هداك الله ياعم، إن موقفك هذا غير صحيح، فهى زوجتى وأنا حر فيها!!

: سلامتك ياوليدى!! ماذا سيقول الناس عنا؟ عندما نسمح لابنتنا لتسافر إلى ديار الأجانب؟

: ما لنا ولكلام الناس؟ إنها لم تسافر إلا مع زوجها!!

: ليكن في علمك أن كلام الناس ذا قيمة عندى، ولايمكن أن أسمح لها بمصاحبتك.

: حتى ولو كانت راضية بذلك!؟

: ومتى أهمنى رضاها؟ «نكس ينكس حجلها» الأمر بيدى لوحدى

: وحتى لو وافقت أمها على ذلك!!

: لقد قلت لك إن أمها «لاتمون عليها» وماذا يدرى النساء في مثل هذه الأمور؟

: لا حول ولا قوة إلا بالله، يعنى أنك لن توافق على ذلك!؟

: و يكون في علمك أيضاً أننى لن أوافق أبداً فهى طينة من هذا البلد، ولايمكن أن تنقل منه.

وإفترق الإثنان عند هذه النقطة في طريق مسدود دون الوصول إلى حل وسط، وتمتع منصور ببقية إجازته بعد أن بقيت في النفوس بعض الرواسب إثر

هذا الموقف المتصلب من والد الفتاة وقبل أن يغادرهم بحث معها الموقف، حيث عرض عليها بعض الترتيبات التي يمكن إتخاذها لاقناع والدها بالموافقة على سفرها حيث قال:

: وماذا ترين ياعلياء في موقف أبيك؟

: موقف أبي هداه الله غير سليم مائة بالمئة، فهو يستمع إلى حديث الناس الفارغين، وبلاشك أن من يستمع لكلام المرجفين والمتشككين فلن يسلك الطريق الصحيح.

: ومن ذا الذي يصغى لكل ما يقوله هؤلاء؟

: إنني معك فيما تقول، ولكن الناس لن يتركوا أحداً دون أن يتعرضوا له، ولاسيما أنني أول واحدة تسافر مع زوجها من هذا البلد، وستقرع مسامع والدى الأسئلة السخيفة، والآراء المتطفلة مما يجعله في موقف حرج إن لم يكن مقتنعاً من الموضوع فإنه سيفقد المقاومة والرد على الأسئلة الرخيصة، لاسيما وأن الإشاعات التي تتناقلها الألسن عن المنطقة المراد السفر إليها تضفى عليها سحابة قاتمة من التخوف.

: أبداً ليس هناك أي شئ يسبب الخوف والإزعاج.

: أنا مقتنعة بما تقول، وواثقة من نفسى، ولكن من يفهم ضيقى الأفق من سائر الناس.

: ماهى الوسيلة التي يقتنع بها أبوك ليسمح لك بالسفر؟

: لا أدرى إن والدي صعب إقناعه، ولكنه إذا إقتنع في أمر ما فلن يقف في وجهه أحد.

: أترين المال والهدايا كفيلة باقناعة؟

: قد يكون ذلك، ولكنى غير متأكدة!؟

: سأحضر في العام القادم من الهبات والهدايا مايجعله راضيا عنى كل الرضى، وبالتالي فإنه لن يمانع بالموافقة على سفرك معى. يقول ذلك بنبرة الواثق من كلامه.

: لعل، وعسى، ولكنى أشك في ذلك، وبالمناسبة ألم يكن لديك سيارة تأتى عليها في العام القادم مثل أولئك الذين يأتون على «الفروت»؟ حتى إذا شاء الله ووافق والدي نعود عليها وتحمل أمتعتنا!!

١٨٧ آه، .. فرت حمر والرفارف سود سيدان شَبْرٍ مداهيله

١٨٨ وليارِكب به نعيم العود مايلبس الثوب والشيلة

وسأحضره معي في العام القادم هذا النوع من السيارات ممتازة، تصلح للأسفار الطويلة... يقول ذلك وقد عَنَّتْ له أكثر من فكرة. وفي صباح اليوم الثاني غادر منصور بلدته مودعاً أهله وزوجته وإبنه عائداً إلى مقر عمله وعند وصوله بقى هناك عاماً كاملاً يقاسى آلام الغربة وإنعكاسات الصدمة كلما تخيل إبنه بين آونة وأخرى، وكلما تصور إبتسامة ذلك الطفل الصغير أمام عينيه ولم يحس بوجوده بين يديه، لوى قلبه عاصف الشوق، فاكفهر الجو أمامه، وظل يعانى من هذا الوضع، وكأن العام عنده عشرة أعوام وفي أثناء السنة إشترى السيارة المطلوبة وأوقفها أمام بيته حتى إذا أخذ الإجازة السنوية إمتطي صدرها وقدم بها إلى أهله، وهى بالطبع شئ كبير، ينظر الناس لمن أحضر سيارة كأنه قاد الدنيا بجذا فيرها، وكثيراً ممن يحضرونها إما أن يبقوها عند أهلهم، ومنهم من يبيعها عند مغادرته أهله، لذلك قد تبدأ المساومة عليها منذ وصول صاحبها إلى أهله، ومن هذا المنطلق فقد دار هذا الحديث بين رجلين ممن يعنيهم أمر البيع والشراء هما سعد وعلى حيث قال سعد:

: أترى منصور، سيبيع سيارته عند عودته إلى مقر عمله؟

: قد يكون ذلك، ولكنى أشك فى أنه سيبيعها، فإما أن يبقيها لأبيه أو عمه ونسيبه.!

: إننى أراهن أنه سيبيعها، وذلك لأن والده وأهله ليس من بينهم من يستطيع قيادة السيارة، ولن يتركها لتحرقها حرارة الشمس و يكسوها الغبار.

: لا أعتقد أنه سيبيعها، لأنه إنسان قد أغناه الله، ويحب الترفيه عن نفسه.

: أتقول هذا جاداً؟ هل تصدق أن أهل الظهران أغنياء؟

لايغرنك لمعة ملابسهم الجديدة، أما ترى الكثير منهم يعيش بيننا من خمسة عشر يوماً إلى عشرين، وإحيانا يبلغ الشهر على أكثر تقدير وهو يتمايل بزهوه كالطاووس ثم بعد ذلك يبيع حتى «بِشْتَه» ليحصل على الأيجار اللازم لعودته.

: إن ما قلته صحيح بالنسبة لبعضهم، ولكن منصوراً ليس من هؤلاء إن لدى أهله ثروة قبل أن يذهب للظهران وجاءت سفرته هذه لتضفي على خيرهم خيراً.

: لا تأبه بهذه المظاهر، وعليك بتجهيز المبلغ اللازم لشراء سيارته.

: إنها جديدة وطراز حديث ولكن أكَّدْ لي أنه سيبيعها؟

: «أفا عليك» إن هذه الشُّعَيْرات ليست على رجل إن لم يبعها!! يقول ذلك وهو يمسح على وجهه بحيث إنتهت كفه المقبوضة في أطراف لحيته.

: كم تساوى في نظرك؟

: إنها تساوى من أربعة إلى ستة آلاف ريال على أكثر تقدير!!

: لا، لقد جانبت الصواب «فرد جديد» بستة آلاف؟

إذا باعها بعشرة آلاف فهي مناسبة..

: قلت لك «وَلّمْ ستة» وأنا أظمن لك السيارة!!

: لماذا لانفاتحه في الموضوع الآن؟

: لا، إنك لا تعرف فرص البيع والشراء،إنه الآن في عنفوان زهوه، وحتى لوطلبتها منه بعشرين ألفاً فلن يبيعها عليك، ولكن دعه حتى تُصَفِّرْ يديه، ويحتاج في نهاية إجازته، وعند ذلك سيبيعها بأرخص الأثمان، فاصبر حتى آخر لحظة.

: إذا علينا الإنتظار حتى ذلك الحين.

لقد جرى هذا الحوار دون أن يكون لدى منصور علم بمحتواه، إن مايدور في ذهنه هو شئ آخر، حيث يفكر بالطريقة التي يقنع بها عمه ليأذن لزوجته بمصاحبته، ولاسيا بعد أن قدم له من أفخر اللباس، وأجود العُبِيِّ، بالارضافة إلى النقود، ورأى منه أثناء تقديمه هذه الهدايا لين العريكة، وسماحة الجانب فطمع في الحصول على مايريد منه، ولكنه ما إن فاتحه في موضوع سفر زوجته معه، حتى إنقلب إلى عكس ماهو عليه، وزاد على ذلك بأن آلى على نفسه ألاَّ تغادر إبنته هذا البلد مادام على قيد الحياة، وهكذا جاء هذا الرد كصفعة قوية وجهها إلى جبين منصور، الذي لم يدخر وسعاً في سبيل الحصول على رضائه، عند ذلك إنقلب ذلك التقدير والإحترام لدى منصور نحو عمه إلى مايشبه النقمة، فعاد إلى فراشه منهكاً شارد التفكير عندما فاتحته زوجته قائلة.

: مالك يامنصور؟ أراك متعبا شارد الذهن؟
: لاعليك، إنني أشكو من صداع في رأسي يعاودني بين الحين والآخر.
: إن لدى مايخفف الصداع، واحضرت معها «قَفْلَةً» زجاجة صغيرة مملوءة بخليط من طيب المسك والعنبر والزباد وأخذت بطرف سبابتها شيئاً منه ووضعته في فتحتى أنفه وطلبت منه أن يستنشقه جيداً، ثم أحضرت شريحة من القماش وعصبت بها رأسه، وقالت: إنتظر قليلاً وسوف تحس بالراحة والتحسن.
: ليس هذا مايريحني و يشفى رأسي ياحبيبتي!! يقول ذلك بصوت مجرور.
: وما الذي يخفف آلامك يا «عزوتى»!؟
: إن مايشفى ما أشعر به، هو زوال المسبب الذي أحدثه!!
: وما الذي تسبب في إزعاجك؟
: إن عمى هو الذي أزعجنى بإصراره على بقائك هنا!!
: أتقصد بعمك والدى؟
: ومن غيره يابنة العم!؟
: هداه الله وسلمه، ياله من متصلب في رأيه إلى أبعد الحدود، الم يُلِنْ رأسه «بشت الوبر» والملابس والعطور والنقود التي أهديتها له؟
: على العكس، فقد زادته صرامة في تصلبه!؟
: ماهو السبب في ذلك؟
: ربما انفتحت شهيته، و يريد كل عام أن يأتيه مثلها!؟
: لا أظن ذلك، فهذه الأمور لا تقدم ولا تؤخر عنده.
: وما الذي يؤثر فيه إذا؟
: لا أدرى!! فلقد حاولت إقناعة أثناء غيابك، ولكنه كان دائماً يردنى خاسئة مدحورة.
: ألم يتدخل والدى في الموضوع؟
: لقد حاول معه ولكنه لم ينجح.
: ووالدتك، ووالدتى؟
: أنت تعرف أبي لاتؤثر فيه آراء الرجال، فما بالك بالنساء فكل محاولاتهن معه ذهبت في مهب الريح.

: مادام مصراً على هذا الرأى الخاطئ، فأود أن أسألك سؤالاً.
: تفضل.
: «مامعى منك»؟
: كلى معك!!
: أصحيح ما أسمع منك؟
: كل الصحة.
: إذا سأذهب بك دون موافقة والدك!!
: تصمت برهة من تأثير وقع المفاجأة ثم تقول، ولكن كيف!؟
: هذا على أنا!! سأرتب الموضوع وأجهز كل شئ .
: قد يعتبره الناس فراراً، و يلحقنا فيه معيبة نُعَيَّرُ بها إلى يوم القيامة!؟
: يعيروننا بها لو كنا عشيقين!؟ أما زوجين فلا!! فعقلاء الناس سيؤيدوننا، ورعاع الناس وسفهائهم لن نصغى لما يقولون.
: وأبي، ألا ترى أنه سيتخذ من العقوبات ماينغص علينا حياتنا؟
إننى خائفة أن يقتلنى، أو يضربنى، وأقل شئ أن يعرقل مسيرتنا! حينما يشتكى على الجهات الحكومية!؟
: كونى: مطمئنة من كل ماتطرقت إليه، وحتى الحكومة فإنها لن تؤيده على تعصبه، الذي سيحول بين زوج وزوجته لاعتبارات واهيه.
: إننى خائفة،! خائفة!! ماذا يستروجهى أمام أبى؟
: تقولين هذا لو هرب بك عشيق لاسمح الله،أما مع زوجك وابن عمك فلا يمانع عاقل بذلك!!
: إذا كنت ترى هذا فأنا معك على الخير والشر، توكل على الله!!
: إذا سأرتب الموضوع بأن نسكت غداً وكأن شيئاً لم يكن وأجهز السيارة بكل مايلزمها، وأوهم الجميع بأنني سأذهب إلى خالتى في القرية الفلانية، وأنت سأذهب بك إلى جدتك وكأنك ستبيتين عندها الليلة القادمة، فإذا غربت الشمس جئتك وأخذتك من عندها، وكأننا عائدين إلى البيت، ويطمئن أهلنا أنك عند جدتك وأنا عند خالتى، وحتى ضحى اليوم الثاني نكون قد قطعنا مسافة كبيرة لن يستطيع أحد أن يدركنا.

: خطة جيدة ولكن ألا ترى أن والدى سيشتكى على الجهات المسئولية وهذه بدورها ستبلغ المراكز التي نمرها فيعرقلون مسيرتنا؟
: مالك شغل ضعى رأسك في سفرة»!!
: وحوائجنا؟
: لانريد منها أى شئ، إن كل شئ متوفر هناك، وعليك أخذ بعض ملابسك وملابس إبنك التى ربما تحتاجينها في الطريق، واتركى الباقى بحذافيره.
: سمعاً وطاعة.

وناما ليلتها تلك، وفي الصباح بدأ بتنفيذ الخطة المرسومة وفي الوقت المحدد إمتطيا صدر السيارة ومد أنوارها حيث قطع بليلته مايزيد على ثلاثمائة كيل، ولم يفقده أهله حتى كان قد قطع أكثر من نصف المسافة إلى أن وصل إلى بيته في مقر عمله بعد ثلاثة أيام من السير المتواصل عبر الطرق الترابية الوعرة، وعندما علم والد الفتاة، صال وجال، وأرغى وازبد، وهدد وتوعد، وذهب للجهات المسئولة يطلب إعادة إبنته، لكن بعض العقلاء أشاروا عليه ألا يلزم الحكومة باتخاذ مثل هذا الإجراء، حتى لايظنها بعض الذين تخفاهم بواطن الأمور أن فرارها مع غيرزوجها، وبذلك تكون فضيحة أكبر، أما وأنها مع زوجها، وهو غير بعيد عنك، إنه ابن أخيك، وقد حاول أن تسمح له بالتى هى أحسن، ولكنك أبيت وحرمت، فما كان أمامه غير هذه الطريقة، عند ذلك عاد إلى الجهات المسئولة وسحب شكواه التى قدمها، وبقى كاظماً غيظه لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أنه حرم على نفسه «عشى إبنته وأضحيتها» وبقى على هذه الحال حتى مضت سنتين جرت مراسلات بين علياء وأبيها، وانجبت خلال هذه الفترة طفلين ثم زاروا أهلهم فقدموا أطفالهم الثلاثة كباقة ورد أهديت إلى الجد الغاضب، فرضى عن إبنته وأدرك أن إصراره على عدم سفرها كان رأياً خاطئاً، وبذلك حلت المشكلة وبدأت تتردد مع زوجها بين الحين والآخر وصار أبناؤها من خيرة الشباب لأهلهم جميعاً وجدهم بالذات.

* * * * *

٢٦ - ليا ماغدا تال العرب ديهباني *

قد يؤخذ الإنسان أحيانا على حين غرة، فلا يدرى بين عشية وضحاها إلا وهو في موقف حرج لايحسد عليه في مختلف مناحى الحياة ومنها مفاجأته برحيل من يحب عن دياره بحيث تشط به المسافة و يبعد مزاره، فيعاني مايعاني، في نفس الوقت الذي يمنعه حياؤه من البوح بأسراره لأحد من الناس، و يبقى فترة من الوقت وهو يصارع الألم، لايعرف من أين المخرج، ولو كانت الآلام التي يعاني منها ينفع فيها الدواء لبحث عن دوائها في ثنايا أوراق الأعشاب وتحت لحاء أغصان الشجر، ووسط صرر الأدو ية الموجودة لدى المتطببين، ولكن بلسمها الشافي يتجسد فيمن رحل. ونأت به المسافات وحالت دونه الفيافى والقفار، فلا أمل لعودته مرة أخرى، وذلك لزوال السبب الذي قدم من أجله، فقد عم الخصب ديارهم بعد أن سحلها الجدب لسنين متتابعة، جاءوا على أثرها إلى المكان الجديد، وعندما رحلوا واختفت أظعانهم وماكان منه سوى أن صعد تلك القمة العالية ليمتع نظره بجهام الأظعان حتى إختفت عن بصره تماماً، وهنا جسَّدَ مشاعره بما يلوذ به العشاق في أكثر الأحيان، وهو الشعر ينفس بقصيدته عن مكنون فؤاده، وليعزى نفسه بها فعسى أن تتناقلها السنة الركبان إلى أسماع من يحب، فتكون له خير وسيلة للافصاح عن مشاعره التى غلفها الحياء، وكبتتها الشيمة العربية التي لاتحبذ مفاتحة الضيف من قبل مضيفة في أى أمر من الأمور حتى ولو كان هذا الأمر فيه مضرة وأذية على المضيف، فإنه يجب عليه أن يصبر عليه و يتحمله حتى يزول المسبب أو يرحل الضيف بدون أن يشعره بأية مضايقة ويحمل له الذكر العطر والثناء الجميل، أما إذا كان الموضوع يتعلق برغبة المضيف في أمر مما لدى ضيفه فإنه كما أسلفنا يتذرع بالصبر و يتسلى بالعزاء حتى يغادر ضيفه حقه من الأرض، وبعد ذلك قد يقصده في مكان آخر لطلب قضاء حاجته أو نيل مطلبه، وكثير من الحاجات تمنعه شيمته من طلبها مادام يجد عنها غنى، أما الأمور التي لايستغنى عنها المرء فهى التي تتعلق بالعاطفة، فقد يلجم نفسه عنها بحيث

* قصة طلال بن فريج الشمرى وقد حدثت بحدود ١٣٣٨هـ.

يصرف رغباته وبعدها عن أن يسلك بها طريقا مجانبا للصواب يترتب ليسلك الجادة السليمة الموصلة إلى الهدف المنشود ولو بعد حين، في مثل هذا الجو عاش «طلال» حينا كان معظم سكان الجزيرة العربية من القبائل الرحل قبل عهد الإستقرار الزاهر الذي ننعم به الآن في ظل حكومتنا الرشيدة، فكانت هذه القبائل تنتقل من مكان إلى آخر طلبا للكلأ والمرعى لمواشيها وقد أجدبت أرض إحدى القبائل في جنوب نجد فهلكت على أثره الثاغية والراغية وبقى من لامواشي لديهم حول مواطن المياه وانتقل بعض من استطاعوا تدريج مواشيهم وإبلهم بما عليها من خفيف المتاع متجهين إلى الشمال حيث وصلوا إلى مكان تتوفر به بعض المراعى البسيطة وأقاموا فيه بعض الوقت حتى نهاية فصل الخريف حيث لاح بارق الوسمي في الشمال عنه، وبعد أن أرسلوا من يرتادهم أماكن مواقع المطر، ليرحلوا إليه على بينة من أمرهم، وغاب الرائد عنهم ثلاثة أيام بلياليها، ثم عاد إليهم وقد ملأ خرج مطيته من غثاء السيل وهى العلامة المميزة لغزارة المطر والبرهان المادى لصدق مايقول فأخذ الحضور في مجلس الشيخ سعد يتشممون الغثاء ويستنشقون رائحته وكأنهم يستنشقون أنوج العطور الباريسية، وفي الصباح الباكر عقدوا العزم على تقويض بيوت الشعر ورفعها على ظهور الاربل، متوجهين إلى المكان المقصود وأمامهم دليلهم الذي إرتاد لهم الأرض ومع وقع خطوات الإبل البطيئة المملة جرى هذا الحديث بين الشيخ سعد ورائد المكان.

: كيف رأيت الأرض ياشافي؟

: لقد إرتوت الأرض رياً جيداً حتى عافت الماء، وسال كل واد وشعيب كبيراً كان أم صغيراً، وغطى سطح الأرض مجموعة من الخبارى كأنها البحار، وإذا أنزل الله البركة فلن يمضى أسبوع واحد إلا وقد أبرض الشجر واكتست الأرض بثوبها الأخضر.

: أتدرى ماعرض مسير السحابة؟

: لقد أرقلت بى مطيتى ضحى كاملاً ولم أقطع مسير السحابة، وقد التقيت بمسافر جاء من مسافة بعيدة وقد أدركه المطر على بعد ثلاثة أيام من أقصى نقطه توصلت إليها، ويذكر أن مستوى المطر يكاد أن يكون متشابهاً طوال هذه المسافة التي قطعها.

: أترى كلامه صحيحاً؟ يقول ذلك بنبرة يغمرها الفرح.
: أحسب أن الرجل رزين ومن الأوصاف التى أدلى بها يبدوا أنه صادق.
: وماذا فهمت من وصفه ومعلوماته؟
: إنه وصف واقعي حين وصف آثار أذيال السحابة بأنها لم تترك دَابّة أو حشرة في جحرها، وهذا دليل على أن السيل قد غطى ما انبسط من الأرض.
: أكان مطر السحاب بَرَداً؟
: لا!! بدليل وصفه بأنها لم تحت ورق الشجر، وهذا يدل على أنها سحابة ماء بدون برد، ولكنها بكميات غزيرة.
: الحمد لله، هذا دليل إرتواء الأرض، وامكانية النبت فيها بسرعة.
: النبات مع بركة الله مضمون، فلقد نزلت وحفرت في الأرض لأرى مدى عمق المطر فلم أجد التراب اليابس إلا على طول يدى كاملة.
: لم تقل لى عن طول مسرى السحابة؟
: إن مسيرها على طول المدى من منشئها وحتى خلَّبَتْ فيما لا نهاية له.
: الم تر أحداً من سكان هذا الجزء؟
: أنت تعلم أن هذه ديار قبيلة... وأغلب سكانها منهم ماعدا المناطق المتاخمة لهم من الناحية الجنوبة ففيها أشتات من قبيلة... والتي سوف نمر بأراضيهم غداً.
: دعنا ممن سنمر بارضهم، إننا عابرى سبيل ولن نقيم عندهم، المهم القبيلة التى سنقيم في أرضيها من غير نقص في الآخرين.
: وحتى أولئك فإنهم رجال طيبون، كرماء، ذوو نخوة وحمية وشجاعة ومحافظة على الجار وحفظ الذمار، شرواك يا أبا فلان؟
: شرواك الطيب يابنى!!
: وفوق هذا فإنهم يكنون لمن قدم أرضهم كل تقدير واحترام مادام متمسكا بحدوده وأخلاقياته.
: ومن ذا سيعتدى على الآخرين؟ أوتُسَوِّلُ له نفسه بمثل هذا العمل؟
: نحن تحت تصرفك ورهن إشارتك.
: أبشروا بمن يحافظ على مكانتهم إن شاء الله.

وعندما وصلت القافلة إلى حد مساقط المطر، أسرعوا إلى الغدران الباقية في وهدات الأرض، وبطون الرياض، ومحاني الأودية، فكرعت الأغنام والمواشي في كل خبراء وثغب، وإن كانت ليست بحاجة إلى الماء بسبب لطافة الجو، ولكنها أحبت ماء المطر، ثم أسرعت ترعى الجميم من جذوع الحشائش التي أبرضت غب المطر، وإن كان هذا الجميم قصيراً غير أن الأغنام تحكه بأسنانها وتلحسه بألسنتها مع النبت الجديد الذي قد خرج من الأرض لتوه، أما الإبل فقد بدأت ترعى من أشجار العرفج والشيح الذي غسلته شآبيب المطر وأعلقت أغصانه وأبرضت بعد أن إرتوت شجيراته ثم وصلوا مسيرهم حتى وقع إختيارهم على وسط فيضة قد تغطت أرضها بشجيرات العرفج والشيح والقيصوم، وعلى حوافها شجيرات الثمام والرمث واختاروا رابية قد زَمَتْ في إحدى جنباتها ليكون بسفحها مضرب البيوت إتقاء لأخطار الأمطار والسيول، وإرتفعت البيوت على أعمدتها، وسرحت المواشي من عندها، وجلس الرجال في بيت الشيخ سعد يتناولون القهوة، ومع نغمات إنسيابها وصبها فى فناجين الصينى دار هذا الحديث بين سعد وأحد جماعته خزام الذى يُعَبِّرُ عن رأى الأغلبية منهم على مسمع من الحاضرين.

: الحمدلله الذى أوصلنا إلى هذا المكان المشمول بالغيث والذى نرجو ممن أنزله على هذه الأرض أن يبارك فيه.

: ونرجوالله أن يعم به الأوطان، وعسى الله أن يغيث ديارنا وأوطاننا.

: إن الله جواد كريم، وليس عليه عسير فى أمر من الأمور، ولكننا أبعدنا عنها، وحتى لونزل عليها المطرفلن نعود إليها.

: إذا نزل عليها المطر فسوف يحيا من يقيم فيها.

: صحيح ماتقول، فلعل الله أن يمن بفضله علينا وعلى كافة أقطار العرب والمسلمين، والآن ماذا ترون أيها الرفاق؟

ماهى أول خطوة يجب أن نقوم بها إزاء القوم الذين نزلنا بجزء من أرضهم، وهم غير بعيدين عنا؟

: الرأى ماترى يا أبافلان؟

: إن رأيي لدي ولكنى أحببت أن آخذ مرئياتكم لتكون سنداً لما أراه!!

: نود أن نطلع على رأيك حتى نستنير به وثق أننا لن نخرج عنه.
: رأيي كآرائكم، فأعطونى مالديكم.
: فيك البركة، ورأيك في أغلب الأحيان صائبا.
: إننى أرى أن يركب منا مجموعة من الرجال ونقصد بيت شيخ العشيرة ونسلم عليه ونعرفه بأنفسنا ونعلمه بالغرض الذى جئنا من أجله ومجاورتنا له، وندعوهم لتناول القهوة عندنا حتى يطمئن إلينا، و يكون هناك بداية روابط بيننا و بينهم بأعتبارنا ضيوفا عليهم.
: يعلم الله إن هذا هو الرأى الصائب، و«أنت أبوها وسمها»!!
: ولكن أتراهم يوافقون على المجيئ إلينا لودعوناهم لشرب القهوة؟
: قد يوافقون على ذلك وقد يمانعون؟
: إننى لاأراهم يوافقون قبل أن نأتى إليهم بغير هذه الصورة و يقدموا لنا ما يرونه واجبا عليهم، من عادات الكرم والضيافة!!
: أنسيت أننا بأرض الكرم والكرماء؟ بموطن الطائى!؟
: لم أنس ذلك، ولكننى من باب التجاوز.
: ثم إنهم وافقوا ولبَّوا دعوتنا، فياترى ماذا سنقدم لهم غير القهوة؟ ولاسيا أن مواشينا هز يلة كما تعرف!!
: بالطبع إننا لن نقدم لهم القهوة فقط، وإنما يجب أن نقدم لهم ماهم حَريُّون به من صنوف التكريم، هاه... إننا فى جزء يتصف أهله بهذه السجية، ويجب أن يحرص كل منكم على هذه الناحية حتى لاينتقدنا أحد، فإن النقاد كثيرون فى هذه البقعة.
: سوف نأخذ حذرنا إن شاء الله.
: إذاً على بركة الله، ومن الذى سيصاحبنى منكم غداً؟
: إختر من تريد منا ونحن رهن إشارتك، وطوع بنانك!.
: بارك الله فيكم أيها الإخوان.

وفى صباح اليوم التالى إمتطى سعد وعدد من رفاقه ظهور ومطيهم وتوجهوا إلى مضارب القوم حيث قصدوا منزل شيخ القبيلة فلتقاهم الشيخ فرحان بالبشر

والترحاب، وهش فى وجوههم وأبش محياه للقائهم، وبادرهم بالقهوة ومعها أطباق التمر يتوجها كتل من الزبدى الطرى فى أوان صينية، وبجانبها أوان مملوءة باللبن، حيث طعم القوم وشربوا وسط عبارات الترحيب المتدفقة جوداً وسخاء، وبعد ذلك أبدى سعد نيابة عن رفاقه لجاره فرحان التعريف بنفسه وقومه والغرض الذى جاءوا من أجله،ثم وجه الدعوة إلى فرحان ورفاقه بزيارتهم لشرب القهوة عندهم فى اليوم التالى، فرحب فرحان بالدعوة وقبلها على أن تكون بعد أن يمالحوهم أولاً باعتبارهم أضيافاً عليهم، ويجب أن يقوم فرحان وعشيرته بالواجب نحوهم ثم بعد ذلك يجرى تبادل الزيارات بين الحيين وتحدد الموعد فى اليوم الثانى، وهنا عاد سعد ورفاقه إلى مضاربهم، بانتظار الموعد المحدد وفى طريق العودة تساءل أحد رفاق سعد وهو محمد.

: إننى أشعر بالخجل إزاء هؤلاء الأصحاب، لقد أكرمونا غاية الإكرام، وأتينا لدعوتهم لتناول القهوة، فأكدوا علينا بالدعوة للعشاء!؟

: لاغرابة فى ذلك ياابن أخى، إننا فى أرض الجود والكرم!!

: ليست غريبة علينا سجية الكرم وسير الكرماء، ولكن يبدوا أن هذا فوق ما أتصور!!

: ألا تعلم يا أبن أخى أنك بأرض معشى الذئب؟

: معشى الذئب!؟ وهل هناك من يعشى عدوه؟

: نعم لقد عشاه على أساس أنه ضيف عليهم وليس عدواً لهم!!

: قل لي بربك كيف عشى الذئب؟

: لقد عشاه من قبله الفرزدق عندما ماجمعها السفر فجلس ليتعشى من صيدته فشم الذئب رائحة اللحم فدنا منه وعند ذلك لم ير الشاعر بدأ من أن يقاسم الذئب لحم صيدته قد يكون إتقاءاً لشره فصار يقطع قطعة فيشتوها ويأكلها ويقطع أخرى ويرمى بها لضيفه الذئب الذى أقعى بقرب النار بانتظار مايعطيه الرجل وبعدها قال قصيدته المشهوره التى يقول فيها.

وأسحم عسال وماكان صاحباً ... دعوت بنارى موقداً فأتانى

فلما أتى قلت أدن دونك إننى ... وإياك فى زادى لمشتركان

فبت أقد اللحم بيني وبينه   على ضوء نارمرة ودخان

أما صاحبنا، فقد كانوا جلوساً ذات ليلة في مجلس سمرهم وإذا بذئب يعوي غير بعيد عنهم، عند ذلك تساءل فرحان ترى لماذا يعوي هذا الذئب، فرد عليه أحد الحضور، إنه يعوي من الطوى وشدة الجوع، فقال فرحان يأبى الله أن يبيت ضيفنا طاوياً هذه الليله وقد حل في حقنا من الأرض وعند ذلك أمر إبنه أن ياخذ شاة من الغنم ويربطها بشجرة بناحية الذئب ليفترسها ويتعشاها. وهكذا فعل وتضلع سرحان من شواياها.

: عجيب أمر هذا الجواد، وهناك فرق بينه وبين سابقه فالأول كان مضطراً والثاني كان إختياريا..

: لاعجب في ذلك، فهذا «أخو صيته» وفيه يقول الشاعر.

١٨٩ ياراكب حمرا تكف المغيره   حمرا يشابه له خضاب البنات

١٩٠ حمرا ليراكبه تقل لون ذيره   حمرا يجفلها شليل العباة

١٩١ الذيب جان وعلمن بالسريره   يقول وين اللي ربط لي بشاة

١٩٢ قلنا عمامك فيضوا اللجزيره   دلأهاب الدارعيًا يبات

: إذا كان يقرى الذئب فلا غرابة إذا فيا نرى، أترى الشاعر يعنيه عندما قال:

١٩٣ تلقى أشمط ماهو بخيل على الزاد   عند أبو نايف كل يوم تقل عيد

: لا ياأخي إنه يعني إبن عمه صالح.

: يالها من شجرة طيبة.

: بلاشك ولاريب!!

وعاد سعد وصحبه إلى منازلهم وفي الموعد المحدد أقبل جميع رجال الفريق قاصدين بيت الشيخ فرحان، وبعد أن شربوا طبخة القهوة الأولى قبيل المغرب وبعد

الصلاة قدمت مناسف الطعام تتوجها الخرفان، وضعت الجفان مملوءة باللبن، فطعم القوم من الفريقين وسط عبارات الترحيب، وقبل أن يفرغ الناس من العشاء وقف سعد رافعاً صوته داعيا الجميع لتناول العشاء عنده في الليلة القادمة، فاعتذر له فرحان طالباً منه إرجاء ذلك إلى وقت لاحق حتى يستقر بهم المقام ويستريحوا من عناء السفر، وجهد المسافة، لكن سعداً أصر على إتمام ذلك في حينه، فوافق فرحان ليُطَيِّبَ خاطره، وفي الموعد المضروب قدم فرحان ورفاقه إلى مضيفهم حيث وجدوه قد قدم لهم من صنوف الكرم وفنونه ماجعلهم ينظرون إليه بإكبار وإعزاز، ويعدون حلوله يقربهم مكسبا ثميناً لهم إذا عدت الرجال المكاسب، وبعد تناول الطعام تحدث الرجال إلى بعضهم بعد أن ذاق كل منهم ملح صاحبه وزاده، وهذه الناحية تعتبر بمثابة عقد إتفاق بينهم قوامه الشيمة والحفاظ على الجار واحترام مشاعره، والإبتعاد عن كل مايؤذيه من قريب أو بعيد، وإستمرت الحياة في إطار من الإخاء والود المتبادل بينها، وأَحَبَّ كل منها صاحبه، ومضت السنة الأولى ومعها تماسكت أواصر المحبة وقويت وشائج التآلف حتى أن سعداً وجماعته كادوا أن ينسوا أوطانهم، لما وجدوه من مضيفيهم من لين الجانب ودماثة الخلق، وسمو الأخلاق، وذات مساء ضوى إلى مضربهم ركب قدموا من ديارهم ونقلوا لهم البشرى بنزول الغيث على ديارهم حيث وكفت ذيول السحاب ومَرَّرت هماليلها على تلك الروابي والوهاد التي يعرفونها وامتلأت تلك الفياض وذرفت الأودية فوشت نحور منحنياتها بتجاعيد الغثاء، ولبست الأرض ثوبها السندسي، وعندما سمع قوم سعد هذه الأنباء السارة إشرأبت أعناقهم، وتحفزوا للإستماع إلى المزيد من هذه الأخبار الشيقة، وأنهالت الأسئلة من الحاضرين على من جاء بالخبر عن غزارة الأمطار، وحدودها، والأماكن التي شملها الحياء، فكانت الإجابة بما يسر السامعين وترددت الكلمات المندفعة بتأثير الفرحة من الحناجر يحث بعضهم بعضاً بسرعة العودة إلى الأوطان إعتباراً من صباح الغد، كل هذا يجري والشيخ سعد لايتكلم، وعندما سألوه عن رأيه في ذلك أجاب بجملة مقتضبة حيث قال «في الصباح نرى مالانكره» وكان لجملته صداها الواسع حيث فهموا منه أنه ليس متسرعاً ومندفعا مثل بقية صحبه، وعند ذلك ضربت الأحاديث طرائق شتى، ونام القوم ليلتهم وعند الصباح استطلع القوم رأى عقيدهم فوجدوا منه

عدم الرغبة في الذهاب بهذه السرعة، ذلك لأنه يعيش الآن مع رفاقه في أرض خصبة، ومواشيهم في حالة ممتازة، وبجيرة أولئك الأجواد الذين لم يجدوا منهم إلا الخير، ثم إن المسافة التي سيقطعونها طويلة قد تذهب بجودة حالة مواشيهم، ورأى أنه سيقيم لأنه على عز وكرامة، مع سماحه لمن يريد من رفاقه العودة إلى الديار إن هم أرادوا ذلك، وعندما رأوا منه هذا الإتجاه إقتنعوا بأنهم لن يغادروا أرضا يقيم فيها، حتى يذهبوا سوياً، وبقي رفاقه معه في هذا المكان، وكذا الحال لدى أصحاب الأرض ومن يعتبرون أنفسهم مضيفين لهم عاشوا كذلك مع ضيوفهم وأصبحوا كأنهم من قبيلة واحدة، بل من فخذ واحد يجلسون مع بعضهم البعض في إطار من الإخاء والمحبة والإنسجام والإحترام المتبادل تربط بينهم روح الاسلام ومبادئه السامية يلتزم الضيوف جانب الحذر من الإساءة إلى رفاقهم، كما يدافع المضيفون عن ضيوفهم في كل مامن شأنه أن يلحق الضرر والأذى إلى ضيوفهم، وكل منهم قد التزم هذا الجانب وبذلك إرتاحت أفكارهم من أي شاغل، وإطمأنت نفوسهم من أي منغص ماعدا قلب واحد من بين هؤلاء القوم، فقد شغله عن طمأنينتهم، شاغل حيث برحت به الأشواق، وشطنته اللواعج، ذلك القلب هو قلب طلال ابن عم فرحان، فقد شاهد ابنة سعد وتعلق فؤاده بها وأخذت عليه معظم تفكيره، ولم يستطع أن يتقدم لوالدها بطلب يدها لعدة إعتبارات منها كون أهلها ضيوفا عليهم، ومن غير المستساغ أن يخطب الرجل من ضيوفه أثناء تواجدهم عنده، كما أن لحيائه الشديد أثر كبير في تأخير طلب يدها من أبيها ومكث يتحين الفرص لعلهم ينزحون إلى مكان بعيد نوعا ما حتى يقصدهم ويخطبها، وسارت الأمور على هذا النسق، وهو يعاني من هذه التباريح الغير معلنة، إنها ملتهبة بينه وبين نفسه، وحتى صاحبة الشأن لم تكن تعرف شيئاً عما يعتلج في نفسه، اللهم إلاّ إنها لاحظت إحترامه لها من بين فتيات قومها، ولذلك بادلته هذا الإحترام بشئ من الرقة واللطافة، وتتابعت الأيام تترى وطلال ينتظر نزوح رفاقه إلى مكان قريب ليشرع في الخطوة التي يؤقت لها غير أن الرياح قد جاءت بما لا تشتهي السفن، ففي أصيل ذلك اليوم الخريفي الدافئ قدم أهل أربع ركائب يسألونه عن بيت الشيخ سعد حتى وصلوا إليه فأناخوا مطيهم، وبعد القيام باللازم لضيافتهم إتضح أنهم وفد من قومه قد أرسلهم أخوه من ديارهم ليخبروا سعداً ببعض الأمور و يطلبون

منه سرعة الحضور لأمر هام يختص بشئون العشيرة، فلم يجد سعد مناصا من تلبية هذه الدعوة، و بعد أن دعا رفاقه لمشاركة ضيوفه بعشائهم طلب من رفاقه السماح للعودة إلى دياره مع مندوبي أخيه كما هي عليه العادة والعرف، وفوجئ فرحان ورفاقه بوقع الخبر وشعر الجميع بشدة وقع الفرقة على تلك الأفئدة المؤتلفه وعندها أوضح لهم سعد أن الأمر يستدعى حضوره ولامفر من ذلك، عندها قدروا له الوضع الذى هو فيه، وتبودلت القبلات على الرءوس والأنوف وتناثرت الدموع على الأوجان من رجال لم تُرَ دموعهم قبل ذلك، ولكن الإلفة والمحبة والإلتحام ثم الفراق الذى نقب فى المآقى لتخرج منها الدموع بغزارة وأخبرهم سعد أنه سيظعن عنهم مع رفاقه فى صبيحة اليوم الثانى بعد أن يتناول ضيوفه طعام الإفطار عند الشيخ فرحان، الذى آلى على نفسه ألا يعود ضيوف سعد قبل أن يمالحوه، وكان لهذا النبأ أثره الكبير على قلب طلال فلم ينم ليلته تلك و بات يولول و يتجلد، يرعى النجوم و يعدد الكواكب حتى إذا غشاها رداء الصبح الفضى المنبعث من الشرق قام من مبيته لم يذق طعم النوم، وصلى الفجر مع القوم ودنف إلى مقهى الشيخ فرحان ليتناول القهوة معهم، و بُعَيْدَ طلوع الشمس بقليل قدم طعام الإفطار فوق صوانى كبيرة متوجة «بمفاطيح» الخرفان وطعم الركب مع مضيفهم سعد، وفى هذه الأثناء كانت النساء قد قوضن بناء البيوت وطوينها إستعداد لحملها على ظهور الإبل ونصبت الهوادج فوق الإبل، وماهى إلاَّ لحظات حتى نهضت الإبل بالأحمال وناضت الجمال بالهوادج تتهادى بالنساء وتمشي بهن الهوينى مخافة إنكسار تلك القوارير وما إن سار الظعن حتى تعلقت أعين القوم بهذا الجهام يود عونه بأبصارهم بعد أن ودعوه بأفئدتهم، ودعواتهم الصالحة وعادوا إلى أعمالهم ماعدا طلال، فقد جذبة مرأى الظعن الذى كان بوده لولم يغب عنه أبداً، ولما كاد أن يختفى فى سمت الأفق و بين الروابى والوهاد صعد طلال إلى رأس تلك الهضبة الشامخة ليرقب ذلك المنظر الغالي إلى نفسه حيث تعلق بصره به ومن على قمة تلك الصخرة الوردية التى إتكأ عليها وتسمرت عيناه على تلك الأزوال البعيدة التى لايميزها سوى أنها مجموعة من الأجسام تدب على الأرض الهوينى وعندما غابت عن بصره، بدأ يعرك عينيه علها تسعفه فى الإستمتاع بالنظر إليهم ولو لعدة لحظات، ولم يُجْدِ العرك بالعنين حيث إختفت الأزوال تماماً، وعند ذلك هاضت قريحته بهذه

القصيدة التي عبر فيها عن مشاعره في هذا الموقف الذي يحيط به مسنداً على رفيقه عَيَّاد به فقال:ـ

١٩٤ ياراكب من فوق عجل الزفيفي — مامون قطاع الفيافي عماني

١٩٥ يشدا ظليم شاف زول ذريفي — أول مشك وتالي الزول بان

١٩٦ قفي يُوقّي بالجناح الخفيفي — الريش هزه بالفنادى السمان

أوصل عليه مرادنا ياحليفي — تعد لومانلتهم بالاراني

لاجيت زبن للمهاديف ريفي — عيّاد شوق مثلجات الثماني

عيَّاد وانك للمشاكي عريفي — وش حيلتك يازبن من جاك عاني

١٩٨ نطيت أنا رأس الطويل المنيفي — راس المهبا ياعشيري كواني

نطبت أنارجم رقية كليفي — بغيت أزلف ماربي وقاني

١٩٩ وأخيل مظهور الحبيب يهيفي — بايسر قطن صوب الموشم وبان

٢٠٠ خصيتهم بالشوف شوف الذريفي — لياما غدا تال العرب ذهباني

٢٠١ وحولت من راس الطويلة معيفي — ولاني لمرصوت الثمان ارجواني

٢٠٢ يارب يافتاح باب الضعيفي — تجلي مودة صاحب اللي كواني

رجلي لياشا شافت خياله تهيفي — لاما يفوتن ماتعدا مكاني

٢٠٣ لاهو علي سلطان ولاشريفي — قطع عني كل الرزق والعواني

خلي على كل العذارى شريفي — لهن على باب الحيا مكلماني

٢٠٤ زبن على مظنون عينى عنيفى — وصايفه ماهى على ميدمان

٢٠٥ وياهنف بمبيسم له نظيفى — يبلج عن اللى عدهن قحوياني

٢٠٦ ماهو قسى مظنون عينى صخيفي — ولاهى من البجر الغثاث البدانى

٢٠٧ ياغصن رمان بقلبى يهيفى — متوسط بن اللزا والسوانى

٢٠٨ غصن عليه من الجوارى دريفى — نبوت لاعقده ولابه مثانى

ثم نزل من رأس هذه الهضبة الحمراء المنيفة بعد أن أفرغ بعض مافى جعبته كغيره من الشعراء الذين يهوون الرقى إلى رؤوس ذرى الجبال ليتخذوا منها مرقبا يشرفون منه على من يحبون، أو يبوحون من على قممها ببعض مايكنون، وبدأ يردد هذه الأبيات فى طريق عودته، وهو لايكاد يرى من حوله طافحاً مع هذه الأبيات محلقا فى خيالاتها، حتى ناداه أحد الرعاة الذى سمع منه معظم أبيات قصيدته واستوعبها تماماً، عند ذلك توقف عن ترديد أبيات القصيدة، وعاد إلى أهله، وفى المساء عندما إجتمع السمار بمن فيهم الرعاة وأفرغ كل منهم مافى كنانته من الأخبار أو رد مناور القصيدة التى سمعها من طلال فى ضحى ذلك اليوم، وبعد قليل حضر طلال إلى حلقة السمر حيث طلب منه رفاقه أن يسمعهم كامل القصيدة، فتلكأ فى أول الأمر بتأثير الحياء وهو لايعلم أن صويحبه راعي الغنم قد التقط معظم أبياتها منه وتداولها من فى المجلس، وغاب عن ذهنه أنه ربما يكون من بين هؤلاء السمار من ينقل هذه الرسالة المليئة بالأحاسيس إلى من يعنيهم الأمر، فيكون لها وقع خاص فى نفوسهم فتصبح العواقب حميدة قد تنيله مايريد، ومع غياب هذه الرؤى عن مخيلته فقد جاء بالقصيدة كاملة وما إن أتى آخر بيت فيها حتى حفظها أكثر من واحد من الحاضرين وصارت وهى حديث سمرهم تلك الليلة يرددونها و يتذوقون معانيها ولم يتفرقوا من مكانهم إلا وقد حفظها أكثرهم، وفى الصباح دوى صداها فى نساء الحي، وعلى الأخص الفتيات اللاتى كل واحدة منهن تود لو أنها قيلت فيها، ومضت الشهور على هذه القصة وضاعت مجموعة من الإبل لأحد رفاق طلال نذهب فى طلبها، يبحث عنها و يسأل عنها كل مسافر و يستوسمها لدى كل فريق من العرب

حتى شطحت به المسافة واجتاز البرارى والقفاز من سائل إلى آخر حتى وجد عنها خبراً من حجاج ذكروها له وعليها الوسم الذى وصفه فلقد رأوها قبل مدة تزيد عن الشهر عندما عادوا من مكة مؤدين فريضة الحج وهى متجهة إلى الجنوب الغربى من نجد، وعندما حاولوا الإقتراب منها نَدَّتْ عنهم فلم يستطيعوا جلبها معهم وبالكاد عرفوا وسومها، عند ذلك إمتطى كور مطيته ويمم الجهة التى ذكرت فيها إبله وواصل الليل بالنهار حتى إقترب من المكان الذى ذكرت فيها ووجدها بعد لأى وعناء شديد فى أقصى جنوب نجد، وعاد قافلاً بهاإلى أهله وفى طريقه مر ببلاد رفيقهم سعد عند ذلك عَرَّج عليه ليستريح عنده بعض الوقت قبل أن يواصل رحلته إلى أهله، وما إن وصل إلى بيت سعد وشاهدت العين العين حتى هش له سعد وبش وتعانق الإثنان عناقا حاراً، ولم يكد سعد يصدق نفسه أن أحداً من رفاقه بالأمس سيمسى ضيفا عليه الليلة فى أرضه ولكن المقادير تجرى بيد من يسيرها، وتفانى سعد فى إكرام ضيفه مما يراه كفؤاً له، ومكث الضيف عندهم بضعة أيام لتزول عنه وعثاء السفر وترعى إبله مع إبلهم، وفى أثناء إحدى حلقات السمر فى بيت الشيخ سعد جرى تلميح بقصيدة طلال دون التصريح بها، وعندما نمى الخبر الى مسامع الشيخ سعد طلب من ضيفه خلف أن يسمعه القصيدة، فتلاها عليه وكان انطباعه عنها الإستحسان، خلاف ماكان يتوقعه الضيف من أن يسمع منه كلاماً غير ذلك، وفوق هذا لمس منه أنه لايمانع من تزويج إبنته إلى طلال صاحب القصيدة لوجاء خاطبا، وإنتشر خبر القصيدة فى الحي وطربت لها بعض النساء وخاصة من يعنيها الأمر «فالغوانى يغرهن الثناء» وبعد استراحة صاحب الإبل بعض الوقت إستأذن منهم عائداً بإبله إلى أهله، ليزف البشرى لطلال وعندما وصل إلى مضارب أهله وقص عليهم أخبار رحلته ومالاقاه من التعب وكابده من العناء حتى وجد الإبل بالمكان الفلانى يردن على المنهل القريب منه، وفى طريق عودته مر بأرض صاحبهم سعد حيث حل ضيفا عليه فأكرمه غاية الإكرام، وحَمَّلَهُ تحياته إلى الشيخ فرحان وكافة جماعته فاستمتع القوم فى ثنايا هذه الأحاديث كما هى عليه العادة آنذاك، حيث لايوجد من وسائل التسلية سوى أحاديث الركبان والأنباء والأقاصيص التى يجمعها الناس من هنا وهناك، وبعد ذلك استدعى خلف بابن عمه طلال وأخبره بسفارته الغير مقصودة وماجرى فيها

حيث أسمع سعد قصيدته ولمس منه علم مما نعته فى تزويجه إبنته لو طلب يدها منه، وعند ذلك تجددت لدى طلال الأشواق وانبعثت أشجانه وكأن لسان حاله يقول :

٢٠٩ جدد أجروح مرمسات مدانيف   من قبلها يالقلب مابك خلافي

فعاوده الحنين إلى من يحب حيث أصابه ما أصاب الصِّمَةَ بن عبدالله القشيرى عندما تذكر ريّاه وقال فيها:ـــ

إذا ماأتتنا الريح من نحو أرضكم   أتتنا برياكم فطاب هبوبها(١)

أتتنا بريح المسك خالط عنبراً   وريح الخزامى باكرتها جنوبها

فقام من حلقة السمر وانطلق لفراشه بحجة أنه سينام ولكن أنَّى له ذلك إنه غادر المجلس ليتفرغ إلى نفسه و يطفح فى خيالا ته و يعيش ذكر ياته محلقا فى سمائها، وقد أدرك أخوه بثاقب رأيه مايدور فى حدس أخيه فجاء إليه وهو مضطجع فى فراشه يتململ و يقلب بصره بين النجوم لعله يجد الحل فى بصيص صغارها، أو تحت لمعان كبارها، و بينا كان طلال كذلك إذ فاتحه أخوه مِشْعَر قائلاً :

: ما بالك ياطلال أراك إنسحبت من حلقة السمر بعد أن أسر إليك خلف بكلام لم نسمعه؟

: أرى نفسى هذه الليلة وكأننى متعب، مع أننى لم أفعل شيئاً:

: ماذا قال لك خلف؟

: لم يقل لي شيئاً!! يقول ذلك بنبرة يغلفها الحياء.

: لو لم يقل لك شيئاً لما إنسحبت من المجلس بهذه السرعة ، يقول ذلك بلهجة جادة.

: وهنا تنهت طلال وقال: أتريد الحق ياأخيّ؟

: ولاأريد غيره!!

: لقد قال لي أنه عندما أسمع قصيدتى التى تذكر لرفيقنا سعد رد عليه، بأنه لو

(١) ديوان الصمة ص ٣١.

علم بذلك وتقدمت إليه لخطبتها لما رحل إلا بعد أن زوجنى إياها.

: «أرى فلاحَلّه»!! أحقا قال هذا الكلام؟

: بكل تأكيد!! ولا أظن خلفا سيتَقَوَّلُ على لسان سعد.

: بكل تأكيد! والآن ماذا ترى؟

: إننى أبحث عن رأى صائب أنتهجه فى سبيل تحقيق رغبتى.

: الرأى عندى إذا وافق رضا فى نفسك.

: ماهـــــــو؟

: أن نذهب إليه أنا وأنت خاطبين، مادام هناك شبه قبول لمطلبنا.

: أتقول ذلك جاداً؟

: وهل يصح المزاح فى مثل هذا الموقف؟

: إذا هذا الرأى الذى كنت أتوخاه، ولكن لماذا لانرسل من هم أكبر منا سناً لإتمام الخطبة؟ وذلك لوجاهتهم عند سعد؟

: إننى لاأرى ذلك «مايشفيها إلا لحاها»!؟ ونحن ماذا ينقصنا من الجاه، وإن سبقونا بالعمر بعدد السنين غير أننا لانقل عنهم فى المكانة بين قومنا!؟ ثم إن الإنسان أحس بنفسه ولاينوب عنه أحد فى كثير من الأمور وخاصة مايتعلق بشريكة حياته.

: صحيح ماتقول لكننى أفضل أن يصحبنا أحد من أولئك الكبار فى السن للإستئناس برأية.

: إن أراد أحد ذلك فلن أمنعه، ولكنى لاأرى الزام أحد.

: وعلينا أن نعرض الأمر على الشيخ فرحان قبل رحيلنا.

: لنخبره بما عزمنا عليه، وأعتقد أنه سيؤيدنا.

: وهو كذلك.

: وفى الصباح عرضا الموضوع على الشيخ فرحان فبارك خطوتها ودعالها بالتوفيق والنجاح، وامتطى الأخوان ركابها فى اليوم الثالث واضعين نجم سهيل اليمانى نصب أعينها بعد أن جهزا مطيها بالخروج ذات النقوش الجميلة الموشاة بالحبال المتدلية المنتهية بعثاكيل زاهية الألوان، وقد تجهزا بأحسن لباس وامتدت أعناق

المطى فى الجهة التى أمّاها و بعد مسيرة خمسة عشر يوماً وصلا إلى أرض الشيخ سعد ونزلا ضفين عليه، ففرح بقدومهما فرحاً شديداً و بالغ فى إكرامهما كنوع من رد الجميل الذى قد أسبغوه عليه عندما كان فى أرضهم، و بعد إجراءات الضيافة المعتادة وتناول العشاء رحب بهم سعد مرة ثانية، ودارت القهوة العربية ومع رنين فناجين الصينى إنساب صوت مسعر موجهاً كلامه إلى الشيخ سعد.

: لقد أتيناك ياأبافلان، وعنينا إليك من ذلك المكان البعيد الذى تعرفه راغبين فى قربك فى حاجة لديك.

: حياكم الله من رجال، و بارك الله فى الحاجة التى جاءت بكم.

: أبقاك الله ياأبافلان و بارك فيك.

: وماهى حاجتكم؟

: الأخ طلال له رغبة فى مصاهرتكم، ولذلك جئناكم طالبين يد إبنتكم له.

: أهلاً وسهلاً وإننى أعتبر هذه الساعة من أبرك الساعات وأسعدها لدى، فرحبابكم، «ولو كانت ذبيحة ماعشتكم» فعلى الرحب والسعة، ولكن لى طلب إليكم ياأبنائى، أنتم كما يعرف الرجال أمثالكم أنه لابد من استطلاع رأى صاحبة الشأن، ولاسيا أنها ستسافر إلى بلاد بعيدة، ولا إخالها تعارض رغبتى، ولكن طيبة لخاطرها فدعونى آخذ رأيها.

: لك ماتريد وفى رأيك الكفاية.

وذهب سعد إلى داخل البيت واستدعى إبنته وأطلعها على الهدف الذى جاء الرجلان من أجله فسكتت البنت، ولم تمانع أمها قائلة: نحن لانخرج عن رأيك ومشورتك، وعند ذلك أمرهن بأن يجهزن أنفسهن للزفاف تلك الليلة، بل بعد سويعات قصيرة من الزمن، وعاد إلى ضيوفه واستدعى «الامام» الذى يقوم مقام المأذون الشرعى فى عقد النكاح وأمره أن يعقد نكاح طلال على ابنته سعدى «على ريال وشيمة رجال» وأعلن خبر الزواج من ذلك المجلس ودعى الناس لتناول وليمة الزواج فى اليوم الثانى، بينما أشتغلت أم العروس بتجهيز إبنتها، وترتيب جزء من بيت الشعر ليكون بمثابة غرفة الرفاف وكان حدس النساء قد أوحى إليهن بأن مجيئ الرجلان يعنى خطبة سعدى، ولذلك فإن بعض الترتيبات قد إتخذت قبل ذلك، وترك تنفيذها

رهنا باعطاء إشارة البدء من قبل الشيخ سعد عند موافقته على الخطبه والزواج ولذلك لم يمضى سويعات قليلة إلا وقد تم كل شيء وهيئت كافة الأمور، فزفت سعدى إلى زوجها طلال وسط أفراح نساء النزل اللواتى أخذهن وقع المفاجأة ، فأتين إلى البيت للمشاركة بالفرح بملابسهن العادية مع بعض التحسينات لأحوال هندامهن، وفى صباح اليوم الثانى إنشغلت النساء بتجهيز وليمة الزواج التى تناولها الجميع بعد صلاة العصر من ذلك اليوم، ورقد العروسان ليلتهم الثانية، وبعد صلاة الفجر إمتطى طلال كور مطيته مسترد فازوجته خلفه ومعها ماخف حمله وغلي ثمنه من الملابس والعطور والحلى، يبارى له فى المسير أخوه مسعر على شداد ذلوله، قافلين إلى أهلهم مودعين من الشيخ سعد وجماعته بأحر عبارات الوداع، بعد أن نال طلال ماكان يعتبره أمنية غالية وحلماً فى الخيال، فأصبح الآن حقيقة ماثلة أمام عينه وفي متناول يده بفضل الله ثم بفضل سفارة قصيدته التى كانت همزة الوصل بينه وبين بلوغ مايتمناه، بالإضافة إلى الإعتبارات الأخرى وعندما وصلوا إلى مضارب قومهم عمل لها وليمة كبيرة، وأبتنى لها بيتا «مثلثاً» شامخاً يحتوى على كل ما تتطلبه الحياة أنذاك.

* * *

٢٧ ـ طلق زوجته وندم

يخطيء الإنسان أحيانا من حيث لايدرى، ولايعلم بجسامة خطئه إلا بعد فوات الأوان، ومهما ندم بعد ذلك فلات ينفعه الندم، ومهما أراد أن يكفر عن أخطائه فقد يصل إلى نتيجة مقنعة ومرضية إذا كان من إرتكب الخطأ فى حقه حيّاً شديد عديداً، وكان الخطأ لايتعارض والتعاليم الدينية، أما إذا كان المخطى عليه قد فارق الحياة، أوشطحت به المسافة، أو كبر الخطأ فى حقه بحيث ملأ عليه نفسه بعد أن شُهِّرَ به ظلماً وعدوانا، أو حال أمر دينى دون إمتصاص آثار الأخطاء، فإنه لن يتسامح ولن يتنازل عن حقه، وسيبقى لدى من إرتكب الخطأ حراجات لا تندمل تنبعث منها الآلام فى أغلب الأوقات، ولايجد البلسم الشافى لهذه الجراحات لشعوره بعدم مقدرته على إنتزاع أشواك الظلم من المجنى عليه هذا إذا كان من ذوى الضمائر الحية، بينما يحس المظلوم بفداحة ما أصابه من رفيقه، ومدى الجراحات التى أحدثتها أشواك التشهير به عندما ماجُرَّت الأغصان الشوكية على أديم سمعته، وماأبقته وخزات السهام الغائرة فى سويداء قلبه من السنة الناس، سواء أكانوا بعيدين عنه أم قريبين منه، وربما كان لهؤلاء الأخيرين أشَدُّ وقعاً وأنكأ جرحاً، كما جسد ذلك طرفه بن العبد ببيته المشهور قبل مايزيد على خمسة عشر قرناً من الزمان حيث قال:

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

فعند ذلك يجد من الصعوبة التنازل عن حقه، والسماح لمن أخطأ عليه وجلب الأذية اليه، ولو كان المسبب لهذا الأذى قد جاء لخطأ إرتكبه المجنى عليه لكان ذلك أبرد على القلب وأهون على النفس، ولكنه حدث نتيجة وساوس شيطانية جرتها ألسنة الحساد، وأفواه الحاقدين، وغمزات المتربصين، ولمزات المفسدين بين الناس، وفى أذيال هذه الجريرة كانت الضحية ذلك الإنسان البريء البعيد عما ألصق به من تهم فانصلت عليه سيف الخطأ وَجَذَّ العلائق التى تربطه بغيره، وصرم الوشائج التى التحم بها فى مجتمعه، فعند ذلك يجد نفسه واقفا لوحده تتجه إليه العيون بنظرات

متفاوتة، و يتخلخل تأثير هذه النظرات إلى أعماق أعماقه فتهزه بعنف ثم يعود إلى صوابه بعد ذلك و يعزي نفسه بقناعة البراءة، و يضفي رداء النقاء والفضيلة على نفسه فيتناسى الوضع الذى هو فيه، ويحاول أن يلتصق بمجتمعه و ينمي الوشائج من جديد حتى تلتحم وتندمل جراحة الخارجية، غير أنه يبقى لديه فى أعماق شعوره واحساسه أشياء وأشياء لمن أساء إليه أما المسيئ نفسه فإنه ماإن يشعر بخطأ تصرفه، وتتضح له الرؤية حتى يندم على مافعل، فاحيانا ينفعه ندمه ويمضى بالعفو ممن أساء إليه، وأحياناً أخرى يكون قد «فات الفوت وانقطع الصوت» فعند ذلك لايجديه سوى أن يعزي نفسه بما ينفذ من الأفعال أو يبوح به من الأقوال، وأخلد الأقوال مايتناقله الصغير عن الكبير من القصص والتعابير، أو مايتداوله السمار من جَيِّدر الأشعار فيفرغ به مكنون فؤاده فى بعض القصائد التى ربما تكون هى العزاء الوحيد لنفسه، بعد فراقه من يحب، وهى فى ذات الوقت وسيلة التماس، و برهان صدق، لمن أساء إليه، فلعلها أن تأسى جراحاته العميقة، وتبرد عليه آلامه ليشق طريقه فى الحياة من جديد، فى وضع كهذا عاش «حُمُود» بين أهله وأقاربه فى حياة ريفية بسيطة فى مظهرها صلبة فى مخبرها، قاسية فى واقعها يمارس أعمال الفلاحة اليومية التى تعتمد على المجهود العضلى، حيث يباشر عمله اليومى قبيل أذان الفجر بسياق الإبل لإخراج الماء من أعماق البئر، حتى إذا بسطت الشمس رداءها الفضى سَلَّمَ عصا السياق إلى أخيه الذى يصغره سنا و بدأ يتفجير كمية الماء التى جمعها فى الجابية بمزارع القمح والشعير و بساتين النخيل والأعناب والفواكه و يقضى بقية يومه فى هذا العمل الدائب حتى إذا جن الليل عاد إلى منزله مع أخويه الذين يصغرانه سناً وقد هيأت لهم والدتهم طعام العشاء، فتناولوه واستراحوا يتجاذبون أطراف الحديث أو تفرقوا قاصدين حلقات السمر ليقضوا فيها بعض الوقت قبل أن يحين موعد النوم، وتحرص أمهم العجوز على ترتيب وقتها بحيث لايحين وقت صلاة العشاء الأخير حتى تكون قد إنتهت من إطعام الإبل علفها ورتبت منزلها وفرش أبنائها، وعلى الرغم من أنها قد جاوزت الخمسين من عمرها، إلا أنها تبدوا وكأنها فى العقد الثالث من العمر، وماإن تنتهى من عملها حتى تضع رأسها على وسادتها وتستسلم لنوم عميق، وذلك إستعداداً للمهمة التى تضطلع بها من إيقاظ إبنها الكبير فى وقت مبكر قبل أذان الفجر بما

يقارب الساعتين، حيث لايوجد أنذاك ساعات منبهة لإيقاظ النائم، و يقوم مقامها الدِّيكةُ التى تشراب أعناقها وترتفع أصواتها قبل أذان الفجر بوقت كاف وذلك لعدة مرات، وتعاود «الأذان» عندما تظهر خيوط الفجر الأولى، و يعتقد الناس أنها تسمع «آذان الملائكة فى السماء فتردد صداها من الأرض» وهى الوسيلة الوحيدة المنبهة للناس من النوم، أما إذا إستيقظ الفرد من نومه فإن هناك دلائل يقدّرُ بها الوقت، وهى مواقع النجوم فى صفحة السماء الزرقاء الصافية، وإن كان ظهور النجوم من المشرق ليس ثابتا، حيث يطرأ عليها تقديم فى ظهورها كل يوم إلا أنهم يعرفون الوقت بها بالمقارنة والتقريب، فعندما تستيقظ العجوز من نومها وتوقظ إبنها ليبدأ بعمله ثم تعود فتتوضأ وتصلى ركعتين أو أكثر ثم تبدأ بتجهيز علف السوانى، حتى إذا أدت صلاة الفجر بدأت باطعامها إياه، وهكذا دأب هذه الأسرة كغيرها من أسر الفلاحين فى الريف فى تلك الحياة الوادعة ذات الإطار البسيط، والملامح الجميلة، والدين العميق والتقاليد العريقة، وذات مساء خطر للمرأة أن تفاتح إبنها حمود بموضوع يشغل بالها منذ زمن ولاسيا عندما أحست بأنها تقدمت فى السن، وأتعبها العمل المرهق الذى تقوم به يوميا وتريد من يكفيها بعض هذا العمل، أو يعينها عليه على أقل تقدير، وفى نفس الوقت رأت بوادر الرجولة بارزة على محيا إبنها، فقد تغير لون الزغب الذى يغطى شاربه ولحيته وأصبح هذا الزغب شعراً أسوداً، بينا تناثرت حبات الشباب على صفحة خديه وغلظ صوته، و برزت علامات الفتوة على عضلات زنديه، و بروز نحره وعرض منكبيه، وعند ذلك أرادت أن تعرض عليه مايدور بخاطرها عَلّها ترى أبناءه بعينيها كما هى أمنية كل أم فقالت فَضِيَّة:

: الحمدلله مغير الأحوال يابنى.

: حمداً له على كل حال، ولكن ماهى الأحوال التى تغيرت ياأمّاه؟

: لقد أنشأك الله فاصبحت رجلاً ولله الحمد، فعندما إنتقل والدك إلى رحمة ربه لم تكن قد تجاوزت السادسة من عمرك وحنئذ كانت مزرعتنا معرضة للهلاك، ولكنى صممت على المحافظة على فلاحة والدك، فاضطررت إلى الإستعانة بالأجراء «والصبيان» ليقوموا بشأن المزرعة، فوالله إننى كنت فى ثياب الحداد فاضطر أحيانا إلى توجيه بعضهم لعمل أشياء معينه وإرشاد البعض الآخر لتصحيح أخطاء

ارتكبوها، والآن أصبحت أنت وإخوتك تقومون بشئون مزرعتكم دون الحاجة إلى أحد، ألا ترى أن فى هذا تغيير لحال مضت!؟

: رحمة الله على والدي، إننى أذكر وفاته تماماً على إثر مرض الجدرى الذى عاث فى البلد وأودى بحياة الكثيرين.

: إيه، يرحمه الله ويقدس روحه، لقد مضى مايزيد على خمسة عشر عاماً، ومازلت أكابد المشاق وأقوم بالعمل لوحدى فى هذا البيت والفلاحة معاً.

: ألبسك الله ثوب الصحة والعافية ياأماه،! إنك لاتزالين شابة!

: أشكرك يابنى على هذا التشجيع والإطراء وإن كنت لاأستحقه، فريعان الشباب قد مضى، وبدأت الزهرة بالذبول، وإن رأيتنى على هذه الحال فإننى بدأت أشعر بالتعب بعد العمل اليومى الذى أمارسه وإننى بحاجة إلى من يساعدنى.

: أتريدين أن نأتى بـ «صَبيَّة» تساعدك على دق العلف وإطعام الإبل وغير ذلك من الأعمال الشاقة التى تقومين بها، ويبقى لديك أعمال البيت فقط؟

: نعم أريد ذلك، ولكنى لاأريدها «صبية» كما قلت وإنما اريدها زوجة لك.

: زوجة لي!؟ وهل لدى المال الكافى حتى أتقدم لخطبة أحد من بنات الناس؟

: آه يابنى، المال لايهم، المهم الرجل الذى تتقدم لمصاهرته.

: والمال ياأماه!! إنه عصب الحياة الذى يجعلنى قادراً على الوفاء بالتزاماتى؟

: لاشك فى ذلك ولكنى قد قلت لك إنه بسيط، يستطيع الرجل أن يتدبر أمره متى إختار موقعاً مناسبا لقدمه فى الخطوة التى سيخطوها، فلقد تزوجنى أبوك بمهر رمزى وهدايا بسيطه لم تكلفه شيئاً.

: لقد تغير الوقت ياأماه، أما علمت بخبر الفلان الذين إشترطوا مهراً لابنتهم مكون من أشياء كثيرة ومتعددة الأشكال مرتفعة الأثمان حتى وصلت لدرجة التعجيز، أو الفلان الذين إنتهى زواجهم إلى الفشل بسبب تصرفات بعض النساء والرجال أشباه النساء، الذين أصروا على أن تكون بعض الاشياء التى إشترطوها من النوع الممتاز؟

: لقد علمت ذلك تماماً، ولذلك فإننى قد قلت لك فى البداية ليس المهم المال، وإنما الأهم هم الرجال الذين تدلي عليهم وتركن إلى مصاهرتهم، فعليك بالبحث عن الرجال أولاً.

: الاجواد ملء البلد ولله الحمد، وإذا كان أولئك الشواذ الذين قد باعوا بناتهم، فهم فئة قليلة لاحكم لها.

: والآن ماذا ترى؟ من هى الفتاة التى راقت فى عينيك وترى فى أهلها التكافؤ فى منزلتك بين قومك؟

: كما قلت لك ياأماه فبنات الاجواد كُثُر سواء من الأقربين أم ممن سواهم.

: مارأيك فى إحدى بنات أعمامك الموجودين فى بلدنا أو المتواجدين فى البلد الفلانى؟

: ونعم، بهن كلهن فوالله إننى لم أجد فى أى واحدة منهن مايشينها، ولكن من ناحية رأيي الخاص فإنه لم يدخل مزاجى أى واحدة منهن، ففلانه سمراء، وفلانه قصيرة وفلانه رزيفة الحال، هؤلاء الموجودات فى بلدنا بقى بنات أعمامى اللواتى فى البلد الثانى على ما أذكر أن إبنة عمى حميدة «مزيونة» إن كانت شبت على ماأذكر.

: آه يابنى، دعنا من هذه المزايا والمواصفات التى تشترطها فيمن تريدها لك زوجة، فالمرأة ليست بجمالها فقط، إن هناك جمال الروح، وذات الدين، وسمو الأخلاق، و«القَرَامَة» فى العمل، والستر فى حياتها معك، وغير ذلك مما يضفى على المرأة ميزات أخرى.

: والله ياأماه إذا حصل الجمال والأخلاق الى جانب المميزات الأخرى فهي أفضل!! أليس كذلك؟

: إن حصل فهو نور على نور، ولكن قد لاتتوفر كل هذه الصفاة مجتمعة؟

: إننى أريد إبنة عمى حميدة، إن لم تغيرها فترة الشباب؟

: على العكس فإن الشباب مما يزيد الفتاة إكتنازاً وحيوية وجمالاً.

: ليس دائماً، فبعض الأحيان تكون الفتاة وهى صغيرة أجمل منها كبيرة.

: إذا على بركة الله يابنى وعسى الله أن ييسر لك الأمور فعليك أن تخطبها.

: دعينى أتأكد منها أولاً، إن كانت جميلة كما أذكر.

: أوه يابنى جميلة ، جميلة ربما يجنى على المرأة جمالها فى بعض الأحيان!؟

: ولكن الجمال يسر العين، و يبهج النفس، و يشرح الصدر!!

: على بركة الله وهو الهادى الى سواء السبيل فافعل ماتريد.

و ينتحل حمود عذراً ليذهب إلى أعمامه فى القرية الثانية لإحضار فسائل من غريس النخل فيذهب إلى البستان فى الوقت الذى توجد فيه النساء بالمزرعة عله يلمح إبنة عمه فيراها عن قرب، وربما لمح وجهها من تحت الخمار، وفعلاً حصل له ذلك على حين غرة منها، وعندما رآها وجدها قد كساها الشباب رونقا وحيوية جذابة، فعقد العزم على التقدم لخطبتها وفى المساء فاتح عمه بالموضوع، حيث أخبره عمه أنه موافق على زواجه منها، وعاد حمود إلى أمه تملأ قلبه الفرحة، و يغمره السرور، وأخذ يعد العدة للزواج و بعد فترة قصيرة تم الزواج على أبسط الصور دون أية تكاليف باهضة، أو بهرج زائد، حيث إعتبروها فى بيت ابن عمها وهو جزء من بيتهم، وقرت عين حمود بابنة عمه، وانتقلت إلى بيته ومزرعته، وتألقت كالدرة الفريدة على أرضية زرقاء، واشرأبت إليها أعناق النساء قبل الرجال، حيث كانت على جانب كبير من الجمال و بعد أن تزوجت ابن عمها إطمأنت نفسها فنبضت حيويتها وسطعت مثل الشمس فى رابعة النهار، وأخذت على عاتقها كامل أعمال المنزل والمزرعة وأراحت أم زوجها من العناء والتعب الذى كانت تعانى منه طيلة مايزيد على خمسة عشر عاماً، فزاد حبها لها، وعظمت مكانتها عند زوجها وكبرت فى أعين الجيران، فخيمت بوجودها السعادة على حمود وأهل بيته وماكادت تمضى السنة الأولى على هذا البيت الذى ترفرف عليه علامات البشر والهناء حتى إمتدت إليه يد المنون واختطفت منه أحد ركائزه وهى أم حمود، إذ باغتتها المنية، دون مقدمات من مرض أو غيره، فانتقلت إلى جوار ربها، و برحيلها نقص من هذا البيت عنصر أساسى كان له الفضل فى إرتفاع بنيانه ولكنه بعد هذه الفترة استمر فى مسيرته الحياتية تحت إدارة وتدبير رَبَّتُهُ الجديدة.

* * *

ومضت الأيام والشهور وقاربت السنة الثانية من زواج حمود على الكمال دون أن يكون هناك أى بوادر حمل لدى زوجته التى يزداد حبها فى قلبه يوما بعد يوم برغم أنها لم تحمل منه حتى ذلك الوقت، واكتمل شبابها، والتف جسمها فأخذ كل عضو فيه حقه من التناسق، وكل جزء صيغته الجمالية الكاملة فأصبحت الفتاة مضرب

المثل فى جمال الخَلْق وسُمُوّ الخُلُق، وهاتان النقطتان هما اللتان أو غرتا الصدور ضدها سواء من النساء اللاتى خَنَسْنَ بظهور هابينهن، أو من الرجال الذين حسدوا حموداً على مارزقه الله فى هذه الزوجة الحسناء التى تبهر الأنظار بطلعتها وتسلب الألباب بحديثها فعند ذلك أو عز بعضهم إلى فئة قليلة العدد جداً ولكنها قوية التأثير بسبب ماتحوكه من الحكايات، وما تختلق من الأقاويل وتبذره من الشقاق بالتعرض لتلك العائلة الوادعة المطمئنة علها تنغص عليهم عيشهم، وتكدر عليهم صفو حياتهم، بدافع الحسد والغيرة، وهكذا يتحرك شيطانهم فى هذا المجال المنتن ولنستمع إلى أحد الحاقدين عند التقائه بأحد أفراد تلك الفئة الخبيثه حين دار بينها الحديث الآتى:

: أراك تستند إلى حدة هذا الجدار، وقد مددت ساقيك إلى منتصف الطريق فضيقت على المارة دربهم وتنظر إلّي بشرز وكأن بين أدنيك خبر؟

: لم أضع ساقيَّ هكذا إلا لكى أسد عليك وعلى أمثالك الطريق، ولن أكفها حتى لو مرت «حميدة» من هنا.

: بودك لو تمر حميدة من هنا حاملة «جذعة» الماء على راسها، وتجد ساقيك ممدوتين لتتخطى من فوقها.

: ليت ذلك يكون!!

: «وش تشتهى»؟

: عزالله إنها «منقع للزين» إن حظ حمود يكسر الحجر حيث كانت من نصيبه.

: هذه قسمة الله غصب على كل إنسان، ولكن دعنا من هذا فلا تطل الحديث عنها فإن ذلك يؤجج فى القلب لهيب النار.

: وبماذا تريدنا أن نتحدث؟

: إننى جئت إليك فى مهمة صعبة وحساسة فى نفس الوقت، فإن كنت من أهلها وإلا بحثت عن غيرك.؟

: لقد صَعَّبت الأمور!! ماهى هذه المهمة الحساسة والصعبة التى ستكلفنى بها؟

: إنه موضوع يحتاج إلى ذكاء، وفطنه، وحسن رَوِيَّة، بحيث يختلق الحكاية ويصوغها ويحبكها فلا يترك فيها ثغرة أو منفذ يدخل منه الشك على عدم صحتها؟

: أظنك تهذى!! مسألة حساسة وموضوع مهم؟ وكلام كثير لاأعرف أوله من آخره؟

: إن هـذه الـقـضيـة تحتاج إلى محترف حذق باختلاق القصص ونشرها بأسرع وقت ممكن، بحيث تنتشر في ساعات فتغطى البلد بكامله.

: ماهى قصتك التى أحطتها بكل هذه الهالة؟

: أريدها قصة من خيالّ ويجب الا يعرف مصدرها فن لها؟

أنالها وأكثر منها!! يدق صدره بكفه و يردف قائلاً: اتتحدانى؟؟ أعلمنى بمطلبك وسأنفذه فوراً فلدى المقدرة الفائقة على ذلك.

: أأنت جاد أم تمزح معى!؟

: وهل هذا وقت المزاح، بعد أن تهاونت بمقدرتى و براعتى؟

: إذا، خذ هذه الصُّرَةَ ولاتفتحها حتى تعود إلى خربتك.

: إنها نـقـود.. نقود، أهي فضية أم ذهبية، إنها مل كفى!؟ يقول ذلك و يده ترتعش وصوته يتهدج من شدة الفرح.

: قلت لك لاتفتحها حتى تصل إلى بيتك وستجد مافيها.

: حسنا، حسنا، إذا أضعها فى جيبى الأمامى الطو يل!! «إهَّهْ»!! و بعد أن أدخل الصرة في جيبه المتدلي على صدره تأكد أنه لايوجد ثقب أو فتق تنفذ منه، ولكي يطمئن أكثر مسح يده عليها من الخارج فوجدها ناتنه كطعم الثعبان حينا يزدروه بكامله دفعة واحدة عند ذلك إنتصب معتدلاً في جلسته، وكف ساقيه عن الطريق وقال:ـــ هاه ... أعطني موضوعك وارم همه!!

: أتعنى ماتقول؟ يقول ذلك بلهجة التحدى.

: قلت لك «إزْهَلْهْ»!!

: موضوعى أريد منك أن تحبك قصة من نسج خيالك الجهنمى بحيث تفرق بها بين حمود وزوجته بأى شكل من الأشكال وحسب الشروط والمواصفات التى قلتها لك فى البداية!!

: أفى حمود وزوجته!!؟؟ ياليتها فى غيرهم!! ياليت؟؟ إنهم أجواد والتعرض لهم صعب على قلبى وثقيل على لسانى!؟ لقد قلت لك فى البداية إنك خوَّار!؟ إنك «محزم خوص»

: وجَسَّ الصرة فى يده وقال: الخوار غيرى، وأنا «مِحْزَمُ لِيْف» بل سَيْرُقَدٌ، أتتحدان!؟

: إذا نفذ ماأقوله لك.

: أبشر على العين والرأس ولن يأتي غد في مثل هذا الوقت إلاّ وكل شئ قدتم على مايرام «بها الشارب وأنا أخو فلانه» يقول ذلك وهو يفتل شاربه بأصابع يده اليسرى ويدق طرف جبينه بسبابة يده اليمنى.

وافترق الإثنان وقام زائد وهو يتحسس الصرة التى فى قعر جيبه عسى ألا تكون قد سقطت، وسار فى طريقه إلى بيته الخرب وما إن وصل عند الباب حتى تلَفَّت يمنة ويسرة عسى ألا يكون أحداً يتبع خطاه، ولما إطمأن إلى عدم وجود أحد خلفه، دخل بيته الخرب وأوصد الباب خلفه، وأطل من فوق الشرفة المتهدمة ليحتاط أكثر ولما لم ير أحداً جلس على الأرض ومد رجليه وفرش مقدمة ثوبه «شَلِيْلَهُ» ثم حل حزام الصرة وصبها فى «شليلة» فأطر به رنين القطع الفضية وأعجبة كثرتها فقبضها بحرارة بكلتا يديه، وفى نوبة عصبية إصطكت أسنانه وبرزت عيناه، وشدد قبضة كفيه على القطع النقدية وهو يقول: سأحبكها، سأحبكها..!! ثم جمع النقود مرة ثانية وعبأها بصرتها وأعاد ربطها ثم القاها فى قعرجيبه، ومد إحدى رجليه ونصب الأخرى حيث أرتفعت ركبته فى موازات منكبه، ووضع إبهام يده اليسرى تحت أسفل خده الأيسر، وعبثت أصابع يده اليمنى بشعر لحيته بحركات عشوائية، وذلك استعداداً للإنطلاق فى خياله الشرير لَعَلَّهُ أن يجد الطريقة التى ينسج فيها شبكته الخبيثة لإصطياد تلك المرأة البرئية الغاَّرة الآمنة، وبعد تفكير عميق تجمعت لدية الهواجس والأفكار الشيطانية بأن عليك أن تبدأ بالموضوع الحساس وهو مايتعلق بالعرض، بالعرض فكل ماسواه قد يعالج دون أن يحدث الشرخ المطلوب فى هذا البنيان المتماسك، ثم إن موضع الشرف قابل للشك ولأشعال الفتنة حتى تصل إلى حالة الغليان وقد يؤدى إلى عواقب وخيمة ويجب عليك ألاَّ تعتمد على براعتك فقط، وإنما ينبغى لك أن تستعين بخدمات الآخرين، وعليك أن تتحمل بنفسك قدح الشرارة الأولى ثم «وَلِّعْهَا بِالشِّيْح وَقَبِّلْهَا الرِّيْح»!! وخير من ينقل هذه الشرارة هى العجوز أم فلان، فهى تتلقف الأخبار وتزيد عليها أضعافها إذا فهى كفيلة بنشرها فى البلد بأقل من ساعة، حيث لايستقر لها قرار فى بيت أكثر من الوقت الكافى لايصال الخبر ثم تنتقل إلى البيت الثانى والثالث حتى يعلم كل إنسان فى البلد فى هذا الموضوع، ولاسيا إن كان الأمر

يوحي بالشر، ولكن حذار أن تنقل الخبر كمصدر له، وعليك باللجوء إلى التعمية اللامصدر ية بكلمة واحدة هى «يقولون» فعند ذلك تضيع الطاسة ولايعثر على مصدر معين لاسيا أنه لن يحقق فى الموضوع إلا بعد الإنتشار الكامل للشائعة هذا إذا بحث عنه، وعليك بصياغة الشائعة بحيث يغلفها التمو يه بين قائلها أو مشاهد قائلها ولتكن بدايتها «يقولون أنه شوهد فلان وفلانة فى مكان كذا وكذا على وضع كذا وكذا» كما أنهم يقولون أن علانا شوهد كذلك معها فى وضع مماثل، وعليك إختيار الأوقات التى يكون زوجها إما فى عمله اليومى أو خارج البيت أو هى خارجة لجلب ماء الشرب، أو هى ذاهبة مع الحشاشين لإحضار الحشائش والأعلاف من البر، كما يجب عليك إختيار الأشخاص الذين يتمنون لو ينسب إليهم عِلْم يفهم منه تقربهم منها، وليكونوا من الشباب الطائش الذين لايحسبون حسابا لأى عاقبة دينية أو دنيو ية هذه العناصر الرئيسية التى إنطلق منها و بعد أن أستكملت لديه قام من مكانه وقصد المكان الذى تمر فيه العجوز، وعلى قارعة الطريق الخالى من المارة أومأ اليها بكم ثو به فجاءته حيث استوقفها وقال لها هامساً:

: أسمعت ما سمعتُ ياأم فلان؟

: لاأدرى ماذا سمعت يابني؟ أخبرنى!! أخبرنى؟

: يقولون أن فلانة على علاقة بفلان وقد شوهدا فى مكان كذا فى ذلك الوقت، وكنت أحسبها صالحة عفيفة.

: أوه يابنى، الجمال قد يجلب لصاحبته البلاء، فكم رجل يتمناها زوجة له؟

: كما أنهم يقولون إنها شوهدت مع فلان فى الشعيب الفلانى يجمع لها الأعشاب والحشائش و ينضد لها الشبكه وهى جالسة بجانبة لاتفعل شيئاً، وهذا له معناه، لابد لكل خدمة من أجر!!

: لقد قلت لك إنها إمرأة جميلة، وكثير من الشباب يود لو يظفر منها بكلمة واحدة أو نظرة وحيدة، فما بالك فيمن تسنح له الفرصة بخدمتها؟

: والله إننى أحسبها عاقلة رز ينة قبل هذه الأقاو يل؟

: عاقلة!؟ رز ينة!! وحتى لو كانت كما ذكرت يأتيها من يغرر بها و ينفخ سَحَرَها حتى قد يجرها إلى الطر يق الملتوى.

: كما يقولون على ذمتهم، وانني بريئ إلى الله من ذلك أن فلانا تسلق عليها مع جدار البستان عندما ذهب زوجها لأداء صلاة الجمعة فى أعلى البلد.

: ياما سيقولون!؟ هكذا بعض الجميلات تكثر حولهن الأقاويل.

: ولكن كيف يرضى زوجها فلان و يسكت على ذلك؟

: لاأدرى ولكن ربما أنه لم يعلم، فقد يكون الزوج آخر من يعلم؟

: ولكن ياأم فلان أرجوك ألا تخرج هذه الأسرار من رأسك لأن هذا كلام الناس فى كل بيت وعلى كل ناصية، ولا تنسبى إلي أى معلومات.

: أبشر «ولايهمك» هذه أخبار لا تستحق النشر ومادامت على كل لسان فلا تستأهل من ينقلها، أعندك غيرها؟

: لا، إنما هذا ماسمعته من الناس فى طول القرية وعرضها.

وانصرفت من عنده وكأنها ظفرت بأسرار الكون ودخلت اول بيت يواليها، واستدعت عجوزاً مماثلة لها وهمست فى أذنها على مرأى ممن فى البيت بكامل الأخبار، وأكدت عليها ألا يخرج هذا الكلام من رأسها، وأخذت تلك البيوت واحداً واحداً بنفس الطريقة، وعلى نفس الأسلوب، وبطبيعة الحال فإن الحاضرين فى كل بيت يدفعهم حب الاستطلاع من الألحاح على من همس فى أذنها حتى تنقل لهم الخبر مفصلاً أو تلميحات عنه، ولم تغب شمس ذلك اليوم حتى علم به كل بيت، وفى المساء تهامست به أفواه السُّمَّار ومع خيوط الفجر إنتشرت المعلومات بين مجموعات «الفلالي» وهم الحشاشون، وكذلك مجموعة النساء اللواتى يحضرن الماء من المشرع أو الجورة إلى البيوت وهكذا فى خلال أربع وعشرين ساعة تدنست صفحة حميدة البيضاء فى مجتمعها الصغير دون أن يعلم عن مصدر الأخبار، التى أصبحت تحكى على كل لسان يتهامس بها الكبار، ويجهر بها الصغار، وأكفهر الجوفى وجه حميدة، واسودت الدنيا أمام عينيها، وضاقت عليها الأرض بما رحبت وتمنت الموت فى لحظتها عندما سمعت فحوى الإشاعة أثناء روايتها من إحدى السيدات لجارتها بكامل تفاصيلها وعندما سألت صديقة لها تستوضح عما يهمس به الناس، صارحتها صديقتها بكامل مايقال عنها، ومع ثقتها الكاملة بنفسها ومن براءتها من كل مانسب إليها والصق بها إلا أن أفواه الناس تحتاج لمن يسكتها ويحول بينهم و بين همساتهم ولمزاتهم، ولصرف

نظراتهم الشرز إليها وهذا لايتأتى إلا بعد إقتناع زوجها بمبرارتها وتصديقه لكلامها وهى تعرف زوجها أنه حاد المزاج، فانهارت قواها وارتمت فى بيتها تاركة كل واجباتها البيتية بدون عمل، وعلى فراش مطروح فى ساحة الدار إرتمت مجهدة خائرة القوى وبدأت تتذكر هذه المواقف الملصقة بها، وتحاول أن تتعرف على أولئك الأشخاص الذين قيل أنهم على علاقة بها، أحدهم لا تعرفه إطلاقا والثانى تسمع باسمه دون أن تراه، أما الثالث فهو من مجموعة « الفلالي» الذين تذهب معهم، وتعرفه لكن معرفتها له من بعيد لبعيد مثل بقية أفراد المجموعة، ولم يسبق أن تكلمت معه بكلمة واحدة إلا مايجرى من أحاديث عابرة بين أفراد المجموعة عندما ينزلون عن دوابهم لتناول طعام الإفطار من «زهابهم» غير ذلك لم تذكر أية أشياء أخرى، وحتى أثناء جمعها للاعشاب والحشائش تتحاشى الإبتعاد عن إحدى النساء من رفيقاتها فى المجموعة ولاتقترب من الرجال تلافيا لما قد يقال، أما فى طريقها لإحضار الماء فلم تخرج فى يوم من الأيام الابعد طلوع الشمس وانتشار الناس فى الشوارع والطرقات، ولذلك بقيت فى إعصار تفكيرها المضطرب يبرمها فى دوامته العاتية، تلتمس الحلول وتبحث عن الحجج والبراهين لكى تقدمها لزوجها إذا عاد إليها ورضى بأن يتفهم وضعها، ويصدقها فيما تقول بمنطق العقل والروية، حتى يجهض هذه الشائعات المغرضة هذا إذا لم يكن محتدا وغاضبا، أما إذا كان فى هذه الحالة فانه من الصعب التفاهم معه، فى نفس الوقت كان زوجها حمود قد سمع لغط القوم فى مجلسهم فلما دنا منهم أرْتُوْا وسْتُبْدِلَ الهمس عن الجهر بالقول ثم إنتقل إلى مجلس آخر فلاحظ نفس الظاهرة، فتركهم ودنف إلى ثالث، فوجدهم على النمط ذاته وعند ذلك مال على شيخ مسن معهم، وأراد أن يتحدث معه بشأن مالاحظه على الناس هذا اليوم فقال له الشيخ.

: ياولدى عليك أن تلمس رأسك أهو عليك أم لا؟

: بل على راسى!! ماذا حدث ياأبا فلان؟

: الناس تتحدث عنك!؟

: عنى أنا!؟

: نعم، عنك وعن زوجتك!

: زوجتى!! ماذا جرى لها؟
: بإمكانك أن تسأل غيرى ويخبرك.
: وإرْبَدَّ وجهه، وعلته صفرة، تبعتها غبرة ثم سواد قاتم، فقال بلهجة الجد ومن أسأل إذاً!؟
: إسأل من تر يد.

ولم يتجرأ أحد من الحضور أن ينبس ببنت شفة عدا واحداً يكن لحمود ضغينة فى صدره، و يتحين الفرص ليبث ماسمع بلهجة الشامت حيث قال:
: لقد سال بك السيل وأنت نائم، بالتأكيد أنك حَشْو من تبن.
: كلامك كلام الحاقد، ولن أقبل منك صرفا ولا عدلاً، ثم مال إلى الشيخ فطلب منه أن ينقل إليه الخبر بالتفصيل فقال:
: يابنى، دع عنك كلام فلان، ولا تكن متعجلاً، وكن رزينا وسأخبرك الخبر.
: سمعاً وطاعة ياعم.
: الخبر يابنى، بل الأخبار تقول كذا،وكذا، وكذا.
: «أنا أخو فلانة»!! ومن قال ذلك؟ وغلى الدم فى عروقه واحمرت عيناه، وبدأت الإنفعالات تتصارع فى وجهه واستبدت به حركات هستيرية.
: لقد قلت لك يابنى كن هادئاً، فكل الناس تقول ذلك، ففى كل مجتمع منذ يوم أمس والألسن تلوك فى الموضوع وتتفل، وقد علم الصغير والكبير، والرجال والنساء.
: ولكن من أين مصدر الخبر؟
: مصدره قولة « يقولون»!!
: ولكن من رأى، ومن سمع، أوعرف؟
: إسأل الذين يقولون!؟ لاأدرى!!

وإشتاط حمود غضباً وقفز من عندهم وهو يسمع قهقهة بعض الشامتين فيه مما زاد دمه غليانا، وأفقده صوابه، وعاد إلى بيته مغضباً، وبعنفوان، غضبة الشاب الملتهبة، غاب عنه أى تفكير، أو إدراك، او تمعن، وعندما دخل البيت إنقض على زوجته كالوحش الكاسر، وأخذ عصا غليظة وضربها ضربا مبرحاً، كادت تواجه مصيرها المحتوم بسببه، ولم يترك لها فرصة لتقول مالديها من تفنيد لتلك المزاعم، ولم تشفع لها

صرخاتها، واسترحامها تحت ضربات عصاه، حتى شارفت على الهلاك، وعلى صوت صراخها حضر الجيران فى الحال لانقاذها منه، وعندما تجمعوا أشهد ثلاثة من الرجال الذين حضروا أنه طلقها بالثلاث اللاتى لارجعة فيهن وأمر أخاه الأصغر منه سنا أن يحملها إلى أهلها فى تلك الليلة، ولن تبيت فى داره أبداً، وهى التى سَوَّدَتْ وجهه ومرغت سمعته بالتراب، وهكذا قرر عند ذلك رافقتها إحدى نساء الجيران لتسندها على ظهر الدابة حتى تصل إلى أهلها، ولقد وصلت إلى إهلها بجراحها ورضوضها، وآلامها المبرحة، وأنّاتها المؤثرة.

* * *

وأصبح حمود كئيباً حزينا لايستطيع النظر إلى من حوله من الناس، ترمقه عيون الشامتين، وابتساماتهم الصفراء تتمدد على وجوههم ببطء كإمتداد تلوّن الحرباء، تنظره أحداق المتعاطفين معه، و يرتفع طرف من يحاولون مواساته فى مصابه، وهو يقلب نظره فى وجوه الناس لاستقراء معانى تلك النظرات المتفاوتة، جداً، وهزلاً، شماته ومواساة، وكأن لسان حاله يقول: مابال هذه الوجوه تنظر إلي وقد تغيرت إعتباراتهم بين الأمس واليوم؟ بالأمس كانوا ينظرون إلىَّ بإجلال واحترام، واليوم نظراتهم إلىَّ بازدراء وخبث!؟ أكل هذا من أجل ذنب إقترفه غيرى إذا صح أنه اقترف ذلك؟ سبحان مقلب الأحوال!! وتقدم منه أحد الحاضرين ليؤاسيه ويخفف عنه مما يعانى قائلاً: ربما وقع الظلم فى موضوعك ياأخى فاصبحت زوجتك الضحية، تأكد ياأخَىَّ ولاتتسرع حتى تحقق من الأمر قبل فوات الأوان، فرد عليه حمود لقد فات الأوان الآن!!ثم أردف محدثه قائلاً وإذا كان الأمر كذلك فبنات الأجواد كُثُر، فلا يلج اليأس إلى نفسك، ولاينفذا لهم إلى فؤادك، وتوكل على الله، ثم إنتحى به شيخ آخر يطمئنه و ينصحه بالهدوء والرزينة مبينا له أنه ربما كان ماقيل غير صحيح، وأنها أخبار ملفقة نسجها هؤلاء الفاشلون الذين تفرغوا فى نواصى هذه الشوارع وكم من أسر نكبوها، و بيوت قوضوها؟ وهم على ضعفهم وقلتهم قاتلهم الله أنّا وجدوا، فرد عليه حمود، هذا الكلام الواجب أن أسمعه يوم أمس أما الآن «فقد فات الفوت وانقطع الصوت» وصفق بيديه ثم وقف ساهما يحدث نفسه بقوله: إن كل مايهمنى

الآن هو عمى وابنته!! فبأى وجه أتقيه؟ وبأى منطق أحدثه؟ وبأى أسلوب أقنعه؟ وقد فعلت مافعلت فى ساعة غضب بغيضه!! بل فى لحظة جنون هو جاء!! أين ذهب عقلى ساعتها؟ يارب!! ربما كانت المسكينة برئية من كل ماقيل فيها!! ياأسفا، لم أسمع منها كلمة واحدة، لم ألتفت إلى توسلاتها، ولم يجدها صراخها نفعاً لم تشفع لها و يلاتها تحت ضربات عصاي!؟ ياإلهى، لقد كنت أحسب الضرب هو الوسيلة الوحيدة التى ترفع عنها الجلباب الأسود الذي لبسته، أو ألبستْهُ وهى لا تدرى!! ياالله كيف السبيل إلى الخلاص!؟ ثم «رَمَزَ» من مجلس القوم وعاد إلى بيته يقاسى آلامه و يصارع أفكاره عَلَّه يجد الحل لهذه المعضلة، أما حميدة فقد عادت إلى أهلها مثخنة بالجراح، مشبعة من الضرب، ليس فى جسدها الغض موضع إلا أصيب برَضَّةٍ موجعة، وانتفخت مضارب العصا بلونها الأزرق على جسمها العاجى، و برزت «الصعار ير» على رأسها وكأنها اليرابيع المتحفزة للقفز، وهى لا تستطيع الكلام إطلاقاً عدا أناتها المتتابعة التى تحطم قلب السامع! ولما رآها أبوها إشتاط غضبا وتمنطق بسيفه وركب فرسه عازما التوجه إلى إبن أخيه، غير أن أخاه الأكبر ثناه عن عزمه، طالبا منه التريث قليلاً والعناية بابنته حتى يتضح السبب و يطلع الأخ الكبير بنفسه على الدافع الذى أوجب هذا التصرف المشين، فرضخ لرأى أخيه وبقيت الفتاة تحت العناية والمعالجة فى المنزل من الرضوض والكدمات، والجروح، التى تغطى جسمها الأملود، مايزيد على أسبوع حتى تماثلت للشفاء، فى ذلك الوقت وصل عمها إلى زوجها السابق إوستوضح الخبر منه فوجد إبن أخيه فى حالة يرثى لها، من الندم على ما إقترف بحق زوجته وابنة عمه، قبل أن يتبين الأمر فتركه، وعاد الى أخيه والد الفتاة، وبعد تبلور الموقف واتضاح الرؤية، وعندما رأى الناس فداحة ماحدث، جاء الشبان الثلاثة الذين نسبت إليهم التهم إلى زوج الفتاة واعتذروا له أنهم لاعلم لهم بكل مانسب إليهم، وأن ذلك محض إختلاق وإفتراء، فكان ذلك بمثابة المسكن الذى أثلج صدره، ولكن بعد أن فقد أغلى شيئ لديه، ثم توجه الشبان الثلاثة مع بعض أعيان البلد إلى والد الفتاة وعمها يعتذرون لهم عما حدث، و يبينون لهم أنهم لاعلاقة لهم البتة بكل ماقيل ومأأشيع، وحلفوا لهم الأيمان الغلاظ ببراءتهم وبراءتها فاقتنع والد الفتاة وأعمامها بكلامهم، و بذلك إتضح أن الأمر عبارة عن إشاعة إنتشرت بين

الناس دون معرفه لمصدرها، غير أن أولئك الفئة الباقية الذين تمتلئ قلوبهم حقداً وحسداً لكل أفراد مجتمعهم تشير إليهم اصبع الإتهام وكان من ضحاياهم تقويض ذلك العش الزوجي الهادئ بعد أن تسرع حمود في الأمر وتصرف ذلك التصرف الجنوني الطائش، فجنى أشواك تصرفه العاسلة التي تقض مضجعه بوخزاتها الحادة، وتحت وطأة تأنيب الضمير التي تقلقه، وتحرمه من مباهج الحياة،تّجسد أحاسيسه ومشاعره بهذه القصيدة التي عثرنا على بعضها عَلّها أن تترجم مايجول في وجدانه حيث قال:ـــ

٢١٠ ياراكب ثنتين يشدن الأقواس — مع خشم رمان الحمر زرفلني
٢١١ مافوقها إلا الدل والخرج محتاس — وسفايف بين أربع يلعبني
٢١٢ باكوارهن لادك بالقلب هو جاس — ينباج مكنون الحشا لاأدلجني
٢١٣ تنحرن عمي ذرا كل عساس — ريف الضيوف اليالسنين أمحلني
٢١٤ العذر مما صار ياعم بالراس — وحسايفي ماظننتي يعلمني
٢١٥ لي بنت عم ماوطت درب الادناس — ولادنست يوم النسايد نسني
٢١٦ ضربتها وأنا أحسب الضرب نوماس — وطلقتها يوم أفخت العقل مني
٢١٧ محذا سماد النار وإمشاقة الراس — وثلاث لايبكن ولاينبكني
٢١٨ لو ينشكي حبه على ذيب الاطعاس — يسرح مع الطليان مايجفلني
٢١٩ ولو ينشكي حبه على الطيرقرناس — أضحى الضحى بمويكره مستكني
٢٢٠ ولو ينشكي حبه على الزرع مااحتاس — وأهل السواني حرموا سنيهني
٢٢١ ولو ينشكي حبه على السيل ما جاس — حرجم ولو كل المغاني تزني
٢٢٢ ولو ينشكي حبه على قب الافراس — عَيَّنْ ضحى الكون لايغزعني

٢٢٣ ولوينشكى حبه على رزق الأقواس عين نهار الحرب لايطعننى

٢٢٤ ولوينشكى حبه على الميت قد ناس يقوم من بين النصايب يونى

٢٢٥ لاشك فات الفوت من حكى الانجاس وباح الكنين وضيع السد منى

٢٢٦ وصارت محاريها بعيدات الأرماس وعيت شطون القلب لاترجهنى

وعلى الرغم من مرارة شكواه، وطول تأوهاته فإن القصيدة لم تجده نفعاً، ولم ترد عليه مافقد، فقد آلى عمه على نفسه ألا تعود إليه حتى لوتزوجت زوجاً غيره وطلقها كما يستدعى ذلك الحكم الشرعى جزاءاً لتهوره فى تصرفاته نحوها وعند ذلك عض إصبع الندم، وحصد مع المتسرعين أشواك مابذر، أما هى فبعد أن بلغت العدة الشرعية تزوجها، رجل غيره وعاشت بقية حياتها كأي إمراة فى ذلك المجتمع بعيدة عن أنظاره غير أن قصيدته بقيت ترن مسمعها كشهادة لبراءتها وطهر ثيابها وهكذا بقيت وستبقى سنين وسنين.

* * *

٢٨ - تزوج سبع نساء بعنز ولحاف

تتكالب الظروف على الناس فى بعض الأحيان إثر أزمنة الحروب الطاحنة كفانا الله شرها، حيث تعرك الرجال وتحصدهم حصداً، ولايبقى غير النساء والأطفال والشيوخ، وهذه الفئات هى غير القادرة على التحصيل الكافى، وربما عن الكسب جمعية، فتبقى فى حالة سيئة، إلى أن يشب أولئك الصغار، و يكونوا فى مستوى المسئولية فيحملوا أعباءها، وقد يمتنع القَطْرُ فتجدب الأرض، فى وقت كان إعتماد الناس فيه على ماينزل الله من غيث السماء، فتتوفر المياه وتخضر الأرض، فيدر الضرع ويحمل الفرع وتنتعش الحياة الإقتصادية، أما إذا شح السحاب بمائه لامنعه الله عنا فإن هذا البناء الإقتصادى سيختل توازنه وتتقوض سوار يه، ثم تنهار شرفاته واحدة بعد الأخرى، و يقع الناس فى ضائقة مالية خانقة، يضطرون معها إلى أكل مالا يجوز أكله، إستبقاءاً للحياة، حتى تمر هذه الزو بعة التى قد تستمر سنة أو إثنتين وربما أكثر، والمؤثر الثالث هو مايجتاح الناس فى بعض الأحيان من الأمراض الفتاكة أعاذنا الله منها والتى قد تذهب بأرباب الأسر والقادر ين على الكسب وإعالة أسرهم، فتبقى تلك البيوت بأيتامها وأراملها عالة على نفسها وعلى المجتمع الذى تكون خلية من خلاياه فى ظل الثالوث البغيض يبقى الناس فى ظروف معيشية صعبة قد يبلغ ضنكها حداً لايكاد يصدقه إلا من عاصر تلك الأوضاع، وشاهدها بأم عينه، حيث يقتصر غذاء الناس ليس على مايكفى للضرورة القصوى فحسب، ولكن لسد الرمق والمحافظة على الحياة بأدنى مقدار من وجبة بسيطة خلال الأربع والعشر ين ساعة، ليس كما يفعل الناس اليوم من الإهتمام بالعناصر الغذائية التى تحتويها الوجبة وعدد السُّعْرَات الحرار ية فيها أو اتخاذ الحمية «الرجيم» خوفا من داء السمنة، أما الأطفال فلم يكونوا يعرفون أنواع المأكولات الدسمة، والحلو يات الشهية بأشكالها، والعصيرات الطازجة بأنواعها وغير ذلك مما هو متوفر الآن، وإنما كانت أمهاتهم تلهيهم بطعام يسير بعد أن يتضوروا جوعاً، فينامون على لَحْسَةٍ من عصيدة أو شقفة من تمر ومافى مستواها، وأحيانا إذا طلب الطفل أن يشرب ماءاً، أجابته أمه

المشغولة بشئون بيتها نم يابنى، وسوف «يأتيك الغزيّل و يسقيك» فينام الطفل على أمل مجيئ الغزيل لسقياه!! فى هذه الظروف يزهد الإنسان بنفسه، و يرخص عنده كل غال، فى سبيل إنقاذ أبنائه من سيف الجوع الفتاك فتجد الرجل يعمل طوله يومه من أجل الحصول على وجبة طعام لأبنائه، وربما لنفسه فقط، فى هذا الوضع تتعطل النساء، وتبقى الحرائر و بنات الأجواد فى البيوت تتمنى الواحدة منهن أن تعيش بكنف رجل يؤمن لها لقمة العيش الكريم، مهما كان وضعه كبيراً كان أم صغيراً، ومن أى مستوى، المهم أن يؤمن لها مايكفل حياتها ففى هذه الحالة تتضاءل مهور النساء، وتختفي ظاهرة التفاخر بالملابس والحلى والعطور، وتنعدم مظاهر البهرج والزينة التى نشهدها الآن، و يُكْتَفى آنذاك بوجبة طعام واحدة مما تيسر للأهل والأوقارب والجيران، وذلك إحياءاً للسنة المطهرة، فى إعلان الزواج، فى وقت كهذا عاش «فهد» وحيداً فى قريته بعد أن ودعته زوجته إلى جوار ربها تاركة له إبنا صغيراً لايحسن العناية به و بدأ يكافح بمجدافه تيارات الصراع من أجل البقاء كغيره من الرجال لايملك من متاع الحياة سوى نخيلات عَيْدَانٍ فى بستان صغير، ينضح لها الماء على ظهر ثور قد أستاجره بجزء من تمر النخيلات، و بيت متواضع يحتوى على الأدوات الضرورية لعمل الطعام والقهوة، بالإضافةإلى لحاف من قماش قطنى أحمر تتوسطه قطعة قماش مشجرة، وحشو هذا اللحاف من القطن، ويملك إلى جانب ذلك عنزاً من سلالة جيدة يقتات من لبنها مع قليل من الطعام مما عنده، مع إبنه الصغير إذا أحضره من عند أخواله، و يعتنى بعلف هذه العنز، فهو يسرحها مع رعية الغنم الخاصة بأهل القريه لترعى الكلأ، ومتى عادت إليه فى المساء يكون قد حَضَّرَ لها عشاءها المكون من نوى التمر المكسَّروقد يضع للثور جزء منه مما جعلها تظهر بين الأغنام بمظهر يعجب الناظر إليها، وذات مساء خطر بباله أن يخطب له زوجة تملأ عليه الفراغ الذى تركه رحيل زوجته وأم ولده فذهب إلى والد الأرملة ذلك الشيخ المسن المثقل بمتاعب الحياة، و بعد أن شرب القهوة عنده فاتحه فهد في الامر قائلاً:

: لقد جئت إليك ياأبافلان، راغبا فى قربك إذا لم يكن لديك مانعاً!!
: حياك الله، ومانوع القرابة التى ترغبها منى ياأبا عبدالله؟
: إنني جئتك خاطبا ابنتك (....) زوجة لي.

: آه ... إبنتى كما تعرف إمرأة ثيب، ولاتزال فى عدة الحداد على زوجها الذى قتل مع الغزو يرحمه الله، فلابد أن نستشيرها فى الأمر بعد إنتهاء عدتها.
: لقد إنتهت مدتها منذ يومين، أليس كذلك؟
: إننى لاأذكر بالضبط متى تنتهى، لقد كبرت وخَرِفْتُ يابنى فلم أعد أتذكر بعض الأمور، ولم ألاحظ عليها تغير بهيئتها.
: أما نهاية الحداد فقد إنتهى بالتأكيد، لقد حسبنا منذ أن عاد الغزو، فأكلمت منذ يومين.
: لاأدرى، لاأدرى،... عموماً يابنى دعنى أستشيرها وآخذ رأيها وعسى أن يكون خيراً.
: إننى أريد رأيك أنت، فهو الذى عليه المُعَوَّل.
: إطمئن يابنى إننى «لن أزيد الملح إلاّ ملاحاً» إذا أخذت رأيها ستجد ماعندى، فأمهلنى ثلاثة أيام.
: لك ماتريد ياأبا فلان، وإننى أطمح فى وقوفك إلى جانبى، فاطلب منك الإن، وأستودعك الله.
: أبشر يابنى آه، ناولنى عصائي لأفتح لك الباب؟
: سأفتح الباب بنفسى، ولاداعى لأن تقوم وتتعب نفسك.
: أشكرك يابنى، فى أمان الله.

وغادر فهد المكان، ونادى إبراهيم إبنته واستشارها فى الأمر فقالت: إنه رجل فقير ليس فيه مطمع!! فرد عليها أبوها إنه رجل يستطيع أن ينفق عليك مثل بقية الرجال وربما نلنا من سيبه، وأنت يابنيه كما تعلمين وضعنا الراهن وفى نفس الوقت هو إنسان مستقر، وبقرب بيتنا إذ تستطيعين أن تخدمينا وأنت فى منزله، فأجابته، إذا كنت ترى هذا فليس لدى مانع وفى الموعد المحدد جاء فهد، وبعد تناول القهوة طلب من ابراهيم الرد.

: لقد أتيت ياأبافلان حسب الموعد الذى ضربته لي قبل ثلاثة أيام، فأرجو إعلامى بالنتيجة!؟
: النتيجة خير إن شاء الله، فعلى بركة الله.

: بـارك الله فـيك، وهذا بفضل مجهودك الذى لاينكر، والآن أطلب على ماتريد مهراً لإبنتك.

: ليس من عادتى أن أطلب مهراً لأى من بناتى، فهذا متروك أمره لك.

: دعـنـى أصـارحـك يـاأبافلان إننى لاأملك سوى لحافا جديداً، سأعطيه إياها، وعنزاً مـن خـيـار الـغنم تـكون لها، مع ماتيسر مما أستطيع عليه من ملابس وطعام، فالأمور لاتخفاك.

: ليس عندى مايمنع، وهى الآن تسمعك، بل وتراك من خلال فتحات الواح الباب، ماذا ترين فيما يقول؟

: فترد عليه بصوت خافت: في رأيك البركة.

: إذا توكل على الله، فلقد زوجتك إبنتى فلانه وموعدنا بعد صلاة الظهر لنأتى بإمام المسجد يعقد القران.

: إذاً، أستأذن، فإلى اللقاء فى الموعد المحدد.

وفي الـموعـد المـضروب تم عقد النكاح، والإتفاق على موعد الزواج وتم في حينه بـوليمـة مـتـواضـعـة إنـتقلت العروس إلى بيته، فاقتادت العنز إلى بيت أبيها لتسقيه من لبنها، وبـقـيـت هـي في بيت زوجها ترتاد منزل والدها بين الحين والآخر لتؤدي له بـعض الخدمات، ولتطمئن إلى صحته، تتناوب هذه المهمة مع إحدى أخواتها، ومضى على الزواج شهران وهما على مايرام، حتى إذا جاء أصيل ذلك اليوم القارس تعرض فهد لـرعية الغنم وعزل العنز التي ساقها، مهراً لزوجته، وأدخلها في بيته، وعندما إنتهى من تـنـاول وجـبـة العشاء أخبر زوجته بأنه طلقها، فطفقت إلى اللحاف لتأخذه مع الزائد مـن مـلابـسـهـا، وإذا اللـحـاف قـد أخـفـاه زوجها، عند ذلك خرجت إلى بيت أبيها بـمـلابـسـهـا الـتـي تـرتـديـهـا، ونـام فهد ليلته وقد حاز على عنزه ولحافه وهما رأس ماله المتـحـرك، وبـعد مرور شهر على هذا الطلاق طرق فهد باب أرملة ثانية مسنة يخطبها من نفسها حيث هي ولية أمرها فقال لها:

: لقد جئتك ياأم فلان خاطبا!! فماذا ترين!؟

: أمِثْلـِي يخطب!؟ إننى إمراة كبيرة وليس لى رغبة بالرجال ولايرغبنى من الرجال أحد.

: فيك البركة، إنك عندى أحسن من بعض الفتيات.
: أشكرك على هذا الإطراء، ولكنى إمرأة أحب أن أبقى فى منزلى، ولا أخرج عنه، يعنى «صَحِيْبَةْ».
: ليس عندى مانع أن تبقى فى منزلك وأنا أضوي إليك فى المساء.
: إذا ليس عندى مايمنع مقتنعاً بى وموافقا على أن أبقى «صحيبة».
: حسنا، إذا متى نأتى بالإمام يعقد لنا!؟
: فى أى وقت تريده.
: خير البر عاجله، هذا اليوم وليكن فى منزلى.
: ليكن فى بيت جارنا فلان، فأخبره بالأمر.
: إن شاء الله.

وخرج فهد وأخبر جار المرأة بذلك، وعندما اجتمع القوم وحضر الإمام مع الشهود سأل الآذن على أى شيئ أعقد النكاح؟

: فاشترطت عليه العنز واللحاف، وماتيسر غيره، فوافق فهد على ذلك، وجرى عقد الزواج، وتمت الدعوات بالبركة والتوفيق، وفى المساء عزل فهد العنز إلى بيت زوجته الجديدة، وأحضر اللحاف مطويا فى أبطه، وتم الزواج فى تلك الليلة، على أبسط مايكون من التكاليف، وصار فهد يذهب لفلاحته فى يومه ويعود إلى بيته ليستريح فيه بعض الوقت ثم يُعَرِّجُ على زوجته فى المساء لينام عندها، واستمر على ذلك إسبوعين بعدهما طوى لحافه وأودعه فى بيته وفى المساء عزل العنز وأوصد عليها الباب، وأبلغ زوجته بطلاقها بعد أن حاز رأسماله الثمين!! ومكث فى بيته وحيداً فترة شهرين بعدها تقدم لخطبه إمرأة ثالثة فقصد أخاها الأكبر فى بيته، وبعد تناول القهوة فاتحه فى الموضوع حيث قال:
: لقد جئتك راغبا في قربك ياأبافلان.
: بودك أن تشتري هذا البيت المجاور الذي قيل أنه معروض للبيع ويقال أنه محدود بأربعين ريالاً!؟
: لا، إننى لست بحاجة إلى بيت فعندى مايكفينى، وإنما أنا بحاجة إلى ربة بيت!!

: آه، فهمت الآن، ألم يقولوا بأنك راجعت بزوجتك السابقة؟
: هذا غير صحيح، لم أراجع فيها ستر الله علينا وعليها!!
: لقد سمعت ذلك ولاأدرى!؟
: والآن جئتك خاطبا أختك، إذا لم تمانعوا فى ذلك.
: حاشا لله، ليس فيك مايثلبك غير أنك...؟ وسكت.
: أنى ماذا!؟؟
: أنك مزواج مطلاق، وهذه الخصلة غير مرغوبة بالرجل فالناس لايزوجون يناتهم لشخص مِذْوَاق!!
: لم يكتب الله لنا دوام العشرة مع من تزوجت من النساء وهذه إرادة الله وقدره.
: آه ... ثم إن أختى لها نصيب فى الرأى بأمر زواجها، فدعنى أستشيرها قبل أن أعطيك الجواب.
: متى أعود إليك لأجد الإجابة عندك؟
: عد إلَىَّ بعد يومين.
: إذاً أستودعك الله.
: فى أمان الله.

وخرج فهد من المنزل واستدعى أخته ليأخذ رأيها فى الموضوع، وعندما تلكأت، أقنعها بأنه قد لمس من الرجل الرغبة فى مصاهرتهم، وقد برر سبب طلاقه لامرأتيه السابقتين بألامور وجيهة، عند ذلك رضيت واقتنعت بوجهة نظر أخيها فوافقت على الزواج، وتم عقد القران والزواج فى الموعد المحدد على النمط السابق بوليمة بسيطة وشيئ من الملابس بالإضافة إلى العنز واللحاف، حيث أدخلت العنز إلى بيت أخيها وامتدت الحياة الزوجية مايقارب السنة إلى أن جاء ذات يوم لم يجد الزوجان فى البيت شيئاً يأكلانه، وضاقت على الزوج الأرض بعرضها وطولها، فلجأت الزوجة إلى بيت أخيها لتحضر لهم بعض الطعام عند ذلك غضب زوجها لهذا التصرف، وضاق ذرعاً بهذا الظرف العصيب فلم يجد أمامه حلاً سوى أن طلق زوجته بعد أن إستولى على العنز واللحاف، وبقى زواج فهد وطلاقه حديث الناس، وصارت كل إمرأة يتقدم لها ترفضه، لكن ضغط الحاجة جعل أم الأطفال الأيتام ترضى به زوجاً لها،

رجاء أن تنال مما عنده ماينقذ أبناء هامن غائلة الجوع غير أنه لم يمهرها بغير رأسماله المعهود، العنز واللحاف، فأبقاها فى بيتها مع أطفالها يأوي اليها عند المساء يتشاطرون لبن العنز مع قليل من الطعام، ومرت الشهور الثلاثة الأولى بسلام، غير أنها أصيبت بخيبة أمل عندما لم تجد منه سوى القليل من الطعام بالإضافة إلى اللبن خلافا لما كانت تتوقعه منه، فقد دخل عليها المنزل ذات يوم وهى تغنى على الرحى القصيدة التى منها.

٢٢٧ لاصار دلوك ماتموحه شماله — ترى النشامى ينسفونه على الجال

٢٢٨ الحمرة تدرك معيشة عياله — بس الرجل يبغى منه باق الأحوال

عند ذلك فهم منها أنها غير مقتنعة بالمعيشة التى يؤمنها لها، فأخذ عنزه ولحافه، وطلقها، وبقى وحيداً فى بيته مايزيد على الشهر، ثم خطب تلك المرأة المسنة من إبنها حيث طرق عليهم الباب، فأستقبله، وقدمه إلى غرفة القهوة وبعد أن صب له فنجان القهوة قال:

: لن أشرب هذا الفنجان حتى تعطينى ماجئت من أجله!

: أتريدنى فى مساعدة معينة فى الفلاحة؟ أوفزعة سريعة فأنا مستعد لذلك.

: لا، كثّر الله خيرك لم أرد مثل هذه الأمور، وإنما أطلب منك شيئاً أهم من ذلك كله.

: إننى لاأملك شيئاً مهما كما تذكرا؟ فكلما عندى أشياء لا تستحق الذكر.

: إنه شيئ فى مقدروك أن تفعله.

: إذا كان كذلك فلن أتأخر عنه أبداً، إشرب فنجانك وأبشر بما يسمح نفسك.

: إن مطلبى أن توافق على زواجى من أمك.

: آه .. أها .. أهاه .. ويدوى صوته ضاحكا ثم يرد قائلا إن أمى عجوز ليس لها نفس بالرجال، فقد إنقطعت للعبادة تصلى لربها، فاطلب غير هذا المطلب.

: لا تنس إنك أعطيتنى، ولا أعتقد أنك تقول لابعد نعم!!

: أحسبك تريد شيئاً غير هذا، أما هذا فلا!!

: وحتى هذا باستطاعتك ألاّ تردلي فيه مطلباً.

: لقد قلت لك أن أمى كبرت وليس لها رغبة بالرجال.

: إننـى أريدهـا أن تؤانسـنى فى وحشة البيت وتملأ عليّ فراغ المنزل، وأنت ولله الحمـد لـديك زوجتـك وأولادك، فلا تـقـل لا حتى تأخذ رأيها فى الموضوع فربما توافق؟

: إنا لله وإنا اليه راجعون يقول ذلك بتثاقل وتأفف.

: توكـل عـلى الله يـاولـدى وخـذ رأيهـا، فربما لديها رغبة وأنت لا تعلمها يمنعها عن إظهارها الحياء.

: أمرى إلى الله، دعنى أناديها وآخذ رأيها.

و ينـادى أمه و بعد أن حضرت متلفعة بثوبها الفضفاض وخمارها فوقفت خارج الباب واجابت.

: نعم يابنى ماذا تريد؟

: ياأماه هذا فهد، أتعرفينه؟

: نعم أعرفه وأعرف أثره فى الأرض، ونعم، رجل وابن رجال ومن «حمولة طيبة».

: لقد جاء إليك خاطبا، وبقربنا راغبا، فماذا ترين؟.

: خـ .. خـ .. خاطبا؟ يريدنى أنا؟ ياوليدى أنا عجوز كبيرة ياالله خاتمة خير.

: أسـمعـت مـاتـقـوله لـك؟ لقد أخبرتك قبل ذلك، والآن أنت تسمع رأيها بأذنيك، فلاتحسب ذلك التشدد من عندى!؟

: يـاأم فـلان، إنـنـى أريـد مـن يؤانسنى فى بيتى، و ينظف فراشى و يطبخ طعامى، وأنـت لا تـزالين شـابـه، وأحـسـن مـن بعض الفتيات أما تسمعين المثل الذى يقول «جرد البريسم ولاجديد القطن»

: دع عنك هذه الأمثال، فأمي ليس لها رغبة فيما تريد أنت!؟

: لا، أصبر يـابـنـى لا تتعجل إن معه حق فيما يقول «جرد البريسم ولاجديد القطن» إنـنـى والله أحـسـن وأقـوى مـن بـعـض الـشـابات فإذا جاءك الرزق إلى حدك فلا ترده» !!

: إننى أفهم من كلامك ياأماه أنك موافقة؟

: واقتربت من إبنها هامسة فى أذنه، إن زواجى منه مما قد يخفف عنك العبء يابنى، وأسليه فى بيته وأسلي نفسى، فلقد يضيق صدرى بعض الأحيان خاصة بالليل عندما تنامون والأرق يملأ جفونى، فلا أجد من أتحدث معه.

: إذا مادمت قد وافقت ياأماه، فليس لدى مانع، إذاً على بركه الله.

: متى يمكننى أن أحضر الإمام ليعقد لنا؟

: متى تشاء، وأى وقت تريد!!

: الآن فخير البر عاجله،

: على بركة الله.

وذهب فهد ونادى إمام المسجد وشاهدين معه، وتناولوا القهوة وتم عقد النكاح، ودفع المهر المعهود وتم الزواج فى تلك الليلة، وانتقلت إلى بيته، فاهتمت بالمنزل من ترتيب وتنظيف، وتألقت تلك الليلة فى ثيابها الجديد التى كانت لديها، وعادت إليها روح الشباب وحيويته فلم يصدق ابنها ماتراه عيناه، من أن أمه الوادعة الخاملة فى زواية المنزل تصنع «السفيف» من الخوص لتعمل منه القفف والزنابيل، وقد صارت بهذه القوة والنشاط والتأنق، والروائح العطرية التى يُشَمُّ أريجها من مسافة بعيدة، فبارك هذا الوضع وأستمرت الحياة الزوجية مايزيد قليلا على الشهرين، بعدها بدأت علامات الفتور تبرز على سطح العلاقات بينهما حتى وصلت فى الشهر الثالث إلى درجة الصفر، عقبتها الخطوة الحتمية، وهى الطلاق، واستعاد مهره المعروف، وذلك لاصطياد ضحية جديدة بهذا المهر الزهيد، وبعد أن طلقها عض إصبع الندم، ولم ينفعه ندمه، وتكدست الأوساخ والأتربة فى المنزل بفعل ماتذروه الرياح منها، ولم يجد من يأوى إلى بيته لينظفه وينظمه.

عند ذلك ضاق ذرعاً بهذا الوضع فذهب يبحث عن إمرأة مسنة أخرى، وأتى ولي أمرها، فلمح له عن رغبته فلم يجد منه معارضة، خاصة إذا هى وافقت على ذلك لاسيا وأنها إمرأة مسنة أمرها يكاد أن يكون بيدها، وأخبره أنها متى وافقت على ذلك فإنه مستعد لعقد قرانها، وهنا توجه فهد إلى مكان تجمع النساء بالمشراق حيث يجلسن بالشمس من الصباح حتى أذان الظهر، وينتقلن إلى مشراق آخر بعد صلاة العصر، وحتى غروب الشمس وكل واحدة منهن تقوم بعمل معين أثناء جلوسها، فمنهن من

تخيط الملابس، وأخريات يقمن بعمل الحصر والزنابيل والقفف وغيرها من خوص النخيل، والبعض يقمن بغزل الصوف وإبرامه خيوطا طويله، وحياكة الأنسجة الصوفية أى أن هذا المشراق أو الظل بالإضافة لكونة مكانا للدف بإشعة الشمس أو وارف الظلال فهو ورشة عمل ومكان للتسلية وتبادل الأحاديث، ولم يجد فهد مكانا يستطيع أن يخطب فيه تلك المرأة سوى بالمشراق حيث جاء وسلم على النسوة المتحجبات، وأشباه المتحجبات ممن تلثمن بخمرهن، فرددن عليه السلام، وناداها بصوت منخفض.

: تعالي، إن لي إليك حاجة.

: إننى حاضرة، فالقت بإبرتها والقماش الذى تخيط به وقامت إليه وعلى مسافة غير بعيدة ألفته واقفاً.

: صبحك الله بالخير ياأم فلان.

: وأنت بمثله ياأبافلان.

: إن لي لديك حُوَيِّجَة وأرجو أن تقضيها لي.

: أبشر، بسعدك، عسى أن يكون لديك ثياباً تريد منى أن أخيطها لك بسرعة، وعسى أن تكون من نوع «المُرَوْدَنْ»! لاننى أعرف أنك تراودك روح الشباب بين الحين والآخر، وتحب أن تلبس ثياب الشباب، لأنك «نَدُوُخْ» !! تقول ذلك وهى تضحك.

: أما روح الشباب فهى بين جوانحى، «والنَّدْخُ» من طبعى أولست شاباً فى عينك!؟ سامحك الله ياأم فلان!! أمّا حاجتى فليست بالثياب، وإنما شئ أهم من الثياب؟

: وماذا تريد منى إذاً؟

: لقد أتيت عمك أبافلان وطلبت منه يدك، فردنى الى رأيك.

: تطلب يدى؟ ماذا تريدبي؟ إننى إمرأة كبيرة، وربما تجد غيرى من النساء، أما أنا فكما يقول المثل «لازين بالغرة ولاشحم بالسرة»!!

: فيك البركة ياأم فلان وأنا راضى بك إن لم تكرهيني!؟

: حاشا لله ياأبافلان، ليست كراهية لك، ولكن كما تعرف لدى إلتزامات نحو

هؤلاءالأيتـام ابناء إبنتى وترانى أتكسب من الخياطة من هنا وهناك وأضع اللقمة فى أفواههم، وأخشى إن ارتبطت فى بيت زوج أن أنشغل عن إعالتهم، وهم أمانة فى عنقى.

: إننـى لـن أمنعك من مزاولة مهنة الخياطة، وأبناء إبنتك أعتبرهم أبنائي يأكلون مما نأكل و يبيتون حيث نبيت.

: ثم إنك بصراحة رجل كثير الطلاق والزواج وهذا ولاشك مما يقلل رغبة النساء فيك، لأن كل إمرأة تحب أن تبقى مع زوجها أطول مدة، وربما العمر كله فالمرأة ليست أرضا تزرعها هذا العام قمحاً، وفى العام القادم ذرة، ومابعدها دخنا!

: يـاأبنـة الأجـواد، كل الرجال يتزوجون و يطلقون مثلى وربما أكثر ولكنى «مقرود» وسيئ الحظ، «شعرتى بيضاء» بين الناس.

: ثم إنك رجل فقير ليس عندك كما يقولون غير تلك العنز واللحاف، ونخيلات تمرها لا يملأ الزنبيل، إنك كما يقول المثل «أنت بحوض والماء بحوض»

: كل النـاس مثـل حالتـى، أجل، إنهـم مثـلي وأقـل منـى، «إي بالله يأكلون المتلاصقات»

: وهب أننى وافقت على الزواج ماذا ستمهرني!؟

: إننـى سأعطيك تلك العنز الذر ياء، التى توازى حلبتها حلبة الناقة، وذلك اللحاف الذى يضاهى أنعم أصنـاف الحـر ير، بالإضافة إلى ماتيسر من عشاء للجماعة والملابس التى «تنولها حبالى»!

: عليك أن تشاور نفسك، وربما بحثت ووجدت غيرى فالنساء ملء البلد، وربما تجد فى إحداهن مايملأ عليك فراغ نفسك.

: لم آتك هنـا إلابـعـد أن استقر رأيي، ولن أذهب من هنا إلا بعلم بيِّنٍ أبنى عليه مستقبلى.

: تقف ساهمة ثم تستأنف، إذا شاور نفسك وأنا سأفكر فى الأمر، وعد إلي بعد يومين.

: من ناحيتى أنا، فلم أتوجه إلى هذا المكان إلا بعد أن عزمت وتوكلت على الله، أما أنت فالموضوع واضح «فأنا لك والشر لاينالك»!!

: إذا، توكل على الله، أنا موافقة، تقول ذلك بعد أن أطرقت برأسها حياءاً وعاد فهد إلى منزله، بينا عادت هي إلى صويحباتها اللواتي أمطرنها بوابل من الأسئلة عن هذا الحوار الطويل الذى دار بينها وبين فهد، وعما إذا كان لهذا الحديث علاقة بإنسان معين أو مشروع زواج منتظر، حيث أصبحت زواجات فهد حديث الوسط النسائي، ولكنها تجابه أسئلتهن بالنفي مخافة أن ينتشر خبر قبل أن يتم شيء، وتحاول صرف النساء عن هذه الأسئلة بشتى الطرق، لكنهن علقن بها لتخبرهن بفحوى الحديث الذى تم بينهما على مقربة منهن عند ذلك قالت لهن سيتبين الخبر فى المستقبل القريب، وفهمن من كلامها أنه يتعلق بموضوع زواج، وهنا تناولت السنتهن زواجات فهد وطلاقاته بالشذب والتقطيع حينا، وبالدفاع عنه وإيجاد المبررات له أحيانا أخرى، حتى رُفع آذان الظهر، عندها قال الجميع الله أكبر، الله أكبر من كل شئ وطوت كل واحدة منهن العمل الذى بيدها ورجعت قافلة إلى منزلها.

أما فهد فقد أدى صلاة الظهر فى المسجد، وبعد أن تفرق المصلون صافح إمام المسجد وأمسك بيده قائلاً له:

: أسعد الله مساءك، تفضل معنا لنشرب القهوة عند فلان.

: إن لدى بعض العمل وسأذهب لإنجازه الآن ولست بحاجة للقهوة.

: يمكنك أن تنجزه فى وقت لاحق، وإذا احتجت مساعدتى فسوف أساعدك عليه.

: إن لدى بعض النخل قد تشقق طلعها وتحتاج إلى تلقيح بالبأر قبل فوات الأوان وفساد طلعها.

: إننى مستعد لإتمام عملك بنفسى، هيا معنا يمكن أن نحتاج إليك هذا اليوم.

: غريبة منك هذه الفزعة، آه.. عسى أن يكون عندك نية عرس؟ يقول ذلك الإمام وهو يبتسم.

: لابد، من شئ كهذا!؟ يقول ذلك والإبتسامة العريضة تكسو محياه فى حين كان يقبض أصابع يده وينشرها.

إذاً على بركة الله، فتلقيح البشر أهم من تلقيح النخل.

: ويصل الإثنان إلى منزل عم المرأة، ويطرقان عليه الباب فيخرج إليهما، ويرحب

بقدومها، و يدخلها إلى غرفة القهوة و يشرع فى عمل القهوة، مردداً بين الحين والآخر كلمات الترحيب فيخبره فهد مادار بينه و بين قريبته، وأنها قد وافقت على الزواج منه، فعند ذلك يندب لها عمها أحد الصبية لطلب حضورها، وعندما حضرت سألها عن مدى موافقتها على طلب فهد، فأخبرته بعدم ممانعتها، فطلب الإمام إحضار إثنين من الشهود ليتم عقد النكاح، فَرَمَزَ فهد وأحضرهما وتم العقد وضرب موعد الزواج فى الليلة القادمة وتم على الطريقة المبسطة السابقة، وانتقلت إلى بيته، فلأت عليه الفراغ الذى تركته سابقاتها، واستمر هذا التفاهم مايقارب الستة أشهر، وعند ذلك إنتابه شعور لم يسبق أن أَلَمَّ بتفكيره بعد أن احتك بالاطفال الذين مع زوجته، بأنه فى كل تلك الزيجات والطلاقات التى ملأبها سمع المجتمع حديثا لم يحصل أن حملت أى منهن عدا زوجته الأولى التى تركت له ولده الوحيد الذى يعيش عند أخواله حينا وعنده بعض الأحيان، وأحب أن يرزقه الله بذرية يملؤن عليه المنزل مرحاً وسروراً يداعبهم، و يفرح بقربهم، يحيون ذكره، و يدعون له خلف كل صلاة، ولكن أنَّى له ذلك وهو لايتزوج غير النساء المسنات أما الشابات فلم يلبثن عنده سوى مدد قصيرة، وأكثر من يستمر عنده اللاتى بلغن سن اليأس، وهؤلاء لايرجى منهن إنجاباً فقال: «بعد أم عبدالله، خذ وأثابك الله»!! عند ذلك قرر طلاق زوجته للبحث عن إمرأة شابة، أو فى سن الإنجاب على الأقل، ومع صباح ذلك اليوم الخريفى الحار، أبلغ فهد زوجته بطلاقها، فغادرت منزله بعد أن أوصد الباب على لحافه وسرَّح عنزه مع رعية الغنم، فعادت إلى منزلها غاضبة يعصر الحنق قلبها، و يكتم الغم نفسها وعادت إلى مثيلاتها في ظل تلك الأثلة الكبيرة ومدت لسانها مشهرة به، فتقاذفت السنتهن سمعة فهد يعتورنه كمناشير النجارين، أما هو فقد قرر ألا يتزوج بعد الآن من إمرأة مسنة أبداً، حتى ولو بقى بدون زواج طيلة حياته، و بقى مدة شهرين فى دور النقاهة لايخطر بباله التقدم لأحد، يتحين الفرص علّه أن يجد واحدة لا تزال فى مرحلة الإنجاب وتقبل به زوجاً لها، وفى نفس الوقت حتى تهدأ العاصفة التى أثارتها زوجته السابقة مع صويحباتها وفى هذه الأثناء، قدمت إمرأة من أهل البلد كانت قد تزوجت فى بلد مجاور وتوفى زوجها، تاركا لها غلام فى سن الرضاع وأقامت

بجانب أختها، وقد رآها فهد فرصة سانحة ليتقدم إليها قبل أن تلوث النساء فكرها، و يغسلن دماغها ضده في الحكايات والقصص التي منها الواقعي، والكثير منها مختلق هو وليد مجالس النساء في الضحى والعصر بمشراق الشتاء أو ظلال الأشجار في الصيف، فبادر إليها فهد وخطبها من نفسها وأختها حيث لاولي لهما، وكانت أختها لديها فكرة كاملة عنه، ولذلك لم تجبه إلى طلبه ولم تترك لأختها فرصة إعطائه علم يستند عليه، فوعدنه أن يعود إليهن بعد يومين، يكن خلالها قد فكرن جيداً في الأمر، وفي الموعد المحدد عاد إليهن يحدوه الأمل، وتدفعه الرغبة وبعد السلام ورد التحية تحدث قائلاً

لقد أتيت حسب الموعد الذي بيننا، وأرجو أن تكون النتيجة الموافقة.

: والله ياأباعبدالله، ليس فيك مايجعلنا نعافك، رجل من خيرة الرجال وإبن «حمولة» ولكن فيك تلك الخصلة التي سمعتها عنك وهي صفة غير مقبولة لدي ولدى بنات الأجواد.

: عسى ألا تكوني قد أخبرت عني بأمر سيئ لاسمح الله!؟

ليس كما تظن، وإنما الطريقة التي لاتعجبني فيك هي كثرة الزواج والطلاق.

: كل الرجال يتزوجون و يطلقون، حتى يجد الرجل المرأة التي تملأ عينه، وتشغل فراغ نفسه، وأنارجل «عيني شرهة» ماكل إمرأة تملؤها، وتمثل بهذا البيت:

٢٢٩ شرهة يدي ماكل غصن تَعَصَّاهْ ولاهي على عوج العصي محدوده

: أنا معك في أن الرجال يتزوجون من النساء و يطلقون، ولكن ليسوا مثلك، فالواحد منهم يتزوج واحدة أو إثنين أو ثلاثاً وقد تصل في أقصى الحالات إلى أربع، وهذا نادر الحدوث، أما أنت ففي مدة وجيزة تزوجت فيها ست نساء غير أم ولدك وطلقتهن.

: وأنت ستكونين السابعة إن شاء الله،!! أليس كذلك؟

: هذا الأمر بيد الله، ولاإعتراض على إرادته.

: بيد الله ثم موافقتك.

: يعلم الله إنني خائفة من مصير قد سلكه من سبقني. وتتدخل أختها هامسة في

أذنها تعلمين ياأخَيَّةَ الوضع الذى نحن فيه، والذى نحتاج فيه إلى من يساعدنا على لقمة العيش، فما عليك لو جربتيه وربما يكون لك نصيب بالبقاء معه، ولعله قد «رَكَدَرْمِيُهُ» بعد تلك العجائز اللواتى خيبن أمله.

: فترد عليها بهمس مماثل: إذا كنت ترين ذلك فليس لدى مايمنع فلعل بكنفه إنقاذ لهذا الطفل الصغير من غائلة الجوع.

: إذاً توكلى على الله.

: ماهذا الهمس الذى لاأسمع منه سوى وشوشة لا أميزها؟ وعسى أن يكون لصالحى!؟

: إذا إفترضنا أننى وافقت فبماذا ستمهرننى؟

: المهر جاهز، عنز كأنها المُهْر، تساوى حلبتها لبن البكر وفراش «الماهود» وماتيسر غيره.

: إننى أريد منك بالإضافة إلى ذلك، عشرة ريالات «فرنسية» وملابس كذا وكذا، وعباءة «دربوجة».

: إنه لمهر غال، لم يسبق أن دفعته إلى أى من نسائى السابقات؟ فمن أين لي عشرة ريالات وقيمة العباءة و.... و...؟

: إذا رضيت بهذا المهر فأهلاً وسهلاً وإن كنت ترى أنه كثير عليك فالله يستر كل منا فى حال سبيله.

: عند ذلك أطرق ساهما وهو يحدث نفسه قائلاً: إن الدراهم يمكن الحصول عليها، لكن هذه المرأة إن فاتتنى فالحصول على مثلها صعب لاسيما أننى قد إشتهرت بين الناس بكثرة الطلاق، فقال: لقد قبلت هذه الشروط أحمل الأثقال وأنا «جمل المحامل» فمتى أعود إليكن لإتمام العقد؟

: إذا أحضرت ماأشرت إليه فهلم إلينا، وسيعقد لك إمام المسجد نيابة عنا.

وأستأذن فهد وخرج وتدبر أمره وبعد ثلاثة أيام أحضر معه ماطلب منه وجاء بإمام المسجد وشاهدين فى بيت الجار للنسوة وتم عقد القران على الأشياء العينية المطلوبة بالإضافة إلى العنز واللحاف، وتم الزواج فى الليلة التالية إنتقلت العروس فى صبيحتها إلى منزل فهد، وبدأت بترتيبه وتنظيفه، وفى اليوم الثانى حدث مالم

يكن في حسبان فهد، ولم يتصور أن زوجته تقدم عليه، فعندما ذهب لأداء صلاة الفجر في المسجد مع الجماعة عمدت إلى العنز فذبحتها، ثم عادت إلى اللحاف فمزقته بالسكين إرباً إرباً، ثم وضعته في ساحة الدار الخارجية واشعلت فيه النار، ثم عادت إلى العنز فجزرتها، وقطعتها أوصالاً وعندما عاد من الصلاة باشرته بقطعة من كبدها مشوية على النار، فدهش عندما عاد وشم رائحة قتار الشواء في بيته، وهو لايعلم أن في بيته لحم، ولما أعطته قطعة الكبد أخذته الدهشة وسألها:

: من أين لك هذا اللحم؟

: إنه من كبد عنزي!!

: فثار واشتاط غضباً وقال:

: عنزي!؟ ومن قال أنها لك!؟

: إنها عنزي، و هي جزء من مهري!!

: ولكن ... ولكن ... العنز ليست لك وحدك!؟

: بلى ... إنها ملكي وتحت تصرفي.

: ولماذا تذبحيها؟

: أنا حرة في التصرف بمهري!! أذبحها، أبيعها، أفعل بها ماأشاء!! ولكن عليك أن تأكل هذه النتفة من الكبد قبل أن تبرد.

: وأين النفس التي ستأكل من كبد «الذُّريَّا»؟

: كل منها وتوكل على الله، فشاتك لك أو لأخيك أو للذئب!! تقول ذلك بلهجة اللامبالي بالأمر.

: إنني أشم رائحة نار بقطن «عُطْب».

: إن رائحتها في الساحة الخارجية، تقول ذلك بتجاهل.

: وعندما أطل عليها وجد النار مشتعلة بأشلاء اللحاف، فعاد إليها مسرعاً وهو يتمتم بصوت غاضب، وحتى اللحاف أشعلت به النار، فأسرع يبحث عن عصا ليضربها به وعندما إنقض عليها تصدت له قائلة:

: لاتفكر بأنك ستضربني، إنني دون نفسي، سأدافع عنها بكل ماأملك من قوة،

إننى مع الصواب لم أتصرف إلا فى حقى، أليست العنز واللحاف جزء من مهرى!؟ ولي حق التصرف فيه، وبقية مهرى أعمل به ماأشاء.

: وعاد إلى تفكيره فأردف، ولكن لماذا تفعلين هكذا؟
أتنبحين العنز وتحرقين اللحاف ونحن بأمس الحاجة إليها؟

: لسنا بحاجة إليها، إننى مستعدة للنوم على حصير أو حتى على الأرض من أن أنام على لحاف تقلبت عليه مجموعة من النساء قبلى، أما العنز فسوف بغنينا الله عنها.

: لقد نكبتينى ياإمرأة، قوضت بيتى وهدمت مستقبلى.

: إذا كنت لاتريدنى فعليك أن تطلقنى هذا أقصى ماعندك من عقاب. أليس كذلك!؟

: أطلقك بعد أن خربت بيتى وسحقت معنويتى؟

: إن هذه العنز المشئومة وهِرْسَ ذلك اللحاف الحقير اللذان إستحللت بها أعراض بنات الأجواد بزواجك منهن فترة من الزمن مستغلاً هذه الظروف السيئة التى يمر بها الناس تم القضاء عليها على يدى!! فبعضكم أيها الرجال إنتهازى تسيطر عليه الأنانية فلايترك فرصة إلاّ إستغلها لنفسه «بالمليان» ولكن طريق الإستغلال قصير سيصل إلى الطريق المسدود على يدى وأيدى أمثالي.

: واخيبتاه..!! لقد ذهبت ثروتى، وتخلخلت مكانتى بين الناس.

: أما تستحى أو ترعوى يارجل!؟ إننى سأريحك من شر السنة الناس، وأريحك من نفسك، وسأشد أزرك وأقف إلى جانبك فى سبيل الحصول على لقمة العيش الكريم من فلاحتك المتواضعة، فإن أردتنى على هذا الأساس فأنا زوجتك، وإن عفتنى فطريق غيرى مفتوح.

: كان مفتوحاً عندما كانت لي أجنحة أحلق بها، أما الآن فإننى مهيض الجناح، بل مقصوصه، ولن أستطيع حراكاً مدة من الزمن حتى ذلك الحين يغير الله من حال إلى حال، وتنقشع الغمة عن الناس، ويرتفع مهر بنات الأجواد، ألا تعلم أن بعضاً من نسائك اللاتى تزوجت بهن كانت مهورهن ليست بهذا المستوى؟ لقد كانت مهورهن، النخيل والإبل والنقود والحلي الذهبية والفضية، والملابس الحريرية، وغيرها، وغيرها؟

: ذلك الوضع فى غير هذا الوقت!؟

: أنـا أعرف أن وضعهن في غير هذا الوقت، فسبحان الذي يُغَيِّرُ، ولا يَتَغَيَّر ولربما أن هـذه الحـالة التي يعيشها الناس عقوبة لنا من رب العالمين على ماكنا نسرف فيها مـن المغـالات بـالمهور والبـذخ فـي الـولائم، والبهرج الزائد في الحفلات في زمن

: مـضي الأسباب التي تعاقبت على الناس إن عقاب الله يأتي بتأثير هذه المسببات، فـمنـذ أن تـزوجـت إبـنـة الـفلان قبل عشر سنوات، ونحروا في زواجها مجموعة من

: الإبـل، ونـشـرت الـدراهـم عـلـى الحـضـور، ودُعِيَ إلى الحفلة أهل القرى المجاورة، وبـالغوا في الطلبات من الملابس وغيرها، وباهوا بالحلى التي أحضروها، وفاخروا بالترتيب الذي عملوه، منذ ذلك الحين عاقبنا الله بما ترى.

: إيه ... لا تذكريني بالماضى يابنة الأجواد.

: سـأذكـرك فيه اليوم وغداً ومن لايَتَّعِضُ و يعتبر مما يرى فلا خير فيه، فالأيام تتقلب والعـجـلـة تـسير، ومـن كـان فى نعمة ورغد من العيش فلا يأمن دورة الأيام عليه وانـتـزاع الـنعمة من بين يديه بأى سبب من الأسباب، كالحرب والمرض والجدب، أما سمعت بيت الشاعر.

٢٣٠ لاتـامـن الـدنـيـا تـرى لـه جوارى بـواقـة مـاتـنـو مـن فـى وعـدهـا

: كـفـى ... كـفـى ... ياإمرأة!! لقد أقتنعت ولاأحتاج إلى مزيد، يخلف الله عَلَيَّ عنزى ولحافي.!!

: و يعوض الله بنات الحلال مما فقدن، والآن خذ الكبد لقد بردت فى يدى.

وشـاء الله أن تـبـقـى هـذه المرأة زوجة له، تسنده وتشد عضده فى أعمال فلاحته فترة من الزمن فزاد حبه لها والتصقت به حتى وافاها الأجل دون أن تنجب منه.

* * *

ايضاح معاني الأبيات الواردة باللهجة العامية

١ ـ البادى: سكان البادية، راع الرسوم: سكان الحاضرة، ياما: طالما، قصر الصفا: قصر الحكم بالرياض، العيس : الركائب من الإبل القوية الصلبة البيضاء.

يقول الشاعر: لقد خضع للملك عبدالعزيز أهل البادية والحاضرة بالولاء وتجسيداً لذلك فقد جاءوا إلى الرياض على ظهور مطيهم لإعلان ولائهم.

٢ ـ صدور: مغادرات المكان، ورود: قادمات، المحال: البكرات الكبيرة التى يخرج عليها الماء من البئر، مما ريس: المسرعات بعد إنقطاع رشاءها عنها أو خروجه عن فلكها.

يصف الشاعر هذه المجاميع الواردة والصادرة من وإلى قصر الملك عبدالعزيز بالرياض بأن منها من قضى حاجته ومنها قادم لتوه مسرعاً لبلوغ هدفه.

٣ ـ دومى: دائماً، المهار: جمع مهر، الفواعيس: مؤخرة رأس الفرس، وهى من ميزات الخيل الأصائل.

يصف الشاعر جزالة عطايا الملك عبدالعزيز وهباته بأنه يعطى عطاء من لايخشى الفقر، ومن ضمن عطاياه الخيول الاصائل وهى التى لايعطيها غير الملوك وذوى الشأن.

٤ ـ طلعته: الضمير يعود على الملك عبدالعزيز رحمه الله براى القلم: كناية عن الكتبة الذين يدونون أوامر إعطياته وهباته للوافدين يبين الشاعر أن جلالته منذ أن تسنم العرش وطلع على الناس ويمينه تلوّح لقاصديه بالخير، وتبذل للوافد والمقيم فى بلده تصله أعطياته، حتى تعب من كثرة العطايا أولئك الكتبة وكلت أيديهم من تسجيل تلك الهبات وتعب معهم القرطاس الذى تكتب به تلك المخصصات.

٥ ـ نحر: إتجه إلى، جسر بغداد: كناية عن المدنية.

يتمنى الشاعر لو وصل إلى مدينة بغداد بالعراق، لينعم بما يسمع عنها ومن ضمن ماسيتمتع به اللباس الجديد والمعيش الرغيد.

٦ ــ يتنصاه: يذهب إليه، شغموم: الصلب الجرئي، الأولاد: الفتيان، اللى: الذى، ليامنه: إذا أنه، تغرب: ذهب إلى بلاد الغربة.:

يرد الشاعر على البيت السابق بأن بغداد لايذهب إليه سوى الفتيان الذين يتصفون بالقوة والجرأة والصلابة الذين إذا ذهبوا لديار الغربة عادوا بالفائدة.

٧ ــ خلك: إبق، كداد: فلاح، المجر: المنحاة التى تساق بها الإبل لنزف الماء من البئر، المعيد: البعير الذى ينزف عليه الماء من البئر.

و يضيف الشاعر أنك لست كفؤاً للتغرب، فدعك منه وإبق عند فلاح تسوق سوانيه ملتصقا بذيل البعير.

٨ ــ البيضا: الإشارة البيضاء، البايح: الممدوح وهو ناصر البايح الشمرى طاريه: ذكره، الغرنوق: طير أبيض ناصع.:

يشهر الشاعر للممدوح الإشارة البيضاء كلما حل ذكره و يصف هذه الإشارة بأنها كبياض جناح الغرنوق وذلك لاشتهاره بالكرم والمروءة.

٩ ــ تشوق: ترى، يرميه: يضعه، ثبا: برك.

يصف الشاعر نوعاً من كرمه فى كبر صحونه العظيمة التى توازى جثه البعير عندما توضع فى أماكنها لايزحزحها مزحزح.

١٠ــ كلوا: أكلوا، الفرع: أعلى الطعام: نيلش: مس، أقفوا: تركوا، المطاحى: الشبعى التى تتأرجح فى مشيتها من كثرة الشبع.

يصف الشاعر تلك الصحون الكبيرة بما عليها من الطعام من أن الآكلين يتناولون جزءاً منه و يبقى الكثير الذى لم تمسه الأيدى فى وسط الصحن وهذا دليل على عظم كمية الطعام الموضوعة فيه وهى من علامات الكرم.

١١ــ الوزنة: وحدة الون قبل الكيلوجرام وهى تساوى كيلو وثلث تقريباً راع: صاحب، ليا: إذا، خطار: ضيوف.

يقول الشاعر أن هذا الكريم لم يبع الطعام على أحد بل يعطى قاصديه مايطلبون منه، ولاغرو فى ذلك فإنه يفرح إذا قيل له إن وراء الباب ضيوف، وهذا برهان كرمه.

١٢ــ ماراخص: لن يرخص، مير: سلعة غذائية، بضاعة: يعنى القهوة، ابن الحيدان:

الممدوح وهو ناصر بن موسى بن لحيدان التميمي ت رحمه الله ١٣٤٣هـ على حاهد: على وجه الأرض، القاع الأرض.

يصف الشاعر ممدوحه بأنه لن ترخص القهوة اليمنية الواردة من صنعاء طالما أن الرجل على قيد الحياة وذلك لكثرة مايشتر يه منها و يقدمه لضيوفه وهى بلاشك عنوان الكرم ومدخل الأريحية وعطر الرحال.

١٣ــ الزُّوم: الذى يرى فى نفسه ماليس فيها، ثَلاَّث: هو الذى يقيس مقدار طبخة القهوة بأصابع يده الثلاث الخنصر، والبنصر، والوسطى فما قبضت هذه الأصابع فيعتبرها كافية لطبخة واحدة.

يستمر الشاعر فى وصف ممدوحه بأنه ينفق ويحمس من البن فى الساعة الواحدة مايكفى غيره ممن يرون فى أنفسهم أنهم يساوونه يكفى للواحد من هؤلاء شهراً كاملاً لقلة مايقدمونه منها حسب مقياسهم السابق ذكره.

١٤ــ ماعينت: ألم ترَ، غدا بهن: ذهب بهن، الخضر: وادى الأخضر، واغليلاه: من الغل والاسي والحزن.

يسأل الشاعر جبيراً عن مجموعة بناته اللواتى ذهب بهن فيضان الوادى ولم يعثر لهن على جثث أو أى شيئ و يبين حزنه العميق الذى يغل وجدانه.

١٥ــ يقول الشاعر أن الرزق الذي كتب لغيرى لن ينالني منه شئ أما الرزق الذي قسم الله لي فسوف يأتيني بالسعى إليه ولو أن كل الناس تحاول أن تظفر به دونى، فلكل إنسان ماكتب له من رزق بالسعى إليه.

١٦ــ مرقب : المرتفع من الروابى وقمم الهضاب والجبال، ما: بمعنى الذي، خله: إتركه، تَهَلْفَى: تغامر وتصل منطقة الخطر وتسقط المشاحى: شماريخ الجبال الشاهقة ينصح الشاعر المعني في الأمر بأن أى مرقب لا تستطيع وصوله فما عليك إلا أن تمره وتتركه ولا تغامر وتصل إلى نقطة الخطر من مكان ربما تنزلق منه وتسقط على الأرض وقد تمزق جسمك إلى قطع متناثرة، و يعني بذلك المرقب المادي وهو أيضاً كناية عن المواقف المعنو ية بوجوب تجنب الأمور التي لا تستطيع إتيانها محافظة على نجاتك.

١٧ــ لبة : أعلى الصدر وأسفل العنق الأمامي وهى مجمع التراقى، ضاح: أضاء، تواسا: إستوى على الماء: ير يد خياله على صفحة الماء.

يصف الشاعر نحر تلك الفتاة الأبيض الناصع مثل صفحة القمر يحيطه ظلام الليل، وذلك لما يحيط بنحر تلك الفتاة من سواد شعرها وخمارها، وتشبه هذه اللبة وجه القمر إذا إنعكس على صفحة الماء الراكد الصافي فسبحان الخالق المبدع.

١٨ــ تَلّنْ : جذبنى، صوب نية: جهتها، مزهافة: طَيِّعَةً منقادة

يقول الشاعر أن قلبه يجذبه إليها و يضعف التحكم فيه تساعده تلك النفس الطَّيِّعَة المنقادة إليها ولولا أننى أقصر لها العنان وأتحكم في الإطار المتعارف عليه لأوصلتنى إلى طرق الهلاك.

١٩ــ ماشا: ماشاء: وحذف الهمزه للضرورة، جاه: جاءه يقول هذا الشاعر التميمى الذي نشأ وشب في رغد من العيش وعاش عيشة الترف فكل شئ يريده يحصل عليه بسهولة بحيث يأتيه إلى حده بدون عناء وهذه مفتاح القصيدة.

٢٠ ــ ياركب : أيها الركبان، ياللي: الذين، عقيل: تطلق على فئة من تجار المواشي، ويسمى بها أيضاً أهل النجائب الخفاف، تقللوا: نهضت بهم مطيهم وتحركوا.

الريف المريف: القرى والرياض، والفياض المعشبة التي سقاها الحياء وعلها. مداه: طول ماسقته. ينادى الشاعر أولئك الركب الذين أدلجت بهم مطيهم من نجد إلى تلك الأرض المعشبة الخضراء.

٢١ ــ حدروا : أفيضوا، جو عِكّل: موضع قرب أشيقر أو هو أشيقر قوضوا: أسرعوا، هباغ: طويل الخطى من الإبل النجائب يقول الشاعر أيها الركب أفيضوا بنا من جو عكل مسرعين على تلك النجائب السريعة التي تمد خطاها بتسابق نحو الهدف المنشود.

٢٢ــ علاكم: صلاب، لكن: كأن، قطعة البيداء: الأرض المستوية، سراه: مسراه.

يصف الشاعر تلك النجائب التي تتصف بالصلابة وذلك لكثرة ماقطعت من المسافات الطويلة في مجراها ومسراها.

٢٣ــ صريمة ربد: فريق من النعام، جال تياء: حدها الظمأ للورود إلى بئر تياء الذي لايوجد حوله آبار، ويقصد ذلك أن هذا الفريق قد حدابه العطش في الإسراع إلى الماء عال النبا بوطاه: أى ما أرتفع من الأرض.

يشبه الشاعر تلك الركائب بفريق من النعام حده العطش فجاء منصلتا مع أرض مرتفعة قاصداً المورد الوحيد حوله.

٢٤ـ لما جو: حتى جاءوله الدهناء: الصحراء الرملية المعروفة في الشمال الشرقي من نجد وتبدأ من منتهى النفود الكبير وثاني على شكل هلال حتى تنتهى بالربع الخالي جنوب نجد ماله: ليس له، ملاذ : ملجأ، مايكتب، الذي يكتب وطاه: أصابه.

يقول الشاعر هؤلاء الركب ساروا حتى جاءوا صحراء الدهناء حيث لايوجد للانسان ملاذ يلوذ به وماكتب عليه فسوف يصيبه لامحالة.

٢٥ـ لقوا: وجدوا، شادن: الظبية الصغيرة أعماه: أعماها لفح الهواء الساخن فلجأت إلى هذا الكهف المحفور في حد الرمل الواقف.

يصف الشاعر أن هؤلاء الركب حينما وصلوا نفود الدهناء وجدوا تلك الظبية المختبئة في زربها لاتقاء لفح الهواء الحار.

٢٦ـ إعداه : أعداؤه

و يقول الشاعر أنهم باغتوها نائمة وقد غشى النوم حفنيها فجعلهم يظفرون بها ولولا ذلك لما استطاعوا أن يمسوكها ولا غرو في ذلك فسلطان النوم قد أسر الحذر من أعدائه حتى أستطاعوا أن يسيطروا عليه فما بالك بهذا الحيوان البسيط البرئ.

٢٧ـ ليا من : إذا أن، وطاه: وطأه

و يقول الشاعر أنه رق لها وطلب من إخوانه أن يقدروا الموقف الذي هى فيه ولاسيا أنه قد جار عليها لقدر حتى تمكن منها من سينهون مصيرها.

٢٨ـ سبيل : أى لوجه الله، كود: لعَلَّ، إمناه: ما يتمناه فطلب الشاعر من إخوانه أن يتركوا سبيلها و يطلقوها لعل من مكنهم من القبض عليها تحت سلطة النوم أن يجزيهم على إطلاقهم لها بما يتمنونه.

٢٩ـ شمل : مجموعة، الهجن: الركائب، هو ذلى: الهوذلة هى الإ رقال وهو ضرب من سير الاربل،

يقول الشاعر موجهاً كلامه إلى هذه المجموعة من الركائب وهو يقصد من

عليها أسرعى في إرقالك إلى الدار التي تسكنها زوجته التى سيكون من الصعب عليّ لقاؤها بعد ذلك.

٣٠ــ حجل: أسورة غليظة من الفضة وقد تكون من الذهب والفضة معاً توضع في أسفل ساق المرأة فوق القدم والمقصود هنا أنها ذات ساق متناسقة وأدق مافيها موضع الحجل، ياناق: ترخيم للناقه، طرا: طرأ مخففة.

يصف الشاعر محبوبته بشئ من مزاياها و يقول إنها ذات ساق متناسق أدق مافيه موضع الحجل وأنها إذا طرأت على البال زاردتنى لوعة وشقاء في حياتي.

٣١ــ يدعو الشاعر على ذلك القصر الذي حال بينه و بينها وهو يقصد من في القصر بشهاب منقض مرسل من الله ليدك البناء على من فيه.

٣٢ــ أبغى: أريد، عطيرات الجيوب: يقصد النساء، حياه: حياءها.

يتمنى الشاعر أن يقع هذا النجم ليدك أعلى شرفات القصر مما يجعل النساء تهرب منه ذا هلات انفسهم مظهرات ماقد يستحين من إظهاره من هول الفاجعة.

٣٣ــ عشير : يقصد زوجته.

يتمنى أن تظهر زوجته من بين تلك الأنقاض سالمة لم يمسها سوء وهو مايطلبه و يتمناه لها.

٣٤ــ عنا: عناء، لياريت: إذا رأيت، صاحبي: يقصد زوجته جضيع لغيرى: زوجة لغيرى، إحترمت: حرمت:

يصف الشاعر لوعته ومصيبته إذا تصوَّر أن زوجته التي يطلبون منه أن يطلقها قد تزوجت برجل آخر وأصبحت زوجة له تضطجع معه في فراش واحد وحرم هو منها.

٣٥ــ سيره : كناية عن طاعتها، مروع : لين طيع، ساقيه: كناية عن لذة اللقاء والوصال، ينحى: ينصب إلىّ بمائه والمقصود التمتع بزوجته.

يتلهف الشاعر على الحال التي قد تكون عليها زوجة إذا صارت لغيره وأصبحت تطيعه في كل ما يأمرها به وحرم هو مما يروى ظمأه و يبرد غليله.

٣٦ــ محلتم : الحلتمة الأصوات المترادفه شديدة النبرات بدون فهم لمعناها والمقصود هنا

السحـــاب شديـد الرعد يبتهل الشاعر إلى الله أن يأتي ذلك السحاب المتراكم الـذي تضطرب فيه أصوات الرعد بايقاعاتها الحادة المتفاوتة وقد سرى في مسيره الليـل بطوله تشق إشعاعات بروقه الخاطفة أستار الليل الداكنة شديدة الظلمة فيزيح تلك الغلالات السوداء من الجو بفضل سنا بارق السحاب.

٣٧ــ لكن : كأن، ركونه: أطرافه، عزايله: عزائله رداه: أطرافه.

يصف الشاعر هذا السحاب المتراكم بتطلق أركانه وكأنها طرف الرداء الذي أرخى فأنساب مسرعاً باتجاه الأرض بما ينصب منه من شآبيب المطر الغزير.

٣٨ــ حوارك : مايتحرك من المزن عن إضطرابه بسبب الرياح التي تناوحه من الجهة التي يسير إليها بحيث تعوق مسيره فيبدأ بالتراكم طبقات بعضه فوق بعض وكأن هذا السحاب تقلبه كفين بحركة دائرية.

زعاج : الريح الشديدة التي تصاحب السحاب.

وطاه سناه : يقصد أنه أثناء حركة السحاب واضطرابه بسبب الريح التي اعترضت مسيره أحياناً يختفى ضوء البرق في ثنايا هذه الكتل الهائلة من المزن المتعالى بعضه على بعض.

يصف الشاعر حركة هذه السحب المتراكمة بعضها على بعض بعد أن إعترضت لها تلك الرياح العاتية وعاقتها عن مسيرها بدأت تتراكم ويعلو بعضها بعضا فينتج عن ذلك غزارة كمية المياه المنهمرة منها أثناء وقوفها وتراكمها مما يجعلها وكأن السماء إنشقت على ماتحتها.

٣٩ــ وطا : مر عليه، ما وطا: الذي مر عليه، واللى: الذي وطا بعد ما وطا: يقصد الجزء الذي مر عليه، غطى ما وطا: الجزء الذي مر عليه. هذا تلاعب بالألفاظ ويقصد الشاعر أن هذا السحاب المتراكم قد مر على هذا الجزء وغطى أرضه بالبرد الذي ذاب بعد مرور السحابة فغطى الجزء الذي مرت عليه بعد ذلك وغير معالمه، وذلك بالإضافة إلى ماعليه من كمية الماء الهاطلة من أذيال السحاب.

٤٠ــ تلاعب الشاعر بكلمات هذا البيت كسابقه ويقصد من ذلك أن مطر هذا

السحاب محى ما في طريقة من معالم وغطاء نباتي ثم خلفه بعد ذلك السيل المتكون من المطر والبرد وحمل معه بقايا المعالم والغطاء النباتي ونحاه عن مكانه إلى حيث وجهة السيل، وازدادت كمية هذا الفيضان بما فيه من عوالق من أشجار وغيرها، فاقتحم الأودية وأدى بالنتوءا ت والجلهات والروابى وكل ما إعترض طريقه من مرتفعات وغيرها حتى أصبحت الأودة متساوية أمامه.

٤١ــ نصا : قصد،

هذا تكملة لمعنى البيتين السابقين ويقصد الشاعر أن هذا السيل العرمرم قد غطى النقطة التي قصدها وأجبرها على الامتثال لرغبته فاجتث ماصعب منها وطيرها بحيث إسرعت إلى الجهة التي أطاعت أمره ونفذت رغبته بالليونة والأنسياب مع مجرى الوادى، أما النقطه التي أطاعته من البداية فقد أخذ منها بِشَرَه عندما قصدها، وهذه النقط هى المواقع الهشة والصلبة في مجارى الأودية بحيث ساواها مع بعضها إلا أن الأماكن الهشة أصبحت أقل مستوى من سابقتها.

٤٢ــ هاجوس : تخمين، البازمين: موضعان جنوب النفود شمال حائل وربما عنى أماكن أخرى بعد غثاه: غثاء السيل.

يرى الشاعر أنه يخيل مواقع هذا السحاب على الموقع المحدد بعدأن يفرغ من دك وإغراق تلك البلد الذي سبب له الفرقة والبعد وحرمه من زوجته.

٤٣ــ النيا : البعد،

يقول الشاعر أن من باعنا بالهجر والحرمان فلا أقل من أن نبيعه بالبعد والفراق، وكذلك من قطع حبلك وجذه من منتصفه فلا يرجو منك وصل رشاءه، والمقصود هنا من عاملك بالحسنى فعامله بمثلها ومن أساء إليك فلا ينتظر منك إحسان.

٤٤ــ الإقفاء: الترك

وهذا البيت تكملة لما قبله فيقول من تركك وجفاك فلا جزاء له الإ الترك والجفاء، ولاخير فيمن يتبع من عصا رغبته ولم يطع هواه.

٤٥ــ يشادى : يشبه، إنفرج: انقطع، البريم: سير رقيق ناعم مجدول من ثلاثة فروع

و يكون بالطول المناسب تلفه بعض النساء على وسطها من تحت الملابس ثلاث طيات أو أربع طيات و يكون طوله حسب مقاس وسط تلك المرأة وحسب الطيات التي تر يدها. زواه : لفه.

يصف الشاعر وسط زوجته الأهيف بأنه يشبه دائرة خاتم العاج، وتخشى عليه من الإنفصام لنحوله ولولا البريم الملتف عليه لانفصم.

٤٦ــ الولف: الأليف والحبيب، عفت: زهدت، الخدون: جمع خدن وهو الصاحب.

يقول الشاعر إن فؤاده قد خلى من الأحباب والأخلاء والأخدان الذي زهد بهم وعافهم عدا زوجته التي ملكت عليه كل حبه ووده وإخلاصه.

٤٧ــ ذبيت : رميت، روحي: نفسي.

و يقول الشاعر أنه لو حال بينه وبين زوجته البحر لرمى بنفسه في غبة ذلك البحر حتى يصل إلى زوجته.

٤٨ــ أهضله : أروح به في المساء، من حشمته : من أجل رضاه.

يقول الشاعر أنه مستعد لعمل المستحيل في سبيل رضاء زوجته ومن ضمن المستحيل الذي يدركه الشاعر رعى الجراد مع أنه لا يألف الإنسان بل ينفر منه و يتطاير أمامه و يستحيل أن يطيع للإنسان أمراً إلا إذا إصطاده في ظروف معينه ولكنه ما إن ينفلت منه فإنه سيطير عنه رأى الشاعر أنه مستعد ليسرح بأسراب الجراد بالنهار و يروح بها عند المساء رضاء لزوجته.

٤٩ــ زل : تجاوز.

و يقول الشاعر أنه لو زرعت زوجته زرعاً فإنه مستعد لسقياه حتى من دموع عينيه إذا بخل السحاب بمائه وتجاوز هذا الزرع.

٥٠ــ الشرى : ضرب من الحنظل شديد المرارة، غدا: صار يقول الشاعر إن ريق زوجته لو وضع على ثمر الشرى على شدة مرارته لأصبح سكراً وأسرع التجار ليشترونه و يز يدون من كمياته لديهم وهذا كما تخيله الشاعر في عنفوان إندفاعه.

٥١ــ و يذهب الشاعر إلى أبعد من ذلك فيدعى أنها لو وطأت على قبر ميت لبعث من لحده وتكلم معها وذلك بمشيئة الله.

٥٢ـ لقاي الدلي : الذي يلتقى بالدلو عند خروجها من البئر مملوءة بالماء فيأخذها ويسكبها في الحوض المعد لذلك وإذا إنقطع الرشا الذي يخرج الدلو من البئر قبيل إمساك الرجل الذي يلتقيها بها فإنها لامحالة ستفوته وتهوى في قعر البئر مرة أخرى.

يقول الشاعر بكل أسف لقد فاتتنى زوجتي التي أجد على شفيتها مايفوق ذوب العسل كما فاتت من يلتقى الدلو قبيل إمساكه بها عندما جُذّ رشاءها.

٥٣ـ دنوع : الذي لايقاوم نفسه ويمنعها عن مبتغاها.

ليا : إذا، شفته: رأيته، سفاه: صغير ينصح الشاعر بالحذر في معاملة المرأة إذا كانت شابة صغيرة لاتدرك أبعاد بعض الأمور، ويوصى بالامتناع عن التزلف والإقتراب نحوها في بعض الحالات خاصة إذا كانت في سن الشباب أى فترة المراهقة لأنها قد تنزغها نفرة الشباب وتعمل عملاً قد لايناسب الطرف الآخر.

٥٤ـ جاوز: المقصود الخليل والمعنية زوجته وربما غيرها من الفتيات، ثلاث مع أربع وعشر: أى سبعة عشر عاماً يضع الشاعر السن التي يرى أنها غاية نضج الفتاه من ١٦ ــ ١٨ سنة ففي هذه السن تبهج نفس زوجها.

٥٥ـ يتابع الشاعر استكمال فكرته عن الفتاة الصغيرة التي لا تميز الكثير من الأمور بأنها قد لاتميز بينماينفعها وما يضرها ولا تعرف من يقصدها بعداوة أو صفاء وحتى الأحاديث السرية الهامة التي لا تفشى لأحد فهى في هذه السن لاتتردد في روايتها للآخرين لعدم إدراكها كنهها.

٥٦ـ في ختام هذه القصيدة يعض الشاعر على رءوس أنامله بنواجذه غيظا وحزنا ويتأوه لوعة وأسى من حر مصيبته وهو يردد الآهات المتتالية.

٥٧ـ ضامرى : فؤادى

ويطلق الشاعر الصوت الأخير مملوءاً بالألم ومفعماً باليأس ليقول إنه حتى الآهات هذه لن تخفف من مصيبتي وتبرئ علتى ولو كانت كذلك لأكثر من هذه التأوهات، ولكنها على العكس من ذلك فقد تحمل إحدى هذه الآهات روحى معها على أجنحتها وتذهب بها بعيداً عن جسدى ليحدونى جثة هامدة.

٥٩ــ جو: آبار المناهل، سموا: عامة الناس، بديدة: قبيلة جان: جاءنى، البلي: المصيبة، ذيهبان: الشتات أو بقية الجموع، النجوع: مجموعات القاصدين أو المسافرين

يقول الشاعر أن هذا المنهل قد اجتمعت عليه أخلاط من القبائل وتجمعت حوله للشرب منه وقد أتاني من تعلقت به من بين هذه الجموع القاصدة لهذا المكان وما أصابني لا أعرف إلى أى هذه القبائل يعود.

٦٠ــ الظعن : الإبل المحملة ببيوت الشعر والمتاع عند الرحيل وكذلك النساء في الهوادج. هنيت: أهنئ.

جوه : جاءوه

يتنمر الشاعر من مرأى أظعان البدو عندما يرحلون من عنده ولاسيما إن كانوا قد أخذوا من يحب، وهو بهذه الحالة يهنئ الإنسان الذي لم يتعرف بهم ولم يتعلق بمن رحل معهم.

٦١ــ الغزال : الظبى والمقصود هنا تلك الفتاة التي رحلت معهم، العجوبى: اللطيف المرح الذي يأتي من كلامه وحركاته بالعجائب ليشد إنتباه سامعه ومشاهده خلوه: تركوه مقيما في جملة سكان الحضر.

هنا يوضح الشاعر سبب تذمره من رحيل البدو من عنده لأنهم أخذوا معهم تلك الفتاة التي تشبه الغزال، وهى من اللطافة والمرح ماجعلها تأخذ عليه فؤاده و يتمنى لو تركوها من ضمن سكان الحضر ليراها مراراً متتالية.

٦٢ــ يازين : المقصود تلك الفتاة الجميلة، الكنين: المكنون من الأسرار ولواعج الحب، خليت: جعلت شلافيح: المامات سريعة ومتقطعة.

يعاتب الشاعر تلك الفتاة التي أسمعته جملة جرحت شعوره وخدشت كرامته مما أطار النوم عن جفنيه وجعله يطرق جفنيه في نوبات متقطعة.

٦٣ــ وراك : لماذا : أريش العين: ذات العيون التي لها هدب كثيف بما يشبه الريش في قوادم الجناح وخوافيه، وهى ميزة مفضلة في النساء.

بينا : بنا، تصفيح: تعريض، والمقصود هنا عرض صفحة الخد في حالة إبراز ماقد يخفى من محاسن الوجه والعنق يستمر الشاعر في عتابه طالباً السبب

الكامن وراء زهد تلك الفتاة به مع أنها لم ترمنه مايوجب ذلك الزهد وفوق ذلك إتهمته بأنه ليس أهلاً للفروسية ومقارعة الأبطال على ظهور الجياد، وقد ناداها بأحب الصفاة إلى قلبها وهو وصفها بصاحبة العيون الظليلة بأهدابها التي تشبه ريش خافية النسر.

٦٤ــ ماهو بس للظاعنين: ليس للظاعنين ويقصد بهم البدو الرحل، قسم: قسمة، المفاليح: المفلحين.

يوضح الشاعر لفتاته أن الرجولة بكامل معانيها ليست من نصيب البدو الرحل فقط وإنما هى قسمة من الله بين البدو والحضر على حد سواء فكل له نصيب من هذه المزية ويفسر ذلك في البيت التالى.

٦٥ــ ليا: إذا، هبت الريح: جاء وقت الحاجة، وجد الجد.

يزيد الشاعر فتاته أيضاحاً بأن في البدو الرحل والحضر المقيمين كل إنسان ومامنحه الله من الرجولة، والبطولة والكرم والمروءة والحمية والدين والشهامة وغير ذلك من الصفاة التي يتصف بها الرجال والنساء.

٦٦ــ الفضول: فرع من قبيلة طيء حلتك: الحلة أثاث البيت ومقتنياته، راثعينا: ناهبين، سواة مثل، الزنانيح: جمع زناحة، وهى جسم دائرى أو كروى من المواد الخفيفة يلعب به الأطفال حينما يدحرجونه على الأرض فينصلت مسرعاً يُشبِّهُ الخيل بسرعة هذه الألعاب وقيل أن الزناحة هى الخذروف سريع الدوران يصف الشاعر تلك الغارة التي قام بها الفضول على مضرب قومها ونهبوا مافي البيوت وانقضت الخيل بأخوانها تشبه إنقضاض الخذروف التي يلعب بها الصبية.

٦٧ــ السنين: السيف، خليت : جعلت، جب: مقطوع جلاويح: تمشى على أحد جوانبها، ويقصد هنا أن الخيل ليس عليها فرسانا بعد أن طوح هو بفرسانها برمحه وسنانه.

يورد لها حقيقة حدثت له أثناء المعركة أنه قاتل برمحه حتى إنكسر بيده وبعد ذلك جذب سيفه وانقض على المغيرين فهزمهم وذهبت الخيل تتنزى خفافاً لافرسان عليها بعد أن جندل فرسانها ويشبه تلك الخيل وكأنها تجلح في ركضها من خفتها.

٦٨ــ يصرخ الشاعر فيها قائلاً: مادمت قد قمت بهذا العمل البطولي الذي نظرت إليه بأم عينيك وبرزمردوده على قومك بأن إنهزم الأعداء وعادت إليهم مواشيهم وممتلكاتهم فلا أقل من أن تنصفيني وتعطيني ما استحق من العدل والإنصاف، وإن لم تنصفيني فو الله لن أغفر لك ولأصيح صيحة من ضيع عزيزاً عليه.

٦٩ــ غدا : ضاع، جنين: إبن، خلوج : الناقة أم الحوار السراريح: الرعاة.

أخبرها أنه سيصيح صيحة من ضاع له ابن بهلاك أو غيره أو مثل حنين تلك الناقة التي ضيع الرعاة إبنها فهي ترزم وتجتلد هنا وهناك باحثة عنه وتطوح بحنينها من شدة الفاجعة.

٧٠ــ فرغدين : يقصد الفرقدين وهما النجمان المتقاربان في السماء بين الدب الأكبر وبنات نعش ذربات: واقفات، ذوابيح: قاتلات.

هنا بدأ الشاعر يصفها بما تحب أكثر النساء أن تسمعه عن نفسها بإبراز محاسنها ويقول إن ذينك النهدين البارزين يقتلان قلب من تعلق بها مثلي.

٧١ــ تفافيح : جمع تفاحة.

يستمر الشاعر بوصف حجم نهديها مقارنة بالفواكه التي ذكرها فربما كانت أكبر من ثمر الخوخ وأصغر من الرمان وأكبر من التين والمشمش وأصغر من التفاح وربما جمعها صفات وأحجام هذه الفواكه جميعها ولعله أراد أن يخرج متوسط أحجامها معاً.

٧٢ــ البطين : أسفل الجبل أو الهضبة ويمتاز بخصوبة التربة على ألاغلب وكذلك فالاشجار التي تنبت فيه تمتاز عن غيرها بخصوبة التربة ووفرة المياه، إمنين: من لين، الهوى: النسيم، بان له ريح: إنتشر أريجه مع هبات النسيم.

يشبه الشاعر جسم تلك الفتاة بغصن الريحان الشامخ المعتدل اللهم إلا إذا حركته النسمات اللطيفة فإنه يتأود ويتثنى في كل إتجاه محملاً تلك النسمات التي حركته أنوج شذرات الشذى.

٧٣ــ شرهة : لايقنعها أى شئ، تعصاه تتخذه عصاً، ولاهي: وليست، محدوده: مجبرة.

يرمز الشاعر للمرأة بالعصا، فمن هذه العصى الغليظ والدقيق والأعوج

والمعتدل واللين والقاسى، والسمح والمليئى بالعقد، وكذلك النساء فيقو إنه ليس مجبراً على إتخاذ أى إمرأة زوجة له.

حيث سأختار من بينهن من ترتاح لها نفسى و يطمئن لها قلبى فتكون أما لأبنائي الذين أرجو منفعتهم في المستقبل.

٧٤ـ يحيّ الشاعر ذلك الجواب ومن جاء به ليعزيه في زوجته مايزيد على ثمانين الف تحيه نابعة من صميم فؤاده.

٧٥ـ ورق : الحمام، ناض : أضاء.

و يزيد الشاعر في عدد تحياته باعداد ما سجع الحمام في البساتين وبعدد ما ناض البرق في ثنايا السحاب.

٧٦ـ الطلاحى: الورق واحدها طلحية لذلك الصديق الذي أشفق عليه وجاء يعزيه في مصابه الجلل فسيرصد له هذه التحيات على صفحات الورق لتبقى إلى آخر الدهر.

٧٧ـ مرمرة : المرمرة هى الدفع والجذب بشده والتطويح به يمينا وشمالاً بعنف. عقدها: نشفه.

يقول الشاعر إنه يقبل من صديقه الكلمات التي يعزيه بها ويحاول أن يجعله صابراً و يقول هيهات فإن هذه الكلمات لاتلهين فالصبر قد تجاوز معى كل الحدود ولعب بي حيث طوحنى ذات اليمين وذات الشمال.

٧٨ـ الزبارة : المرتفع من الأرض، يبرين: اسم الموضع الذي دفنت به زوجته، السند: المرتفع من الأرض.

يقول الشاعر: إن صبره قد دفنه حيث وارى جثة زوجته فى ذلك المرتفع من الأرض بين السهل والمرتفع ولم يبق لديه صبر يتذرع به.

٧٩ـ غدا: ذهب، دار: بحث.

يقول الشاعر إن صبرى قد نفد ياصاحبى فلو بحثت عندى عن ذرة من الصبر لما وجدتها فليس هناك مايعزينى عن زوجتى التى فقدتها.

٨٠ـ دين القطع: الدين القاطعة، الثماير نبدها: يمكن أن يكون قصد الشاعر من أنبت الأرض من ثمار النبات التى بقيت فيها من العام الماضى، وربما هناك

تصحيف بالكلمة يقسم الشاعر باليمين القاطعة يمينا بعد أخرى الاينساها و يتبعها بحياة خالق كل شيئ ألا يسلو عنها.

٨١ــ و يردف يمينه هذه بأن كلمة الحق تكفيه عن كل ماسواها وكفاه الله شر من جحدها هذه الأيمان المتتابعة أنه لن يصبر عنها.

٨٢ــ ثم يتلو الشاعر سورة يس على روح الفقيدة مرات متتابعة علها تخفف عنها فى قبرها وتكون مساهمة منه فى مصابه الجلل بقراءة آيات من القرآن الكريم على روحها ثم يشبهها بعنز الرئم حينا تكون لوحدها بالمرعى.

٨٣ــ يصفها بأنها إبنة الرجال الأجواد وتتمتع بالإضافة إلى عقلها ورزانتها بذلك الجمال الفتان ومايفوح من جسدها من الروائح الفواحة سواء ماكان من طبيعة جسدها النظيف أوما تضيفه إليه من الروائح الأخرى.

٨٤ــ جتني: حصلت عليها، تثامين: أقياماً، فهود: جمع فهد، والمقصود هنا رجالها.

يقول الشاعر إنه لم يحصل عليها بالبيع أومايشبه البيع من الشروط والإشتراطات التى تحصل الآن وانما حصل عليها عطاءاً من أولئك الرجال الذين يشبهون الفهود وكل من جاء بقربهم حمد مسيرهم وأثنى على سيرتهم وافعالهم.

٨٥ــ لطفين: لطيفين، دوجوا: سعوا، ضهدها: اضطهادهم أو الإساءة إليهم.

يثني الشاعر على رجال زوجته كأبيها وإخوانها وعشيرتها و يصفهم بأن من ألطف الناس للضيوف ومن يلوذ بكنفهم و ينظم إليهم، غير أنهم قاسين على أعدائهم أشد القسوة، ولم ينل جيرانهم منهم أى سوء أو حيف واضطهاد.

٨٦ــ يقول الشاعر أنه لم يسق فيها مهراً غير خمسة وتسعين من الخيول الأصائل وهذا المهر يعتبر من أغلى المهور فى ذلك الزمن ومع هذا إعتبرها فى بيت سابق أنها جاءته عطية من أبيها، وهذا المهر زهيد بالنسبة لها.

٨٧ــ يحدد الشاعر من الصين والهند شرقا إلى مصر غربا ومن الشام شمالاً إلى نجد جنوبا لو وقفت نساءها صفاً واحداً لم يجد فى طول هذه البلاد وعرضها مايماثل زوجته فى جمالها وأخلاقها.

٨٨ــ مزاها: كامل زينتها.

لو وقفت كل نساء تلك البقعة الشاسعة من آسيا وجزء من أفريقيا فى كل زنتهن وأبهى لباسهن لم يجد من بينهن من تشابه زوجته ولذلك جعل كل هذه النساء فداء لزوجته وضحاء.

٨٩ــ مثايل: خلال يعدد الخصال الموجودة فى زوجته تلك الصفاة التى تسمو بها إلى الكمال كما أن بها من الخلال الحميدة مالايحصى عدداً.

٩٠ــ ليا: إذا، شافتن: رأتنى، الشفوق: ذات الرحمة واللطف، اللى: التى، تلهله: تدلهه وتسليه يقول إنه من خصالها الحميدة أنها إذا رأتنى غضبانا بدأت ترضيني بالكلمات اللطيفه والحركات المحببة إلى نفسى وتداعبنى وكأنها تلك الأم العاطفية حينا ترضي وليدها و يسلو عما هو فيه، وكذلك تفعل .

٩١ــ الغطروف: الشاب الغض المترف، الخملات: المواقف المريبة.

يقول أنها طاهرة العرض فلم يخطر ببالها مناجات أولئك الشباب الذين يلفتون النظر بوسامتهم وغضارة شبابهم ولم ينسب عنها أنها إتخذت موعداً مريباً مع أحد فهى نقية الثياب عفيفة محصنة.

٩٢ــ الهرج: الكلام.

ومن صفاتها أنها لم تعاتب بالكلام الناس الأدنين منها أو البعيدين ولم تصل أذيتها جيرانها الملاصقين لها فهى كذلك عفة اللسان دافئة الفم.

٩٣ــ أرثت: زرعت الأحقاد والبغضاء، شن صار: شيئ صار وتمتاز كذلك أنها لم تمش بالنميمة وتزرع الأحقاد بين فريقين من الناس، ولم يوسوس الشيطان إلى نفسها و يكثر نكدها للبعيدين عنها والقريبين منها.

٩٤ــ القميرى: نوع من الحمام.

ثم يعيد الشاعر التشبيب بها مرة ثانية فيصف جسمها بأنه مثل غصن الموز النامى فى البستان و يشبه نهديها ببيض القميرى وهو من المبالغة فى صغرها وربما إختار القميرى لضرورة إستقامة البيت وإلا فهو صغير جداً نسبة إلى المشبه به.

٩٥ــ كرابة: كربه، كمدها: شدة حرارتها.

يتوجد على زوجته مثل من هو فى جوف النار يتوجد على الخروج منها.

٩٦ــ خلوه: تركوه، ربعه: رفاقه، رهرهي: مهالك البيد: جمع بيداء وهي الصحراء الجرداء مترامية الأطراف يصف وجده بها كوجد من تركه رفاقه في تلك المهلكة من الصحراء-الخالية و بوده لو لم يحل بذلك المكان.

٩٧ــ شيهان: أحد أنواع الصقور الجارحة وهي من أصغرها جسما وأفتكها فعلاً بفريستها، شهر: إرتفع جبّوا: كسروا، سبوق: قوادم الجناح، بأشهب الملح: يقصد مصلح البارود و يرمز هنا إلى قذيفة البندقية لدها: ضربها عسراً.

يتوجد الشاعر عليها وجد تلك الشيهان الذى طار وارتفع وسط مجموعته للانقضاض على فريسته عندما فاجأته تلك القذيفة فجبت جناحه وهوى إلى الأرض كالخرقة الملقاة.

٩٨ــ يدعو الشاعر على من يلومه ببكائه على زوجته بأن يختطفه جنيٌّ من الفراعين وهم شرار الجن، لينغص عليه حياته و يبقى في حياة نكدة مادام حياً.

٩٩ــ لجت: لجأت، اللحد: ماتوضع فيه جثه الميت.

يقول إنه لن ينسى زوجته و يقسم يميناً بعد يمين أنه سيذكرها حتى يوارى جسمه في التراب بعد أن تفارقه روحه.

١٠٠ــ أدوي: دوي الرعد.

يدعو الشاعر من حضرو من قرأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم و بعدد مادوى الرعد .

١٠١ــ الخلايق: الخلائق، مكنون مكتوم.

يصف الشاعر حاله ليلة أمس حينا كان الناس ينعمون في نوم هانيء فقد بين ماكتمه من الأسرار من شدة مصابه على فقد زوجته.

١٠٢ــ موق: الحجر جانب العين مما يلي الأنف.

يقول الشاعر أنه بدأ من شدة وجده على الفقيده ينثّر ماء الدمع من حجر عينيه بغزارة من ذلك الدمع الذى كان مخزونا قبل ذلك.

١٠٣ــ وَنَّة: أنَّة، كِني: كأني، صويب: مصاب.

يقول الشاعر إن أنَّتَهُ تطير النوم من عيون من سمعها وكأنها أنه من أصيب بطعنه من بين أضلاعه وقد عبثت بقلبه أو ماحوله من أوردة وشرايين.

١٠٤ـ السلاما عظم الذراع الخارجي وتطلق على العظيمات الفقرية باليدين والقدمين، خلوه: تركوه، مديون: أسير يشبه أنّتهُ بأنه من كسرت سلاماه وأنعثر فتركه رفاقه حتى أحاط به الأعداء وأخذوه أسيراً.

١٠٥ـ يقفون: يذهبون.

يستمر في وصف حالة ذلك المصاب في تلك الساعة العصيبة التي قل فيها الرجاء والمحامات بالذود عن ذلك المصاب وكل منهم قد ذهل نفسه فذهبوا وتركوا رفيقهم للأعداء فهو يجر أنّاته عندما ذهبوا من عنده وهو ينظر إليهم.

١٠٦ـ راعبى الحماما: نوع من الحمائم له صوت قوى عند الهديل قد أرعبها صوت طلقة الصياد وقد أصاب ذكرها، القوانيص: القناص يصف أناته بأنة فريق من الحمام راعها صوت بندقية الصياد وأصاب بعضا منها وهى ذكورها.

١٠٧ـ الخلوج: الناقة أم الفصيل، سايقه: سائقها الحوار: إبن الناقة، الكون: الحرب يشبه أناته بأنة تلك الناقة التي ضاع ولدها في معمعة الحرب فأصبحت تحن وتزن عليه.

١٠٨ـ غدت: ماتت يشبه أناته بأنات ذلك اليتيم الذى ماتت أمه قبل إتمامه أربعين يوماً من عمره.

١٠٩ـ كل هذه الأنات والعويل بسبب فقدك أيتها الزوجة الفريدة من نوعها فالجمال والكمال، والتي شربت كأس الموت الصافى وذلك بتقدير من الله واستجابة لقدره.

١١٠ـ حطوه: وضعوه، والمقصود هي، الهياما: ربما قصد مطر السحاب الذى يهمى عليه ليبرد على جسدها حرارة الأرض يقول الشاعر أنهم وضعوها فى قبرها وعند إهالة التراب عليها بدأوا يدعون لها بالمغفرة والرضوان.

١١١ـ وهنا تتضح دعوته لهذا القبر بأن يسقيه غمام السحاب من شآبيب المزن النازلة برحمة الله عليها.

١١٢ـ البختري، والنفل، الخزامي: نباتات ذات زهور جميلة ورائحة طيبة فواحة، مصيون: مصان يدعو الله أن تنبت تلك النباتات جميلة المنظر طيبة الرائحة على ذلك القبر الذى هوت فيه تلك الزوجة المصون.

١١٣ـ مرحوم: يدعو لها بالرحمة، اللى : الذى، الملاما: الكلام الفاحش أو الغيبة والنميمة.

يدعوها بشآبيب الرحمة على تلك التى لم تمش بغيبة أو نميمة ولم يشتك منها جيرانها لسوء أصابهم منها.

١١٤ـ يقول الشاعر ماأوسع عذرى وإن هجرت المنام وفارقت النوم، ورافقت المجانين من الناس بعد أن كان رفاقى عقلاءهم وذلك بسبب ماأصابنى من فقدان زوجتى الغالية.

١١٥ـ كيفة: أنس ونعيم، مالها لون: ليس لها مثيل يتحرق الشاعر على الأربعة عشر عاماً التى مرت عليه وهى بجانبة بسعادة وحياة هانئة ليس لها مثيل ولن تتكرر له مرة أخرى.

١١٦ـ وش لون: كيف يقسم بالله أن هذه الفترة الزمنية مرت عليه وكأنها عام واحد، و يتعزز لحاله و يستعين بالله على تصريف بقية أيام حياته حيث يقول كيف أستطيع تصريف بقية هذه الأيام الثقيلة القادمة المليئة بالغصص والمنغصات.

١١٧ـ غو يش: صبية.

ماأكبر همه عندما يرى أولئك الصبية الصغار الأيتام يبكون أمام عينيه.

١١٨ـ تسجون: تسلون وتدهون.

يقول الشاعر أنه سألهم عن السبب من بكائهم فأجابوه أنهم أصبحوا أيتاماً فقال لهم بل أنا اليتيم الحقيقى أما أنتم فربما تسلون وتنسون مع مرور الزمن ذلك لأننى لايمكن أن أسلوعنها وأنساها ماحييت.

١١٩ـ أتشكى: أشتكى، ربعى: رفقتى، جونى: جاءونى يقول إنه عندما اشتكى إلى بعض من رفاقه عندما جاءوا يعزونه أشاروا عليه بماتضمنه البيت التالي.

١٢٠ـ تجوز: تزوج، لاما: الإجتماع والمقصود الزواج.

يقول الشاعر إنهم أشاروا عليه بأن يتزوج فتاة عذراء غيرها فإن النساء ببعضهن عوض عن بعض وواحدة منهن تسد الفجوة التى تركتها سابقتها ولكن رأيه يكمن فى البيت اللاحق.

١٢١ــ الولاما: معناها المبادرة وهنا تعنى أنها وقعت فى نفسه موقعاً لايمكن أن تملأه إمرأة أخرى غيرها يقول الشاعر إنها وقعت فى فؤاده محلاً لم تترك فيه مجالاً لغيرها ولوجئتم بثلثى النساء لم يسددن مكانها.

١٢٢ــ غاديات الذماما: عديمات الذمم، يقون: يساعدون و يسندون وتتخذ منهم ملاذاً وملجأ.

يقول الشاعر أنه خائف من ذلك الصنف من النساء عديمات الذمة اللواتى لاتستند إليهن ولاتطمئن إليهن ولاينفعنك فى وقت الحاجة عندما تميل عليك غائلة الدهر.

١٢٣ــ خبلة: مؤنث خبل وهو سقيم العقل أو قاصر الذكاء والشاعر متخوف من تلك الخبلة التى لاتعرف حتى معنى الكلام الذى تقوله فتحفر كلماتها جراحات مؤلمة فى القلب وهى لا تدرى ماتقول وربما تعرف ولكنها كالعقرب تلدغ بلسانها بما يصيب صميم القلب.

١٢٤ــ توذى: تؤذى.

وهذا النوع من النساء من تؤذى أولادى بكثرة نهرها لهم وقبح كلامها عليهم وبهذا تؤذينى وتجرعنى مرارة الحياة بدلاً من الجرعة الصغيرة فهى تدفع فى حلقى تلك الغصص المرة بكميات تملأ الصحون الكبيرة.

١٢٥ــ البيض: النساء، عقبه: بعدها.

حلف الشاعر وآلى على نفسه حيث قال أن النساء بعدها حرام عليه وسوف يصبر على حياة العزوبية وقساوتها كما يصبر مسجون زج به فى قعر السجن.

١٢٦ــ ثم يسلم عليها فى كل يوم بعدد ذهاب الحجاج الذين يردون إلى مكة وتنطلق حناجرهم بالتلبية.

١٢٧ــ ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم و يدعو من حضر أن يصلى عليه وهى عادة كثير من الشعراء بأن يختم قصيدته بالصلاة على الرسو محمد صلى الله عليه وسلم.

١٢٨ــ زيزف: الناعم الأبيض، عقاب: إبن الشاعر يقول الشاعر لقد سار القلب

يكتب على صفحات ذلك القرطاس الصقيل، وأنت يامن أفديك بمهجتى سترى مايسير به ذلك القلم ليكتب.

١٢٩ـ النويهدات: التنهيدات، وَكْرِيٍّ: الصقر الحر الذى لم يغادر وكره.

يقول الشاعر إنه سيكتب فوق هذا الورق مايتبادر فى خاطره من التنهدات والتأوهات لتلك التى تشبه عيناها عينا الصقر الحر المتوحش الذى لم تمسه يد الإنسان أو تروضه فهو لم يغادر وكره حتى الآن وعيونه فى هذه الحال أكثر صفاءاً فلم يغيرها تضليل البرقع.

١٣٠ـ يوصى صاحب القلم أن يكتب ذلك الجواب و يعنى بها القصيدة التى تشبه قطف الأثمار من نظم إبن عدوان وهى من جيد أشعاره.

١٣١ـ ضامر: قلب يقصد منبع العاطفه، كنه: كأنها، نيرة النمرود: نار النمرود التى أراد أن يحرق بها إبراهيم الخليل عليه السلام.

يقول الشاعر أكتب أيها الكاتب تلك الأبيات النابعة من قلب كان به النار الموقدة التى تفوق نار النمرود التى أراد أن يحرق بها خليل الرحمن.

١٣٢ـ غليث: هو الكلب المصاب بداء الكَلَبْ «الغلث».

يقول الشاعر: إن قلبه كأن ينهشه ذلك الغلث المسعور، وحال جسمى كأنها يبرها النجار بقدومه الحاد.

١٣٣ـ خَلاَّن: تركنى.

يأمر هذا الكاتب أن يكتب لذلك الغالي العزيز إلى قلبه والذى ترك فؤاده وكأنه قد أشعلت فيه النار وتركه فى هذه الحياة الدنيا وحيداً لاأنيس له فهو محتار فى مسيره عبر بقية حياته.

١٣٤ـ شب: الشب المعروف مادة كيماوية شديدة الحموضة والملوحة زنجار: لعله يقصد الزرنيخ أو مادة أخرى

يقول الشاعر أنه بعد أن فقد زوجته فقد فارق النوم جفنيه وكأن عينه قد ذرها الشب والزنجار حيث أصبحت تؤله ألما شديداً ولايستطيع أن ينام.

١٣٥ـ إعول: أصيح، الجيد: البعير الثاوى الذى لايستطيع أن يثور من مبركه.

يقول الشاعر أنه يصيح كعواء الذئب فى الليل والنهار ويحن مثل حنين

ذلك البعير الباقى فى مبركه لايستطيع النهوض من الهزال فهو باق فى مكانه ليس له حيلة سوى الحنين.

١٣٦ـ الترايب: التراب، توارى: دفن، خلان: تركنى.

يقول الشاعر أن سبب إعواله وصياحه من فقد ذلك الحبيب الذى توارى عني فى طيات ذلك التراب وتركنى فى هذه الحياة وحيداً لاأنيس عندى ولذلك فقد إحترت فى أمرى.

١٣٧ـ قارا: رياء، التماثيل: التمثيل والتصنع، بذار: أجيدها وأفعلها.

يقسم الشاعر أن مايقوله ليس فيه كذب ولارياء ولا تصنع حيث قال: أننى لم أقل إلا الصدق النابع من ضميرى المخلص.

١٣٨ـ إخلاف: وبعد ذلك، البسيطة: الأرض، طيبة: المدينة المنورة حيث مسجد الرسول (ص)، البيت: يقصد المسجد الحرام.

يقول الشاعر وبعد ذلك فورب ماعلى وجه هذه الأرض من البشر ومن طاف بالحرمين الشريفين مسجد طيبة وبيت الله العتيق بمكه أننى لم أقل إلا الصدق.

١٣٩ـ الشحر: مدينة بحضر موت، نجد المعروفة، وتونس معروفة أيضاً، سنجار: جبل سنجار فى الشمال الغربى للعراق قرب الحدود العراقية الأردنية السورية.

يقسم الشاعر أنه لوجمع جميع النساء والعذارى منهن من أقصى الجزيرة العربية جنوبا إلى أقصاها شمالاً ومن نجد فى قلب الجزيرة إلى تونس فى المغرب العربى لن يروق له منهن أحد.

١٤٠ـ البصرة: مدينة معروفة وهى ميناء العراق على الخليج العربى قندهار: مدينة فى غرب أفغانستان شرق إيران ووقتها كانت تعد فى أقصى الشرق لطرق القوافل آنذاك.

وجدد من اقصى الشرق مدينة قندهار إلى البصرة جمعت نساءها لن يختار من بينهن سوى زوجته الفقيدة وضحاء.

١٤١ـ أجل جل الزين: خلاصة الجمال الكامل، المسارا: المسير، ثليل: شعر الرأس الطويل الكثيف راعى: صاحبه.

يقول الشاعر إن الجمال المتكامل قد منحه الله إياها ولم يبق لأحد منه شيئ، فإذا مشت كانت مشيتها رائعة ولها شعر طويل كثيف يغطى أردافها يجتال من فوقها.

١٤٢ـ العفارى: جمع عفراء وهى الظبية الضاربة للحمرة، خشوف: جمع خشف وهو ولد الظبية، دو: الواسع الأقفار: جمع قفر وهى الأرض الخالية من السكان.

يصف الشاعر عنقها بعنق تلك الظبية النادرة التى تقود مجموعة من الظباء العفر ومعها تلك الخشوف الصغيرة من الظباء وعادة تكون قائدة الظباء من أبرزهن جسما وأذكاهن وأكثرهن إنتباها وحركة.

١٤٣ـ ويصف جسمها بغصن الموز المباسق يجرى الماء من تحته حائراً رقراقا فى وسط ذلك البستان الأغن والثمار تتدلى من حوله مما زاد منظره بهجة وجمالاً.

١٤٤ـ غب: غبة، الأبحار: البحار.

يقسم الشاعر بالله مدير النهار والليل ومجرى سفينة نبيه نوح فى غبة ذلك الطوفان الهائل.

١٤٥ـ لوجن: جئن، الحنايا: الهوادج، خوار: كنى للجمل الذى يوضع عليه الهودج، ووصفة بـ خوار لطواعيته للركوب.

يقسم الشاعر لوجاءت إليه بنات البدو صفا واحداً يتبارين فى التأنق والجمال زاهيات فى هوادجهن.

١٤٦ـ نوار: زهور.

ولو جاءت إليه بنات الحضر وكأنهن المهار الفتية وقد لبسن أزهى زينتهن ولبسن أبهى حليهن حتى لترى صفوف الحلي الذهبية بأعناقهن وكأنها الزهور الصفراء الزاهية.

١٤٧ـ صُلَيْب: تصغير صَلَبى وهى فئة يرجح أنها من أصل عربى ربما يرجعون إلى قبيلة بنى محارب العربية متجولة بين القرى ومضارب البادية يتقنون صنعة بعض الأوانى المنزلية والمستلزمات البيتية، وتشتهر نساءهم بالجمال، الشهارى: جمع شهرى وهو الحمار الأبيض وهى عند هذه الفئة بمثابة الخيل

عـنـد العرب. بشفيهن: شفاههن، دق الأوبار: الوشم الذى ينقش فى الوجه للزينة.

ولـوجاءت إليه بنات الصلبة راكبات على ظهور تلك الحمير البيضاء وقد نقشن وجوهن بالوشم الجميل مما زادهن جمالاً على جمالهن.

١٤٨ــ ولـوجاءت إليه كذلك بنات الأتراك، والنصارى والهند وجميع الأمصار التى يعرفها الشاعر.

١٤٩ــ لـوجاءت إلـيه كـل هـذه الفـئات المذكورة أعلاه فى ضحى يوم العيد وقد إزدانـت كـل واحدة منهن بأبهى زينتها بالإضافة إلى الجمال الطبيعى الذى وهـبه الله لها وبلاشك فإن هذا المنظر الذى جمعه خيال الشاعر لو تجسد فى موقـف واحـد لأصـبح مـشـهداً رائعاً ولكن رغم ذلك فإنه لن يروق للشاعر لـوقـيل لـه قـم مـن مكـانـك وإختر من بين تلك الفتيات واحدة زوجة لك فسيكون رده الحتمى فى البيت اللاحق.

١٥٠ــ مضنون عينى: الذى ضنت به عينى واختارته على من سواه.

يـقسم بأنه سيرفض هذا الجمع الهائل من الفتيات الحسناوات ولن يأخذ سوى تلك الزوجة التى فارقته إلى الأبد ولن يظفر بها مرة ثانية.

١٥١ــ مسايل: سجايا، التفاكير: الأفكار.

يـبـرر الـشاعر لماذا رفض كل هذا الجمع ولم يأخذ سوى زوجته، بأن بها خـصـال حـميدة كثيرة، وبها خصال أخرى يحتار الفكر فى تعدادها والإحاطة بها.

١٥٢ــ فبهـا شـيمة الفهد، وزعنفة النمر، وقد إكتست بالجمال اليوسفى الذى يضرب به المثل وتحتار فيه الأفكار.

١٥٣ــ حِسَّه: صوتها، تقل: كأنها.

ولها ذلـك الصوت اللطيف الناعم الذى يشبه جنى الثمار الندية لطلاوته وطـراوتـه وحـلاوتـه فـيكـاد صوتهـا يـسبى عقل نديمها حيث ينساب بأنغامه السحرية الجذابة.

١٥٤ــ ويلاه: الويل.

وعندما ذكر الشاعر هذه المحاسن بدأ يردد الو يلات تترى من حلقه على ذلك الزقوم الذى تجرعه مراراً وتكراراً.

١٥٥ــ مسلوب الحشاشين: ضامرة هضيمة الكشح، غرو، المرأة البيضاء الصبوح، نشار: منتشر.

يبين الشاعر سبب و يلاته من فقده لتلك المرأة المتميز بدقة الخصر والبياض الناصع التى إذاأطلت فكأنها البدر فى حندس الظلام يشع نوره فى كل إتجاه.

١٥٦ــ المشارا: ربما قصد عنان الفرس، السبايا، الخيل أشهب الملح: البارود، زَجّار: يتفجر بشدة.

يتمنى لوكانت أميته معها تحت دخان البنادق وعلى ظهور الخيل فى أتون المعركة.

١٥٧ــ ولكن للأسف لم تتحقق أمنية الشاعرحيث باغتها ملك الموت وفرق بين قلبين وشتت جسدين حيث بقى قلبه فى حيرة لايدرى ماهو المخرج منها.

١٥٨ــ البهار: يقصد الهيل والقرنفل والزعفران وهو مايهر به القهوة، حص: لؤلؤ، محار: اوعية اللؤلؤ.

يعود الشاعر مرة ثانية إلى تعداد محاسنها إن جسدها طيب الرائحة دونما تطيب وإن أسنانها تشبه حبات اللؤلؤ التى خرجت لتوها من محارتها.

١٥٩ــ بسرة القلب: جسمه.

و يقول الشاعر أنه لولا وجود الأضلاع قد منعت القلب لطار من بين حناياه وغادر مكانه من شدة مايعانى من الآلام وكأن هناك منشاراً ينشر فيه.

١٦٠ــ يقول الشاعر لاأحد يلومنى على ماأبديت من الجزع والتوجع وإننى أعتبر من يلومنى على مافعلت بدرجة فهم الثور أو الحمار وهما من الحيوانا البليدة، وربما أعتبر أن الثور خير من ذلك اللائم فالثور إذا أردته أن يدور عن وجهة سيره فما عليك سوى أن تنهره طالبا منه الدوران وعند ذلك سيلبى رغبتك و يدور للإتجاه الذى تر يد.

١٦١ـ وفى الختام يصلى الشاعر بعدد وحوشى القفار وبعدد ماتسكبه السحب من قطرات المطر على الرسول صلى الله عليه وسلم.

١٦٢ـ صلاته هذه على محمد صلى الله عليه وسلم بالسروا لعلن ذلك النبى الذى خضع له كل قاس وجبار حتى دانوا بدين الاسلام الحنيف.

١٦٣ـ هجعة النوم: لذة النوم. الوجلى: الوجل النديم: الصاحب المنادم.

يقول الشاعر أنه فى غرقة النوم، ألم بى طيفها ففزعت من الوجل ورددت الويلات على فراق ذلك النديم الذى تركنى لوحدى.

١٦٤ـ المجمول: الجميل البهى، هيف: أهيف ناحل الخصر البريم: هو سير مجدول تضعه النساء على خصورهن بعدة طيات ويعتبر للزينة، ويقصد هنا موضع البريم وهو الخصر الأهيف.

يقول الشاعر أنه فى تلك النومة الهانئة فقد زاره طيف زوجته التى تلك صفاتها فقام من نومه فرحا وهو يحسب أنه ظفر بها ولكن خاب أمله عندما لم يجدها فى صحوته.

١٦٥ـ ينحب: ينتحب وهو البكاء الشديد.

يقول الشاعر إنه أهون حالاً من أبنائه فهو يكتفى بالبكاء بينما أبناؤه يزيدون عليه نحيباً ويدعون أنهم أيتام وقد صححت لهم هذا الإعتبار بأننى أنا اليتيم وليس هم.

١٦٦ـ غدابه: ذهب به، سمهرى: يقصد الرمح ويقول الشاعر إن قلبه كأنه قد ذهب به ذلك الرمح السمهرى من غصن الزان ويدعى الناس إننى سليم بينما أوضحت لهم أننى لست بسليم وإنما كأننى مطعون بذلك الرمح الفتاك.

١٦٧ـ إبن عدنان: الرسو محمد (ص)

يدعو الشاعر ربه بجاهه الكريم وجاه رسله من محمد الى موسى كليم الله أن يغفر لها ذنوبها ويمن عليها برضاه ومغفرته.

١٦٨ـ وبحق عرشه وكرسيه والقرآن واللوح المحفوظ أن يفتح لها بجناته دار إقامة مع المتقين الأبرار.

١٦٩ـ أودعنى: جعلنى، الخلال: وتذيثبت فى عرض الجدار، العنود: قائدة الظباء، تذير: تفزع مفلاه: مرعاها.

يقول الشاعر أن محبوبته برت حاله بريا حتى صار جسمه عار من اللحم وكأنه الخلال المثبت بالجدار تلك الفتاة التى تشبه الظبية التى تقود الظباء فى مراعيها.

١٧٠ــ نطيت: إعتليت، مزبور: مرتفع، راع: صاحب العلوم: المواضيع، الدقاقة: الحساسة.

تقول الشاعرة أنها قد إعتلت رأس تلك الأكمة المرتفعة لعلها تشرف بنفسها على صاحب الشئون الحساسة التى يهمها معرفتها وهذا من باب التمنى .

١٧١ــ ونتى: أنتى، ضاهدينة: مضطهدينه، رفاقه: رِفَاقَةُ وأصدقاؤه وقرابته.

تقول الشاعرة إن أنتها العميقة سببها مافى قلبها من الجور والأحزان وتشبه أنتها أنة ذلك المظلوم الضعيف الذى تسبب فى ظلمه واضطهاده أصدقاؤه أو أقاربه وذويه وذلك يكون أشد ألما من لو إضطهده غيرهم.

١٧٢ــ شفاتى: ماتهفو إليه نفسى، القور: جمع قارة وهى الجبيلات الصغيرة، التفاقه: البنادق، وهو رمز للرجال فهم الذين ينقلون السلاح.

١٧٣ــ تقول الشاعرة إن ماتهفو إليه نفسها هو ذلك الرجل الذى يسكن بمنطقة القور، وهى قرية من مدينة عرعر الحالية بشمال المملكة العربية السعودية، وقد إنتقيته من بين الرجال ناقلى الأسلحة.

١٧٤ــ الظليم: ذكر النعامة، الخور: الأرض الجرداء المكتسية بطبقة من السباخ وقد يوجد بها مستنقعات القرا: الصيدة.

ويتصف محبوب الشاعرة بأنه صياد ماهر فلايكاد فريق النعام ينقض مع تلك الأرض الجرداء حتى يعترض له ويعوقه عن مسيره بإصابة قائده حتى تتناثر قطرات الدماء على ساقه بعد إصابة الطلقه له.

١٧٦ــ عوق لي: منذ أن رأيته عاق مسيرة حياتى، ثابور: لقد انثبرت فى مكانى ولم أستطع حراكا. شوفه: رؤيته، شفاقه: نادرة.

تقول الشاعرة أن هذا الشخص قد أعاق مسيرتى فمنذ أن رأيته وقعت مودته فى قلبى حتى إعتلت صحتى وأصبحت منهوكة القوى لا أستطيع مغادرة مكانى وصارت رؤيته نادرة وبعيدة المنال.

١٧٧ـ الغوش: الشباب، الكور: الكرة التى كانوا يلعبون بها آنذاك وهى قطعة من العظم يضربونها بالعصى وهى تشبه لعبة «الغولف» الحالية، أوماة: إيماءة العلاقة: خيط يعلق به العصا بعد خرق أحد طرفيه و ينظم الخيط فى الثقب.

تقول الشاعرة أن حُبَّهُ لعب بقلبها مثلما يلعب الشباب بتلك الكرة كل واحد يقذفها على الثانى بقوة ضربته وأومأ بها مثل إيماء العصا بعلاقته عندما يضعه المرء باصبعه و يبدأ بإدارته بحركة، دائرية مركزهاإصبع اليد يدور حولها العصا، وخلاصة القول أنه قد سلب بها.

١٧٧ـ مشة الزور: مقدمة الصدر والمشة العظم المجوف بفراغات متجاورة، وتقصد حبة القلب.

تقول الشاعره أن وده ومحبته قد سَمَّرت قلبها على المكان التى أشارت إليه كما تسمر حلقات الحديد المتينة عليه بحيث من الصعب إنفصامها أو إقتلاعها وكذلك حب صاحبها لايمكن إزالته او محوه.

١٧٨ـ غديت: صرت، إحدي: أتحرك، أبدى: أتكلم أثور: أنهض، عدى: كأنى، خلوج: الناقة التى فقدت ولدها.

تقول الشاعرة أنها صارت لا تستطيع حراكا ولا تفصح قولاً وتعجز عن النهوض من مكانها وكأنها تلك الناقة الحز ينة التى أحكموا وثاقها حتى لاتهرب للبحث عن إبنها الفقيد ومكثت تصارع خلجاتها العميقة وشدة العقال التى أو ثقوها به، وكذلك الشاعرة بنفس الحال.

١٧٨ـ لم: بمعنى إلى، عرعر وأباالقور مكانان معروفان شمال المملكة فعرعر مدينة مشهوره، وأبا القور واد به جبيلات صغيرة غير بعيد عنه. تستخيله: تخيله لتعرف مكان مساقط مطره، شفاقة: نادراً.

تقول الشاعرة إن ذلك البرق الذى تحدرت سحبه إلى ذلك المكان قد ذهب وأبعد عنك فلا تحرصى على مراقبته رجاءاً لنفع المطر الذى ينزل منه وهى تعنى هنا ذلك الرجل الذى أشير إليه فى البيت ١٧٢.

١٧٩ـ تري: ليكن فى علمك، إيهم: بهم تماز يح: مزاح، بخصه: معرفته.

تنصح الشاعرة إبنه زوجها بهذين البيتين من واقع تجربتها بأن الرجال كثيراً مايختلط كلامهم بالمزاح والمداعبة بعيداً عن الجد، ولذلك فمن الأفضل ألا تتعلقى بأحد-منهم حتى تعرفيه معرفة تامة.

١٨٠ـ ولكن الشاعرة لم تقبل بهذه النصيحة من خالتها بل صارحتها برأيها النهائى حينما قالت لها أن من لم يستشيرك فى موضوع ما فلا تبادره بالمشورة ومن لايود رؤيتك فمن الأفضل أن تفارقه وتبعد عنه، وهذا البيت صار مضرب المثل فى بعض المواقف.

١٨١ـ تقول الشاعرة مناجية ربها إنطلاقا من الآية الكريمة «وعسى أن تكرهو شيئاً وهوخير لكم» فتقول لعل الإنسان يكره شيئاً وفيه خيراً له وتواصل نجواها لربها والى الكون ومصرف شئون خلقه سائلة إياه أن يهديها و يرشدها و يدبرها إلى مافيه الخير، وهذا المبيت مضرب مثل فى كثير من الظروف والمناسبات.

١٨٢ـ اللى: الذى يبى: يريد، الجادل: المرأة ذات القوام الممشوق، المربوع: القامة المربوعة، يسوق: يدفع مايراوى: لايتردد.

يقول الشاعر إن الذى يريد تلك الفتاة ذات القوام المعتدل والقامة المربوعه فعليه أن يدفع الألفين بدون تردد أو مواربة والفى الريال آنذاك تعد مهراً غاليا فى قياس ذلك الزمن.

١٨٣ـ الغوش: الشباب، نبى: نريد، تروا: إذاً، رأس مشعاب: مركز عمل قرب مدينة الجبيل على الخليج العربى وقد أصبحت الآن مدينة.

ينادى هذا الشاب أقرانه الشباب بالذهاب الى الظهران منطقة العمل فى الجزء الشرقى من المملكة و يضرب لهم موعداً فى رأس مشعاب أحد مراكز العمل قرب حقول النفط.

١٨٤ـ النشاما: ذوى الاخلاق العاليه والطموحات البعيدة نصوا: ذهبوا، شيابه: الشيوخ وهم كبار السن.

يقول الشاعر أن جميع الشباب من ذوى الأخلاق والطموح ذهبوا إلى هناك ولم يبق هنا غير النساء والأطفال والشيوخ فهيا نلحق بهم.

١٨٥ــ رأس تنورة: مركز ثانى لتكرير النفط وتصديره وهى ميناء النفط على الخليج العربى.

ينادى هذا الشاعر الشباب مرة أخرى للذهاب إلى منطقة العمل و يضرب لهم موعداً آخر فى مركز عمل آخر هو رأس تنورة.

١٨٦ــ وش عاد: ومايدريك. هورة: نوع جيد من الأرز وفى ذلك الوقت كان وجود هذا النوع نادراً والحصول عليه غنيمة.

يقول الشاعر إن ذهابه إلى هناك للإكتساب خير له من الجلوس عاطلاً عند النساء والعجائز والشيوخ الذين يحتقرونه وفوق ذلك فإن مستوى المعيشة هناك عاليا حيث يحصل على الأصناف النادرة من المأكولات التى لاتوجد لديهم فى منطقتهم.

١٨٧ــ فرت: «فورد» نوع من السيارات إنتاج شركة فورد الأمريكية الرفارف: جمع «رفرف» وهو غطاء العجلة الأمامية سيدان: طراز معين صغير الحجم، شبر: قصيرة مداهيله: ضوابطه التى يتحكم بها السائق.

يتمنى الشاعر ذلك النوع من السيارات التى تلك صفاتها وهي أمنية يكاد يحلم بها فى غرفة النوم.

١٨٨ــ وليا: إذا، نعيم العود: ناعم الجسم، الشيلة: الخمار الذى تضعه المرأة على رأسها.

يكمل أمنية بأن هذا النوع من المركب الفخم لايركب فيه سوى النساء المترفات.

١٨٩ــ حمراء: يقصد ناقة حمراء، تكف: تسبق، خضاب: الحناء الذى تضعه النساء فى أكفهن.

ينادى الشاعر راكب تلك الذلول الحمراء التى يشبه لونها حمرة الحناء فى أكف الفتيات.

١٩٠ــ ليا: إذا، تقل: كأن، ذيره: جافلة، شليل: طرف، الثوب العباة: العباءة.

يقول أن تلك الناقة الحمراء كأنها قد جفلت فأسرعت فى سيرها، وهى حساسة فأقل شيئ يذيرها حتى طرف عباءة راكبها إذا لامستها جفلت وزاد سيرها.

١٩١ـ جان: جاءنى، السريرة: أسر إليّ بالخبر، وين: أين، ربط لي بشاة: ربط لي الشاة.

يقول الشاعر أن الذئب جاء إليه وأسر إليه بالخبر قائلاً أين ذلك الجواد الذى ربط لي تلك الشاة فاتخذتها عشاءاً.

١٩٢ـ عمامك: أسيادك، دَلاًّ: صار، عَيًّا: رفض.

عند ذلك يقول الشاعر أنه قال للذئب إن أسيادك الذين تبحث عنهم قد فاضوا إلى الجزيرة وهى الأرض الواقعة بين نهرى دجلة والفرات في العراق الشقيق وذلك حينما ذهب جزء من عشائر القبيلة الممدوحة إلى هناك.

١٩٣ـ تلقى: تجد، أشمط: من إختلط شعره بالبياض تقل: كأن.

يقول الشاعر إنك عندما تصل إلى ذلك المكان فستجد ذلك الرجل الذى شمط شعره الشيب يرحب بك وهو كريم وغير بخيل على مايقدمه لضيوفه من الطعام وعند أبى نائف هذا فكل يوم كأنه فى عيد بما يقدمه لضيوفه من صنوف الكرم والإبتسامة العريضة المصاحبة لذلك البذل.

١٩٤ـ الزفيف: ضرب من سير الإبل، الفيافى: جمع فيفاء وهى المساحات الشاسعه، عمانى: من النجائب العمانية وهى مشهورة فى الجزيرة العربية بالحرار العمانية.

يقول الشاعر أيها الراكب من فوق ذلك الحر العمانى الذى إذا سار فهو عجل فى إرقاله، وهو مأمون السير والسُّرى ومن عادته قطع المسافات الشاسعة فى وقت قصير.

١٩٥ـ يكهلن: يستوعبن، الرديف: الراكب الثانى الذى يركب خلف الراكب الأول، اللي: الذى، كعكعه: قهره وكبحه، بالعنان: يقصد عنان الفرس.

يصف الشاعر ذلك الحر بأن له وركان واسعان يستوعبان الرجل الثانى الذى سيستردفه الراكب الأساس وهو بسيره أسرع من الحصان الذى يجرى كبحه بالعنان عندما يزيد فى جريه فهذا الحر أسرع منه.

١٩٦ـ يشدا: يشبه، ظليم: ذكر النعام، شاف: رأى الزول: الشبح، ذريف: بعيد غير واضح، مشك: شك به، وتالى: فى النهاية، بأن إتضح.

وهذا الجمل يشبه ذكر النعام الذى ذاره ذلك الشبح البعيد الذى كان يشك فيه إلى أن إتضح له الأمر فى النهاية أنه يخيفه، فأطلق العنان لساقيه يسابق الريح وهذا الحر يشبهه.

١٩٧ـ قفى: أسرع ذاهبا: بالريش هز: يحرك ريش جناحيه، الفنادى: جمع فندؤة، وهما اللحمتان البارزتان فى صدر الطائر.

يصف الشاعر ذلك الظليم عندما راعه الشبح فانطلق مسرعاً يسبح فى الجو قريبا من الأرض يرفع جناحيه ويخفضها تساعده فى ذلك لحمتا صدره البارزتان السمينتان مما زاده قوة وسرعة فى جرية.

١٩٨ـ نطيت: إرتقيت، المنيف: المرتفع، المُهَبّا: بعيد المنال، عشيرى: صاحبى.

يقول الشاعر أنه إرتقى برأس ذلك الجبل الطويل المرتفع الذى لاتناله سوى ذوات الأجنحه وذوى الحاجة مثلى وقد إكتويت برأسه من شدة مارأيت من فراق الأحبة.

١٩٩ـ أخيل: أنظر، مظهور: ظعن، يهيف: يتحرك ببطء صوب: جهة قطن: جبل بالقصيم، وكذلك الموشم، وأبان جبلين مشهورين بالقصيم.

يقول الشاعر أنه من على قة ذلك الجبل المرتفع فقد شاهد ظعن محبوبته يمشى على الأرض الهوينى متجها إلى أيسر جبل قطن جهة جبل الموشم وجبلي أبان أو أبانان الأحمر والأسمر، ومع أنه لم ير هذه الجبال من مكانه ذلك لبعد المسافة بينها إلا أن الظعن قد ذهب فى تلك الوجهة.

٢٠٠ـ خصيتهم: دققت النظر وركزت فى نظراتى إليهم، الشوف: النظر، الذريف: الحريص المشتاق إلى رؤيتهم ليانا غدا: حتى صار، ذيهبانى: إختفوا وذهبوا.

يقول الشاعر أنه جلس من على مكانه يحدق بتلك الأظعان ويركز نظراته بكل حرص واشفاق حتى إختفت تلك الأظعان وحال بينه وبينها السراب السابح فوق تلك الأرض المنبسطة.

٢٠١ـ حولت: نزلت، الطويلة: يقصد الجبل، معيفى: أى عفت كل شيئ وزهدت فى الحياة، مرصوف الثمان: يقصد محبوبته ذات الأسنان الجميلة المرتصة بعضها إلى بعض إراجوانى: راجيا الحصول عليها.

يقول الشاعر أنه بعد.أن إختفت عنه تلك الأظغان نزل من ذلك الجبل وقد زهد فى كل شيئ وعافه لأنه لم يكن على رجاء من الظفر بتلك الحبيبة التى طواها عنه- اليأس.

٢٠٢ـ وعند ذلك يطلب ربه الكريم الذى يفتح للضعيف من خلقه بابا يفرج عليه كربته أن يبعد عنه مودة تلك الفتاة التى فتن بها وأحرقت فؤاده دون أن يكون هناك طائل وراء التعلق بها.

٢٠٣ـ ماهو على: ليس له علي سلطان، ولاشريفى: يقصد أشراف مكة أيام حكمهم، أى ليس له علي سلطة السلطان أو الأشراف، العوانى: جمع إعانه.

يقول الشاعر ليس لمحبوبى عليّ سلطة وحكم السلطان أو الأشراف وقد قطع عنى كل رزق يأتى إلي وكل إعانة تفد علي وربما قصد من ذلك علاقاته العاطفية.

٢٠٤ـ زين: جمال، مظنون عينى: ماأظن وأبخل به على غيرى، عنيف: صارخ، وصايفه: أو صافه ميدمانى: آدمية من بنات حواء.

يقول الشاعر إن الجمال الذى تمتاز به تلك الفتاة هو جمال نادر ولايوجد له مثيل على أحد من بنات حواء وإنما ربما ينطبق عليها جمال الحور اللواتى لسن من بنات آدم وحواء.

٢٠٥ـ وليا: إذا، هنف: إبتسمت بدلال، المبيسم: تصغير مبسم وهو الثغر، عدهن: كأنهن: قحو يانى: زهر الأقحوان يشبه أسنانها فيه بياضا ورقة واصطفافاً.

يقول الشاعر أن تلك الفتاةإذا إبتسمت بدلال وإغراء فإن ثغرها يتبلج عن تلك الأسنان الناصعة البياض التى تشبه زهور الإقحون وهو كثيراً ما تشبه به الأسنان الجميلة.

٢٠٦ـ ماهو قسى: أى ليس جسمها قاسيا، مظنون عيني: أي من أظن وأبخل على أى إنسان برؤيته، صخيفى: أى نحيف الجسم، البجر، جمع بجراء وهى المترهله فى جسمها، الغثاث: ذوات الأجسام التخينة، البدان جمع بدينة وهى كبيرة البطن والخاصرتين.

يقول الشاعر أن محبوبته ليست من ذوات الأجسام النحيفة والعارية من

اللحم القاسية، وليست من ذوات الأجسام المترهلة، وليست من ذوات الأجسام الغليظه والبطون البارزة والخواصر المتدليه.

٢٠٧– يهيف: يتحرك، اللزا: ماتقف عنده الإبل التى تخرج الماء من الآبار، السوانى: الإبل التى تنزف الماء لسقى المزروعات والبساتين.

يقول الشاعر أن جسمها ليس كما ذكر فى البيت السابق وإنما هو يشبه ذلك الغصن فى شجرة الرمان وتمتاز شجرة الرمان باعتدال بعض أغصانها وطراوته وخلوه من الورق والفروع بما يزيد على المترين خاصة إذا كانت الشجرة ريانة بالماء، وقد إنتبه الشاعر إلى ذلك فتصور موضع تلك الشجرة عند مصب الماء مباشرة وقرب السماد الناتج عن الإبل والذى تنساب خلاصته مع الماء إلى جذع شجرة الرمان ليسمق ذلك الغصن الذى يشبه جسم محبوبته وهو تشبيه لم يسبق إليه حسب علمي.

٢٠٨– الجوارى: الماء الجارى، ذريفى: منسكباً، نُبُوت: قد نبت من جدع الشجرة قرب عروقها وذلك أنشط من شجرة ريانة يجرى الماء تحتها دائما، وقد نبت ذلك الغصن الأهيف من قرب عروقها فارتفع شامخاً لايوجد به عقدة أو فرع أو مثناة، وهذا بالطبع حسب إدراك الشاعر ومن الأشياء المحسوسة لديه.

٢٠٩– مرمسات: قد عفى عليهن الزمن، مدانيف: جمع مدنف وهو الوهان، خلاف: لم يكن بلك أذى.

يقول الشاعر أن هذه الحادثة قد جددت لديه جروح قد نسيها أو كاد ينساها وقد عفى عليهن الزمن مع أنهن شديدات الحساسية عميقات الغور، وقد انتشلها ذلك الحادث من مكانها، ومن قبله فإنك أيها القلب سليما معافى.

٢١٠– يشدن: يشبهن، خشم: الخشم هو الأنف من الإنسان أما الجبل فنهايته المنتصبة والبارزة للعيان رمان: جبل إلى الجنوب الشرقى من جبل أجأ بمنطقة حائل وينقسم رمان إلى قسمين أحمر وهو من الصخور الجرانيتية الوردية وأسمر وهو من الصخور النارية البركانية والجزء الأحمر فى الجهة الغربية والجنوبية أما الأسمر فهو الجزء الشمالى والشرقى. رزفلنى: ضرب

من السير للإبل وهو قريب من النميل أوهو الذميل نفسه.

يوجه الشاعر الطلب إلى واحد وهو فى الواقع موجه إلى إثنين ولكن للضرورة وجهه إلى أحدهم ذلك الذى إمتطى كور تلك الناقة الحمراء التى تشبه القوس فى إنحناءتها وهى ضامرة كأنها القوس وهى من علامات النجائب الأصيلة، هذا الراكب مع زميله الذين انطلقت بهما هاتين النجيبتين من عرف ذلك الجبل الوردى الأحمر.

٢١١ـ الدل: مايوضع على المطية من خرج وغيره. محتاس: زاهى الألوان، سفايف: الحبال المزدهية بمختلف الألوان والمنتهية بعثاكيل ملونه أيضاً أربع: يقصد قوائم المطية.

يقول الشاعر أن هذه النجيبة ليس عليها سوى الخرج الزاهى بألوانه وعثاكيله الجميلة تحت راكبها أى أنها مطية معدة للأسفار وقطع المسافات وليس لنقل الأحمال.

٢١٢ـ الكور: هو الشداد الذى يركب عليه وهى فصيحة، لادك: إذا طرأ، ينباج: يتضح و يبرز، وهى فصيحة، مكنون: ماأكتمه من أسرار، الحشا: يقصد فؤاده لا أدلجنى وهى فصيحة.

يقول الشاعر إن هاتين المطيتين اللتين تلك أوصافها بأكوارهما ألوذ بأحدهما إذا خطر على البال هاجس حيث أبوح بأسراري التي أكتمها عن الناس عندما يدلجن بي وبرفقي في تلك الفياض الغناء.

٢١٣ـ تنحرن: إتجهن، عساس: من جاء من الضيوف فى الليل طاو يا قد ساقه البرد والجوع فسيجد الدفء والطعام ريف: نعيم الضيوف من مأكل ومشرب ومأوى إليا: إذا، محلنى: سنين الجدب حيث يقل الطعام يوصى راكبى هاتين المطيتين إذا وصلا إلى عمه ذلك الرجل الكريم الذى يقري الضيوف و يقوم بمتطلباتهم حتى ولو كانت الدنيا قد أجدبت وقل الرزق.

٢١٤ـ حسايف: جمع حسافه وهي الأسف وطلب العفو والمعذرة مما بدر منه.

يعتذر لعمه مما حصل منه لزوجته إبنة عمه و يصف له عميق أسفه وشدة ندمه. بحيث لا أحد يعلم مايقاسيه من الألم والحزن وتأنيب الضمير.

٢١٥ـ وطت: سلكت، الأدناس: الطرق المشبوهة يقول الشاعر إن إبنة عمه هذه بعيدة كل البعد عن الطرق المريبة، ولم تفعل مثلما ربما تفعله بعض النساء من سلوك تلك الطرق الملتوية.

٢١٦ـ نوماس فخر واعتزاز، أفخت: جَانَبَ.

ينـدم الشاعر على مافعل بها حينما ضربها وهو يحسب أن ضربه لها مما يزيل عنها ماألصق بها ويكون أثر ضربه لها مكاناً لفخره واعتزازه، ولكنه في الواقع فعل ذلك عندما جانبه الصواب وذهب بعقله عنفوان الغضب.

٢١٧ـ محذا: لايوجد غير، إمشاقة الرأس: الشعر العالق بالمشط من شعر رأس المرأة عندما تسرحه وتلف هذا الشعر المتساقط وتودعه فى ثقب الجدار أو مكان خفى. وثلاث: يقصد أثافى القدر.

يقول الشاعر وقلبه يقطر لوعة وأسى إنه لم يبق من آثار زوجته إلا تلك اللفافة الصغيرة من الشعر وتلك الأثافى الثلاث اللاتى لايبكين مثلي لأنهن جماد ولايستأهلن من يبكى عليهن.

٢١٨ـ حبه: حبها ولكن للضرورة حذف الألف، سرحان: من القاب الذئب، الطليان: الخراف وهى فصيحة يصور الشاعر أنه لوشكى حبه لها على ذلك الذئب المفترس لذهب مع الخراف دون أن يؤذيها أو يصيب شيئ منها والخراف فى هذه الحالة لن تجفل منه.

٢٠٠ـ بمويكره: بوكره.

يقول الشاعر إنه لو شكى حبه لها على الطيور لم تبارح وكورها وجاء وقت الضحى وهى فى أماكنها خلافا لما هو معروف أن الطيور تغادر أوكارها مع بزوغ الفجر وآخرها مع طلوع الشمس.

٢٢٠ـ السوانى: الإبل تخرج الماء من البئر وهى فصيحة ويكرر الشاعر أنه لوشكى حبها على الزرع لم ينمُ ولم يطل وبذلك فأهل الإبل الذين يسقونه عليها سيتوقفون عن إخراج الماء من أعماق الأرض وسقيه مادام لم يرتفع من الأرض.

٢٢١ــ حرجم: تراكم، المغانى: منابع الأودية وفروعها التى يتكون منها سيل الوادى، تزن: صوت قعقعه السيل أثناء جريانه مع المجارى المنحدرة.

و يقول الشاعر إنه لو شكى ذلك الحب على السيل لتوقف عن حريانه وتراكم فى مكان واحرنجم رغم ماتدفع به الفروع من كميات المياه المنحدرة.

٢٢٢ــ قب: ذات الجوشن المرتفع وهى ميزة فى بعض الخيول عَيَّنْ: أبَيْنَ، الكون: الحرب.

يقول الشاعر إنه لوشكى حبه لها على تلك الخيول الأصيلة ذوات الأضلاع المرتفعة لأبين أن يفزعن فى يوم الحرب والنزال الى أصوات صيحات الفرسان مع أنهن حريات بذلك.

٢٢٣ــ زرق الا قواس: ذوات الحديد الضارب للزرقة لشدة صلابته وقساوته و يعني نبال الأقواس.

يكرر نفس الشكوى إلا أنها هذه المرة على الأقواس والنبال التى يتصور أنها ستتوقف عن الطعان أثناء الحرب وهى بأيدى أولئك الأبطال المغاو ير.

٢٢٤ــ النصايب: علامات القبر واحدة توضح فوق موضع رأس الميت والأخرى فوق موضع قدميه كإشارة عن مقدار طول جسمه.

و يذهب الشاعر إلى حد اللامعقول حيث لو قدم شكواه تلك إلى ميت تحت جدثه لنفض التراب عن نفسه وقام من بين علامات قبره بتابع أناته وهذا بالطبع مبالغ فيه مهما كانت الظروف والمسببات إلا بمشيئة الله.

٢٢٥ــ حكى: كلام، الكنين: المكنون من الأسرار.

و يقول الشاعر أنه رغم هذه الشكاوى فلقد فاتته إبنة عمه بسبب كلام الأنجاس الذين دسوا له ولزوجته هذه التهمة التى سببت فراقها وعند ذلك باح مايكنه من السد وأصبح أمره مكشوفا للجميع.

٢٢٦ــ محاربها: مكان وجودها، الأرماس: المسافات البعيدة، عيت: أبت، شطون: آلام، ترجهنى: تهدأ.

يقول الشاعر ولقد أصبحت بعيدة عنى كل البعد سواء فى المسافات أو الحصول عليها مرة ثانية ولذلك فإن آمالى وجراحاتى العميقة فى قلبى أبت أن تهدأ وتستريح وتندمل.

٢٢٧ـ تموح: تخرج وهى فصيحة، شماله: أى يمينك وشمالك ترى: إعرف، النشاما: الشباب ذوى الطموح والشهامة الجال: جال البئر الذى تخرج منه الدلاء وهى فصيحة.

يقول الشاعر إذا كان الرجل لايعتمد على نفسه فى تصريف شئونه وانتزاع حقه بيده، واحتلال مكانته بنفسه فإن الرجال ذوى الطموحات سيأخذون منه مايصبو إليه وضرب الدلو وأخراجها من البئر كرمز لبقية شئون الحياة.

٢٢٨ـ الحمرة: نوع مسالم من الطيور بحجم العصفور وتعيش فى البر على حبوب الأعشاب والأشجار، بس: لكن يبغى: يراد منه.

يقول الشاعر إن طائر الحمرة على ضعفها ومسالمتها وقلة إفتراسها وتحصيلها قد أدكت رزق عيالها مما تجمعه من الأعشاب وهذا أقل قدر من التحصيل والإدراك والقعود عن طلب المعالى والإكتفاء بالمعيشة العادية غير أن الرجل لايكتفى بهذا القدر وإنما مطلوب منه الأشياء الأخرى التى تتعدى هذه القناعة بالمعيشة البسيطه، مطلوب منه أمور كثيرة تتعلق بحاضره ومستقبله، مطلوب منه الوصول إلى مراتب أعلى من مستوى معيشة الكفاف حتى يتسنم ذرى المجد والجاه والفخار بين قومه، وهذا البيت مضرب المثل فى كثير من المناسبات.

٢٢٩ـ شرهه: لايقنعها شيئ.

يقول الشاعر أن يده لاتقبل بأى عصا تتخذه ولاترضى إلا بالعصى الممتاز الجيد الذى ترتاح له، وقد رمز الشاعر بالعصا للزوجة فقال إنه لن يأخذ أى إمرأة ويجب أن يبحث عن المرأة التى تملاء عليه قلبه وتسعد حياته.

٢٣٠ـ الدنيا: يقصد الأيام، جوارى: جمع جارية وهى الحادثه، تنومن فلا تأمنها.

يقول الشاعر لاتأمن تقلبات الأيام فإن لها من الحوادث ماتجعلها تبوق بوعدها ولذلك فلا تأمنها إن أعطتك إبتسامة عريضة ووجه ضاحك فى هذا اليوم أن ينقلب عليك وجهها عابسأ مقطبا مكشرة عن أنيابها فى اليوم الثانى ولذلك كن منها على حذر.

شرح معاني بعض الأمثال والجمل الواردة باللهجة العامية

١ ــ **ياطويل العمر:** يامن أتمنى أن يطول عمره.

٢ ــ **تسنعني:** تقضي حاجتي.

٣ ــ **شبحك قريب:** أي نظرتك للأمور قريبة.

٤ ــ **الخرجية:** الهبــة.

٥ ــ **من البئر وإلا تمطر:** لن أذهب إلا بما أتيت من أجله إما من البئرأ والمطر.

٦ ــ **اللحواة الغانمة:** كناية عن أصحاب اللحى الكريمة.

٧ ــ **واحلولاه ياولدى:** ياليت ولدى عندى.

٨ ــ **ياحافظ ياعقايل الله:** أى أن ماحفظه الله فهو المحفوظ.

٩ ــ **الرخم دخل البيوت:** أى أن أضعف الناس إنتهك حرمة البيت.

١٠ــ **ثبت ياصياح:** أى حدد لنا المفزع ومكان الفزع.

١١ــ **لاأحد يُفَوِّت:** لايفعل شيئا حتى نتثبت من الأمر.

١٢ــ **ياخلف من غدالي:** أى أنت العوض بكل من ذهب لي من الأحباب.

١٣ــ **يابعد الحي والميت:** أى أفديك بكل مالي من الأحباب حيهم وميتهم.

١٤ــ **يابعد عمرى:** أفديك بروحى وعمرى.

١٥ــ **ماوجع إلا وجع الضرس ولاهم الا هم العرس:** أي لايوجد ألم كألم الضرس، ولاهم كهم الزواج.

١٦ــ **غالي والطلب رخيص:** أي أنك لدي غالياً ولذلك يرخص طلبك مهما كان.

١٧ــ **الورع:** الصبي الصغير.

١٨ــ **بعد حيي وميتى:** يجعل كل عصبته وقرابته الأحياء والأموات فداء له.

١٩ــ **منهن من تسوى ثمانين بكره ـ ومنهن ماتسوى عقال قعود، ومنهن جنات تدارج نهوره ومنهن نيران بليا وقود.**

يقصد بذلك النساء فنهن من تساوى قيمتها المعنوية والمادية ثمانين ناقة بكراً وهو مبلغ ضخم جداً فى مقياس من قال القول فى زمنه، ومنهن من لاتسوى عقال القعود وهو الصغير من ذكور الإبل والعقال هو الحبل الذى يعقل

به البعير مع يده وهو بارك حتى لايقوم من مكانه لذلك زهد فى هذا الحبل الرخيص جداً، ومنهن جنات تجرى أنهارها بما عليها من الأشجار والثمار والطيور الصادحة فى ظلها الظليل وهوائها العليل ومائها السلسبيل، ومنهن كأنها النيران التى التهمت وقودها و بدأت تتلظى طالبة المز يد من الحطب تتراقص ألسنتها يمينا وشمالاً يصل حرصلوها إلى مسافة بعيدة.

٢٠ــ **أنا أخو فلانة:** يعتزى العربى بأخته أو إبنه أو أبيه إذا أحس بالضيم وقد يصاحب هذا الإعتزاء فعل الخوارق.

٢١ــ **موتة عين جدى:** أى جعله الله يموت كمامات جدى.

٢٢ــ **شربه البرد:** أى تشرب جسمه بالبرد.

٢٣ــ **مُعَزِّبْ:** رب العمل، أو المضيف للوافدين.

٢٤ــ **سَمْ:** إختصاراً لجملة سمعاً وطاعة.

٢٥ــ **سنة الرحمة:** تعنى الوباء العام كالطاعون وغيره وتسمى مجازاً بالرحمة لربما لكثرة من ينتقل بسببها إلى رحمة ربه.

٢٦ــ **أوخذ ياماُخود:** أى جعلك الله للأعداء الذين يأخذون مامعك، وهى دعوة.

٢٧ــ **عزى لمن أنت خويه:** أى واعزتا لمن تكون رفيق سفره.

٢٨ــ **المأخوذة:** تدل هذه الكلمة على التضايق من الشئ و يتمنى لو يأخذه الأعداء.

٢٩ــ **العلياء:** لقب يطلق على الإبل.

٣٠ــ **نجد يسلى عن عثاها عذاها:** وهذا شطر من بيت وهو:

نجد يسلى عن غثاها عذاها لوهى مقر إبليس في بع الأذكار
نركض ومن صاد الجرادة شواها وللنار من عقب من المال دينار

ومعنى الشطر الأول: أن نجد يسلينا عن المصاعب وضنك الرزق فيها طيب هوائها ورقراق مائها وثياب الربيع التى تزدهى بها، أما قوله فى الشطر الثانى من البيت الأول فاستناداً إلى الرواية التى تقول أن إبليس قد جاء يوماً الى دار الندوة عندما اجتمعت قريش للتأمر على الرسول صلى الله عليه وسلم بهيئة شيخ مهيب وعندما سألوه من أنت قال: أنا الشيخ النجدي أما البيت الثاني فمعناه أننا نكافح ونكدح في هذه البقعة المحببة إلى نفوسنا وأي رزق حصلنا عليه أكلناه في حينه وقدمنا منه لضيوفنا وقاصدينا ولم ندخر منه شيئاً للورثة من بعدنا.

٣١ــ **هذه هقوتى فيك:** أملى وعشمى فيك.

٣٢ــ **واعطاك الضربة اللى تضربك:** تدعو عليه بالضربة القاضية للإجهاز على حياته.

٣٣ــ **إحلب لبن لومن جمل:** و بالطبع لايوجد اللبن فى الجمل وتلبية هذا الطلب ضرب من المستحيل.

٣٤ــ **الحنينية :** خليط من خبز البر المشوى على الصباح أو داخل النار مع السمن البرى والتمر وتؤكل في الأيام الباردة.

٣٥ــ **الثريدة:** خبز البر مع السمن البرى.

٣٦ــ **تحت رأس المشعاب:** يعنى بالقوة.

٣٧ــ **يطرف عينه بيمينه:** يصيبها بيده.

٣٨ــ **العدولة:** جزء من المال يضعه الرجل عند الآخر لينميه له و يكون بينها بالمناصفة.

٣٩ــ **يامل حزن يروهك حجر:** يدعو عليه بالحزن والذى يعطف عليه قلبه من حجر، و بذلك يفقد كل أمل له بالحياة.

٤٠ــ **حلفاء دم ولزم:** أى نقوم بالدية سويا وأى دم على أحدنا يكون علينا معاً سواء بالدية أو القود ونلتزم بهذا التزاما كاملاً.

٤١ــ **ندى مداك ونجلى مجلاك:** أى أسوق الدية التى عليك مثلما أدفعها عن نفسى، وأنزل حيث تنزل وأرحل حيث ترحل وكذا تفعل أنت.

٤٢ــ **ياما تحت السواهى من دواهى:** أى يامالدى الإنسان الصامت من أشياء قد يعجز الفصيح عن الإتيان بمثلها.

٤٣ــ **كلنا أهل قرية وكل يعرف أخيه:** أى كلنا أهل قرية واحدة صغيرة لايخفى على أحد منا شيئ مما لدى جاره.

٤٤ــ **ذهب ومذهب:** أى أنها من محتد طيب ولذلك فستكون سيرتها طيبة كذلك.

٤٥ــ **وش العصفور وش مرقته:** أى ماهو جسم العصفور إنه صغير الحجم حتى يرتجى طابخه أن يرتشف منه مرقا.

٤٦ــ **كالطائر على طرف العسيب:** أى شخص غير مستقر.

٤٧ــ **دغم الكرب:** هى النخل وهى كناية عن النخل إذا كان رياناً أصبحت كربه وهى جذوع الجريد بنية داكنه.
٤٨ــ **هل أتحزم بك:** أى أعتمد عليك.
٤٩ــ تحزم بى إلى الأبط: أى إعتمد عليّ إلى أبعد حد.
٥٠ــ **باسم ربى عليك:** أى أعيذك بربى من كل سوء.
٥١ــ **واحرز يحوطك:** أى أطلب الله أن يحيطك بحرز من عنده يمنع عنك كل سوء ومكروه.
٥٢ــ **«الصعو» «والزغابر»:** نوعان من الطيور الصغيرة يصيدها الصبية فى أوقات حصاد الزرع.
٥٣ــ **هسة البسة على أكل الوشيق:** أى تعودت القطة على أكل اللحم المقدد والمملح، وهى كناية عن حصول المرء على لقمة سائغة اليوم قد لا تتوفر له دائماً.
٥٤ــ **ليس فيه مص عظم:** أى لافائدة ترجى منه.
٥٥ــ **الآن رد يابناخى بولان:** أى لقد جاء من لاتستطيع مضايقته أو تحديه فهو أجدر منك وأكفأ.
٥٦ــ **الرجال مُعَزِّمْ:** أى عازم على مافى نفسه.
٥٧ــ **تف على هالوجه:** يرافق هذه الجمله تفلة من الفم بتفال أو بدون وهى تعنى تقبيح الخصم واحتقاره والطلب منه أن يسكت.
٥٨ــ **تهفى أصلنا:** أى تضيعه.
٥٩ــ **العروس تبى فلوس:** أى العروس تحتاج إلى دراهم.
٦٠ــ **شليل دراهم:** الشليل هو مقدمة أسفل الثوب وعادة إذا كان الشيئ لا تستوعبه كفّا الإنسان جعله بمقدمة أسفل ثوبه وأمسك بأطرافه وأحضره.
٦١ــ **برق عاديك:** لا تستخيله لياصار ماترجى سوارحك ترعاه أى أن أي أمر لا ترجو منه نفعاً فلا تشغل نفسك بمراقبته ومتابعته.
٦٢ــ **إن لقحت وإلا ماضرها الجمل:** أى إن لم تحصل فائدة فليس هناك مضرة من هذا الأمر.

٦٣ــ **الرمح على أول ركزة:** أى أن الأمرتتبين بوادره من أول وهلة إن كانت خيراً أو شراً.

٦٤ــ **يجذب:** يؤثر فيه عامل الوراثه.

٦٥ــ **شيئ ترجيه ولاشئ تأكله:** أى شيئ سيأتى إليك فى المستقبل أفضل لك من شئ تأكله الآن.

٦٦ــ **بيض الله سوّد الله:** أى بيَّض الله وجه فلان للجميل الذى أسداه إلىّ أو سود الله وجه فلان للإساءة التى رماها علىَّ.

٦٧ــ **شيفة عنيفة:** أى شديدة القبح حتى لا تستطيع النظر إليها.

٦٨ــ **إمحق سعد:** أى محق الله سعداً كهذا.

٦٩ــ **من جاب من قوم تحلى وجيهه ومن جث من خَولّقى الطلع مابه:**

و يعنى هذا المثل أن من جاء بقوم على مسئوليته وتحت تصرفه فعليه أن يتدبر أمرهـم و يصرفهـم بمايراه يعود عليه بالمنفعه وستكون منفعتهم له بقدر مسئوليته وتصريفه لهم ومن بذر رزعاً أو غرس من شتله أوفسيلة فسوف يجنى ثمار تلك الغرسة إن عنبا أو حنظلاً.

٧٠ــ **الكديشات:** الخيول المهجنة.

٧١ــ **إلقمه العنان و يلقم يدى:** أى أدفع إليه بالأمر الصائب فيتركه و يأخذ بغيره.

٧٢ــ **أعقب ياولد الشيفة:** لتكن مخذولا ومنبوذا ياابن القبيحة.

٧٣ــ **إمحق مزاح:** أى محق الله مزاحا كهذا.

٧٤ــ **عليك أن تلمس رأس أهو عليك أم لا:** أى عليك أن تتحقق من الأمر جيداً.

٧٥ــ **ضربنى وبكى وسبقنى وأشتكى:** أى أساء إلى واتهمنى بالإساءة وسبقنى واشتكانى إلى غيره.

٧٦ــ **غرض روق:** أى الشيئ الذى يوافق رغبتى.

٧٧ــ **على منكس قرونه:** أن منكس الرأس نادماً.

٧٨ــ **إهَّهْ:** كلمة تصحب قيام المتثاقل ببطء.

٧٩ــ **الرخم دخل البيوت:** الرخم من بغاث الطير وضعيف الطيور الجارحه حيث

تتواجد دائماً حول الجيف و يشبه بها ضعاف الناس ومعناه أن أضعف الناس انتهك حرمات البيوت.

٨٠ــ **حلاَّل يحل ركبك:** أى إبتلاك الله بمرض يحل ركبك.

٨١ــ **نجرهاً نجار الشباب:** أى دَبَّتْ فيها روح الشباب.

٨٢ــ **بس شل علي:** أى إحمل علي.

٨٣ــ **خلق وفرق:** أى خلق الجميل والقبيح وفرق بينهما.

٨٤ــ **زمة شبابها:** أى عنفوان شبابها.

٨٥ــ **عَانِيْه يَمَّه:** أى أنظرى إليه ياأماه. وأصله عاينيه ياأماه فاختصرت إلى «عانيه يمه».

٨٦ــ **لوكانت ذبيحة ماعشتك:** أى أن مقدارك عندنا عظيم ولو كانت ذبيحة لما قدمناها لك عشاءاً.

٨٧ــ **وَلْ:** أى إذهب إلى غير رجعة، أو إخسأ.

٨٨ــ **يابعد عمرى:** أى أفديك بعمرى.

٨٩ــ **أفا:** كلمة عتاب وتأفف.

٩٠ــ **هذا بلى أبوك ياعقاب:** أي هذا السبب المؤثر فى أبيك ياعقاب.

٩١ــ **ضيق العين:** الذى لايحب أحداً يأتى إلى بيته لتناول الطعام أو حتى لمجرد الجلوس و يفضل الوحدة على تواجد الناس.

٩٢ــ **كبار البطون وساع الركون:** أى الناس الشرهين فى الأكل والركن هو الجزء الموالى الذى يأكل منه الشخص من إناء الطعام بحيث يبقى مكانا فارغا لما يلتهم من الزاد من ذلك الجزء.

٩٣ــ **بالحيل:** أى التأكيد بقوة.

٩٤ــ **يقوله الذى بالأرض:** أى يقوله الذى بوضع غير الوضع الذى أنا فيه، ويحكى أن رجلاً يدعى سالما إمتطى ظهر بكرة صعبة فندت به و بدأت تجمح وتركض بشدة وهو على ظهرها لايكاد يمسك بشعفة سنامها فرآه شخص آخر وقال له: تمسك حتى لا تسقط فرد عليه سالم بالجملة الموضحة أعلاه وذهبت مثلاً.

٩٥ــ **يابعد عيونى:** أفديك بعيونى.

٩٦ـ **الشمحوط:** الطويل الوسيم
٩٧ـ **بالأمارية:** وعلامته الدالة علية.
٩٨ـ **ماغزيت مع مهنا:** أى لم تجرب الأمور الصعبة.
٩٩ـ **والله لم يبق غيرها:** أى أن الأمر مستحيل تحقيقه.
١٠٠ـ **خط خطين وأمح الثالث:** أى ليس أمامك أى خيار ثالث.
١٠١ـ **هذه اللى ماطار طيره:** جملة تعجب واستنكار وتعنى أنه لعجب أن يحدث مثل هذا الأمر.
١٠٢ـ **نكس ينكس حجلها:** أى أن أمرها مرفوض وهى منكسة الرأس.
١٠٣ـ **لا تمون عليها:** لا تملك التصرف بأمورها.
١٠٤ـ **البِشْتُ:** هى العباءة.
١٠٥ـ **ياعزوتى:** أى من أعتزى به وقت الشدة.
١٠٦ـ **أرى فلاحَلَّة:** جملة تعجب واستغراب.
١٠٧ـ **مايشفيها إلا لحاها:** أى لايقضى حاجة النفس إلا صاحبها.
١٠٨ـ **وش تشتهى:** جملة إستهزاء واستبعاد ومعناها ماذا يحلو لك.
١٠٩ـ **منقع الزين:** أى مركز الجمال.
١١٠ـ **إزهله:** أى إترك أمره لي.
١١١ـ **محزم خوص:** الحزام مايتحزم به ومحزم الخوص إذا إبتل بالماء إشتدوا إذا جف استرخى ويكنى به عن الرجل الذى لايثبت على حالة واحدة ولاتركن إليه بأمر من الأمور.
١١٢ـ **محزم ليف:** على عكس سابقه فهو لايتغير ويكنى عن الرجل الذى تعتمد عليه فى أمر من الأمور.
١١٣ـ **وَلّعْها بالشيح وقبلها الريح:** الشيح شجر برى طيب الرائحة وله أغصان رفيعة يجف فى فصل الصيف وأوائل الخريف وشجيراته قابلة للاشتعال بأقل نار ولذلك يضرب فيه المثل للخبر سريع الإنتشار.
١١٤ـ **ولايهمك:** أى أترك هذا الأمر ولاتهتم به.
١١٥ـ **فات الفوت وانقطع الصوت:** أى قضى الأمر وانتهى.

١١٦ـ **يأتيك الغزيل و يسقيك:** هذا المثل هو جزء من بيت يقول:

تُـمَـتِّـهْ بـنـا يـازيـد تـبـغـى بـه أفـلاك   تـقـول يـأتـيـك الـغـزيـل ويـسـقـيـك

و يضرب المثل للتضليل الوعود غير المحققة.

١١٧ـ **لن أزيد الملح إلا ملاحاً:** أي لن أضيف للأمور الا تسهيلاً.

١١٨ـ **الصحيبة:** هى التى تعيش فى بيتها و يقوم الزوج بنفقتها.

١١٩ـ **حمولة طيبة:** أى عائله طيبة.

١٢٠ـ **جرد البريسم ولاجديد القطن:** الجرد هو المستعمل لمدة طويلة والبريسم هو الحرير، و يعنى المثل أن ثوب الحرير الذى خدم مدة طوية أمتن وأزهى من ثوب القطن الجديد و يكنى به عن المرأة.

١٢١ـ **المرودن:** هو ثوب فضفاض أبيض له أردان طويله يلبسه الشباب.

١٢٢ـ **النَّذْخ:** هو الظهور أمام الآخرين بملابس وهندام ممتاز وابراز محاسنه ليلفت أنظار الناس إليه وخاصة من يعينهم أمره.

١٢٣ـ **مقرود:** أى سَيِّئ الحظ.

١٢٤ـ **شعرتى بيضاء:** واضح أمرى للناس.

١٢٥ـ **أنت بحوض والماء بحوض:** أى أن رزقك نزراً يسيراً لايكاد يكفيك.

١٢٦ـ **ياكلون المتلاصقات:** أى فى رغد من العيش.

١٢٧ـ **تنولها حبالى:** أي أستطيع الحصول عليها.

١٢٨ـ **أنالك والشر لاينالك:** أى أننى سأقف بجانبك بكل ثقلي.

١٢٩ـ **ركد رميه:** أي إستقر على رأى معين.

١٣٠ـ **إستغلها بالمليان:** كناية عن أنتهاز الفرصة وأخذ كامل مايستطيع أخذه منها

قائمة المراجـــع

١ - من شيم الملك عبدالعزيز
تأليف : فهد المـــارك
ط١، ١٣٨٨هـ.

٢ - خير مايلتقط من أشعار النبط
تأليف : عبدالله خالد الحاتم
نشر دار ذات السلاسل.

٣ - من نوادر الأشعـــار
تأليف : سعود الصقرى
ط١، ١٤٠١هـ.

٤ - من آدابنا الشعبية الجزء الأول
تأليف : منديل محمد الفهيد
ط٢، ١٤٠١هـ.

فهرس الموضوعات

وموجز القصة قد لايتجاوز خمسة أسطر وبقية الحوار بتصرف من الرسم الموقف وإيجاد الظروف الملائمة للقصة ليدرك القارىء الوضع الذي حدثت فيه حتى يعرف قيمة الحدث.